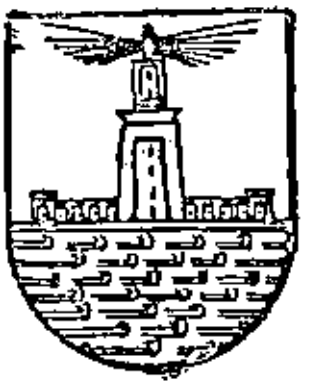

جامعة الاسكندرية

مجلة

كلية الآداب

العدد الخمسون
١٩٩٩ / ٢٠٠٠ م

المجلد الأول

مؤتمر الاسكندرية الدولى الثانى
للتبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط
تاريخ المؤتمر : ١٥/١/١٩٩٦

رئيس المؤتمر

الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

أمين المؤتمر
الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم

أمين عام المؤتمر
الأستاذ الدكتور فاروق أباظه

يتضمن هذا المجلد

بحوث مؤتمر الاسكندرية الدولى الثانى
للتبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط
المنعقد بقاعة المؤتمرات
فى الفترة من ١٥ / ١ إلى ١٩ / ١ / ١٩٩٦
والبحوث مرتبة طبقا لجلسات المؤتمر

ويتضمن المجلد الثانى بحوث مؤتمر الاسكندرية الدولى الثالث
للتبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط
المنعقد بقاعة المؤتمرات فى الفترة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨م

تصدر «مجلة كلية الآداب» وإصداراتها محكمة عن كلية الآداب بجامعة الإسكندرية وتقدم مخطوطات البحوث مكتوبة على الكمبيوتر من ثلاث نسخ. ويجب ألا يزيد عدد صفحات البحث على ثمان وأربعين صفحة من القطع المتوسط مكتوبة على الكمبيوتر.

تقدم البحوث وتكون جميع المراسلات باسم :
الاستاذ الدكتور عثمان سليمان مواهى
وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث ورئيس تحرير مجلة كلية الآداب
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
الشاطبى - الاسكندرية
جمهورية مصر العربية

مجلة كلية الآداب
مجلس التحرير

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور عثمان سليمان مواطى

أعضاء مجلس التحرير
١٩٩٩ - ٢٠٠٠

أ.د. فوزى سعد عيسى
أ.د. أميرة نويرة
أ.د. ضحى شيحة
أ.د. حمدى عبد المنعم
أ.د. فايز العيسوى
أ.د. راوية عبد المنعم
أ.د. السيد عبد العاطى
أ.د. محمد عباس
أ.د. عزت قادوس
أ.د. سهام القارح
أ.د. مايسة النبيال
د. جمال الخولى

المحتويات

الموضوع	صفحة رقم
صورة فريدة للاسكندر الاكبر مرسومة على وعاء فخارى من مجموعة خاصة .	
د. عنايات محمد أحمد	١
منار الاسكندرية في رؤية بعض الرحالة المغاربة	
أ.د. السيد عبد العزيز سالم	٢٩
تخطيط ومواقع الاسكندرية القديمة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى	
د. محمد عبد الحميد الحناوى	٤١
الموضوعية والامانة فى وصف الرحالة الأجانب للاسكندرية فى العصور الوسطى	
د. سهير محمد إبراهيم نعينع	٧٣
تأثير الثقافة اليونانية فى مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية بالاسكندرية	
د. يسرى دعبس	١٢٣
صور من مظاهر الحضارة المتشابهة بين مدينتى الاسكندرية ورباط الفتح	
د. سحر السيد عبد العزيز سالم	١٨٧
رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى	
د. فكرية مصطفى صالح	٢٤٣
قانون كرك اللا ومذبحة الاسكندرية (خريف عام ٢١٥م) وتبرئة كرك اللا أنه كان ضد الشعب المصرى صاحب الأرض	
د. محمد بهجت قبيس	٢٥٧

الزواج السياسى فى مصر الهللينستية من عصر الاسكندر الأكبر حتى نهاية دولة البطالمة
د. هابيل فهمى عبد الملك ٢٨٥
الأسواق التقليدية بمدينة الاسكندرية
دراسة فى الأنثروبولوجيا الاقتصادية
د. فاتن على عبد الرحمن ٣١٧
الاتصالات الثقافية بين مصر واليونان
دراسة فى الأنثروبولوجيا المجتمعات القديمة
د. مصطفى عمر حمادة ٤١٥
دور علم النفس فى معالجة المجتمع
الجريمة بصفة خاصة
د. عبد الفتاح محمد دويدار ٤٦٥
أثر العادات والمعتقدات الغذائية على النمو فى مرحلة الطفولة المبكرة
دراسة انثروبولوجية
د. هندومة محمد أنور حامد ٥٠٩
تحول المجتمع السكندرى من اللغة اليونانية واللغات الأخرى إلى اللغة العربية فى ظل الفتح العربى
إبراهيم إبراهيم عنانى ٥٥٣
العمارة الهلنستيه فى الأردن
د. زيدون المحيسن ٥٦٥

Alexandria the Great in the Jewish Sources Avihai Shivtiel Leeds University Great Britain
Introduction 1

The Tomb of Alexandria-New Evidences and Hypotheses
Nicola Bonacasa 17
Research Centre for Greek and Roman Antiquity
National Hellenic Research Foundation
Macedonian Presence in Alexandria
Argyro B. Talaki 51
The City of Helice A Part of a Sunken Greek History
Hussein A, El Sheikh, Ph.D. Alex. Univ. 69
Alexandrian Implications In Tibullus 1.1
Magda A. El-Nowieemy 83
Alexandre Le Grand et l'environnement : une Proposition Sur Les Moyens de Reconstitution.
Prof. Dr. L. Karali
Prof of Environmental Arch. 107
A Granite Head of Alexander the Great from Alexandria
By Dr. Baheia Shahin 123

صورة فريدة للإسكندر الاكبر مرسومة على وعاء فخارى من مجموعة خاصة

بحث مقدم من الدكتورة

عنايات محمد أحمد

صورة فريدة للإسكندر الاكبر مرسومة على وعاء فخارى من مجموعة خاصة

رُسمت رأس ملكية للإسكندر الأكبر - ليس لها مثيل فى الأعمال الفنية الأخرى (شكل «١») على وعاء فخارى عبارة عن طبق مقعر القاعدة شكل الوعاء من مادة الفخار المغطى بطبقة زجاجية رقيقة باللون الأبيض العاجى[١]. يبلغ قطر الأناء ٢٢.٥ سم أما أرتفاعه فيبلغ ٢ سم.

يتميز الإناء بتناسق تكويناته حيث تم تقسيمه بواسطة خطوط هندسية زخرفية[٢] إلى ثلاث دوائر مختلفة المساحات، تشغل الدائرة الأولى قاع الإناء أما أسلوب الزخرفة فهو عبارة عن خطين يداخلهما مربعات صغيرة بداخل كل واحد منها مربع صغير تم تظليله باللون البنى الضارب للسواد يتصل كل مربع بالأخر عن طريق خط صغير رفيع وهذا النمط من الزخرفة انتشر بكثرة على الأوانى الأثينية والأتيكية فى العصر الهندسى[٣] (١٠٠٠-٧٠٠ق.م.) وظل يستخدم حتى العصر الرومانى.

تشغل الدائرة الثانية المساحة الواقعة بين قاع الإناء وحافة الإناء أى أرتفاع الإناء البالغ ٢ سم ويحدها خط زخرفى عبارة عن خطوط هندسية متداخلة بداخلها مستطيلات يتخلل كل واحد منها مستطيل آخر صغير تم تظليله كلية باللون البني الضارب للسواد ولقد اشتهرت كل من أثينا وأتيكا بهذا النمط من الزخارف الهندسية[٤] خلال العصر الهندسى وما تلاه من عصور.

وتُشكل الدائرة الثالثة حافة الإناء المسطحة حيث يحدها على حافة الإناء الخارجية إفريز زخرفى هندسى على هيئة الأفريز السابق. ويشغل قاع الإناء – الذى يشكل الدائرة الداخلية – صورة شخصية لرأس ملكية، ورسمت باللون البنى الضارب إلى السواد أيضا. وصُورت الرأس فى وضع جانبى (بروفيل) متجها ناحية اليسار، وأمامها نقش باليونانية ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΣ (الإسكندر) وخلفها كلمة ΟΜΕΤΑΣ (الاكبر) وبذلك أمكن التعرف على هوية الشخصية المصورة وهى الإسكندر الأكبر .

يذكرنا تنفيذ رسم هذه الصورة بالصور التى رسمها رسام الإسكندر الأكبر Apples [٥] والتى أخبرنا عنها بلينى Pliny [٦] . وتذكرنا أيضا بالأعمال التى نفذها النحات ليسبوس Lysippos للإسكندر الأكبر والتى تظهر تشابها كبيراً فى محاكاة الرقبة المستديرة والنظرة الفياضة المعبرة لعين الإسكندر الأكبر كما وصفها بلوتارك Plutarch، وربما تكون انعكاس لتلك الطرز التى نفذها كل من ليسبوس فى الأعمال النحتية وأبليس فى الرسم.

وتظهر الصورة (شكل «٢») الإسكندر فى وضع متزن للغاية حيث يتجه الرأس ناحية اليسار، وتبدو على الوجه المثالية والدماثة، الشفاه منفرجة قليلا وتتخذ شكل المنجل ومثقوبة عند الأركان، ترسم عليها أبتسامة صغيرة، الأنف طويلة بصلية الشكل، العين حالمة تتجه بنظراتها إلى أعلى، الذقن بارزة حليقة أسوة بالآلهة والأبطال الشباب مثل ديونيسوس، هرقل وأخيليس. أما الشعر الطويل الأسدى الطراز – الذى يميز هذه الرأس –

وهو من السمات التى ميزت أشكال الإسكندر الأكبر البطولية، فلم يظهر منه سوى خصلة فوق الأذن اليمنى منسدلة على الرقبة وتتخذ شكلا لولبيا من أسفل واختفى بقية الشعر تحت الخوذة فيما عدا خصلات من الشعر تتدلي أسفل الرقبة وتتدلي على الكتف فى تموجات لولبية.

يرتدى الإسكندر على رأسه خوذة من الطراز الأتيكى عبارة عن غطاء رأس مستدير لها ثلاث من الأفاريز إلقائمة من الأمام وتنتهى أعلى الأذن على شكل لولبى Volutes تاركة الأذنين عاريتين ومزودة خلف الرقبة بواق يتخذ شكل زخرفى عبارة عن مربعات صغيرة متتالية ربما كانت هذه نوع من المفصلات التى يمكن بواسطتها نزع هذا الواقى فى زمن السلم. ولقد رسمت على الجانب الأيمن وسط الخوذة جريفون Griffon يبدو كأنه ينطلق للأمام ويزين أعلى الخوذة ثلاث عروف حيوانية.

هذه الخوذة التى يرتديها الإسكندر الأكبر على رأسه خاصة بالمعبودة اثينا المحاربة Athena Promachos حيث صورت وهى ترتديها فوق رأسها التى تظهرها كإلهة للحرب (٨) .

رُسمت أسفل صورة الإسكندر الأكبر مباشرة صاعقة زيوس فى وضع أفقى. وتعد هذه الصاعقة أولى الانتسابات الإلهية التى أتخذها الإسكندر الأكبر مخصصا له، ليس فقط باعتباره ابن للمعبود زيوس بل للقوة الممثلة لزيوس ذاته على الأرض، وهى النظرية التى اتبعها كل من أبليس وليسبوس فى تنفيذ أعمالهم الخاصة بالإسكندر الأكبر. ويؤكد ذلك تلك الصورة التى نفذها أبليس للإسكندر الأكبر لتكون طبق الأصل لتمثال

زيوس Zeus Keraunophoros الذى قام بعمله النحات فيدياس Pheidias والمقام فى معبد زيوس بأولمبيا [٩] Olympia، استبدل فيها أبليس رأس زيوس برأس الإسكندر ووضعت فى معبد أرتميس Artemis فى إفسوس Ephsos لتأكيد صفة الإسكندر الإلهية وأضفاء قوة زيوس عليه [١٠] . وهكذا فإن أشكال الإسكندر تكاد أن تعلن «انظر إلى زيوس، لقد وضعت الأرض تحت سيطرتى، أما أنت فقد أحتفظت بحبل أولمب».

الدائرة الوسطى والتى تشكل أرتفاع الوعاء تقريبا (٢سم) لا تحتوى على أية رسومات لصور شخصية أو رموز إلهية وحربية وأنما تركت خالية تماماً.

أما الدائرة الثالثة والتى تشكل الحافة الخارجية للوعاء فهى تشتمل على مجموعة من الصور الشخصية والانتسابات الإلهية والأدوات الحربية. فى منتصف المساحة الداخلية للدائرة من أعلى وفوق رأس الإسكندر الأكبر مباشرة رسم رأسان لرجل وامرأة، الرجل يظهر منه الوجه فقط، أما المرأة فقد صورت بشكل نصفى Bust، صور وجه الرجل بالمواجهة (فى مواجهة المشاهد) الوجه مستدير، له لحية خفيفة، وتغطى ذقنه جزء من جبهة المرأة المصورة أسفل بالمواجهة أيضا.

هاتان الصورتان الشخصيتان لا يوجد نقش يؤكد هويتهما ولا يحملان علامات ملكية يمكن من خلالها التعرف على شخصيتهما ولكن النقش الذى يحيط بهما ربما يساعد على التعرف عليهما، فهو عبارة عن دعاء بالمؤازرة لشخصية هامة لابد أنها الإسكندر الأكبر، ولابد أن مقدمى

الدعاء هما والدى الإسكندر الأكبر فيليب وأولمبياس ونص الدعاء كالآتى ΣΫΝ ΑΘ HNA KAI ΞΕΙΠΑ KINEI وترجمته «معك أثينا تشد أزرك» (شكل ٣). والمعروف أن فيليب كان يصور ملتحيا[١١] على غرار موضة عصره على عكس ابنه الإسكندر، الذى أبدى رغبته فى أن يكون أكثر شبابا ووسامة فكان يصور حليق الذقن ولقد تشبه به خلفاؤه حتى المتقدمون منهم فى السن.

عند نهاية خصلات الشعر المنسدلة على كتف المرأة رسم فرع من ورق الغار على كل جانب متخذا الشكل النصف دائرى ويكمله الفرع الموجود على الجانب الآخر مكونا ما يشبه الدائرة حول كل من الرجل والمرأة. والمعروف أن غصن الزيتون هو أحد انتسابات المعبودة أثينا[١٢] . باعتبارها طبقا للأساطير اليونانية القديمة أول من ابتدعت زراعة الزيتون فى اليونان حيث أدخلت زراعة شجرة الزيتون فى أتيكا.

رسمت صورة شخصية ملكية على يمين صورتى الرجل والمرأة وعلى بعد مسافة قصيرة فارغة أمكن التعرف على هويتها من خلال النقش المحاط بها من أعلى والذى سُجل باليونانية أيضا داخل ما يشبه شريط ذو نهايات مطوية ويشير إلى أن صاحب الصورة هو سليوكس ΣΕΛΥΚΟS (شكل ٤) : الصورة توضح سليوكس بعد أن أتخذ اللقب الملكى إذ أنه يرتدى العصابة الملكية DIADEM الخاصة بالملوك. ويتجه الملك ورأسه منحنيا تجاه اليسار، الوجه مربع والخدود ممتلئة، تنظر العين لأعلى، الأنف مستقيم به تقوس خفيف، الذقن بارزة بها غور فى المنتصف وحليقة على غرار صور

الإسكندر، الشفاه رقيقة ومنفرجة ولكن يوجد خطوط عند الأركان، وكذلك عند الأركان الخارجية للعين ربما دلالة على تقدم السن فقد أعلن سليوكس نفسه ملكا على سوريا عام ٣٠٦ ق.م. وكان فى الثانية والخمسين من عمره على الرغم من تصويره فى مرحلة الشباب أسوة بالإسكندر. الشعر عبارة عن خصلات غير منتظمة على الجبهة وحول الوجه ويتوج الرأس عصبة[١٣] ملكية عبارة عن شريط مسطح من القماش الأبيض يربط حول الرأس ويعقد من الخلف فى نهايات متدلاة متراخية. وطبقا للأساطير اليونانية فإن ابتكار هذه العصبة ينسب للمعبود ديونيسوس وارتداء الملوك الهلينستية لها يعنى تشبههم بديونيسوس الذى ينسب إليه إسطوريا[١٤] فتح الشرق فهى بالنسبة لهم رمز الإنتصار باعتبارهم هم أيضا فتحوا الشرق صورت خصلات الشعر خلف العصبة على شكل بوكلات كثيفة، أما الرقبة فهى غليظة تتظللها ثنايات ربما نتيجة لاستدارة الرأس قليلا تجاه اليسار. وتتشابه هذه الصورة المرسومة لسليوكس مع كثير من الرؤوس[١٥] المنحوتة والمرسومة لشخصية الملك.

يلى صورة سليوكس وعلى مسافة أخرى صغيرة درع عليه مجموعة من الانتسابات الإلهية وخوذة حربية ربما كانت خاصة بالإسكندر الأكبر أو أحد قواده الذين لم يصوروا هنا لسبب أو لآخر حيث إن هذه الانتسابات التى اتخذها الإسكندر لتؤكد سموه على البشر أصبحت الأساس الشرعى لخلفائه من حكام الممالك الهلنيستية باعتبار أن كل منهم يدعى أنه وريث الإسكندر المزله فقد أظهروا انتماءاتهم لمجموعة الآلهة والأبطال التى نسب

الإسكندر نفسه إليها، كما ظهروا فى مظهر الشباب أسوه بالإسكندر حتى المتقدم منهم فى السن كما سبق وأن رأينا.

الدرع من الطراز المقدونى البيضاوى ΘυρΕος الذى كان يأخذ الشكل البيضاوى الضيق ويُصنع عادة من الجلد ولإعطائه الصلابة كان يحيط بحافته إطار معدنى [١٦] (شكل ٥) يتسلح به الآلهة اليونانية وبصفة خاصة الآلهة أثينا المحاربة. يخرج من أسفل الدرع أغصان الزيتون الخاصة بالمعبودة أثينا وصاعقة زيوس ويوجد فوق الدرع عصا هرقل وشعلة ديونيوس Thyrsus وهما أيضا من الانتسابات الإلهية التى أتخذها الإسكندر الأكبر مخصصا له واعتبرت من الرموز الآلهية الأساسية لخلفائه فهرقل صاحب البطولات الخارقة فى الأساطير اليونانية وابن زيوس فى نفس الوقت. وكما اعتبر الإسكندر الأكبر نفسه ابن زيوس فقد تشبه بهرقل الذى قهر النفوذ البربرى، فى حين أن الإسكندر قهر الأمبراطورية الفارسية وبذلك فإن أعماله البطولية تشبه تلك التى قام بها هرقل ولذا فهو جدير بالألوهية.

ولقد وضعت خوذة حربية من الطراز التراقى [١٧] فوق الدرع. الخوذة مستديرة فى مقدمتها جزء منخفض مثلث الشكل ينتهى على جانبى الرأس بلولبيين وبداخل هذا الشكل المثلث شكل آخر مثلث أيضا ينتهى عند اللولبيين وبداخله ثلاثة من المسامير. وللخوذة واق للوجنتين يعلوها عرف حيوانى.

وعلى مسافة قصيرة من هذه المجموعة من الانتسابات الإلهية

والأدوات الحربية الوقائية رسمت صورة (شكل ٦) لشخصية أخرى من قواد الإسكندر الأكبر الذين حكموا أقاليم إمبراطوريته بعد وفاته Diadochoi. وقد سجل اسم هذه الشخصية باليونانية ΚΑΣΣΑΝΔΡΟΣ داخل شريط يتخذ الشكل النصف دائرى أعلى رأسه مباشرة. الشخصية المرسومة هى كاسندروس الذى حكم مقدونيا فى الفترة من ٣١٩ ق.م. حيث خلف أباه أنتيباتروس Antipater بعد وفاته عام ٣١٩ ق.م. ولابد أن تكون هذه الصورة قد رسمت قبل أن يدبر كاسندروس قتل أولمبياس Olympi-as أم الأسكندر الأكبر عام ٣١٦ ق.م. [١٨]، ولابد أنها نقلت عن صور شخصية رسمها له كبار رسامى العصر الهلينسى إذ يخبرنا بلينى [١٩] Pliny بأن الرسام فليوكسينيوس من أرتريا Philoxenos of Ertria رسم صور شخصية لكاسندروس. تبدو الصورة فى وضع جانبى (بروفيل) Profile متجهة ناحية اليسار، يرتدى فوق رأسه الخوذة الأتيكية ينسدل من أسفلها الشعر الطويل الأسدى الطراز أمام الأذن وعلى الرقبة. الرقبة مستديرة، تتجه العين إلى أعلى، الأنف طويل، الشفاة تنفرج قليلا وبها ثقوب عند الركان والذقن صغيرة. يظهر أعلى الصدر حد العباءة Cloak.

ويلى صورة كاسندروس بمسافة صغيرة مجموعة أخرى مماثلة لسابقتها من الانتسابات الإلهية والأدوات الحربية والتى هى عبارة عن درع مقدونى، صاعقة زيوس، عصا هرقل، شعلة ديونيسوس وخوذة أتيكية الطراز (شكل ٧).

الصورة التالية لهذه المجموعة من الانتسابات والأدوات الحربية

لبطليموس الأول (شكل ٨) الذى كتب اسمه باليونانية داخل شريط ذى نهايات متدلاة ويتخذ الشكل النصف دائرى ΠΤΛΕΜΑΙΟΣ . حيث صور فى وضع جانبى (بروفيل) تظهر ملامح الوجة الشخصية فى منتصف العمر تقريبا والشعر عبارة عن خصلات خفيفة تتسدل على الجبهة وحول الوجنتين وتظهر الخصلات أكثر كثافة فوق الرأس وخلف العصبة الملكية diadem التى تحيط برأسه، وقد عقدت من الخلف بنهايات متدلاة الرقبة غليظة، الذقن كبيرة، الأنف طويلة مسطحة والعين صغيرة. تجمع الصورة بين المثالية والواقعية فى وقت واحد على نمط صور الحكام فى تلك الوقت. وبالرغم من كبر سن بطليموس الأول إلا أنه يبدو كما هو الحال فى كثير من الرؤوس الممثلة له أصغر بكثير من سنه الحقيقى حيث توج ملكا على مصر وهو فى الستين من عمره فى سنة ٣٠٥ ق.م.(٢٠) .

وتتكرر نفس الانتسابات الإلهية والأدوات الحربية للمرة الثالثة إذ أن الرسام قام برسم صورة لأحد حكام الممالك الهلينسية ثم كرر رسم نفس المجموعة ربما لملأ فراغات حتى لا تكون المسافة كبيرة بين الصورة والأخرى وربما بهدف معين كان يقصده الرسام.

الشخصية الأخيرة التى صورت على هذا الإناء هى صورة أنتيجونوس والتى أمكن التعرف عليها ايضاً من خلال الاسم المسجل أعلاها داخل شريط ذى نهايات مطوية ويتخذ الشكل النصف دائرى ANTIΓONOΣ . ويبدو أن بعض الحكام آثروا الظهور بالمظهر الحربى إذ أنه بالرغم من أن أنتيجونوس أعلن نفسه ملكاً على آسيا الصغرى عام

٣٠٦ ق.م. وارتدى العصبة الملكية diadem [٢١] قبل منافسيه من قواد الإسكندر الأكبر سليوكس وبطليموس وليسماخوس الذين أعلنوا أنفسهم ملوك بعده بفترة قصيرة[٢٢] . ويستبعد أن تكون هذه الصورة قد رسمت له قبل اتخاذه لقب ملك حيث إن كلا من سليوكس وبطليموس يظهران هنا، كما سبق وأن رأينا، على هذا الإناء بالعصبة الملكية. على أية حال فإن أنتيجونوس يبدو على هذه الصورة مؤلها كما سنوضح فيما بعد.

صور أنتيجونوس فى وضع جانبى (بروفيل) Profile، الوجة مربع، الأنف طويل أفطس، الشفاه منفرجة قليلا، الرقبة طويلة وتظهر بوضوح (تفاحة آدم)، العين مستديرة، الحواجب مقوسة على نمط حواجب هرقل، تغطى الجبهة خوذة من الطراز المقدونى الهلينسى ينسدل من أسفلها الشعر على الكتف فى شكل خصلات ممووجة وكذلك حول الوجة. الخوذة محكمة على الرأس لها كاب مثلث الشكل من الأمام وواق للعنق من الخلف، يقبع أعلى الخوذة أسد وهو رمز هرقل، وخلف الخوذة رسم المعبود بان Pan إله الرعى[٢٣] .

ومن المعروف أن الإسكندر وخلفاءه كانوا يعتبرون أنفسهم من نسل الإله هرقل ولذلك اتخذوا من انتسابات هذا الإله البطل مخصصات لهم. ومن الجدير بالذكر أن نفس الشكل القابع للأسد [٢٤] . له مثيل على مقبرة تذكارية فى آسيا الصغرى (كنيدوس) Cnidus أطلق عليها مقبرة الأسد يعتقد أنها تمجد معركة بحرية ونحن نعرف أن أنتيجونوس قد خاض معركة بحرية انتصر فيها واتخذ بعدها اللقب الملكى[٢٥] . زخرف خلف الخوذة –

كما سبق وأن ذكرنا – برأس للمعبود بان Pan الذى يعتبر الإله الراعى للأسرة الأنتيجونية حيث أسسوا عيداً رسميا لهذا الإله فى ديلوس Delos[٢٦] . ارتبط بان بالحرب [٢٧] فقد كان يبعث الرعب فى نفس العدو، وينذره بالفزع الفجائى المستمر من اسمه «بانك» بمعنى الفزع. كما أن تاسيس مملكة مقدونيا يعزو أسطوريا إلى ذلك الإله[٢٨] . ويحدثنا كل من هيرونوت[٢٩] وبلينى[٣٠] بأن الإسكندر وخلفاءه اتخذوا الإله بان الراعى لهم لمساعدتهم فى الحرب ضد الفرس عام ٤٨٠ ق.م. كما صور الإسكندر الأكبر يرافقه المعبود بان. وجدير بالذكر أيضا أن الإله بان كان يربط بينه وبين الإله ديونيسوس رابطة قوية فطبقا للأساطير اليونانية القديمة فقد كان لبان خبرة فى خدمة ديونيسوس إذ كان رفيق طفولته وسار هناك ارتباط بين بان وديونيسوس فكلاهما يرتبط بفتح الشرق[٣١] . وكلاهما أبناء زيوس الذى إدعى الإسكندر الأكبر أنه من نسله وكلاهما أيضا ارتبطا بإمبراطورية الإسكندر. صور بان على خوذة أنتيجونوس برأس آدمية يخرج منها قرنا ماعز قصيران ويحيط بالجبهة لحية كثيفة. ويلتف حول كتفى أنتيجونوس جلد أسد تتدلى مخالبه Lion Scaple على الكتب الأيسر وهى ترمز إلى الإله البطل هرقل[٣٢] .

أما عن صناعة هذا الوعاء فإن المادة التى استخدمت فى تشكيله هى نوع من الطفلة النقية جدا ذات اللون الأبيض غالبا طفلة جيرية Calcare-ous Mud تقل فيها نسبة المواد العضوية وترتفع فيها نسبة سليكات الألمونيوم المائية وكربونات الكالسيوم، يكون لونها رمادى وهى مبتلة، ويتغير

اللون إلى الرمادى الضارب إلى الصفرة بعد الاحتراق، ويتكون هذا النوع نتيجة لنزع مكونات الطفلة من الجبال بفعل مياه الأمطار والسيول وترسيبها فى المنخفضات والوديان. وهذا النوع من الطفلة ظهر فى مصر فى العصر البطلمى نتيجة لحركة اتصال التجمعات البشرية ببعضها والذى أعقبه نوع من الإدراك لمواصفات الطفلة الجيدة بل والبحث عن مصادرها، بالإضافة إلى الدور الذى قامت به الإسكندرية فى صناعة الآنية الفخارية وكذلك منطقة الدلتا حيث عثر على العديد من القمائن الخاصة بصناعة الفخار فى كوم قرين (جنيكابوليس) وفى غرب الدلتا ومنطقة دمنهور (نقراطيس القديمة)[٣٣]. على أننا لا ننكر الدور الذى قامت به مصر الفرعونية فى مجال صناعة وتطور الآنية الفخارية على مدى أكثر من ثمانمائة ألف عام مضت. وتوجد هذه المادة بكثرة فى صعيد مصر والواحات[٣٤]، وبصفة خاصة فى قنا والبلاص والواحات الخارجة بالصحراء الغربية[٣٥] .

تم طلاء الإناء بمادة زجاجية عاجية اللون وقد حاول الصانع تقليد النسيج السطحى Surface texture المشابه لنفس طبيعة الأحجار الجيرية ونقل فكرتها الزخرفية بخطوط غير منتظمة رسمت على سطح الفخار تبدو كما لو كانت تشرخات متتابعة فى طبقة التزجيج يعرف بالتشرخ Carving. وجدير بالذكر أن مصر عرفت فن التزجيج قبل غيرها من البلاد الأخرى فهى عريقة فى صناعة الخزف[٣٦] وبالتالى قديرة على اختراع هذا النوع من الزخرفة.

أما عن رسم الأشكال على الإناء فربما تم رسمها عليه مباشرة أو طبعت بواسطة قوالب تحتوى على هذه الأشكال الغير غائرة والتى تعبر عن

مدى الروعة والجمال ودقة الرسم إلى الحد الذى يثير الاعجاب. ولما كانت العادة قد جرت على كتابة اسم الصانع على أعماله الخزفية اعتزازا منه بصناعته وقيمتها الفنية فقد سجل خلف الإناء نقش باليونانية ΑΔΕΛΦΟΙ ΚΑΛΟΚΑΙΡΙΝΟΙ ΥΓΑ إشارة إلى أن أثنين من الأخوة قاما بصناعة وزخرفة هذا الإناء.

فيما يختص بتأريخ الإناء فلابد أنه صنع بعد ٣٦٠ ق.م. وهى السنة التى اتخذ فيها حكام الولايات الهلنيستية لقب ملك وقاموا بارتداء العصبة الملكية كما هو واضح من خلال صورتى كل من سليوكس وبطليموس الأول. ومن ناحية أخرى فلابد أنه نفذ بعد وفاة الإسكندر الأكبر ذلك أن فكرة طبيعته الألهية[٣٧] والتي ظهرت فى مرحلة متأخرة من حياته كانت قد أصبحت نظرية ذات أهمية سياسية[٣٨] . وبصفة خاصة فى مصر التى يقوم الحكم فيها على مبدأ الحق الالهى. ومن ثم فقد عبد الإسكندر الأكبر باعتباره مؤسس مدينة الإسكندرية والسلف السياسى للبطالمة والإله الحامى لمصر.

وقد يكون هذا الإناء نسخة رومانية لأصل هلينستى، كما سبق أن ذكرنا، فمن المعروف أن الرومان قد نسخوا أشكال الإسكندر وبعض قواده المتميزين[٣٩] أمثال أنتيجونوس وسليوكس وكاسندروس وبصفة خاصة تلك التى رسمها أبليس للإسكندر والمنسوجة فى رسم بومبى[٤٠] وعملين آخرين للإسكندر نفذهما أيضا الرسام أبليس نسختا ووضعتا فى ميدان أغسطس Forum Augusti بروما [٤١]

وربما أن هذا الإناء الذى يحمل صورة الإسكندر الأكبر وأربعة من حكام الولايات غالبا المؤلهين[٤٢] . ربما كان نوع من التمائم[٤٣] التى وضعت فى المنازل لجلب الحظ الحسن فلقد سار الاعتقاد فى العصرين اليونانى والرومانى أنه من يمتلك صورة للإسكندر الأكبر يحالفه الحظ وبناء على ذلك فقد جرت العادة ليس فقط على المستوى الشعبى ولكن أيضا على المستوى الرسمى ارتداء أو ملكية صورة للإسكندر الأكبر كتميمة لجلب الحظ[٤٤] . وقد استمرت هذه العادة حتى عام ٤٠٠ م صدر بعدها قرار[٤٥] بمعاقبة كل من يرتدى صورة الإسكندر الأكبر كتميمة لجلب الحظ . وليس أدل على انتشار هذه العادة من وفرة الأعمال الفنية المختلفة المكتشفة فى مصر والتى تظهر الإسكندر الأكبر كإله حامى لمدينة الإسكندرية والشخصية المحببة لسكان الإسكندرية[٤٦] الذى كانوا يعبدونه داخل بيوتهم إذ كان يحتفل بيوم وفاته كعيد دينى رسمى فيه تقام الطقوس الدينية الإغريقية. كما أن عبادته اعتبرت أيضا دينا رسميا إغريقيا. وعلى المستوى الرسمى يحدثنا سوتينيوس Suetonius بأن الإمبراطور أغسطس كان خاتمه الشخصى يحمل صورة الإسكندر الأكبر. كما أن الأباطرة التاليين لأغسطس كانوا أكثر ولعا بصورة الإسكندر الأكبر فالبعض تشبه بهيئته كالإمبراطور تيبريوس والبعض الآخر أضاف إلى اسمه اسم الاسكندر، كما أن الإسكندر سفيروس وضع صورة الإسكندر الأكبر فى ضريحه إيمانا منه بأنها ستسانده فى كل عمل.

وهناك من الدلائل ما يؤكد انتساب هذا الإناء إلى مصر، فلو أننا

دققنا النظر فى الأشكال المصورة عليه سوف نلاحظ كبر حجم صورة الإسكندر الأكبر عن باقى صور الحكام الآخرين ويبدو أن الرسام نفذها طبقا للنظرية[٤٨] الفرعونية. فقد اعتاد الفنان الفرعونى أن يصور الشخصية المهمة بحجم أكبر من الشخصيات الأخرى. ومن ناحية أخرى فإن الإسكندرية أول من اعترفت بأن الإسكندر الأكبر ابن زيوس[٤٩] وأخيراً فإن الإلهة أثينا أعتبرت حامية لمدينة الإسكندرية التى تحولت إليها الثقافة اليونانية بإنشاء دار الحكمة والمكتبة. وقد ظهرت على عملات الإسكندر الأكبر المعبودة أثينا المحاربة (بروماخوس) كنوع من الاشارة إلى أن البطالمة لم يرثوا فقط السلطة عن الإسكندر بل ورثوا أيضا الثقافة عن أثينا، وكلها أمور تتضح من خلال الصور والزخارف الموجودة على الإناء، الذى نحن بصدد الحديث عنه، فالإسكندر الأكبر يرتدى الخوذة الحربية الخاصة بالمعبودة أثينا، كما أن غصن الغار الخاص بها يتكرر فى كل وحدة زخرفية خاصة بالانتسابات الإلهية بالإضافة إلى الاستعانة بأثينا لمؤازرة الإسكندر كما سبق وأن رأينا.

References

1- Beazly, Attic white lekythoi, Oxford 1938, p. 13.

2- Richter, G. M. A., A Handbook of Greek Art, pp. 293, 325.

3- Rasmussen, T., Spivey, N., Looking at Greek Vases, Cambridge, 1991, p. 37.

4- Ibid.

5- Lauffer, S., Alexander der Grosse, Germany, 1978, pp. 54, 197.

6- Pliny, NH, 7, 125.

7- Plutarch, Alexander, 4.1.

8- Hamlyn, P., Greek Mythology, New York, 1968, p. 107; Lenardon, J. Classical Mythology, London, p. 523.

9- Pollitt, J.J., Art In The Hellenistic Age, Cambridge (1988), p. 22.

10- Pliny, NH, 53, 92.

11- Smith, R.R.R., Hellenistic Sculpture, London (1991), pp. 21, 63, 148.

12- Hamlyn, op. cit., p. 33.

13- Smith, op. cit., p. 20; pollitt, op. cit., p. 28; Krug, A., Binden in der griechischen Kunst, Mainz (1968), S. 114-18, Kray, C.M., Hirmer, M., Roman Coins (1978) p.8, P. 1.7, 1.3.

14- Hamlyn, op. cit., p. 111.

15- Smith, op. cit., cat. nos. 21-2, pl.16.

16- Hausmann, U., Zur Eroten Und Gallier-ikonographe in der Alexandrinschen Kunst, Alexnadria e il mondo ellenistico, vol V (1984) pp. 283-295, tav, li, figs. 1.4.

17- Hanlman, G.M.A., New Fragments of Alexandrian Wall Paintings, Alexnadria e il mondo ellenistico, vol v, Roma (1984), p. 250, Fig 2.

18- Hammond, N.G.L., Sources for Alexander The Great, An Analysis of Plutarch's Life and Arrian's Anabasis AlexandrAu, Cambridge (1993), p. 13.

19- Pliny, N.H., 35,110

20- Smith, op. cit., p. 64.

21- Plut, Dem, 17, 2-18, 1.

22- Bouder, D., Who was who in the Greek World (776 B.C- 30 BC), Oxford (1991), p. 42.

23- Smith, op. cit., p. 32.

24- Lawrence, A.W., Greek Architecture, London (1957), p. 196 f., Fig. 108.

25- Smith , op. cit., p. 37.

26- Bruneau, P., Recherches Sur Les Cultes de Délos a l'époque Hellenistique et à l'époque Imperiale, (1970), pp. 558f., 583.

27- Polyb. 20, 6, 12; Pliny, NH, 35. 106.

28- Diod. Sic., 7, 16; Griffith, G.A., A History of Macedonia, II, 1979, pp. 5-14.

29- Herodotus, 6-106.

30- Pliny, NH, 35,106.

31- Hamlyn, op. cit., p. 32.

32- Smith, op. cit., p. 40.

33- El-Khashab, A.el.M., Ptolemaic and Roman Baths of Kom El-Ahmar, 1959.

34- Burton, W., Ancient Egyptian Ceramics, J. Royal Soc. of Arts, vol. LX, 1912, p. 54.

٣٥- الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين - ترجمة زكى إسكندر، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٤٥، ص ٧٩٢.

36- Martin, C., Luster on Glass and Pottery, p. 14 f.

37- Külerich, B., Physiognomies and the iconography of Alexander the Great, Symbolae Osloenses, 63, 1988, pp. 51-66.

٣٨- يقول أرسطو معلم الاسكندر فى كتابه عن السياسة «إذا وجد مواطن فى أى دولة يتميز بسموه على الآخرين فى الفضيلة والمقدرة السياسية، يجب ألا يعتبر فرداً عادياً فى الدولة، لأن ذلك لا يعد إنصافا له بل يساويه مع غيره ولابد من أن يعتبر إلها بين البشر «وهذه الأفكار سيطرت على عقلية الإسكندر الأكبر.

Aristotle, Politics, III, 13, 1284 a.

39- Smith , op. cit., p. 63 f.

40-Mingazzini,p.,Una copia dell Alexandros Keraunophoros di Apelle, Jahrbuch der Berliner Museen 3 (1966) 7-17.

41- Pliny, N.H., 35, 49.

٤٢- كان خلفاء الإسكندر يعتبرون سلطتهم مستمدة من عصور إلهى طالما أن الإسكندر إله فكانت الجماعات الاغريقية تقيم لهم المعابد وتنصب فيها التماثيل ويعين لهم كهنة وتقدم فيها القرابين وتقام لهم الحفلات الدينية فنحن نعرف أن أنتيجونوس أقيم له هيكل نصب بداخله تمثال له فى سكبسيس Scepsis يلوس وخالكيس

Chalics وساموس Samos كما أن بطليموس الأول الذى ألهه أهل الكلاديس وأضفوا عليه اسم الإله المنقذ كان يحاول جاهدا إثبات أن سلطته مستمدة من عصور إلهى. كما عبد كاستدروس فى كاسندريا.

عن تألية الإسكندر الأكبر وخلفاؤه أنظر

Tarn, Hellenistic Civilization , 1930, p. 9 f;

إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٢١٦ وما بعدها.

43- Smith, op. cit., p 28.

44- Ibid, p. 92.

45- Ibid.

46- Ibid.

47- Suetonius, Divine Augustus, 50.

48- Aldred, C., Egyptian Art, London, 1980, pp. 11, 35.

49- Smith, op. cit., p. 26.

لوحة رقم ١

لوحة رقم ٢

شكل ٢

شكل ٣

شكل ٤

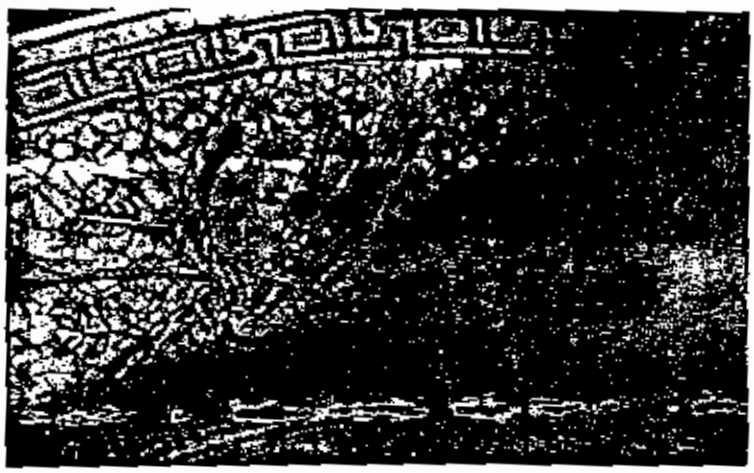

شكل ٥

لوحة رقم ٤

شكل ٦

شكل ٧

شكل ٨

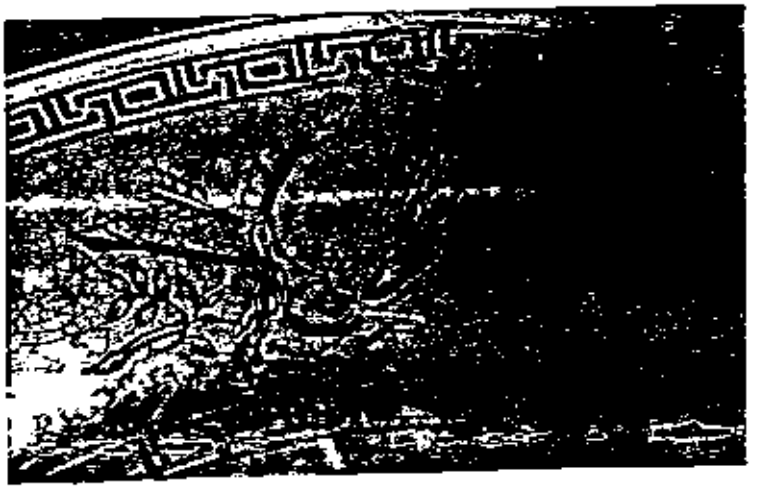

شكل ٩

لوحة رقم ٦

شكل ١٠

شكل ١١

منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة

إعداد

الدكتور / السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة والآثار الإسلامى المتفرغ

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة

كان منار الإسكندرية منذ إنشائه فى عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ق.م. – ٢٧٩ ق.م.) أحد المعالم البارزة فى العمران السكندرى بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شدت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه فى المصادر المختلفة : اليونانية واللاتينية والعربية، وقلدت صوره فى منارات أخرى ومن بينها منار قادس الذى كانت صورة مصغرة منه[1]، ورسمت صورته بالفسيفساء فى كنيسة مدن ماركو بالبندقية، وأصبح موضوعا وصفيا لدى كثير من الجغرافيين والرحالة المسلمين فى العصور الوسطى لاسيما المغاربة منهم والأندلسيون، تباروا فى وصفه، وأسبغوا عليه من فيض كتاباتهم ما جعله يحث أسطورة من الأساطير ومعجزة من معجزات العالم فممن وصفه من الجغرافيين : اليعقوبى، وابن الفقيه الهمذانى، والمسعودى وابن رسته، وابن حوقل، والبكرى، وياقوت الحموى، والحميرى، والمقريزى، والسيوطى. ومن الرحالة : الهروى، وابن جبير، وبنيامين التطيلى، والعبدرى، وابن سعيد المغربى، وابن بطوطة، وابن رشيد السبتى، والبلوى، ومن الباحثين الحديثين الفريد بتلر،

---

(١) الزهرى . كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨، ص ٩٠، وانظر : السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الاسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد، مدريد، ١٩٨٦، عدد ٢٣، ص ١٨٤ وبحث السيد عبد العزيز سالم، مدينة قادش ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٩، ٤٠.

وتيرش، وبريشيا. وقد اهتم تيرش بجمع معظم ما كتب عن المنار فى المصادر المختلفة لاسيما العربية منها، وانتهى برسم صورة للمنار ظهر فيها كبرج حجرى ضخم يبلغ ارتفاعه الكلى نحو ١٢٤ مترا، ويتألف من طابق رئيسى مربع الشكل تميل جدرانه إلى الداخل كلما ارتفعت، ويبلغ ارتفاعه ٦٠ مترا، وكان يضم بداخله عددا ضخما من الغرف يصل إلى ٤٠٠ غرفة، ويعلوه طابق مثمن الشكل ارتفاعه نحو ثلاثين مترا، ينتهى من أعلى بشرفة، ويعلوه طابق ثالث أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ مترا، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت، تعلوها قبة بداخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران المشتعلة بالمواقد بأعلى المنار لهداية السفن الضالة فى البحر، وتتوج القبة تمثال ضخم من البرونز، يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون. وكان يتخلل جوف المنار طريق صاعد يتسع لفارسين أو ثلاثة، يرقى الراقون من خلاله إلى أعلى المنار، «لايكاد الراقى يعلم فيه هل هو راق أو ماش»[1].

وظل منار الإسكندرية فى العصر الإسلامى موضع اهتمام كل من زار الإسكندرية من الرحالة المسلمين من القاصدين لأداء فريضة الحج من أهل المغرب والأندلس أو من طلاب العلم الذى يسعون إلى السماع على شيوخ العصر فى مختلف مراكز العلم بالمشرق الإسلامى أو التجار الذين يتنقلون فى أنحاء المشرق للتكسب بالتجارة، وواصل المنار أداء وظيفته التى أنشئ من أجلها وهى هداية السفن الضالة فى البحر إلى الأمان، ولكنه

(١) مجهول «كتاب الاستبصار فى عجائب الأنصار» تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ٩٦.

تعرض لكثير من الأضرار التى سببتها الزلازل المتعاقبة، فقد تهدم طابقه العلوى فى سنة ١٨٠ هـ نتيجة زلزال عنيف تسبب فى سقوط رأس المنار، وظل كذلك نحو ٨٠ عاما دون ترميم إلى أن تولى أحمد بن طولون ترميمه بأن أقام بأعلاه قبه من الخشب لم تلبث أن تهدمت بعد فترة قصيرة من إقامتها بفعل الرياح العاتية والعواصف[١]. كما تهدم جزء من زاوية المنار الغربية مما يلى البحر فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون، فجدد بناءها[٢]. ويذكر المسعودى أن ما يقرب من ثلاثين ذراعا من أعلى المنار تهدم بتأثير الزلزال العنيف الذى حدث فى أيامه فى شهر رمضان من سنة ٣٤٤هـ[٣]، وقدر للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس أن يقوم ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته الرابعة لثغر الإسكندرية فى سنة ٦٧٣هـ، فرتب البناء على المشى الذى يدور حول المنار من أدناه عند المطلع[٤]، وأقام مسجدا بأعلى المنار فى الموضع الذى كانت تشغله القبة الطولونية[٥].

كانت أعمال الترميم والإصلاح التى أمر الظاهر بيبرس بتنفيذها ضرورية للحفاظ على سلامة المنار، فقد ذكر السيوطى أن وجه المنار البحرى

---

(١) جلال الدين السيوطى، كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، مصر، ٣٢١هـ، ص ١٤٧ – تقى الدين المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ١٩٥٩، ج١، ص ١٥٧ وما يليها. (والنص الذى اعتمد عليه السيوطى منقول من كتاب مباهج الفكر).

(٢) المسعودى، كتاب التنبيه والاشراف، طبعة بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٨.

(٣) المسعودى، المصدر السابق.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق، مجلد ٧، بيروت، ١٩٣٨، ص ٣٥ – المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦١٦.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٧٧.

كان قد تداعى، كما تداعى الرصيف الذى كان يتقدمه من جهة البحر، وكادا يتهاويان .. ومع ذلك فإن هذه الإصلاحات التى أجريت على المنار لم تجده نفعا بعد زلزال ثالث تعرضت له مصر فى سنة ٧٠٢ هـ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وأحدث أضرار جسيمة بعمران الإسكندرية، وكان من العنف بحيث تسبب فى إنهيار قطاع من السور البحرى يشتمل على ٤٦ بدنة و ١٧ برجا، وأتلف مد البحر قماش التجار بالقصارين[١]، كما تسبب فى طغيان مياه البحر على عمران الإسكندرية[٢]، وأدى تلاطم الأمواج واصطدامها بالجدار البحرى للمنار إلى سقوطه[٣]، فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى العام التالى ٧٠٣هـ. ويبدو أن اصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم، فلم يلبث أن أنهار قسم من الجانب البحرى من المنار بعد سنوات قليلة، ولم يحاول السلطان الناصر محمد بن قلاوون اصلاحه مرة أخرى، ربما لفداحة الأضرار التى تزتبت على الزلزال وتساقط أجزاء كثيرة من الترميمات، ويبدو أنه شرع فى إقامة منار مثله بازائه[٤]، فعاقه الموت عن إتمامه[٥]. وقد شاهد الرحالة المغربى ابن بطوطة

(١) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، صيدا، ١٩٥٩، ص ٦٠.

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أن البحر طلع «إلى نصف البلد وأخذ الحمال والرجال وغرقت المراكب» (السيوطى، المصدر السابق، ج٢ ص ٢٧٨).

(٣) كان تأثير الزلزال على المنار بالغا، فقد ذكر المقريزى فى السلوك أن المنار انشق وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة (السلوك، ج١، قسم ٣، ص ٩٤٣).

(٤) ذكر النويرى السكندرى أن صلاح الدين خليل بن عرام والى الإسكندرية فى سلطنة الاشراف شعبان أقام حصنا دائراً حول أساس هذا المنار الجديد الذى لم يكن العمل قد استكمل فيه وركب لهذا الحصن بابا ضخما اقتلعه القبارصة أثناء غزوتهم للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ.

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة دار صادر – بيروت، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢١.

جانبا مهدما من المنار في أثناء زيارته الأولى للإسكندرية سنة ٧٢٥هـ ثم شاهده عند زيارته الثانية لها في سنة ٧٥٠ هـ وقد «استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه»[١]. ولم يبق من المنار في زمن النويرى السكندرى (سنة ٧٧٥هـ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التى ظلت قائمة حتى أيام المقريزى[٢]. وفى عهد الأشرف قايتباى استغل هذه الأسس الباقية من المنار لبناء قلعته المشهورة الموسومة باسمه حماية للاسكندرية من أى غزو بحرى يتعرض لها من البحر خاصة بعد أن ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فتم بناء القلعة ٨٨٤هـ[٣].

كان منار الاسكندرية يحق هداية للقادمين إليها من البحر، فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التى يجتازها المسافرون فى البحر، إذ كان ارتفاعه الشاهق مرشدا لقادة السفن المقبلة من بعيد والمتجهة الي ثغر الإسكندرية وعلى مسافة تزيد على سبعين ميلا إلى بر الأمان[٤]، ذلك أن أرض الإسكندرية تخلو من المرتفعات، وظهور المنار للسفن القادمة سواء

(١) ابن بطوطة ، نفس المصدر، ص ٤٠.

(٢) المقريزى، الخطط ج١، ص ٢٧٧

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٤٥٨.

(٤) ذكر بنيامين التطيلى أن منار الإسكندرية كان فى زمنه ما يزال يهدى السفن القادمة والرائحة، ويشاهد على بعد مائة ميل نهاراً، وكان ينبعث منه أثناء الليل ضوء ساطع يهتدى به الملاحون. وينكر أركولف المتوفى سنة ٦٨٠ هـ أن المسافرين فى البحر كانوا يشاهدون المنار من مسافات بعيدة، وكان يشتغل فيه بعض الأفراد، يقومون بإشعال المشاعل التي كانت توشد الملاحين إلى البر، ويريهم المدخل إلى الميناء. وقد أشار اليعقوبى إلى هذه المواقيد وذكر أن على المنارة مواقيد توقد فيها النيران، إذا نظر النواظير إلى مراكب فى البحر إلى مسافات بعيدة.

أثناء النهار بارتفاعة الشاهق، أو أثناء الليل بالأضواء التي ترسلها المواقيد بأعلاه، كان يعين الملاحين على الوصول إلى بر الإسكندرية. وكثيرا ما أنقذ منار الإسكندرية في العصر الاسلامي سفناً كانت قد ضلت طريقها الي الثغر ، وتلاعبت بها العواصف والأنواء ، وعرضتها لغرق محتوم ، ولكن رؤية ركابها وملاحيها للمنار كان ينقذها من هذا المصير.

ويهمني أن أعرض رؤية بعض الرحالة المغاربة للمنار، فاخترت منهم رحالتين وصلا الي الثغر السكندري عن طريق البحر ، أولهما أندلسي هو أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي المعروف بابن جبير، الذي زار الإسكندرية في عهد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[1]، والثاني مغربي من أصل أندلسي غرناطي هو أبو البقاء خالد بن عيسي البلوي الذي رحل إلي الحجاز لأداء فريضة الحج في ١٨ صفر سنة ٧٢٦ هـ وأبحر من تونس الي الإسكندرية وشاهد المنار السكندري قبل انهياره تماما بسنوات معدودة، وقد عبر كل من الرحالتين بصدق عن حالة اليأس والقنوط من النجاة التي كانت تسيطر علي ركاب سفينتيهما وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك ، الي أن ظهر منار الإسكندرية ، فنزل خبر ظهوره بردا وسلاما عليهم، واستشعروا عند رؤيتهم له علي بعده بالأمان، ويشهد بذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير في قوله : «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (أى الإسكندرية) المنار الذى وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية

(١) سجل ابن جبير ملاحظاته عن المنار والدور الذى يقوم به فى رحلته الأولى الى المشرق فيما بين عامى ٥٧٨هـ، ٥٨١ هـ (السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب الإسكندرية، ١٩٨٧ ص ٢٢٠ وما يليها).

للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً[1].

ويقول في موضع آخر عند وصوله إلى الإسكندرية في رحلته الأولى: «وفي صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور (شهر مارس سنة ٥٧٨ هـ) أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمدا يقتضي المزيد من فضله، وكريم صنعه»[2].

كذلك يشهد الرحالة المغربي الأندلسي خالد بن عيسى البلدي في رحلته إلى المشرق الإسلامي في سنة ٧٣٦ هـ الموسومة بتاج المفرق في تحلية علماء المشرق بدور منار الإسكندرية في هداية السفن إلى بر الأمان، وذلك بعد صدوره من قبرص في طريقه إلى الإسكندرية، يصور البلوي حالة اليأس والقنوط التي استولت على ركاب سفينته، وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك، إلى ظهر منار الإسكندرية فاستشعر المسافرون عند رؤيته بالأمان، وفي ذلك يقوم البلوي : «فما انفصلنا عنها (يقصد جزيرة قبرص) إلا وقد أدركهم الجهد والإعياء، ولحقهم العطش الشديد والعناء، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقي لهم من الماء المعد للشرب، فطلبت قطرة من الماء توجد، فما رض ضلوعي، ولا فض دموعي إلا أطفال يضطربون بالبكاء، ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش، وتجرع

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليام رايت، ليدن، ١٩٠٧ ص ٤١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣٨.

بعضهم من ماء البحر، فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت، فتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط فى أيدى الناس فضجوا بالدعاء ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التى كانوا يأخذونها من الماء، واختلفت إليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة، جمعت الأصحاب من قراء القرآن، فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا إلا الالتجاء إلى الله عز وجل، وأتوسل إليه بكتابه وبرسوله، فصلينا العشاء الأخيرة، وقسمت عليهم القرآن مجزءا، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا تلك، فلم يكن إلا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم ونبيه الكريم، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضى عليهم ذلك الأمل، ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما ∴ باتوا بأفئدة يراع خوانق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى فى النفوس، وأوقع فى القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر، فقلت :

بشراكم لاح المنار الأسعد ∴ ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذى كنا به ∴ فى حالة البلوى نقوم ونقعد

وافتر من إسكندرية ثغرها ∴ الوضاح فهو منظم ومنضد

... وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين»[1]

لم يكن غريبا أن ترسخ صورة منار الإسكندرية فى مخيلة المسافرين بحرا من أهل المغرب والاندلس إلى الإسكندرية، وكان من بينهم تجار وصناع وعرفاء بناء، فقيه يتمثل طوق النجاة من الغرق أو الهلاك، وكان طبيعيا أن يصبح منار الإسكندرية أنموذجا صارخا قلدوا صورته التى ارستموها فى مخيلتهم سواء من حيث المظهر الخارجى العام بأبراجه الثلاثة المتراكبة، كما يتمثل فى صومعتى جامع القيروان وجامع سفاقس، أو من حيث تكوينه الداخلى كما هو الحال فى الصوامع التوأم الثلاثة من عصر الموحدين لجامع الكتبية بمراكش، وجامع القصبة الكبير بإشبيلية، وجامع حسان بالرباط : ففى هذه الصوامع الثلاثة يرتقى الراقون إلى أعاليها عبر طريق صاعد يدور حول النواة الداخلية التى تشغلها غرف متراكبة الواحدة فوق الأخرى على غرار ما كان يحتويه منار الإسكندرية مع الفارق الكبير فى عدد غرف هذا المنار. وقد وصف المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى الذى كان معاصرا للموحدين صومعة جامع حسان بالرباط، فذكر أنها «فى نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيها بغير درج، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها»[2].

وتتفق كل من صوامع الرباط ومراكش وإشبيلية الثلاثة - رغم

---

(١) البلوى، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، ج١، ص ١٦٩.

(١) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٦٦.

اختلاف مواد البناء – من حيث التخطيط الداخلي، حيث يدور حول النواة المركزية المربعة التي تشغل قلب الصومعة وتضم غرفا مقببة متراكبة، طريق صاعد أكثر اتساعا في صومعة جامع حسان بالرباط عنه في صومعة جامع إشبيلية، كما تتفق في التشكيلات الزخرفية القائمة على شبكات المعينات المنبثقة من عقود مفصصة أو ثعبانية الشكل، ويتمثل الاختلاف بين هذه الصوامع الثلاثة بالإضافة إلى مواد البناء، في عدد الغرف المتراكبة بكل منها، وفي أن صومعة جامع إشبيلية بزخارفها الرأسية ورشاقتها توحي بالصعودية بخلاف الصومعتين المغربيتين، وفي طول قاعدة كل منها[1].

ومن الواضح أن اشتراك الصوامع الثلاثة في الطريق الصاعد يؤكد أن عرفاء البناء الموحدين الذين أسهموا في بناء هذه الصوامع ومنهم على الغماري وأحمد بن باسه وأبو داود جلداسن امتثلوا منار الإسكندرية الذي كان مصدر الإلهام في استخدامهم للطريق الداخلي الصاعد بدلا من الدرج وفي ضخامة بنيان هذه الصوامع وارتفاعها الكبير وفي الغرف الموزعة في النواة المركزية، وهذا يفسر في حد ذاته أن هذه الصوامع كانت في نفس الوقت مآذن لمساجدها الجامعة ومنارات للهداية إلى المدن التي أقيمت فيها، يراها المسافرون من البركما يرونها من البحر بالنسبة لمنارة جامع حسان.

أ.د. السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة والآثار الاسلامي المتفرغ

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

(١) تتخذ قاعدة صومعة جامع إشبيلية شكل مربع طول كل جانب منه ١٣,٦٥ متر بينما يصل طول الجانب الواحد من قاعدة صومعة جامع حسان ١٦,١٥ متر.

تخطيط ومواقع الإسكندرية القديمة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى

دكتور

محمد عبد الحميد الحناوى

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية التربية – جامعة اسيوط

مدينة الإسكندرية

كان أهم وأخلد أعمال الإسكندر الأكبر فى مصر بعد دخول البلاد بجيوشه، هو بناء مدينة الإسكندرية فى عام ٣٣٢ ق.م. فوق موقع قرية راقودة (راكوتيس Rachotis) القديمة، والتى كانت موجودة ضمن عدد آخر من القرى المصرية القديمة فى تلك المنطقة المحصورة بين بحيرة مريوط جنوبا وساحل البحر المتوسط شمالا فى غرب الدلتا. وهناك من الأدلة التاريخية ما يشير إلى أن هذا الموقع كانت له أهمية بالنسبة لمصر الفرعونية إذ يقول استرابون Strabon عن هذا الموقع أن الملوك المصريين أقاموا به حامية عسكرية لحمايته من إغارة شعوب البحر وخاصة الإغريق.

ويتضح من نص سترابون أن موقع الإسكندرية القديم كانت له أهمية عسكرية زمن المصريين القدماء، وأن حامية عسكرية أقامت بموقع قرية راقودة التى كانت تتزود بالمياه العذبة من قناة تمتد غربا من الفرع الكانوبى للنيل عند موقع يقال له شيديا Schedia ويعنى المعدية(١).

وبالإضافة إلى موقع الإسكندرية الإستراتيجى الذى اختاره الإسكندر لها فوق موقع راقودة القديم، فإن هذا الموقع كان يواجه فى البحر جزيرة قريبة من الساحل هى جزيرة فاروس Pharos(٢). التى تم توصيلها فيما بعد بالساحل بواسطة جسر كبير Heptastadium تمتد عليه قناة لتوصيل الماء العذب إلى الجزيرة بعد استيطانها، وبذلك أمكن إنشاء ميناءين كبيرين، أحدهما الميناء الشرقية، والآخر الميناء الغربية العود الحميد Eunostos).

وقد عهد الإسكندر إلى مهندسه دينوقراطيس Deinocratis بتخطيط المدينة على النمط الأثيني حسب قواعد هندسة المدن الإغريقية كما عرفت فى القرن الرابع ق.م. مثل مدينة بيرايوس (ميناء بيريه)[٣] وقد رأى الإسكندر هذا التخطيط بنفسه على الطبيعة وأقره، ثم كلف وزير ماليته فى مصر كليومينيس بالإشراف على تشييد المدينة الجديدة[٤].

وتقع مدينة الإسكندرية على خط طول ١٢ ٣٠، وخط عرض ٣ ٢٧ وأرضها عبارة عن شريط ضيق من المرتفعات المتناثرة المحصورة بين البحر المتوسط شمالا، وبحيرة مريوط جنوبا.

ويرجع الفضل فى معرفتنا لتخطيط المدينة ومعالمها فى عصرها القديم إلى المهندس المصرى محمود باشا الفلكى الذى عهد إليه الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) بدراسة طبوغرافية المدينة، ورسم خريطتين لهما أحدهما توضح معالمها القديمة، والأخرى لمعالمها الحديثة إبان عصر إسماعيل، وكانت الإسكندرية قد شهدت كثير من الأحداث الحربية فى عصورها المختلفة أثرت على نموها العمرانى والبشرى، فبعد أن كانت مدينة مزدهرة عاصمة للحضارة الهللينستية فى الشرق، أصابها الضعف والاضمحلال، وظل حجمها ونشاطها يتقلص تدريجيا خلال العصر الإسلامى حتى أصبح عمرانها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى لا يتعدى الشريط المحصور بين الميناءين الشرقى والغربى لدرجة أن صار عمود السوارى (بومبى) الذى كان يقع فى قلب المدينة فى عصرها القديم بعيدا عن عمرانها بنحو ألف وخمسمائة متر تقريباً[٥].

أحياء المدينة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى

لم يتمكن الإسكندر من مشاهدة مدينته التى وضع أساسها وتخطيطها، لكن الفضل فى استكمال إنشائها يرجع إلى مهندسه دينوقراطيس Deinocratis حيث كانت خطة الإسكندر فى تأسيس المدن واضحة وبسيطة وهى عبارة عن مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب وينقسم إلى شوارع مستقيمة متوازية تتقابل مع الشوارع الممتدة من الشمال إلى الجنوب على شكل زوايا قائمة، وبذلك ينتج عن هذه الخطوط مربعات صالحة لإقامة المبانى والمنازل عليها، وكانت تمتد على جانبى كل شارع من الشوارع الرئيسية مجموعة من البوائك والعقود ذات الأعمدة والتماثيل لإضافة بعض اللمحات الجمالية لشوارع المدينة، ولحماية المارة من وهج الشمس(٦).

وقسمت المدينة طبقا لهذا التخطيط إلى خمسة أحياء سميت بالأحرف الهجائية الأولى فى اللغة اليونانية وهى (ألفا – بيتا – جاما – دلتا – أبسيلون)، وكان أهم هذه الأحياء ثلاثة هى :

أ) الحى الملكى : فى شرق المدينة، ويحده شارع السيما من الغرب، وحى اليهود من الشرق، وطريق كانوب من الجنوب والطرف الشرقى من الميناء الشرقية، ورأس لوكياس (السلسلة) من الشمال، واشتمل هذا الحى على القصور الملكية التى تشرف على الميناء الشرقى.

وفى هذا الحى أقيمت الأكاديمية أو دار الحكمة Museum، والمكتبة، والمسرح، وفى أقصى غرب الحى بنى معبد القيصرون Caesareum والذى أمرت ببنائه كليوباترا السابعة باسم ابنها من قيصر(٧).

وفى الجنوب الغربى من هذا الحى أقيم قبر الإسكندر (Sema) فى الشارع الذى حمل اسمه - كما يرجح معظم الباحثين - وحول قبر الإسكندر أقام البطالمة قبورهم فى الموقع المعروف بـ «البانيوم»(٨). وإلى الشرق من البانيوم كانت توجد دار الحكمة، والجمنازيوم (الملعب)(٩).

ب) حى الدليا : ويقع إلى الشرق من الحى الملكى، وهو حى اليهود، وبه مقابرهم، وظلوا يشغلون هذا الحى طوال العصرين اليونانى والرومانى حيث بلغ عددهم نحو ثلث عدد سكان الإسكندرية فى العصر الرومانى(١٠).

جـ) الحى الوطنى : يقع فى الجنوب الشرقى من المدينة حيث تقع قرية راكوتيس القديمة(١١)، وفيه أقيم معبد السيرابيوم الذى أقامه البطالمة فوق هذا المرتفع ليكون مقرا لعبادة «سرابيس»، ثم أنشئت فيما بعد فى هذا الموقع مكتبة صغيرة(١٢).

أما شوارع الإسكندرية فى العصرين اليونانى والرومانى فهى : الشارع الكانوبى نسبة إلى كانوب (أبو قير)، ويمتد من شرق المدينة إلى غربها، وفى نهايته من الشرق باب الشمس أو باب كانوب(١٣)، وفى نهايته من الغرب باب القمر. أما الشارع الثانى فهو شارع السوما Soma ويقطع الشارع الكانوبي فى منتصفه تقريبا، ويمتد من شمال المدينة عند الميناء الشرقية مع بداية الهيتباستاد، حتى جنوبها، وكانت كل الشوارع موازية

لهذين الشارعين[١٤]، وتحمل أسماء أفراد من الأسرة المالكة، وقد عثر محمود باشا الفلكي على بقايا قطع البازلت الأسود أو الأصفر الذي كان يغطي أرضيه شوارع المدينة القديمة.

أما في العصر الروماني فقد أصبحت المدينة عاصمة لإحدى الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية، ولم يحل هذا دون النمو المضطرد لها وحتى أواخر العصر الروماني عندما أصيبت ببعض التغيير والتخريب لمعالمها عندما انتشرت المسيحية في مصر بصفة عامة، وفي الإسكندرية بصفة خاصة، وأدت الحوادث السياسية المتتالية من نزاع بين الرومان والبطالمة، ثم النزاع بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين، وبين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين، كل ذلك أدى إلى تخريب كثير من معالم المدينة الهامة[١٥]. وكانت مقدمات الاضمحلال قد سبقت الفتح العربي بفترة طويلة، فانكمشت مساحتها نحو الغرب والشمال، وحتى أصبح طولها من الشرق إلى الغرب لا يزيد كثيراً على ثلاثة كيلومترات، وأصبح عمرانها في العصر العربي يقتصر على المساحات التي تشغلها في الوقت الحاضر أحياء العطارين والمنشية واللبان فقط، وأصبحت مساحة المدينة بأسوارها لا تشغل أكثر من خمس مساحتها في العصرين البطلمي والروماني[١٦]، وسارت المدينة نحو التأخر والاضمحلال في عهد الدولة المملوكية والعصر العثماني، وظلت هكذا حتى أوائل عهد محمد علي، إذ انحصر النطاق السكني لأهالي المدينة في المنطقة الحديثة الواقعة بين الميناءين والتي عرفت بالمدينة التركية[١٧] والتي ضمت عددا كبيرا من الأخطاط (الأحياء) وهي عبارة عن

شوارع ضيقة وحارات ترابية، وبها حوالى ثلاثمائة وخمسين منزلا وعددا كبيرا من المساجد والزوايا الصغيرة، واشتملت على العديد من الأخطاط والحارات تمكن الباحث من حصر معظمها من خلال سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية وهى :

خطط المزار وهو المنطقة التى يقع فيها مقام سيدى أحمد أبى العباس المرسى وإلي جواره مدافن المدينة المواجهة للميناء الشرقية، ثم خط الديوان (الميناء) وبه مقار القنصليات الأجنبية ومبانى الجمارك وهى تشرف على الميناء الشرقية (الحالية)، وخط سيدى ياقوت العرشى إلى جوار سيدى أبى العباسى، وخط سيدى محمد الأباصيرى (البوصيرى) وخط حارة الغيط قرب ضريح سيدى ياقوت العرشى، وخط السبع قرن، وإلى جواره خط زاوية الشبراوية، وخط حارة البلقطرية، وخط المحكمة القديمة.

وفى شمال المدينة يوجد خط حارة الصيادين، وحارة النصارى، وخط حارة الأفرنج على مشارف الميناء الشرقية، يليه من الداخل خط حارة الشمرلى، وخط أولاد الدرى، وخط زاوية مطاوع، وخط الشيخ عبد السلام الصباغ، ثم خط السيالة، وخط حارة الفراهدة، وخط السويقة، وخط ابن عثمان، وخط جميعى وأولاد العشار، وخط أولاد النقلى، وخط العيلاوى، وخط جامع التمرازية، وخط أولاد الكاتب، وخط البوهانية، وخط الشيخ سليمان العلاف، وخط السمك، وخط الزقاق المبلط، وخط جامع القاضى، وخط حارة المغاربة، وخط حارة اليهود.

وفى أقصى جنوب شرق المدينة (التركية) نجد خط باب البحر. أما فى

أقصى الغرب، وفى مواجهة الميناء القديم (الغربى) يطالعنا خط الترسخانة حيث يقع مبنى دار صناعة السفن، وإلى الداخل منه نجد خط كوم الناضورة، وخط الحداد[١٨].

ولقد بنيت بعض منازل ومبانى المدينة الحديثة (التركية) من الطين والتبن، أما أغلبها فمن الحجارة الرملية ومونتها من الجير والرمل، حيث يدخل ضمن عناصر مكوناتها الأعمدة المأخوذة من المبانى الأثرية وأطلال الإسكندرية القديمة بالاضافة إلى الكتل الجرانيتية التي جلبت من طيبة وممفيس أثناء العصر اليونانى الرومانى[١٩].

وكان التكدس العمرانى واضحا فى المنطقة الواقعة بين الميناءين قرب الحصار الأشرفى (قلعة قايتباى) باستثناء شبه جزيرة رأس التين (فاروس القديمة) التى كانت خالية تقريبا من المساكن اللهم من بعض أشجار التين ومزارع البطيخ[٢٠].

أما الجزء الأخر من مدينة الإسكندرية فيسمى بالمدينة العربية، وهو الجزء الأكبر من الإسكندرية ويقع داخل نطاق الاسوار العربية القديمة والتى تحيط بهذه المدينة وتبدأ من شرق ملستى كليوباترا ومعبد اليهود على شاطئ الميناء الشرقية وتتجه جنوبا إلى جرار مقابر اليهود، ثم تميل ناحية الشرق حتى طريق رشيد، وتأخذ اتجاه الجنوب الغربى حتى باب المقابر (القرافة)، ويستمر السور حتى الحصن الغربى (المثلث)، ليبدأ من جديد اتجاهه نحو الشمال ليلتحم بالبحر عند الميناء الغربية.

ولم يشغل هذا الجزء الكبير من مساحة الإسكندرية إلا بعض

التجمعات السكنية المتناثرة وخاصة فى خط كوم الدكة، والنطاق المجاور لباب رشيد لقربه من طريق القاهرة ورشيد، ووجود أضرحة عدد من أولياء الله الصالحين، ولم يتعد عدد منازل هذا الاطار السكانى خمسون منزلا، إلى جانب عدد قليل من المنازل بخط باب السدرة، وكانت أهم أخطاط هذه المدينة : خط باب رشيد، وخط شرقى، وخط سيدى أحمد المتيم[٢١].

الأســـوار

من المرجح أنه بدء فى بناء أسوار الإسكندرية فى عهد الإسكندر، وأتم بنائها الحكام البطالمة، ثم زاد فى تحصينها الرومان فيما بعد.

وهذا السور هو الذى كان يحد المدينة المأهولة بالسكان فى عصرها القديم بأحيائها الخمس، حيث كان يبدأ غربا من نهاية طريق كانوب على مشارف الميناء الغربية Portus Eunostus، ويمتد محاذيا شاطئ البحر حتى رأس لوكياس (السلسلة) شرقا، ثم ينحدر جنوبا إلى أن تلاقى وقنال الإسكندرية (الخليج)، ثم يسير محاذيا للقنال إلى أن يتصل فى أقصى الجنوب الغربى بالنقطة التى بدأ منها. وكان عرض أساسات السور خمسة أمتار، وقد بنيت من الأحجار المجلوبة من محاجر المكس[٢٢].

أما خارج السور شرقا وغربا فكان رمالا ممتدة غير مأهولة بالسكان تتخللها أشجار النخيل، باستثناء المقابر خارج نطاق السور فى الجزء الشرقى منه جنوبى رأس لوكياس ومع تقلص حجم المدينة فى فترات لاحقة أعيد بناء هذا السور ليحيط بالمناطق المأهولة بالسكان، وتم تجديده فى عهد أحمد بن طولون سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، ثم أعيد تجديدة مرة أخرى فى عهد

صلاح الدين الأيوبى سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣هـ[٢٣]. ومن خلال الخرائط التى رسمت للمدينة فى أواخر القرن السابع عشر نستطيع القول بأن الأسوار كانت تحيط بها من جميع الجهات وتضم ما يزيد على مائة برج للدفاع عنها، تخترق هذه الأسوار من الجنوب الشرقى قناة رئيسية قادمة من النيل تتفرع من هذا الجانب إلى نحو خمسة أفرع رئيسية تغطى جميع أنحاء المدينة يصب منها فرع فى أقصى الشرق فى الميناء الشرقية قرب السلسلة، وثلاثة أخرى تصب فى البحر فى وسط وأقصى غرب المدينة فى الميناء الغربية، وهذه الأفرع الرئيسية يتفرع عنها أخرى ثانوية أشبه بالقنوات الصغيرة لتوزيع المياه لرى «الجنائن» بأنحاء المدينة، وللتخزين فى الصهاريج والخزانات اللازمة لاستخدامات الأهالى.

كما نلاحظ من هذه الخرائط أن الجزء الشمالى من الأسوار المواجهة للبحر عبارة عن سورين متجاورين بينهما فاصل ليس كبيرا، والشق الأول الشمالى وهو الخارجى والمواجه للبحر أقل ارتفاعا من الآخر الداخلى المواجه للمدينة وذلك بهدف إعاقة الأعداء المهاجمين إذا ما تخطوا الجزء الأول من السور، فيتمكن حينئذ المدافعون عن الأسوار فى الجزء الثانى من إعاقتهم عن دخول المدينة. وهذا الجزء من الأسوار يحتوى على نحو عشرين برجا يحتمى به المدافعون[٢٤].

وفى ظل الحكم العثمانى تقلص حجم المدينة كثيراً عما كانت عليه من قبل فى العصر المملوكى حتى أصبح عمرانها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى محصورا بين الميناءين الشرقى والغربى، وينتهى حدود هذا العمران شمالا فى مواجهة شبه جزيرة رأس التين. وكانت كل المنطقة الواقعة بين

البحر المتوسط شمالا وحتى مقام ولى الله أبى العباسى المرسى بعضها مقابر وبعضها نقع، ولم يكن بها سوى بعض بيوت للصيادين بمنطقة السيالة، وأصبحت حدود المدينة من الجهة القبلية ذلك الحى المنشأ حديثا (المنشية) أو الحارة التى يقطنها المغاربة[٢٥] (خط المغاربة).

وتناقص عمران المدينة حتى بداية القرن التاسع عشر تناقصا ملحوظا، حتى أصبحت المدينة هى ذلك الجزء من الترسيبات الحديثة الواقع بين الميناءين والذى يمثل من قبل جسر الهبتاستاديوم (المدينة التركية)[٢٦] وترتب على ذلك أن أصبح سياج الأسوار العربية كبيرا عن حجم الكتلة السكنية للمدينة [٢٧].

ويستطيع المرء أن يتجه من المدينة الحديثة نحو الجنوب عن طريق أبواب مرتفعة أهمها باب البحر حتى الأسوار القديمة للمدينة، والتى لم تعد تضم سوى بقايا مدينة الإسكندرية القديمة فى عصرها البطلمى الرومانى، وهى عبارة عن أطلال أثرية لمبانٍ مدفونة تحت الأنقاض، وأعمدة مهشمة أو مقلوبة وبقايا من الفخار والزجاج والرخام[٢٨].

وظلت المدينة المأهولة بالسكان طوال العصر العثمانى، وخلال سنوات الحملة الفرنسية الثلاث، وحتى بداية عصر محمد على لا تشغل سوى تلك الرقبة الواقعة بين الميناءين والذى لا يزيد طولها من الشمال إلى الجنوب على كيلومتر واحد، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو نصف كيلومتر فقط، وبقيت هكذا حتى بدأ محمد على يهتم بأمر الإسكندرية كمنفذ رئيسى لمصر من جهة الشمال لتتغير أكثر معالم المدينة عما كانت عليه من قبل.

أبواب المدينة

يبدو بوضوح للباحث مدى الفرق بين مساحتى المدينة قبل الفتح العربى إبان عصورها القديمة، وبعده فى عصرها الإسلامى من خلال دراستنا للخرائط التى رسمت لأسوارها خلال هذه الفترات، إلى جانب تلك الخرائط التى رسمها محمود باشا الفلكى[٢٩]. وقد بنيت للأسوار الجديدة أبواب تقابل الأبواب الأربعة القديمة، وإن كانت قد سميت بأسماء جديدة، فالباب الذى بنى فى أقصى الشرق مقابل باب الشمس أطلق عليه باب رشيد أو باب القاهرة لأنه طريق المسافر إلى مدينتى رشيد والقاهرة[٣٠].

والباب الذى بنى فى أقصى الغرب مقابل باب القمر أطلق عليه باب المقابر Cata Combes وعرف خلال العصر الإسلامى بباب القرافة لأنه كان يؤدى إلى مقابر (جبانة)، كما يؤدى إلى الميناء القديم (الغربى) عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى الغرب من السور قريبا من قلعة الوكن أو القلعة المثلثة Triangulaire التى كانت على شكل مثلث داخل الأسوار الغربية[٣١].

والباب الثالث فى أقصى شمال المدينة هو باب البحر ويشرف على الميناء الشرقية مباشرة فى مواجهة المدينة الحديثة (التركية). أما الباب الرئيسى الرابع فهو باب العمود فى الجنوب، لأنه يشرف على عمود السوارى (بومبى)، وعرف كذلك بباب سدرة لوجود شجرة كبيرة من أشجار السدر إلى جوار هذا الباب[٣٢]. كما أطلق عليه فى العصرين الأيوبى والمملوكى «باب البهار»[٣٣].

ومع اتساع مساحة النطاق السكنى للمدينة الحديثة فيما بين الميناءين فتح باب جديد يقع إلى الغرب من باب البحر بجوار حارة البلقطرية قريبا من الميناء الغربية، عرف حتى أوائل القرن التاسع عشر بالباب الأخضر[٣٤].

وقد أقيمت هذه الأبواب الخمسة فى أبراج السور لكى تكون منافذ للداخل والخارج من المدينة، وللدفاع عن السور نفسه، ويغطى الواجهة الخارجية لمصراعى هذه الأبواب نصال حديدية مثبتة بمسامير رؤوسها بارزة ومتعددة الأشكال وإن كان حديدها قد تآكل بسبب الصدأ وأصبح مفتتا، بينما الأخشاب المصنوع منها الأبواب وهى أخشاب الجميز القوى ظلت على حالتها، وتوجد كتابات عربية بالخط الكوفى على واجهاتها تدل على زمن تشييدها.

وإبان الحكم الفرنسى للمدينة فى نهاية القرن الثامن عشر قام العسكريون الفرنسيون بفتح بابين جديدين فى جدران السور نفسه بخلاف الأبواب الخمسة التى كانت موجودة من قبل؛ الباب الأول بالقرب من الحصن المثلث (الركن) والذى يسمى حصن باب المقابر (العمود) فى أقصى الجنوب الغربى. أما الباب الثانى ففتح فى الاستحكام المجاور لكورتينة ملحقة بالحصن المثلث إلى الشرق من الأول ويعرف بالباب الجديد، وهذين البابين الجديدين ليسا إلا ثملة (ثغرة) فى بدن السور[٣٥]، وكانت تفتح وتغلق بأبواب مثل الأبواب الرئيسية بهدف تأمين وتيسير خروج ودخول القوات الفرنسية فى أوقات الضرورة لإحكام السيطرة على المدينة.

وقد نشأت أخطاط جديدة إلى جوار هذه الأبواب سواء الرئيسية منها

أو الفرعية الجديدة، وعرفت بها مثل : خط باب البحر، خط باب رشيد، خط باب السدرة، خط الباب الأخضر[٣٦].

الحصون والقلاع

١- حصن (قلعة) الفنار:

وكان يطلق على هذه القلعة عدة أسماء منها قلعة الفنار Le phare لأنها أقيمت فوق موقع وعلى أنقاض الفنار على طرف نهاية شبه جزيرة فاروس حيث كان يوجد فنار الإسكندرية القديم الذى بناه بطليموس الثانى (٢٨٠-٢٧٩ق.م.)[٣٧]. وقد بنيت هذه القلعة فى عهد الملك الأشراف أبى النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى سنة ١٤٧٩م، وقد استخدمت أحجار الفنار المنحوتة والمستخرجة من محاجر المكس مع الأعمدة الجرانيتية المجلوبة من أسوان[٣٨] فى بناء القلعة والمسجد المقام بها. ويبلغ سمك حوائطها ثلاثة أمتار فى بعض الجهات، وتشتمل على برج مربع الشكل بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة، كما أن أطرافها الأربعة يقام عليها أربعة بروج بها مزاغل.

وتتكون القلعة من ثلاث طوابق: الطابق الأول والثانى مخصص للصلاة حيث يوجد الجامع، والطابق الثالث يحوى غرفا ذات مزاغل ومتاريس كان يوجد بها أكداس من الأسلحة المختلفة التى تراكم فوقها الصدأ وتدل أشكالها على أن بعضها أسلحة صليبية، والبعض الآخر من أسلحة حملة لويس السادس عشر[٣٩].

وإذا تأملنا الفن المعمارى لهذا البناء نجد أنه اقتبس الأساليب البيزنطية فى بناء الحصون والقلاع والذى كان منتشرا فى عصر دولة المماليك البرجية؛ فهو يشبه بروج سور القسطنطينية، حيث أقام قايتباى حول قلعته سورا منيعا ذا أبراج ومزاغل ومكاحل لها مماش فسيحة[٤٠]. وبداخل السور عدة مبانٍ أعدت خصيصا لسكنى جنود الفرق العسكرية المتمركزة فى القلعة من «الأنفار والأغوات والجويجية» حيث أطلق السكندريون على تلك القلعة اسم «البرج الكبير الأشرفى»[٤١] ويتم الاتصال بالقلعة عن طريق جسر ضيق يحميه طريق مغطى وبه متاريس طولها (٥٥٠) مترا، بنى هذا الجسر فوق سلاسل صخرية تستوى على سطح الماء تعلوه قطعا مفتتة من الأعمدة الجرانيتية ألقيت بشكل أفقى تؤدى إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج[٤٢].

وقد ظلت هذه القلعة رمزا لقوة الإسكندرية ومنعتها؛ إذ أنها تحمى مدخل الميناء الرئيسى للإسكندرية (الشرقى)، وظلت هكذا حتى أصبح الميناء الغربى هو الميناء الأوحد للإسكندرية منذ عصر محمد على.

٢- حصن المنارة Pharillon:

وهو حصن صغير يتخذ اسمه من موقعه تجاه حصن الفنار Phare، (قلعة قايتباى)، مقام على حافة شريط من الشعب الصخرية التى تغلق مدخل الميناء الجديد (الشرقى)، والذى يقوم حصن الفنار بالدفاع عنه[٤٣] ويرجع زمن إنشائه إلى عصر المماليك، على نهاية اللسان الداخل فى البحر والمسمى بـ «السلسلة»، ولذلك أطلق عليه خلال العصر الإسلامى ببرج

السلسلة أو برج سيدى عبد الله[٤٤]. أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن الصغير فهو فى مستوى مياه البحر التى تغطيه أحياناً. وبرج الحصن مربع الشكل، وظل قائما يؤدى دوره حتى نهاية القرن الثامن عشر، عندما خرب أثناء أحداث الحرب بين الفرنسيين وبين الحلفاء الإنجليز والأتراك فأصبح أثرا بعد عين مع بداية القرن التاسع عشر[٤٥].

٢-قلعة الركن:

هذه القلعة أطلق عليها الحصن المثلث Triangulaire لأنه كان يشغل مثلثا فى أركان الأسوار من الجهة الجنوبية الغربية للمدينة العربية[٤٦].

وكانت هذه القلعة محاطة بالحدائق (الجنامين)، يحدها من الجهة البحرية (الشمالية) طريقا يقال له «الزقاق» يؤدى إلى مقام ولى الله سيدى عماد أو ما يسمى بالنجع الغربى للمدينة[٤٧]. كما تقع جنوب أحد أبواب الإسكندرية الرئيسية فى الغرب وهو باب المقابر Porte de Catacombes[٤٨].

أما فى داخل المدينة الحديثة (التركية) فيطالعنا برجان وحصن واحد هم:

١-البرج الظاهرى:

وأطلق عليه البرج الظاهرى لأنه يقع فى ظاهر المدينة التركية فى مواجهة الميناء الشرقية بجوار المقابر ومقام سيدى أحمد أبى العباس المرسى[٤٩]، وفى الحى المعروف بخط المزار الذى يقع فى نطاقه عدد من

أضراحة أولياء الله الصالحين، وهو أشبه بقلعة منفصلة عن أسوار المدينة العربية فى منطقة «بحرى جزيرة الثغر»(٥٠).

٢- برج مصطفى باشا:

ويقع قريبا من البرج الظاهرى ولكن تجاه الميناء الغربية لحمايتها، فى الحى المعروف بخط الصيادين، وهذا البرج يحمل الطابع المعمارى الإسلامى، وهو أكبر مساحة من البرج الظاهرى، ويفوقه من الناحية العددية للقوى العسكرية والحامية المتمركزة به، ويداخله مسجد خاص بهذه الحامية(٥١).

٢- قلعة كوم التاضورة:

وتقع هذه القلعة فوق التل المرتفع المشرف على الميناء الغربية، وهى عبارة عن برج صغير يستخدم كمرصد ونقطة استرشاد للمسافرين عند الاقتراب من الميناء، وارتفاعه من ٥٠-٦٠ مترا. وقد تكون هذا التل من بقايا أنقاض المدينة منذ عدة قرون سابقة على بداية القرن التاسع عشر، ويبدو أنه كان موجودا فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى(٥٢).

أما فى داخل إطار أسوار المدينة القديمة (العربية) فتطالعنا قلعة واحدة هامة هى :

قلعة كوم الدكة:

وتقع فى أقصى جنوب شرق المدينة، بالقرب من باب رشيد، فوق أحد مرتفعين بارزين فى حقل الخرائب داخل أسوار المدينة العربية، وارتفاعه

يصل إلى أكثر من خمسين مترا، وهذا المرتفع تكثر به أنقاض الآنية الفخارية القديمة، والمخلفات الأخرى التي يلقى بها سكان المدينة منذ القدم[٥٣] ولذلك أطلق عليه كوم الديماس [٥٤]، حيث يوجد هذا الحصن الذى يتولى حماية أطراف المدينة وخاصة من ناحية الجنوب الشرقى، ولم يلق الاهتمام الكافى فى الفترة السابقة على مجئ الحملة الفرنسية حيث تم تحصينه بعد ذلك تحصينا جيدا فى إطار الاهتمام بحصون وقلاع الإسكندرية[٥٥].

وأما فى خارج أسوار المدينة العربية من جهة الشرق فيوجد حصنين هما :

١-حصن معسكر قيصر Camp de Cesar:

وهذا الحصن قديم قدم إنشاء مدينة الإسكندرية فاقيم فى أعلى المرتفع المعروف بمدينة النصر (نيكوبوليس Nicopolis) التى بناها الإمبراطور قيصر فى أقصى شرق المدينة تخليدا لذكرى إنتصاره على جيوش كليوباترا وأنطونيوس، وكانت مقرا لمعسكرات الجيش الرومانى منذ القرن الأول ق.م.، وكما وصفها سترابون فهى تقع على بعد ثلاثين ستاديون شرق الإسكندرية[٥٦] قرب شاطئ البحر، وقام الرومان بتحصين هذا الموقع تحصينا جيدا وعرف بـ «قلعة أو حصن القياصرة» كما أطلق عليه العرب «قصر القياصرة»[٥٧]، وظل هذا الحصن يؤدى دوره فى حماية شرق المدينة، وقد ورد بخريطة دانفيل D'Anville التى رسمها للإسكندرية عام ١٧٧٢م[٥٨].

٢-حصن أبو قير:

هذا الحصن هو آخر حصون شرق الإسكندرية ويقع داخل قلعة أبى قير القديمة الرابضة فوق قمة مرتفعة على رأس متقدم فى البحر يسمى بهذا الاسم(٥٩)، وكان أبناء الثغر يطلقون عليها «قلعة أبى قير العليا»، وكانت الطوائف العسكرية التى تتولى العمل بها تخضع لإشراف وإدارة حكام الإسكندرية، ومن المرجح أن عصر إنشاء هذه القلعة يرجع إلى زمن المماليك(٦٠).

ولنعد إلى أقصى الغرب للمدينة لنتعرف على آخر حصونها وهو :

-حصن العجمى (مرابط Marabout):

وهذا الحصن مقام فوق قمة السلاسل الصخرية فى أقصى الغرب على لسان يقع إلى الجنوب الغربى من خليج الميناء الغربية، والمسافة بينه وبين حصن الفنار (قايتباى) تبلغ نحو (١١,٧٢٨) مترا، وفى مواجهته توجد جزيرة العجمى، وترجع أهمية هذا المكان إلى المسجد الموجود بالجزيرة والمسمى بالشيخ العجمى(٦١).

موانئ الإسكندرية

١- الميناء الجديد (الشرقي)

هو الميناء الرئيسي للمدينة منذ إنشائها حتى أواخر القرن الثامن عشر، وكان يحده من الغرب «الهيبتاستاد»، ومن الشرق رأس لوكياس (السلسلة)، وأطلق عليه في العصر القديم «الميناء الكبير Portus Magnus» حيث تشرف على شواطئه الجنوبية والشرقية القصور الملكية[٦٢]، ويقع فنار الإسكندرية القديم على مدخله الغربي، الذي أقيم على أنقاضه قلعة وحصن الفنار (قايتباي)، لتحمي هذا المدخل، كما يحمي مدخله الشرقي حصن المنار Pharillon الذي أقيم على رأس لوخياس (برج السلسلة)[٦٣]، ويتخذ هذا الميناء شكل الخليج والتي بلغت طول فتحته في أواخر القرن ١٨م نحو (١٧٨٩) مترا، وكانت هذه الفتحة تقل عن ذلك كثيرا في العصر اليوناني، وتمتلئ بسلسلة من الشعب الصخرية والصخور التي لا ترتفع عن مستوى سطح الماء مما تجعل الممر الصالح لدخول السفن إلى الميناء لا يزيد اتساعه عن خمسمائة متر فقط، حيث يمكن للسفن العبور إلى داخل الميناء على بعد مسافة قليلة إلى الشرق من حصن الفنار بجوار الصخرة الموجودة في مقدمة الفنار والمعروفة بالزمردة، والتي يمكن الاقتراب منها بشدة دون خطر، وتضطر السفن التجارية التي لا تستطيع القاء رواسيها في الميناء، وتخشى دفع الرياح الشمالية والشمالية الشرقية الخفيفة، في حالة النوات والعواصف الشتوية أن تتحول نحو الميناء القديم الغربي.

ويبدو أن الميناء كان عميقا في العصر القديم، لكنه أصبح ضحل

العمق فى العصور التالية، يغص بالرمال والأحجار والمخلفات الأثرية التى ألقيت فيه خلال قرون عديدة مضت[٦٤].

٢-الميناءالقديم(الغربى):

وهو الميناء الغربى للمدينة والذى كان يطلق عليه سبروتس يونستس Portus Eunostus» حيث يقع إلى الغرب من رصيف الهيتاستاد، وكان أقل استخداما من جانب البحارة من الميناء الشرقى، ويقع إلى الجنوب من خليج فسيح يتكون من سلسلة صخور تختفى جزئيا تحت الماء ويظهر بعضها فوق السطح، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية من رأس الشيخ العجمى غربا وحتى رأس التين فى أقصى غرب شبه جزيرة فاروس شرقا حيث يوجد الفنار (قايتباى)، وبطول يصل إلى نحو (٨٣٠٠) متر[٦٥].

وقد كان دخول هذا الميناء محرما على السفن الأوربية [٦٦] حتى مجئ الفرنسيين فى نهاية القرن الثامن عشر، حينئذ سمح للسفن التجارية فقط من جميع الجنسيات الرسو فى أى من موانئ المدينة[٦٧].

وخلال العصر العثمانى كانت مبانى الترسخانة والمخازن الخاصة بالبحرية تقع على شاطئ هذا الميناء[٦٨].

وهكذا يتضح لنا أن مدينة الإسكندرية قد مرت بثلاث مراحل انتقالية واضحة المعالم من ناحية تطور تخطيطها، وعمرانها منذ إنشائها وحتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى وهى :

١- المرحلة الأولى : وتمثل فترة ازدهار المدينة العمرانى والبشرى فى

العصر اليوناني الروماني حيث بلغت أقصى اتساع لها داخل أسوارها القديمة التي اكتمل بناؤها على وجه التقريب في العصر البطلمي وتنتهي هذه الفترة مع بداية الفتح العربي لمصر (٢١هـ/ ٦٤١م).

٢- المرحلة الثانية : وتمثل فترة انتقال من العصور القديمة إلى العصر الإسلامي بدءا من الفتح العربي (القرن الأول الهجري - السابع الميلادي)، فتهدمت أسوارها القديمة وأعيد بناؤها إلى الداخل في أغلب أجزائها نتيجة تقلص حجم المدينة وانخفاض عدد سكانها بعد بناء الفسطاط كعاصمة جديدة لمصر، ولم تعد الإسكندرية كما كانت من قبل، فتعرضت للغزو، والضعف، وانتقل مركز النشاط البشري من المدينة العربية في الجنوب والشرق إلى الشمال حيث المدينة الحديثة (التركية).

٣- المرحلة الثالثة : وهي المرحلة التي تبدأ بظهور تجمع سكاني جديد في منطقة الهيتباستاد وهي الرقبة الرملية التي نشأت فيما بين المنيائين الشرقية والغربية لتصل بين المدينة القديمة جنوبا وجزيرة فاروس (رأس التين) شمالا وتعرف باسم المدينة التركية (الحديثة) منذ بداية العصر الفاطمي (ق ٤ هـ/ ١٠م) وتظل هذه المدينة تزداد نموا واتساعا حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما تبدأ أسوار الإسكندرية في الانهيار بعد خروج الحملة الفرنسية وتولي محمد علي السلطة، واهتمامه بتحصين السواحل والموانى دون الاسوار التي ستصبح أثرا بعد عين فتتلاشى معالمها تدريجيا داخل الاتساع العمراني للمدينة في عهد خلفائه.

الهوامش

١- د. مصطفى عبد الحميد العبادى : تاريخ الإسكندرية فى العصر اليونانى والرومانى، ص ١.

٢- رأس التين والأنفوشى الحالية.

٣- د. مصطفى عبد الحميد العبادى : المرجع نفسه، ص ١١.

لمزيد من التفاصيل عن الإسكندرية فى عصرها الأول :

د. زكى على : الإسكندرية، تنسيمها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مجلة كلية الآداب – جامعة فاروق الأول (الإسكندرية)، العدد الثانى، ١٩٤٤.

٤- د. مصطفى عبد الحميد العبادى: المرجع السابق، ص ٣.

٥- د. جمال الدين الشيال : الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ص ١٩٦.

٦- د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص ٨.

7-Mahmoud El-Falaki; Mémoire Sur L'Antique Alexnadrie, P. 46.

٨- الحى الملكى يشغل الآن منطقة محطة الرمل والأزاريطة حتى كوم الدكة.

٩- د.جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، المرجع السابق، ص ص ٩-١٠.

١٠- فؤاد فرج : الإسكندرية، ج١، ص ٢٨.

١١- منطقة كوم الشقافة الحالية وما يجاورها من أحياء شعبية.

12- Mahmoud - El-Falaki -; Mémoire Sur L'Antique Alexandrie, PP. 58-89.

د. جمال الدين الشيال : تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ص ١٠ – ١١٠.

١٢- باب الشرق (شرقى) أو باب القاهرة.

١٤- د. محمد صبحى عبد الحكيم، مدينة الإسكندرية ص ص ٩٨ -٩٩، ١٠٢.

يشغل شارع كانوب الآن طريق الزعيم عبد الناصر (فؤاد الاول) وامتداده فى شارع سيدى متولى واسحاق القديم.

١٥- بتلر : فتح العرب لمصر، ص ٣٤٨.

١٦- د. محمد صبحى عبد الحكيم : المرجع السابق ، ص ص ١١٧-١١٨.

17- E.M. Forster; Alexandria, A History and guide, pp. 72-74.

١٨- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، سجلات أرقام : ٨٢، ٨٨، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١٠٩، ١٠٩ مكرر.

19- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, p. 522.

٢٠- يمكن الاطلاع على الرسوم وخرائط علماء الحملة الفرنسية.

أنظر Gaston Joudet, Op. Cit., Pl. XVII.

٢١- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية : سجلات أرقام : ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١٠٩.

22- Mahmoud El-Falaki, Op. Cit., PP. 12-13.

د. جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ١١.

23- Mahmoud El-Falaki, Op. Cit., P. 4.

د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

٢٤- أنظر خريطة أسوار المدينة فى هذه الفترة:

د. جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ١٦٠.

٢٥- د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

26- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, pp. 399-400.

27- E.M. Forster; Alexnadria; Ahistory and guide, pp. 72-74.

28- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, pp. 408-409.

٢٩- انظر : Mahmoud El-Falaki, Op. Cit.,

٣٠- د. محمد صبحي عبد الحكيم : مدينة الإسكندرية، المرجع السابق، ص ١٢٠.

31- Déscription de L'Egypte; T.XVIII, p. 418.

٣٢- د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة، المرجع السابق، ص ٢١٢.

٣٣- كان بهار الهند والشرق القادم إلى القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم خليج الإسكندرية، حيث تفرغه خارج أسوار الإسكندرية عند هذا الباب، وفى أوقات تعطل الملاحة فى الخليج، كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال عبر الطريق البرى وتدخل من باب البهار بدلا من باب رشيد.

د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، من كتاب الإسكندرية، الغرفة التجارية بالإسكندرية، ١٩٤٩، ص ص ٩٦-١٠٣.

٣٤- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٧٦، ٢٨٢، سجلات ٦-١٠، ١١٢.

35- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, p. 418.

٣٦- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١١٢، ١٧، ٣٦٢، ٢٨٢، سجلات ١٠٩ مكرر، ٨٨، ٧٥، ١١٢.

٣٧- فؤاد فرج : الإسكندرية ، مرجع سابق، ص ٦٤.

٣٨- لا تزال آثار وبقايا هذه الأعمدة موجودة حول قلعة قايتباى وفى المياه المحيطة بها وخاصة بالميناء الشرقية حيث تجرى الآن محاولات لاستخراجها.

٣٩- عبد الحميد رسمي: مذكرة عن طوابى مصر وحصونها (الجزء الخاص بقلعة قايتباى).

٤٠- عبد الحميد رسمي، المصدر نفسه.

٤١- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ٢٤٠، ١٢٨٨، ٢٣٣، سجلات ١٠٨، ١٠٩ مكرر، ١١٢.

42- Décription de L'Egypte,T.XVIII,pp.396-398,481-482.

43- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 432.

٤٤- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٣٧، سجلات ٧٥.

45- Idem.

46- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 416.

٤٧- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ٢٨٣، ٣٠٠، ٣٧، سجلات ١٠٥، ٧٥، ٧٥.

٤٨- أطلق الفرنسيون على هذه القلعة اسم قلعة نوفيفية Fort Planches وذلك بعد احتلالهم للمدينة فى نهاية القرن الثامن عشر.

49- Gaston Jondet; Atlas Historique, Planches XXIV, XVII.

٥٠- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٥٠، ١٥١، سجل ١٠٩، رقم ١٥٧ سجل ١١٠.

51- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 399.

52- Ibid, p. 411.

عبد الحميد رسمي : المصدر السابق.

53- Décription de L'Egypte, T.XVIII, pp. 410-411.

٥٤- عبد الحميد رسمى : المصدر السابق.

٥٥- اطلق عليه الفرنسيون اسم حصن كريتان Crétin وهو كولونيل مهندس قتل في موقعه أبي قير البرية في يوليو ١٧٩٩م.

٥٦- الاستاد يوم يساوى (١٨٦) مترا تقريباً.

د. مصطفى عبد الحميد العبادى : المرجع السابق، ص ٤.

57- Mahmoud El-Falaki; Op. Cit., P. 64.

٥٨- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ، ج، ص ص ١٩٥-١٩٦.

59- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 433.

٦٠- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٦٢، ٨٠، سجلات ١٠٩، ١٠٥.

61- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 440.

٦٢- انظر خريطة الإسكندرية فى العصر الإغريقي الروماني عن :

د. جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ١٥.

63- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 396.

64- Ibid, PP. 395-396.

65- Ibid, PP. 390-394.

66- Ibid, P. 394.

٦٧- محمد عبد الحميد الحناوى : الإسكندرية فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١، ص ص ١٨-١٩.

٦٨- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ٥٤٢، ١٣٢، سجلات ١٠٦، ١١٠.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر غير المنشورة:

١- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية (سجلات مبايعات)، المحفوظة حاليا بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

٢- مذكرة محفوظة عن طوابى مصر وحصونها قديما وحديثا، محفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم (٩٠٠)، كتبها الملازم أول عبد الحميد رسمى صفى الدين، الضابط بمدفعية سواحل رأس التين بالإسكندرية في مايو ١٩٤٠م، ومهداة إلى حضارة صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٠م.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

١- الفريد بتلر : فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٣٢.

٢- د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٧.

٣- ــــــــــــ: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار المعارف بمصر ١٩٤٩م.

٤- ــــــــــــ: تاريخ الإسكندرية في العصرين الأيوبى والمملوكى، الإسكندرية، غرفة الإسكندرية التجارية ١٩٤٩م.

٥- د. زكى على : الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مجلة كلية الآداب، بجامعة الإسكندرية، ١٩٤٤، ١٩٤٥م.

٦- عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الثانى، ط ٢، القاهرة، مطبعة النهضة، ١٩٤٨م.

٧- فؤاد فرج : الإسكندرية، تاريخ المدينة القديمة ودليل المدينة الحديثة، ج١، ط٢، مطبعة المعارف بالقاهرة، ١٩٤٢م.

٨- د. محمد صبحي عبد الحكيم، مدينة الإسكندرية، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٥٨م.

٩- د. مصطفى عبد الحميد العبادى، تاريخ الإسكندرية فى العصر اليونانى والرومانى، محاضرات القيت على طلاب قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإسكندرية، ١٩٧٨-١٩٧٩م.

ثالثا: المراجع الاجنبية:

10- Décription de L'Egypte, T.XVIII, Panckoucke, Paris, 1821.

11- El-Falaki (Mahmoud Bey); Mémoire sur L'Antique Alexandrie, Copenhague, 1872).

12- Forster, E.M.; Alexandria, A History and Guide, Alexandria, 1938.

13- Jondet, Gaston, M.; Atlas Historique, Mémoire présentés a la Société sultanieh de géographie, T. II, le Caire.

رابعا: رسائل جامعية لم تنشر:

- محمد عبد الحميد الحناوى : الإسكندرية فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١م، رسالة ماجستير لم تنشر، تحت إشراف أ.د. جلال يحيى، المنيا ١٩٨٥.

«الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب»
«للإسكندرية فى العصور الوسطى»

Objectivity and Honesty in The Foreing Exploreris Description of Alexandria in the Middle Ages

بحث مقدم من

الدكتورة/ سهير محمد إبراهيم نعينع

مدرس تاريخ العصور الوسطى بالكلية

«الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب»
«للإسكندرية فى العصور الوسطى»

لم تكن مدينة الإسكندرية مثل المدن الأخرى التى ولدت صغيرة وكبرت مع الزمن، بل لقد تصورها منشؤها مدينة كبيرة ... فبنيت أسوارها المحيطة ورسمت أحياؤها وشوارعها وخُططت منذ البداية(١).

ونالت مدينة الإسكندرية إعجاب من زارها من الرحالة المسلمين والأوروبين على حد سواء(٢)، إذ أضفى عليها موقعها الفريد بين قارات العالم مكانة متميزة، فكانت أولى مدن العالم على عهد البطالمة الأول، وأصبحت بفضل موقعها وميناؤها مركزاً لتجارة الهند، فكانت المحطة التجارية الهامة

(١) الفلكى (محمود باشا) : رسالة عن الإسكندرية القديمة وضواحيها والجهات القريبة منها التى اكتشفت بالحفريات وأعمال سبر الغور والمسح وطرق البحث الأخرى، الترجمة العربية لمحمود صالح الفلكى، مراجعة د. محمد عواد حسين، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٥٧، ص ١٢٩ – ١٣٠ وفيه : يتمثل النمو الذى ذكره ديودور الصقلى – كما قال لترون – فى زيادة عدد المبانى داخل المحيط الشاسع الذى رسمه وبتوقرات وفى ذلك يقول أمين مارسلين باللاتينية :

Alexandria, Non Sensim Utaliaeubes, sedinter initia prima, auctae spatiosos ambitus.

«نمت الإسكندرية منذ الزلبداية واتسعتبفضل طموح أهلها العظيم ولم يكن نموها بالتدريج مثل المدن الأخرى».

(٢) وصفت الإسكندرية منذ البداية واتسعت بفضل طموح أهلها العظيم ولم يكن نموها بالتدريج مثل المدن المثال :

Arculf, Narrative About the holy places, Written by Adamnan, Book II in P.P.T.S., Vol III, P.P. 48-50;

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الاندلسي، رحلة ابن جبير، نشر دى غوية ط٢، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٧، ص ٤٠ ....

التبادل التجارى بين الشرق والغرب[١].

ومكانة الإسكندرية معروفة منذ بنائها وكتبت عنها المؤلفات التاريخية العديدة ولست هنا بصدد إعادة الكتابة عن طبوغرافية المدينة، فقد قام بذلك العديد من المؤرخين المحدثين[٢]. ولكنى سوف أخصص هذا البحث لعرض الرؤية الخاصة لبعض الرحالة الأوروبين البارزين وما سجلوه أثناء زيارتهم للإسكندرية عن معالمها الشهيرة ومنشآتها، خاصة وإن اهتمامات أولئك الرحالة تركزت بشكل أساسى حول تحصيناتها ومعالمها العسكرية، وربما فاق ما ذكروه عن هذه التحصينات فى دقة الوصف ما جاء فى كتابات كثير من الرحالة المسلمين[٣].

(١) Arculf, op. cit., p. 49;

بنيامين التطيلى (بن يونة النبارى الاندلسى)، الرحلة – ترجمها من العبرية إلى العربية عزار حداد، بغداد، ١٩٤٥، ص ١٧٨ – ١٧٩؛ ماركوبولو، رحلات ماركو بولو، الترجمة العربية (عن الترجمة الانجليزية لوليم مارسون) عبد العزيز جاويد، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٧م، ص ٢٢٧.

(٢) من المؤرخين المحدثين راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة؛ جمال الدين الشيال، الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، فصله من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢)، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢؛ تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف مطبعة دون بسكو، الإسكندرية ١٩٦٧؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ط٢، دار المعارف، مطبعة دون بسكو، الإسكندرية، ١٩٦٩؛ درويش النقيلى، دراسة جديدة فى طبوغرافية مدينة الإسكندرية زمن الملك الأشراف شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ – ١٣٧٧م) الإسكندرية ١٩٨٨م.

(٣) راجع على سبيل المثال : ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر) الأعلاق النفسية/ نشر دى غوية مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١م، ص ٧٩، ص ١١١٨؛ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) مسالك الابصار فى ممالك الامصار، دولة المماليك الاولى، دراسة وتحقيق دوروتياكرافولسكى، المركز الإسلامى للبحوث، بيروت ١٩٨٦م ص ١٥٠. وغيرهم كثيرين لا يتسع المجال هنا لذكرهم.

ومن أبرز الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الإسكندرية الرحالة أركولف الذى قام برحلته فى سنة ٧٠٠م/ ٨٢هـ وأمدنا بمعلومات وافية أكدت ما كانت تتمتع به الإسكندرية من رخاء وغنى لم ينتهيا بالفتح العربى، فقد ذكرها أركولف بأنها من أعظم المدن، بل فاقت شهرتها باقى المدن والماء يحيط بها من الشمال (البحر المتوسط) ومن الجنوب محاطة بفم النيل (خليج الإسكندرية[1]، وميناؤها يعد أكثر صعوبة من الموانئ الأخرى وهو يتخذ شكل الجسم الآدمى حيث يكون متسعا أعلى وأسفل ضيقاً فى المنتصف[2] ويصف أركولف موانئ الإسكندرية وصفا دقيقا حتى عد هذا الوصف دليلا لبحارة السفن يسترشدون به، فهو يصف الناحية اليمنى من الميناء مشيراً لفنار الإسكندرية الذى يقع فوق جزيرة صغيرة وأطلق على الفنار اسم فاروس (وهى تسمية إغريقية) والذى يمكن رؤيته من مسافة بعيدة[3]. ولكى

---

(١) Arculf , op. cit., P. 48, 49.

وخليج الإسكندرية هو مصدر المياه العذبة اليها، وتنشأ به الطريق التجارى الموصل إلى داخل البلاد، وكان يسير محاذيا لسور الإسكندرية الجنوبى وعلى بعد ثلاثة أمتار منه إلى أن يصب فى الميناء الغربى أسفل حوض الميناء المقفل (الصندوق Kibotos)، راجع : على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة، جـ٧، ط أولى ، المطبعة الكبرى الاميرية، بولاق مصر المحمية، ١٣٠٥م، ص ٤٥؛
Breccia (E.) Alexandria and Aegyptum, Bergamo, 1914, p. 67.

وكان هذا الخليج يمد المدينة بالمياه العذبة عن طريق ما يتفرع عنه من قنوات تملأ الصهاريج التى كانت تنتشر بالمدينة : راجع خرائط رقم ١، ٢ الملحقة بهذه الدراسة.

(٢) Arculf , op. cit., P. 48.

ذكر أركولف الميناء المقفل (الميناء القديم أو ميناء الصندوق) بانه يحتوى على احواض السفن وكانت تصب فيه ترعة صالحة للملاحة وتمتد حتى بحيرة مريوط. راجع تعليقات ناشر رحلة اركولف فى p.p.t.s. III, p. 49 : وانظر ايضا الفلكى : الإسكندرية القديمة ص ١١١.

(٣) اشار أركولف الى الميناء الشرقى الذى كان مخصصا للاجانب وإلى الميناء الغربى (الميناء العربى)، ولكنه لم يحدد المسافة التى يرى منها ضوء المنار. ويعد وصفه للمنار وصفا موجزاً إذا

يتسنى للبحارة تحديد مدخل الميناء جيداً فلا بد من إشعال النار عن طريق حرق قطع من الخشب فى مقدمة السفينة حتى يمكنهم اتخاذ مسار بعيد عن الصخور المختبئة تحت الأمواج وتجنب الاصطدام بها. والميناء ضيق من جهة اليمين وأكثر اتساعا من جهة اليسار، وتوجد حول الجزيرة عوارض خشبية ذات احجام كبيرة وضعت كمصدات لأمواج البحر، وذكر أركولف امتداد الميناء بحوالى ٣٠ وحدة قياس[١]. والميناء آمن حتى فى أيام العواصف وما يستقبله من بضائع وسلع يكفى احتياجات المدينة وسكانها، ويوفر لها النشاط التجارى، وبفضل هذا الميناء، فإن الإسكندرية تثرى بمختلف البضائع والخيرات التى ترد إليها من جميع أنحاء العالم، فضلا عن

= ما قارناه بوصف الرحالة والجغرافيين المسلمين. راجع على سبيل المثال لا الحصر : ابن رستة : الاعلاق النفيسة، ص ٧٩؛ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد إبراهيم الهمذانى) كتاب البلدان، نشر دى غوية، بريل ١٨٨٥م، ص ٧١، المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ٣٧٥ - ٣٧٦. وقد أورد قصة تردد كثيرا فى غالبية المصادر العربية وهو ما تحايل به الروم على هدم المنار أيام الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦م)/ ٧٠٥ -٧١٥هـ) ونجحوا فى إزالة مرآته الضخمة التى يمكن من خلالها - فيما يقال - رؤية من يأتى فى البحر إلى مسافات طويلة للغاية تصل إلى ٥٠ ميلا أو مسيرة ثلاثة أيام وقتها: راجع : كاتب مراكش مجهول، كتاب الاستبصار فى عجايب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٩٥-٩٩؛ وانظر دراسة مفردة لناشر تحفة الألباب لأبى حامد الأندلسى عن جانب من آثار (عجايب) مصر فى القرن الثانى عشر وفيها ترجمة فرنسية لنص أبى حامد عن منار الإسكندرية.

Ferrand (Gabreil), "Les Monuments de l" Egypte au XIIe Siecle d'Apres Abu Hamid Al-Andalusi", dans: Melanges Mespero, III, Orient Islamiquie, Tom LXVIII (1940), Imprimerie de l'institut Francais d'Archeologie Orientale, le Caire 1940, pp. 58-61.

(١) ووحدة القياس تساوى ٢٢٠ ياردة Arculf, op. vit., p. 48 and N.4

كونها مخزنا للقمح الذى تصدره إلى معظم بلاد العالم، إلى جانب بضائع أخرى هامة، وتعتمد منطقة الإسكندرية فى الزراعة على مياه الأمطار بالإضافة إلى مياه النيل التى تصل إليها عن طريق خليج الإسكندرية[1].

ومن الثابت أن مدينة الإسكندرية ظلت محتفظة بمكانتها مدة طويلة من الزمن، وهذا يتضح لنا من وصف الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار الإسكندرية بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حوالى السادس الهجرى إذ لا نعرف على وجه التحديد السنة التى زار فيها الإسكندرية، فرحلته امتدت من سنة (١١٦٥ - ١١٧٣م) (٥٦١ - ٥٦٩هـ)[2]. لمختلف الاقطار بدءا من سرقسطة بأسبانيا وانتهاءا ببلرمو Palermo فى صقلية؛ وعلى الرغم من البعد الزمنى بين رحلة أركولف ورحلة بنيامين التطيلى الذى قد يصل إلى أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن، فإن بنيامين قد وصف مدينة الإسكندرية بأنها من أجمل مدن الدنيا وأمنعها، والغريب أنه ذكر مدرسة الإسكندرية التى أطلق عليها مدرسة أرسطو أستاذ الإسكندر[3]....

---

(١) Arculf, op. cit., p. 49.

(٢) بنيامين التطيلى، الرحلة، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٧، حاشية رقم (١) إذ يذكر ناشر رحلة بنيامين أن هذه المدرسة كانت تحتوى على مكتبة الإسكندرية الشهيرة والتى تأسست سنة ٢٨٤ ق.م.، واحترقت مرة سنة ٤٧ ق.م. ومرة أخرى سنة ٢٥٠م - ومن المعروف أن يوليوس قيصر قد أشعل النار فى سفن الإسكندرية التى كانت لا تزال فى الترسانة، وكذلك السفن فى الميناء لأنه لم يكن لديه من الجنود العدد الكافى لحراسة تلك السفن الكثيرة كما قال هو نفسه، ويقال أن النيران قد التهمت جانبا من المكتبة طبقا لما ذكره بعض الكتاب القدماء وبناء على ذلك فإن المكتبة مع كونها من القصر - فلابد أنها كانت قريبة من الترسانة راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة، ص ١١٨ نقلا عن سترابون، ترجمة لترون جده ص٣٣٩.

والتى كانت مؤلفة من عشرين قسما يقصدها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم لدراسة فلسفة أرسطو. وأن ميناها واسع وجميل معقود على أساطين من رخام[1]. ويضيف بنيامين أن الإسكندرية مشيدة على «طيقان معقودة، تحتها الكهوف والمغاور»[2]. ووصف شوارعها بالطول والاستقامة، والشارع الرئيسى الممتد من باب رشيد إلى باب البحر يصل إلى حوالى ميل، أى أن ببساطة شديدة قد أورد طول مدينة الإسكندرية[3]، وفى نفس الوقت يذكر

---

(١) من الواضح أن بنيامين التطيلى لم ير مبنى المدرسة أو المكتبة وإنما استقى روايته من مصادر قديمة سابقة على رحلته، وهذا ما يشير إليه ناشر رحلته إذ ينكر أن بنيامين قد قام بتدوين ما شاهده عيانا فى الأمصار التى مر بها وما نقله عن الثقات ذوى الأمانة المعروفين لدى يهود أسبانية، راجع الرحلة، ص ٢٢ من مقدمة ناشر كتابه عزاز حداد. وأساطين بمعنى أعمدة.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧. وربما ينطبق هذا الوصف على وصف رحالة القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، حيث ذكروا فى وصفهم للأسوار المزدوجة أنها كانت مزودة بأبراج مستطيرة مسقوفة وكانت مجهزة بعقود قباب صغيرة ينعقد بعضها فوق بعض فيما لا نهاية له وتتصق هكذا بنفس الشكل بأبراج الأسوار. راجع على سبيل المثال :

Palerme : (Jean Foresien), (1581) dans Voyage en Egypt, Le caire 1971, p. 9; Neitzchitz (George chr., von), 1636, dans : Voyage en Egypt des annees 1634, 1635 et 1636, le caire 1974, p. 197.

(٣) بنيامين التطيلى، الرحلة، ص ١٧٧. ويجئ تحديد بنيامين لطول المدينة بحوالى ميل تحديدا غير دقيق، فالميل = ١٦٠٩,٥ مترا فإذا كان الفلكى قد حدد طول المدينة القديمة بمقدار ٥٠٩٠ مترا ومتوسط عرض المدينة ١٧٠٠ مترا والراجح لدينا أن بنيامين قد قصد طول المدينة العربية وهو أقل بكثير من طول المدينة القديمة راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة، ص ٦٣-٦٤، ٦٦-٦٧؛

Brecciap, cit., p. 59.

ولكن راجع عن محيط أسوار الإسكندرية القديمة بعد بنائها مرورا بالعصور البطلمى والرومانى والبيزنطى : لوبير (جراتيان) دراسة عن مدينة الإسكندرية فى كتاب وصف مصر (لعلماء الحملة الفرنسية) مجلد ٣، المدن والأقاليم المصرية، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٧٨، ص ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩-٣٧٠ وخريطة الإسكندرية فى العهد الإغريقى والرومانى وعند الفتح العربى فى ص ٣٨٤. وهى ملحقة فى آخر هذه الدراسة.

طول رصيف الميناء في اتجاه البحر (الهيباستاد) حوالى ميل ايضا[1]. ويتطرق بنيامين لوصف منار الإسكندرية الذى تحطمت عنه مرآته الضخمة ولكنه لا يزال يهدى السفن ويشاهد نهارا من على بعد مائة ميل[2].

وقد جاء فى وصف بنيامين التطيلى للإسكندرية ما يثبت الاهمية الكبرى التى كانت تتمتع بها وعالميتها، فقد أحصى المماليك والاقطار الاجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى/ أواخر السادس الهجرى ومنه نستطيع التعرف على أنواع التجارة وألوانها المختلفة التى كانت تتدفق إلى الإسكندرية من كل بلدان اوربة المسيحية، ومن بلدان الشرق الإسلامية وغير الإسلامية[3]. وقد أشار

---

(١) بنيامين التطيلى ، الرحلة، ص ١٧٧ وهو يقصد هنا، رصيف الهيباستاد الذى كان يصل ما بين المدينة وجزيرة فاروس ومعروف أن طوله يبلغ ٧ ستاد ومن هنا كانت تسميته، وعلى ذلك يصبح تقدير بنيامين غير دقيق إذا علمنا أن الميل الرومانى يساوى ١٤٧٩ مترا بينما ٧ ستاد تساوى ١١٥٠ مترا على أساس ان الاستاد يساوى ١٦٥ مترا. راجع الفلكى، الإسكندرية القديمة، ص ٦٨، ص ٩٩ حيث يحدد طول الهيبا ستاد بـ ١٢٣,٥ مترا.

(٢) يذكر ابن جبير والذى تزامنت رحلته مع رحلة بنيامين (بعد حوالى خمسة عشر سنة) أن ضوء المنار يرى على أكثر من سبعين ميلا. ولكن الرأى المتفق عليه من المحققين هو ٢٥ ميلا فقط. راجع : ابن جبير، الرحلة، ص ٣٨، ٤١؛ بنيامين : الرحلة، ص ١٧٨، هـ٦.

(٣) من الممالك التى احصاها بنيامين ، البندقية ، بلنسية، وتسكانيا وافوليه ، ومالفى وصقلية ، وقلورية (قطلونية) ورومانية وخزرية والبجناقية وهنغارية - وبلغارية وراغوسة وخرواتية وصقلابونية وروسية ، والمانيا وسكسونية والدانمرك وكورلندة والنورجة وفريزية واسكونية وانكلترة وويلز وفلندر وهينولت ونور مندية وفرنسا وبواتو وانجو وبرجونية وبروفلسية وجنوة وبيزة وعسقونية، وارغون ونبارة وعدوه الغرب وأفريقية وجزيرة العرب ونواحى الهند ونوبله والحبشة ولبيبة واليمن والعراق والشام واليونان المعروفين بالروم والترك، الرحلة، ص ١٧٨، ١٧٩ ويتفق معه ليون الأفريقى فى القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى، من ورود السفن التجارية

بنيامين إلى نوع جديد من المنشئات عرفته الإسكندرية والثغور المصرية فى العصور الوسطى وهو الفنادق فيقول «وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى وتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم فى ضجة وجلبة يبيعون ويشترون»[1].

أما عن رحالة القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) وحتى نهاية العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، فقد تركز اهتمامهم على التحصينات مثل (الأسوار والأبراج والأبواب) فقد كانوا ينبهرون فور اقترابهم من الإسكندرية برا أو بحرا وهم يلاحظون أسوارها وأبراجها. وقد زار الرحالة الألمانى لودلف فون ساشم الإسكندرية فى عام ١٣٤٠م/ ٧٤١هـ وكتب تقريره فى سنة ١٣٥٠م/ ٧٥١هـ[2] وصف فيه الإسكندرية وما كانت

= إلى ميناء الإسكندرية الشرقى من مختلف الاقطار ويقول «وفيه ترسو أكثر السفن جمالا وكذلك أكثرها أهمية، كمراكب البندقية والسفن الجنوية والبراقوزية وكذلك المراكب الأوربية الأخرى، ونشاهد عادة فى الإسكندرية سفن قادمة حتى من القلانس وانكلتره وبسكاى، والبرتغال ومن كل السواحل الأوربية ... ولكن أكثرها عدداً هى السفن الإيطالية. راجع: ليون الافريقى (جان) - الحسن بن محمد الوزان الزياتى، وصف افريقية، ترجمة عبد الرحمن حميده عن الترجمة الفرنسية أ. ابيولار منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٣٩٩م، ص ٥٧١.

(١) بنيامين التطيلى، الرحلة، ص ١٧٩.

(٢) Ludolfi Rectoris ecclesiae parochialis in Suchem : Deitinere Terrae Liber. Nach alten Hands Chriflen Berichtigh Heran Spegebenvon Friedrich Deychs, Bibliothek des Litterarisehen Vereins in Stuttgart XXV, 1851, S. 35.

فى صورة عن وقفة الإسكندرية فى عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٤م من مخطوطة «الإلمام» للنويرى السكندري د. بول كالة، ترجمة وتعليق درويش النخيلى، وأحمد قدرى محمد أسعد، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، ١٩٦٩، ص ٣٧، هـ٣، ص ٥٦.

عليه من حصانة وازدهار وتقدم عمراني، ووصف مبانيها ونظافة شوارعها. إذ يقول عنها تتصف الإسكندرية بالجمال الفائق والحصانة الشديدة، فهي مزودة بأبراج عالية وأسوار منيعة، ويمتاز داخل المدينة بحسن الرواء، إذ يسود البياض لون أبنيتها، في حين تتفرق قنوات مياهها الجارية في كل زاوية من شوارعها، وتلقى المدينة عناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها، إذ يوجد بها المحتسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء ما يقل من نظافة شوارعها أو مياهها، للوهلة الأولى وكأنها من المناعة بمكان بحيث يستحيل الاستيلاء عليها[1].

ويجئ إسهاب الرحالة الغربيين في الكلام عن تحصينات مدينة الإسكندرية في وصف يندر أن نجده في مصادرنا العربية اضافة تثير التساؤل حول اهتمامهم بالوصف الدقيق للتحصينات، فهل كان هذا مؤشرا لما أراد الغرب الأوربي القيام به من الاستيلاء على هذه المدينة الغنية التي كانت تتنهم في مد دولة المماليك بجانب كبير من ثرائها أو كان امتدادا للعقلية الداعية للحروب الصليبية المتأخرة بضرورة اضعاف دولة المماليك اقتصاديا حتى يتسنى لهم القضاء عليها واسترجاع الأراضي المقدسة[2].

(١) راجع : كالة (بول)، المرجع السابق، ص ٣٧. ويضيف كالة بلته مما لا شك فيه أن ثمة تطورا سريعا حدث في المدينة ويبني كلامه هذا على التقرير الذي بعث به أحد الحجاج اللاتين الذي قضى أكثر من ثلاثين عاما في أراضي المسلمين، قضى معظمها في الإسكندرية وكتب إلى البابا يوجين الرابع Eugen IV(١٤٣١ – ١٤٤٧م) بالمبادرة بمديد المساعدة للمسيحيين في مصر.
Traite sur das le Terre saint dans Mouments Pour servira l'Histoire des Provinces de Namur, de Hainot et de Luxembourg, t. IV, Bruxelles 1846, p. 35 IF.

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه النقطة راجع : رنسيمان (ستيفن) تاريخ الحروب الصليبية ، ثلاثة أجزاء، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان بدون تاريخ ج٣، ص ٧٢٢؛ باركر

ربما كان هذا هدفا فى حد ذاته لهذا العدد الكبير من الرحالة الغربيين الذين قصدوا من دقة وصفهم تحقيق هذا الغرض أو ربما كانوا مكلفين بكتابة تقارير عن الموانى الإسلامية مثما كان الوضع بالنسبة للحجاج الغربيين[1]. فهو إذن نوع من التخابر أو التجسس لصالح دولهم حتى لو لم تكن أهدافهم عسكرية فهى بالضرورة أهداف اقتصادية تحكمها طبيعة تلك الفترة[2].

= (إرنست) : عزيز سوريال : العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية – ثقافية – صليبية) ترجمة فيليب صابر سيف، الطبعة الأولى، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٨٢؛

Atiya (Aziz Suryal) The Crusade in the Later Middle Ages, Oxford 1938, p.p. 31, 39-44, 114-116. and also.

عاشور الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، ج٢، ط٣ مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٦م، ص ١١٢٩ وما بعدها؛ سهير نعينع، حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية على الإسكندرية، رسالة ماجيستير لم تنشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص ١٠٧ – ٤٧ فى هذه الصفحات استعراض لأهم مشاريع الدعاة اللاتين. وافتراحاتهم حول قيام حرب صليبية يكون الاتجاه فيها إلى مصر لضرب دولة المماليك اقتصاديا، وهذا ما تمخضت عنه حملة بطرس ملك قبرص على الإسكندرية فى ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م.

(١) ومن احدث الكتابات فى هذا الصدد مقاله :

Franco (Cardini), The Memory of Jern Salem Remarks About The Diarf of Aprilgrim Florence to the Holy Sepuchre (1384-85), p. 7.

وهى مقالة القيت فى مؤتمر المؤرخين العرب الذي أقيم فى القاهرة بتاريخ ١٩٩٥/١١/٢٧م وضمن مجموعة الأبحاث الخاصة بالمؤتمر (تحت الطبع) وهى عبارة عن مذكرات حاج فى فلورنسا يدعى فريسكو بالدى قام بزيارة الأراضى المقدسة فى الفترة من ١٣٨٤ – ١٣٨٥م بهدف الحج وأيضا لأغراض عسكرية حيث كان مكلفا بجمع معلومات عسكرية عن الموانئ الإسلامية والتحصينات وقدم تقديره للملك شارل الثانى ملك نابولى.

(2) Atiya (Aziz) The Crusade , p.p. 114-115;

جوزيف نسيم، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ٨٠، ١١١ – ١١٣؛ عم كمال، الجاليات الأوروبية فى الإسكندرية فى العصور الوسطى، فصله من كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور ، مطبعة الإسكندرية ١٩٧٥م، ص ٢٨١ وما بعدها.

على أية حال فإننا لا نستطيع إغفـ طبيعة هؤلاء الرحالة الأوربيين المتميزة بالدقة بصرف النظر عن الهدف الكامن وراء هذه الدقة. وقد ظهر هذا واضحا فى كتاباتهم عن تصحينات مدينة الإسكندرية التى تتمثل فى الأسوار والأبراج والأبواب، وسوف نحاول إجمال كلام الرحالة الأوربيين فى دراسة مقارنة لتوضيح الصورة بشكل مركز. فإذا بدأنا بأسوار الإسكندرية، فإننا نجد غالبية الرحالة الغربيين ذكروا ازدواج سور الإسكندرية وانفردوا بمتابعة ذكر ازدواج هذا السور الذى تمثل فى السور الأمامى أو الخارجى والسور الخلفى أو الداخلى، فاقاض البعض منهم فى وصف هذه الأسوار وتحصيناتها، حتى أن بعضهم حدد المسافة بين السورين (الفصيل) ومقياس ارتفاع السور الأمامى، فنجد الرحالة جيستيل Ghistele (١٤٨٢-١٤٨٣م/ ٨٨٧ -٨٨٨هـ) [١]. يذكر أن السورين عند أقصى الطرف الشمالى الغربى من الناحية الشمالية مزودان بشراريف تبرز فى جدران السور فى نتوءات شبه دائرية تتفتح فيها المزاغل (الكوى) للرمى بالسهام، والسور الأمامى منهما منخفض عن الخلفى ويرتفع فى وسط الخندق، وحدد عرض الفصيل بينهما بعشرة أمتار. مقام عليها أبراج ضخمة مبينة بالحجر الأبيض، ويتلامس هذان السوران بالقرب من الحصن أو القصر القديم[٢].

---

(1) Ghistele, (Joose, Van), (1482-1483), dans les Voyages en Egypte, Le Caire 1976. p.p. 111, 124.

(2) Ghistele, (1482-1483), op. cit., p.p. 124-125.

وانظر موقع هذا الحصن فى السور الغربى فى خريطة بيلون Belon سنة ١٥٤٧ ضمن الخرائط الملحقة فى نهاية هذه الدراسة : خريطة رقم (١).

وموضعه في السور الغربي. وقد تنوعت هذه الأبراج بعضها ضخم بنى بالحجر الأبيض المنحوت[١].

ويأتي الرحالة فيلكس فابرى الذى قام برحلته فى سنة ١٤٨٣م/ ٨٨٨هـ مؤيدا لكلام جسيتيل، وهو يصف الأسوار عند باب الديوان فى أواخر الطرف الغربى من السور الشمالى، وينص ايضا على ارتفاع السور الداخلى[٢].

أما السور الخارجى فهو يعلو الخنادق وفيه المزاغل التى تعلو قمته، وشراريف وأبراج تطل على الخنادق، ويضيف فابرى إشارته إلى سماكة السور الخارجى وما به من برجيات للمراقبة Echangette وأبراج رئيسية Donjons تطل على الخنادق المتسعة عند هذا السور[٣]. كما يذكر فابرى أن هذه الأبراج قد اتسمت بالعلو والمتانة[٤].

(1) Fabri (Felix), (1483), (1483), dans les Voyage en Egypte, le Caire 1975, II, p.p. 658, 660, 773.

(2) Fabri (1483), op. cit., p.p. 950, 953.

(٣) برجيات ومفردها بريجم Echangette وهو برج صغير مخروطى الشكل يكون فى أعلى الحصن، أما Donjons فهو البرج الرئيسى فى القصر أو الحصن . راجع : يحيى الشهابى، معجم المصطلحات الاثرية (بالفرنسية والعربية)، دمشق ١٩٦٧ فى صفحات ١٥٣، ١٥٤.

(4) Fabri (1483), op. cit., p.p. 950, 953.

وؤيده فى ذلك : Lubenan, (R.), (1588), dans : Voyage en Egypte, le Caire 1972. p. 212; Morison (Athoine), (1697), dans les Voyages en Egypte, le Caire 1976, p. 6.; Kiechel (S.), (1588), dans : Voyages en Egypte pendant les annces 1587- 1588, le caire 1972, p. 31.

أما الرحالة كوبان (١٦٣٨-١٦٤٦م/ ١٠٨٤ -١٠٥٦هـ)[١]. فقد قدر ارتفاع السور الخارجي بنحو عشرين قدما، أى حوالى سبعة أمتار. وهذا بالتالي يوضح أن السور الداخلى يرتفع أكثر من سبعة أمتار وهو ما لم يحدده لنا الرحالة الغربيون، وقد نص كوبان على أن هذه الأبراج قد أصبحت عتيقة وأصابها التهدم فى عدة نواحى[٢]. وربما يرجع وصفه هذا إلى أن رحلته متأخرة زمنيا والتى تدخل فى العصر الحديث وهذا نفس ما أشار إليه علماء الحملة الفرنسية على مصر[٣].

أما الرحالة اليهودى مشولام بن مناحم Mechullam ben Menahem . الذى زار الإسكندرية فى سنة ١٤٨٤م/ ٨٨٩هـ، وقام بقياس سمك السور فقد ذكر أنه يساوى عشرة أذرع أى خمسة أمتار[٤].

وقد تابع الرحالة الاوربيون حديثهم بذكر أسوار الإسكندرية المزدوجة بأنها كانت مزودة على امتدادها بأروقة مسقوفة مقنطرة تتيح للفارس القيام بدورة «كاملة» فى أسفلها[٥]، وهى مجهزة بعقود قباب صغيرة ينعقد بعضها

(1) Coppin (Jean), (1636-1646), dans les Voyage en Egypt, le Caire 1971, p.p. 22-3.

(2) Coppin, op. cit., p. 22.

(٣) يقول علماء الحملة الفرنسية : أن آثار الإسكندرية لاتوحى إلا بحزن مرير وعميق فهى تقدم صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذي يصيب الإنسان ومنجزاته راجع : وصف مصر ، مج ٣ (المدن والأقاليم)، ص ٣١٧.

(٤) انظر فى Pitts (J.), (1685), dans : Voyages en Egypt Pendant les annees 1679 - 1701, le Caire 1981, p. 116n. 200.

(5) Palerne (Jean Foreslen), (1581), dans les Voyage en Egypte , le Caire 1977. p. 9; Neitzchitz, (1636), op. cit., p. 196.

فوق بعض فيما لا نهاية له، وتلتصق هكذا بنفس الشكل بأبراج الأسوار وهى مفتوحة فى وسطها بحيث تستند هذه العقود عند عمود واحد فى وسط الأبراج ويستند بعضها الآخر عند البرج الآخر على أربعة أعمدة، ويصل بين كل قاعدة وعمود إفريز العمود الآخر قطع كبيرة من الخشب المربع متقاطعة وموصولة بالمسامير الضخمة[1].

ويذكر الرحالة ساندى ١٦١٧م/ ١٠٢٦هـ[2] فى وصفه للأبراج بأنها اتصفت بالضخامة أكثر مما وصفت بالمتانة أو الحصانة إلا أنها كانت من جهة الساحل غاية فى الحصانة كما وصفها بلون[3].

وتنوعت أبراج الأسوار بين المستديرة والمربعة على امتداد السورين بكاملها[4] إلا أن الاختلاف فى كلام الرحالة الأجانب عن عدد هذه الأبراج

(1) Monconys (Balhasar de), (1646 - 1647), dans les Voyages en Egypte, pp. 17-18.

ومن الرحالة الذين نصوا على ازدواج سور الإسكندرية راجع :

Lubenau (1588), op. cit., p. 212; Gonzales (1665 - 1666), op. cit., p. 311; Veryard (1678), dans : Voyages Pendant les annees (1678 - 1701), dans les Voyages en Egypte , le Caire 1981, p. 3; Morison (1697), op. cit., p. 6.

(2) Sandys (George), (1677), dans : Voyages en Egypte de annees 1611 et 1612, dans les Voyages en Egypte, le Caire. 1973, p. 106.

(3) Blunt (Henry), (1634), dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, dans les Voyages en Egypte, le Caire 1974, p. 23 ; Neitzshciz (16360, op. cit., p. 197.

(4) Monconys (1646 - 1647), op. cit., p. 14.

قد يثير التساؤل فمنهم من ذكر عدد الأبراج المربعة فقط[1]. والبعض الآخر ذكر الأبراج كلها في السورين، ومنهم من اكتفى بالإشارة إلى أبراج السور الداخلي فقط أو الخارجي فقط، ومنهم من ذكر الأبراج الصغيرة فقط في أحد السورين أو كلاهما مجتمعين واهتم بعضهم بتحديد المسافة بين كل برج وآخر دون ذكر عددها[2].

ولكنهم اهتموا جميعا بالإشارة إلى ما حل بهذه الأبراج في فترات مختلفة وحتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري[3]. فنجد إشارة الرحالة بريمونBermond (١٦٤٣-١٦٤٥م/١٠٥٣-١٠٥٥هـ) إلى وجود دائر الأسوار مازال قائما ولم يخرب تماما وأن الأسوار الشرقية والجنوبية قد احتفظت بازدواجها[4]. وقد أكد مونكونيس Monconys (١٦٤٦

---

(١) ذكر ساندي الأبراج الصغيرة فقط وحددها بثمانية وستين برجا راجع :

Sandy, (1977), op. cit., P. 106.

(2) Bremond (Gabried), (1643 - 1645), dans les Voyages en Egypte, le Caire, 1974, p. 14.

لم يحدد بريمون ومونكونيس عدد هذه الأبراج وإنما اكتفيا بذكر المسافة بين كل برج وآخر حدداه بخمسين خطوة أي نحو ٥٧٠ مترا وهذا بحساب الخطوة في المقياس الروماني ١,٠٥ متر أما جونزاليس Gonzales (1665-1666), op. cit., p. 311 فقد حدد الأبراج في السورين مجتمعين (خمسمائة برج) راجع : بالنص على عد هذه الابراج بانها أكثر من ستين برجا في السورين مجتمعين راجع Veryard واكتفى فيريار Veryard (1678), op. cit., p. 16.

(٣) لاحظ نتزشتز Neitzshitz سنة ١٦٣٦م أن السورين المزدوجين كانا لا يزالان كاملين وفي حالة جيدة : Neitzshitz (1636), op. cit., p. 196.

(4) Bremond (1643 - 1645), op. cit., p. 23.

- ١٦٤٧م/ ١٠٥٦ -١٠٥٧هـ) كلام بريمون فيما يخص الأسوار الجنوبية مع الإشارة إلى إصابتها ببعض التهدم إلا أن أبراجها مازالت قائمة وإن كان الخراب قد أصابها هى ايضا [1]. ويأتى الرحالة جونزاليس Gonzales (١٦٦٥ -١٦٦٦م/ ١٠٧٦-١٠٧٧هـ) ويشير إلى أبراج الأسوار المزدوجة فبعضها كان سليما والبعض الآخر يحتفظ بسلامة جزئية وقد اصاب التلف بعض قواعد الأبراج وتعرضت متاريس السور والأسوار نفسها للتهدم إلى حد كبير، وقد أرجع جونزاليس هذا الأمر إلى تعرض الإسكندرية فى سنة ١٦٢٤م/ ١٠٣٤ - ١٠٣٥هـ للتدمير على يد القراصنة ولصوص البحار[1].

---

(1) Gonzales (1665 - 1666), op. cit., p. 311.

وعلى الرغم مما تردد فى كلام الرحالة الغربيين عن حصانة مدينة الإسكندرية وعن أسوارها الجميلة الحصينة وأبراج الأسوار وأبوابها وما يمتاز به مظهرها الخارجى من جمال يغرى بالتطلع اليه، إلا أن ذلك لم يمنعهم من ابداء مشاعر الرثاء لما كانت عليه المدينة من خراب فى بعض أجزائها، وقد أدرك بعضهم أسبابه فأشاروا صراحة إلى غارة ملك قبرص بطرس لوزنيان على الإسكندرية، كما أرجعوا سبب هذا الخراب إلى الزلازل، فسجلوا لنا من النصف الثانى من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر الميلاديين انطباعاتهم التى تعبر عن دهشتهم البالغة لما انتاب المدينة من تدهور عمرانى على الرغم من مظهرها الخارجى الخلاب.

راجع عن انطباعات هؤلاء الرحالة :

Gistele (1482 - 1484), op. cit., p. 114; Fabri (1484), op. cit., II, pp. 665 et n. 434, 725 et n. 1012; II, pp. 953, 967 et n. 1278.

حيث أشار صراحة إلى أثر حملة الملك بطرس فى تدمير المدينة وأن أخطأ فى تاريخ الحملة، كما أشار الى عدم تعرض رجال الملك بطرس لمساجد المدينة بالهدم.

وللمزيد من المعلومات عما أصاب مدينة الإسكندرية على يد القبارصة راجع : سهير شعيع، حملة بطرس لوسينان، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، ص ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥

ولعل هذا الكلام يؤيده مشاعر الرثاء التى ابداها هؤلاء الرحالة لما كانت عليه المدينة من خراب فى بعض أجزائها[1].

وقد وقع التضارب فى أقوال الرحالة الذين أتوا بعد جونزاليس فنجد فى رواية براون Brown (١٦٧٣ - ١٦٧٤م/ ١٠٨٤ -١٠٨٥هـ) إشارة إلى أن أبراج أسوار الإسكندرية كانت قائمة عند زيارته للإسكندرية[2]. وأيده فى ذلك الرحالة فيريار Veryard سنة ١٦٧٨م فقد ذكر أن الأسوار المزدوجة لاتزال قائمة[3]. وينص من بعده الرحالة Pitts سنة ١٦٨٥م/ ١٠٩٧ هـ على بقاء أسوار مدينة الإسكندرية على ما كانت عليه باستثناء سقوط أجزاء من تحصينات السور العلوية[4]. وقد قام الرحالة هنتجتون Morison ١٦٩٥م/ ١١٠٧هـ) بذكر ما تهدم من بعض مواضع السور[5]. ويأتى الرحالة موريسون ١٦٩٧م/ ١١٠٩هـ برأيه فى أن سور المدينة المزدوج كان لا يزال قائما وتجد بناء أبراج المدينة بعد إصابتها

(1) Belon du Mans (Peirre, Le Voyage en Egypte de pierre Belon du Mans (1547), Imprime Par L'Institut Francais d'Archeologie oriental au Caire dans les Voyages en Egypte le caire 1970. p. 91 et n. 57; palerne (1581), op. cit., p. 9 et n. 25;

واشار بالبين صراحة إلى حملة ملك قبرص

Bretten (Michael Heberer, Von), (1585 - 1586), dans les Voyage en Egypte le Caire 1976, p. 36.

Blunt (1634), op. cit., p. 23 : وتنبأ بلون أن المدينة سوف يهجرها سكانها كلية

(2) Brown, (1673 - 1674), op. cit., p. 18.

(3) Veryard (1678), op. cit., p. 3.

(4) Pitts, (1685), op. cit., p. 116.

(5) Huntington (1695), op. cit., p. 18.

بالتلف [1] وفى حقيقة الأمر، فإننا لا نعرف سببا لهذا التضارب سوى أنه من الجائز تعرض مدينة الإسكندرية لعمليات ترميم ما تهدم من مبانيها على غرار ما حدث بعد حملة ملك قبرص على الإسكندرية[2].

وهناك تضارب آخر فى أقوال الرحالة حول تحديد محيط سور المدينة، فقد وقع البعض منهم فى الخلط بين سور المدينة القديمة وسور المدينة العربية، فأضاف بعضهم أجزاء من سور المدينة القديمة إلى الأسوار العربية وهذا ما قام بترجيحه محمود باشا الفلكي والذى استنتجه من الحفريات التى قام بها[3].

---

(1) Morison (1697), op. cit., p. 16.

(٢) تم تجديد ما تخرب من أجزاء السور الغربى الذى تعرض للهدم نتيجة عملية الاقتحام أثناء الحملة، خاصة عند باب الديوان، فتم عمل أبراج من الخشب فوق أعلى أبواب المدينة وألبست هذه الأبراج بجلود الجمال والبقر صيانة لها من المهاجمين عند رميهم لها بالنار وبالإضافة إلى هذا تم تغليق الصخور الصوانة المقنطرة المثبت عليها الحديد المذبب كما رشقت الأبواب المتجهة إلى البحر بالحراب المدببة تدعيما لها، وتم تكسير الحجارة بشراريف القلاع والأسوار للرمي بالمجانيق ووزعت هذه الأحجار على دائر السور وزودت الأسوار بالنفط ومدافع البارود، كما قام ابن عرام والى المدينة وقت الحملة بتعمير خندق من جهة الميناء الغربى ووصله ببحر الميناء الشرقى.

راجع : النويرى السكندرى، الالمام ، ج٣ ص ٢١٢ – ٢١٣، ج٢، ص ١٥٧، ج٦ ص ٣، ٤٠٢.

(٣) استنتج الفلكى الخلط بين أسوار الإسكندرية القديمة والأسوار العربية فقام البعض بضم أجزاء من سور الإسكندرية القديمة إلى أسوارها العربية هذا إلى جانب عدم اهتمامهم بحساب تعريجات السور وهذا مما أوجد الخلاف بين ما ذكره الرحالة من أطوال مختلفة

راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة ، ص ٦٦ – ٦٧؛ Breccia, op. cit., p. 59.

وقد نص الرحالة بريتون (١٥٨٥ – ١٥٨٦م) على طول وعرض المدينة القديمة لا العربية فالمحيط عنده بعد حساب التقديرات حوالى ٩٠٠٠ متر: ويساوى ١٢٨٠٠ مترا عند هاران

أما بالنسبة للخندق الذى أحاط بأسوار مدينة الإسكندرية، فقد ذكره الرحالة فيلكس فابرى بأنه كان يحيط بأسوار المدينة من جهة باب رشيد وحتى الباب الذى دخل منه فابرى وهو باب الديوان، أى أن هذا الخندق كان محاذيا لسور المدينة[1].

أما عن أبواب مدينة الإسكندرية كما ذكرها الرحالة الأجانب، فهي خمسة أبواب منها : باب البحر : الذى حدده بنيامين التطيلى صراحة بأنه يطل على الميناء الغربى مباشرة [2] كما حدده بيلون على خريطته وأطلق

Haran أما الرحالة ساندى فهو يذكره بما يوازى ١٤١٠٠ مترا أما جونزاليس فيقدره بحوالى ٧٢٤٣ مترا ويقدره براون ٤٨٣٠ مترا وهينتجتون بعدده ٨٠٥٠٠ مترا فى حين اكتفى موريسون (١٦٩٧) بتقدير طول المدينة وقدره ٤٨٢٨,٥٥ مترا وفى تقدير الفلكى لمحيط سور الإسكندرية القديم (حدده ١٥٨٠٠ مترا). وهذا يؤيد عملية الخلط بين سور المدينة القديم والاسوار العربية راجع عن هؤلاء الرحالة :

Bretten (1585 - 1586), op. cit., P. 23; Harant (1598), op. cit., 266; Sandys (1611), op. cit., p. 90; Gonzales (1665 - 1666), op. cit, p. 335; Brown (1673- 1674), op. cit., p. 21; Huntington (1695), op. cit., p. 18.

(1) Fabri (1483), op. cit., p. 656;

ولكن راجع ماشو : إذ ينكر أن مدينة الإسكندرية واسعة وعريضة ذات أبراج وأسوار عالية وحصينة، وكل باب من أبوابها تدعمه أبراج جميلة تضفى عليها حصانة، ويحيط بالمدينة خنادق كبيرة واسعة وعتيقة :

Machaut (Guillame, de) La Pris d'Alexandria ou Chronique du Roi Pierre i er de Lusignonn publier par M. T. de Ras Latrie , Genere 1877, p. 16.

(٢) بنيامين التطيلى، الرحالة ، الترجمة العربية ص ١٧٧.

عليه نفس الاسم Porte de la Mere [1]؛ وذكره بريتون Bretten كما هو واضح فى خريطته فى أقصى الطرف الغربى من السور الشمالى، واتجاه الباب الخارجى نحو الميناء الغربى مباشرة [2]؛ وذكره فابرى تحت اسم Marin [3].

أما الباب الثانى والذى يقع فى السور الشمالى أيضا بالقرب من باب البحر فهو باب الديوان : فقد وصفه فيلكس فابرى بالضخامة والارتفاع وتدعمه الأبراج على جانبيه، وله أبواب متتابعة ، الخارجى والداخلى منها مصفحان بالحديد، ويوجد أمام الباب الخارجى جسر ضيق متحرك يمكن رفعه حتى يتمكنوا من العبور إلى هذا الباب الضخم وذلك لوجود الخندق تحته مباشرة، وعند اجتيازه، يوجد ممر منحن إلى الداخل يقع بين جدران عالية وابراج، ويقود هذا إلى الباب الحديد الداخلى الذى ينفتح على المدينة، وعند إغلاق الباب الخارجى، يتم حجز من يوجد بين البابين بسلاسل ومزاليج حديدية شديدة الارتفاع فيتعذر الدخول أو الخروج من أحد المحجوزين بين البابين، ويوجد على يمين الداخل قريبا من الباب الداخلى باب صغير يترك مفتوحا يسمح بالنفاذ إلى مكان فى الداخل بين سور

(١) راجع خريطة رقم)(١) Belon (1547), op. cit., p. 926.

(2) Fabri (1483), pp. 683 - 684.

ويطلق على الميناء القديم اسم الميناء الغربى. راجع :

Debbane (Max, A propose de Deux colonnes Atrivuees A l'Eglise dc The onase, dans Bulletinode la societe Archeologque d'Alexandria, No 42 (1967), Imprimerie de l'institut Francais d'Arceologie Oriantule, Le caire 1967. p. 83.

المدينة الداخلى المرتفع وسورها الخارجى الذى يعلو الخنادق، بحيث يمكن التجول داخل نطاق هذا الحيز لمسافة طويلة بين السورين، ومن وسط هذا المكان يمكن مشاهدة كوى السهام المطلة على الخنادق والتى تعلو قمة السور الخارجى إلى شراريف السور الذى تقوم فيه بعض الأبراج [١] ، وقد اطلق فابرى على هذا الباب باب الغرباء أو باب الأجانب La Porte des etranger[٢]. ومن خلال وجود الأجانب فى المدينة وأرادوا الخروج للنزهة خارجها فيما بين الميناءين لمشاهدة السفن أو الاتصال بها فى الميناء الشرقى لم يكن أمامهم إلا باب البحر، ويحصلون فى كل مرة يخرجون فيها على إذن خاص ويتم تفتيشهم فى الخروج والعودة [٣].

أما الباب الثالث فهو الباب الغربى (الأخضر) : فقد أطلق عليه الرحالة الأربيون عدة أسماء تدل كلها على أنه الباب الغربى، فمنها باب القمر أو باب برقة أو باب الصحارى[٤].

---

(1) Fabri, (1483), op. cit., pp. 661-663.

(2) Fabri, op. cit., pp. 655 -656; 773-775.

وقد وصف المستشرق كامب الطريقة التى كانت ترفع بها البضائع من خارج مبنى الديوان حيث توجد رافعة رحوية cabuston راجع Combe, les lere ..... op. cit.,55 et. n.1 والملاحظ أن ماشو قد وصف باب الديوان بأنه باب صغير ضعيف يكاد يخلو من الحماية وقد تم حرقة أثناء حملة الملك بطرس، ولكن تم تجديده بعد ذلك وازدادت ضخامته وتم تحصينه وهذا ما يؤكده وصف فيلكس فابرى له.

Machaut (Guillaune) op. cit., pp. 84-85.

(3) Fabri, op. cit., pp. 683 -685.

(٤) ذكره ابن بطوطة بالباب الأخضر، وقد زار ابن بطوطة الإسكندرية فى سنة ١٣٢٦م/ ٧٢٦هـ، ثم فى سنة ١٣٤٩م/ ٧٥٠هـ راجع : ج١ ص ٢٦، ٢٧، ٣٠.

والباب الرابع هو الباب (باب السدرة) [1] الذى يقع فى السور الجنوبى فى منتصف النصف الغربى منه تقريبا وقد ذكر فى كتب الرحالة تحت اسم باب سان مارك [2] وأطلق عليه البعض باب البهار [3] ويكتفى البعض منهم بالإشارة إلى هذا الباب بأنه باب الجنوب.

= وترجع أصل تسمية الباب الاخضر نسبة إلى الجامع الاخضر المعروف بالجامع الغربى والمعروف ايضا بجامع الالف عمود، وقد كان فى الأصل كنيسة أقامها القديس ثيوناس Theonas (٢٨٢ - ٣٠٠م) قرب ساحل الميناء الغربى، ثم أعيد بنائها مع توسيعها على يد البطريق الكسندر Alexandre (٣١٢-٣٢٦م) فكانت تسمى كتدرائية القديسة مريم Sainte Mariem إلى نهاية القرن الرابع الميلادى، ثم تحول إلى جامع عند دخول عمرو ابن العاص الإسكندرية وأطلق عليه الجامع الغربى أو جامع الألف عمود نسبة إلى الأعمدة الجرانيتية ذات اللون الاخضر التى كانت مقامة فى الكنيسة.

راجع : Breccia, p. 45;

على مبارك (الخطيط التوفيقية) ٤٣/٧.

راجع عن تسمية الباب الغربى، بباب القمر أو باب برقة أو باب الصارى :

Sandys (1677), op. cit., p. 96;

Villamont (1589 - 1590), op. cit., p. 233;

ليون الافريقى/ وصف افريقيا، ص ٥٧١:

Morison (1697), op. cit., p. 16; Bremond (1643 - 1645), pp. 18, 33.

(١) لم يذكر هذا الباب بهذا الاسم عند الرحالة الغربيين سوى ذكره محرفا بعض الشئ Laporte les leves .... p. 58. راجع Thevenot وشيفذ Veryard عند كل من فريار Issidir

Veryard (1678), op. cit., p. 7.

(٢) Comb. ole la colonne .. p. 105. وذلك نسبة إلى كنيسة صغيرة عثر عليها فى الشارع المقابل للباب

(٣) Machant, p. 91 جاءت هذه التسمية عند ماشو

وجاءت تحت اسم La porte du poivre بمعنى البهار بالإيطالية فى

Villamont (1569 1190), op. cit., p. 233

الباب الخامس : (الباب الشرقى) أو باب رشيد[1]، فقد ذكره فيلكس فابرى بأنه محظور على الأجانب والغرباء الدخول من الباب إلى داخل المدينة، فهو وقف على أهل المدينة وكبار القوم، وقد وصفه مثل الأبواب الأخرى بوجود برجين على جانبيه تميزا بالضخامة والحصانة، واكتفى هارون وليون الأفريقى بالإشارة إلى اتجاه هذا الباب إلى النيل[2] ومن الرحالة من أطلق عليه الاسم القديم وهو باب الشمس Porte du soleil[3] وذكره بريمون Bremond باسم باب الو Bab-allou أو باب رشيد[4] ومنهم من أطلق عليه اسم باب القاهرة[5].

أما بالنسبة لقلاع المدينة والتى جاء ذكرها فى كتب الرحالة الأجانب فمن أهمها كما يذكر الرحالة البرت Albert اثنتان فى منطقة شبه جزيرة فاروس هى الفاريون الكبير Presque -ile Faraillon وهو مكان قلعة قايتباى الحالى، والفاريون الصغير أسفله مباشرة au dessous أى فى مواجهته مباشرة من أسفل عند مدخل الميناء الشرقى[6].

---

(1) Fabri, (1583), op. cit., II, 656 - 657.

(2) Harant (1598), op. cit., p. 268;

(٣) ليون الأفريقى ، وصف افريقيا، ص ٥٧١.

(4) Bremond (1643-1645), op. cit., p. 18. وهى فى الأصل الإيطالى مرحلة بريمو Bad habudi Rosseto.

(5) Villamont (1589 - 1590), op. cit., p. 233.

(٦) راجع عن موضع كل من المنار الجديد والقديم ما ذكره الرحالة البرت فى سنة ١٦٣٤م والشروح التي أتى بها ناشر رحلته :

Albert (1634), op. cit., pp. 94 - 5 et 165 (note).

وراجع أيضا : على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٧ ص ٣٩ – ٤٠.

وقد أشار بعض الرحالة إلى قمة مرتفعة يمكن من أعلاها رؤية أسوار المدينة الغربية جميعها. وإن لم يذكروا اسم هذا المرتفع وإن كانوا يقصدون به كوم الدكة (أو كوم الديماس)، كما أشار بعضهم إلى كوم الشقافة بالقرب من عمود السوارى خارج أسوار المدينة وأن لم يطلقوا عليه اسماء، ولكن لفت نظرهم الكهوف والمغارات التى تحتوى على عدة مقابر[1]، أما بالنسبة لكوم الناضورة (كوم دعلة) الذى يقع داخل سور المدينة الغربى، ويظهر فى خريطة بيلون Belon(١٥٤٧م) تحت اسم البرج أو الحصن الجديد Chateau Neuf[2]، وقد اتخذ هذا البرج لرصد السفن الواردة إلى ميناء الإسكندرية الشرقى. وهذا الحصن الجديد يجرنا للكلام عن الحصن القديم Chateau Vieil وهو يظهر فى مصورات الرحالة الغربيين بالقرب من الباب الغربى والجامع الغربى (الاخضر)[3].

واكتمالا للصورة التى آلت إليها مدينة الإسكندرية منذ أخريات

---

(1) Monconys (1646 - 1647), op. cit., p. 23.

(٢) راجع موقع الحصن فى خريطة رقم (١) لبيلون وهو نفس ما ذكره الرحالة فابرى وبريتن راجع:
Tabri (1483), op. cit., p. 724; Bretten (1585 - 1586), op. cit., p. 29.
وراجع أيضا ليون الأفريقى، وصف أفريقيا ص ٥٧٢.

(3) Sevitacilpxe seton , pp. 165-166, te 95. op. cit., (1634) trebla.
وهناك قلعة أخرى لم يتكلم عنها الرحالة وهى قلعة ضرغام أو (برج ضرغام) الأمير أبوالأشبال ضرغام بن سوار فى وزارة العادل بن رزيك أيام الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى، وذلك فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٦٢م)، راجع المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزءان الثانى والثالث، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٧١م و ١٩٧٣م، ج٢ ص ٢٥٦ وراجع أيضا الخرائط الملحقة بهذه الدراسة.

العصور الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث، فإننا نجد من المناسب ذكره هنا ما شاهده علماء الحملة الفرنسية على مصر، ودونوه عن الإسكندرية وقت نزولهم لها كما يقولون «باقترابنا من الإسكندرية ودخولها عن طريق أبوابها العالية وجدنا سورا واسعا حصينا لم يعد يضم سوى بقايا الإسكندرية القديمة» وأطلقوا عليها فيما أطلقوه «أطلال الإسكندرية القديمة التى لا تومئ إلا بحزن مرير وعميق إذ هى لا تقدم إلا صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته، ففى هذا الفراغ الفسيح الذى يحيط به سور مزدوج، تعلوه أبراج عالية، فإن الأرض لا تغطيها إلا أطلال المبانى القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض والأعمدة وتيجان الأعمدة المهشمة أو المقلوبة وقطع متماسكة من جدران منهارة وقباب مدفونة وتكسيات الجدران التى تآكلت أحجارها بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر وفى كل مكان يجد المرء آبارا وخزانات نصف مطموسة أو حفرا عميقة يستخرج منها السكان أحجارا جيرية لا تزال تحمل آثار عمل الإنسان والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير ... وفى داخل هذا الفضاء تتناثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة، نبحث عنها دون جدوى ونتخبط تحن وسط أسوارها[1].

وتأتى الموضوعية فى وصف الرحالة الأوربيين لمدينة الإسكندرية لتوضح لنا رؤية هؤلاء الرحالة والأسباب الحقيقية من وراء زيارتهم التى بإمكاننا استخلاصها من خلال اهتماماتهم بوصف أشياء وأماكن بعينها،

(١) وصف مصر، لعلماء الحملة الفرنسية، مج٣، المدن والأقاليم المصرية، ص ٢١٧، واضح من كلام علماء الحملة الفرنسية أن أسوار الإسكندرية المزدوجة مازالت موجودة وتعلوها الأبراج.

وفى هذه الحالة يمكن لنا تقسيمهم إلى فئتين، الفئة الأولى تتمثل فى ما قام به الرحالة أركولف ومن بعده الرحالة بنيامين التطيلى من وصف، أما الأول فقد سبق ورأينا كيف ركز كلامه على وصف ميناء الإسكندرية وتجارتها الواسعة مع مختلف الأمم، وإن كانت رحلته قد أخذت شكلا دينيا، فهو أسقف ورحالة قام بزيارة المدن الإسلامية بعد الفتح الإسلامى بفترة وجيزة ولم يمنعه هذا من الكلام عن الأهمية التجارية لمدينة الإسكندرية، وربما كان هذا هدفا فى حد ذاته.

أما الرحالة الثانى بنيامين التطيلى فقد اهتم اهتماما بالغا بالناحية التجارية لمدينة الإسكندرية وعدد الأمم التى تتعامل معها شرقا وغربا، ومن المعروف أن الهدف من رحلة بنيامين التطيلى هو عملية إحصاء لأعداد اليهود فى كل مدينة زارها، وعلى هذا فرحلته تعتبر ذات طابع دينى، وفى نفس الوقت أخذت الأهمية التجارية لمدينة الإسكندرية تحتل جانبا كبيرا من وصفه، فلا نجده مثلا يذكر أسوار المدينة وتحصيناتها مثله فى ذلك مثل اركولف، وعلى هذا فرحلته تعتبر ذات طابع دينى.

أما الفئة الثانية من الرحالة والتى تبدأ بالرحالة فون سماشم من منتصف القرن الرابع عشر الميلادى وحتى بدايات العصر الحديث، فقد اهتموا اهتماما بالغا بوصف تحصينات المدينة كما سبق أن ذكرنا وربما دفعهم إلى ذلك موقع المدينة وأهميتها بالنسبة للتجارة العالمية، وقد رأينا فى ثنايا هذا البحث كيف أن اهتمامهم قد أخذ شكلا جديدا، مما يؤكد الرأى الذى خرجنا به من هذه الدراسة، بأن اهتمامهم كان بدافع التجسس والتخابر لصالح دولهم، وربما كان هذا سببا للدقة التى اتصفت بها كتاباتهم

التى زودوها بالرسومات والخرائط وأن كتاباتهم كانت أساسا لعلماء الحملة الفرنسية على مصر فاستمدوا منها كثيراً من المعلومات عن مدينة الإسكندرية وهذا ثابت من تأسفهم على ما أصاب هذه المدينة العريقة من خراب ودمار فى كثير من أحيائها.

وخلاصة القول أن الرحالة الأوربيين الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى وحتى بدايات العصور الحديثة، قد التزموا جانب الموضوعية والدقة فى وصف هذه المدينة العريقة، وجاء تركيزهم بشكل أساسى على الأهمية الاقتصادية، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى التركيز على الناحية التحصينية والتزموا فى ذلك الدقة لدرجة جعلتنا نتشكك فى نواياهم ويؤكد على الفكرة التى يدور البحث حولها، وهى التجسس لصالح دولهم.

قائمة المصادر والمراجع
الخاصة بالبحث

أولا : المصادر العربية والمترجمة :

ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله، اللواتى الطنجى)

= الرحلة، أربعة أجزاء ، نشر د. فرمرى Defrmery ، وسنجوينتى Sanguinetti الطبعة الرابعة، باريس ١٩٢٨ - ١٩٤٩م.

بنيامين التطيلى (ابن يونة النبارى الأندلسى)، الرحلة - ترجمها من العبرية إلى العربية عزار حداد، بغداد، ١٩٤٥.

ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد الاندلسى)، رحلة ابن جبير، نشر دى غوية) ط٢، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٧.

أبو حامد الأندلسى (محمد بن عبد الرحيم الغرناطى، الملقب بالشيخ عبد الله)

= كتاب تحفة الألباب، نشر جبريل فيران.

Gabriel Ferrand, dans, Journal Assiat que (Juillet-Septembre 1925) paris 1925.

ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر) الأعلاق النفسية/ نشر دى غوية مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١م.

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروتياكرافولسكى، المركز الإسلامى للبحوث، بيروت ١٩٨٦م

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد إبراهيم الهمدانى)

= كتاب البلدان، نشر دى غوية، بريل ١٨٨٥م

كاتب مراكشي مجهول (من كتاب القرن السادس الهجري)
= كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.
ليون الافريقي (جان : الحسن بن محمد الوزان الزياتي) وصف أفريقية، ترجمة عبد الرحمن حميده عن الترجمة الفرنسية أ. اپيولار منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٣٩٩م.
ماركوبولو، رحلات ماركو بولو، الترجمة العربية (عن الترجمة الانجليزية لوليم مارسون) عبد العزيز جاويد، المؤسسة المصرية العامة لكتاب سنة ١٩٧٧م
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزءان الثاني والثالث، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٧١م و ١٩٧٣م.
النويري السكندري (محمد بن قاسم بن محمد)
= الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، سبعة أجزاء، تحقيق عزيز سوريال عطية الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند، ١٩٦٨ - ١٩٧٦م.

ثانيا : المصادر غير العربية

Albert (Jacques), dans : Voyages en Egypte des annees 1634. 1635 et 1936, dans les voyages en Egyptes le caire 1974.

Arcul F (The Bishop). Narrative About the holy places, Written by Adamnan, Book II in P.P.T.S., Vol III.

Belon du Mans (Peirre), Le Voyage en Egypte de pierre Belon du Mans (1547), Imprime Par L'Institut Francais d'Archeologie oriental au Caire dans les Voyages en Egypte le caire 1970.

Blunt (Henry), (1634), dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, dans les Voyages en Egypte, le Caire 1974.

Bremond (Gabried), (1643 - 1645), dans les Voyages en Egypte, le Caire, 1974.

Bretten (Michael Heberer, Von), (1585 - 1586), (IFOA), le Caire 1976.

Brown (Edward), (1673 - 1674), (IFOA), Le Caire 1974.

Coppin (Jean), (1636 - 1646) (IFOA) , le Caire 1971.

Fobri (Felix), (1483), (IFAO), le Caire 1975).

Fauvel (Hobert), (1631), Annexe dans :

Voyages en Egypte de Vincent stochove (1631), (IFAO), le Caire 1975).

Ghistele (Joos, van), (1482- 1483), (IFAO), le Caire 1976.

Gonzales (Pere Antonius), (166- 1666), (IFAO), le Caire 1977.

Harant (Christophe), (1598), (IFAO), le Caire 1972.

Huntington (R.), (1695), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees (1678 - 1701) (IFAO), le Caire 1987.

Kiechel (S.), (1588), dans : Voyages en Egypte Pendant le annees 1587 - 1588, (IFAO), le Caire 1972.

Lithgow (Willian), (1612), dans : Voyages en Egypte des annees 1677 et 1612, (IFAO), le Caire 1973.

Lubenau (R.), (1588), dans : Voyages :

en Egypte pendant les annees 1587 - 1588, (IFAO), le Caire 1972.

Machaut (Guillaume, de)

= la Prise d'Alexandrie ou chronique du Roupierre ler de lusignan, publiee par M.L. de Maslatrie, Geneve 1877.

Monconys (Balthasar de), (1646 - 1647), (IFAO), Le Caire 1973.

Morison (Athoine), (1697), (IFAO), le Caire 1976. dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, (IFAO), le Caire 1974.

Palerne (Jean Foresien), (1581), (IFAO), le Caire 1971.

Pitts (J.), (1685), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701, (IFAO), le Caire 1987.

Rochetta (Agvilante), (1599), dans Voyages en Egypte des annees 1597 , (IFAO), le Caire 1974.

Sandys (George), (1617), dans : Voyages en Egypte des annees 1677 et 1612, (IFAO), le Caire 1973.

Teufel (H.Chr.), (1588), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees 1587 - 1588, (IFAO) le Caire 1972.

Veryard (E.), (1678), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701, (IFAO) le Caire 1981.

Villamont (Le seigneur de), (1589-1590), dans : Voyageurs en Egypte, 1589. 1590. 1591, (IFAO), le Caire 1971.

Voyageurs en Egypte des annees 1587 - 1601, (IFAO), le Caire 1974.

Wild (Johann), (1606-1610), (IFAO), le Caire 1973.

ثالثا : المراجع العربية والمترجمة

بارکر (آرنست Ernest Barker) الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (بدون تاريخ).

جبور عبد النور = (بالاشتراك مع سهيل ادريس)، المنهل، قاموس فرنسي عربي، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، دار الآداب، بيروت ١٩٨٠.

جمال الدين الشيال (دكتور)

= الإسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر، فصله من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢)، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢م. (ص ١٩١ - ٢٧١).

= تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، مطبعة دون بوسكو، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور)

= دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، نشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٣م.

درويش النخيلي (دكتور)

= دراسة جديدة في طبوغرافية مدينة الإسكندرية زمن الملك الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧م) الإسكندرية، ١٩٨٨م.

رنسيمان (ستيفن Sleven Runciman)

= تاريخ الحروب الصليبية، ثلاثة أجزاء، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت - لبنان بدون تاريخ.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

= الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، الجزء الثانى، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

= تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الطبعة الثانية، دار المعارف، مطبعة معهد الدون بوسكو، ١٩٦٩م.

سهير نعنيع (دكتورة)

= حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية على الإسكندرية سنة ١٤٦٥م/ ٧٦٧هـ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

عزيز سوريال عطية (دكتور)

= العلاقات بين الشرق والغرب، تجارية - ثقافية - صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، الطبعة الأولى، دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٢م.

على مبارك = الخطط التوفيقية الجديدة، ج٧، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣٠٥هـ.

عمر كمال توفيق (دكتور)

= الجاليات الأوربية فى الإسكندرية فى العصور الوسطى (فصل من كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور)، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٧٥م. (ص ٢٧٣ - ٣٠٥).

كالة (بول Paul Kahle)

= صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م، من مخطوطة «الإلمام» للنويرى السكندرى، ترجمة وتعليق درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد أسعد، فى دراسات أثرية وتاريخية، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، العدد (٣)، مطبعة الإسكندرية ١٩٦٩م، (ص ٣٦ - ٩٤).

لوبير (جراتيان) :

= دراسة عن مدينة الإسكندرية ، فى : كتاب وصف مصر (العلماء الحملة الفرنسية)، مجلد ٣ (المدن والأقاليم المصرية)، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٧٨م.

محمود الفلكى = الإسكندرية القديمة ، ترجمة محمود صالح، دار النشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٦٧م.

وستنفلد (ف) = جداول السنين الهجرية بلياليها وشهور بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، الطبعة الأولى مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠م.

يحيى الشهابى = معجم المصطلحات الأثرية (بالفرنسية والعربية)، دمشق ١٩٦٧م.

رابعا : المراجع غير العربية

Atiya (Aziz Suryal)

= The Crusade in the later Miedle Ages, OXford 1938.

Bornecque (H.). et Canat (F.)

= le Dictionnaire latin - Francais , Deuxieme Edition, Paris 1936.

Breccia (E.)

= Alexnadrea ad Aegyptum, Bergamo, 1914.

Clarke (D.)

= Alexandrea ad Aegyptum. Asurvey:, in : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexnadria University, vol. v (1949), Alexandria Imprimeries, 1949, (pp. 99-102).

Combe (Et.)

= "Lesleves de Gravier d'ortieres Alexadrie (1986)", dans : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, vol. 7 (May 1943), Association of Athorship. Translation and publication press, Cairo 1943, pp. 52-67.

Ferrand (Gabriel)

= "Les Monuments dc l'Egypte au XIIe Siecle

Dapres Abu Hamid Al-Andalusi", dans : Melanges Mespero, III, Orient Islamique, Tome LXVIII (1940), imprimerie del, Institut Francais d'Archelogie orientale. Le Caire 1940, pp. 57-66.

Franco (cardini), The Memory of Jerusalem Remarks About the Diary of Apllgrim Fram Florence to the Holy Sepulckre (1384-85).

وهذه المقالة تحت النشر ضمن مجموعة المقالات الخاصة بمؤتمر المؤرخين العرب الذى إقليم فى القاهرة فى ٢٧/١١/١٩٩٥م.

Levi-Provencal

= Une Description Arabe Inedite du phare d'Alexandrie" dans : Melange Mespero, III, orient Islamique, Tome LXV III (1940), Imprimerie de l'Institut Francais d'Archeologie oriental, le Caire 1940. pp. 161-178.

VRAY PORTRAICT DE LA VILLE DALE-
XANDRIE EN ÆGYPTE.
LA MER MEDITERRANEE.
TERRE FERME D'AFRIQVE.

926

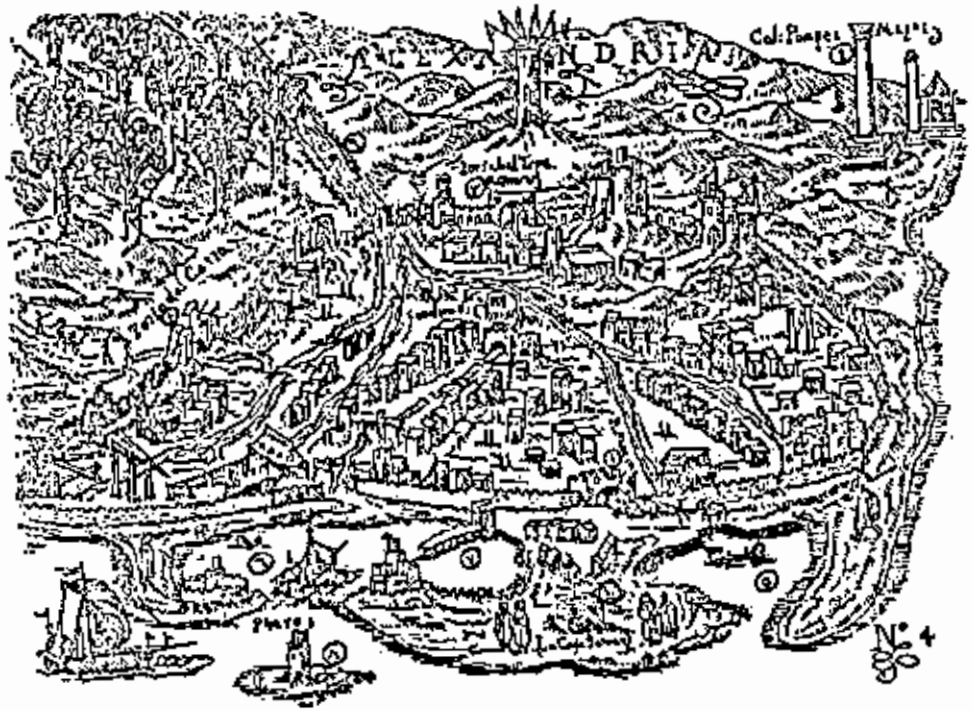

خريطة رقم (٢) لبريتي Brettes (سنة ١٥٨٥-١٥٨٦)

١) باب البحر
٢) باب القاهرة (باب رشيد)
٣) باب البهار (باب السدرة)
٤) عمود بومبي (عمود السواري)
٥) الميناء الغربي
٦) الميناء الشرقي
٧) مرسى قوارب الديوان
٨) المنار
٩) خليج الإسكندرية
١٠) الجزيرة

VOYAGES EN EGYPTE
des années 1597 - 1601

خريطة رقم (٣) لصورة غلاف الرحلة من ١٥٩٧ إلى ١٦٠١

١) باب البحر
٢) باب رشيد
٣) باب السدرة
٤) عمود السوارى
٥) الميناء الغربي
٦) الميناء الشرقي
٧) مرسى قوارب الديوان
٨) خليج الاسكندرية
٩) الجزيرة

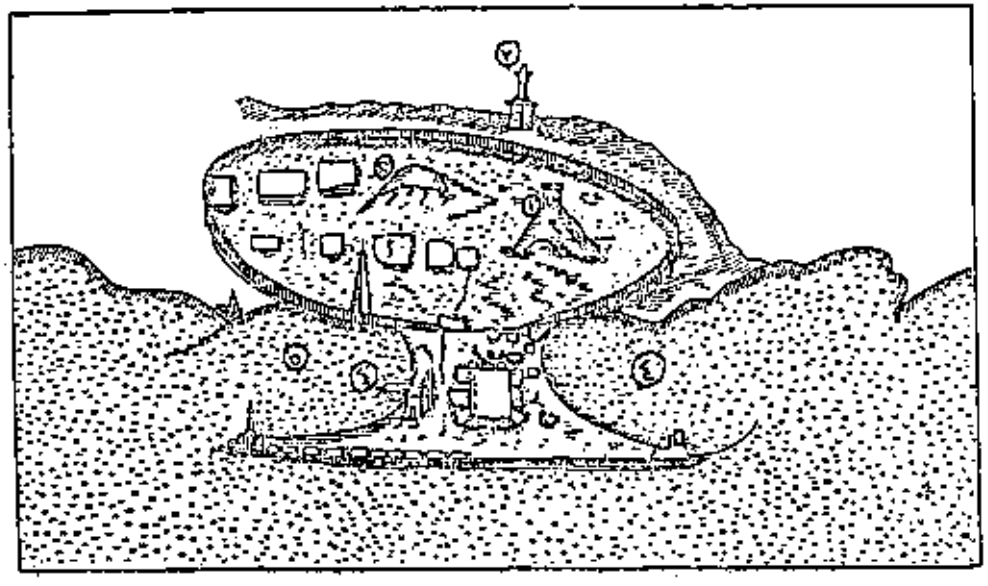

Fig. 18. — Alexandrie vue par B. de Monconys.

خريطة رقم (٤) لمونكون (سنة ١٦٤١-١٦٤٧)

١) كوم دعلة (كوم القاضورة/البرج الجديد)
٢) كوم الديماس (كوم الدكة)
٣) عمود السوارى
٤) الميناء الغربى
٥) الميناء الشرقى
٦) مرسى قوارب الديوان

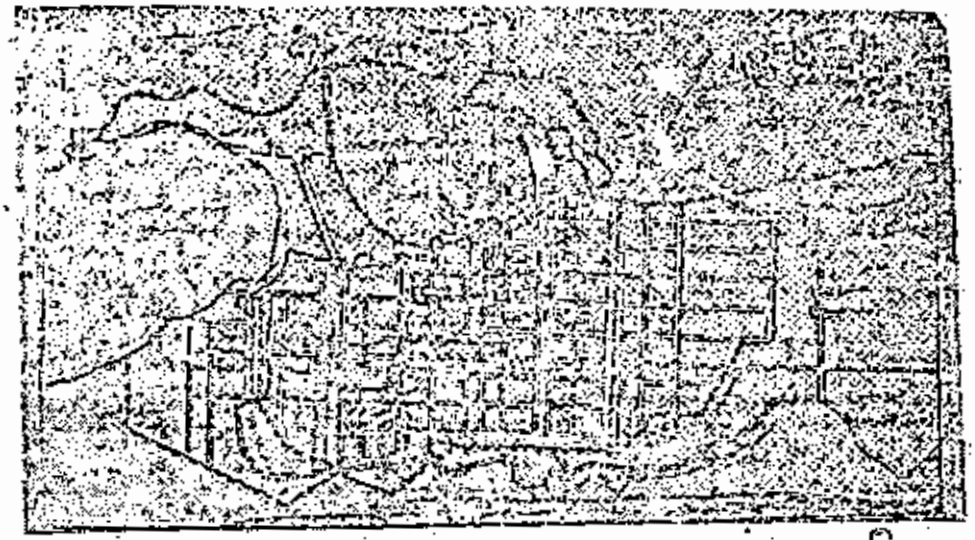

خريطة رقم (٥)

الاسكندرية في العهد الاغريقي والروماني

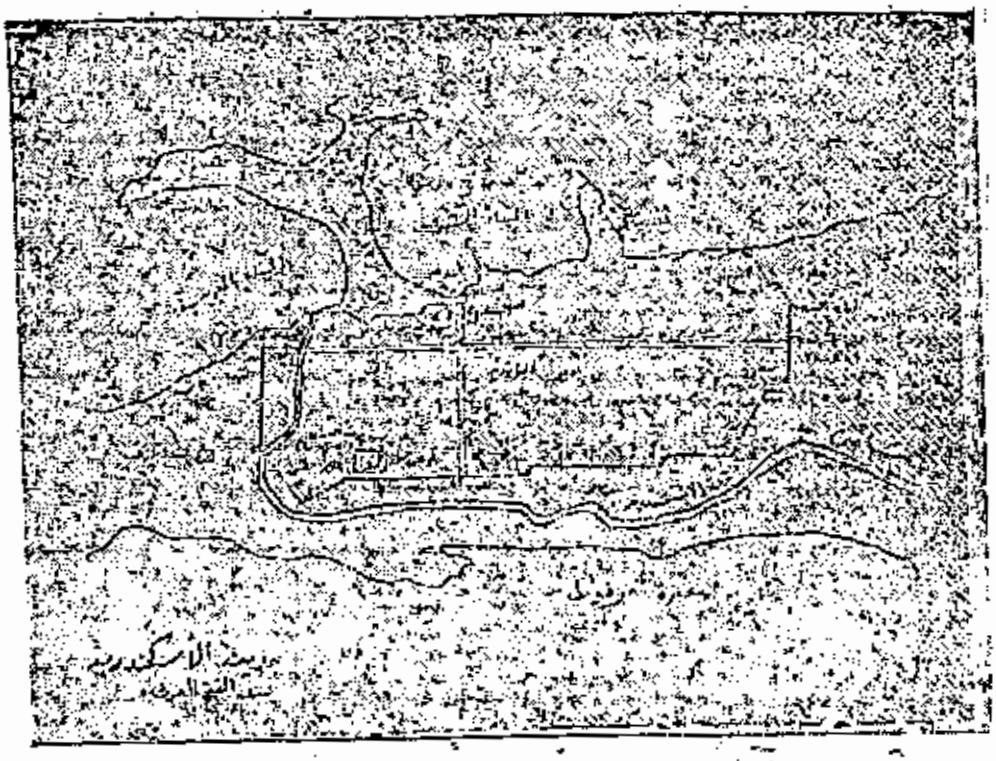

خريطة رقم (٦)

الاسكندرية عند الفتح العربي لمصر

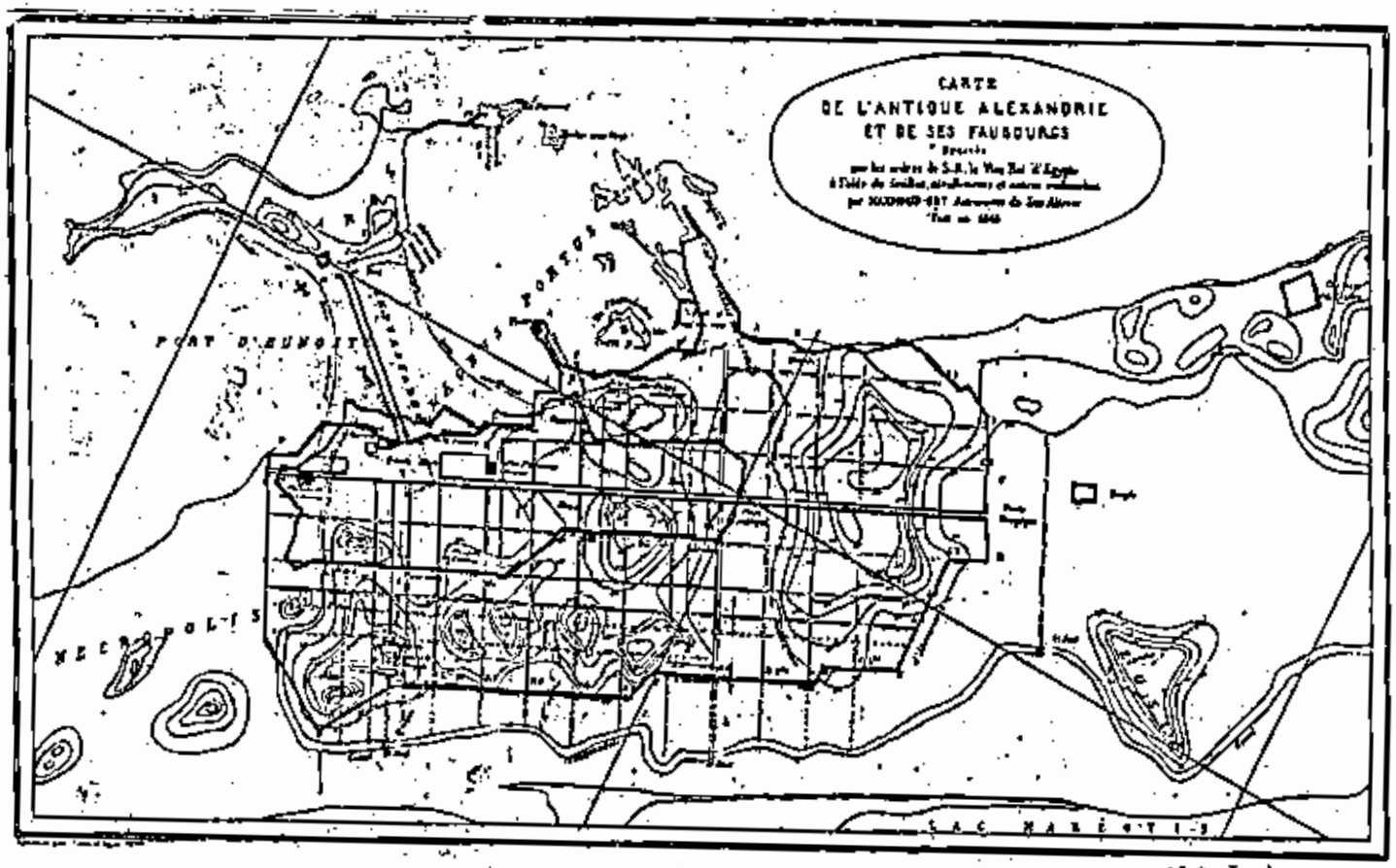

خريطة رقم (٨)

خريطة الإسكندرية

كما رسمها محمود الفلكى باشا للمقارنة بين حدود المدينة وعمالها فى العصور القديمة (وقد رسمت باللون الأحمر)
وحدود المدينة وعمالها فى العصور الوسيطة (وقد رسمت باللون الأسود)
(عن: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة منظورها للدكتور جمال الدين الشيال)

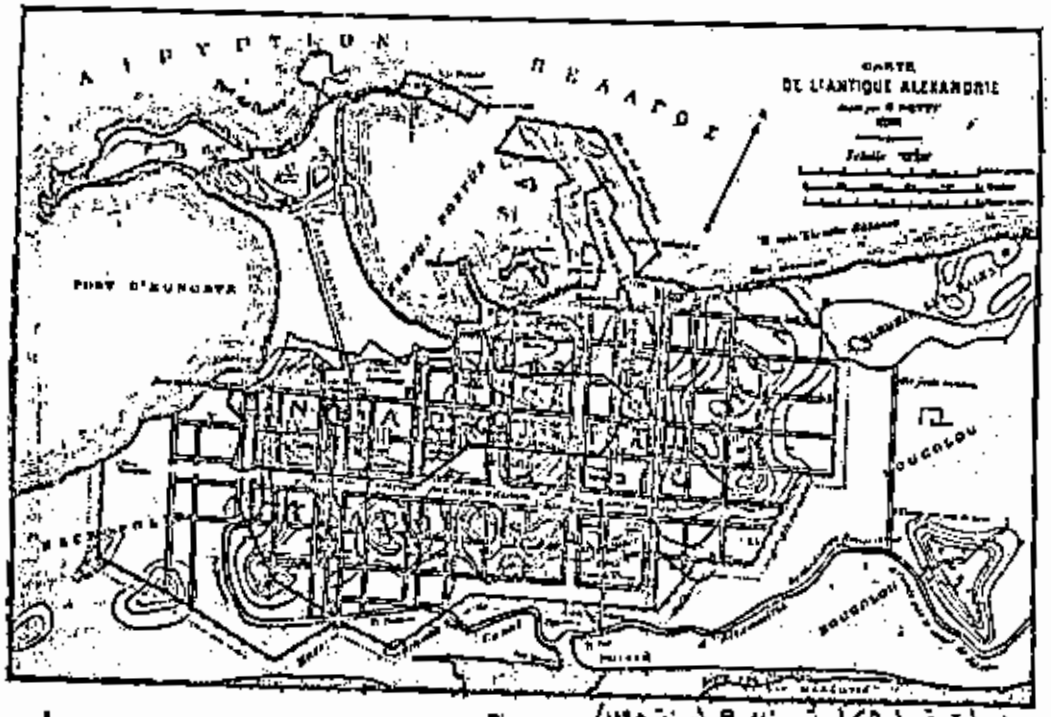

Fig. 10. خريطة رقم (٩) لبوتي Botti (سنة ١٩١٨)

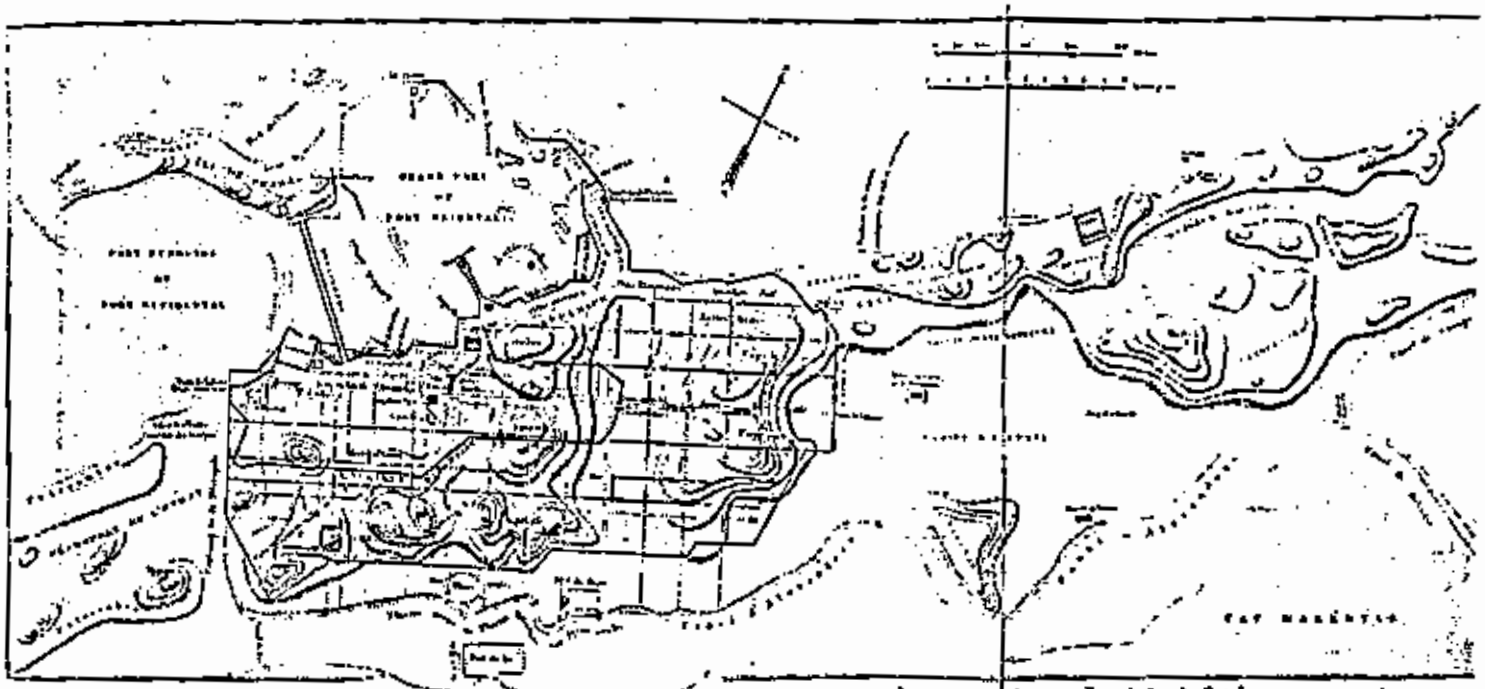

خريطة رقم (١٠) لنيروتسوس (سنة ١٨٨٨) Néroutsos

Fig. 9.

(مركاب Alexandrea ad AEgyptum بريشيا Breccia)

الإسكندر الأكبر والإسكندرية

١٥ - ١٨ يناير ١٩٩٦

ورقة عمل حول

تأثير الثقافة اليونانية فى مظاهر الحياة الإجتماعية والثقافية والسياسية بالإسكندرية

د. يسرى دعبس

الثقافية اليونانية وتأثيرها فى مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية بالإسكندرية

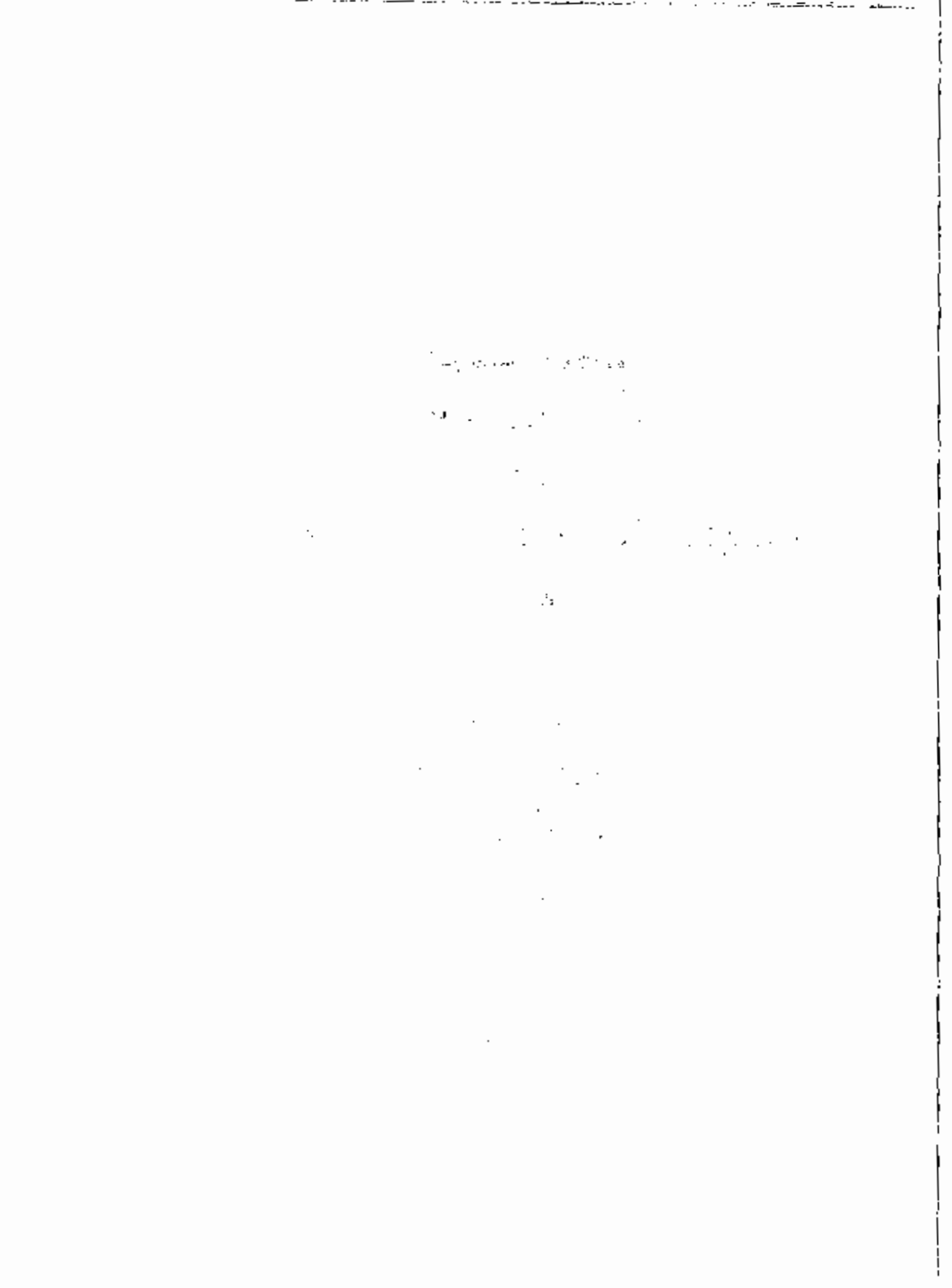

تمهيد:

لقد كان الإسكندر يحزن كلما انتصر أبوه فى إحدى المعارك الحربية خصوصاً بعد أن أقنعته أمه بأنه ابن كبير الآلهة، ولذلك كان يقول إذا انتصر أبى فى كل المعارك التى يخوضها فماذا يترك بعد ذلك ... هذا هو الإسكندر القائد المقدونى الذى عاتب أستاذه الفيلسوف العظيم «أرسطو» عندما نشرت محاضراته فكتب إليه معاتباً «عتابا من الإسكندرية إلى أرسطو» لم تحسن صنعاً أن نشرت بعض محاضراتك فقد كان من الواجب عليك أن تجعلها سراً نباهى به الأمم ولا أزال أفضل أن تكون لى قوة العلم لا قوة السلاح.

كما أنه فى عام ٣٣٤ ق.م وقبل قيامه بغزواته لآسيا أى منذ أكثر من ألفى عام سافر إلى مصر فسحره نيلها العظيم وسماؤها الصافية وبحرها الأبيض فأقام فيها عاماً كاملاً استطاع بذكائه وفطنته أن يختار المكان المناسب لإنشاء مدينة الإسكندرية ... وذلك بعد أن وطأت قدماه رمال جزيرة «فاروس» حيث وقف مشدوها بشواطئها الجميلة وموقعها الفريد .. فقال :

«هنا سأبنى مدينتى التى طالما حلمت بها»

وهى تعد واحدة من تسع مدن تحمل اسمه ولقد تحول الحلم إلى حقيقة عندما بدأ «دينوقراطيس» عام ٣٣٢ ق.م تخطيط المدينة الجديدة «الإسكندرية» بربط جزيرة فاروس بالشاطئ لينشأ عنه ميناءان «الميناء الشرقى والميناء الغربى» وانتهى العمل فى إنشائها عام ٣٣١ ق.م وبنيت الإسكندرية على نسق المدن اليونانية الكبرى آنذاك حيث تتعامد الشوارع

العرضية على الشوارع الرأسية بما يشبه قطعة الشطرنج.

وكان الإسكندر يستهدف من وراء تأسيس الإسكندرية عدة أهداف نجمل أهمها في النقاط التالية :

* أراد من الناحية الحضارية أن تصبح الإسكندرية مدينته الجديدة التي أقامها على أسس الحضارة الإغريقية معيناً لا ينضب لهذه الحضارة ينشر ألويتها بين ربوع الشرق بعد أن يتم له فتحه ولخضاعه لسيطرته.

* وأراد أن تكون الإسكندرية من الناحية العسكرية قاعدة بحرية تتيح له السيطرة على شرقي البحر الأبيض المتوسط.

* جعل الإسكندرية ميناءً تجارياً جديداً خصوصاً بعد تحطيمه لميناء صور وهو في طريقه إلى مصر نتيجة صمود أهل صور في الدفاع عنها.

* ازدياد علاقة مصر بعالم بحر إيجة على مدى قرون قبل قدوم الإسكندر .. فقد كان الفراعنة يتركون عواصمهم في الجنوب ويتخذون لأنفسهم عواصم جديدة في الدلتا ... وكان طبيعياً أن ينمي الإسكندر هذه العلاقة ويزيدها قوة ومتانة، فكان من الأهمية بمكان إنشاء ميناء يطل على بحر إيجة ... يكون جديراً بأهمية مصر وثرائها المادي والحضاري[1]

ولقد اتخذ بطليموس الإسكندرية عاصمة لملكه الجديد الذي ساده على جنبات الوادي بمصر .. وغدت في عهده أكبر ميناء في البحر المتوسط حينذاك ... بل غدت عاصمة للعالم القديم بأسره ... وظلت الإسكندرية تتمتع بمكانتها الرفيعة طوال العصر البطلمي، ولما فتح الرومان مصر وحولوها

إلى ولاية من ولايات إمبراطوريتهم الواسعة في عام ٣٠ ق.م بقيت الإسكندرية مركزاً لحكم الوادى أكثر من ستة قرون أخرى انتهت بالفتح العربى.

ولقد وجه بطليموس بن لاجوس عناية كبرى بالإسكندرية فنقل عاصمته إليها وجعلها أعجوبة العالم حينذاك، ترتفع في ميناثها فوق جزيرة فاروس هذه المنارة الشهيرة التي خلعت اسمها من بعد على مثيلاتها في كثير من اللغات الحديثة ... وكان يرقد جثمان الإسكندر في منطقة «سيما» بينما يوجد معبد «السرابيوم» الشهير شاهداً علي أن سرابيس كان إلهاً مصرياً ... وأقيم بها معهد للتربية وميدان للألعاب الرياضية وحلبة لسباق الخيل ومسرح كبير .. وشيد بها القصر الملكي الرئيسي فوق جزيرة صغيرة شرق الميناء، وإلى جواره القصر دار العلم والمكتبة التي جمع لها البطالمة أكثر من نصف مليون لفافة بردية ... هذه المكتبة التي شهدت إبداعات عباقرة العلماء والأدباء من مختلف بلدان العالم، ففي الإسكندرية اكتشف إريستارخوس دوران الأرض حول الشمس، واستطاع أرانوستيس قياس محيط الكرة الأرضية، وكتب أقليدس كتاب المبادئ في علم الهندسة، واخترع هيرون الآلة البخارية، وذاع صيت مدرسة الطب بالإسكندرية في التشريح والجراحة[٢].

وبناء عليه جسدت المدينة عبقرية المكان بموقعها بين البحر واليابسة .. فتتزود بما يفد إليها عن طريق البحر بثمرات العقل البشرى عبر عمليات الاتصال الثقافي بمفهومه الشامل ... وجسدت أراضيها بموقعها على أرض

مصر عراقتها وحضارتها الأصلية علي مر العصور.

ولقد كانت ولا تزال الإسكندرية تخاطب العقل والوجدان وتحمل بين ذكرياتها حلم الإسكندرية وتاج قيصر وعرش كليوباترا، وعروس البحر المتوسط ومنارة للإشعاع الفكرى والتواصل الحضارى وموطن الفن والجمال.

وتهدف هذه الورقة إبراز تأثير الثقافة اليونانية فى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر بصفة عامة وبالإسكندرية بصفة خاصة ... خصوصاً وأن المصريين قد تعاونوا مع الإسكندر وساعدوه فى هزيمة الفرس لأنه احترم ديانتهم ولم يجبرهم علي تغييرها ... وقد توجه كهنة مصر فرعونا علي البلاد ... وكان نتيجة ذلك حدوث اتصال ثقافى واسع بين الحضارة اليونانية والحضارة المصرية وما تمخض عنه من عمليات التأثير والتأثر ومن ثم الاقتباس والاستعارة والافتتاء بين الحضارتين.

تساؤلات ورقة العمل:

* ما هو تأثير الثقافة على اليونانية على كافة الأنشطة الثقافية والفكرية والأدبية والفنون المصرية بصفة عامة والسكندرية بصفة خاصة.

* ماهو تأثير الثقافة اليونانية على النظم السياسية المصرية كالدواوين وخلافه وكذلك أنماط العمل والإنتاج وظروف الحياة المجتمعية فى تلك الفترة خصوصاً وأن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية فى دواوين مصر وظلت حتى سنة ٤٠٠ م خلال الحكم الرومانى.

* التعرف على عملية التمثيل والتأثير بين الثقافة اليونانية والثقافة المصرية وانعكاس ذلك على أنماط التفاعل الاجتماعي بمختلف صوره بين اليونانيين والمصريين بصفة عامة والسكندريين بصفة خاصة وأثر ذلك في النهاية على عمليات التكيف والتفاهم والتوافق والصراع والتعاون ... الخ.

* التعرف على الرؤية المتبادلة لكل من الشخصية اليونانية والشخصية المصرية .. رؤية الذات اليونانية للذات المصرية وبالعكس.

وسأعتمد في هذه الورقة على الكتب التاريخية المختلفة التي تناولت تلك الفترة وأقوم بتحليل المعلومات وربطها ببعضها ومحاولة تقصي كثير من الأحداث وربطها ببعض.

وسأعتمد كذلك على بعض أعضاء الجالية اليونانية واليونانيين المسنين الذين وفد أجدادهم منذ أمد بعيد وقرأوا وسمعوا من أجدادهم وآبائهم عن طبيعة توافدهم إلى مصر بصفة عامة والإسكندرية بصفة خاصة وظروف الحياة الاجتماعية والثقافية التي عاشوها نتيجة تواصلهم وتواجدهم على أرض مصر وطبيعة عمليات الاتصال الثقافي في الزمن البعيد وما تمخض عنه من تراث خالد أضاف للحضارة المصرية عمقاً وأصالة.

أولاً: الإسكندرية وحلم تكوين إمبراطورية تجمع بين العالم الشرقي والغربي:

إسكندر المقدوني هو الإسكندر الثالث ابن فيليبوس الثاني المقدوني من زوجته أوليمبياس، ولد في بيلا في ٣٥٦ ق.م وقد يكون ليسيماخوس أول من علمه، إلا أن أرسطو قد تولى أمر تعليمه بدءاً من الثالثة عشرة من عمره في علم الأخلاق والسياسة والفلسفة وفن الحكمة .

وقد تولى الإسكندر حكم مقدونياً بعد اغتيال فيليب فى عام ٣٣٦ ق.م ، وقد ثارت عليه بعض المدن اليونانية لاختيار مدة قوة الحكم الجديد .. وقد أثبت الإسكندر صلاحيته فاستولى على طيبة وهدمها وإسترق أهلها، ولم يبق من بيوتها سوى بيت الشاعر بنداروس، وتبعاً لذلك أعلنت مدن اليونان جميعها ولاءها للإسكندر، وخرج الإسكندر فى حملته على الشرق عام ٣٣٤ ق.م[٣].

وجدير بالذكر أن ظهور الإسكندر المقدونى هذا القائد المحنك والسياسى البارع كان إيذاناً ببداية عصر جديد، ومرحلة حضارية جديدة فى المنطقة التى مثلت قبل ظهوره عالمين مختلفين .. أولهما العالم الشرقى ويضم أغلب المناطق الأسيوية والأفريقية المتاخمة للبحر المتوسط واستداداتها نحو الشرق ... وثانيهما العالم الغربى ويضم مقدونيا وبلاد اليونان ومستعمراتها علي الساحل الغربى لشبه جزيرة آسيا الصغرى.

ولما كان حلم الإسكندر وهدفه النهائى هو توحيد العالمين فليس بمستغرب اتجاهه نحو الشرق واستمرار فتوحاته وانتصاراته خصوصاً وأن الجزر كانت منتشرة بشكل واضح فى حوض بحر إيجه مما جعل من السهولة بمكان قيام اتصلات بين شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة آسيا الصغرى.

وبناء عليه لم يكن البحر مانعاً لحدوث ثمة اتصال ثقافى أو غزو ثقافى بين المنطقتين وما يترتب على ذلك من عمليات التأثير والتأثر بين الثقافات والحضارات المختلفة.

وهناك حقيقة جديرة بالذكر وهى أن بلاد اليونان مع استقرارها وممارستها لنشاطها الاقتصادى التجارى الخارجى قد كانت قبلتها الإتجاه نحو الشرق ... وكان نتيجة ذلك أن الهجرات اليونانية إلى ساحل آسيا الصغرى كانت تمثل أعلى كثافة سكانية ... وكان ظهور قرطاجة قوة جديدة فى الجزء الغربى من البحر المتوسط للدرجة التى تسمح بتواجد قوة أخرى معها، بناء عليه تأكد فكرة الاتجاه إلى الشرق لدى اليونانيين(٤).

وهناك حقيقة أخرى جديرة بالذكر أن الاتصال بين اليونان والشرق قد كان قبل عصر الإسكندر وهناك عدة أمور تؤكد ذلك نجمل أهمها فى النقاط التالية :

- تصور أشعار هوميروس فى الإلياذة احتكاك اليونانيين عسكرياً بطروادة علي ساحل آسيا الصغرى قبل ظهور الإسكندر بحوالى أربعة قرون.

- أقام الفرعون تحتمس الثالث فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أحد قواده حاكماً على جزر بحر إيجة.

- ظهور تأثير الفن المصرى بشكل واضح على الفن اليونانى وبصفة خاصة فى مراحله الأولى، سواء فى العمارة ببداية ظهور الأعمدة الدورية أو فى الصور المبكرة فى فن النحت.

- انتشار عبادة الإله آمون المصرى فى اليونان وأقيم له معبد فى أثينا وكان له عرافوه الذين وضعوه فى مصاف عرافى دلفى ودودونا (٥).

إن هذا الاتصال بين حضارة العالم الشرقي والعالم الغربي قد تخلف عنه إقتباس أو استعارة لبعض السمات الثقافية المادية وغير المادية بين هذين العالمين إلا أنه لم يصل إلى حد التمثيل الثقافي على حد تعبيرنا كانثروبولوجيين وتمثل أو تبني طرف من الأطراف لنظم حياة الطرف الآخر من جميع الجوانب ....

ولم يحدث ثمة مزج إلى حد كبير بين العالمين الشرقي والغربي إلا خلال الفترة القليلة في سنواتها والعظيمة في تأثيرها في مختلف جوانب الحياة في العالم إبان غزوات وانتصارات الإسكندر وتكوين إمبراطوريته التي تفتتت بعد موته المبكر نتيجة صراعات قادته وأطماعهم ...

وهناك حقيقة جديرة بالذكر وهي أن الإسكندر برغم موته صغيراً (الثالثة والثلاثين من عمره) إلا أن إنجازاته قد غيرت مجرى التاريخ وأصبحت الظروف التي وجدت من بعده كفيلة لتحقيق حلم المزج بين أوربا وآسيا ... وهذا ما كان بالفعل فبعد إنتهاء الإمبراطورية الفارسية «أصبحت تخضع من أقصاها لحكام مقدونيين يتمتعون جميعاً بقسط من الثقافة الهيلينية، وبات من الطبيعي الاعتماد على سواعد مرتزقة الإغريق وعلماء ومثقفين ورجال الاقتصاد والإدارة والفنيين الإغريق كي يوطدوا دعائم ممالكهم ونشر ثقافتهم وفنونهم عن طريق الاتصال الثقافي بمفهومه الأنثروبولوجي الواسع مع أبناء الممالك التي تخضع لهم.

بناء عليه تدفق تيار الهجرة الإغريقي للبلاد التي فتحها لهم بعد وفاته وحمل هؤلاء المهجرون معهم فنونهم وآدابهم وأساليب معيشتهم، كما نقلوا

نظمهم المدنية ومعاهدهم جيميناڑيوم Gymnasium، وألعابهم وأعيادهم ... أى مختلف عناصر التراث الثقافى لهم، وكان لابد لهم من أن يحدث بينهم وبين أبناء المواطن الأصلية فى مصر وآسيا إتصالاً ثقافياً كما سبق القول يتم من خلاله عمليات الاقتباس والإستعارة والاقتناء والتمثيل الثقافى وبالتالى يحدث التكيف الاجتماعى بين المهاجرين وأبناء الموطن الأصلى ...

وبناء عليه أشرك الحكام الجدد رعاياهم الوطنيين فى ميادين العمل الحكومى، ولم يخضعوا هم أنفسهم للمؤثرات الشرقية، وذلك برغم مناداتهم لسياسة الإسكندر التي كانت تقضي بمعاملة الفرس كأنداد [٦] .

لقد حكم بطليمو مصر كوالٍ ... وأعلن نفسه ملكا علي مصر عام ٣٠٦ق.م. وكانسدر في مقدونيا وسيلوكوس في سوريا وكان هذا رد فعل علي إعلان أنتيجونوس نفسه ملكا علي مقدونيا ... وبذلك تكونت الممالك الثلاث الكبري التي قدر لها أن تسيطر علي العالم الهلينستي.

ثانيا: الاتصال الثقافي بين الحضارة اليونانية والمصرية القديمة:

يقصد بالاتصال الثقافي أو الاتصال الحضاري وهما تعبيران يعبران عن حقيقة واحدة اتصال ثقافة أو حضارة بثقافة أخري أو بحضارة أخرى بغض النظر عن مستوى الثقافة أو درجة التطور الحضارى فى المتصل أو المتصل به ...

والاتصال الثقافى بمفهومه الأنثروبولوجى الواسع يتعدى نماذج الاتصال الشخصى والاتصال الجماهيرى لأنه اتصال بين الثقافات

والحضارات في مجالات الاقتصاد والفنون والآداب وما يتخلل ذلك من عمليات الاقتباس والاستعارة للسمات المادية وغير المادية لثقافات الشعوب المتواصلة ..

ويختلف مفهوم الاتصال الثقافي عن الغزو الثقافي بالرغم من أنهما يشتركان في استخدام وسائل الإعلام خصوصاً بعد التطور التكنولوجي في مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية وزيادة الموجات والقنوات في مختلف الوسائل السمعية والبصرية والتي يمكن أن تقطع على الإنسان أياً كان خلوته وعزلته ،أصبح العالم مثل قرية صغيرة، ويتناقض المصطلحان كل منهما عن الآخر كما يتضح في الفروق التالية :

١- الإكراه والاخضاع في الغزو الثقافي، وفي المقابل التلقائية والإيجابية في الاتصال الثقافي، فمبدأ الحرية إذن هو المبدأ الذي يفرق بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي، كما ينص القرآن الكريم لا إكراه في الدين، نقول لا إكراه في الثقافة.

٢ - خلق الاستعداد للإنفصال عن الجذور الثقافية والحضارية والوطنية بل والتنكر لها وإحتكارها في الغزو الثقافي ... وفي المقابل خلق روح الانتقاء والمفاضلة في الاتصال الثقافي ... مبدأ عدم التنكر من جانب الانتقاء من جانب آخر، المبدأ الثاني الذي به نفرق بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي.

٣ - صياغة العقول في الغزو الثقافي، وفي المقابل الإضافة واستكمال البناء العقلي في الاتصال الثقافي[٧]

وتبرز أهمية الاتصال الثقافي في النقاط التالية:

- المساعدة على انتشار كافة الفنون والآداب واقتراح تلك العناصر أو تزاوجها والخروج بنسيج متجانس يؤدي إلى وحدة الحس الفكري الإنساني في الثقافات المتباينة.

- الوقوف على أحدث التطورات في مجال التكنولوجيا وتطويعها في خدمة الإنسان.

- المساعدة في عمليات النقل والاستعارة والانتقاء للسمات المتقابلة وما يتبع ذلك من تشجيع عوامل الإبداع والابتكار وانتقال وتداول الأفكار المبدعة المؤثرة في تقدم الشعوب.

- المساعدة في تطبيع العلاقات بين البلدان المختلفة، ومن ثم الشعوب والتعرف على العادات والتقاليد والأعراف المتباينة، والمساعدة في تأصيل الخصوصيات الثقافية في مقابل العموميات الثقافية، وبالتالي تعميق وتأصيل الشخصية القومية لكل شعب من الشعوب والسمات المحددة لتلك الشخصية وأهمية كل منهما من أجل الالتقاء الإنساني الأمثل.

ترجع العلاقة بين مصر وبلاد الإغريق إلى ما قبل مجئ الإسكندرية بعدة قرون وكما سبق القول ... وذلك عندما قام تجار مدينة ميليتوس الإغريقية بآسيا الصغرى بدور الوسطاء بين المملكة الليدية وشعوب البحر المتوسط ... وقد تمكنوا في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد من تأسيس محلة لهم في دلتا النيل، وهي عرفت فيما بعد باسم «نقراطيس» وهي قرية كوم جعيف الحالية بمحافظة البحيرة.

وجدير بالذكر أن ظروف مصر السياسية آنذاك هى التى ساعدت هؤلاء التجار الإغريق على دخولها، حيث أن أبسماتيك الذى أسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية لم يستطع أن يحرر البلاد من الاستعمار الأشورى إلا بفضل المرتزقة الإغريق وبناء عليه فقد تقرب للإغريق وبدأ يسمح للتجار الإغريق بالإقامة فى مصر واتبع خلفاؤه نفس السياسة وبهذا زاد تدفق الإغريقيين من التجار والمدنيين.

كما قدم الإغريق العون للمصريين عندما ثاروا على الفرس فقدموا لهم قوة بحرية كبيرة ... وانتظم الجند الإغريق فى صفوف الثوار المصريين كلما طلب إليهم ذلك، فى حين كانوا يرفضون الإشتراك فى صفوف القوات الفارسية التى كانت تحشد لإخماد الثورات المصرية ... وتحقق حلم التخلص من الاستعمار الفارسى على يد الإسكندر الأكبر ولذلك وجد الترحاب من جانب المصريين عند غزوه مصر ولم يعتبره المصريون عدواً أو مستعمراً جديداً لطبيعة العلاقات الوطيدة منذ القدم بين بلاد الإغريق ومصر من مختلف الجوانب الثقافية والاقتصادية[٨].

ثالثاً: الإسكندرية كعاصمة وأهم الموانى فى حوض البحر المتوسط:

يمكن إجمال أهمية الإسكندرية كعاصمة وميناء هام فى حوض البحر المتوسط فى النقاط التالية :

١ – كانت الإسكندرية تمثل أهم موانئ مصر وأكبر مدنها التجارية والصناعية ،أعظم المدن التى شيدها الإسكندر، ولقد رأت عينه الفاحصة فى قرية راكوتيس Rhacotis الفقيرة مكاناً صالحاً لمدينة عظيمة ... وقام

المهندس الرودسى دينوكراتيس Dinoceatis بوضع تصميم المدينة الجديدة وفقاً لأحدث القواعد فى فن تخطيط المدن ... فاختار لها شريطاً من الأرض الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر وكانت تقع فى البحر قبالة هذ الشريط جزيرة فاروس Pharos التى وصلت بالأرض ... فنشأ عن ذلك ميناء واسع آمن فى الجانب الشرقى، وميناء أكبر منه وإن كان أقل أمناً فى الجانب الغربى ... ولقد انتظم القسم الغربى من المدينة قرية راكوتيس القديمة التى أصبحت الحى الوطنى الخاص بالمصريين ... وعلى بضعة أميال من الشرق كانت تقع مدينة كانوب Canopus (أبو قير) التى أصبحت مكاناً سئ السمعة يرتاده طلاب اللهو والعبث وكانت المدينة مستطيلة الشكل يشقها من الشرق إلى الغرب شارع فسيح مستقيم يسمى «شارع كانوب» تحف به الأعمدة والبواكى وتقطعه مجموعة أخرى من الشوارع الفسيحة(٩).

٢ – لقد حكم البطالمة وادى النيل خلال ثلاثة قرون قدر للإسكندرية أن تقوم فيها بدور كبير فى تاريخ العالم بأسره، وفى تاريخ مصر بصفة خاصة حيث كانت هى عاصمة مصر ومركز إشعاع حضارى ونقطة التقاء بين عالمين مختلفين أحدهما شرقى فى نظمه ومعتقداته وقيمه ونظرته للحياة بوجه عام، ويضم أغلب المناطق الآسيوية والإفريقية المتاخمة للقسم الشرقى من البحر المتوسط، والآخر غربى يختلف اختلافاً كبيراً فى كل هذه الأشياء وهو الجزر الأوروبية التى تضم مقدونية وبلاد اليونان إلي جانب المدن أو الدويلات اليونانية الواقعة على الشريط الساحلى الغربى لشبه جزيرة آسيا الصغرى ... وهذا لا يعنى أن هذه المناطق كانت منعدمة الاتصال ببعضها قبل إنشاء الإسكندرية فقد كان الاتصال بينهما فى التجارة والفن والعقيدة

والثقافة والحروب. وهذه الأنشطة اشترك فيها المصريون والفرس والفينيقيون واليونان ولكن كل هذا كان مجرد تسرب حضارى إنتقلت من خلاله بعض التفاصيل الحضارية من جهة إلى جهة دون أن يصل ذلك إلى درجة الالتقاء الواسع الذى يقرب بين القيم الحضارية إلى الحد الذى نهضت به الإسكندرية ... وبناء عليه فإن التاريخ للإسكندرية أكثر من مجرد تاريخ لمدينة حيث إنه فى الواقع تاريخ لعصر بأكمله وإزدهرت فيه حركة الاتصال الثقافى والحضارى بين الأمم وكان مسرحه المنطقة المتاخمة للقسم الشرقى من البحر المتوسط على شواطئ القارات الثلاث المطلة عليه ... وكان نقطة ابتدائه قيام إمبراطورية الإسكندر التى هيأت الظرف التاريخى اللازم للالتقاء الحضارى بين أرجاء هذه المنطقة(١٠).

٢ – لم يختر البطالمة منف أو طيبة عاصمة للحكم رغم أنهم تشبهوا بالفراعنة وساروا على نمطهم فى كل ما يتعلق بنظام الحكم .. حيث إن تلك العواصم القديمة باتت لا تصلح للعصر الجديد فقد كانت قيمة منف تنحصر فى إنها تمكن الحكومة من السيطرة علي الوجهين البحرى والقبلى فى وقت كان الربط بينهما أمراً فى مقدمة المهام السياسية، أما قيمة منف فكانت مركز ثقل سياسى لحرص حكومات مصر فى التوسع نحو الجنوب لإبقاء الأماكن التى ينتشر فيها النفوذ لكهنة آمون تحت المراقبة المباشرة أو للسيطرة على مناطق النوبة وشمال السودان أو لمد نفوذها الاقتصادى إلى إقليم بونت (الصومال) وبناء عليه كان من الضرورى أن يتجه البطالمة نحو البحر المتوسط سواء فى برنامجهم التوسعى أو فى علاقاتهم السياسية والاقتصادية والحربية خصوصاً بعد زيادة موجة الصراعات والخصومات

واقتسام إمبراطورية الإسكندر بعد وفاته[١١].

٤ – ساعد موقع الإسكندرية البطالمة علي المنطقة الشرقية للبحر المتوسط كأنسب مركز للدعاية السياسية منذ بدء حكمهم إلى جميع أرجاء العالم الهلينستى الجديد الذى قام على أثر تقسيم إمبراطورية الإسكندر والذى كان دولة تشغل هذه المنطقة .. فكانوا يرسلون الوفود إلى جميع المناطق التى يريدون إقامة علاقات معها علي مستوى أو آخر، وهناك السفارات الأجنبية التى كانت تصل إلى الإسكندرية وبخاصة فى أعياد البطوليمايا التى كانت فى الحقيقة معرضاً لكل نواحى التفوق الحضارى فى مصر والتى أراد البطالمة بها مضارعة أعياد الباناثينيا فى أثينا إبان العصر الذهبى لبلاد اليونان ...

وكانت شوارع الإسكندرية تموج فى هذه الأعياد بالمبعوثين الرسميين ... وكانت هناك المكتبة ودار الحكمة (المتحف) أو الجامعة اللتان كانتا مركزاً للإشعاع الثقافى فى العالم الهلينستى ومركز التقاء للعلماء والمفكرين والأدباء الذين يفدون من مختلف أرجائه ... وكانت هناك عقيدة «سرابيس» التى صدرها البطالمة من الإسكندرية إلى شواطئ القسم الشرقى للبحر المتوسط[١٢]

رابعاً: مظاهر الحياة الاجتماعية وخصائصها خلال حكم البطالمة:

ويمكن إجمال أهم ملامح وخصائص الحياة الاجتماعية خلال حكم البطالمة لمصر وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الجاليات القاطنة فى مدينة الإسكندرية وطبيعة الحقوق والواجبات والالتزامات بين الجاليات بعضها

البعض وتأثير الثقافة اليونانية فى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية فى النقاط التالية :

* إن الحكام فى العصر البطلمى كانوا من العنصر المقدونى اليونانى واعتمدوا فى بناء دولتهم على جذب واستجلاب أعداد كبيرة من بلادهم ... وبناء عليه كان المقدونيون والإغريق هم العنصر الغالب فى الجيش والإدارة ... إلخ(١٣)

* كان هدف البطالمة توطيد حكمهم وتدعيمه من جميع الجوانب وقد لمسنا تلك من استقدامهم للعلماء والفنانين وأصحاب الحرف ... إلخ وكان طبيعياً أن تكون الفرص متاحة ومشجعة للتدفق والهجرة إلى الإسكندرية التى كانت تمثل أغنى عاصمة لأغنى دولة من دول العالم الإغريقى.

* إزدياد عدد السكان نتيجة التيار الحديث للإسكندرية ويذهب المؤرخ ديودوروس Deodoros إلى تقدير الأحرار المتمتعين بالمواطنة السكندرية ٣٠٠ ألف مواطن مستنداً إلى قوائم السكان لعام ٦٠ ق.م وبناء عليه جمعت الإسكندرية خليطاً ضخماً من الجنسيات وهذا ما جعل المؤرخ والجغرافى سترابون يطلق عليها خزاناً عاماً .. أو على حد تعبير فليون السكندرى مجموعة من المدن داخل مدينة واحدة فقد كانت تضم الإغريق والإيطاليين والسوريين والليبيين والفينيقيين والأحباش والعرب والوافدين من بكترية وسكيتية واليهود والفرس .. والمتجول فى شوارعها يستمع إلي كافة اللغات الأفريقية والأسيوية إلى جانب اللهجات الإغريقية المختلفة(١٤).

* إن الوافدين إلى الإسكندرية كان كثير منهم ما يأتى فى مهام

اقتصادية وسياسية أو مناسبات واحتفالات البطالمة باعتبارهم بالإضافة إلى وفود السفارات من شواطئ القسم الشرقي للبحر المتوسط، أو من المصريين الريفيين الذين كانوا يأتون للإسكندرية لقضاء تجارة أو مصلحة من المصالح.. وبناء عليه امتازت الإسكندرية بزيادة العدد من مختلف الجنسيات، وهذا حالها الآن.

• لقد قسم سكان الإسكندرية بوجه عام إلى خمسة عناصر وتمثل بوجه عام خمس طبقات من ناحية الوضع الاجتماعي في المدينة وإن كانت التقسيمات الداخلية لبعض العناصر قد تنزل قليلاً أو كثيراً عن وضعهم الطبقي في المجتمع، فقد انقسم العنصر الإغريقي إلى ثلاثة عناصر ... المواطنين الكاملين أو السكندريين وكانوا من الأسر العريقة ولهم كافة الحقوق المواطنة الكاملة في الوظائف العليا وامتلاك الأراضي والتزوج من الإغريق، والإعفاء من أعمال السخرة وبعض الضرائب وكانوا ينقسمون إلى عدة قبائل التي تنقسم إلى أحياء اتخذت أسماءها انتساباً إلى اسم إله أو بطل إغريقي أو لقب ملك من ملوك البطالمة .. وطبقة أنصاف المواطنين لا يتمتعون بكافة حقوق المواطنة وكانوا من اليونانيين المقيمين بالإسكندرية ولكنهم لم يسجلوا بعد لسبب أو لآخر في قوائم الأحياء التي كانت تنقسم إليها القبائل .. وطبقة الإغريق الفقراء الذين توافدوا إلى الإسكندرية سعياً وراء الرزق ولم يكن لهم حقوق الطبقتين السابقتين ..

والعنصر الثاني هو المقدونيون وكانوا يمثلون طبقة ممتازة من ناحية حقوقهم أو وضعهم الاجتماعي حيث إن البيت الحاكم نفسه كان ينتمي إلى

العنصر المقدونى وكانت تضم الرتب العسكرية العليا .. وكان اليهود يمثلون العنصر الثالث وإن لم يتمتعوا بحقوق المواطنة كما هو الحال فى العنصر الإغريقى .. ثم عنصر الفرس الذين ينحدرون من أسر فارسية استوطنت مصر حين كانت خاضعة للحكم الفارسى قبل فتح الإسكندرية، وهناك فئة من هؤلاء الفرس ذات الكفاءات الخاصة التى جذبتها الفرص التى منحها البطالمة للعناصر المتميزة من الوافدين ولقد اصطبغ هؤلاء بصبغة الإغريق بسرعة .. ثم عنصر المصريين وكانوا عادة من أصحاب الحرف الصغيرة وكان منهم من يعمل فى صفوف بعض كتائب الجيش، وظلوا محافظين فى معظمهم على صبغتهم الوطنية بعيداً عن المؤثرات الإغريقية، وبرغم تعدادهم الكبير لم يتمتعوا بحقوق المواطنة .. وإن كان بعضهم مثل الكهنة القائمين على عبادة سرابيس قد وصلوا إلى مراكز اجتماعية متميزة وشغل بعضهم وظائف فى البلاط الملكى واصطبغوا بالحضارة الإغريقية(١٥).

وبناء عليه تأثرت معظم الجاليات بالصبغة اليونانية فيما عدا المصريين الذين بعدوا عن مظاهر الحياة الإغريقية خصوصاً بعد تميز كل العناصر والجاليات الأخرى عنهم في كل أمور الحياة حيث كان الاعتماد الأساسى للبطالمة على الإغريق فى تغطية كل نواحى الأنشطة الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية .. وكان الإغريق يمثلون لحكام مصر سنداً عنصرياً يجابهون به سكان البلد الأصليين (المصريين).

* عندما شملت الإمبراطورية المصرية سوريا وبرقة ومناطق فى آسيا الصغرى وبحر إيجه حضرت إلى مصر أعداد أخرى غفيرة من هذه

الجنسيات المختلفة سعياً وراء العمل والرزق الوفير ومن أهم تلك الجنسيات اليهود والسوريون والفينيقيون والليبيون وجماعات من شعوب آسيا الصغرى ويذكر جوزيفوس أن عدد سكان مصر عدا أهل الإسكندرية هو سبعة ملايين ونصف مليون .. وهذه الإحصاءات دقيقة لأن الإدارة اليونانية و لرومانية كانت تسجل المواليد والوفيات بانتظام نظراً لارتباط ذلك بالضرائب التى كانت تجبى من الأفراد .. ويذكر ديودور الصقلى أن عدد سكان الإسكندرية من الأحرار فى العصر الأخير من الحكم البطلمى ٣٠٠ ألف شخص .. وغفل من هذا عدد النازحين من الريف والعبيد الغير مقيدين رسمياً وقد يبلغ تعدادهم ٢٠٠ ألف، أى عدد الإسكندرية ٥٠٠ ألف شخص تقريباً، وبناء عليه يكون سكان مصر فى العصرين اليونانى والرومانى هو ثمانية ملايين شخص .

* وكان يشاهد علي حد وصف «فيلون» على أرصفة المدينة وفي شوارعها خليط من الناس ينتمون إلى عناصر مختلفة ويتحدثون بلغات ولهجات متباينة .. ووجد بالإسكندرية بعض اليهود ولا سيما بعد اكتشاف الرياح الموسمية التى يسرت الملاحة من أفريقية إلى الهند مباشرة بدلاً من التزام الشاطئ .. وقد حدث قبل ذلك أن أرسل إمبراطور الهند البودى أسوكا Asoka رسله إلي بطليموس الثانى يدعونه إلى الهدى والصلاح وإن المرء ليتوق إلى معرفة أثر تعاليم جوتاما Guatama فى نفس بطليموس هذا الملك الذى عشق الدنيا وملاذها(١٦).

* حرص البطالمة علي تنظيم الأغريق والجماعات المتأغرقة من

الأجانب حسب أسس خاصة .. وقد تم ذلك عن طريق درج أعداد كبيرة من الإغريق في عداد مواطني المدن اليونانية في مصر أو عن طريق ضمهم في جماعات كل حسب موطنهم الأصلي تسمى بوليتيوما. أما سائر السكان من الإغريق والأجانب والأغلبية الساحقة من المصريين فكانوا ينظمون حرفهم وأعمالهم.

* اقتصرت العضوية في المدن اليونانية في مصر على الطبقات الممتازة من الإغريق .. ولم يقبل البطالمة على إنشاء مدن مستقلة فاقتصروا على المدن التي كانت موجودة قبل قيام دولتهم مثل نقراطيس شمال غرب الدلتا في نهاية القرن السابع ق.م والإسكندرية التي أنشأها الإسكندر وأصبحت عاصمة لمصر .. ولم ينشئ البطالمة سوى بطلمية في أعالي الصعيد .. وكان هدف البطالمة من نظام المدن هو محاولة حفظ جماعات من العنصر الإغريقي نقية دون أن تختلط بالأهالي من المصريين فتفقد بمرور الزمن وهذا عكس وجهة نظر الإسكندر الذي كان يعتبر كل مدينة ينشأها بمثابة بوتقة يختلط فيها الإغريق مع الأهالي الأصليين ويحدث تواصل واستقرار وتأثير وتأثر بين الأهالي.

أما خلفاء الإسكندر الأكبر فقد عزفوا عن هذه السياسة وجعلوا مواطني المدن اليونانية في مصر بمثابة فئات ممتازة من بين سائر السكان وسنوا عدة قوانين تحدد علاقتهم بالمصريين والأجانب وهي[١٧] :

* عدم التزاوج من المصريين حتى يبقى الدم الإغريقي نقياً في عروقهم، خصوصاً وأن المواطنة في المدن الكبيرة كانت قاصرة على

العناصر الممتازة من الإغريق.

* الإغريق الآخرون كانوا رعايا الملك مباشرة ولم يتمتعوا بحق المواطنة، وأوجد لهم نظام آخر يعوضهم عن حرمانهم من حياة المدينة السياسية وهو نظام البوليتوما وهي عبارة عن رابطة تضم جميع أبناء الوطن الواحد من بعض الفئات الإغريقية أو المتأغرقة فوجدت بوليتيوما للمقدونيين وأخرى لليهود وثالثة للسكرتيين ورابعة للبيتوتيين ... إلخ

* كانت البوليتيوما تعد هيئة مستقلة ذات نظام خاص يغلب عليه الطابع العسكري، ولها أيضاً أوجه من الأنشطة الاجتماعية والدينية وهي خاضعة للملك مباشرة، ويرجع أن السبب في إنشائها هو أن تدعم جنود الجيش البطلمي في أثناء السلم حينما ينتشرون في الريف ويستقرون على مزارعهم ليسهل حصرهم واستدعاؤهم بسرعة عند الحاجة .. وبالرغم من أن كل بوليتيوما كانت في البداية قاصرة على جنس بعينه إلا أنها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن، وأصبحت منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد تضم أفراداً من عناصر أخرى أو جاليات أخرى(١٨).

* إن وجود اليهود بمصر يرجع إلى ما قبل العصر البطلمي، فقد أقام الفرس حامية من اليهود في جزيرة اليفنتين على حدود مصر الجنوبية، وكانوا يتكلمون اللغة الآرامية .. وبعد فتح الإسكندر مصر توافد اليهود في أعداد كبيرة استقرت في مواطن مختلفة حتى كونوا جالية لأنفسهم سكنوا الحي الرابع المسمى دلتا وسرعان ما تركوا اللغة الآرامية واتخذوا اللغة اليونانية بدلاً منها .. وخير دليل على ذلك هو ترجمة التوراة إلى اللغة

اليونانية التى تمت فى مصر فى العصر البطلمى وتسمى عادة بالترجمة السبعينية .. وكانت هذه الترجمة من الأهمية بمكان لأن كثير من اليهود وكانوا قد تأغرقوا تماماً وأصبحت اللغة اليونانية لغتهم .. وكانت المراسيم الدينية اليهودية تؤدى باللغة اليونانية .. وتدريجياً يفقد اليهود فى مصر أى صفة مميزة لهم عن الإغريق واتخذوا الزى اليونانى وتسموا بأسماء إغريقية وتحدثوا اللغة اليونانية .. وسمح لهم الملوك البطالمة بتكوين بوليتيوما لتنظيم شئونهم الخاصة وأقاموا أماكن العبادة ولهم محاكمهم الخاصة .. خصوصاً فى الأمور الدينية بينما الأمور التى تمس القضاء المدنى أو الجنائى كانت تأتى تحت طائلة قضاء الدولة.

* كان المصريون هم الأغلبية وعماد المجتمع وكما كانوا رعايا الفرعون أصبحوا رعايا الملك البطلمى، وكان تنظيمهم حسب حرفهم وأعمالهم كما كانوا فى العصر الفرعونى ويذهب (هيرودوت) إلى أن المصريين كانوا ينقسمون إلى طبقات حسب أعمالهم. الكهنة، الجند، رعاة البقر، رعاة الخنزير، التجار المفسرون، رجال القوارب، .. وقد أغفل هيرودوت طبقات أخرى كانت موجودة فى مصر الفرعونية كما كانت موجودة فى عصر البطالمة طبقة الفلاحين .. طبقة الصناع .. طبقة الموظفين الإداريين ..

ويتضح من دراسة العصر البطلمى أن أفراد كل مهنة أو عمل كانوا منظمين تنظيماً دقيقاً إلى الدرجة التى كان من السهل معها تحديد إمكانيات الدولة فى مجالات الأنشطة المختلفة[١٩].

* كان وضع المصريين في بداية الأمر فى مركز المغلوب على أمرهم حيث إن الوضع الممتاز والمتميز كان للإغريق فى كل المجالات والأنشطة، فكان اليونانى هو الرئيس والمصرى هو المرءوس بإستثناء طبقة الكهنة كما سبق القول .. وإدرك البطالمة خطورة وقوة الكهنة فحاولوا إضعافهم فسلبوا المعابد بعض ممتلكاتها وإمتيازاتها، إلا إنه بعد ضعف البطالمة سعى المصريون بصفة عامة والكهنة بصفة خاصة إلى استرداد حقوقهم وتحسين أحوالهم ومراكزهم حيث كان دورهم فى الجيش محدود للغاية خصوصاً فى الأسطول .. ولكن مالبث أن اعتمد بطليموس الرابع وجند منهم عشرين ألفاً كان لهم الفضل فى القضاء على الغزو السليوقى فى معركة فاصلة عند رفح عام ٢١٧ .وكان من نتيجة ذلك استرداد المصريين لثقتهم بالنفس وشعورهم بأنهم لا يقلون فى الكفاءة عن الإغريق وطالبوا بحقهم فى تولى جميع المناصب .. وبناء عليه شغلوا مناصب قيادية فى الجيش والقصر والإدارة، وزادت الثورات التى قاموا بها ضد الأسرة الحاكمة فى الإسكندرية وشغلت فترة طويلة من النصف الثانى من العصر البطلمى(٢٠).

* كانت اللغة الرسمية لسكان مصر البطلمية هى اللغة اليونانية وهى لغة الطبقة الحاكمة ... أما المصريون فقد استمروا يتحدثون اللغة المصرية القديمة، وانقسمت إلى شعبتين ... ما يمكن أن يسمى باللغة الفصيحة التى كان الكهنة يكتبونها بالحروف الهيروغلوفية ... واللغة العامية وكانت تكتب بالحروف الديموطيقية ... وهذه اللغة الأخيرة وحروفها دخلتها كثير من التأثيرات اليونانية ... وكانت جميع مراسلات الدولة باللغة اليونانية ... أما المراسيم الملكية والقوانين التى نشرها بين جميع السكان فكانت تنشر إما باللغات الثلاثة أو باليونانية والعامية الديموطيقية.

* ساعد على ازدياد استخدام اللغة اليونانية أنها لغة الإدارة وكل من يريد الترقى من تحت لواء البطالمة يجب أن يتقنها .. ولذلك تعلمها بعض المصريين الطموحين من سكان المدن واليهود .. واتخاذهم أسماء يونانية وساعد على هذا الاتجاه إزدياد الزواج بين اليونانيين والمصريين ،حيث إنه منذ منتصف القرن الثانى ق.م لم يعد الاسم اليونانى فى المصادر يدل على أن صاحبه عنصر يونانى فقد يكون صاحبه مصرياً أو سورياً أو يهودياً أو يونانياً أو من أبوين مختلفى الجنسية (٢١).

خامساً: مظاهر الحياة الثقافية وخصائصها خلال حكم البطالمة:

ولما كان المفهوم الأنثروبولوجى للثقافة واسعاً ويتضمن كافة العادات والتقاليد والعرف والفنون والتكنولوجيا والديانات، سنحاول أن نلقى الضوء على كثير من تلك الجوانب المختلفة حتى يتبين لنا كيف أن الإسكندرية كانت تمثل مركزاً ثقافياً وحضارياً بالغ الأهمية فى العالم القديم وذلك فى النقاط التالية :

١- فى مجال الثقافة

* استمدت الإسكندرية مركزها الثقافى من جامعتها ومكتبتها التى أثارت اهتمام العالم القديم كمركز للإشعاع الثقافى وبناء عليه بات التأريخ لأثرهما الحضارى محوراً هاماً لجهود الباحثين فى القرنين الأخيرين.

* لقد كان موقع أو مكان الجامعة أو المكتبة فى الحى الملكى بالإسكندرية حيث قصور البطالمة .. أو كما حدد على وجه التقريب على يد إيفاديستى ريشيه E.Breccia المنطقة الواقعة بين شوارع شريف

وسيزوستريس والنبى دانيال ... وتمت إقامتها فى الفترة الواقعة بين عامى ٢٨٨ ، ٢٨٠ ق.م[٢٢]

* إن ديمتر يوس Demetrius مؤسس الجامعة والمكتبة وأحد زعماء السياسة فى أثينا ولقد اضطر لمغادرة أثينا كلاجئ سياسى فى ٢٠٧ ق.م فاستقدمه بطليموس الأول وأكرمه وعهد إليه بمهمة إقامة الجامعة أو دار الحكمة كما كانوا يطلقون عليها لتكون مركزاً للبحث والدراسة.

* لقد كان القائمون على التدريس فى الجامعة يمثلون الصفوة من أهل العلم والفكر في جميع أنحاء العالم الهلينستى .. وكان يستجلب بطليموس ومن خلفه علي عرش مصر وبصفة خاصة فى الشطر الأول من العصر البطلمى أعضاء الجامعة من أهل الكفايات فى كل فن ومن كل مكان استطاعوا أن يمدوا إليه نفوذهم أو ينثروا فيه ذهبهم إلى الحد الذى فيه بلغ عدد المفكرين والعلماء مائة فى إحدى فترات العصر الذهبى لحكم البطالمة.

منهم هيروفيلوس Herophilos الجراح الذى كان أول من كون فكرة علمية واضحة عن الجهاز العصبى ولا يزال الطب الحديث يستخدم مصطلحاته .. وكذلك يوكليدس Eucleides الذى عرفه الحرب باسم إقليدس الرياضى الذى ألف كتاب العناصر وعالج فيه النظريات الهندسية التى كانت تدرس حتى عهد قريب وآخرون فى مجالات متعددة.[٢٣]

* كان يتجمع بالإسكندرية أشهر شعراء العصر من أمثال كاليماس وأبولونيوس الرودس وآخرون وقامت بينهم المعارك الأدبية والنقدية المشهورة بين القديم والجديد وبات من الضرورى لكل مثقف فى العالم أن يلم بتطور

الإنتاج الأدبى فى الإسكندرية، حتى أطلق على الأدب اليونانى بأسره فى هذه الحقبة اسم الأدب السكندرى، وذلك لشدة تأثير مدينة الإسكندرية على الإنتاج الأدبى فى العالم فى ذلك الوقت بما فى ذلك أدباء اللاتين فى روما الذين كانوا يحاكون نماذج الأدب اليونانى فى الإسكندرية.(٢٤)

* كانت طريقة البحث فى تلك الفترة عبارة عن مناقشات أو ندوات فى شتى مناحى العلم والفكر يشترك فيها مجموعات متعددة ويدل على جدية هذه المناقشات ما كان يدور فيها من دراسات لا يزال العلم الحديث ينظر إلى كثير من الإكبار والعرفان بالجميل، ولايزال قدر غير قليل من المعلومات التى وصلوا إليها يتخذ سمة الحقائق الثابتة التى بدأ منها العلم الحديث تطوره فى أكثر من ميدان. (٢٥)

وبناء عليه فإن نصيب الإسكندرية فى بناء الحضارة الإنسانية فى ذلك الوقت على الشعر والأدب، بل قامت بها حركة علمية نشطة خدمت بعلوم الرياضة والهندسة والفلك والطبيعة كما سبق القول خطوات هائلة كانت تمثل الأسس للحركة العلمية العربية فى العصور الوسطى والنهضة العلمية الأوربية الحديثة، وخير دليل على ذلك أن إقليدس وأرشميدس وآخرون كانوا من علماء الإسكندرية فى العصر البطلمى. (٢٦)

* طغت شهرة مكتبة الإسكندرية على الجامعة تلك المكتبة التى كانت موجودة فى الحى الملكى وهى المكتبة الرئيسية، وهناك المكتبة الملحقة بمعبد السرابيوم فى الحى الوطنى بالإسكندرية (كوم الشقافة الحالى).

* حازت مكتبة الإسكندرية شهرة واسعة فى العالم القديم برغم وجود

مكتبات سبقتها من الناحية الزمنية وكانت تحتوى على مجموعات متنوعة من الكتب مثل المكتبة الملحقة بأكاديمية الفنون ... ومكتبة معهد اللوقيون حيث كان أرسطو يلقى محاضراته ويعقد حلقاته الدراسية، خصوصاً وأن جمع الكتب فى بلد مثل أثينا فى القرن الرابع كانت لازمة من لوازم الرجل المثقف وهذا ما تؤكده الوثائق التاريخية ... ويرجع شهرة مكتبة الإسكندرية إلى أنها كانت أول مكتبة عامة تملكها الدولة فى العالم القديم وهذا كان غير موجود فى أثينا التى أمسكت بزمام الثقافة والفكر ردحاً غير قليل من الزمن فلم يكن لها مكتبة عامة.

* إن مكتبة الإسكندرية منشأة عامة لا يملك التصرف فيها شخص بعينه وتنفق عليها الدولة، إلا أنها كانت مقصورة على طبقة المثقفين وليس مفتوحة أمام العامة ... ومع ذلك فهى كانت تعتبر خطوة هامة نحو قيام الدولة على نشر الثقافة والتثقيف.

* إن مكتبة الإسكندرية قد ضمت عدداً كبيراً من المجلدات بلغ ما يقرب من ١٢٨ ألف مجلد وهذا أكثر مما تضمه مكتبة جامعة الإسكندرية الحالية بما يزيد عن ألف مجلد. (٣٧)

* حرص البطالمة بكل الطرق على تزويد هذه المكتبة بالنسخ الأصلية من المؤلفات الموجودة فى عصرهم، أو بالترجمات اليونانية لما كتب بغير هذه اللغة ... فنجد فيلادلفوس يطلب من مانيثون الكاهن المصرى أن يضع تاريخاً لمصر باللغة اليونانية، ويكلف العلماء فى أثينا وروديس بإرسال مؤلفات أشهر الكتاب إلى الإسكندرية ... وتم ترجمة التوراة من العبرية إلى

اليونانية فى عهد البطالمة ... وإرسال ثالث حكام البيت البطلمى إلى أثينا يطلب على سبيل الإعارة المخطوطات الأصلية لمسرحيات إيخولوس ويوريبيدس حتى ينسخها أدباء الإسكندرية ... وهذا يدل على أن الاتصال الثقافى بين أثينا والإسكندرية كان نشطاً فى تلك الفترة ... وساعد على أداء المكتبة لدورها فى إثراء حركة الفكر والوقوف على ثقافات الشعوب أمناء المكتبة الذين تعدوا حدود العمل الإدارى الروتينى فكانوا سلسلة من العلماء برز كل منهم فى ميدانه كأروع ما يكون ... حيث كان من مهام أمناء المكتبة تعليم أولاد الملك ... وكان منهم زينودوتس أول من نشر ملحمتى الإلياذة والأوديسة على أساس علمى من النقد والتحليل، وأبولونيوس السكندرى شاعر الملاحم وأراتسفين العالم الجغرافى ... إلخ.

* قامت مكتبة الإسكندرية بمهمة نسخ المخطوطات التى لديها وكانت تبيعها للأفراد فى مصر وتصدرها إلى مراكز الثقافة اليونانية المختلفة وكذلك إلى روما فيما بعد.

* تعرضت الجامعة والمكتبة وعلماؤها للطغيان وكانت أول كارثة على يد بطليموس الثامن الذى ثار عليه الشعب السكندرى لطرقه التعسفية فصب جم غضبه على المدينة وكذلك الجامعة والمكتبة وخير دليل تعيينه مشرفا عاما من أعوانه من غير ذوى الاختصاص فى شئون العلم ... إندثار المكتبة بعد العهد البطلمى نتيجة الحريق الذى يختلف نسبته للرومان أو للعرب أو سبب عوامل الاستهلاك العادى كما يذكر وسترمان (وهذا غير صحيح) فالحريق هو الذى أودى بالمكتبة.

* إن الإسكندرية كانت فى عهد البطالمة مركزاً ثقافياً إغريقياً فى صبغته وإدارته وإن كان علمياً فى حدود العالم المتحضر المعروف، حينذاك فى توجيهه وطبيعته، فقد عكس التقاء الحضارات الآتية من الشرق والغرب بعد انتزاعاها مركز القيادة الثقافية فى العالم اليونانى من أثينا. (٢٠٨)

٢) التأثير والتأثر فى مجال الفنون والآداب:

* إن الإسكندرية قد شهدت نهضة فنية رائعة ... فقد أدت للفن خدمات جليلة وإن الأدب السكندرى قد تخطى حدود موطنه ليترك أثره فى فطاحل أدباء اللاتين أمثال فرجيل وهوراس، كما أن الفن السكندرى قد تغلغل ببعض أبوابه ونفذ أثره عميقاً فى غيره من الفنون اللاحقة.

* إن معالم المدرسة السكندرية الفنية كانت ترتكز على البيئة التى خلقته وهى يونانية ... فلم تكن الإسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى كما هى الآن جزء من مصر بل كانت على حد تعبير اللاتين «الإسكندرية المجاورة لمصر» فلم تكن حضارتها أو نظمها فى ذلك العصر جزءاً مماثلاً لحضارة بقية بلدان مصر ولكن كانت على العكس أقرب ما تكون لحضارة دول البحر المتوسط والممالك الهيلينستية الأخرى عنها إلى حضارة مصر نفسها حتى أن ملوك البطالمة سلكوا فى نظراتهم للمدينة مسلكاً يخالف نظراتهم إلى بقية بلدان القطر (مصر) فكانت معابدهم ومبانيهم بالإسكندرية على الطراز اليونانى بينما أسبغوا على مسلكهم فى بقية أجزاء القطر صبغة الفراعنة.

وبناء عليه فقد ظهرت صورهم خارج الإسكندرية تحمل الطابع

الفرعونى، كما نجد ذلك من خلال صورة بطليموس الثالث وزوجته المنحوتة على واجهة معبد الكرنك، وكذلك معابدهم في إدفو وكوم أمبو ودندرة وغيرها من بلدان القطر قد بنيت على نمط ذلك الطراز المصرى القديم.

ولقد حمل الفن فى الإسكندرية طابعه اليونانى وإن كان قد احتضن فى بعض إنتاجه الكبير بعض عناصر الفن الفرعونى أو فن البلاد الأصلى، ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

* تدفق واستمالة وجذب ملوك البطالمة للعلماء والأدباء والفنانين واليونانيين من مختلف أرجاء العالم إلى الإسكندرية، فاستعانوا بفنانى مقاطعة أتيكا لما كان بين هذه المقاطعة ومصر من صلات قوية وتضامن أمام تعديات العدو المشترك. وقد جاء هؤلاء الفنانون مزودين بما تعلموه فى بلادهم على يد أساتذة الفن فى بلاد اليونان فى القرن الرابع ق.م. أمثال سكوپاس وليسبوس وابليس وغيرهم. (٢٨)

* تشجيع الوافدين إلى مصر على البقاء فى البلاد وتيسير سبل العيش والكسب وبصفة خاصة الفنانين والعلماء خصوصاً من أبناء دار الحكمة ومكتبة الإسكندرية اللتين دعم من مركزه ما إنهال على مصر عامة والإسكندرية خاصة من غنائم وخيرات نتيجة للفتوح العديدة فى آسيا وأفريقيا وحوض البحر المتوسط، وما درته التجارة والصناعة على مصر من نعم وخيرات خصوصاً بعد إقامة منارة الإسكندرية الشهيرة وإزدهرت المدينة بما قام بين أرجائها من معابد ومبان شامخة، وما ازدانت به ميادينها ومكتبتها من تحف وآثار.

* إن الفن قد وجد فى الإسكندرية أرضاً خصبة لما ناله من تشجيع وتقدير السكان حيث كان معظمهم من جنود الغزو الذين حضروا فى عهد الإسكندر أو اليونانيين النازحين من أرجاء العالم اليونانى أو المصريين أهل البلاد الأصليين ... ومن المعروف تاريخياً أن المصرى واليونانى يعشقون الفن منذ أقدم العصور .. ويؤكد ذلك ما جاء فى كتابات سفراء الإسكندرية إبان حكم البطالمة عن تقدير السكان للقيم الفنية والآثار والقطع الفنية .. كما حدث فى وصف ليونيداس لتحفة الرسام إبليس أو قصيدة هيروناس الرابعة التى يصف فيها التماثيل واللوحات الموجودة فى محراب الإله اسكليبوس ... إلخ. (٢٩)

* ولقد وضحت اتجاهات ومعالم مدرسة الإسكندرية الفنية بتفردها عن غيرها من مدارس الفن المختلفة الشهيرة فى العصر الهيلنستى مثل مدرسة برجامة أو مدرسة أنطاكية أو مدرسة رودس ... فظهرت شخصيتها فى كل النواحى التى تتحكم فى العمل الفنى سواء فى المادة المستعملة التى يصنع فيها العمل الفنى أو الطريقة المستخدمة لتنفيذ العمل الفنى أو فى الموضوعات التى عبر عنها هذا الفن ... ولذلك نجد أن ندرة وجود الرخام أو البرونز أو الحجر الجيري في مصر والتي كانت تصنع منهم التماثيل في اليونان لوفرة هذه المواد هناك، وكان استيراده مكلفا للغاية وتحوطه صعوبات النقل ... إلخ .فاتجه فنانو الإسكندرية إلي عمل التماثيل صغيرة الحجم من الرخام في الأحوال النادرة كعمل تماثيل الآلهه والأباطرة الرومان ولكنهم استعاضوا عن الرخام بالمرمر المصري لبياض لونه ولوجود شبه

كبير بينه وبين الرخام كما يري في المقبرة التى ترجع لأوائل العصر البطلمي الموجودة حاليا بمقابر اللاتين بالشاطبي .. واستخدم الحجر الجيري للغرض نفسه في التماثيل الكبيرة الموجودة بمتحف الإسكندرية ... كما لجا الفنانون لاستعمال المصيص في صناعة بعض التماثيل الذي كان يستخدمه فنانو الفراعنة في عمل التماثيل ...ولجأ فنانو الإسكندرية في كثير من الأحيان لاستخدام الرخام في بعض الأجزاء وتكملة التمثال بالمصيص مستغلين مرونته وليونته وسهولة صناعته وبخاصة عند تشكيل شعر الرأس واللحية وكان المصيص يمزج أحيانا بمسحوق الرخام المتبقي من عمليات النحت فيكسب الشعر واللحية لمعانا عند صقله، وكانت صناعة هذه الأجزاء من الرأس من هذا المزيج تجنبهم ما قد يسببه استعمال الأزميل في الرخام من كسر التحفة الفنية أو تشويه التمثال ..وكان يتوفر المصيص في محاجر المكس ويستخدم علي نطاق واسع في عمل التماثيل أو تغطية لتماثيل الخشبية أو الحجرية الأخرى أو جدران المباني ليسهل طلاؤها باللون ويساعد علي حفظ اللون لمدة أطول ويعطيه صلابة وقوة لمقاومة عوامل التعرية .

* كما استخدم فنانو الإسكندرية المصيص فى عمل نسخ عن الأصل للوجوه البشرية وعمل قوالب من المصيص لنماذج التماثيل ونسخ منها من نفس المادة أو من التراكوتا (الطين المحروق) أسوة بفنانى الفراعنة فى عمل قوالب ونسخ التماثيل وأقنعة الرأس التى كانت توضع على المومياء ... واستخدام المصيص كذلك فى عمل التماثيل الصغيرة الكاريكاتور وعمل

الزخارف البارزة على الأوانى الهلينستية والزخارف التى كانت تحلى بها المرايا والأوانى الفنية والمعدنية ... وكانت الإسكندرية هى مركز إنتاجها الوحيد ومصدر تصديرها الهام فى ذلك العصر. (٢١)

* لقد كانت للمنافسة الشديدة بين ملوك البطالمة أثر بالغ الأهمية فى تشجيع إنتاج التماثيل الصغيرة والسلع المزخرفة بكميات كبيرة لاستخدام الناس بكثرة لها فى تزيين المنازل ولتأنس موتاهم فى مقابرهم، ولتزيين المكتبات والأماكن العامة ... ولهذا نشطت صناعة هذه المقتنيات الفنية لتلبية الطلب المتزايد عليها.

* تأثير الفن السكندرى باستعمال الألوان اللازمة لفن النحت الغرعونى مهما كانت المادة المستخدمة، فاستخدموا الألوان حتى على الرخام كما ترى آثارها فى رأس الطفلة الموجودة بمتحف كلية الآداب بالإسكندرية، وكما ترى فى تماثيل مجموعة التباجرا لصغر حجم التماثيل التى تعد من خصائص الفن السكندرى، واستخدام المصيص المستخدم فى الفن المصرى القديم.

* يظهر أثر المدرسة الأتيكية فى الوقفة أو فى صياغة الرداء ... إلخ، أو أن هذا الطراز ابتكروه فنانو الإسكندرية ثم انتشر منها إلى غيرها من مراكز الفن الهلينيستى.

* استخدم الفنانون السكندريون المواد الصلبة المترفرة فى مصر كما يستخدمها الفراعنة فى نحت تماثيلهم وإقامة مبانيهم الضخمة كالبازلت وحجر الجرانيت بألوانه المختلفة ويظهر ذلك فى نحت مثالى الإسكندرية

لبعض التماثيل لملوك البطالمة وملكاتهم من البازلت ... مثل تمثال بطليموس الثالث وتمثال الملكة أرسينوى زوجة بطليموس الثانى فى متحف لفاتيكان بروما. (٣٢)

* لقد خلق العصر البطلمى آثار مختلفة تدل على حضارة عظيمة وعت وعظمت وشجعت الإبداع فى مختلف الآداب والفنون مثل منارة الإسكندرية التى كانت تعتبر ثالث عجائب العالم القديم ... السرابيوم (معبد سرابيس)، وكان يهدف البطالمة من وراء إقامة هذا المعبد أن يوجد رابطة بين الديانة اليونانية المصرية وكون تبعاً لذلك لجنة من الكاهن المصرى مانثون والكاهن اليونانى تيموثيوس واستقر الرأى على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوث يتألف من سرابيس وزوجته وابنهما حربوقراط. وشيد للعبادة الجديدة معبد سرابيوم بالحى الوطنى (منطقة عمود السوارى) ... القيصريون (معبد قيصر) الذى شيدته (كليوباترا) آخر ملوك البطالمة باسم عشيقها مارك أنطونى ... ومقابر الإسكندرية التى أقيمت فى أطراف المدينة شرقاً (الشاطبى، الإبراهيمية، مصطفى كامل) وغرباً (الأنفوشى، كوم الشقافة، الورديان) وهو امتداد طبيعى للمدينة التى كانت بحكم موقعها محصورة بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط ... وكان الأجانب وبصفة خاصة اليونانيين يفضلون أن يدفن موتاهم فى الجبانة الشرقية، أما المصريون فكانوا يفضلون الجبانة الغربية لقربها من الحى الوطنى الذى يسكنون فيه والمقابر الملكية التى يطلق عليها السيما.

(٢) التأثير والتأثر في الأمور الدينية:

ونلمس في تأثير الثقافة اليونانية على مظاهر الحياة الدينية في النقاط التالية :

* إن الحياة الدينية في مصر كانت متميزة بتعدد المعتقدات فقد وجدت في مصر بالإضافة إلى سكانها الأصليين والإغريق جاليات من جنسيات أخرى مثل الفرس والعرب واليهود وكان طبيعياً أن تتعدد الديانات.

* احتفاظ المصريين بمعتقداتهم الدينية المتوارثة وظلوا يعبدون آلهتهم القديمة مثل آمون رع وبتاح وإيزيس وأوزوريس ... وقد حرص البطالمة في محاولة لاحتواء المصريين واسترضائهم والتقرب من آلهتهم وبناء المعابد وتقديم القرابين بالرغم من سعيهم للحد من سلطات كهنة هذه الآلهة.

* أدى خوف البطالمة من سلطة الكهنة إلى انتزاع إدارة أموال المعابد من أيديهم وتفتيت الهيكل الإداري للنظام الكهنوتي نفسه.

* احتفاظ الإغريق الذين سكنوا بمصر بمعتقداتهم الدينية وظلوا يعبدون آلهتهم الخاصة التي نقلوها معهم من موطنهم الأصلي وأقاموا لها المعابد في المدن التي كثروا بها ... ولقد ساعد الإغريق في المحافظة علي معتقداتهم الدينية أنهم عاشوا في مدن لها نظامها الخاص ... أما أولئك الذين لم يستوطنوا هذه المدن فقد تكتلوا في تجمعات دينية واجتماعية قاصرة عليهم.

* عدم استطاعة الإغريق خصوصاً الذين عاشوا منهم خارج المدن ذات الطابع اليوناني في أن يظلوا لفترة طويلة بعيدين عن المعتقدات المصرية فتأثروا بها وخير دليل علي ذلك إطلاق أسماء إغريقية على آلهة مصرية كتسمية الإله آمون المصرى بإسم الإله زيوس الإغريقى.

أوجد البطالمة ديانة جديدة في محاولة للتقريب بين المصريين والإغريق تقوم على فكرة الثالوث الذى قدم فى شكل إغريقى وللمصريين فى شكل مصرى .. أى فى شكل إنسانى للإغريق وفى شكل حيوانى للمصريين.

* لجوء البطالمة إلى تأليه أنفسهم وفرض عبادة ملوك البطالمة فى محاولة منهم لإحكام سيطرتهم على إمبراطورية تتكون من عناصر متباينة قد لا يجمعها سوى رباط دينى من هذا النوع أى عبادة الملك رمز وحدة الدولة .. وهذا التاليه كان من الممكن أن يكون مقبولاً لدى المصريين فقد إعتادوا على عبادة ملوكهم من الفراعنة بوصفهم أنصاف آلهة أو ممثلين للآلهة علي الأرض[٢٣].

سادساً: تأثير الثقافة اليونانية فى مظاهر الحياة الاقتصادية بالإسكندرية:

جدير بالذكر أن أهمية الإسكندرية من الناحية الاقتصادية لم تقتصر على كونها مجرد ملتقى للطرق التجارية فحسب، إلا إنها كانت خير مكان يستطيع منه البطالمة أن يدخلوا هذه الطرق فى دائرة نفوذهم، وما يؤكد ذلك توسعاتهم فى حوض البحر المتوسط، ولهذا كانت الإسكندرية ثغرهم الأول وعاصمة ملكهم ... ولهذا أدخلوا فى البحر فى ملكهم قبرص وقورينية الغنية بغلالها وجوف سورية وفينيقية ذات الغابات الواسعة وكارية ذات التجارة الواسعة ... إلخ .

(١) نظام الأراضى:

لقد كانت سياسة البطالمة فى نظام الأراضى يوجهها عاملان هما :

* العمل على بناء دولة قوية اقتصادياً تحت حكمهم الملكى المطلق.

* إقامة عدد كبير من الإغريق الذين حضروا إلى مصر وكانوا العنصر الأساسى فى بناء جيشهم وإدارتهم للبلاد ...

وبناء عليه نفذت هذه السياسة على نحو يتلاءم وظروف مصر وتقاليدهم وتظهر الوثائق أن هذه السياسة قد تم تطبيقها منذ منتصف القرن الثالث ق.م وإن أراضى مصر كانت تنقسم إلى الأنواع التالية [٣٤].

أ- أراضى الملك:

ولقد كانت الأراضى الزراعية أهم فى الضيعة الكبيرة نظراً لخصوبتها العالية نتيجة تجدد تربتها كل عام بالغرين الذى يتخلف فوقها من فيضان النيل ... وكان الملك من الناحية النظرية هو المالك الوحيد لهذه الأرض .. وقد كانت هناك جزء من أجود هذه الأراضى تقع تحت إشرافه الفعلى ويطلق عليها الأراضى الملكية التى تؤجر لفلاحين يعرفون باسم «مزارعى الأراضى الملكية» وكانت عقود الإيجار اختيارية، لكن بعدما تعسر العثور على المستأجرين لجأ إلى الإكراه فى بعض الأحيان، وكان مزارعو الملك رجالاً أحراراً لا عبيداً للأرض، غير أن حريتهم هذه كانت تخضع لبعض القيود مثل عدم استطاعتهم ترك أراضيهم فى خلال موسم العمل الزراعى، ونقلهم إلى أماكن أخرى لاستصلاح أراضٍ جديدة .. وكان من

حق الدولة أن تلغى عقود الإيجار فى أى وقت تشاء وإن تنقل الأراضى إلى مستأجر آخر يقدم عرضاً أعلى .. وكان المقابل لذلك هو تمتع المستأجرين ببعض الأمتيازات وبقسط معين من الرعاية الحكومية [٣٥].

وبالرغم من أن الأراضى نظرياً كانت ملكاً للملك إلا إنه لم يستحوذ عليها بمفرده، حيث نجد صور للملكية الخاصة فى أيام البطالمة الأولى ثم ازدادت وضوحاً فى أواخر عهد البطالمة.

ولقد كانت الأراضى التى لا تخضع لرقابة الملك وإدارته المباشرة « Apheseige'en» أى الأراضى التى يتخلى عن إدارتها لغيره ومن هذا النوع ضياع المعابد حيث كانت تستغل لصالح المعابد وتكون قسماً خاصاً من الأراضى يطلق عليها «الأراضى المقدسة».

ج-الأقطاعات العسكرية:

كانت هناك أراض أخرى تمنح فى صورة «إقطاعات» للجنود المقيمين فى مصر الذين عرفوا باسم أرباب الإقطاعات ويفضل هذا النظام حقق البطالمة هدفين يتمثلان فى إنهم شرطوا للحصول على الإقطاعات إن ينتظم صاحبها فى سلك الخدمة العسكرية وبذلك ضمنوا لأنفسهم مدداً من الجند المدربين الذين إرتبطت مصالحهم بالبلاد ومن ثم يقل احتمال انتقالهم للعمل فى خدمة سيد آخر كما يفعل مرتزقة الأسراق الحرة ... كما ضمنوا من ناحية أخرى ازدياد رقعة المساحات المنزرعة ازدياداً كبيراً ... كما أنهم كثيراً ما منحوا إقطاعيات فى أراضٍ غير جيدة واشترطوا على أربابها استصلاحها .. وكانت هذه الإقطاعيات تمنح مدى الحياة فقط، ولكن إزاء

احتياج الملك لمدد لا ينقطع من الجند المقيمين تحت إمرته في البلاد، جرت العادة على أن يؤول الإقطاع إلى أكثر الأبناء عقب وفاة الأب، بل نجد إقطاعيات ممنوحة بصفة أبدية .. وبناء عليه أصبحت الإقطاعات مع مرور الوقت وراثية واكتسبت مظهر الإمتلاك الخاص إلا إنها من الناحية النظرية ملكاً للملك ولكنهم كانوا يتحايلون للتصرف فيها.

د- إقطاعات الموظفين:

وتتمثل في الضياع الكبيرة التي منحت لكبار الموظفين والمقربين للملك، وقد خضعت هي الأخرى لشرط استصلاح الأجزاء المهجورة منها، ومثل هذه الضياع كانت تمنح لصاحبها مدى حياته فقط ثم يستردها التاج عقب وفاته، وكان يفرض في أغلب الأحوال على أصحاب المنازل القائمة حول الإقطاعات إيواء الجند في منازلهم ..

هـ- أراضي الملكية الشخصية:

وكانت هناك «أراضي الامتلاك الخاص» التي تتألف عادة من البساتين ومزارع الخضروات والنخيل والكروم وكانت هذه تزرع كلها في أراضٍ تتطلب قسطاً من الاستصلاح، ولكنها لا تلائم زراعة القمح والغلال، وكانت تمنح لأصحابها بموجب عقود إيجار طويلة الأجل أو عقود وراثية .. وبالرغم من أن القانون كان يسمح بانتقال ملكية هذه الأراضي من شخص إلى آخر، ولا يرجح أن أصحابها قد أمتلكوها امتلاكاً فعلياً في أية فترة خلال عهد البطالمة .. وبناء عليه فإن الأراضي الخاصة وعلى حد تعبير الدكتور تارت لم تكن أملاكاً حرة بالمعنى المعروف، إنما كانت تستغل

استغلالاً حراً [٣٦].

ويعد هذا الفرض لنظام الأراضى نجد من الأهمية أن نلقى الضوء على الأنشطة الإنتاجية المختلفة مثلاً كما يلى :

(٢)الزراعة:

جدير بالذكر أن البطالمة قد أضافوا مساحات للأرض المنزرعة فى مصر كما انتعشت صناعات الذهب والفضة والبرونز فى الإسكندرية وبرغم احتكار الملك البطلمى لبعض الصناعات إلا أن المصانع الحرة انتشرت، كما انتشرت المصانع الأخرى التابعة للمعابد وكبار الملاك.

* عدم اعتماد الصناعة فى مصر كما فى اليونان على العبيد بشكل أساسى وذلك بسبب كثافة السكان فى مصر [٤١].

التجارة:

لقد بذل البطالمة جهداً نشيطاً فى تشجيع التجارة الخارجية، حيث إن مصر برغم ثرائها الزراعى إلا إنها كانت فقيرة فى كثير من المنتجات، واعتمد على زيادة الواردات فى السلع التى يحتاجها السوق المصرى كالأخشاب والمعادن والنبيذ وزيت الزيتون والسمك المملح ومختلف أنواع الفاكهة والجبن والعبيد والخيول .. وكانت أهم صادرات مصر القمح حيث إنها كانت أكبر منتج للغلال فى شرقى البحر الأبيض المتوسط، والبردى التى انفردت بتصديره إلى مختلف أرجاء العالم القديم، والكتان والدقيق والزجاج المتعدد الألوان الذى اشتهرت به الإسكندرية، والمرمر والأحجار

الكريمة المختلفة.

كما أن مصر كانت مركزاً لتجارة عابرة نشيطة .. فقد كان يأتى من الصومال وشرق إفريقية وبلاد العرب والهند الذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج والتوابل والأصباغ وبعض أنواع الأخشاب النادرة والقطن والحرير .. وكانت هذه البضائع تنقل براً من موانى البحر الأحمر عبر الطرق الصحراوية إلى قفط Coptus على النيل .. وتيسيراً للنقل الداخلى فقد عمم البطالمة استخدام الجمل فى مصر .. وكانت هذه السلع فى بعض الأحيان تصدر من مصر إلى الخارج عقب وصولها، وفى أحيان أخرى تتناولها أيدى الصناع المصريين المهرة بالصقل ثم تستهلك محلياً أو يعاد تصديرها (٤٢).

العملة:

وضع البطالمة نظاماً اقتصاديا نقدياً متكاملاً فى مصر بعد أن كان أساس التعامل هو المقايضة .. ولذلك سك بطليموس الأول عملة ذهبية وفضية وبرونزية .. وأدخل على هذه العملات تعديلات كثيرة فيما بعد .. كما أن النسب بين العملة الذهبية والفضية ثم بين الفضية والبرونزية كانت تتغير من وقت لآخر، وأنشئت تبعاً لذلك المصارف فى أنحاء البلاد وتدل الوثائق على وجود نظام مصرفى متكامل .. وهذا لم يلغ النظام الإقتصادى القديم نهائياً حيث إن إيجارات الأراضى الملكية وبعض المرتبات كانت تدفع عيناً كما لم تختف المقايضة من الحياة التجارية وقد كانت المخازن الحكومية التى تجمع فيها الغلال تعتبر بمثابة مصارف للحسابات الفردية شأنها فى ذلك شأن المصارف المالية حيث كان تدفع الضرائب النقدية ... وعثر بين الوثائق

على أوراق يمكن أن تقارن بالصكوك (الشيكات) المعروفة فى وقتنا الحاضر.

الإحتكار:

ولقد كان هناك نظام احتكار حكومى واسع المدى، اقتضت سياسة البطالمة العملية الواقعية البحتة تنويعه بحيث تتفق فى حالاته المختلفة مع احتياجات الدولة المتباينة .. وقد كانت الأعمال المصرفية من بين هذه الاحتكارات الحكومية .. ولذلك كانت توجد مصارف ملكية تقوم بالأعمال الفردية والحكومية على السواء، وكان يوجد إلى جوارها مصارف أهلية تؤجرها الحكومة للأفراد (٤٣).

وتدل الوثائق على أن هناك احتكار الزيت حيث إن مصر كانت تزرع من قديم الزمن النباتات الزيتية مثل السمسم والخروع وبذر الكتان والقرطم والحنظل، ولقد فرضت رقابة صارمة أيام البطالمة على زراعة هذه النباتات، حيث حددت حكومة البطالمة مساحة الأراضى التى تزرع بها فى كل أقليم وراقبت زراعتها وحصادها مراقبة دقيقة .. وكانت الحكومة هى التى تمد الزراع بالبذور، ثم يحصر المحصول حصراً دقيقاً ويقدم ربعه ضريبة بينما يقوم الزراع بتسليم باقى المحصول للمتعهدين بأسعار محددة ... وكان الزيت يستخرج من مصانع خاضعة للرقابة الحكومية، ويعمل بها عمال لا يسمح لهم بمغادرة أماكن إقامتهم طول موسم عصر الزيوت بالرغم من إنهم كانوا أحراراً لا عبيداً وقد حرم استعمال المعاصر الخاصة التى ترجع إلى عصر ما قبل البطالمة باستثناء معاصر المعابد التى سمح لها باستخراج

الزيت اللازم لها في خلال شهرين فقط من العام ثم تغلق بعد ذلك بقية السنة، مثلما كانت تغلق المعاصر الملكية خلال فترة التوقف عن العمل ... ولقد كان حق بيع الزيت يمنح بطريق الالتزام لتجار الجملة وتجار التجزئة على السواء، ويجدر أن يبيعوه بالسعر الذى تحدده الحكومة، وكان الملك يجنى من هذه العملية ربحاً طائلاً للغاية .. وقد فرضت على استيراد زيت الزيتون ضريبة بلغت ٥٠٪.

وكان هناك أيضاً احتكار المنسوجات سواء أكانت من الكتان أم من الصوف أم من التيل .. وقد سمح للمعابد بالاستمرار فى صناعة منسوجاتها الكتانية الدقيقة التى اشتهرت بها وذلك لاستخدامها فى المعابد ذاتها (فقد كان محرماً على الكهنة لبس الصوف) إلا إنها كانت تسلم للملك كمية معينة من إنتاجها للتصدير، كذلك احتكر البطالمة صناعة الملح والصودا والجعة شراب المصريين القومى، وإن سمحوا بعمل هذه الأخيرة فى المنازل (٤٤).

الضرائب:

وكان من الطبيعى نتيجة تلك الاحتكارات المتنوعة ... وإجارات الأراضى الملكية .. والضرائب المفروضة على أراضى الإقطاعات وغيرها التى تخلى الملك عن إداراتها لغيره ضريبة على الميراث بالنسبة للضياع، وعلى التراخيص التى تمنح لمزاولة الحرف المختلفة، وعلى المبيعات وكثير من السلع التى يتناولها الناس، وعلى العقارات ... إلخ، أن حصل البطالمة على دخل هائل سواء أكانت عينية أم نقدية، خصوصاً وإن طريقة جمع الضرائب

والرسوم الجمركية، كانت طريقة الإلتزام التى تعرض فى المزاد كل عام.

وبناء عليه كان ملتزمو الضرائب يخضعون لرقابة صارمة فى كل خطوة حتى لا تضار مصالح التاجر أو مصالح دافعى الضرائب، ولذلك كان من الصعوبة تحقيق ربح يسير من عملية الالتزام وبات الحصول على الملتزمين بمرور الزمن أمراً عسيراً للغاية.

سابعاً: ملامح التأثير فى الحياة السياسية:

لقد وضح تأثير الثقافة اليونانية فى كثير من مظاهر الحياة السياسية في الإسكندرية بصفة خاصة ومصر بصفة عامة ونلمس ذلك من خلال المعالجة التالية:

(أ) تأسيس المدن:

مما لا شك فيه أن بطليموس الذى غدا ملكاً علي مصر وفرعوناً وإلهاً فى نظر رعاياه المصريين، وكان رجلاً دمث الطبع، طيب القلب وجندياً لا يعوزه الدهاء، ويمثل صورة صادقة لأفراد الطبقة الثانية من النبلاء المقدونيين، كما كان رجلاً مثقفاً شمل الآداب الإغريقية برعايته، ولذلك وضع مؤلفاً عن غزوات الإسكندر صار مرجعاً هاماً لمختلف أعمال المؤرخين عن تلك الحقبة التاريخية على المستوى العالمى (٤٥).

ولقد اتبع بطليموس فى مصر سياسة مخالفة لما اتبعه الإسكندر فى تشييد المدن ... وقد رأى إقامة جنده المرتزقة بين أفراد الشعب المصرى سواء أكان ذلك فى قرى الإقليم أو في عواصمها بدلاً من إقامتهم فى مدن

إغريقية الطراز ... وكانوا يطلقون على هذه العواصما إسم متروبوليس Me-tropolis وهي مدن متوسطة الحجم ولكنها في نظر الإغريق لم تكن أكثر من قرى كبيرة .. وبالرغم من أن الإغريق قد أسموها مدناً Polis مثل هرموبوليس – مدينة هرميس Hermopolis (الأشمونين)، وهيراكليوبوليس مدينة هيراكليس Heraclepolis (أهناسيا) إلا أنها لم تتمتع بالحكم الذاتي ولم تكن بها جمعيات شعبية ولا مجلس للشورى (كما كان يحدث إبان حكم الإسكندر) كما أنها كانت تخضع لسلطات مدير الإقليم ..

بناء عليه لم يشيد بطليموس Ptelemos إلا مدينة إغريقية واحدة سميت باسمه وهي مدينة بطلمية Ptelemais (المنشأة بإقليم جرجا) على الشاطئ الغربي للنيل في مصر العليا .. وكانت هذه المدينة مع الإسكندرية والمدينة الإغريقية القديمة نقراطيس Nacratis في الدلتا هي التي تمثلت فيها فكرة الإغريق عن المدينة الهلينية الحرة ... ونود أن ننوه إلى أن سياسة بطليموس وخلفائه في عدم التوسع في إنشاء المدن الإغريقية كما حدث في سوريا على يد سليوكوس ثم بطليموس الثاني كان يتعارض مع سياسة الحكم الملكي المطلق التي اتبعها البطالمة في وادي النيل ..

ب- التميز العنصري:

لقد فرق ملوك البطالسة عكس سياسة الإسكندر بين جميع الرعايا في مصر .. فقد فرقوا بين الإغريق (المقدونيين) والمصريين فبينما كان الإغريق سادة، كان المصريون مسودين ينتمون إلى جنس أدنى .. وبناء عليه أبعدوا عن الجيش وعن الوظائف الإدارية الكبرى .. وقد فهم أن عملية اختيار

الإسكندرية عاصمة للبلاد بدلاً من منف التى استقر بها لاجوس فى أول الأمر ودفن بها الإسكندر بعد استيلائه على جثته، ثم عملية نقل جثة الإسكندر إلى مقبرته فى الإسكندرية، على هذه الأعمال من قبيل التخلى نهائياً عن فكرة إشراك المصريين فى إدارة شئون البلاد ومن ثم جعلهم أنداداً للإغريق.

كما نجد إختلافاً فى الوضع القانونى للإغريق والمصريين فبينما تمتعت القوات المقدونية بإمتيازات معينة، فإن أعمال السخرة فى شق قنوات الرى وإقامة الجسور كانت من نصيب الفلاحين المصريين وحدهم(٤٦).

ولقد انتظم الإغريق وغيرهم من المستوطنين فى جاليات لها قوانينها الخاصة .. وبالرغم من أن البطالمة الأول قد أخذوا بقسط وافر من الحضارة الهلينية إلا أنهم في سياستهم الرسمية قد بعدوا عن النظريات الخيالية .. فكانوا حكاماً شديدى المراس ورجال أعمال يحرصون على توفير الاستقرار والثراء والنقود فى العالم للدولة التى أقاموها .. وقد كان يميلون إلى الاعتبارات العملية ويبعدون عن الخيال والعواطف ..

ولقد اعتمد البطالمة اعتماداً كبيراً فى تكوين جيوشهم على المرتزقة من الإغريق والمقدونيين والفرس والأسيويين المتأغرقين خصوصاً بعد انقطاع صلتهم بين وطنهم الأصلى مقدونيا الذى كان يمد الإسكندر بالجنود هذا من ناحية .. ثم لأن المصريين لم يكن قد جندوا جيوشاً قوية منذ انتهاء عهد إمبراطوريتهم العظيمة فى خلال الألف الثانية ق.م.

ولقد اتبع بطليموس الأول سياسة من شأنها تدعيم عن طريق :

* إسكان أكبر عدد من هؤلاء المرتزقة في مصر عن طريق منحهم إقطاعات من الأرض الزراعية نظير قيامهم بالخدمة العسكرية عندما يطلب منهم ذلك.

* التوسع فى استخدام النقود بدلاً من الاعتماد على المقايضة فى إتمام الصفقات والتعاملات التى يقوم عليها النظام الاقتصادى.

* الاعتماد علي الإغريق وخبرائهم لتنفيذ مشروعات استصلاح الأراضى وللقيام بتجارب عملية فى الميدان الزراعى ..

* اللجوء الي رجال الإدارة الإغريق لإقامة هذا البناء البيروقراطي المحكم الذي أدار دفة الأعمال في المملكة .

* أصبحت الكويني «koine» التي تعد صورة دولية للغة الإغريقية اشتقت من الأتيكتة بل طغت علي اللهجة المقدونية وصارت لغة البلاط والجيش والإدارة .

* اتجاه أنظار ملوك البطالمة إلي ما وراء حدود مصر الي شرقي البحر المتوسط حيث كانوا يتطلعون إلي القيام بدور رئيسي .. حيث كانوا ينظرون إلي مصر كدعامة لقوتهم وكضيعة غنية تمدهم بالغلال وتفيض عليهم بالثراء (٤٧). ولقد اختلف العلماء في تفسير سياسة البطالمة الخارجية فيذهب كورنمان Kornemann إلي أن البطالمة الأوائل كانوا يطمحون إلي بسط سلطانهم ونفوذهم علي جميع أرجاء العالم شأنهم في ذلك شأن الإسكندر الأكبر الذي كان هدفه بناء إمبراطورية عالمية يصوغ فيها فكرته

الوحيدة عن الوحدة بين البشر أجمعين ... بينما يري فيلكن «Wilcken» أن مصر كانت في نظر ملوك البطالمة مجرد وسيلة للحصول علي الثروة اللازمة لتحقيق أهدافهم خارجها وتتمثل في لعب دور رئيسي في سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية وتكوين امبراطورية في حوضه ...

ويري روستفتزف «Rostovtzeff» أن مصر كانت في نظر ملوك البطالمة هدفا في ذاته وإذا كانوا يريدون بناء دولة قوية غنية في وادى النيل وعلى شواطئ البحرين الأبيض والأحمر، وتستطيع أن تزود عن استقلالها، ومن أجل هذا كانوا مضطرين إلي السيطرة على الطرق البحرية المؤدية إلى مصر .. وإلى الاستيلاء على ما يسمى ملحقات مصر الطبيعية .. ويرى أن سياسة البطالمة كانت سياسة استعمارية دفاعية وليست استعمارية وهذا يدفعنى للقول على أية حال أن مصر بثرائها وخبراتها وطبيعة موقعها المتفرد والمتميز على البحرين كانت تمثل مركز الإمبراطورية التى ينشد البطالمة إنشائها هذا من ناحية .. ثم أن بطليموس الأول كان قائداً فى مدرسة الإسكندر الأكبر وشارك معه فى كثير من غزواته على فنون الحرب والقيادة وشاهد عن كثب طموح الإسكندر وكيف كان تحقيقه تدريجياً، خصوصاً وأن الإسكندر قد ترك وراءه إمبراطورية اقتسمها قواده وكان أحدهما بطليموس ابن لاجوس الذى وقع اختياره على مصر وإقامة عاصمته فى منف ثم الإسكندرية لموقعها الفريد والمتميز على البحر المتوسط والتى كانت حلم الإسكندر الذى تحقق بعد وفاته ... واعتقد أن البطالمة كانوا يعتمدون على مصر لثرائها وتوفر الغلال والقمح والخبرات التى تمثل المدد

للجيوش التى سيفزون بها الأقطار لاخضاعها والاستيلاء عليها لتحقيق إمبراطوريتهم.

* لم يحاول أحد من ملوك البطالمة باستثناء كليوباترا الأخيرة تعلم اللغة المصرية .

أ) وضع المصريين فى مصر:

لقد رحب المصريون بالإسكندر كمنقذ لبلادهم، ثم لحسن معاملته لهم ولاحترامه لآلهتهم .. عكس ما حدث لهم فى عصر ملوك البطالمة .. فقد كان المصريون يعاملون معاملة الأدنياء المغلوبين على أمرهم. وتمثل الإحساس بذلك بعدم المساواة بينهم وبين الإغريق فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .. وعلى الرغم من ذلك فقد تكونت فى مصر طبقة أرستقراطية وطنية قوامها بعض كبار رجال الدين وقلة من المدنيين الذين شغلوا بعض المناصب الهامة، إلا أن عامة المصريين كانت تنتمى إلى طبقة اجتماعية من طبقة المستوطنين الإغريق ... فكانوا هم أصحاب الحرف ومزارعى الأراضى الملكية، وإذا منحوا إقطاعات أو اقتنوا أراضى خاصة، فإن أراضيهم كانت أقل مساحة فى أراضى الإغريق وإقطاعاتهم. فقد كانوا بصفة عامة مستأجرين وعمالا كانوا أداة التنفيذ بينما كان الإغريق أداة التوجيه ... وقد قابل المصريون هذا الوضع وتدنى المركز بروح العداء الصامت وبرد فعل طبيعى تمثل فى الكبرياء القومى، وفى ازدراء بدع المستعمرين .. وتوجد بعض الأدلة التراثية تتضمن بعض قصاصات من النبوءات ومن الآداب القومية التى تدل على وجود حزب قومى نشيط كان رجاله يحلمون باليوم

الذى يطرد فيه الأجنبى البغيض [٤٨].

وبالرغم من أن موقف معظم المصريين من النظام الجديد كان موقفاً سلبياً، فقد تعلم كثير منهم الإغريقية وتسمى بأسماء إغريقية .. وام يتوانوا عن الإفادة من الظروف الجديدة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبناء عليه احتل البعض كما سبق القول المناصب الإدارية العليا ... وبينما النال هكذا للمصريين بصفة عامة فقد وجد الكهنة الذين يعتبرون معقل التقاليد القومية، ومعين القادة والزعماء للثورات الشعبية أن حكامهم الجدد أخف وطأة عليهم من حكامهم القدامى .. ومرد ذلك أن البطالمة قد شيدوا معابد جديدة ووسعوا المعابد القديمة ولم ينتقصوا من امتيازات الكهنة... وكان من ثمار هذه الرعاية الملكية أن قام الكاهن المصرى مانيثون Manethon بكتابة تاريخ لمصر باللغة الإغريقية جمعه من سجلات المعابد وأفواه الناس.. وبالرغم من فقد هذا التاريخ إلا أنه كان المصدر الرئيسى لتاريخ مصر القديم حتى فكت رموز الهيروغليفية ..

وبالرغم من تعدد الثورات ذات الطابع القومى التى استنزفت قوى البلاد خلال القرنين الثانى والأول .. إلا أنه ليس هناك ما يؤكد على أن المصريين قد ثاروا جميعاً ثورة عامة ضد حكامهم المقدونيين، فطالما انقسموا إلى فريقين أحدهما يقف إلى جانب الحكومة والآخر فى جانب الشعب، ولقد قاد باوس Paos المصرى قيادة القوات الملكية فى إقليم طيبة بوصفه مديراً لهذا الإقليم [٤٩].

ب) وضع الإغريق فى مصر:

لقد تميز الإغريق سواء أولئك الذين عاشوا فى الإسكندرية أو بطلمية بتقاليدهم الهلينية ونظروا إلى المصريين نظرة احتقار باعتبارهم من المتبربرين. إلا أن أولئك الذين استقروا فى سائر أنحاء البلاد سرعان ما تخلوا من عزلتهم الذين تمسكوا بها فى بادئ الامر وبدأوا فى التصاهر مع الوطنيين وتسموا بأسماء مصرية واندمجوا تدريجياً وبطريق شتى فى بيئتهم الجديدة ... وما يؤكد ذلك وجود رسالة تتحدث فيها سيدة عن ابنها الذى أخذ يتعلم اللغة المصرية كوسيلة لتحسين مركزه المالى ...

ويجدر الإشارة إلى أن الإندماج قد بدا واضحاً فى الناحية الدينية .. حيث أظهر الإغريق تواماً تسامحهم الدينى واستعدادهم لعبادة الآلهة الأجنبية ... وما يؤكد ذلك تشبيههم الآلهة والإلهات المصرية بنظائرها الإغريقية إلى الحد الذى يجعل القارئ للوثائق البردية يتساءل عند قراءة أسماء الآلهة الإغريقية هل المقصود معبوداً أو معبودة مصرية ... وهناك احتمال بانصراف الإغريق عن عبادة الآلهة الأولمبية (*) إلى عبادة الآلهة المصرية .. فى عام ٩٨ وعام ٩٥ ق.م. نجد مجموعة من شباب الإغريق الذين يتعلمون وفقاً للتقاليد الهلينية يقدمون الهبات للتمساح إله الفيوم.

وإذا كان الإسكندر الأكبر كان يهدف من فتوحاته العسكرية تحقيق حلم الوحدة بين أوروبا وآسيا بما فيها مصر ... فإن هذه الوحدة لم تقم على أساس المشاركة أو المساواة التى كان يبغيها الإسكندر .. إذ كانت العلاقة بين الطرفين علاقة غالب بمغلوب وإذا كان كثير من الشرقيون قد

تعلموا اللغة الإغريقية ولبسوا الزى الإغريقى وأخذوا بقسط لا بأس به من الثقافة الإغريقية فإن الإغريق من ناحيتهم قد اقتبسوا الكثير من بيئتهم الشرقية ولاسيما فى الناحية الدينية ... وينطبق ذلك بصفة خاصة على مصر حيث عاش الإغريق المستوطنون مبعثرين بين الوطنيين المصريين فى بلد يعتز بطابعه الخاص كل الاعتزاز، لا فى مدن حرة مستقلة منعزلة .. بناء عليه ظهرت حضارة مختلطة امتزجت فيها العناصر الشرقية بالعناصر الإغريقية امتزاجاً معقداً، وكانت هذه الحضارة بمثابة التربة الخصبة التى كان لابد منها لظهور المسيحية وانتشارها .. إلا أن هذا الامتزاج لم يقم على أساس وطيد، حيث إن الحضارة الهلينية كانت تنهكها المؤثرات الشرقية ولم تكن تستطيع أن تحتفظ بمقوماتها إلا إذا رعتها الحكومة رعاية فعالة .

وإجمالياً فإن هذه الحضارة لم تكن أكثر من قشرة خجبت حضارة موغلة فى القدم تختلف عنها تمام الاختلاف، وكانت هذه القشرة رقيقة إلى حد كبير فى إقليم طيبة أبعد أقاليم مصر عن الإسكندرية وعالم البحر المتوسط .. ومرد ذلك تركز نفوذ رجال الدين بقوة هذا من ناحية، ثم لأن عدد الإغريق المستوطنين قليل (٥٠).

خاتمة البحث ونتائجه

لقد أبرز البحث تأثير الثقافة اليونانية على جميع مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعملية التأثير والتأثر بين الثقافة اليونانية والثقافة الفرعونية وما ينتج عن ذلك من عمليات الاقتباس والاستعارة والاقتناء بين الثقافتين السمات المادية وغير المادية فى الثقافتين ... وخلص البحث إلى عدة نتائج نجمل أهمها فيما يلى :

١- لقد كان الإسكندر يهدف عدة أهداف من وراء تأسيس الإسكندرية، فحضارياً لأن تصبح مدينته الجديدة معيناً لا ينضب للحضارة الإغريقية بنشر ألويتها بين ربوع الشرق بعد أن يتم له فتحه وإخضاعه لسلطانه .. وعسكرياً باعتبارها قاعدة بحرية تتيح له السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط، وتجارياً كميناء خصوصاً بعد تحطيمه ميناء صور وهو فى طريقه لمصر.

٢- لقد كان حلم الإسكندر وهدفه النهائى هو توحيد العالمين الشرقى والغربى .. وكان اتجاهه نحو الشرق واستمرار فتوحاته وانتصاراته خصوصاً وأن الجزر كانت منتشرة بشكل واضح فى حوض بحر إيجة مما جعل من السهولة بمكان إمكانية قيام اتصالات بين شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة آسيا الصغرى.

٣- أن الاتصال بين حضارة العالم الشرقى والعالم الغربى قد تخلف عنه اقتباس أو استعارة لبعض السمات الثقافية المادية وغير المادية بين هذين العالمين، إلا أنه لم يصل لحد التمثيل الثقافى على حد تعبير كانثروبولوجيين.

٤- لقد تدفق تيار الهجرة الإغريقى للبلاد التى فتحها لهم بعد وفاته وحمل هؤلاء المهاجرون معهم فنونهم وآدابهم وأساليب معيشتهم كما نقلوا أنظمتهم المدنية ومعاهدهم جيمينازيوم وألعابهم وأعيادهم، أى مختلف عناصر التراث الثقافى لهم وكان لابد لهم من أن يحدث بينهم وبين أبناء المواطن الأصلية فى مصر وآسيا إتصالا ثقافياً.

٥- لقد قسم سكان الإسكندرية بوجه عام إلى خمسة عناصر وتمثل بوجه عام خمس طبقات من ناحية الوضع الاجتماعى فى المدينة .. فقد إنقسم العنصر الإغريقى إلى ثلاثة عناصر ... المواطنين الكاملين أى السكندريين وكانوا من الأسر العريقة ولهم كافة حقوق المواطنه الكاملة .. وطبقة أنصاف المواطنين الذين لا يتمتعون بكافة حقوق المواطنة. وطبقة الإغريق الفقراء الذين توافدوا سعياً وراء الرزق .. وعنصر القدونيين ويمثلون طبقة ممتازة واليهود والفرس ثم المصريين الذين كانوا من أصحاب الحرف.

٦- تأثرت معظم الجاليات بالصبغة اليونانية فيما عدا المصريين الذين بعدوا عن مظاهر الحياة الإغريقية خصوصاً بعد تميز كل العناصر والجاليات الأخرى عنهم فى كل أمور الحياة .. فكان الإغريق يغطون كل نواحى الأنشطة السياسية والثقافية والعسكرية ويمثلون سنداً عنصرياً يجابهون به المصريين.

٧- اقتصار العضوية فى المدن اليونانية فى مصر على لطبقات الممتازة من الإغريق ... ولم يقبل البطالمة على إنشاء مدن مستقلة فاقتصروا على المدن التى كانت موجودة قبل قيام دولتهم مثل نقراطيس شمال غرب

الدلتا .. ولم ينشئ البطالمة سوى بطليمة فى أعلى الصعيد ... وكان هدفهم من نظام المدن هو محاولة حفظ جماعات من العنصر الإغريقى نقية دون أن تختلط بالمصريين.

٨- عدم التزاوج بين المصريين والإغريق حتى يبقى الدم الإغريقى نقياً فى عروقهم وكانت المدن الكبيرة قاصرة على العناصر الممتازة من الإغريق.

٩- كانت اللغة الرسمية لسكان مصر البطلمية هى اللغة اليونانية وهى لغة الطبقة الحاكمة ... أما المصريون فقد استمروا يتحدثون اللغة المصرية القديمة وانقسمت إلى شعبتين .. اللغة الفصيحة وتكتب بالحروف الهيروغلوفية .. واللغة العامية وكانت تكتب بالحروف الديموطقية وهذه الأخيرة دخلها كثير من التأثيرات اللغوية اليونانية.

١٠- حرص البطالمة بكل الطرق على تزويد مكتبة الإسكندرية بالنسخ الأصلية من المؤلفات الموجودة فى عصرهم، أو الترجمات اليونانية لما كتب بغير هذه اللغة ... ولقد طغت شهرة مكتبة الإسكندرية على الجامعة حيث أن القائمين على الإشراف عليها يمثلون نخبة ممتازة من أهل الفكر والثقافة.

١١- لقد شهدت الإسكندرية نهضة فنية رائعة .. فقد أدت للفن خدمات جليلة خصوصاً وأن الأدب السكندرى قد تخطى حدود موطنه ليترك أثره فى قطاحل أدباء اللاتين أمثال فرجيل وهوراس .. كما أن الفن السكندرى قد تغلغل ببعض أبوابه ونفذ أثره عميقاً فى غيره من الفنون اللاحقة.

١٢- لقد وجد الفن بالإسكندرية أرضاً خصبة لما ناله من تشجيع وتقدير السكان ... خصوصاً وأن اليونانيين والمصريين معروفون تاريخياً

بعشقهم للفن منذ أقدم العصور .. وقد تفردت مدرسة الإسكندرية الفنية عن مدارس الفن المختلفة فى العصر الهلينستى.

١٣- لقد كان للمنافسة الشديدة بين ملوك البطالمة أثر بالغ الأهمية فى تشجيع إنتاج التماثيل الصغيرة والسلع المزخرفة بكميات كبيرة لاستخدام الناس بكثرة لها فى تزيين المنازل ولتأنس موتاهم فى مقابرهم ولتزيين المكتبات والأماكن العامة .. وبناء عليه نشطت صناعة هذه المقتنيات الفنية لتلبية الطلب المتزايدة عليها.

١٤- تميزت الحياة الدينية فى مصر بتعدد المعتقدات .. حيث وجدت جاليات متعددة بالإسكندرية كالإغريق والفرس واليهود والعرب .. الخ وكان طبيعيا أن تتعدد الديانات .. ولقد ظل المصريون يعبدون آلهتهم ويتمسكون بمعتقداتهم المتوارثة خصوصاً مع تقرب الإغريق البطالمة لاسترضاتهم.

١٥- أوجد البطالمة ديانة جديدة فى محاولة للتقريب بين المصريين والإغريق تقوم على فكرة الثالوث الذى قدم للإغريق فى شكل إغريقى وللمصريين فى شكل مصرى .. أى فى شكل إنسانى للإغريق وفى شكل حيوانى للمصريين .

١٦- انقسم نظام الإراضى إلى عدة أقسام، منها أراضى الملك، واراضى المعابد، والاقطاعات العسكرية، وإقطاعات الموظفين وأراضى الملكية الشخصية....

١٧- أضاف البطالمة مساحات شاسعة للأراضى المنزرعة فى مصر بعد استصلاح الأراضى وزراعة كل أراض بما يتناسب مع جودتها من النباتات.

صور من مظاهر الحضارة المتشابهة بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح

بحث مقدم من الدكتورة

سحر السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى

والحضارة الإسلامية المساعدة

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

١٨- لقد كانت سياسة البطالمة هو سيطرة الدولة على اقتصاديات البلاد، فإن هذه السيطرة قد اختلفت درجتها بين الاحتكار الجزئي ومن بين الصناعات التي خضعت لاحتكار الدولة الكامل صناعتا الزيت والملح ... حيث كانت الدولة تحدد كل سنة مساحة الأراضي التي يجب على كل مديرية أن تزرعها بالنباتات المنتجة للزيت .. ولقد ازدهرت صناعات الزجاج والفخار والعطور والفنون الصغيرة.

١٩- عدم اعتماد الصناعة في مصر كما في اليونان على العبيد بشكل أساسي وسبب ذلك هو كثافة السكان في مصر.

٢٠- وجود نظام احتكار حكومي واسع المدى طبقاً لسياسة البطالمة العلمية وبحيث يتفق مع احتياجات الدولة المتباينة ... فكانت الأعمال المصرفية من بين هذه الاحتكارات ... واحتكار صناعة الزيت وتحديد المساحات التي تزرع بالنباتات الزيتية ... ومنح حق بيع الزيت بطريق الالتزام لتجار الجملة وتجار التجزئة مع تحديد السعر الذي يجب أن يبيعوا به هذه المنتجات ... واحتكار المنسوجات والكتان والصوف وعدم السماح بصناعتها للأفراد إلا في حالة المعابد لاحتياجاتها فقط.

٢١- التفريق في المعاملة بين جميع الرعايا في مصر .. فقد فرق البطالمة بين الإغريق المقدونيين والمصريين ... وسيطرة الإغريق على جميع الوظائف العليا في الإدارة والجيش ... الخ. واقتصار المصريين على الحرف وأعمال السخرة للفلاحين المصريين وحدهم ... وبناء عليه كان يحس المصريون بتدني أوضاعهم في مقابل تميز كل الجاليات الأخرى بصورة أو بأخرى.

هوامش البحث

١) لمزيد من التفاصيل أنظر : ايدرس بل، مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربي، دار النهضة المصرية، ١٩٥٤، ص ص ١٣ – ١٤.

٢) محمد عواد حسين، الإسكندرية منذ أقدم العصور، ١٩٦٣، ص ١٢.

٣) أنظر : حسين الشيخ، دراسات في تاريخ حضارة مصر اليونانية والرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠، ص ١٩.

٤) انظر : لطفي عبد الوهاب، دراسات في العصر الهلينستي ، ص ص ٤–٨.

٥) انظر : لطفي عبد الوهاب، مرجع سابق، ص ص ٨ –١١.

٦) عبد اللطيف أحمد علي ومحمد عواد حسين ، مرجع سابق، ص ص ٦٦–٦٧.

٧) محمد سيد محمد، الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر ، دار الفكر العربي، ١٩٩٤، ص ٢٥.

٨) محمد عواد حسين وآخرون، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ١٩٦٣، ص ٩.

٩) ايدرس بل، مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربي، ترجم عبد اللطيف علي دار النهضة المصرية، ١٩٥٤، ص ص٨ – ٩٩.

١٠) انظر : محمد عواد حسين وآخرون، تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور، ١٩٦٣، ص ص ٢٢–٢٣.

١١) ايدرس بل، مرجع سابق، ص ص ٢٤–٢٥.

١٢) محمد عواد وآخرون، مرجع سابق، ص ٢٦.

١٣) مصطفى العبادي، مصر، ص ١٠٩.

١٤) محمد عواد حسين، تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور، ١٩٦٣، ص ص٤٣–٤٤

١٥) أنظر : محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص ص ٤٥–٤٧.

١٦) أنظر : ايبرس بل، مرجع سابق، ص ص ١٠٢-١٠٣.

١٧) انظر : مصطفى العبادى، مرجع سابق، ص ص ١١٠-١١١.

١٨) انظر مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ص ١١١-١١٢.

١٩) انظر مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ص ١١٢-١١٣.

٢٠) انظر مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ص ١١٤-١١٥.

٢١) انظر مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ١١٦.

٢٢) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص ص ٢٥-٣٦.

٢٣) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص ٣٧.

٢٤) انظر مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ١٤٤.

٢٥) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص٣٨.

٢٦) مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ١٤٤-١٤٥.

٢٧) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص٤٠.

٢٨) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص٤٢.

٢٩) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص ص ١١٤-١١٥.

٣٠) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص١١٧.

٣١) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص ص ١١٩ - ١٢٠.

٣٢) محمد عواد حسين وآخرون، مرجع سابق، ص١٢٠.

٣٣) أنظر حسين الشيخ ، مرجع سابق، ص ص ٦٢-٦٣.

٣٤) مصطفى العبادى، مرجع سابق، ص ١٢٩.

٣٥) عبد اللطيف على، مرجع سابق، ص ٨٦.

٣٦) أنظر : مصطفى العبادى مرجع سابق ، ص ص ١٢٠-١٣١.

أنظر : عبد اللطيف على، مرجع سابق ، ص ص ٨٨ -٨٩.

٣٧- أنظر : عبد اللطيف على، مرجع سابق، ص ص ٩١-٩٢.

٣٨) أنظر حسين الشيخ، مرجع سابق، ص ٥٦.

٣٩) مصطفى العبادى ، مرجع سابق، ص ١٣٩.

٤٠) حسين الشيخ، مرجع سابق، ص ١٤٠.

٤١) حسين الشيخ، مرجع سابق، ص ص ٥٧-٥٨.

٤٢) عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ٩٨.

٤٣) أنظر عبد اللطيف على، مرجع سابق، ص ص ٩٣-٩٤.

أنظر محمد عواد حسين ، مرجع سابق، ص ٦٧.

٤٤) عبد اللطيف أحمد على ، مرجع سابق، ص ٣٨.

٤٥) أنظر : محمد عواد حسين، مرجع سابق، ص ٦٧.

٤٦) أنظر : محمد عواد حسين، الوطنيون والإغريق فى مصر البطلمية، مج ٣، ١٥٤

٤٧) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة، ص ص ٢٧-٢٨.

٤٨) عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص ٧٢-٧٣.

٤٩) محمد عواد حسين ، مرجع سابق، ص ٧٤.

* الآلهة الأوليمبية نسبة إلى جبل أولمبس الذى يقع بين مقدونيا وتساليا وكان الإغريق يعتقدون أن الآلهة وعلى رأسهم كبيرهم زيوس كانت تسكن فوق قمة هذا الجبل وكان أشهرها بعد زيوس أبولون وأثينا.

٥٠) أنظر عبد اللطيف أحمد على، ص ٨١.

محتويات البحث

تمهيد :

أولا : الإسكندر وحلم تكون إمبراطورية تجمع بين العالم الشرقي والغربي

ثانيا : الاتصال الثقافي بين الحضارة اليونانية والمصرية القديمة.

ثالثا : الإسكندرية كعاصمة وأهم الموانئ في حوض البحر المتوسط.

رابعاً : مظاهر الحياة الاجتماعية وخصائصها خلال حكم البطالمة.

خامساً : الحياة الثقافية وخصائصها خلال حكم البطالمة.

١) التأثير والتأثر في مجال الثقافة.

٢) التأثير والتأثر في الفنون والآداب.

٣) التأثير والتأثر في مجال الحياة الدينية.

سادسا : تأثير الثقافة اليونانية في مظاهر الحياة الاقتصادية بالإسكندرية.

١) نظام الأراضي.

أ) أراضي الملك.

ب) ضياع المعابد.

ج) الإقطاعات العسكرية.

د) إقطاعات الموظفين.

هـ) أراضي الملكية الشخصية.

٢) الزراعة.

٣) الصناعة.

٤) التجارة

٥) العملة

٦) الاحتكار.

سابعاً : مظاهر الحياة السياسية وخصائصها خلال حكم البطالمة .

أ) تأسيس المدن.

ب) التمييز العنصرى.

١) وضع المصريين فى مصر.

٢) وضع الإغريق فى مصر.

خاتمة ونتائج البحث.

صور من مظاهر الحضارة المتشابهة بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح

يذكر ابن خلكان فى وفيات الاعيان أن الخليفة المنصور الموحدى ابتنى بالقرب من مدينة سلا (٥٩٣هـ) «مدينة عظيمة، سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية فى اتساع شوارعها وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وتحصينه وبناها على البحر المحيط الذى هناك وهى على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي .....»[١].

وقد نقل الناصرى السلاوى هذا القول عن ابن خلكان[٢].

ولم يكن ابن خلكان وحده هو الذى ربط فى الشبه بين كل من الإسكندرية ورباط الفتح فإن المؤرخ المغربى المعاصر للموحدين، عبد الواحد المراكشى ربط هو الآخر بين المدينتين عندما ذكر فى المعجب أن مسجد رباط الفتح الذى عرف فيما بعد بجامع حسان «كبير المساحة واسع الفناء جدا لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه، وعمل له حائنة فى نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيه بغير درج، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها ولم يتم هذا المسجد[٣] إلى اليوم ....».

وإذا ما قمنا باجراء دراسة حول كل من المدينتين التى ترجع إحداهما إلى العصر القديم والأخرى إلى العصر الوسيط فسوف نلاحظ أن ثمة تشابه كبير يربط بينهما فى حقيقة الأمر فى الموقع والتخطيط والبنيان لاسيما صومعة الجامع[٤]. ولعل الأساس الذى قامت عليه مقومات هذا

التشابه هو ما يمكن أن نسميه التماثل فى «عبقرية الزمان والمكان» الذى اتسمت به كل منهما. فالإسكندرية قدر لها منذ أن اختار الإسكندر المقدونى موقعها ليبنى عليه عاصمته وحتى يومنا هذا، أن تكون ملتقى للحضارات المختلفة ومنطلق إشعاع حضارى وثقافى، ومركزاً اقتصاديا عالميا هاما وأيضا قاعدة استراتيجية بحرية غاية فى الأهمية، وكذلك كان حال مدينة الرباط والتى توفر لموقعها مزايا استراتيجية واقتصادية وحضارية عظيمة الأهمية فموقعها الطبيعى بين استدارة نهر واطلالتها على المحيط الأطلسى اكسبها تميزا استراتيجيا. وقد أدرك الرومان قديما أهمية هذا الموقع فأقاموا فى موضع قصبة[٥] الودايا قلعة لهم، قام على أنقاضها رباط مرابطى لجهاد هراطقة براقوطة[٦]، استخدمه تاشفين بن على لقتال المهدى بن تومرت، ثم أعاد بناءه الخليفة عبد المؤمن بن على ليصبح نواة مدينة رباط الفتح التى شرع ولده أبو يعقوب يوسف فى بنائها ثم استكملها من بعده ولده المنصور وقد حدثتنا المصادر العربية عن المكانتين الاقتصادية والعلمية اللتين امتازت بهما مدينة رباط الفتح منذ إنشائها بين مدن المغرب الإسلامية ولعل ذلك يذكرنا بمقولة ابن صاحب الصلاة الشهيرة عن مدينة رباط الفتح «وكان أهل الأثر يقولون فى ذلك التاريخ سيكون فى هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة عظيم»[٧]، وبنبوءة المهدى بن تومرت التى أوردها عبد الواحد المراكشى من أن رباط الفتح هى التى ستبقى فى أيدى أهل المغرب ثم يفتح الله عليهم منها فى تجميع كلمتهم[٨].

وفى رأيى أن المدن كالبشر، فإذا كان لكل إنسان شخصيته الخاصة

بها الميزة له وكذلك إمكانيات وقدرات ذاتية تجعل شخصا ما يتفوق على غيره، فكذلك شأن المدن فهناك من المدن والبلاد ما يحمل من المقومات الطبيعية والبشرية ما يجعلها تبرز بين غيرها فى تفوقها، ومن بين هذه المدن التى حملت بجدارة صفة «عبقرية الزمان والمكان» مدينة بيت المقدس على سبيل المثال، فهى ملتقى الديانات الثلاثة والتى بحكم وقوعها فى فلسطين، تقع فى قلب منطقة الشرق الأدنى القديم، وهناك مدينتى «القاهرة» و«الإسكندرية» باعتبارهما مدن مصرية، فمصر حباها الله موقع جغرافى فريد فهى تقع فى قلب العالم العربى وفى نفس الوقت فى قلب العالم الإسلامى، وكذلك فى قلب العالم كله تتحكم فى عدد من أهم المجارى المائية العالمية، وكذلك العراق، وعاصمته بغداد، فالعراق له حضارة من أقدم وأعرق الحضارات فى التاريخ، والعراق يمثل قديما الجناح الشرقى فى منطقة الشرق الأدنى القديم، والبوابة الشرقية للعالم الإسلامى فى العصرين الوسيط والحديث، وكذلك كانت بلاد المغرب فهى الجناح الغربى للعالم الإسلامى فإذا كان العراق هو البوابة الشرقية فإن المغرب هو البوابة الغربية لعالم الشرق الأدنى قديما والأمة الإسلامية فى العصرين الوسيط والحديث، وكان لمدينة رباط الفتح وضع هام وخاص فهى بإطلالتها على المحيط الأطلسى، تطل على العالم الغربى كله وتعد بمثابة همزة وصل بين هذا العالم، والعالم الإسلامى، وكانت بحكم موقعها فى وسط المغرب الأقصى بمثابة قاعدة مركزية لربط أنحاء المغرب بعضه ببعض وكذلك لربطه ببلاد الأندلس.

وسنقوم فى السطور التالية بمحاولات أكثر تفصيلا لتوضيح أهم ملامح الالتقاء والتقارب بين كل من الإسكندرية ورباط الفتح فى المجالات المختلفة. ونلاحظ أن أهم ملامح التقارب تتمثل فى الموقع الجغرافي فكل من الإسكندرية ورباط الفتح تطل على ساحل البحر، الأولى على البحر المتوسط والثانية على البحر المحيط. ولعل الموحدين عندما اختاروا موضع مدينة رباط الفتح لبناء هذه المدينة كانت قد وصلت إلى أسماعهم الشهرة الكبيرة التى كانت تنعم بها مدينة الإسكندرية منذ أقدم العصور فبحثوا عن موضع ساحلى يتميز بخصائص جغرافية واستراتيجية مشابهة. فوجدوا أن موضع الرباط يجمع بين كل المقومات، فهى إلى جانب وقوعها كامتداد لقصبة تاشفين بن على القائمة على رباط المرابطين لقتال برغواطة محل القلعة الرومانية القديمة كما سبق أن ذكرنا، مدينة ساحلية، من الممكن أن تلبى حاجتهم إلى الجهاد البحرى وتحقق الغرض من بنائهم لها لتكون قاعدة للجهاد فى الأندلس أو لمحاربة أعدائهم فى بلاد المغرب، وكذلك مركزا اقتصاديا هذا على النحو الذى كانت عليه مدينة الإسكندرية فى مصر. وقد دفع هذا التحليل الكثير من المؤرخين إلى وصف أبى يوسف يعقوب المنصور بأنه كان يفكر فى بناء مدينة جديدة تخليدا لذكرى انتصار الأرك على غرار الحواضر الإسلامية الكبرى[٩].

أما بالنسبة لمدينة الإسكندرية فإنها تختلف بعض الشئ من حيث التخطيط عن مدينة رباط الفتح. فهى تتكون أساسا من قرية تعرف باسم راكوتيس Rhakotis يحدها من الشمال جزيرة تعرف باسم جزيرة

فاروس كانت بمثابة حاجزاً طبيعياً لها يحميها من أنواء البحر وعواصفه، ويحدها من الجنوب بحيرة مريوط[١٠]. في حين أن مدينة رباط الفتح لم تكن محاطة لا في شمالها بجزيرة ولا في جنوبها ببحيرة، وبرغم ذلك الاختلاف الظاهري في التخطيط والوضع الجغرافي بين المدينتين إلا أن عاملا جغرافيا آخر هاما للغاية قرب بين المدينتين وهو وجود مجرى مائي في كل منهما، ففي حالة مدينة الإسكندرية، لاحظنا أن بحيرة مريوط كانت تقع جنوب الإسكندرية، وهي بحيرة عذبة كانت مياه النيل تصل إليها عن طريق قنوات تتفرع من ترعة شيديا، وهذه الترعة كانت تخترق مدينة الإسكندرية وتصب في البحر المتوسط، وكانت تحتشد فيها السفن القادمة من جنوب مصر، وبذلك تمكنت المدينة من التزود بمياه النيل. ويذكر المؤرخون أن هذه الترعة كانت تتفرع إلى فرعين عند حجر النواتية يسير أحدهما بمحاذاة الشاطئ إلى كانوب (أبي قير) بينما يتجه الآخر إلى الإسكندرية[١١] ويخوز جنوب المدينة ثم يصب في الميناء الغربي المعروف بالصندوق وأن كان بريشيا Breccia يعتقد أن هذا الفرع كان يصب في الميناء الشرقية[١٢]. أما رباط الفتح فتقع على امتداد الضفة اليسرى لنهر أبي رقراق في مواجهة سلا كما سبق أن أشرنا في بداية البحث، وكان هذا النهر يصب في المحيط الأطلسي مما أتاح الفرصة لبعض السفن الإبحار في النهر والدخول اليه بعكس ما أشار إليه كايليه Caillé في كتابه عن الرباط *.

وإذا انتقلنا للحديث عن تشابه المدينتين في التخطيط العمراني، فإننا نلاحظ أن مدينة الإسكندرية أسست وفق تخطيط مسبق لها ولشوارعها

ولاهم مبانيها شأنها فى ذلك شأن سائر المدن يونانية البناء، ومن المعروف أن دينوقراطيس Denokrates مهندس الإسكندر هو الذى وضع أساسها[١٣]، ولم يتم بناؤها فى عهد الإسكندر، وإنما استكملها خليفته بطليموس سوتر. وكانت المدينة تمتد فى عصر البطالمة من الشرق إلى الغرب بحذاء الساحل بحيث تؤلف مركزا عمرانيا على شكل شريط ساحلى يزيد طوله على عرضه، وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة رصفت بالبازلت الاسود أو الاصفر[١٤] تتقاطع فيما بينها، سبعة ممتدة طولا بحذاء الساحل، واثنا عشر تقطعها عرضا من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت تبدو وكأنها رقعة شطرنجية ويرجع الفضل فى هذا «التخطيط الشطرنجى» إلى المهندس دينوقراطيس الذى اتبع نفس نظام التخطيط الإغريقى الذى ابتدعه هيبودا موس الميليطى وطبق فى تخطيط المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق.م. مثل هاليكارناسوس وبيرايوس وروودس وكان يخترق المدينة شارعان رئيسيان، لا يقل اتساع الواحد منهما عن ثلاثين مترا الاول يسمى الشارع الكانوبى Canopus لأنه يمتد من الباب الشرقى فى اتجاه ضاحية كانوب (أبى قير الحالية) متتبعا طريق الحرية فى الوقت الحاضر[١٥] ثم يمتد من الباب الغربى حتى شاطئ البحر. أما الطريق الثانى فكان يقطع الطريق الكانوبى فى وسطه ويتفق فى تخطيطه مع خط شارع النبى دانيال الحالى. ويقال أن بطليموس سوتر قام بخدعه ماكره، عندما اتفق سرا مع أحد القادة اليونان لنقل جثمان الإسكندر من بابل حيث توفى إلى سورية، ومنها إلى مصر بدلا من مقدونية حيث كان يجب أن يدفن طبقا لما تم الاتفاق عليه بين قادته وقد قام بطليموس بدفن جثمان قائده الراحل فى منف بصفه

مؤقته ثم نقله بعد ذلك إلى الإسكندرية.[١٦] حيث دفن كما هو معروف بين الباحثين فى ضريح يقع عند نقطة التقاء الطريقين الرئيسيين السابق ذكرهما واللذين كانا يخترقان مدينة الإسكندرية، وعرف هذا الموضع بالسوما أو السيما بمعنى الجسد الحى نسبة إلى جثمان الإسكندر[١٧]. وكان بطليموس سوتر يهدف من وراء دفن قائده الإسكندر فى الإسكندرية، اكتساب مكانة روحية كبيرة للمدينة التى ستصبح عاصمته باعتبار أن الاغريق كانوا ينظرون إلى الإسكندر نظرة وإن لم تصل إلى التأليه الكامل فهى لا تبتعد كثيرا عنه، فأصبحت الإسكندرية منذ ذلك الحين مركز الثقل الأول في العالم المتأغرق[١٨]. وقد وضع بطليموس نظاما دقيقا لتزويد مدينة الإسكندرية بمياه الشرب والسقاية. فمدت فى جوف الأرض قنوات لتوصيل هذه المياه من ترعة شيديا إلى صهاريج وخزانات جوفية ما زال بعضها قائما حتى اليوم، فقد لاحظ الجغرافيون والمؤرخون العرب هذا التنظيم الدقيق، وقام بوصفه كل من المسعودى[١٩] وابن جبير[٢٠] واستمر ازدهار الإسكندرية يتزايد فى العصور التالية حتى إذا دخلها العرب عند افتتاحهم لها سنة ٢١هـ، بهتوا لما شاهدوه فيها من حسن العمارة وروعة التخطيط وجليل العمران حتى أن القائد عمرو بن العاص فكر فى بادئ الأمر فى اتخاذها عاصمة لمصر الإسلامية[٢١].

أما من حيث التشابه بين المدينتين فى التخطيط العمرانى فان تيراس Terrasse يذكر أن رباط الفتح بنيت فى موضع حصين حصانة طبيعية على مرتفع قريب من النهر وفى واجهة البحر، وهذا يذكرنا بموقع الإسكندرية ذى الحصانة الطبيعية حيث تحميها جزيرة فاروس فالموقعان

وان اختلفا فى التفاصيل إلا أنهما اشتركا فى «الحصانة الطبيعية». وإذا كانت الإسكندرية قد حظيت بتخطيط مسبق قبل بنائها شأن المدن اليونانية، فإن الرباط قد حظيت أيضا بهذه الميزة.

وتذكر المصادر العربية أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على عهد إلى المهندس البناء عبد الحق بن إبراهيم بن جامع بإتمام بناء قصبة المهدية[٢٢]، وإن العمران بدا يمتد حولها فعمرت سريعا بالسكان وأصبحت بذلك نواة لمدينة جديدة هى رباط الفتح، كما تذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان المسئول الأول عن تخطيط مدينة رباط الفتح ورسم شوارعها وفى ذلك يقول عبد الواحد المراكشى «وكان أبو يعقوب رحمه الله هو الذى اختطها ورسم حدودها وابتدأ فى بنيانها فعاقه الموت عن اتمامها ...»[٢٣]. ويشير ابن صاحب الصلاة إلى هذه الحقيقة بقوله «وأمير المؤمنين به أمير المؤمنين هذا هو الذى مصرها ومهدها وابتدأ بناء أسوارها من جهة الجوف والغرب ....»[٢٤].

وتعتبر مدينة رباط الفتح على هذا النحو من الأمثلة النادرة للمدن الإسلامية المحدثة التى تميزت بتخطيط مسبق لأسوارها وشوارعها قبل الشروع فى بنائها. فالمدن الإسلامية تتفق جميعها فيما بينها سواء فى المشرق أو المغرب وسواء أكانت مدنا مفتوحة أو مدنا أسست فى عهد الإسلام فى مظهرها العمرانى العام ونعنى فى طريق تكوين شوارعها وتعرضها وتشعب طرقاتها وتوزيع مراكزها العمرانية كما تتفق فى أبنيتها عامة باستثناء تفاصيلها الزخرفية بتأثير المناخ أو طبيعة المكان، وتتمثل هذه

الظاهرة فى مصر والشام والعراق وبلاد المغرب والأندلس، ويمكن تفسيرها بأن المسجد الجامع الذى لا يختلف كثيرا فى نظام بنائه فى سائر أنحاء العالم الإسلامى كان يعتبر أساس التنظيم العمرانى للمدينة الإسلامية، والذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية وكان تشييد المساجد الجامعة فى الإسلام أساس العمران فى المدن إسلامية الإنشاء أو المدن المفتوحة التى يراد طبعها بطابع الإسلام، فكان المسلمون منذ فجر الإسلام وفى زمن الفتوحات الكبرى يشيدون المسجد الجامع فى المدن المفتوحة رغبة فى إسباغها الطابع الإسلامى، لأن المسجد الجامع فى الواقع هو الذى يتحكم فى كل مراكزها العمرانية، كما كانوا يبدأون ببناء المسجد عند تأسيسهم للمدن الجديدة مثلما حدث عند بناء سعد بن أبى وقاص لمدينة الكوفة سنة ١٧هـ، وبناء عمرو بن العاص للفسطاط سنة ٢١هـ، وبناء عقبة بن نافع لجامع القيروان فى القيروان وبناء حسان بن النعمان الغسانى لجامع الزيتونه بتونس، وبعد بناء المسجد الجامع الذى سرعان ما تلتف حوله الدور ومختلف الأبنية والأسواق، وتتوزع الطرق بين هذه المرافق جميعا وتشكل شبكة معقدة من الدروب والحارات والأزقة المتعرجة التي تكسب المدينة طابعا مميزاً لأنها لم يخطط لها تخطيطا مسبقا.

أما فى حالة رباط الفتح، فإن تخطيطها سبق بناء مسجدها الجامع[٢٥]، فقد شرع الخليفة ابا يعقوب يوسف فى تخطيط المدينة وبناء أسوارها وأبوابها قبل بناء مسجدها الجامع الذى لم يبدأ العمل فيه إلا فى عهد الخليفة المنصور كما سبق أن ذكرنا، وبذلك فإن شكل شوارعها جاء

مختلفا عن الشكل التقليدى المعروف للشوارع الضيقة والدروب المتعرجة فى المدن الإسلامية، ويدت مدينة رباط الفتح على حد وصف تيراس Terrasse «مدينة توزعت فيها شبكة منتظمة من الطرق الفسيحة على غرار تخطيط مدينة الإسكندرية ....»[٢٦].

وكما حرص البطالمة على تزويد مدينة الإسكندرية بالمياه الصالحة للسقاية وإنشاء الصهاريج والخزانات اللازمة لذلك اهتم خلفاء الموحدين بتزويد رباط الفتح بالسقايات فقد ذكر البيذق أن الخليفة عبد المؤمن بن على قد مد السقاية من عين غبولة إلى موضع قصبة تاشفين حين أسس قصبة المهدية[٢٧]. وكذلك أشار إلى ذلك كل من ابن صاحب الصلاة[٢٨] وابن أبى زرع[٢٩]. أما الخليفة أبو يعقوب يوسف فقد لاحظ عند زيارة لرباط الفتح سنة ٥٦٦هـ أن الماء قد أسن وفدجرية فقام بتجديد مشروع والده مضيفا إليه صهريجا يتجمع فيه الماء[٣٠]. وقد أشار كل من صاحب الاستبصار والحميرى إلى وجود عدة سقايات وصهاريج للمياه بموضع رباط الفتح[٣١].

وإذا كان بطليموس بنقله لجتمان الإسكندر إلى الإسكندرية يهدف إلى إسباغ أهمية روحية للإسكندرية عن غيرها من مدن العالم المتأغرق فإن رباط الفتح حظيت هى الأخرى بمكانة روحية ومعنوية لا تقل بأى حال من الأحوال عن تلك التى حظيت بها مدينة الإسكندرية وأعنى بذلك ارتباطها اسما وفعلا بمفهوم «الجهاد المقدس» وهى نقطة سنعود للحديث عنها بمزيد من التفصيل فى الصفحات التالية، ولكن ما نود الآن الإشارة إليه أن هذه المكانة الروحية ترجع أيضا فى اعتقادى الشخصى إلى عامل ثانٍ يتمثل فى

وفاة أكثر من خليفة موحدى برباط الفتح وحرص عدد آخر منهم على قضاء الأعياد الدينية على وجه الخصوص بها، وقد أوردت على الصفحات السابقة بعض الأمثلة لذلك فى سياق عرضى التاريخى ولعل أهم هؤلاء الخلفاء الموحدين الذين توفوا برباط الفتح، الخليفة عبد المؤمن بن على الذى توفى وفقا لما ذكره كل من صاحب الحلل الموشية[٣٢] وابن أبى زرع[٣٣] والغبرينى[٣٤] وبوجندار[٣٥] فيها سنة ٥٥٨هـ بل أن ابن عذارى يؤكد أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بايع لولده فيها أيضا[٣٦].

وتذكر المصادر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن دفن أولا برباط الفتح بعد عودته شهيداً من غزاته بشنترين سنة ٥٨٠هـ، وأن ولده أبا يوسف يعقوب تأسى والده فتلقى بيعته بها دون غيرها من مدن المغرب[٣٧]. ويؤكد ابن الخطيب أن الخليفة محمد الناس الموحدى توفى فى رباط الفتح سنة ٦١٠هـ[٣٨]. ومن هذا المنطلق بدأت مدينة رباط الفتح تكتسب مكانة روحية بحيث أصبحت مرتبطة إلى حد كبير بالقيم الروحية لدى خلفاء الموحدين لذلك كانوا يفضلون قضاء أيام شهر رمضان والأعياد بها، واستمر هذا التقليد متبعا فى عصر بنى مرين.

واستكمالا للحديث عن التخطيط والنواحى المعمارية والعمرانية، فلابد أن نشير إلى منار الإسكندرية ومدى الارتباط بينه وبين صومعة جامع حسان، وأوجه التشابه بينهما والتى نصت عليها بعض المصادر العربية كما سبق أن أشرنا.

يتفق المؤرخون وعلماء الآثار على أن منار الإسكندرية، كان يتألف من طابق رئيسي يتمثل في برج ضخم مربع القاعدة يبلغ ارتفاعه ستين مترا، وتميل جدرانه ميلا خفيفا كلما ارتفعت نحو الداخل، ويعلوه طابق ثان مثمن الشكل أقل حجما يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا. وتتخذ جدرانه نفس الميل إلى الداخل، ويلي ذلك طابق أسطواني الشكل ارتفاعه ١٥٠ مترا ينتهي من أعلى بجوسق قائم على ثماني اعمدة من الجرانيت، ويوجد من أعلى بناء مثلث الشكل يرتقي بأعلاه تمثال ضخم من البرونز يبلغ ارتفاعه سبعة امتار يمثل اله البحر بوسيدون[٣٩] وكان الصعود إلى المنار يتم بواسطة طريق صاعد ميسوط لا درج له[٤٠] وكان منار الإسكندرية عند بنائه يعد من أعاجيب الدنيا السبعة[٤١]، وظل المنار يحتل هذه المكانة طوال العصر الوسيط حتى طليعة القرن السابع الهجري عندما بدأ يفقد مكانته تدريجيا بسبب ما تعرض له بنيانه العلوي من تصدع وانهيار بسبب الزلازل المتتابعة، لا سيما زلزال سنة ١٨٠هـ الذي تسبب في هدم طابقة العلوي وظل المنار على هذه الحال حتى قام أحمد بن طولون (٢٥٤هـ - ٢٧٠هـ) بإصلاحه وترميمه فجعل في اعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بفعل الرياح[٤٢]. وقد تعرض المنار لزلزال آخر عنيف سنة ٣٤٤هـ هدم ما يقرب من ثلاثين ذراعا من أعلاه[٤٣]. واستمر المنار قائما حتى قام السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري ببناء ما تهدم منه أثناء زيارته للإسكندرية سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) وأنشأ في أعلاه مسجدا لم يلبث أن تعرض بدوره للهدم عقب زلزال حدث سنة ٧٠٢هـ [٤٤] (١٣٠٢م). ويرجح المؤرخون أن تهدم المنار كله حدث فيما بين عامي ٧٢٥ و ٧٥٠ هـ (١٣٢٥، ١٣٤٩م)، وهما العامان

اللذان زار فيهما الرحالة ابن بطوطة الإسكندرية، ففى المرة الأولى كان أحد جوانبه وفقا لرواية ابن بطوطة مهدما، وفى المرة الثانية كان الخراب قد استولى على المنار تماما[٤٥]. ولم يبق من المنار فى سنة ٧٧٥هـ فى زمن النويرى السكندرى إلا البقعة التى كان يقوم عليها مما أوحى للسلطان قايتباى أن يبنى على أنقاضه برجا جديدا عرف ببرج قايتباى ومن خلال هذا العرض السريع يتبين لنا أن منار الإسكندرية كان لا يزال قائما عندما شرع الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي فى بناء مدينة رباط الفتح، واستكملها بعد وفاته ولده يعقوب المنصور، وكان طلاب العلم المغاربة وحجاج المغرب القادمين إلى الإسكندرية يشاهدون المنار فيتفاءلون به ويعتبرون أنفسهم قد وصلوا إلى بر الأمان بعد رحلة بحرية صعبة تعرضوا خلالها لأخطار الغرق بحرا، فأصبح المنار راسخا فى مخيلاتهم ولعل ذلك كان حافزا على تقليد هذا المنار فى صوامع ومآذن المغرب التى كانت تقوم بالإضافة إلى وظيفتها فى الأذان بهداية الرحالة والمسافرين برا.

وإذا عدنا إلى ما ذكره كل من ابن خلكان وعبد الواحد المراكشى من التشابه بين صومعة جامع الرباط ومنار الإسكندرية فإن ذلك يعنى أن عرفاء البناء برباط الفتح استوحوا طريقة بناء المئذنة من منار الإسكندرية الذى كان لا يزال قائما فى عهد المنصور الموحدى[٤٦].

وقد أشار الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى أحد أبحاثه إلى أنه يميل إلى الاعتقاد بأن منار الإسكندرية رغم اختلافه من حيث الوظيفة ومن حيث النسب عن المئذنة فى الإسلام قد أثر إلى حد كبير فى نظام المآذن فى

المغرب والأندلس ولاسيما مئذنة المسجد الجامع بالقيروان (٥٠١هـ) ومئذنة جامع صفاقس (٣٧٠/ ٩٨١م) والثلاث مآذن الموحدية مئذنة جامع الكتبية بمراكش وجامع قصبة الموحدين بإشبيلية ومئذنة جامع حسان[٤٧] بالرباط. ويذكر الدكتور سالم أن الشكل العام لمنار الإسكندرية كان هو النموذج الذى احتذاه المعماريون فى المغرب الادنى لمئذنتى القيروان وصفاقس، ولكن فى حالة المآذن الموحدية بمراكش واشبيلية وحسان بالرباط، فإن العمارة الداخلية للمنار كانت هى مصدر الإلهام لعرفاء البناء الذين أسسوا مآذن هذه المساجد الثلاثة[٤٨]. ومما لاشك فيه أن النص الذى اورده عبد الواحد المراكشى بهذا الصدد واضح وصريح وفى غاية الأهمية، ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك فى أن صورة منار الإسكندرية كانت لا تزال راسخة فى مخيلة الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور وأنه أملى على مهندسيه رغبته فى أن تتشابه صومعة جامعه بالرباط مع منار الإسكندرية أولا من حيث الضخامة والارتفاع ومن المعروف أن طول كل جانب من قاعدة الصومعة يبلغ ١٥،١٦متر[٤٩] وهو يزيد كثيرا عن نظيره فى صومعة جامع إشبيلية وصومعة جامع الكتبية بمراكش، أما ارتفاعها اليوم فيبلغ ٤٤ مترا وكان مقدرا لها أن تتجاوز فى الارتفاع ٦٠ مترا، وثانيا من حيث النظام الداخلى للبناء حيث يتم الصعود إلى أعلى الطابق الأول عبر طريق مستو صاعد بدون درج أشار إليه عبد الواحد المراكشى عند وصفه لصومعة جامع حسان.

ويصف تيراس Terrasse هذا النمط الداخلى للبناء بقوله عن

الصوامع التوائم الثلاث «وبين الجدار الخارجي السميك والنواة الوسطى لايوجد درج وفق النظام الشائع للمآذن، وإنما يرتقى المرء عبر طريق صاعد بدون درجات بحيث يجتاز فى عطفات مؤربة (تتخذ زوايا قائمة) وقد طبق هذا النظام فى صومعة جامع إشبيلية (الجيرالدا) كما طبق فى صومعة جامع حسان بالرباط»(٩٠).

ولا يقتصر التشابه بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح على النواحى العمرانية والمعمارية فحسب، وإنما أيضا فى الغرض الذى من أجله أنشئت كلتا المدينتين. ففى حالة مدينة الإسكندرية نلاحظ أن موقعها على ساحل البحر المتوسط أوحى لبانيها بأنها ستشغل دائما مكانة استراتيجية رفيعة، وتتبوأ مركزاً اقتصاديا ساحقا عبر كل العصور، وكذلك كان الأمر بالنسبة لمدينة رباط الفتح وإن كانت مكانتها الإستراتيجية قد فاقت مكانتها الاقتصادية.

فالإسكندرية أتسعت عمرانيا منذ إنشائها بالعظمة والفخامة ذلك لأن بطليموس الأول (سوتر) كان حريصا على تزويدها بكل ما كانت تحتاج إليه من مقومات هذه الفخامة والاتساع العمرانى، فقد ربط بين جزيرة فاروس وبين المدينة برصيف يبلغ طوله نحو ١٢٥٠ مترا وعرضه نحو ٣٠ مترا، وقدر لهذا الرصيف أن يتسع بمرور الزمن ويصبح حيا هاما من أحياء المدينة كما اعطى هذا الرصيف للمدينة بعدا استراتيجيا قويا فى ذات الوقت، فقد قسم ميناء الإسكندرية إلى ميناءين إحداهما شرقية وتعرف بالميناء الكبير Megas Limen والاخرى غربية وتسمى أيونو ستوس أى العود الحميد

Eunostos وعرفت أيضا بميناء السلام، وهى الميناء الحالية[٥١]. وكان هذان الميناءان يتصلان فيما بينهما عن طريق ممرين محصنين فتحا بالرصيف عند طرفيه الجنوبى والشمالى. كما مد بطليموس من الطرف الشمالى لرأس لوكياس (رأس السلسلة) شريطا صخريا ينحنى نحو الغرب وظيفته حماية الميناء الشرقى من عواصف البحر وأنوائه. وهكذا أصبح ميناء الإسكندرية يفوق سائر موانئ البحر المتوسط منعه وحصانة. وكان يحيط بالإسكندرية فى العصر البطلمي وطوال العصر الرومانى والبيزنطى سور مجرى عظيم مزود بأبراج ضخمة يفوق فى امتداده أسوار المدن الإغريقية الأخرى باستثناء أسوار سوقوصة وأثينا[٥٢]. واستمرت هذه الاسوار الحصينة التى اكسبت المدينة منعة وقوة إستراتيجية إلى أن فتحها العرب بعد حصار طويل تخللته مفاوضات انتهت بتسليم المدينة للمسلمين[٥٣].

وكان بالإسكندرية فى العصر البطلمى دار لصناعة السفن وهى نفس دار الصناعة التى اتخذها عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد تجديدها[٥٤] لصناعة السفن الإسلامية التى عهد إليه معاوية بن ابى سفيان بصناعتها ويذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم أنها هى نفسها دار الصناعة الغربية التى كانت تقع عند نهاية الطرق الغربى داخل سور الإسكندرية ويلصق السور، وقد توصل إلى هذا الرأى بعد اكتشافه لأثر له أهميته فى القطاع الغربى من الإسكندرية لصق سورها المصاقب للباب الأخضر ويتميز هذا الأثر بمدخل على هيئة الصرح المصرى القديم، ومن الواضح أنه قد تبقى من مدخل دار الصناعة البطلمية، ويؤدى إلى درج يفضى إلى باب إسلامى

ذى ممر منكسر تعلو مدخله فتحة طويلة ضيقة لعلها كانت مكانا يرتفع إليه المشط الحديدى الذى كان صلاح الدين خليل بن عرام نائب السلطنة بالإسكندرية قد دعم به تحصين هذا الباب سنة ٧٧٧ هـ عقب غارة القبارصة على المدينة سنة ٧٦٧هـ(٥٥).

ولعل هذه المكانة الرفيعة التى تبوأتها الإسكندرية والحصانة والمنعة التى اتسمت بها منذ نشأتها هى التى دفعت ولاة الإسكندرية منذ الفتح العربى وحتى نهاية العصر الأموى إلى تحصين سواحلها بالأربطة والنواظير، وكان خوف المسلمين على هذه المدينة من التعرض للاعتداءات البيزنطية البحرية الدافع الرئيسى وراء اعتبارهم لها منذ افتتاحها ثغرا من الثغور الإسلامية التى يفد إليها المرابطة بقصد الرباط وقد نزلت قبائل العرب بالإسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص وانتجعوها للرباط والجهاد وقبل أن نستطرد فى الحديث عن وضعية الإسكندرية فى العصر الإسلامى كرباط وثغر للجهاد، نود أن نشير إلى أوجه التشابه فيما ذكرناه بينها وبين رباط الفتح.

إذن فقد كانت لكل من المدينتين مكانة إستراتيجية فى التاريخ القديم والوسيط أهلتها لتتبوأ المكانة المتميزة التى ظهرت بها فى العصر الإسلامى، وإذا كنا قد أشرنا إلى تحول مدينة الإسكندرية إلى ثغر ورباط عقب الفتح الإسلامى لمصر مباشرة فإن رباط الفتح منذ أن أسست قصبتها المسماة بالمهدية ومن عبد المؤمن بن على بنيت على هذا الأساس ولهذا الغرض لكى تكون رباطا يقصده الراغبون فى الجهاد. وقد اهتم كل من الخليفة أبى

يعقوب يوسف وأبي يوسف يعقوب المنصور باحاطة مدينة رباط الفتح باسوار قوية ومنيعة لاتقل فى المنعة والحصانة عن أسوار الإسكندرية البطلمية. وفيما يتعلق بصناعة السفن فإن دار صناعة سلا التى كان بابها مسامتا لجامع حسان كانت تقوم بهذه المهمة وكانت الرباط كما أثبتنا فى كتابنا عن مدينة رباط الفتح(*)، ميناء حربية وتجارية هامة طوال العصر الإسلامى.

ونتوقف قليلا للإشارة إلى نظام الرباط والأربطة قبل أن نسترسل فى الحديث عن المدينتين كربط إسلامية هامة.

المرابطة تعنى ملازمة ثغر العدو وتعنى أيضا المحافظة على أوقات الصلاة طبقا لتفسير الإمام أبى بكر الطرطوشى(٥٦) للآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»(٥٧). ومن ذلك يتبين أن الرباط يعنى المكان الذى يجتمع فيه الفرسان المجاهدون قبل الخروج إلى دار الحرب للجهاد وكان يجتمع فيه أيضا أهل الزهد والنسك والتصوف تقربا لله(٥٨).

وقد ارتبط الجهاد بالرباط والمرابطة فأصبح من أخص صفاتهما(٥٩). وقد استقى هذا المفهوم من الآية القرآنية الكريمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»(٦٠).

ويختلف المؤرخون فيما بينهم حول تحديد بداية ظهور الأربطة فى التاريخ الإسلامى، فبينما يرى كل من الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور محمد توفيق بليغ والدكتور محمد الأمين بلغيث أن الأربطة ظهرت

لأول مرة فى المشرق الإسلامي قبل بلاد المغرب وذلك عقب الفتوحات الإسلامية مباشرة لحماية المناطق الساحلية التى كانت فى حوزة المسلمين، فساحل الشام كله كان يعتبر رباطا بعد الفتح إذ تنتهى عنده الحدود الإسلامية وتبدأ الدولة البيزنطية، وتتناثر على تلك الحدود الثغور، وكانت ملازمة هذه الثغور أسمى ما يصل إليه المسلم من تقوى، وكان بناء الربط أو الأربطة وملازمة المسلمين ومرابطتهم فيها يرصع ثغور الشرق فى البر والبحر[٦١] وكذلك كان الحال فى مصر[٦٢] بعد الفتح الإسلامى حيث اعتبرت الإسكندرية ثغرا ورباطا فقد أرسل إليها عمرو بن العاص عقب الفتح قبائل العرب لسكناها وحراستها والمرابطة فيها فنزلت قبيلة لخم فى المكان المعروف بكوم الدكة وجذام ببركة حذام ونزلت كندة بالبراكل، ونزلت الازد بحارة الازدى وحضرموت بشارع الحضارمة بينما نزلت خزاعة والمزاغنة بناحية أبى قير شرقى الإسكندرية، وبدأت تنتشر الاحاديث النبوية فى فضل الإسكندرية والرباط فيها لتشجيع المرابطة والمثاغرة ومن هذه الأحاديث حديث عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول «المقيم بالإسكندرية ثلاثة أيام من غير رباء بمنزلة من عبد الله سبعين سنة ما بين الروم والعرب»[٦٣]. وحديث آخر عن سعد بن أبى وقاص ذكر فيها رسول الله أن الإسكندرية وعسقلان عروستان والإسكندرية أفضلهما ومن رابط بالإسكندرية أربعين يوما كتب الله له براءة من النار[٦٤]. أما بالنسبة لأربطة المغرب فقد اهتم الدكتور حسن محمود بإبراز دورها فى هذه البلاد المغربية دون الإشارة إلى دورها فى المشرق الإسلامى، وأوضح أن بداية ظهورها على سواحلها كان لرد الخطر البيزنطى عن الأراضى حديثة العهد بالإسلام،

وأن الربط فى المغرب كانت فى أوائل الأمر مجرد حصون تقام فى المناطق الأكثر تعرضا لغارات العدو، وأشار إلى أن القيروان تعتبر أول رباط كبير يتخذه العرب لصد غارات الروم مفسرا كلمة قيروان بأنها موضع اجتماع الجيش وقيل محط أثقاله وأشار تأكيدا ودعما لرأيه إلى النص الذى أورده الدباغ فى كتابه معالم الإيمان من أن عقبة بن نافع أراد ببنائه القيروان أن تكون محل رباط[٦٥].

كما أشار الدكتور حسن محمود إلى أن برقة اعتبرت رباطا وأشار إلى مرابطة زهير بن قيس البلوى بها عقب انسحابه من القيروان ثم مالبثت الأربطة أن تزايدت فى عصر دولة الأغالبة وعرفت آنذاك بالقصور والمصالح[٦٦].

ويذكر الدكتور فرحات الدشراوى بعد أن استعرض الخطر البيزنطى على السواحل العربية الإسلامية عقب الفتوحات الإسلامية للشام ومصر والمغرب أن اقدم رباط فى المغرب هو رباط سوسة الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥ - ١٧١هـ) ويليه رباط المنستير الذى يرجع إلى عهد الوالى العباسى هرثمة بن أعين (١٧٩-١٨١هـ)[٦٧]. وقد أشار كل من خايمى أوليفر آسين Jaine Oliver Asin ومانويلا مارين Manuela Marin إلى أن أقدم الأربطة التى ظهرت فى العالم الإسلامى هو رباط عبادان الذى أقيم فى جزيرة بين ذراعين من دجلة والفرات عند الخليج العربى[٦٨].

ومن الجدير بالذكر أن الرباط فى المغرب الإسلامى عند نشأته، لم يتخذ طابعا عسكريا عدوانيا أو هجوميا حيث لم تنظم حملات عسكرية ضد المسيحيين في تلك المرحلة البكرة، وإنما كانت مهمته الأساسية الحفاظ على المكاسب الإسلامية والدفاع عنها ضد أى عدوان يقوم بعد العدو[٦٩] .

أما نظام الحياة فى الرباط الإسلامى بوجه عام وفى المغرب الإسلامى على وجه الخصوص فقد اتسم بطابع دينى خالص، وإن كان بعض المرابطين يغادرون رباطهم أحيانا لفترات مؤقتة ثم يعودون إليها من جديد، ولكن جرت العادة أن يقضى المرابط عشرين أو ثلاثين عاما فى الرباط وربما حياته كلها حتى الوفاة، ولم يكن بقاؤه فى الرباط راجع إلى ضغط من أحد وإنما كان نابعا من رغبته الشخصية فحسب. وفى كثير من الأحيان كان المرابطون يلتزمون الزهد والتقشف الشديد فى الحياة[٧٠] . وقد أدى ذلك إلى ظهور حركة صوفية قوية بدأت فى أربطة المشرق الإسلامى فى القرن السادس الهجرى (١٢م) حولت الرباط إلى مقر دينى أو «ديرى» على حد تعبير أحد المستشرقين[٧١] . وقد انتقلت هذه الروح شيئا فشيئا إلى الرباط فى المغرب الإسلامى فظهرت طبقة كبيرة من الصلحاء والمريدين والمتصوفة فى عهد المرابطين والموحدين[٧٢] فى المغرب لاسيما فى المنطقة الغربية التى كانت فيما مضى مجالا لدولة برغواطة المنحرفة[*] وقد أفرد لهم ابن الزيات التادلى كتابا خاصا مسماه التشوف إلى رجال التصوف[٧٣] ونشير هناك إلى ازدهار حركة التصوف فى الإسكندرية أسوة بما حدث فى المغرب الأقصى ولعل أشهر هؤلاء الصوفية عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى

(ت٦١٢هـ)[٧٤] ولا عجب أن تزدهر حركة الصوفية في الإسكندرية مثلما ازدهرت في بلاد المغرب، فقد كانت ظاهرة التصوف في القرن السادس الهجري، ظاهرة عامة في العالم الإسلامي كله وكان لزعماء الطرق الصوفية، المكانة المميزة في الدعوة إلى الإسلام، وإعادة المجتمعات الإسلامية إلى الطريق السليم[٧٥].

ولم تقتصر حركة التصوف في هذا العصر (القرنين السادس والسابع الهجريين) على جماعة من الزهاد والمتصوفة بل عمت كافة الطبقات في المجتمع المغربي. وقد حظي الصلحاء وأهل التصوف بمكانة مرموقة لدى الخليفة أبي يعقوب المنصور الموحدي الذي كان يستقبلهم بحفاوة عظيمة ويجزل عليهم العطاء[٧٦]. مما شجع كل طبقات المسلمين على الانخراط في المرابطة وأصبح الرباط والجهاد فرض واجب على كل مسلم لا فرق بين قاض وفقيه وأديب وتاجر وصانع وفلاح[٧٧] .

ولعل هذا يذكرنا بالإجراء الذي اتخذه يعقوب المنصور لتشجيع التجار والصناع والفلاحين على الوفود إلى رباط الفتح والاستقرار فيها عندما أمر أن يمنح كل ساكن فيها تعويضا علاوة على ما تدر عليه مهنته اجتذابا لفئات مختلفة من الناس للمرابطة في هذه المدينة، وقد فقدت الأربطة دورها العسكري إلى حد كبير في أواخر عصر المرابطين واصبحت مدرسة أو مؤسسة للتعليم والعبادة بعد ظهور حركة التصوف في العصر الإسلامي[٧٨].

وكان وصف الرباط الإسلامي كمؤسسة جهادية وتعليمية دينية، مجالا

لدراسات عديدة لعل أشهرها الدراسة التى قام بها الدكتور محمد توفيق بليع وتلك التى أصدرها Jaine Olive Asin [٧٩] وتلك التى قام بها الدكتور محمد الأمين بلغيث ومجموعة الأبحاث القيمة التى ساهم بها الأساتذة مانويلا مارين والدكتور فرحات الدشراوى والدكتور جمعة شيخة والدكتور ميكل دى أبالثا والدكتور مانويل اسبينار Manuel Espinar Moreno فى مؤتمر «الرباط الإسلامى» الذى عقد فى قطالونيا ١٩٨٩ بإسبانيا. وقد أشارت بعض هذه الدراسات الى أن الربط نوعان ربط للرجال، وربط للنساء، أما الرجال فكانت مهماتهم دينية وحربية فى حين كانت ربط النساء ذات طبيعة اجتماعية، فهذه الربط النسائية لم تكن تستخدم لمجرد التعبد وإنما كانت مجالا لإيواء النساء المطلقات أو الأرامل أى بمثابة ملاجئ لهن مثل رباط البغدادية فى القاهرة[٨٠] . ولم يكن وجود المرأة ملحوظا فى الفترة الأولى ولكن فيما بعد أصبحت النساء تؤلف جزءا من مجتمع المرابطين[٨١] لاسيما فى رباط صفاقس والمنستير وقصور طرابلس الغرب وفى رباط سلا (رباط الفتح). ويرى د. محمد الأمين بلغيث أن رباط سلا (نواة رباط الفتح) الذى ذكره ابن حوقل وأشار إلى أنه كان يحتوى على أكثر من ١٠٠ ألف انسان وكان يضم رجالا ونساء أيضا حيث أن ١٠٠ ألف عدد كبير فى رأيه، وفى تصوره أن هذا العدد الضخم لم يكن قاصرا على الرجال خاصة وأن ابن حوقل لم يحدد نوع هؤلاء المرابطين وأنه لو أراد أن يعبر عن ذكورتهم لأضاف بعد الرقم كلمة رجلا كتمييز لجنس المرابطين فيه ولكنه عمم التمييز فاختار كلمة «إنسان»[٨٢] .

وعلى هذا النحو كانت كل من الإسكندرية ورباط الفتح دار رباط هامة[٨٣] وقد قيل في فضل الرباط بالإسكندرية أقوالاً كثيرة وكتبت في ذلك رسائل كثيرة منها على سبيل المثال «رسالة في فضائل الإسكندرية» وهي مخطوطة مجهولة المؤلف اشتملت على فتح الإسكندرية وفضل المرابطة فيها وذكر اسوارها وعدد مساجدها وهي محفوظة في المكتبة التيمورية بالقاهرة[٨٤] وكتاب «الدرة السنية في تاريخ الإسكندرية». صنفه أبو مظفر منصور بن سليم السكندري (ت ٦٧٣هـ)[٨٥] ومخطوط «فضائل الإسكندرية» لأبي علي الحسن بن عمر بن أبي اسحاق المعروف بابن الصباغ[٨٦] .

وقد نزل الإسكندرية عدد كبير من الصحابة منهم سرق بن أسيد ويقال أسد الجهني أو الديلمي أو الأنصاري، [٨٧] وعبد الله بن عمرو بن العاص[٨٨] وسفيان بن هانئ بن جبير ابو سالم الجيشاني الذي توفي بالإسكندرية في إمارة عبد العزيز بن مروان[٨٩] وعلقمة بن يزيد المرادي الغطيفي الذي تولى رابطة الإسكندرية زمن معاوية بن أبي سفيان[٩٠] . كما نزلها من التابعين ثمامة بن شفي الهمذاني وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام[٩١] ، ومن تابعي التابعين سعيد بن يزيد الحيري القتباني الإسكندراني وطلحة بن أبي سعيد الإسكندراني والعلاء بن كثير الإسكندراني[٩٢] ولم تكن الإسكندرية وحدها في مصر دار رباط فقد انتشرت الحصون والمصالح والاربطة على طول ساحل الإسكندرية مما جعل ابن رسته يصف رباطات الإسكندرية ويسميها المحارس[٩٣] ولعل وجود هذه المحارس كان سببا في تسمية الإسكندرية بالثغر المحروس[٩٤] .

واستمرت الإسكندرية طوال العصر الإسلامى مركزا بحريا قفاليا متميزا وتعرضت لغارات الصليبيين فى أواخر العصر الفاطمى، فقد ناصر أهلها القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب ضد شاور الوزير الفاطمى الخائن وحلفائه من الصليبيين ووقف أبناء هذه المدينة المجاهدة وراء صلاح الدين الذى احتمى بها من أعدائه، وحاول شاور أن يغرى أهل الإسكندرية بكافة وسائل الإغراء لخذلانه، ولكن مساعيه باءت بالفشل وقد تعرضت الإسكندرية فى أوائل العصر الأيوبى لحملة بحرية قام بها وليم الثانى النورماندى ملك صقلية سنة ٥٦٩هـ، ولكن أهلها تصدوا لهذه الحملة وردوا هذا العدوان. وفى عام ٧٦٧ هـ تعرضت الإسكندرية لغزوة قام بها بطرس لوزينان على المدينة، وتعد هذه الحملة القبرصية إحدى الحملات الصليبية المتأخرة.

ونلاحظ أن الإسكندرية وحدها كانت تضم عددا كبيرا من الربط منذ عهد ابن رسته وحتى غزوة القبارصة، مما يؤكد على أهميتها الإستراتيجية . وكان منار الإسكندرية نفسه أحد هذه الأربطة وذلك قبيل بناء قلعة قايتباى على بقعته بعد تهدمه[٩٥] . وترجع أهم الأربطة التى أنشئت بمدينة الإسكندرية ووصلت إلينا أسماؤها فى المصادر العربية إلى القرنين السابع والثامن للهجرة. ومن أشهرها رباط الواسطى الذى كان يقع شرقى مسجد ابى العباس المرسى، وكان عبارة عن زاوية صغيرة تقوم في جهتها القبلية قبة صغيرة يتوسطها قبران، الشرقى منهما هو قبر منشئ الرباط الشيخ أطلكين شهاب الدين أبى على منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبى الفتوح

نصر بن الشيخ أبى الفضل الواسطى، المتوفى سنة ٦٧٢[٩٦] . ومنها رباط سوار الذى كان يقع بظاهر الإسكندرية من الجهة الشمالية الشرقية حيث منطقة الشاطبى حاليا أقام به نزيل الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى [٩٧] المتوفى سنة ٦٧٢هـ. أما رباط الهكارى فقد انشأه محمد بن الأمير زين الدين أبى المفاخر بن عبد الله الهكارى (ت٦٨٣هـ) متولى ثغر الإسكندرية زمن السلطان المملوكى المنصور قلاوون، ودفن فى رباطه بخارج باب رشيد، وقد تولى ابنه حسام الدين ولاية الإسكندرية فى سلطنة الأشرف خليل[٩٨] . ومنها رباط ابن سلام الذى أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بشبه جزيرة المنار قبل وقعة القبارصة سنة ٥٦٧ هـ بأكثر من سنة، وقد استشهد فيه أكثر من ثلاثين مجاهدا كانوا بأعلى الرباط عندما داهمهم القبارصة. أما رباط وتربة الأمير طغية فكان يقع فى شبه جزيرة المنار بالقرب من رباط ابن سلام وكان يقوم حوله عدد من الأضرحة، ومنها رباط قجماس الإسحاقى الذى عمره الامير قجماس الإسحاقى نائب سلطنة الإسكندرية فى أيام الاشرف قايتباى خارج باب البحر على شاطئ بحر السلسلة[٩٩] .

وفيما يتعلق بالمغرب الأقصى، فإن أول عهده بالربط يتمثل في رباط شاكر، وهذا الرباط نال شهرة كبيرة وأصبح مقصدا للأولياء والصوفية[١٠٠] . أما رباط نكور فقد بنى على ساحل البحر عند مصب نهرى نكور ونيس لتحصين هذه المنطقة وحمايتها من الاعتداءات البحرية على مدينة نكور نفسها التى تبعد خمسة أميال إلى الداخل، وقد تم بناؤه سنة ٢٦٣هـ

(٨٧٧م) على يد سعيد بن صالح. ويذكر الدكتور محمد توفيق بلبع أن غارات النورمانديين على سواحل الأندلس والعدوة وهجومهم على مدينة نكور وتغلبهم على أهلها وإقامتهم بها ثمانية أيام قبل ارتداهم عنها محملين بالغنائم والأسلاب، كان العامل الأساسي وراء بناء رباط نكور[١٠١] ، في حين يرى جورج مارسيه، ويميل إلى الأخذ بوجهة نظره الدكتور محمد الامين بلغيث، أن رباط نكور إنما ابتنى هو ورباط شرشال ورباط وهران ورباط سلا (رباط الفتح) للقضاء على دولة برغواطة في تامسنا[١٠٢] .

ومن الأربطة المغربية أيضا رباط قوز الذى أطلق عليه صاحب كتاب الاستبصار اسم «جوز»، ويعد من أشهر الأربطة المغربية، وقد أقيم على ساحل البحر المحيط عند مصب وادى تنسيفت الذى تقع مراكش على أحد روافده، وكان رباطا مخصصا لمجاهدة برغواطة الملحدة، كما كان مركزاً تجاريا هاما تقصده السفن من جميع البلاد وكان البحريون وأصحاب السفن يفضلون أن تكون أحوال البحر فى هذه المنطقة عند إبحارهم غير مستقرة حتى يضمنوا سلامتهم وحسن سير الرياح بعكس ما هو شائع ومعروف عن الملاحة البحرية[١٠٣] .

أما رباط الفتح فكانت رباطا تنطلق منه القوات الموحدية منذ أيام الخليفة عبد المؤمن بن على، وبعد ذلك القوات المرينية للجهاد فى الأندلس أو للقتال مع أعدائهم فى أنحاء بلاد المغرب المختلفة، بل أن اسمها فى حد ذاته يؤكد هذا الدور الذى اضطلعت به وكذلك الخاصية الإستراتيجية الجهادية لهذه المدينة.

واعتقد أن السر وراء اختيار الخليفة الموحدى الرشيد مدينة رباط الفتح دون غيرها من مدن المغرب لينزل فيها أهل شرق الأندلس الذين هجروا بلادهم بعد سقوطها فى أيدى الأرجونيين، يرجع إلى الدور الجهادى الذى تقوم به هذه المدينة وشخصيتها باعتبارها رباطا، فلعله أراد من الاندلسيين النازحين أن يقيموا فى رباط دائم ليتيح لهم الفرصة للخروج فى حملات للجهاد ضد الإسبان الذين انتزعوا مدنهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، وهذا ما حدث بالفعل فى الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى رباط الفتح فى القرن ١٧م، وكان هؤلاء الأندلسيين لا يترددون يوما فى المشاركة فى الحملات الموجهة ضد النصارى(١٠٤).

كذلك تشابهت كل من المدينتين، الإسكندرية، ورباط الفتح، من حيث أوضاعهما الاقتصادية، فالإسكندرية اختارها البطالمة حاضرة لهم فى مصر لعبقرية الموقع الذى تشغله، فالبطالمة كانوا يفضل هذا الموقع ليتحكموا فى الطرق التجارية العالمية المختلفة باعتبار أن الإسكندرية كانت ملتقى طرق التجارة العالمية المختلفة آنذاك، وبالتالى أصبحت الإسكندرية المركز التجارى الأساسى فى شرقى البحر المتوسط(١٠٥). واستمرت الإسكندرية طوال العصور القديمة، وفى العصر الإسلامى الوسيط حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب. ولم تفقد مكانتها التجارية فى العصر العباسى على الرغم من سيطرة بغداد على تجارة العالم الإسلامى وذلك يرجع أساسا إلى موقعها الرائع على البحر المتوسط، وإلى اتصالها بالنيل عن طريق خليجها، وأصبحت الإسكندرية الوسيط التجارى بين الشرقى الأقصى مصدر التوابل

والكارم عصب التجارة العالمية فى العصور الوسطى وبين الغرب الإسلامى والأوروبى[١٠٦] .

ويلفت الإسكندرية فى عصر الدولة الأيوبية المعاصرة لدولة الموحدين فى المغرب، وفى الوقت الذى استكملت مدينة رباط الفتح تأسيسها، أوج نشاطها التجارى فكانت سوقا هائلة للتجارة العالمية وإليها كانت تتدفق معظم منتجات الشرق من طيب وبواقيت وعطور وتوابل مما أذهل بعض الرحالة الأوروبيين أمثال بنيامين التطيلى وبرغارد الذى زار مصر سفيرا للإمبراطور فريدريك بريباروسة سنة ١١٧٥[١٠٧] رغم الحروب المتواصلة التى خاضتها مصر ضد الصليبيين.

ونتج عن ازدهار التجارة فى الإسكندرية أن كثر بها عدد تجار الافرنج، وقد اجتمع بالإسكندرية زمن الملك العادل وحده نحو ثلاثة آلاف تاجر اجنبى[١٠٨] كما أقامت الجمهوريات الإيطالية لها فنادق بالإسكندرية[١٠٩] .

ولسنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول الازدهار الاقتصادى لمدينة الإسكندرية فى العصور الإسلامية لأن ذلك كان مجالا لدراسات قيمة[١١٠] ، وإنما قصدنا من غرضنا هذا الإشارة إلى التشابه الكبير بين ما بلغته الإسكندرية من تألق اقتصادي واضح المعالم وما بلغته مدينة رباط الفتح من ازدهار اقتصادى سبق أن أشرنا إليه فوفقا لما ذكره كل من ابن صاحب الصلاة وصاحب كتاب الاستبصار زخرت المدينة بالأسواق وأقيمت فيها قيسارية وعدة فنادق مما يعبر على نشاط واسع النطاق للحركة التجارية.

ولعل العثور على عملات أجنبية فى رباط الفتح زمن الخليفة الناصر الموحدى يؤكد هذا الازدهار التجارى.

ونختتم دراستنا عن أوجه التشابه بين الإسكندرية ورباط الفتح بالتطرق إلى نقطة هامة أخيرة تتعلق بعلاقة كل من المدينتين بالأندلسيين المهاجرين من بلادهم، إما قبل سقوط مدنهم أو عقب سقوطها فى أيدى الإسبان مباشرة أو بعد الطرد الأخير.

فإذا كانت مدينة رباط الفتح عرفت فى التاريخ بأنها مدينة أندلسية خاصة بعد صدور ظهير الخليفة الرشيد الموحدى الذى سبق أن تحدثنا عنه بشئ من التفصيل فى القسم التاريخى من هذا البحث، وهو الظهير الذى بمقتضاه وهبت المدينة لأهالى شرق الأندلس المهاجرين بعد سقوط بلادهم فى أيدى الأرجونيين بحيث أصبحت منذ ذلك التاريخ منزلا لمهاجرى الأندلس الذين آثروا التوطن فيها باعتبارها رباطا ومنطلقا يجاهدون منه العدو الذى استولى على بلادهم، فإن الإسكندرية بدورها كانت طوال العصور الإسلامية وثيقة الصلة بالأندلس شأنها فى ذلك شأن مدينة رباط الفتح، وكان ارتباطها بالاندلس متعدد الجوانب فكان ارتباطا اجتماعيا وعلميا واقتصاديا مما دفع العديد من المؤرخين إلى الاعتقاد أن بحر الإسكندرية ينتهى[١١١] عند المحيط الاطلسى، وفيها استقر عدد من الأندلسيين الذين آثروا الاستقرار فى أرضها بعد سقوط مدنهم فى أيدى الإسبان المسيحيين، وفيها استقر عدد كبير من العلماء أمثال الشاطبى وأبى العباس المرسى والطرطوشى، وكان العامل الدينى أيضا أحد الأسباب التى أدت إلى تعميق الصلة بين

الإسكندرية وبين المغرب الإسلامى، فقد كان حجاج المغرب والأندلس يؤثرون الرحلة إلى الإسكندرية ومنهـا يرحلون إلى مكة سـواء عن طريق وادى العلاقى وعيذاب أو عن طريق سيناء وعدت لذلك باب المغرب، ولا ينبغى أن نغفل العامل العلمى فقد كان طلب العلم ببلاد المشرق الإسلامى هدفا رئيسيا لأهل المغرب والأندلس فكان طلاب العلم يتجشمون أخطار الرحلة ومتاعبها للالتقاء بشيوخ المشرق الإسلامى فى الإسكندرية والقاهرة والفسطاط وقوص وبغداد والكوفة ودمشق وحلب ومكة والمدينة خاصة مع امتزاج مفهوم التجارة بالعلم فى الإسلام(١١٢) .

ومن أشهر من زار مصر من علماء الأندلس ونزل بالإسكندرية واستقر بها محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسى الوادياشى الأندلسى الذى درس على عبد الرحمن بن مخلوف بها كما جال فى البلاد المشرقية وتوفى سنة ٧٤٩ هـ(١١٣) . وعلى بن أحمد بن حديدة الأندلسى الذى ولد فى حدود سنة ٦٦٥ هـ وعاش بالإسكندرية وعمر بها عدة زوايا وتوفى ببيت المقدس سنة ٧١٩هـ (١١٤) .

ومن العلماء الأندلسيين الذين زاروا الإسكندرية بعد سقوط مدنهم إبراهيم بن عبد الملك بن ابراهيم الجزامى اليرانتيشى نسبة إلى حصن برنتيش من غرب الأندلس من أعمال اشبونة التى سقطت سنة ٥٤٢هـ. وقد استقر هذا الأندلسى بالقاهرة ووصفه السخاوى بانه تاجر السلطان ثم انتقل للمعيشة فى الإسكندرية وبها توفى فى أول شعبان سنة ٨٨٠ هـ وكان من أصحاب الأشرف قايتباى. وقد أوصى قبيل وفاته بمعظم تركته لأهله

الذين كانوا لا يزالوا يعيشون فى برنتيش بالإشبونة فى ظل الحكم البرتغالى، وبعد وفاته وفد إلى مصر قريب له يكنى بأبى الفضل بن أبى عبد الله محمد البرنتيشى، وهو ابن عم والده، سعيا إلى الظفر بميراث قريبه، وقد استقر فى متجرهاإلى أن توفى بالإسكندرية فى سنة ٨٩٢هـ[١١٥]. غير أن مدينة رباط الفتح فاقت الإسكندرية فى اجتذاب أعدادا لا حصر لها من مهاجرى الأندلس لاسيما فى العصر الحديث عقب الطرد الأخير للموريسكيين، فهجرات الموريسكيين إلى الإسكندرية كانت محدودة إذا ما قورنت بما حدث فى حالة رباط الفتح وفاس ومدن تونسية مثل تستور وزغوان وتونس نفسها وكذلك الجزائر الحالية، ويرجع ذلك فى تصورى إلى العامل الذى سبق أن أشرت إليه وهو كون مدينة رباط الفتح رباطا للجهاد، مما يناسب وضع هؤلاء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ويلائم نفسيتهم ويسهل لهم الانتقام بالجهاد ضد النصارى، وكذلك بحكم كون رباط الفتح وباقى مدن المغرب الأقصى والأوسط، والأدنى أقرب إلى بلاد الأندلس من مصر.

ونود أن ننهى هذا البحث بأنه إذا كانت الإسكندرية قد حظيت فى العصور القديمة بشهرة تجاوزت الآفاق بفضل منارها الذى يعد من عجائب الدنيا السبع فإن مدينة رباط الفتح على حد قول المؤرخ بوجندار كانت فى حد ذاتها من الأعاجيب ويعبر عن ذلك بقوله «إن بناء الرباط هو من الأعجايب التى أجراها الله تعالى على يد هذا السلطان الأعظم الدالة على اتساع دائرة فكرته إذ قلما توجد مدينة على تلك الصفة إلا مواضعها رجل عظيم حكيم وقد أودع من بدائع الصنائع لديه»[١١٦].

الحواشي

١- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، جـ ٧، ص ٩.

٢- الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤ جـ٢، ص ١٨١ - وارجع كذلك إلى محمد بن على دنية، مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط، الرباط، ١٩٨٦، ص ٤٢.

٣- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٦٦.

٤- يذكر بعض المؤرخين ومنهم الدكتور محمد الأمين بلغيث أن الخليفة المنصور الموحدى أراد ببنائه جامع حسان على غرار منار الإسكندرية واتمامه بناء المدينة على نفس نسق المدينة المصرية، منافسة مدينة الإسكندرية (محمد الامين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامى ودورها فى عصرى المرابطين والموحدين رسالة ماجستير، إشراف عبد الحميد حاجيات، الجزائر، معهد التاريخ ١٩٨٧، ص ٢١٧.

٥- قصبة الوداية هى موضع القصبة الأولى التى بناها الخليفة الموحدى عبد المؤمن به على أنقاض رباط تاشفين بن على.

٦- عن برغواطة ارجع إلى سحر سالم، من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١ - ١٠٠.

٧- ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق د. عبد

الهادى التازى، بيروت، ١٩٦٤، ص ٤٤٧.

٨- عبد الواحد المراكشى، المعجب ، ص ٣٥٩.

٩- Henri Terrasse, L'Art Hispano-Mauresque Des Origines au XIIIe Siecle, Paris, P. 288.

وإن كانت الباحثة جانيت أبو لغد لا ترى أى تشابه بين المدينتين وتعتبر أن ما ذكره المؤرخون عن أوجه هذا الشبه إنما هو من قبيل الدعاية لمدينة رباط الفتح لتركيز الانظار عليها وعلى ما أقام بها المنصور الموحدى عندما اهتم ببنائها (Jante Abo Lughod, Rabats, Urban, Apartheid in Morocco, New Jersey, p. 56 - 57).

وفى تصورى أن ما أوردته الباحثه ابو لغد مبالغ فيه، ومجاف للحقيقة التاريخية فما جدوى ما يذكره ابن خلكان وهو مؤرخ مشرقى من تسليط الأضواء على مدينة رباط الفتح وتشبيهها بمدينة الإسكندرية اللهم إلا إذا كانت هناك أوجه تشابه بين المدينتين، وهذا ما سنحاول إبرازه وتوضيحه على الصفحات التالية.

١٠- زكى على ، الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، ١٩٤٤، المجلد الثانى: ص ١٢١ - ١٢٢. محمد عواد حسين، مقال عن تخطيط المدينة فى كتاب محافظة الإسكندرية، ص ١٣ . السيد عبد العزيز سالم، تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى، بيروت، ١٩٦٣، ص ٣٩. السيد عبد العزيز

سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٣. مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، الإسكندرية، ص ٢٠.

١١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ١٣.

١٢- Breccia, Alexandria ad Egyptum , Bergamo, 1922, P. 78.

(*) Jacques Caillé , La Ville De Rabat, Paris, 1945, vol I, p. 45.

١٣- لطفى عبد الوهاب يحيى، دراسات فى تاريخ مصر، عصر البطالمة الإسكندرية، ١٩٦٧، ص ٢٦٤.

١٤- Breccia, Alexandria, p. 72.

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢١.

١٥- Breccia, Alexandria, p. 74.

١٦- عن دفن الإسكندر ارجع إلى لطفى عبد الوهاب يحيى، دراسات فى تاريخ مصر، عصر البطالمة، ص ١٢٠. وهناك رأى أخذ به بل عن دفنه فى واحة سيوة Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest , p. 32.

وقد تردد هذا الرأى من جديد بعد اكتشاف مقبرة مقدونية كبيرة فى واحة

سيوة، رجحت رئيسة البعثة الأثرية اليونانية التى اكتشفتها أنها للإسكندر أو مقبرة وهمية له، ولازال البحث جاريا لحسم هذه القضية، وإن كان أغلبية العلماء يرجحون دفنه بالإسكندرية.

١٧- لطفى عبد الوهاب، عصر البطالمة، ص ١٢٢ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٢.

١٨- لطفى عبد الوهاب، نفسه ص ١٢١ ، ١٢٢.

١٩- المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ، القاهرة، ١٩٥٨، تحقيق محى الدين عبد الحميد، جـ١، ص ٣٧٣.

٢٠- ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن، ١٩٠٧، ص ٤١.

٢١- رفض الخليفة عمر بن الخطاب أن يتخذ قائده عمرو بن العاص الإسكندرية عاصمة لمصر في العصر الإسلامى لعدة اعتبارات منها أن الإسكندرية مدينة ساحلية والعرب كانوا لا يزالوا بعد حديثى عهد بالدفاع عن السواحل الإسلامية بوسائل بحرية كاستخدام السفن الحربية فى محاربة أساطيل الروم، وحرصا منه على القرب من المصريين الذين أحسنوا استقبال العرب الفاتحين، فلو اتخذ العرب الاسكندرية عاصمة لهم وهى التى كان ينظر إليها أبناء مصر على أنها عاصمة احتلال أجنبى، لاعتبر المصريون العرب حلقة جديدة من حلقات الاحتلال الأجنبى، وكذلك لاعتبار إدارى حيث إن الإسكندرية بعيدة عن الصعيد، فى حين أن موقع مدينة الفسطاط التر أسسها عمرو بن العاص واتخذها حاضرة لمصر يتيح لها أن تكون فى قلب

مصر فهي أفضل إداريا من الإسكندرية المتطرفة (لمزيد من الأسباب عن عدول العرب من اتخاذ الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية، ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٥٨ وما يليها).

٢٢- البيذق، أخبار المهدى بن تومرت، ص ١٣٢.

٢٣- عبد الواحد المراكشي، المعجب ، ص ٢٦٦.

٢٤- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٤٩.

٢٥- تتشابه كل من مدينتي القاهرة والمهدية مع رباط الفتح في ذلك.

٢٦- Terrase, L'Art, p. 288, 289.

٢٧- البيذق، أخبار المهدى، ص ١٣٢.

٢٨- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٤٦.

٢٩- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق تورنبرج، أوبسالة، ١٨٤٣، ص ١٢٥.

٣٠- راجع ما ذكره ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، ص ٤٤٦ – وما يليها.

٣١- الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول، الإسكندرية، ١٩٥٨، ص ١٤٠ – الحميري، الروض المعطار، ص ٣١٩.

٣٢- الحلل الموشية، ص ١٥٧.

٣٣- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٣١.

٣٤- الفبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق عادل نويهض، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٨.

٣٥- محمد بوجندار، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، تحقيق، د. عبد الكريم كريم، الرباط، ١٩٨٧، ص ٣٩٧.

٣٦- ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص ١٦٥.

٣٧- المصدر السابق، ص ١٧٢.

٣٨- ابن الخطيب، رقم الحلل، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

٣٩- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ١٠١ وما يليها - السيد عبد العزيز سالم بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار بحث بعنوان «تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس» بيروت، ١٩٩٢، جـ٢ ص ٤١٩. ولمزيد من التفاصيل عن الأوصاف العديدة التى وصلتنا عن هذا المنار ارجع إلى (اليعقوبى ، كتاب البلدان، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية، ليدن، ١٨٩١، ص ٣٢٨ - ابن الفقيه الهمذانى، مختصر كتاب البلدان، الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٨٥، ص ٨٢ - المسعودى، مروج الذهب جـ١، ص ٣٧٥ - ابن حوقل، صورة الأرض ، تحقيق كرامرز، ليدن ١٩٣٧ - ياقوت، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥ - جـ١، ص ٤١ - ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن، ١٩٠٧، ص ٤١ - رحلة بنيامين التطيلي، مدريد، ١٩١٨، ص ١١٣ - الهروى الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل، دمشق

١٩٥٣، ص ٤٨ – ٤٩ – الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص ٩٦ – المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ١٩٥٩، جـ١ ص ١٥٥ – بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣، ص ٣٤٥.

٤٠– المسعودى، التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٧، المقريزى، الخطط ١، ص ٢٧٧ ٣٩٤ج

٤١– السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢١، السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامى فى مجال الفنون والعمارة والزخرفة من أبحاث كتاب «بحوث فى التاريخ والحضارة والآثار» جـ٢ ، ص ٤٣٣.

٤٢– المقريزى ، الخطط جـ١، ص ١٥٧ – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢١.

٤٣– المسعودى، التنبيه والإشراف ، ص ٤٨.

٤٤– السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر ١٣٢١هـ جـ١، ص ١٧٨ – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٢.

٤٥– رحلة ابن بطوطة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٠.

٤٦– وهذا الموضوع يتعلق بمناقشة قضية لم تحسم بعد بين علماء الآثار، وهى قضية التشابه العام بين شكل المئذن الإسلامية وشكل المنار السكندرى مما دفع العالم تيرش Thiersch إلى الادلاء بنظريته التى ارجع فيها أصل

نظام المئذنة إلى منار الإسكندرية، وقد تبعه فى ذلك العالم الإسبانى فيليث ارناندث خيمينث (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى :

Felix Hernandez Gimenez, el minar de Abd-Rahman III en la Mezquita Mayor De Cordoba, Genesis y Repercusiones , Granada , 1975, p. 46, 133.

وقد عرض لهذه الآراء الدكتور السيد عبد العزيز سالم في بحثه عن تأثير منار الإسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، ص ٤٢١، وما يليها ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ كريزويل اعترض على نظرية تيرش ورفض الأخذ بها وانتهى إلى القول بأن أصل نظام المآذن يتمثل فى الصوامع المسيحية التى كانت قائمة فى سوريا قبل الفتح الإسلامى Creswell, The evolution of the minaret, Burlington Magazine, Mars, Mai, Juin, 1926, p. 9.

وقد أيد لفيف من علماء الآثار العرب رأى كريسويل وعلى رأسهم الدكتور أحمد فكرى (المسجد الجامع بالقيروان، القاهرة، ١٩٣٦، ص ١١١، هامش٢) والدكتور السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، القاهرة، ١٩٥٩ ص ٨، والدكتور صالح بن قربة، المئذنة المغربية الأندلسية فى العصور الوسطى، ص ٦٩ حيث اعتبروا الأبراج السورية المصدر الذى استهلمت منه المئذنة الإسلامية بوجه عام نظامها المعمارى. أما الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فقد ذهب إلى أن المنار كان له تأثير على بناء أبراج الكنائس فى مصر والشام، وأن هذه الأبراج أوحت إلى المسلمين بناء مآذن المساجد

(سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية منذ الفتح الإسلامي الى بداية العصر الفاطمي، من كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور الإسكندرية، ١٩٦٣، من ٢٣٦). وعاد الدكتور عبد العزيز سالم إلى ترجيح تأثير منار الإسكندرية على بعض مآذن المغرب والأندلس، وسجل ذلك في دراسته القيمة بعنوان تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس.

٤٧- السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الإسكندرية، من ٤٢٣، وما يليها.

٤٨- المرجع السابق، ص ٤٢٥.

٤٩- Felix, Hernandez, op. cit.,p. 113 ويجعلها تيراس ١٦ متراً (Terrasse, L'Art Hispano, p. 321).

٥٠- Ibid, p. 172.

٥١- هنري رياض واخرون، دليل آثار الإسكندرية، الإسكندرية، ١٩٦٥، ص١٢ زكي علي، الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة، مقالة بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد الثاني ١٩٤٤، ص ١٦٠- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢٠.

٥٢- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٥.

٥٣- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ١٦٥.

٥٤- سيدة كاشف، مصر في عصر الولاة منذ الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٥٦.

٥٥- السيد عبد العزيز سالم، حول الكشف عن مدخل دار الصناعة الغربية بالإسكندرية بحث ألقي في ندوة عن Europe and Egypt Co-operation in Archeology Symposium, 7 - 8 December, 1994.

٥٦- الطرطوشي، سراج الملوك، القاهرة، ١٢٨٩هـ، ص ٩٧ - حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٢٨. محمد توفيق بابع، نشأة الرباط وتطوره وأهمية نظام المرابطة في تاريخ المسلمين من مطبوعات جمعية الاثار بالإسكندرية، ١٩٦٨ ص ٢٧، ٢٨.

٥٧- آية ١٩٩ من سورة آل عمران.

٥٨- Manuela Marin, El Ribat en Al-Andalusy el Norte De Africa,

وهو أحد الأبحاث التي ألقيت في ندوة.

La Ràpita Islamic : Historia Institucional i altres Estudis Regionals, 1 Congrés de la Rapitas de l'Estat Espanyol, 7 -10 Setembre 1989, Sant Carles de la Rapita, Tarragona, Catalunya, Espanya,1989, p. 122.

٥٩- حسن محمود، قيام دولة المرابطين ، ص ١٢٨ - السيد عبد العزيز سالم تاريخ الإسكندرية، ص ٩١ - Manuela Marin, op. cit., p. 127. ويذكر الإسكندرية، ميكل دى ابالثا «أن المسلمين الذين رسخت في نفوسهم

الأهمية التى يوليها الإسلام للجهاد وما ينجم عنه من وعود بالجزاء بوصفه مسعى جماعيا للخلاص، كما تؤكد ذلك آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية، يشعرون بنوع من الإحباط بسبب عدم استطاعتهم إتمام جميع ما يسعون إلى تحقيقه من الواجبات الإسلامية عن طريق الجهاد، لذا مارس المسلمون المرابطة باعتبارها نشاطا معوضا لعدم إمكانية قيامهم بالجهاد....».

(ميكل دى أبالثا، الرباط والرابطات فى الأسماء والآثار الإسبانية، تعريب الحسين اليعقوبى، مجلة دراسات أندلسية، عدد ١٣، شعبان ١٤١٥/ يناير ١٩٩٥، ص ٧٩).

٦٠- آية ٦٠ من سورة الأنفال، كما أورد الدكتور محمد توفيق بلبع بعض الأحاديث النبوية عن رسول الله (ﷺ) تشيد بأهمية الخيل وفضائل الجهاد والمرابطة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد توفيق بلبع، المرجع السابق، ص ٢٩).

٦١- محمد توفيق بلبع، نفسه، ٢٧، ٢٨، ٢٩ - محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها فى عصرى المرابطين والموحدين، ص ٣٦.

٦٢- عرفت الاربطة فى مصر الإسلامية باسم «المواجين» وقد انتشرت على طول الساحل من العريش حتى الحدود الليبية وقد أشار الكندى فى كتاب الولاه والقضاة ص ٤١٨، ٤١٩ إلى هذه المواجيز (بلبع، ص ٣٤).

٦٣- ابن الصباغ، فضائل الإسكندرية، نسخة مصورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية رقم

٧٧٩م، ص ٤ ب ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، طبعة بولاق، ١٣٠٩هـ جـ ٥ ص ١١٦.

٦٤- ابن الصباغ، نفس المصدر، ص ٤ ب، ٥ أ. ولمزيد من هذه الأحاديث، ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٣ وما يليها.

٦٥- حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ١٢٩.

ويتفق كل من الدكتور محمد توفيق بلبع والدكتور محمد الأمين بلغيث مع الدكتور حسن محمود فى أن فجر الربط والمرابطة فى بلاد المغرب هى قصور طرابلس والقيروان التى كانت نقطة ارتكاز سارت منها الفتوحات الإسلامية (محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص ٤٤ - بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامى ص ٩٩).

٦٦- حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ١٢٩ وما يليها.

٦٧- Ferhat Dachraoui, le Rôle des Ribats dans le Gihad Maritime en Ifriqya au Moyen âge, p. 179.

من ابحاث ندوة Sant Carles De la Rapita, 1989.

ويتفق الدكتور السيد عبد العزيز سالم مع الدكتور الدشراوى فى أن أول رباط أغلبى هو رباط سوسة (سالم، المغرب الكبير، بيروت، ١٩٨١، ٤٤٩) ولمزيد من التفاصيل عن رباطى سوسة والمنستير وتخطيطهما الداخلى ارجع إلى (بلبع نشأة الرباط - ص ٤٤ - ٥١ - والدكتور السيد عبد العزيز سالم المرجع السابق، ص ٤٤٩ وما يليها).

٦٨- Jaine Oliver Asin, Drigen Arabe De Rebato Arrobda ysus Homonimes, Madrid, 1928, p. 19 - Manuela Marin , Op.cit., p. 122. Manuela Marin, Ibid., p. 122.

٦٩- وقد ركزت مانويلا مارين فى بحثها على الأربطة فى تونس وعلى الأخص رباطى سوسة والمنستير، وإن كانت أشارت فى بعض مواضع من بحثها عن الرباط فى الأندلس ولم تشر إلى الأربطة فى المغرب الأقصى.

٧٠- Manuela, Marin, op.cit., p. 122- 123.

٧١- Jaine Oliver Asin, Drigen, Arabe, p. 17.

٧٢- راجع البحث القيم للدكتور جمعة شيخة عن الرباط فى كتب الطبقات

Jenae Cheikha les Ribâts d'après le livres de Tabaqât sant carles de la Rapid, 1984 - 1993.

أحد أبحاث مؤتمر الرباط الإسلامى من ٧ - ١٠ سبتمبر ١٩٨٩ - بطلونية - اسبانيا.

* سحر عبد العزيز سالم، من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب الإسلامى الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ٨٠ وما يليها - وكان المغرب الأقصى قبل ظهور المرابطين تتقاسمه أربعة قوى هى غمارة فى الشمال وقبائل برغواطة فى المغرب وزناتة تكون نطاقا حول هذه القبائل بعد سقوط الأدارسة، ثم طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين فى الجنوب بتارودانت عاصمة السوس الأقصى (محمد الأمين بلغيث ، الربط بالمغرب الاسلامى، ص ١٤٣).

٧٣- هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي، عرف بابن الزيات ويعتبر كتابه التشوف من أهم الكتب التي تدرس الحياة الدينية والتصوف في عهد المرابطين والموحدين (انظر التادلي الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، نشر وتصحيح ادولف فور، مطبوعات أفريقيا الشمالية الرباط، ١٩٥٨، ص ١).

٧٤- السيوطي، جـ١، ص ٢١٥ - محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص ٤٢.

٧٥- محمد الأمين بلغيث ، الربط ، ص ٢٢٦.

٧٦- المرجع السابق، ص ٢٢٧.

٧٧- نفسه، ص ٢٢٨.

٧٨- نفسه، ص ٢٢٩.

٧٩- يقول خايمي أوليفر آسين إن هذه الأربطة أو الحصون كانت تتكون عادة من فناء مركزي مع غرف للخلوة والتعبد محيطة بها، ومسجد أو بيت للصلاة وإقامة الخطب والمواعظ الدينية وبرج مرتفع أو منار للاتصال مع المناطق البعيدة ولإرسال إشارات إلى المراكز المماثلة على طول الساحل، كما يذكر أنها من الممكن أن تتخذ كدور لصناعة السفن وإعدادها للقتال البحري مثلما كان الحال في رباط سوسة. ويرجح خايمي أوليفر راسين أن المسلمين استخدموا في كثير من الأحيان القرى أو المباني البيزنطية السابقة كاربطة (وارجع كذلك إلى محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص ٣٠). وكان إنشاء الأربطة يعتبر من أعمال البر. وقد شارك الخلفاء والناس من مختلف الطبقات في اعمال ترميم وصيانة الأربطة، وكانت الأربطة تتلقى المعونات

السخية من كل طبقات وفئات المسلمين، ووجدت في كثير من الأحيان ببعض الاربطة شواهد وأضرحة لشخصيات إسلامية هامة فتحولت حينذاك إلى زوايا حيث يعيش هؤلاء المرابطون حول قبر أحد الأبطال المسلمين أو الصحافة وفي بعض هذه الزوايا كانت توجد قاعة تستخدم كمسجد، وقاعة ثانية لتدريس العلوم الدينية، وثالثة تتخذ كمدرسة أولية، ورابعة ليجلس فيها الطلاب لحفظ وإتقان دروسهم كما كانت توجد غرفة لاستقبال المسافرين الذين لا عائل لهم، كما كانت توجد مقبرة للأشخاص المتدينين وخان أو فندق يقيم فيه النزيل بالمجان.

Jaine Oliver Asin, Origen Arabe De Rebato,p.16-18.

وكان الدكتور محمد توفيق بلبع قد ذكر أنه لم تصل إلينا صورة واضحة لما كان عليه شكل الرباط وتخطيطه بالمشرق بعكس ما هو عليه الحال بالنسبة لأربطة المغرب، ولكنه استخلص من روايات المؤرخين عن وظيفة الأربطة ومعيشة أهلها أن الرباط أقيم غالبا على مساحة مربعة او مستطيلة الشكل، وكانت تتكون من صحن مركزي يحيط به من جوانبه الأربعة حجرات صغيرة منفصلة في طابق أو أكثر، كما كان يحتوي على بيت للصلاة أو مسجد صغير ومنارة مرتفعة كما كانت أسواره الخارجية سميكة وعالية، وكان يشتمل على طاحون وخزان للمياه ومخازن للسلاح والمؤن لاستخدامها في مقاومة الحصار (المرجع السابق ص ٣٠) كما اهتم الدكتور بلبع بتأكيد دور المنارات في الأربطة الاسلامية كأبراج للمراقبة وإرسال إشارات التحذير حتى انتشر بناؤها وحدها في كثير من الأحيان دون بقية أجزاء الرباط في مناطق عديدة من الدولة الإسلامية وقد اقتبس المسلمون هذه المنارات من

أهل الهند واطلقوا عليها اسم «المناور» التي قامت بنفس دور المنارات فكان يخصص لها الحراس لمراقبة الأعداء وتحركاتهم بالنهار والليل لذلك عرفوا بالسمار (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى بلبع، المرجع السابق، ص ٣٢ وما يليها).

٨٠- كان رباط البغدادية من أكثر أربطة القاهرة شهرة، أمرت ببنائه الأميرة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥م). وكان مخصصا لإقامة السيدات المطلقات أو اللاتى هجرهن أزواجهن، وكن يخضعن فيه لنظام صارم ودقيق تحت إشراف العالمة الفقيهة زينب بنت أبى البركات المعروفة بالبغدادية التى (نسب الرباط إليها) فكانت تلقى عليهن الدروس الدينية وتعرفهن بمبادئ وأصول الدين الإسلامى (لمزيد من التفاصيل عن هذا الرباط والخانقاوات والأربطة المخصصة لكبار السن ارجع إلى محمد توفيق بلبع، نشأة الأربطة، ص ٦٤).

٨١- محمد الأمين بلغيث الربط، ص ٢٥٠ ، ٢٥١.

٨٢- المرجع السابق، ص ٢٥٣.

٨٣- اهتم ميكل دى ابالثا بدراسة الرباط كمؤسسة إسلامية فى الأندلس على وجه الخصوص على أساس أن المرابطة نشاط مكمل للجهاد، وقام بدراسة المسميات الإسبانية المختلفة المشتقة من كلمة الرباط العربية مثل -Ràpita Rapido - Rabita، كما قام بدراسة الهيئات والمؤسسات التي تشابهت فى وظائفها مع الرباط مثل المنستير وجمعها المنستيرات- Almosteres Almonachiles - Almonastires - Almonacides فى اللغتين

الإسبانية والبرتغالية، ويذكر أن أصل هذه الكلمة يونانى استعمل فى البداية للدلالة على المواقع التى يرابط فيها المسلمون باستمرار فى مجموعات يكثر عددها أو يقل، والزاوية فى الإسبانية القديمة Zaguias، وتدل فى رأيه على مصلى صغير للخلوة الروحية، والجامعة Algimia او Aljama فى الاسبانية القديمة وهى مسجد يجتمع فيه الناس للصلاة. وقد فرق دي ابالثا فى دراسته هذه بين الجيوش النظامية للدولة الإسلامية فى العصور الوسطى ولاسيما منذ عصر المرابطين (٦هـ/ ١٢م) وبين حشود الزهاد المسلمين المصاحبين لهم، فالجنود يمضون إلى ساحة المعركة للقتال، والزهاد يذهبون للاستشهاد ، ولعل هذا يفسر من وجهة نظره الهزائم العسكرية التى تعرض لها الجيش الاسلامى فى مواقعة مسيحى الاندلس مثل موقعة كتندة Cutanda (٥١٤هـ/ ١١٢٠م).التى أدت إلى ضياع وادى نهر أبرة، فقد أفسدت جماهير الصلحاء المسلمين الذين انضموا إلى صلب الجيش النظامى برغبتهم فى الاستشهاد، الخطة الدفاعية وكذلك الهجومية فى صفوف الجيش الإسلامى (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ميكل دى أبالثا الرباط والرابطات فى الأسماء والآثار الإسبانية، مجلة دراسات أندلسية العدد ١٣، يناير ١٩٩٥، ص ٦٩ – ٨٦). أما خايمى أوليفر آسين فقد اهتم بدوره بدراسة الأصل العربى للرباط وما اشتق من هذا الاسم من مسميات أخرى، وركز أيضا فى دراسته تلك على الأربطة فى الأندلس مشيرا إلى أن مصطلح الرباط وجد بكثرة فى لغة شبه جزيرة إيبيريا ففى البرتغال توجد كلمة rebato فى القطلانية rebat وباللغة الإسبانية arrebata و arre-bato, rebata,rebato وبلهجة أهل بلنسية arrebat (لمزيد من

التفاصيل ارجع إلى {Jaine Oliver Asin, Origin arabe de Rebato, p. 6}

٨٤- حسن عبد الوهاب، الإسكندرية في العصر الإسلامي، مجلة الكتاب، يناير ١٩٤٧، ص ٣٧٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٢.

٨٥- ويذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن هذا المخطوط كان محفوظا بمكتبة آيا صوفيا ولكنه فقد (تاريخ الإسكندرية، ص ٩٢).

٨٦- سالم، المرجع السابق، ص ٩٣ وهذا المخطوط صورة شمسية محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالإسكندرية تحت رقم ٧٧٩ م مصورة من النسخة المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

٨٧- السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر ١٣٢١، جـ ١، ص ٩٧.

٨٨- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن والدكتور شوقي ضيف والدكتورة سيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣، جـ١، ص ٥٥ . السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٥.

٨٩- السيوطي، حسن المحاضرة، جـ١، ص ٩٨.

٩٠- الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت، ١٩٠٨، تحقيق الأستاذ رفن حبست، ص ٢٦ . السيوطي ، حسن المحاضرة ، جـ١، ص ١٠٤.

٩١- السيوطي، المصدر السابق، جـ١، ص ١١٨، ص ١٢١.

٩٢- السيوطي المصدر السابق، جـ١، ص ١٢٤، ١٢٥ . سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٥، ٩٦.

٩٣- ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٨١، ص ١١٨.

٩٤- ابن بطوطة، الرحلة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٠ . سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٦ . بلبع ، نشأة الرباط، ص ٣٤ - ٣٥.

٩٥- ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١١٨ . بلبع، نشأة الرباط ، ص ٢٦.

٩٦- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨١.

٩٧- سحر عبد العزيز سالم، شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي (التاريخ السياسي والحضاري)، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٢٢٦، وما يليها.

٩٨- عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٢.

٩٩- المرجع السابق، ص ٤٨٣.

١٠٠- احمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٣ . محمد زنيبر كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس، دور السوس في عهد الفتوح الأول، مجلة البحث العلمي، العدد ٣، السنة الأولى، المغرب، ١٩٦٤، ص ١١٩ . محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الاسلامي، ص ١٤٣.

١٠١- محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط وتطوره وأهمية نظام المرابطة في تاريخ المسلمين، من مطبوعات الجمعية الأثرية بالإسكندرية، ص ٥٢).

١٠٢- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Marçais, Note sur les Ribats en Berberie (Melanges René Basset) edition Ernest leroux, Paris, 1925, p.8)

(محمد الأمين بلغيث، الربط، ص ١٤٤).

١٠٣- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص٥٤، ٥٥

١٠٤- هاجرت في القرن ١٧م جماعات مختلفة من الموريسكيين إلى رباط الفتح من بلنسية وقشتالة واستراماذورة ولاسيما من المدينة التي تقع جنوبي شرقي ماردة ومن أرجون ومن قطلونيا ومن مرسية، وقد استقر مهاجرو Homacho بقصبة الاوداية. وانضموا إلى الجاليات الاندلسية التي هاجرت إليها من قبل. وبمرور الوقت اشتدت شوكة هؤلاء المهاجرين الأندلسيين ولم تعد السلطة المركزية قادرة على إخضاعهم وكونوا ما عرف في تاريخ المغرب بجمهوريات أبي رقراق، وبدأ هؤلاء المهاجرون في مهاجمة الإسبان والبرتغاليين من رباط الفتح وسلا وتعدوهم إلى غيرهم من فرنسيين وإنجليز وهولنديين، وكانت أوروبا تلقبهم بالقراصنة ولصوص البحر. وكان الرواد في هذا الجهاد البحري هم الجماعة أندلسية الأصل المعروفة بالجرانشيين وهي كلمة محرفة من كلمة هرناشو نسبة إلى مدينة Homacho الإسبانية . وكان الأندلسيون قبيل مجئ الحرناشيين يخضعون لسلطة القائد الذي تعينه الدولة ولكنهم بتحريض الحرناشيين خلعوا طاعته وتولوا الحكم بأنفسهم واختاروا عاملا من بينهم وكونوا مجلسا للحكم يعرف بالديوان نصف أعضائه من الرباط والنصف الآخر من سلا

وهكذا تشكلت جمهورية بحوض أبي رقراق ابتداء من سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٤م (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى بوجندار مقدمة الفتح ص ٥٤ وما يليها. عبد الله السويسي، تاريخ رباط الفتح الرباط، ١٩٧٩، ص ١٠٤ وما يليها.

١٠٥- لطفي عبد الوهاب يحيى، دراسات في تاريخ مصر، عصر البطالة، ص ٣١٨ وما يليها.

١٠٦- راشد البراوي حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٢٥٥ وما يليها - سحر عبد العزيز سالم، تجارة عمان في الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طليعة القرن السابع الهجري، مسقط، ١٩٩١، ص٢.

١٠٧- Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen Age, t. I, Leipsig, 1923, p. 384.

١٠٨- المقريزي ، الخطط، جـ١، ص ٣٠٦.

١٠٩- حدد بنيامين التطيلي أسماء دول كانت تتعامل مع الإسكندرية تجاريا وكان لكل منها فندق بالإسكندرية منها البندقية وطباردية وتسكانة وامالفي وصقلية وقلورة ورومانية وكازارية وهنغارية وبلغارية ورلكوفية وكرواتية وروسيا وألمانيا سكسونية وايسلندا والنرويج. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Viajes, De Benjamin De Tudela , Madrid, 1918, p. 115.

وكانت للبندقية بالإسكندرية جالية كبيرة يدير شئونها قنصل . وكان فى الحى البندقى فندقان وحمام ومخبز وكنيسة (شارل ديل، البندقية جمهورية ارسقراطية، ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٥٩) ولمزيد من التفاصيل عن مكانة الإسكندرية التجارية فى العصر الإسلامى ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية ص ٢٥٧ وما يليها، ص ٥١٥ وما يليها).

١١٠- ارجع إلى عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٥٧ وما يليها.

١١١- Kruger, The Wars of Exchange in Speculum 12, 1973, p. 57 - Goitein, A Mediterranean Society, Vol I, Berkelley, 1967, p. 61,212,215-Goitein, Studies in Islamic History and Institutions, Leiden1966, p. 297.

١١٢- سحر عبد العزيز سالم، علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، زغوان، ١٩٩٣، جـ٢، ص ٨٤.

١١٣- ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، طبعة القاهرة، جـ٤، ص ٣٣ ترجمة ٣٦١٨.

١١٤- المصدر السابق، جـ٣، ص ٨٠ ترجمة ٢٦٥١.

١١٥- السخاوى، الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع،مجلد٤، جـ٨، ص ٢٨٩.

١١٦ - بوجندار ، مقدمة الفتح ، ص ٧٧.

رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى

دكتور

فكرية مصطفى صالح

مدرس بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية

قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية

رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى

من المألوف والمتعارف عليه أن يكون الرثاء فى الإنسان، إما أن يكون الرثاء فى الحيوان فهذا شئ يتطلب معرفة الدوافع إلى ذلك، خاصة وأن الرثاء يكون معبراً فى كثير من الأحيان عن معاناة حقيقية شديدة التأثر بمحنة الفقد.

وقد يظن البعض أن رثاء الحيوانات نوع من الترف الفكرى الذى لا طائل من ورائه، والأمر جدُ مختلف، فلشعراء العصر السكندرى أسبابهم ودوافعهم فى هذا، مما جعلهم لا يضنون على الحيوان بتلك المشاعر الرقيقة الفياضة.

نجد البداية فى الحديث عن الحيوانات برقة واهتمام عند الشاعر هوميروس، والذى لم يغفل التعبير عن متاعب الحيوانات، فهذا حصان أخيليوس يحمل اسماً كسائر البشر وهو كسانثوس ويعبر لسيده عن شعوره مقدماً بموته المرتقب وذلك بانحناءة شديدة تقترب بشعر عنقه بأكمله من الأرض، وكأنه يقول له إن موتك ليس ببعيد جعل أخيليوس يسأله : لماذا تتنبأ بموتى(١)، وهذا كلب أوديسيوس العجوز يلقى اهتماماً بالغاً أيضاً من جانب هوميروس، فهو يرقد وحيداً حزيناً لغياب سيده، أما بعد أن عاد أوديسيوس

(١) Homer, the I liad Book XIXLL. 405, 409, 420.

نجده يهز ذيله فرحاً ويرخي أذنيه اطمئناناً وبعدها «تتلقفه الأيدي السوداء لهاديس»[1].

ولنستعرض الآن نتاج شعراء العصر السكندري في هذا المجال ولتكن بدايتنا بالشاعر يثوكريتوس (القرن الثالث ق.م.) والذي ابتدع فناً صادقاً متمثلاً في شعر الرعاة[2]، فنجده يخاطب أحد الرعاة ويدعى ثيرسيس قائلاً له :

«لن يفيد انتحابك وأنت تذوب حزناً وتزرف الدمع من مقلتيك:

εἰ καταταξεῖς δάκρυσι διγλήνως
ὦ πᾶς ὀδυρόμενος,

لقد رحل (عنا) الجدَيُّ[3] الصغير الجميل :

χίμαρος, τὸ καλὸν τέκος,

رحل إلى هاديس ἐς ᾅδαν، أنقض عليه الذئب الشرس بمخالبه

ῥαχὺς γὰρ χαλαῖς ἀμφεπιάξε λύκος

الكلابُ تَعْوِي – ولكن – ما الفائدة الآن؟ لقد فني عن آخره، ولم يبق منه عظم ولا رماد[4]. τέφρα λείπετ' ἀποιχομένας.

---

(١) Homer, The odyss. VII L. 291 ff.

(٢) A,Dihle, A history of Greek Literature , p. 274. cf.

(٣) التيس من الماعز إذا أتى عليه حول، وقبل الحول فهو جَدي.

(٤) Theocritus, Greek Anth. IX 432.
cf also Idem (The Greek Bucolic poets) inscrip. VI (L. C.L.).

ἀνίκα τήνας οἰτίον οἰδὲ

فهنا يدعو ثيوكرثيوس الراعي ثيرسيس أن يصبر ويتماسك، فلا فائدة من البكاء والانتحاب على مصابه الأليم، فقد انتهى كل شئ، والتهم الذئب الجدى عن آخره. وقد عبر يثوكريتوس تعبير عما أصاب الراعي من شجن وأحزان، كما بين مدى تأثره بآلامه وتوجعه لفقده الجدى الصغير وقد علق أوجست كوا على هذه المقطوعة الشعرية قائلا ! :

إنها عبرت بشكل واضح عن مدى ما كان يتمتع به الراعي ثيوسيس من رقة المشاعر والأحاسيس المرهفة، كما استطاع ثيوكريتوس بدوره أن يعرض ذلك بحس شعرى بالغ التأثير[1].

وها هو «ليونيداس» من تارنتوم (حوالى ٢٧٤ ق.م.)، والذى أحب الريف وبرع فى تصوير الحياة البسيطة، فقد صور لنا سوء العاقبة التى ألمت بأحد الأسود لأنه افترس بقرة صغيرة إذ قال :

«قتل سوسوس – الذى يمتلك الكثير من الماشية ὁ Βουττάμων الأسد، بسلخ جلده ῥέρμα أصفر اللون، والمشبع بالحمرة، حتى صار كلحاء الشجر φλοιώσα التهامه لبقرة ذات ضرع وفير εὐθηλήμονα μόσχον فلن يعود مرة أخرى إلى الأدغال. وقد دفع (هذا) الوحش ثمن (فعلته)، فكان الدم بالدم αἷμα ἀνθ' αἵματος وياله من مصير محزن لاقته تلك البقرة»[2].

---

(١) cf. A. Couat, Alexandrian Poetry, p. 432 note.

(٢) Leonides , Greek Anth. VI. 263.

وفى مناسبة للتضحية بالثيران نجد «كاليماخوس» يظهر تعاطفاً واضحاً مع تلك الثيران فيقول :

«وتذهب الثيران فى الصباح فتتقطع (نياط)[1] قلوبها، إذ تبدو صورة السكين الحاد تعكسها أمامها صفحة الماء :

ἠῶοι μεν ἐμελλον ἐν ὕδατι θυμόν
ἀμύξειν οἱ Βοες ὀξεῖαν δερκόμενοι
δορίδα,| (٢)

ولعل هذا الاتجاه راجع إلى ضعف الوازع الدينى، والذى ساد فى العصر السكندرى، حتى صارت عملية التضحية من أجل الآلهة تمثل عذاباً للحيوان.

وفى الحصان قالت الشاعرة أنيتى (أوائل القرن الثالث ق.م.):

«أقام «داميس» هذا النصب التذكارى Μνᾶμα للفرس الوفى ἵππου μενεδαίου بعد أن طعنه أريس فى صدره، وقد خضل الثرى دمه المنبعث من جرحه الفتاك، والذى كان يتدفق عبر جلده الغليظ: Ταλαυρίνου διὰ χρωτὸς[3]

(١) النياط بالكسر عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه.

(٢) Callim. Aetia, III.75

– الإشارة هنا إلى الثيران التى يُضحى بها فى الصباح السابق على الزفاف، وكانت هذه الثيران تربط إلى حوض ماء مقدس قبل ذبحها.

(٣) Anyte, Greek Anth. VII. 208.

فهنا نجد الشاعرة قد أبدعت فى وصف جرح الحصان، وما يتدفق من جسده من دم يخترق جلده، والذى وصفته وصفاً دقيقاً إن دل على شئ إنما يدل على مدى معرفتها بطبيعة التكوين الجسمانى لهذا الحيوان وكيفية تدفق الدم واختراقه لجلده الغليظ.

وفى موضع آخر نجد الشاعرة أنيتى تتحدث عن حب الإنسان، وصديق الشدة، ألا وهو الدولفين، إذ صورت لنا أحزان دولفين ألقته الأمواج على شاطئ البحر، ذلك المخلوق الذى كان يسبح ويمرح ويقفز قفزات رائعة فى الهواء ثم يهبط إلى الماء، ولكنه الآن وقد ألقته الأمواج على الشاطئ يندب حظه قائلاً :

«لم أعد أختال وسط من يجوبون البحار :

οὐκέτι δὴ πλωτοῖσιν ἀγαλλόμενος

πελάγεσσιν.

لن أرفع رقبتى مندفعاً من الأعماق :

οὐχέτ' ἀναπρήθω βυθόθεν ὀρνύμενος

لم أعد ألفظ الماء حول حافات السفن رائعة الجمال، والتى تحمل صورة لى فى مقدماتها: لقد ألقتنى الأمواج الداكنة على شاطئ البحر، والآن أرقد هاهنا فوق هذا المكان الضيق[1].

---

(١) Idem, Greek Anth. VII 215.

– عن المزيد من الأمثلة الدالة على الرفق بالحيوان فى شعر أنيتى :
Cf. Anyte, Greek Anth. VI 312, IX 313.

وفى موضع آخر نجد الشاعر «مليا جروس» (القرن الأول ق.م.) يرثى أرنباً صغيراً، جاعلاً الحديث على لسان ذلك الحيوان فيقول :

«كنت أرنباً سريع الخطى ταχὺ πουν...λαγῶν ولى أذنان طويلتان، وقد أخذت من بين أحضان أمى، وأنا لم أزل بعد صغيراً.

ἔτι παῖδα βυαρπαζθέντα τεκούσης

ἄρτι μ' ἀπὸ στέρνων,

وقد قامت على رعايتى فاينون الجميلة، وغذتنى بنباتات الربيع المزهرة:

εἰαρινοῖς ἄνθεσι

لم أعد أتوق شوقاً لأمى :

οὐδὲ με μητρὸς ἔτ' εἶχε πόθος

إذ أودت التخمة بحياتى :

θνήσκω δ' ὑπὸ θοίνης ἀπλήτου

بعد أن أصبحت بديناً بسبب كثرة الطعام

πολλῇ σαρτὶ παχυνόμενος

وقد قامت «فاينون» بدفنى بجوار مضجعها

μου πρὸς κλισίας κρύψεν νέκυν

كى ترى قبرى يوماً فى أحلامها بجوار فراشها :

ὡς ἐν ὀνείροις αἰέν ὁρᾷν κοίτης

ἡείτονέον τε τάφον.(١)

ففى تلك الأبيات نرى الشاعر «مليا خروس» يتحدث برقة وعذوبة عن حيوان صغير انتزع من بين أحضان أمه فلاقى حتفه.

ولعل هذه دعوة من قبل الشاعر بعدم حرمان صغار الحيوانات من رعاية أمهاتهن، كى يلقوا الرعاية الطبيعية وينجوا من الفناء.

وهذا شاعر آخر من ساردیس ويدعى «بولاينوس» Polyaenus (القرن الأول ق.م.) قدم لنا صورة شعرية جميلة لرثاء ظبية قامت أفعى بلدغ ضرعها الممتلىء، فانتقل السم من الأم إلى ولدها، فمات الاثنان معاً، وقد قال فى ذلك :

«لدغت أفعى شرسة ضرع ظبية حديثة الوضع

Δορκάδος ἀρτιτόκοιο τιθηνητῆριον

οὖθαρ فأرضعت ولدها ضرعاً أفسده السم :

νεβρὸς δ' ἰομηγῆ θηλὴν ὀπάζε

وامتص من الجرح الميت لبناً ملئ بالسم الزعاف، فانتقل الموت من الأم إلى رضيعها، يالقسوة القدر ... فقد هيأ الرحم للصغير نعمة الحياة،

---

(١) Meleager , Greek Anth. VII 207.

وحرمه إياها ضرع أمه :

Καὶ αὐτίκα νηλέϊ μοίρῃ, ἣν ἔπορεν
γαστήρ, μαστὸς ἀφεῖλε χάρινι (١)

ففى الأبيات السابقة قدم لنا الشاعر صورة جميلة، فالأمهات دائماً وأبداً فيض من الحنان والسكينة ينهل منه الصغار الطمأنينة دون أدنى خوف أو عذر أو قسوة، فالأم تهيئ للرضيع سبل العيش دون تلمس جزاء سوى الإشباع الطبيعى لغريزة الأمومة، ولكنه القدر - على حد قول الشاعر- الذى حول الضرع من سبب لاستمرار حياة الرضيع إلى سبب لهلاكه دون قصد.

والآن وبعد أن استعرضنا العديد من الأمثلة على رثاء الحيوانات عند بعض شعراء العصر السكندرى نستطيع أن نقول إن الاتجاه الرومانسى، والذى أصبح سمة من سمات الأدب السكندرى، كان سبباً وراء ظهور هذا النوع من أنواع الرثاء، فالرومانسية تعبير عن الروح الفردية وعن الذات الإنسانية، وهى تفسح المجال لظهور العواطف الذاتية والنزعات الفردية، فهذه الرقة الزائدة من نتاج الرومانسية، تلك الرقة التى قد تبلغ حد التمادى فى العاطفة، وكما رأينا فقد امتد التعاطف فيها إلى الحيوانات، وقد يمتد ذلك أيضا إلى الحشرات، وقد عبرت الشاعرة أنيتى عن هذا الحب وهذا التعاطف مع الحشرات فقالت :

---

(١) Polyaenus, Greek Anth. IXI.

«أقامت ميرو قبراً للجرل Ακρῖς عندليب الحقول κατ' ἄρουραν ἀηδόνι
والجندب [٢]. (زيز الحصاد) τέττιγι الذى يعيش فوق شجرة البلوط.

لقد ذرفت هذه الفتاة دمعاً (غزيراً)

Παρθενίον στάξασα κόρα δάκρυ

لأن هاديس الذى لا يرحم ὁ δυσ-πειθὴς Ἀίδας
اختطف منها هذين (المخلوقين) المبهجين [٣] δισσὰ παίγνια

وقد امتدت أيضاً تلك المشاعر الرقيقة لرثاء الطيور، إذ نجد الشاعرة
أنيتى تصف ديكاً وقع فى براثن ثعلب فتقول :

«لم تعد تستيقظ مبكراً لتوقظنى من فراشى عندما ترفرف بجناحيك
السريعتين οὐκέτι μ' ὡς τὸ πάρος πυκιναῖς
πτερύγεσσιν ἐρέσσων ὄρσεις ἐξ εὐνῆς
ὄρθριος ἐγρόμενος.

لأن اللص (الثعلب) أخذك خلسة أثناء نومك، فقضى عليك بعد أن
أمسك رقبتك بسرعة بمخالبه : ἦ γὰρ σ' ὑπνώοντα σίνις
λαθρηδὸν ἐπελθὼν ἔκτεινεν λαιμῷ
ῥέμφα καθεὶς ὄνυχα. [٤]

---

(١) العندليب : قيل هو البلبل، وقيل هو كالعصفور يصوت ألوانا، وقيل طائر يقال له الهزار

(٢) الجندب : جراد صغير يعرف بالقبوط.

(٣) Anyte, Greek Anth. VII 190.

(٤) Ibid, VII 202.

ويضاف إلى الرومانسية كسبب في اتجاه بعض شعراء العصر السكندرى إلى رثاء الحيوانات والحديث برقة وعذوبة عن بعض الحشرات والطيور، يضاف إلى هذا تطور فن الإبجراما Epigrammata في ذلك العصر، حيث أصبحت قصيدة وصفية قادرة على التعبير عن مشاعر وأحاسيس متنوعة، هذا بالإضافة إلى ما وجد في هذا العصر من نتاج شعرى خصب من الأشعار الرعوية

والميل الواضح نحو الريف والتغنى بما فيه من مظاهر الحياة البسيطة، مما أكسب شعراء ذلك العصر القدرة على التعبير وخلق الصور الرائعة.

المراجع

أولا : المصادر الأدبية :

- Anyte, Greek Anth. (L.C.L.)

- Callim. Aetia (L.C.L.)

- Homer, the Ibid, ed. M.M. Willcock, London, 1987.

The odyss. (L.C.L.)

- Leonidas, Greek Anth. (L.C.L.)

- Meleager, Greek Anth. (L.C.L.)

- Polyaenus, Greek Anth. (L.C.L.)

- Theocritus,Greek Anth. (L.C.L.)

The Greek Bucolic Poets (L.C.L.)

ثانيا : المصادر الأجنبية :

- A. Couat, Alexandrian Poetry under the First three Ptolemies, London, 1931.

- A. Dihle, AHistory of Greek Literature, London and New York, 1994.

قانون كرك اللا ومذبحة الإسكندرية (خريف عام ٢١٥م)
وتبرئة كرك اللا أنه كان ضد الشعب المصرى صاحب الأرض

دكتور

محمد بهجت قبيسى

مدرس بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية

قانون كرك اللا ومذبحة الإسكندرية (خريف عام ٢١٥م) وتبرئة كرك اللا أنه كان ضد الشعب المصرى صاحب الأرض

هذا البحث هو جزء من كتاب عنوانه : (الكنعانيون والآراميون العرب فى الإمبراطورية الرومانية من القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادى).

لا أظن أن مدة عشرين دقيقة كافية لتبرئة إمبراطور لاكه بعض المؤرخين المغرضين أمثال (ديوكاسيوس)، لكنى أرجو أن أوفق إلى ذلك.

وبداية لابد من الإشارة إلى الثوابت التالية :

الثابت ١ – لقد كُتب التاريخ القديم حسب الفكر التوراتى، أو الفكر الإغريقى، ولقى فى الآونة الأخيرة تناغماً بين الفكرين عدا قلة قليلة أمثال دوبون سومير وأندرية بيجانيول، حيث يعترف الأول أن اللغة الآرامية هى أقرب للعربية الفصحى من العبرية، ويصف الثانى أن أسرة كرك اللا هى الأسرة العادلة بالإمبراطورية الرومانية.

الثابت ٢ – لقد قام بعض العرب المحدثين أصحاب الأرض ببعض القراءات المنهجية بعين عربية خالية من العصبية الشوفانية (نسبة إلى شوفان)، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء بدراسة أستاذنا الدكتور مصطفى العبادى فى تبرئة العرب من حريق مكتبة الإسكندرية، إنما لا تزال هذه الكتابات فى بداياتها.

وفى بحثنا عن قانون كرك اللا [الذى منح الهوية الرومانية لكافة

السكان الذين تظلهم سماء الإمبراطورية] والتى كانت حكراً على إيطاليا، وبعض سكان الإسكندرية، وبعض سكان دفنا/ إنطاكية، وآخرين قلائل. وأما باقى سكان الإمبراطورية فهم مستعمرون يعدون من طبقة العبيد. وجاء قانون كرك اللا ليحرر هؤلاء واستثنى المجرمين فقط.

فى بحثنا عن هذا القانون الذى يعتبر أساس مدرسة الإسكندرية، لابد لنا من دراسة ناحيتين هامتين :

الأولى : أصل هاتين الأسرتين المتصاهرتين العريقتين اللتين أنجبتا كرك اللا :

١- أسرة شمسى غرام العربية الآرامية التى سكنت مدينة حمص، ومنها والدة كرك اللا [جوليا دُمنا] ابنة كاهن معبد الشمس شمشى غرام.

٢- الأسرة العربية الكنعانية التى سكنت مدينة لبدا (فى ليبيا الآن)، والتى منها والد كرك اللا [سبطيم سفير] والتى عرفت بالأسرة السيفيرية أو ما نطلق عليه الأسرة السبطية أو السافرة نسبة إلى سبطيم سفير. وهى تضم أربعة أباطرة : سبطيم سفير، وكرك اللا، وإله الجبل، وأسكندر سفير.

إن دراسة هاتين العائلتين من الناحية الوطنية والثقافية، تكشف لنا مضامين القوانين السبطية، ومنها قانون كرك اللا.

والناحية الثانية هو التعرف على الجو الثقافى الذى جمع هاتين العائلتين ممثلا باتباعهما المدرسة الفلسفية الرواقية والتى أسسها زينون الكنعانى القبرصى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد الذى هاجر إلى أثنا وعلم تحت الرواق، وهى ما تعرف (Stoicism).

فأما عائلة شمسى غرام :

فقد اشتهرت بتاريخها الوطنى أثناء الحكم السلوقى فى بلاد الشام، فإذا قسمنا تاريخ الإغريق فى بلاد الشام إلى ثلاث فترات :

١- فترة الإسكندر المقدونى الأممية.

٢- فترة السلوقيين العنصرية (غير المعلنة) والتى بدأت بعد موت الإسكندر الأكبر وانتهت عام ١٧٠ ق.م.

٣- والفترة الثالثة فترة فرض الأغرقة التى بدأها أنطيوخس الرابع سنة ١٧٠ م أثناء احتفالات دفنا.

وفنا برزت المقاومة العربية (الكنعانية - الآرامية - النبطية - الأعرابية) بأجلى صورها (١٧٠ -٦٥ ق.م.)، فقامت الثورات ضد الأغرقة، وكان على رأس هؤلاء الثوار عائلة شمسى غرام التى قضت على أنطيوخس الثالث عشر آخر ملوك السلوقيين، إلا أن بومبى لم يوف العرب حقهم واستبعد شمسى غرام وأكثر حكام الأقاليم وتجاهل طلباتهم الوطنية.

( )

هذا من الناحية الوطنية. أما من الناحية الثقافية، فقد قتحت جوليا دمنا والدة كرك اللا (كرك الله) عيناها على التحرر والثقافة. فقد كانت جوليا دمنا فتاة شرقية آرامية متحضرة فى ثقافتها المميزة وحضارتها الشرقية الرفيعة عن بنات الغرب الرومانيات، فقد كانت تغشى المجالس العلمية[١]

(١) جورج فرى تورتون ، ص ١٠٥.

التي كان جدها وأبوها يعقدانها للحجاج الذين يفدون إلى الشرق للتبرك والتنعم والتنبؤ[1]، وهي أمور لم تكن الفتيات الرومانيات يتمتعن بها، وعلى هذا فقد اتصفت هذه الفتاة بصفات لم يقدر لغيرها أن يحملنها[2] (وهي والدة كرك اللا)، وأضافت إلى امتيازاتها فيما بعد، وفي نظر زوجها، أنها قد ولدت لسبطيم في (ليون) لوج دونم سنة ١٨٨ ميلادية ابنها البكر الذي أطلقت عليه اسم (بأس يان) علي اسم جدة لأمه، لكنه عرف فيما بعد باسم آرامي آخر هو كرك اللا[3] CARACALLA، ومعنى كرك اللا أي قدرة الله[4] (كرك الله).

أما عائلة سبطيم سفير (والد كرك اللا) :

فتعود في تاريخها إلى لوقا سبطيم قاتل بومبي عام ٤٨ ق.م.، والذي له مع سبطيم سفير صلة قربى بعيدة على ما تذكره جود فري تورتون[5]، وذلك رداً على عدم حصول أهالي المنطقة على ما كانوا يتوقعونه من القائد

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢-٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.

Hebrew and English Lexicon of the Testment: P. 501.

هذا القاموس الذي سرق به دراير Driver نقوش الأرض وكلماتها ليضيفها إلى قاموس جيزنيوس (١٨١٥) ليعتبرها عبرية. جاء في القاموس ص ٥٠١ : كرك تعني لفة، حزمة. أما في اللغة الاكادية فتعني مرحل أمبيق (أو القدرة). وفي العاميات الزراعية لبلاد الشام تجد لفظ كركة تعني أمبيق المستعملة في استخراج ماء الزهر المقطر. والأمبيق يحمل معنى القوة والقدرة، وهذا في فقه اللغة يعتبر مدلول. وكذلك مدينة الكرك فيلادون حاليا فهي ذات مدلول عسكري يعني القوة والقدرة.

(٤) جود فري تورتون ، ص ١٠٥.

(٥) هز جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ص ٦٢.

الرومانى بومبى[1] (وهنا يظهر لنا التناغم الوطنى الذى كان بين عائلة شمسى غرام الآرامية وعائلة سبطيم الكنعانية) فى موضوع بومبى.

وتشير المصادر إلى أن جد سبطيم سفير المباشر واسمه أيضا لوقا سبطيم سفير (٧٥م)، كان شخصية كبيرة فى مدينة لبدا الكنعانية الإفريقية. وقد أهدى إليه الشاعر (ستاس) واحدة من قصائده عندما رفعت المدينة إلى رتبة مستعمرة حوالى ١١٠م. فقد شغل لوقا سبطيم الجد مناصب متعددة. فقد كان قاضياً فى لبدا ثم حاكما قبل أن ينتقل إلى روما ليصبح أحد أعضاء مجلس التشريع وقاضياً فيها[2] [لنلحظ ذلك : أن الجد كان فى مجلس التشريع وقاضياً فى روما ما دمنا نبحث فى مقدمات قانون كرك اللا (كرك الله)].

كما تشير المصادر أن والد سبطيم كان من مرتبة الفرسان ولهذا أقام سبطيم سفير بعد تسلمه السلطة فى روما تمثالا لأبيه فى لبدا سنة ٢٠١م.

أما سبطيم سفير، ولكون والده أحد الفرسان الميسورين[3] ، فقد استطاع أن يتابع تعلم البلاغة والقانون حتى بلوغه سن الثامنة عشر على يد معلمين من قرطاجة ومادورا (MADAURE) فى افريقيا، ولم يك هؤلاء المعلمون يقلون فى شئ عن أندادهم فى روما[4] .

---

(١) J. Babelon, p. 60.

(٢) J. Babelon, p. 59.

(٣) جوه فرى تورنون ص ٢٣-٢٤ + J. Babelon, p. 59-62.

(٤) راجع الملحق رقم ١ + ٢ + ٣ + ٤.

كانت لغة عائلة سبطيم سفير البيتية هى العربية الكنعانية التى يتكلم بها أهالى قرطاجة، وتعلم سبطيم اللغتين اللاتينية واليونانية إلا أن لهجته الكنعانية ظلت مؤثرة عى لاتينيته حتى عندما أصبح إمبراطوراً فى روما، ويذكر المؤرخون أن لهجته كانت أسلم من لهجة أخته التى زارته فى روما مما أثار استهزاء وسخرية سكان روما[1](حسب أقوال المؤرخ ديوكاسيوس الذى كان يكره هذه الأسرة).

وأما فيما يتعلق بالاهتمام بالنسب فى المنطقة العربية فهذا ما يؤكده رينيه دسو فى كتابه تاريخ سورية قبل الإسلام[2] .

بالإضافة إلى أن أول اتحاد نسائى قام فى روما أوجدته جوليا سواى ميساس ابنة أخت جوليا دمنا[3]، ناهيك عن المجالس الفلسفية التى كانت تعقدها جوليا دمنا فى كل روما ودفنا / أنطاكية.

هذا غيض من فيض عن الأسرتين وتاريخهما الوطنى والثقافى.

أما الفكر الإيديولوجى الذى جمع الأسرتين هو المدرسة الفلسفية الرواقية. وفى هذه العجالة نشير إلى ثلاث مدارس فلسفية كانت سائدة :

١- الأولى هى الرواقية، ونستطيع أن نشبهها إن جاز التعبير بأحد الأديان السماوية.

---

(١) جود فرى تورتون ص ٢٣-٢٤ + J. Babelon, p. 59.

(٢) دسو رينيه، تاريخ سورية قبل الإسلام، ص ٢٢.

(٣) جود فرى تورتون، ص ١٩٩-٢٠٠.

٢- الثانية هى الأبيقورية، ونستطيع أن نشبهها بفلسفة الغجر (النور) الجنسى للحياة.

٣- الثالثة هى الكلبية، ونستطيع تشبيهها بحياة الهيبيين اليوم.

المدرسة الرواقية :

مؤسسها زينون الكنعانى القبرصى، واسم زينون كاسم خلدون حيث الواو والنون هى لاحقة كنعانية، فأقول : قاسى = قاسيون - حرم = حرمون - كفر = كفرون - خالد = خلدون - زيد = زيدون - صيد = صيدون. نشر مدرسته سنة ٣٠٠ ق.م. فى أثنا تحت أحد الأروقة، لذا سميت بالرواقية. من تعاليمها:

- وحدة الجنس البشرى.

- المساواة بين الناس.

- عدالة الدولة.

- تساوى قيم الرجال والنساء.

- احترام حقوق الزوجة.

- الإحسان والحب والطهارة والتسامح والإحسان إلى الآخرين.

- الشعور الإنسانى حتى فى حالة الضرورة القاسية التى تقضى بمعاقبة المجرم بالإعدام. كل هذه وسواها تملأ كتب الرواقيين[1] .

(١) عيسى اليازجى، ص ١٤٧.

والمثير أن هذه المدرسة أصبحت عماد فكر كل صاحب عقيدة سياسية أو أخلاقية أو دينية[1] . حتى أن بعض فلاسفة الفكر الإسلامى مثل صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٦٤٠ م، أخذ من هذه المدرسة، وسماها الشيرازى ووصفها بالمدرسة الإشراقية ووصف أهلها بأنهم حكماء أصحاب نقاوة الأنواق وأهل الإشراق[2] .

قانون كرك اللا (كرك الله) :

لم يكن قانون كرك اللا (كرك الله) وليد ساعته، بل كان مهيئا من أيام أبيه سبطيم الذى كلف فقهاء القانون، معتنقى المدرسة الفلسفية الرواقية، وأهمهم :

- بابنيان الآرامى الحمصى.

- ألب يان الكنعانى الصورى (من مدينة صور).

ولم يكتب لفلسفة زينون الرواقية أن تخرج إلى حيز التطبيق إلا بعد ٥٠٠ عام على يد أبناء جلدته الكنعانيين السيفيريين لتصبح عالمية على مستوى الإمبراطورية.

قبل القوانين السبطية كان هناك قانونان :

الأول : وهو القانون الرومانى الأساسى، وكان موضوعا لمدينة معينة، ولفئة محدودة من المواطنين.

---

(١) عيسى اليازجى، مكر سوريا فى العصر الرومانى، ط١ ، بيروت، ص ١٤٧.

(٢) صدر الدين الشيرازى، الحكمة المتعالية، ج١، ايران ، قم ، ص ١٣.

الثاني : الذى أضافوه وسموه قانون الشعوب[1] .

إلا أن كليهما لم يوفيا الغرض الذى أراده السبطيون السافرة.

والمعروف أن سبطيم سفير والد كرك اللا (كرك الله) كان أحد الأباطرة القلائل الذين درسوا القانون، وعندما تسلم السلطة لم يشأ أن يعمل على إحداث تغيير قانوني كامل ومفاجئ لأن ذلك سيؤدى إلى تغيير اجتماعى مفاجئ أيضاً، بما يصاحب ذلك من فوضى أمنية ضارة[2] . وعندما بدأ بالتسلسل التدريجى أقام مجالس المدن الديمقراطية، ثم أكمل ابنه كرك اللا (كرك الله) تلك الخطوة بإصدار قانون الرعوية الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية. وبذلك تحققت المدرسة الفكرية الرواقية بتوحيد نظرة الدولة إلى كافة سكانها ومحاولة تحقيق المساواة ليس فقط بين الطبقات بل بين جنبى الطبيعة، وعلى هذا تساوى الرجال بالنساء، وهو أمر يتحقق لأول مرة فى روما بعصريها الجمهورى والإمبراطوري، وبرزت المرأة بصورة رسمية وقبلها الشعب منذ جوليا دمنا، وجوليا ميسا، وجوليا سواى مياس، وجوليا مامايا، وبت زباى/ زنوبيا.

وقامت القوانين على النظرة الإنسانية لبنى البشر التى يلفها الحب والطهارة والتسامح. فقانون كرك اللا (كرك الله) لم يعمل على تنزيل الطبقة الارستقراطية، بل رفع الطبقة الفقيرة والمستعبدة إلى تلك الطبقة.

---

(١) عيسى اليازجى، ص ١٤٩.

(٢) يمكن مع الفرق الشاسع طبعا إجراء مقارنة مع ما جرى فى الاتحاد السوفياتى المعاصر وضعت قوانين مفاجئة لتغيير واقع سياسى معين.

يقول المشرع الرواقي ألب يان أحد مشرعي هذه القوانين:

[العدالة اتجاه ثابت ملزم لإعطاء كل ذي حق حقه، وسنن القانون الوضعي تقضي بأن تحيا حياة شريفة وألا تسئ إلى أحد، وفقه التشريع هو علم الإحاطة بكل ما هو إنساني وسماوي، هو علم التفريق بين ما هو حق وما هو باطل][1] .

ولعل أبرز الجديد في قوانين السبطيين وبخاصة قانون كرك اللا (كرك الله) كان حق التصويت ، وحق تولي الحكم، وحق الاتجار، وحقوق الأبوة والوصية والميراث، وعدم جواز جلد المواطنين أو قتلهم إلا بعد تقديمهم للمحاكمة[2] .

ومن الثابت أن مجموعة جوستنيان (٥٢٧ -٥٦٥م) القانونية الشهيرة اعتمدت في صياغة أكثر موادها علي بابنيان الحمصي، وألب يان الصوري.

وهكذا كان عصر سبطيم سفير عصر التشريع الذهبي في روما، كما كان عصر أغسطس بالنسبة للأدب[3]، كما وصف روستفت زف القانون الروماني زمن سبطيم سفير بقوله : [ظهر القانون الروماني لآخر مرة في أنبل مظاهره وأكثرها بهاء]. ويضيف : [ولا حاجة بنا إلى الإسهاب في هذا الموضوع الذي شاع واشتهر][4] .

---

(١) عيسى بازجي، ص ١٥١، عن : Roman Stoicism, CH 12 (197).

(٢) عيسى بازجي : ص ١١٩.

(٣) جود فري تورتون ، ص ٩٦.

(٤) روستفت زف ، ص ٤٨٠.

مذبحة الإسكندرية خريف عام ٢١٥م، وعمر كرك اللا ٢٧ عاماً :

اختلف المؤرخون في سرد أحداث المذبحة بين مبالغ ومقل مع أن بعضهم يشير إلى تأثير إصدار قانون الرعوية الرومانية (قانون كرك الله) في تفجيرها. ويبدو أن إصدار القانون أدى إن نقمة الموسرين وكبار رجال السلطة الذين ساءهم أن يسوى القانون بينهم وبين عامة الشعب في الحقوق والواجبات، ورأت المعارضة التي ناهضت سلطة كرك اللا (كرك الله) سابقا في صدور القانون فرصة للتحرك، وبخاصة بعد نقل الفرقة العسكرية الرومانية من مصر إلى منطقة الراين[1].

وبدأ التمرد على شكل حملات بالسخرية من الإمبراطور بإصدار تماثيله على شكل تماثيل الإسكندر[2]، وتطور التمرد ليصبح على شكل حركات سرية تسخر من المقدسات وتحرق المباني الحكومية[3]. ويبدو أن تسارع تفاقم المشكلة أعجز الحاكم الروماني «فراكليتوس» عن القيام بأي عمل لإعادة النظام.

وصلت إلى الإمبراطور وهو في حربه مع البارثيين على الفرات أنباء أقلقته فعلا، مع سلسلة من النكات الساخنة التي هزء بها الإسكندرانيون من إمبراطورهم (هذا عن رواية ديوكاسيوس) بشكل سافل ومجموعة من الحكايات عن علاقة محرمة بين الإمبراطور ووالدته جوليا دمنا.

---

(١) جون لوي تورنون ، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) تورنون ، ص ١٦٤.

وكان كرك اللا (كرك الله) قبل سفره لمصر لإخماد الفتنة قد ترك والدته جوليا في دفنا/ أنطاكية لتستلم التقارير من جميع أنحاء الإمبراطورية، وتستقبل المبعوثين، وتقتضي أوقات فراغها مع أصدقائها في مناقشة موضوعات فلسفية وأدبية كانت تعقدها في صالات ومنتجعات أنطاكية التي اشتهرت بمباهجها الروحية والمادية[1] .

وصل الإمبراطور إلى الإسكندرية خريف عام ٢١٥م، وادعى أنه أتى لزيارة قبر الإسكندر المقدوني وللاشتراك في أعياد الإله سيرابيس. وقد صدقه الأهالي واحتفوا به بعد أن ملوا الفتن واشتاقوا لرؤية من يضع حدا لها، وهكذا ألقيت الزهور ونثرت العطور وعزفت الموسيقى في شوارع المدينة لدى مروره[2] ، وفي الليل أحاطت به وبموكبه المشاعل وأوصلته إلى هيكل الإله سرابيس حيث قدم القرابين وزار قبر الإسكندر.

وفي الصباح أعلن عن دعوته الشباب الأقوياء الأصحاء للتجمع في الساحة حتى يختار منهم كتيبة تسمى كتيبة الإسكندر الكبير. وقد لبى كثير من شباب الأسر النبيلة تلك الدعوة للانخراط في تلك الكتيبة، وحضر الآباء الفخورون بأبنائهم ليروا العرض العسكري للأبناء الذين كانوا يرتدون أفخر الملابس العسكرية ويطوفون في الشوارع، وكان الجميع يتوجهون بألسنة الشكر والمديح إلى الإمبراطور[3] .

---

(١) تورتون ، ص ١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٥.

وما أن تكامل توافد الجميع من أبناء الأسر النبيلة فى الإسكندرية مع عدد كبير من أبنائهم حتى انسحب الإمبراطور من مكان الاجتماع بعد أن أصدر الأوامر بإبادة الجميع، وخلال لحظات رهيبة فقدت الإسكندرية زهرة شبابها، وعدداً كبيراً من رجالاتها وزعاماتها. وتذكر تورتون : [ولإتمام انتصاره ولمنع مجرد التفكير بالعصيان، بنى كرك اللا (كرك الله) سوراً عبر المدينة قطعها إلى نصفين وجعل على السور حرساً. وكانت راقود / الإسكندرية ثانى أكبر مدينة فى الإمبراطورية من حيث عدد السكان].

لقد ساوت قوانين السافرة السبطيين بين أهل الريف والمدن[1]، كذلك أعفى القانون الفقراء من أعباء البلدية إضافة إلى المجدين العاملين فى المدينة حتى لو كانوا من أصحاب الثروة[2].

الحالة الاجتماعية فى مصر :

لاشك أن الحالة الاجتماعية فى مصر كانت مزرية، فلا مكان للمواطنين المصريين أصحاب الأرض فى الحياة السياسية والاجتماعية.

ويذكر روستفت زف فى هذا الصدد : [شعر اليونانيون فى مصر بأنهم السادة والحكام، ولم يكن يطرأ على أذهانهم قط أن يشركوا السكان الأصليين المنبوذين فى الحقوق، إنما اعتبروها حقوقاً مكتسبة لهم بالفتح وحافظوا عليها بقوة السيف. ولو حاول الملوك أن يطبقوا مثل هذا الرأى، لاعتبر اليونانيون القاطنون بالبلاد هذا الاتجاه خيانة وإثماً وافتئاتا على

(١) روستفت زف، ص ٤٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨٦.

حقوقهم المقدسة فى مصر. وقد عم هذا الشعور البطالمة وأباطرة الرومان، وقد بدأ البطالمة بالنظر إلى مصر على أنها ملك خاص لهم غنموه بحق الفتح، وأصبحت مصر لذلك (بيتهم) أو ضيعتهم الخاصة، فى الوقت الذى كان فيه السكان الأصليون رعايا أذلة، عليهم أن يكلفوا (بيت) مليكهم بأعمالهم وأموالهم][1].

ويضيف ميخائيل روستفت زف بالقول: [وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر رأينا اليونانيين رفقاء الملك ينتمون إلى جنس الملك وينتسبون ربما إلى مدينته نفسها، ولهذا كان من الطبيعى أن يعهد إليهم الملك بإدارة (بيته) وألا يسمح قط للمصريين باعتلاء المناصب الإدارية العليا. لا جرم بعد أن قام المصريون بثورات فى المدة الأخيرة ساعد على اندلاعها ضعف الحكام. لقد حاول البطالمة أن يجدوا فى جيش مصرى وكهنة مصريين ما يحد من التطلع السياسى إلى الجيش اليونانى والسكان اليونانيين، ولكنهم لم يذهبوا قط إلى حد الاندماج فى المصريين والظهور حقا بمظهر ملوك مصر خلفاء الفراعنة[2]. وعلى هذا فقد كانت أسمى الوظائف الرئيسية فى إدارة البطالمة موصدة الأبواب فى وجوه المصريين، إلا إذا تشبهوا تماماً باليونانيين (أى إذا تأغرقوا) واندمجوا فى عداد اليونانيين المقيمين].

وهناك بردية هامة ذكرها روستفت زف ص ٣٥٩ من رسالة أحد المصريين المتأغرقين لبعض الأخوة اليونانيين يقول فيها متوسداً: [ربما

---

(١) روستفت زف، ص ٣٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٩.

نظرتم إلى يا أخوتى على أننى همجى أو مصرى ليس من بنى البشر] وكما قال عمر بن عبد العزيز : [رغبتك فى زاهد فيك ذل نفس، وزهدك فى راغب فيك قلة حظ].

هذه هى الحالة فى مصر عامة وفى الإسكندرية بخاصة، حيث لم يكن يسمح للمصرى إلا أن يكون تابعا ومن خلال ممارسته الأعمال الصناعية فقط[1]. فقد كانت الأعمال الصناعية بالنسبة لليونانى مذلة وتعتبر من الأعمال الدنيئة[2].

ومن خلال وصف مصادرنا للمذبحة، يمكن ملاحظة أن التمرد قام به بعض المواطنين الأغنياء[3] ولا وجود للفقراء فى هذا التمرد.

ويمكن ملاحظة أن كرك اللا (كرك الله) طلب فقط شباب الإسكندرية من الأسر النبيلة ومعظمهم من الإغريق والرومان للانخراط فى الكتيبة (الفخ)، وطلب آباءهم للاحتفال بهم، ولم يطلب شباباً من الطبقة الوسطى والفقراء ومعظمهم من المصريين. كل هذه الأمور تفسر لنا أن الحادثة كانت مدبرة للانتقام من أفراد الطبقات الأرستقراطية والمتأغرقين[4] الذين افتروا

---

(١) جود فرى تورتون ، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) جود فرى تورتون ، ص ١٦٤.

(٤) فى إحدى البرديات، كتاب (أحد المصريين المتأغرقين) يذكر فيها : [ربما نظرتم إلى يا أخوتى على أننى همجى أو مصرى ليس من بنى البشر] . لقد كانت هذه الكتابة فى وقت متأخر فى القرن الثالث الميلادى، ونظن بفترة إسكندر سفير (٢٢٢-٢٣٥) أو بعده. المرجع : روستفت زف، ص ٣٥٩، ولا ننسى أن عملية الأغواة عادت على يد آخر أباطرة السافرة اسكندر سفير.

على أنفسهم نتيجة الأنانية والشعور بالتفوق الطبقى فى بلد مارسوا فيه السيادة على أبناء البلد الأصليين الذين ساهم أن يساويهم القانون بهم.

وعلى هذا فإن ما أشيع من أن كرك اللا (كرك الله) قام بهذه المذبحة لأنه كان يكره الشعب المصرى غير مقبول فى مناقشتنا لمجريات الحوادث، إلا إذا اعتبرنا الإغريق والرومان والمتأغرقين والمترومنين فقط هم الشعب المصرى. بل يمكن أن يقال العكس، إذ أن كرك اللا (كرك الله) كان صديقا ومحباً للشعب المصرى بدليل ما تذكر مصادرنا من أن حارس كرك اللا (كرك الله) الشخصى بعد المذبحة كان مصريا[1] اسمه سرأبيون، والذى بقى سنتين حارساً له حتى اغتيال الإمبراطور، وقد نبه المصرى سرأبيون كرك اللا (كرك الله) عن مؤامرة سمعها لاغتياله.

خلاصة القول فى تبرئة كرك اللا (كرك الله) من دم المصريين الأصلاء المستضعفين :

١- مقولة روستفت زف فى أن القانون الرومانى زمن السبطيين السافرة قد بلغ أنبل مظاهره.

٢- وصف أندرية بيجانيول الأسرة السبطية بأنها الإمبراطورية العادلة للسلالة السيفيرية (أى السافرة)L'Empire Egalitaire De La} {Dynastie Des Severes بمعنى أن قانون كرك اللا (كرك الله) كان آخر تطور قانونى لجعل سكان الإمبراطورية سواسية فى الحقوق والواجبات ولأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية. وبذلك أصبح المصرى الريفى والمدنى حراً مساوياً للإغريق والرومان والمتأغرقين والمترومنين.

٣- أن حارس كرك اللا (كرك الله) الشخصى بعد المذبحة كان سرأبيون المصرى.

٤- إن إقامة السور الذى قسم الإسكندرية إلى قسمين يفسر لنا أمرين :

أ- أن فى كل جانب من السور فئة اجتماعية معينة، ومن المؤكد أن نصف الإسكندرية كان للمصريين أبناء الأرض. والنصف الثانى للمتأغرقين الذى نال أبناءهم نتائج المذبحة.

ب- من المرجح أيضا أن كرك اللا (كرك الله) أقام السور خوفاً على البقية الباقية المتأغرقة من غضب الشعب المصرى الأصيل.

ونتيجة لذلك، فإننا لا نبرئ كرك اللا (كرك الله) من مذبحة الإسكندرية، لكننا نبرئه من دم المصريين الأصلاء أصحاب الأرض المستضعفين، داحضين ما جاء به أكثر المؤرخين الذين اعتمدوا على ديوكاسيوس الحاقد على هذه الأسرة.

ومن نتائج توالى قانون كرك اللا (كرك الله) المتواترة حتى اليوم، أن كافة الشعوب غير الرومانية سميت بالروم بعد القانون، فالعربى الإرامى، والكنعانى رومى، والنبطى رومى، واليونانى رومى، والألمانى رومى. وهى مدلول لتعنى الحرية (التى أتى بها كرك اللا). وهكذا، امتد ذلك إلى المذاهب المسيحية أيضا. فنرى روم كاثوليك، روم أرثوذكس. حتى المسيحى اليونانى سمى روم أرثوذكس وروم كاثوليك[1]. [ذكرت لى الباحثة اليونانية Dr. Lil-

(١) J. Babelon, P. 197.

ian Karali المشتركة بالمؤتمر أن اليونان الكاثوليك فقط يسمون روم كاثوليك أما الأرثوذكس فيسمون اغريق أرثوذكس، وبعد مناقشتها مع زملائها طلبت مني التريث في إعلان رأيها لبحث ذلك ومراسلتي. إلا أنها اكدت بان فترة الحكم الرومانى اعتبرت اليونان روما. علما أن شارلمان (الجير مانى) سمى دولته بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما أن مقدم كتاب جيبن (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) يعرف الروم كما عرفناه بهذا البحث].

وأخيرا:

لقد وقع بأيدينا بعد إكمال دراستنا هذه حديث عن سعيد بن المسيب، جاء فى اللسان لابن منظور بمادة سفر : السافرة أمة من الروم[1] .

وجاء فى الحديث عن سعيد بن المسيب : «لولا أصوات السافرة لسمعتم وجبة الشمس».

وقال : «والسافرة أمة من الروم». كذا جاء متصلا بالحديث.

ووجبة الشمس : وقوعها إذا غربت. وأصل الوجوب السقوط. وجب الميت إذا سقط ومات. ويقال للقتيل واجب. والوجبة السقطة مع الهدّة. ووجب وجبة أى سقط إلى الأرض. والوجبة صوت السقوط[2] .

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة سفر.

(٢) ابن منظور، لسان العرب مادة وجب.

والحديث يدل على أنه لولا عدالة السافرة لوقعت الشمس عند مغربها من كثرة الظلم (وهذه كناية).

نعود لنقول :

لولا عدالة السافرة، وهم أمة من الروم.

لوجبت الشمس عند مغربها، من كثرة الظلم.

د. محمد بهجت قبيسي

المصادر والمراجع العربية العدنانية

١- د. إسماعيل فاروق، لغة نقوش الممالك الآرامية، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، حلب، ١٩٨٤.

٢- ر.هـ. بارو، الرومان، ترجمة عبد الرزاق يسرى وشهيرة القلماوى، مجموعة الألف كتاب، دار نهضة مصر، ١٩٦٨.

٣- تسيركين كوفيتش، الحضارة الفينيقية فى إسبانيا.

٤- تورتون جود فرى، أميرات سوريات حكمن روما، نقلها للعربية خالد أسعد عيسى وغسان أحمد سباتو، دار الريم للنشر والتوزيع، دمشق، طبعة أولى، ١٩٨٧.

٥- جونز. هـ. مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس، عمان، ١٩٨٧.

٦- جيبن. أ. اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو دره وهاشم أحمد نجيب، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

٧- ددلى دونالد، حضارة روما، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٧.

٨- روسى بيير ، مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقى للعرب، ترجمة فريد جحا، وزارة التعليم العالى، دمشق، ١٩٨٠.

٩- زهدى بشير، فيليب العربى، وثورة فى الإمبراطورية الرومانية وسورية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠.

١٠- طوبر قاسم، أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام، تأليف مجموعة من علماء التاريخ والآثار، تعريب قاسم طوبر، طبعة أولى، دمشق، ١٩٨٩.

١١- العابد مفيد رائف، دراسات فى الآثار الكلاسيكية، دمشق، ١٩٧٦.

١٢- العبادى مصطفى، العصر الهلنستى، مصر دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.

١٣- العبادى مصطفى، الإمبراطورية الرومانية، بيروت، ١٩٨١.

١٤- قاموس لسان العرب لإبن منظور.

١٥- محفل محمد ، الزين محمد ، دراسات فى تاريخ الرومان، دمشق، ١٩٨٥.

١٦- محفل محمد ، تاريخ الرومان، دمشق، ١٩٧٤.

١٧- سفر ومصطفى على، الحضر مدينة الشمس، وزارة الإعلام، مديرية الآثار العامة، بغداد، ١٩٧٤.

١٨- يازجى عيسى، مآثر سوريا فى العصر الرومانى، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩١.

المصادر والمراجع الأجنبية

1- Babelon Jean, Imperatrices Syriennes, Edition Albin, Michel, Paris, 1957.

2- Corpus - Inscriptionum Semiticarum Paris, Secunda - Tomus, 111-1926.

3- The Oxford Classical Dictionary, Oxford, 1979.

4- Latin Dictionary, Latin/ English E.L., London, 1987.

5- Greek English Lexicon, Oxford, 1986.

6- L.Costaz. S.J., Dictionnaire Syriaque- Francis, Syriac-English Dictionary, قاموس سرياني – عربي ، بيروت

7- Hebrew and English Lexicon Dictionary.

8- Gibbon. E., The Deccline and Fall of the Roman Empire, New York,

9- Piganiol Andre, L'Histoire de Rome, Paris, 1954.

10- Rostovtzeff. M., The Social and Economic History of the Roman Empire, Oxford, Second Edition, 1957.

11- Suitonius 6, The Twelve Caeser , Translated by R. Graves, Penquin Book 6, Edition 1986.

ملحق (١)

شاهدة قبر فى جزر البليار (١٢٥ ق.م.)

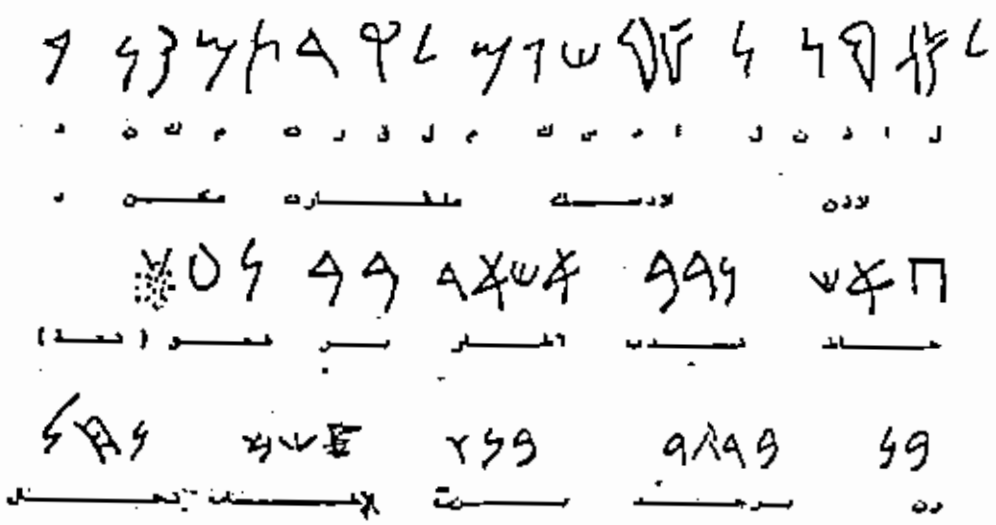

القراءة : لإذن لأدسك ملقارت (تلك القرية)

مكن دّ، حافظ، ندب، أطار ، بر النَعْوَه.

رن (أى قبر) بزجد بنت طالب نحان.

ملحق (٢)

الأمثلة الكنعانية :

شاهدة قبر كنعانى فى جزر البليار : ١٢٥ ق.م.

غرب إيطاليا وشرق إسبانيا .

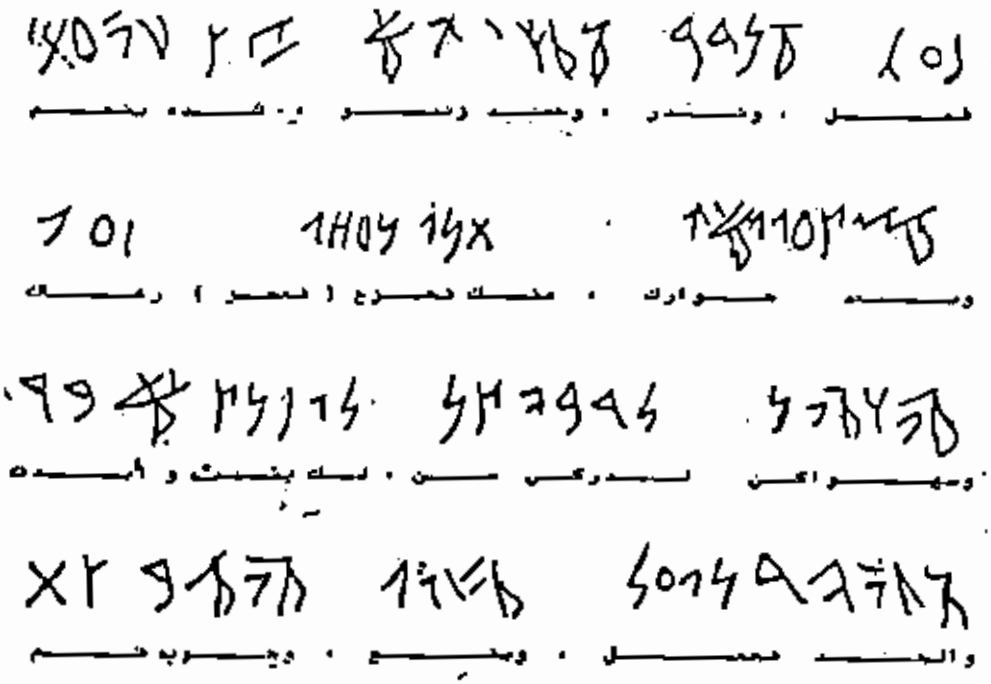

اللفظ : فعل وندر وحصد زيناً، شدَّهُ ينعم، ويسعد جوارك

(أيها الإله) منك تعزز (تعجز) رعاك، ويهواكن.

لدركى (لطريقى) صن، لك بنت وأبدت.

والحد نجعل، وينج، وجوب تم.

ملحق (٣)

نقش البرازيل : ١٢٥ ق.م. (كنعانى)

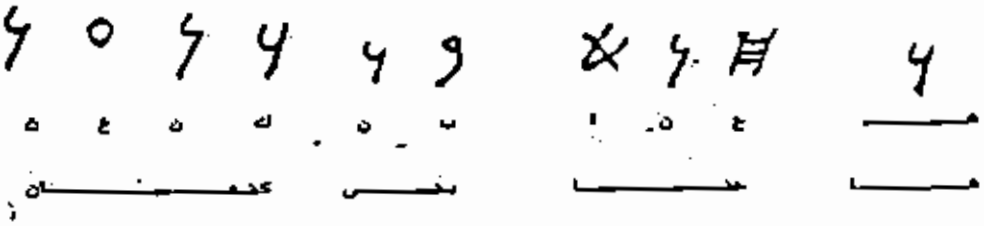

نقش بيض هلك

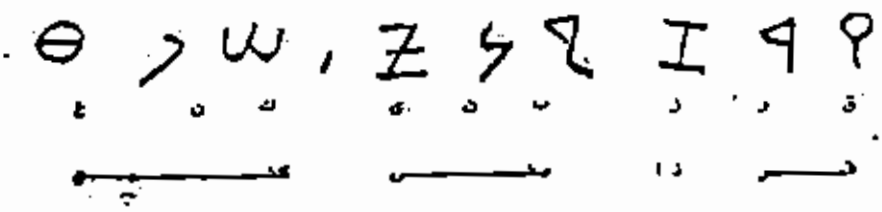

السطر الأول : ها نحن بنى كنعان

السطر الثانى : قلعة (قر) من المقر) الحصن ذا بنى كنع (كنعان)

لاحظ : أن الكنعانيين سموا انفسهم بنى كنعان، وليس فينيقى وهنا جزء من نقشين مختلفين.

ملحق (٤)

الأمثلة الآرامية

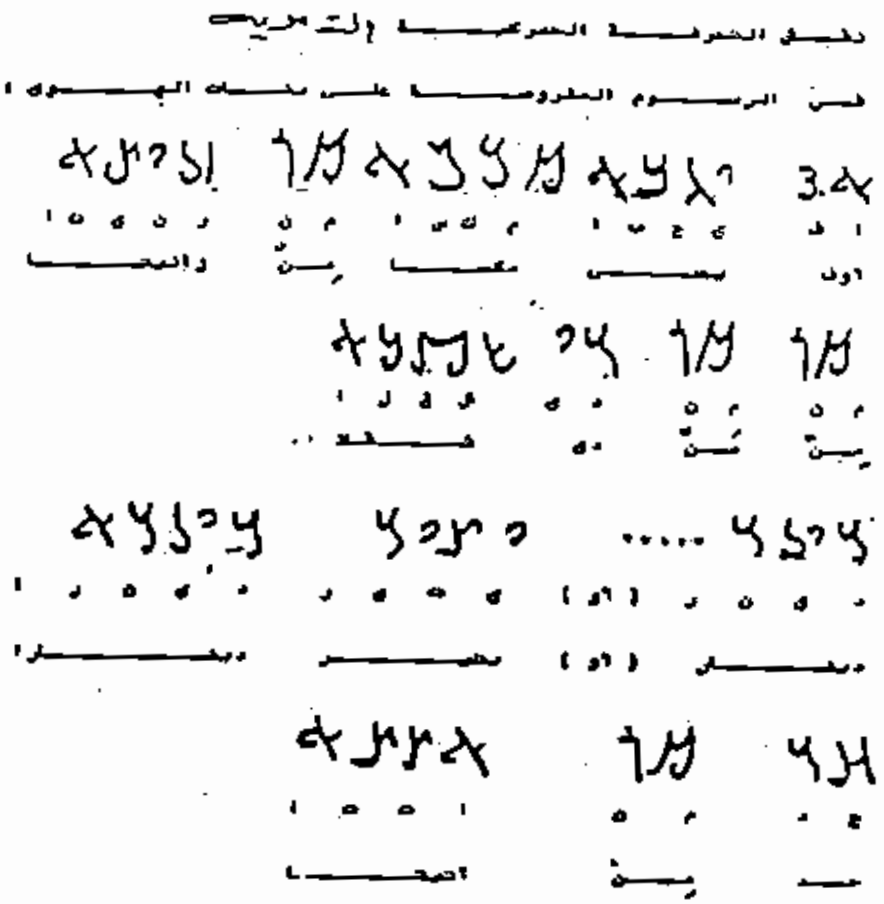

أوف بمعنى أيضاً وهى باقية فى التراث الغنائى العربى حق اليوم

مكسا : بمعنى المكس (الرسم) والألف بآخر الكلمة هى أداة التعريف العربية الآرامية.

يثير: يزيد وهى من التعناو، جاء فى القرآن الكريم أو يتركم أعمالكم بمعنى ينقصكم

شغلا : بمعنى شغلها حد : بمعنى واحد أتيتا بمعنى الآتية هذا العمل.

الزواج السياسى فى مصر الهللينستية
من عصر الإسكندر الأكبر حتى نهاية دولة البطالمة

دكتور

هابيل فهمى عبد الملك

مدرس التاريخ اليونانى والرومانى

كلية الآداب – جامعة المنوفية

الزواج السياسى فى مصر الهللينستية
من عصر الإسكندر الأكبر حتى نهاية دولة البطالمة

لعب الزواج السياسى دورا هاما فى تحريك الأحداث على المسرح السياسى فى العصر الهللينستى بصفة عامة، وفى مصر بصفة خاصة وانعكس ذلك على الحياة السياسية فى مصر منذ عام ٣٣٢ ق.م. وحتى سقوط مصر فى يد الرومان عام ٣٠ ق.م.[١].

فبعد بزوغ نجم الإسكندر وتوحيده المدن الإغريقية تحت زعامة مقدونيا، قاد حملته نحو الشرق لإخضاع الإمبراطورية الفارسية تحت زعامته، بعدما واصل فتوحاته إلى مصر (٣٣٢)، ثم شرقا حتى وصل إلى الهند (٣٢٧-٣٢٤).

كان هدف الإسكندر من وراء ذلك إيجاد إمبراطورية موحدة تضم الشرق والغرب فى إطار هللينى، يتمتع فيه الجميع بالمساواة والانسجام الفكرى والعاطفى وهو ما أسماه بالوئام لأن الناس جميعاً فى نظره أبناء لأب واحد مهما اختلفت عناصرهم وقومياتهم.

ولتحقيق هذا الهدف النبيل اتخذ الإسكندر الزواج السياسى طريقاً وأسلوباً لتأكيد فكرة الوحدة والانسجام، وليكون قدوة لغيره من القواد يحتذوا به لإيجاد نوع من التطبيع يحقق آماله المنشودة إلى جانب أساليب ووسائل أخرى كتجنيد الفرسان الآسيويين فى صفوف كتائب الفرسان المقدونيين وقبول بعض الشباب من نبلاء الفرس فى قوات الحرس الملكى إلى

جانب ارتدائه الزى الفارسى وممارسة العادات الفارسية.

أثارت الأساليب التى اتخذها الإسكندر لتحقيق أهدافه ردود فعل غاضبة من جانب الكثير من القادة والجنود المقدونيين لشعورهم بأن قائدهم بدأ يتخلى عن جنسيته المقدونية ولولا تدخل القدر الذى عجل بموت الإسكندر وموت أهدافه النبيلة لربما وقعت أحداث أدت إلى انقسام صفوف الجيش المقدونى لأن فكرة الوحدة والوئام لا تعنيهم بقدر ما يعنيهم تحقيق مآربهم السياسية وأطماعهم الشخصية ودليلنا على ذلك أنه بعد مؤتمر بابل (يونيو ٣٢٣) نجد أن خلفاء الإسكندر وبخاصة البطالمة فى مصر يتخذون الزواج السياسى طريقاً ليس لتحقيق المساواة والوحدة والوئام كما كان يذهب الإسكندر بل طريقا لتحقيق مآربهم السياسية وأطماعهم الشخصية. وهذا ما يوضحه هذا البحث.

وضع الإسكندر اللبنة الأولى فى صرح الزواج السياسى فى العصر الهللينستى، ليكون قدوة لغيره من القادة المقدونيين، فتراه فى عام ٣٢٧ يتزوج من الفارسية «روكسانه» Roxane إبة «أوكسيارتيس» Oxyartes أحد أمراء «باكتيريا Bactria»[1]. الذين قاوموا الإسكندر عند غزوه لهم وانجب منها ابنه «الإسكندر الرابع» بعد وفاته.

وفى عام ٣٢٤ يتزوج الإسكندر من فارسية أخرى تدعى «ستاتيرا إبنه الملك (دارا) وبهذه المناسبة أقام حفلا كبيراً فى العاصمة الفارسية (سوسا – Sosa) دعا إليه ضباطه لحضور الاحتفال وحثهم على الزواج من فارسيات من الطبقة الارستقراطية لإيجاد نوع من التطبيع يحقق أمانه

المنشودة وقدم لهم هدايا مناسبة، وكان عددهم يبلغ عشرة آلاف وفقا لرواية أريانوس[٣] وتسعة آلاف وفقا لرواية بلوتارخوس[٤].

وقد أثار زواجه الثانى غيرة «روكسانه» مع أن «ستاتيرا» لم تنجب منه وقتلتها عقب وفاة الإسكندر[٥] وكذلك أثار زواجه من شرقيات ردود فعل غاضبة من جانب الجنود المقدونيين خصوصا بعد تجنيد الإسكندر للفرسان الآسيويين فى صفوف كتائب الفرسان المقدونيين، ودخول بعض الشبان من الفرس فى قوات الحرس الملكى إلى جانب ارتداء الإسكندر الزى الفارسى وتقليده العادات الفارسية مما جعلهم يشعرون بأن مليكهم لم يعد لهم وجدهم بل صار ملكا شرقيا آسيويا[٥].

لذلك نرى أنه عقب وفاته أنكر الكثيرون من خلفائه المجتمعين فى بابل فى يونيو ٣٢٣ جنين روكسانه الذى مازالت حاملاً فيه فى شهرها السادس باعتبارها شرقية ولا يحق للمولود منها التربع على عرش الامبراطورية المقدونية [٦].

ويبدو أن البعض أذعن لرغبة الإسكندر ليس اقتناعاً بوجهة نظره وإنما إرضاء له مثل بطلميوس بن لاجوس أحد قادة الإسكندر المقربين إليه فقد تزوج من «أرتاكاما» Artacama ابنة الوالى الفارسى «أرتابازوس Artabazus عام ٣٢٤.

وعندما حط بطلميوس رحاله فى مصر بعد مؤتمر بابل أطلق سراح زوجته الفارسية وتزوج بأخرى مصرية من السلالة الملكية ليعطى لنفسه الحق فى إرث عرش مصر لأنه كان يدرك ببصيرته السياسية أن بقاء

الإمبراطورية المقدونية موحدة أمرا لن يستمر طويلاً، ولذلك تزوج سيدة من سلالة «نختانبو» ليصبغ حكمه بصبغة شرعية فى نظر المصريين ويشير أثينايوس Athenaus أن بطلميوس تزوج من هذه السيدة وانجب منها ابنا واحداً على الأقل يدعى (ليونتسكوس) وإبنة تدعى (إيرينى) تزوجت من ملك (سولى) بجزيرة قبرص[٧].

وحوالى عام ٣٢٢ عقد بطلميوس بن لاجوس مصاهرة سياسية مع القائد (أنتيبا تروس) Antipatros المشرف على بلاد الإغريق إذ تزوج من ابنته (يورويديكى) Eurydike وكان السبب وراء ذلك الزواج الأحداث التالية:

بعد أن فتح (برديكاس) Perdiccas آسيا الصغرى حيث أخضع أرمينيا وبسيديا وكبادوكيا[٨] صار مركزه قوياً حتى أنه أقام نفسه وصيا على الملكين فيليب أرهيدايوس – الأخ غير الشقيق للإسكندر والذى أنجب فيليب من إحدى محظياته – والإسكندر (الرابع) الذى أنجبه الإسكندر الأكبر من روكسانه.

أثار وضع برديكاس هذا قلق (أنتيباتروس) مما حدا ببرديكاس إلى تهدئة ثائره أنتيباتروس بالزواج من ابنته (نيكايا) Nicaea عام ٣٢٢، لكن (أو لمبياس) Olumpias والدة الإسكندر والخصم اللدود لأنتيباتروس صممت على إفشال هذا الزواج فعرضت على برديكاس الزواج من ابنتها (كليوباترة) ونجحت فى ذلك حيث طلق برديكاس (نيكايا) مما أثار غضب (أنتياتروس) عليه لأنه ظن أن برديكاس يطمع فى عرش بلاد الإغريق[٩].

ماذا كان رد فعل أنتيباتروس على تصرفات برديكاس؟

عقد أنتيباتروس تحالفا مع أعداء برديكاس وهم أنتيجونوس Antigonos وكراتوروس Cratorus وطلب إلى بطليموس بن لاجوس الانضمام إليهم [١٠] ولتدعيم هذا التحالف زوج أنتيباتروس ابنته (فيلا) Phila لكراتوروس، وابنته (يورويديكى) لبطليموس وابنته (نيكايا) التى تزوجها برديكاس من قبل – للوسيماخوس مقابل وقوفه على الحياد.

كان السبب وراء انضمام بطليموس لهذا التحالف وقبول الزواج من يورويديكى إبنة أنتيباتروس هو التطلع إلى عرش مصر ليستقل بها مستغلا الانحلال داخل الإمبراطورية، والصراعات والانقسامات التى تدب بين أفراد الأسرة المالكة، ولذلك بمجرد مقتل برديكاس عام ٣٢٢/٣٢١، اجتمع القادة فى (تريبارادیسوس) Treparadesus على نهر العاصى بسوريا عام ٣٢١ لإعادة تقسيم ولايات الإمبراطورية فاختير أنتيباتروس وصيا عاما على الإمبراطورية epimeletes autocrator، والاعتراف بمركز بطليموس بن لاجوس فى مصر وتعيين ولاة جدد مكان أصدقاء برديكاس وتعيين سلوقس واليا على بابل، واحتفاظ أنتيجونوس بولاية آسيا مع تعينه قائدا عاماً للجيش الملكى فى آسيا[١١]. ولكى يدعم أنتيباتروس صلته بأنتيجونوس زوج ابنته (فيلا) Phila أرملة كراتوروس إلى (ديمتريوس)Demetrius بن أنتيجونوس[١٢].

وحوالى عام ٣١٦ تزوج بطليموس والى مصر للمرة الثالثة ليس بدافع سياسى وإنما بدافع الحب من سيدة مقدونية أتت إلى مصر فى حاشية

(يوروديكى) تدعى (برنيكى) Berenike وأنجبت له طفلين هما : (أرسينوى) Arsinoe وبطليموس Ptolemy – الذى أصبح فيما بعد بطليموس الثانى فيلادلفوس[١٣] ولا نعرف هل طلق بطليموس يوروديكى قبل زواجه من برنيكى أم لا؟ فالمصادر القديمة لم تدل بدلوها فى هذا الشأن.

وفى عام ٣٠٨ فكر بطليموس فى الزواج من كليوباترة الأولى شقيقة الإسكندر ليقوى مركز مصر بعد فتور العلاقات مع (كاسندروس) ابن أنتيباتروس لكن هذه الصفقة السياسية لم تتم لأن أنتيجونوس دبر قتل كليوباترة [١٤].

يعتبر عام ٣٠١ بداية عهد جديد فقد انحلت إمبراطورية الإسكندر، وأصبح يقتسم عالم بحر إيجه خمس شخصيات عظيمة هى :

١– كاسندروس : فى مقدونيا وبعض بلاد الإغريق.

٢– لوسيماخوس : فى تراقيا وآسيا الصغرى.

٣– سلوقس : فى بابل وسوريا وآسيا الصغرى.

٤– بطليموس : فى مصر وجوف سوريا وقورينائية.

٥– ديمتريوس بن أنتيجونوس : عصبة كورنثة وعصبة جزر الكيكلاديس وقبرص وبعض المدن الإغريقية فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى وفينيقيا[١٥].

ورغم هذا التقسيم إلا أن الأطماع الشخصية سيطرت على كل منهم

فسلوقس يطمع فى جوف سوريا التى صارت مطمعا ليس لسلوقس فقط بل وبقية الحلفاء، وإزاء ذلك يحث كل منهم عن حلفاء له ولا سبيل لذلك إلا عن طريق المصاهرات السياسية فبطليموس يتقرب إلى كاسندروس وينجح فى تزويج ابنته (لوساندرا) Lysandra من يورويديكى - إلى الإسكندر ابن كاسندروس، كما يتقرب من لوسيما خوس ويزوجه ابنته الثانية (أرسينوى) - من برنيكى - رغم صغر سنها، ويرد سلوقس على بطليموس بنفس الطريقة فرغم العداء القديم بينه وبين ديمتروس بن أنتيجونوس إلا أنه يخطب ابنته (ستراتونيكى) Stratonice عام ٣٠٠(١٦)، وانتهز ديمتريوس هذه الخطوة ليضع يده فى يد سلوقس لأنه كان يتطلع لتأسيس دولة آسيوية(١٧).

وفى سنى حكم بطليموس الأول الأخيرة عانى كثيراً من تبعات زواجه من يورويديكى وبرنيكى، وصار السؤال الذى يقلق مضجعه هو: هل يخلفه ابنه الأكبر بطليموس الصاعقة من يورويديكى أم ابنه المحبب لديه بطليموس (فيلادلفوس) من برنيكى؟ ولكنه فضل أن يشرك معه ابنه المحبب بطليموس عام ٢٨٥، ونتيجة لذلك التجأ بطليموس الصاعقة إلى لوسيماخوس ثم إلى سلوقس لمعاونته فى الوصول إلى عرش مصر أو الفوز ببعض ممتلكاتها الخارجية.

وبعد أن انفرد فيلادلفوس بعرش مصر تزوج من ابنة لوسيماخوس أرسينوى الأولى (وهى ابنة أخته فى نفس الوقت)، وكان هدف فيلادلفوس من وراء هذا الزواج طرد أخيه بطليموس الصاعقة من بلاد لوسيماخوس،

بعد ذلك خدمت الظروف فيلادلفوس فقد انهارات إمبراطورية لوسيماخوس وقد لعبت زوجته أرسينوى الثانية دورا هاما فى انهيارها بهدف احتكار السلطة لنفسها لذلك أوغرت صدر زوجها ضد ابنه الأكبر (أجاثوكليس) من نيكايا ابنة أنتيباتروس - الذى اتهمته بتدبير مؤامرة لاغتيال أبيه انتهت بإعدامه[١٨] وفرار زوجته لوساندرا إلى سلوقس وفرار الصاعقة إلى سلوقس أيضا[١٩].

بعد مقتل لوسيماخوس عام ٢٨١[٢٠] نجح بطليموس الصاعقة فى قتل سلوقس ونودى به ملكا على مقدونيا[٢١] فلم تضيع أرسينوى الثانية أرملة لوسيماخوس الفرصة فتزوجت من أخيها الصاعقة لتضمن لنفسها ولأولادها، من لوسيماخوس عرش مقدونيا لكن الصاعقة انتقم منها بقتل اثنين من أولادها، أما ابنها الثالث بطليموس فنجا من الموت لعدم وجوده أثناء المأساة ففرت أرسينوى وابنها بطليموس إلى أفيسوس أواخر عام ٢٨٠[٢٢].

والملاحظ أن ملك مصر بطليموس فيلادلفوس لم يحرك ساكنا ضد أخيه غير الشقيق بطليموس الصاعقة تجاه تصرفاته مع ارسنيوى الثانية - أخت فيلادلفوس أيضا - ولعل السبب وراء ذلك أن مصر كانت فى ذلك الوقت فى حرب مع أنطيوخوس[٢٣].

وإذا كان ملك مصر لم يحرك ساكنا، فقد تحركت أرسينوى الداهية من جانبها حيث نجحت فى عام ٢٧٦ من الزواج من أخيها فيلادلفوس بعد أن أبعدت ابنتها - أرسنيوى الأولى وزوجة فيلادلفوس - إلى قفط بتهمة

التآمر ضد الملك[٢٤].

إن الأطماع السياسية تعمى بصيرة الإنسان وتجعله ميكيافيللى النزعة ضاربا بالقيم والأخلاق والتقاليد عرض الحائط، فلا يخجل من استخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة فى سبيل الفوز بالسلطان وهذا ما لمسناه وسوف نلمسه خلال بحثنا هذا.

وقد لعب التملق من جانب الشعراء دوره فى إنجاح هذا الزواج فشاعر البلاط ثيوكريتوس Theocritos مجد هذا الزواج[٢٥] وهذا يدل على أن الملك البطلمى كان يهيئ الجو العام لقبول مثل هذا الزواج لدى الإغريق الذين كانوا يعتبرون أن زواج الأخ من أخته يعتبر فسقا لذلك نرى بطليموس فيلادلفوس يقف بحزم ضد شاعر الهجاء (سوتاديس) Sotades الذى ندد بهذا الزواج فكان جزاؤه الموت وفقا لرواية أثينايوس[٢٦].

يحدثنا باوسانياس بأن أرسينوى الثانية توفيت دون أن تنجب أبناء من فيلادلفوس وإنها تبنت أولاد فيلادلفوس من زوجته الأولى (أرسنيوى الأولى وهى ابنة ارسنيوى الثانية فى نفس الوقت) حيث كان أكبرهم سنا بطليموس الثالث الذى زوجه أبوه من (برنيكى) ابنة (ماجاس) الأخ غير الشقيق لفيلادلفوس وحاكم قورينائية وكان هذا الزواج سببا فى إنهاء الخصومة بين الأخوين والتى استمرت مدة خمسة عشر عاماً وبهذا الزواج ضمن ماجاس لابنته ليس عرش قورينائية فحسب بل وعرش مصر ايضاً[٢٧].

أثناء الحرب السورية الثانية بين فيلادلفوس وأنطيوخوس الثانى نجح

(جوناتاس) بن ديمتريوس فى القضاء على سيطرة البطالمة البحرية عام ٢٥٨ أو ٢٥٦ [٢٨]. وقد ساعده على ذلك تحالفة مع انطيوخوس الثانى وذلك بزواجه من (إستراتونيكى) شقيقة أنطيوخوس[٢٩].

وانتقاماً من جوناتاس سعى فيلادلفوس لضرب التحالف القائم بين جوناتاس وانطيوخوس الثانى حتى لا يحرض جوناتاس انطيوخوس على محاربة فيلادلفوس لاستعادة جوف سوريا، وليتفرغ بعد ذلك لجوناتاس نفسه، ورأى فيلادلفوس أن السبيل إلى ذلك التقرب لأنطيوخوس وكسب وده عن طريق المصاهرة ونجح فى ذلك فى أواخو عام ٢٥٣ مستغلا سوء العلاقة بين انطيوخوس وزوجته (لاوديكى) Loadice (ابنة عمه) بسبب تسلطها وقوتها [٣٠]. فحرضه على سراحها والزواج من ابنته (برنيكى) من زوجته أرسنيوى الأولى – ومنحه صداقا كبيراً بشرط أن يكون عرش انطيوخوس لأبنائه من زوجته الجديدة[٣١].

وفعلاً أبعد انطيوخوس لاوديكى وأبناءها إلى أفيسوس، وفى أبريل عام ٢٥٢ رافق فيلادلفوس ابنته حتى (بلوزيون)، ثم رافقها أبوللونيوس وزير ماليته حتى صيدا[٣٢].

ومن الطريف أن (برنيكى) حملت ضمن متاعها ماء النيل وذلك للاعتقاد أن مياه النيل تضمن الحمل[٣٣]. لذلك كان أبوها فيلادلفوس يتابع إرسال مياه النيل إليها كما يشير بوليبيوس نقلا عن أثينايوس[٣٤].

بعد وفاة بطليموس الثانى فيلادلفوس تولى عرش مصر ابنة بطليموس الثالث يورجتيس فى ٢٧ من يناير سنة ٢٤٦ ق.م.[٣٥]. وقد أسلفنا أنه تزوج

من (برنيكى) ابنة عمه ماجاس عندما كان وليا للعهد. ومع بداية حكمه انشغل بتبعات النزاع بين أخته برنيكى زوجة أنطيوخوس ولاوديكى زوجة أنطيوخوس الأولى ذلك النزاع الذى أدى إلى نشوب الحرب السورية الثالثة والمعروفة بحرب لاوديكى[٣٦] وقد ناشدت برنيكى بطليموس الثالث فى دخول سلوقية وأنطاكية. وانتهى الصراع بين لاوديكى وبرنيكى بخطف الأخيرة وابنها وإعدامهما عام ٢٤٥ تقريبا.

لم يلعب الزواج السياسى دورا واضحا فى حياة هذا الملك مثلما لاحظنا فى عهد أبيه فيلادلفوس رغم سياسته الخارجية الواسعة التى أدت إلى السيطرة على الطرق البحرية المؤدية إلى مصر وبلوغ دولة البطالمة فى عهده أوج مجدها.

الزواج السياسى فى عهد البطالمة الأواخر:

وفى عام ٢٢١ آل عرش مصر إلى بطليموس الرابع (فيلوباتور) وكان يبلغ من العمر الثانية والعشرين، وهذا الشاب العابث الماجن كان سببا فى انحدار الأحوال فى مصر حتى بلغت من الضعف والمهانة حدا لم تستطع النهوض منه لتتبوأ مكانتها التى كانت عليها فى عهد البطالمة الثلاثة الأوائل.

فى العام السادس من حكمه تزوج بأخته أرسينوى الثالثة وعرفا معا باسم «الإلهين فيلو باتروس» أى المحبين لأبيهما[٣٧].

وقد أنجبت أرسنيوى ولى العهد فى ٩ أكتوبر (٣٠ مسرى) عام ٢٠٩ وقد أشركة أبوه معه فى الملك وهو ما يزال فى المهد (قبل ٦ يونيو عام ٢٠٨)

ورغم ما عرف من شجاعة أرسينوى والتى وضحت خلال معركة رفح إلا أنها لم تستطع حماية زوجها من بطانة السوء المحيطة به وعلى رأسها (أجاثوكليس) Agathocles وحظيته (أجاثوكليا) Agathoclea وأمها (أوينانثى) Oenanthe فاعتكفت عن الحياة ووجدت سلوتها فى مخالطة العظماء[٣٨]. وبعد وفاة زوجها قتلها (فيلامون) Philamon الذى كافأة أجاثوكليس بتعينه حاكما علي ليبيا.

بعد وفاة بطليموس الرابع وزوجته أرسينوى الثالثة تركا طفلا صغيرا فى السادسة من عمره دون وصاية عليه من أجد لكن فى ٢٨ نوفمبر عام ٢٠٣ دعا أجاثوكليس وسوسيبيوس رجال الحرس الملكى وأفراد الحاشية وضباط المشاة والفرسان وأعلنا نبأ وفاة الملك والملكة وناديا بالطفل الصغير ملكا وتوليا الوصاية عليه، ويبدو أن سوسيبيوس توفى بعد ذلك بقليل فانفرد أجاثوكليس بالوصاية وسارع إلى كسب ود الجنود بإعطائهم مرتب شهرين واستحلفهم يمين الولاء[٣٩] ولكى يقوى مركزه فى مصر بدأ يفكر فى عقد معاهدة تحالف مع مقدونيا أساسها الزواج السياسى وبيان ذلك أنه عهد إلى بطليموس بن سوسيبيوس بأن يعقد مع فيليب الخامس معاهدة تتضمن زواج ابنته من بطليموس الخامس والحصول على مساعدة فيليب ضد انطيوخوس[٤٠] لكن هذه المعاهدة لم يكتب لها النجاح لقيام تحالف بين أنطيوخوس وفيليب عام ٢٠٣/ ٢٠٢ لتقسيم ممتلكات مصر.

ونتيجة لتدخل روما فى شئون مصر حدث تقارب سريع بين أنطيوخوس وأرستومينيس الوصى على عرش مصر لإنقاذ مصر من براثن

روما وأساس هذا التقارب زواج إبنة أنطيوخوس (كليوباترة) من بطليموس الخامس (أبيفانيس).

وفي أثناء عام ١٩٣/١٩٤ احتفل بزواج بطليموس الخامس من كليوباترة الأولى في رفح[٤١] وكانت هدية عرس كليوباترة لزوجها «جوف سوريا»[٤٢].

ويقول (ديودوروس) أن مصر خيبت آمال أنطيوخوس بانحيازها إلى روما بعد أن تولى (بولوكرايتس) بدلا من (أريستومينيس)[٤٣] وانتهت الأمور بهزيمة روما لانطيوخوس في موقعة ماجنيسيا Magnesia عام ١٨٩ وانتهت بذلك الدولة السلوقية في حين أن روما اكتسبت احترام الإغريق في آسيا الصغرى وبسطت نفوذها على المنطقة بأكملها فيما بعد[٤٤].

وبعد معاهدة (أباميا) Apamea عام ١٨٨ أصبحت روما صاحبة النفوذ والكلمة العليا في شرق البحر المتوسط ولم تعد المصاهرات السياسية ذات تأثير كبير في رسم السياسة الداخلية والخارجية كما كان الأمر لأن روما كانت تترقب العلاقات وتتدخل في الوقت المناسب إذا رأت أن هذه العلاقات تشكل خطراً عليها.

توفي بطليموس الخامس (أبيفانيس) عام ١٨٠ وترك ولدين وبنتا كان أكبرهم بطليموس السادس (فيلوميتور) ويبلغ من العمر حوالى السابعة فتولت الوصاية عليه أمه كليوباترة الأولى وبفضلها بقيت العلاقات بين مصر والدولة السلوقية خلال مدة وصايتها. وبعد أن بلغ فيلوميتور (١٤ سنة) تزوج من أخته (كليوباترة الثانية) وخلال حكمه تعرضت مصر لغزو أنطيوخوس

مرتين (عام ١٧٢، ١٦٨) ولكن روما أرغمته على الانسحاب للحفاظ على سياسة توازن القوى فى شرق البحر المتوسط .

بعد ذلك نشب صراع بين فيلوميتور وأخيه الأصغر بطليموس استغلته روما لتقطيع أوصال دولة البطالمة . ففى عام ١٦٣ عقدت روما اتفاقاً بين الأخوين تقرر بمقتضاه تقسيم المملكة بينهما بحيث تكون مصر وقبرص من نصيب فيلوميتور، وفورينائية من نصيب بطليموس الصغير[٤٥] ولكن بطليموس الصغير ظل يطالب بالحصول على قبرص وساعدته روما فى ذلك[٤٦] لكن فيلوميتور شن حرباً على أخيه وهزمه ورغم ذلك كان فيلوميتور كريماً معه إذ سمح له بالعودة إلى فورينائية ووعده بتزويجه من أبنته عام ١٥٤[٤٧] ليقطع خط الرجعة على تدخل روما وفى عام ١٤٩/١٥٠ تزوج بالاس ابن أنطيوخوس – فيما يبدو- من كليوباترة ثيا Thea إبنة فيلوميتور وقد بارك فليوميتور هذا الزواج ليثأر لنفسه من ديمتريوس الابن الأكبر لسلوقس الرابع والذى كان مقيماً فى روما وعاد إلى سوريا بعد وفاة عمه أنطيوخوس الرابع مطالباً بالعرش، وقد أمد فليوميتور (بالاس) زوج ابنته بجيش بطلمى بقيادة (جالايستيس) (Galaestes) ، الذى نجح فى قتل ديمتريوس فى ميدان القتال[٤٨] وبذلك آل إلى Balas عرش الدولة السلوقية.

لكن سرعان ما أثبت (بالاس) أنه لم يكن جديراً بعرش سوريا حيث انصرف إلى العبث والمجون تاركا لوزيرة (أمنيوس) Ammonios حرية التصرف فى شئون الدولة [٤٩].

فى ربيع عام ١٤٧ عاد ديمتريوس بن ديمتريوس الأول والملقب بالثانى مطالباً بعرش أبيه ، فاستغاث (بالاس) ليهب فيلومتيور لنجدته وبالفعل خف فيلوميتور إلى سوريا على رأس جيش وأسطول لمساعدة زوج ابنته[٥٠].

استقبلت المدن السورية الملك البطلمى استقبالاً حافلاً مما أفزع كلا من بالاس ووزيره أمنيوس وظنا أنه قادم للاستيلاء على عرش البلاد لذلك دبرا اغتياله ولما اكتشف الأمر عزا الملك ذلك إلى أمنيوس فطلب من بالاس تسليمه، فرفض بالاس ذلك مما دفع فيلوميتور إلى التأكد من اشتراك زوج ابنته فى المؤامرة، فنفض يده من محالفة (بالاس) وانضم إلى جانب ديمتريوس الثانى واعداً إياه بعرش سوريا وبابل ويد أبنته (كليوباترة ثيا) زوجة (بالاس) لقاء النزول لمصر عن جوف سوريا [٥١].

لكن بالاس الذى كان قد هرب إلى كيليكيا جمع جيشاً وزحف إلى سوريا والتقى بقوات فيلوميتور وديمتريوس على ضفاف نهر Oenoparas فى صيف ١٤٥ ورغم هزيمة بالاس إلا أن فيلوميتور أصيب إصابة قاتلة[٥٢].

بموت فيلوميتور صار عرش مصر فى يد أرملته كليوباترة الثانية وولى عهده بطليموس السابع (نيوس فيلوباتور) لكن بطليموس الصغير – أخ فيلوميتور – وملك قورينائية وعميل روما تزوج عام ١٤٤ من أرملة أخيه – وأخته فى نفس الوقت – كليوباترة الثانية ليحقق حلمه القديم فى التربع على عرش مصر وأتفقا على أن يحكما سوريا بالاشتراك مع ابنها (نيوس فيلوباتور).

أصبح بطليموس ملك قورينائية ثامن ملوك البطالمة وعرف باسم «يورجتيس الثانى » ويحدثنا (يوستينوس) أن هذا الملك قتل ابن أخيه (نيوس فيلوباتور) وهو فى أحضان أمه ليلة الزفاف[٥٣]، والغريب أن كليوباترة لم تحرك ساكناً فهل دفعها إلى ذلك الخوف من بطش زوجها ؟ أم رغبتها فى البقاء ملكة بأى ثمن ؟

لقد كان حب السلطة عند النساء المقدونيات الطموحات يغلب على العاطفة الطبيعية فنجد ابنة كليوباترة الثانية المدعوة (كليوباترة ثيا) ملكة سوريا وزوجة بالاس ابن أنطيوخوس الرابع تغلب حب السلطة عندها على كل عاطفة إنسانية إذ دبرت مقتل أحد أبنائها وهو (سلوقس الخامس) لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها، كما حاولت قتل أبنها الآخر عندما وقف فى ضد أطماعها، فإذا عرفنا ما كان من أمر الابنة فإننا لا ندهش لما كان من أمر الأم التى تغلب عندها شهوة الحكم فوق كل اعتبارات إنسانية .

ورغم إنجابها إينا من بطليموس الثامن لقب بالمفيس Mem-phites[٥٤]. - حيث أنجبته كليوباترة أثناء تتويج زوجها فوعونا فى منف عام ١٤٤- إلا أن الصراع على السلطة كان محتدماً بينهما وبين زوجها حتى ساءت العلاقة بينهما مما دفع بطليموس الثامن للزواج من ابنتها كليوباترة الثالثة عام ١٤٢ ليحد من أطماعها[٥٥]. ولا نعرف إذ كان قد طلق كليوباترة الثانية أم لا، لكن الوثائق تشير إلى أنها ظلت تحكم معه بلقب « الملكة كليوباترة الأخت » بينما لقبت ابنتها كليوباترة الثالثة « الملكة كليوباترة الزوجة »[٥٦].

وإزاء زواج بطليموس الثامن من كليوباترة الثالثة ، لم تحرك كليوباتره الثانية ساكنا حتى عام ١٣١ ربما حتى تهدأ شوكة بطليموس الثامن وتتجلى الأمور وتكون فى مركز يسمح لها بالوقوف فى وجه زوجها .

فى عام ١٣١ نجحت كليوباتره الثانية فى تحريض الإسكندرانيين عليه ففر بطليموس الثامن وزوجته كليوباترة الثالثة إلى قبرص، وأعتبرت ذلك العام بداية لحكمها منفردة ولقبت نفسهابالإلهة « فيلوميتورسوتيرا » (٥٧).

وانتقاما من كليوباترة الثانية قتل يورجيتس الثانى ابنها «ممفيتس» الذى كان قد أخذه معه إلى المنفى ومزقه إربا إربا ووضع أشلاءه فى صندوق بعث به إلى كليوباترة فى الإسكندرية كهدية عيد ميلادها(٥٨).

فى عام ١٢٧ عاد يورجتيس الثانى من منفاه بالقوة المسلحة وطرد كليوباترة الثانية فلجأت إلى زوج ابنتها ديمتريوس ملك سوريا فى أنطاكيا وحرضته على غزو مصر لكنه فشل فى تحقيق ذلك لتصدى يورجتيس الثانى له عند بلوزيون (٥٩).

حوالى عام ١٢٤ عاد الوئام بين كليوباترة الثانية ويورجيتيس الثانى مما أعاد الهدوء إلى داخل البلاد كما أعاد الكنوز التى كانت كليوباترة الثانية قد هربتها خارج مصر .

أسلفنا أن كليوباترة ثيا- ابنة كليوباتره الثانية – ملكة سوريا دبرت قتل ابنها الأكبر سلوقس الخامس لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها وأشركت معها فى الحكم أبنها الآخر أنطيوخوس الثامن جروبوس

(Grypos) الذى نجح بورجتيس الثانى فى تزويجه من ابنته كليوباترة تروفاينا (Tryphaena) – ابنة كليوباترة الثالثة[٦٠] فى ٢٨ يونيو عام ١١٦ توفى بورجتيس الثانى بعد أن ترك لزوجته كليوباترة الثالثة حرية اختيار من يشركها فى حكم مصر ، أما بالنسبة لقورينائية فقد أوصى بها لابنه غير الشرعى بطليموس أبيون[٦١].

كان أمام كليوباترة الثالثة أحد خيارين لمن يشركها فى حكم مصر إما إبنها الأكبر بطليموس التاسع (سوتير الثانى) أو ابنها الأصغر بطليموس العاشر (الإسكندر الأول) لكنها فضلت ابنها الأصغر على ابنها الأكبر، ربما لأنه كان أضعف من أن يحد سلطتها لكن الاسكندريون ارغموها على اسناد العرش لابنها الأكبر لأنه صاحب العرش الشرعى[٦٢]. والذى لقب باسم «فيلوميتور سوتير» وذهب أخوه الإسكندر إلى قبرص للإقامة فيها.

كان بطليموس التاسع متزوجا من أخته كليوباترة الرابعة وكانت شديدة المراس فخشيت أمه كليوباترة الثالثة أن تفقد سيطرتها على ابنها فارغمته على طلاقها رغم حبه لها وتزوج بأخته الصغرى كليوباترة الخامسة سيلينى (Selene) [٦٣].

كان هدف كليوباترة الثالثة من وراء ذلك إخضاع ابنها لإرادتها وتجنب نفسها متاعب تستسلم لاقتها أمها على يديها لكن كليوباترة الرابعة لم تستلم بل صممت على مواجهة أمها فذهبت إلى قبرص وتقابلت مع أخيها الإسكندر وفاتحته فى الزواج منها والتعاون لارتقاء العرش سويا[٦٤].

لكن كيد النساء لم يتوقف فقد نجحت كليوباترة الأم فى كسب ود ابنها الإسكندر بتعيينه حاكما لقبرص، فتوجهت كليوباترة الرابعة إلى سوريا لتعرض يدها وجيشها على أنطيوخوس التاسع كوزيكينوس (Cyzicenos) ابن كليوباترة ثيا - خالتها فى نفس الوقت - لكنها قتلت هناك عام ١١٢[٦٥].

ويبدو أن الأم (كليوباترة الثالثة) لم تزل غير راضية عن ابنها بطليموس التاسع ومازال قلبها يحن نحو ابنها الأصغر الإسكندر حاكم قبرص فقد أشاعت فى الإسكندرية عن طريق خصيانها أن الملك بطليموس التاسع أراد قتلها ونجحت فى ذلك إلى حد بعيد إذ التهبت مشاعر الإسكندرين حبا تجاهها وكرها تجاه الملك الذى فر هاربا تاركا زوجته وابنه عام ١٠٧[٦٦] فاستدعت كليوباترة الثالثة ابنها الإسكندر بطليموس العاشر وأشركته معها فى الحكم [٦٧].

وفى أكتوبر عام ١٠١ توفيت كليوباترة الثالثة وبوفاتها أصبح بطليموس العاشر ملك مصر اسما وفعلا واستمر يحكم حتى عام ٨٩ حيث ثار الإسكندريون عليه وطردوه بسبب ضياع قورينائية وذهب إلى لوكيا ومعه زوجته (برنيكى الثالثة) وابنته لكنه لقى حتفه فى معركة بحرية وبوفاته خلا الجو لأخيه الأكبر بطليموس التاسع الذى استدعاه الإسكندريون ليتولى عرش مصر وقبرص[٦٨].

ولما كان بطليموس التاسع قد بلغ الرابعة والخمسين من العمر تقريبا، فإنه وفاء بمقتضيات التقاليد التى كانت تحتم وجود زوجين على العرش، لم

يفكر بطليموس فى الزواج من جديد وإنما استدعى ابنته (برنيكى) وهى التى كانت زوجة بطليموس العاشر وأشركها معه فى الحكم وعرفا سويا باسم «الإلهين فيلادلفوى فيلوميتوروس سوتيرس».

وعندما توفى بطليموس التاسع آل عرش مصر إلى ابنته برنيكى الثالثة لعدم وجود أحد الأبناء من سلالته الشرعية.

وجدت روما الفرصة متاحة لها لمزيد من التدخل فى الشئون الداخلية لمصر فأرسلت الإسكندر الثانى بن بطليموس العاشر – الذى كان قد لجأ إلى روما من قبل – إلى مصر حيث نودى به ملكا وتزوج من برنيكى الثالثة (زوجة أبيه وابنة عمه) عام ٨٠ وعرف هذا الملك باسم بطليموس الحادى عشر.

لكن ما هى الدوافع التى جعلت برنيكى الثالثة توافق على هذا الزواج غير المتكافئ؟

إنه كما أسلفنا حب السلطة وشهوة الحكم التى تملكت النساء البطلميات فقد وافقت برنيكى على هذا الزواج لاعتقادها بأنه يمكنها السيطرة على الملك الصغير وتستطيع من خلاله أن تحقق ما تريد لكن لم يمكنها الملك الصغير من ذلك فسرعان ما ضاق بها وقتلها بعد تسعة عشر يوما من الزواج منها مما أثار غضب الإسكندريين عليه وقتلوه فى الجمنازيوم بعد حكم دام تسعة عشر يوما[٦٩].

تولى الحكم بعد ذلك بطليموس الثانى عشر الملقب بالزمار (Auletes) وزوجته كليوباترة تروفاينا Tryphaena وقد لقبا بلقب «الإلهين فيلوباتروس فيلادلفوى Theoi Philopartros Philadelphoi [٧٠].

ونتيجة تذمر الإسكندريين على الزمار بسبب ضياع قبرص طردوه خارج البلاد وأقاموا مكانه على العرش ابنته (برنيكى الرابعة)[٧١]. التى تزوجت من شخص يدعى (سلوقس) كان يدعى أنه من سلالة ملوك سوريا وأشركته معها على العرش[٧٢].

ولخشونة طباعه لم تطق برنيكى معاشرته إلا بضعة أيام لقى بعدها حتفه خنقا ثم تزوجت من (أرخيلاوس) Archelaos فيما بين ٧ مارس، ١٦ أبريل عام ٥٦ وتربع على العرش[٧٣]. لكن سرعان ما عاد الزمار إلى عرش مصر بمساعدة (جابنيوس) حاكم سوريا فى ربيع عام ٥٥، وأعدم ابنته برنيكى الرابعة وأنصارها وأشرك معه فى الحكم أكبر بناته وهى كليوباترة السابعة وابنه بطليموس الثالث عشر [٧٤].

توفى الزمار عام ٥١ تاركا خلفه ولدين هما بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر، وابنتين هما كليوباترة السابعة وأرسينوى ويحدثنا (ديون كاسيوس) بأن الزمار قد أوصى بأن يخلفه على عرش مصر أكبر ولديه (بطليموس الثالث عشر) على أن يتزوج أخته الكبرى كليوباترة السابعة[٧٥].

صار بطليموس الثالث عشر ألعوبة فى يد زوجته كليوباترة السابعة

لقوة شخصيتها وشدة بأسها وطموحها السياسى وحب السلطة الجارف الذي تملك عليها حتي إنها اتخذت من بعض الشخصيات الرومانية أداة لتنفيذ أغراضها، فنجحت بفضل جمالها وذكائها أن تقف مع بومبى فى صراعه ضد قيصر لعله ينتصر عليه تحقق أهدافها ولما هزم قيصر بومبى نجحت فى الاستيلاء على قلب قيصر وانجبت منه ابنها (قيصرون) وجعلته يتدخل شخصيا للتوثيق بينها وبين أخيها وزوجها بطليموس الثالث عشر.

وبعد حرب الإسكندرية وانتصار قيصر ومقتل بطليموس الثالث عشر غرقاً أصبح قيصر الإسكندرية فأقام بطليموس الرابع عشر مكان أخيه ليشارك كليوباترة السابعة الحكم (٧٦).

وبعد مقتل قيصر على يد الجمهوريين تبددت أحلام كليوباترة فعادت من روما فى أوائل شهر أبريل وأشركت معها ابنها فى الملك وسعت على أن تعترف به روما ، ولذلك بدأت تنسج شباكها حول أنطونيوس أحد أعضاء الحكومة الثلاثية الثانية المكونة من أكتافيوس وأنطونيوس وليبيدوس طمعا فى تحقيق أحلامها السياسية(٧٧) وبالفعل نجحت كليوباترة فى الاستيلاء على قلب أنطونيوس فوقع أسير هواها(٧٨) حتى أنجبت منه توأمين هما الإسكندر هليوس وكليوباترة سلينى(٧٩) وقد استثمرت كليوباترة علاقتها بأنطونيوس إلى أبعد حد ، فبمناسبة زواجها طلبت منه أن تكون هدية الزواج إعادة بناء إمبراطورية البطالمة فمنحها العديد من الممتلكات فى منطقة جوف سوريا ، وقبرص وفلسطين وفينيقيا ، ولم تكتف بذلك فبعد عودة أنطونيوس من غزوه أرمينيا عام ٣٤ واحتفالات النصر التى أقيمت

بالإسكندرية طلبت منه توزيع الهدايا والممتلكات على أبنائها منه [٨٠] ثم أوغرت صدره لمحاربة أوكتافيوس لتحقيق حلمها القديم وهو السيطرة على العالم الروماني ولكن نجح أوكتافيوس في تبديد أحلامها في معركة أكتيوم ٣١ حيث هزم أوكتافيوس أنطونيوس وواصل زحفه إلى مصر مما دفع أنطونيوس إلى الانتحار ثم انتحرت كليوباترة أيضاً بسم الكوبرا واحتلت روما مصر في أول أغسطس عام ٣٠ .

وهكذا يتضح لنا مدى الدور الذي لعبه الزواج السياسي على مسرح الأحداث في مصر الهللينستية منذ عام ٣٣٢ ق.م وحتى سقوط مصر في يد الرومان عام ٣٠ ق.م ذلك الدور الذي بدأ يأخذ طابعاً مثالياً في عهد الإسكندر بهدف تحقيق الوحدة والانسجام والمساواة ولكن على يد الملوك البطالمة بصفة عامة ونسائهم بصفة خاصة صار الزواج السياسي طريقاً وأسلوباً لتحقيق الأطماع الشخصية والمآرب السياسية فلا حظنا :-

١- أن حب السلطة وشهوة الحكم تغلب على أي أعتبارات إنسانية أخرى .

٢- أن الأطماع السياسية والأهداف الشخصية أعمت بصيرة الكثيرين وجعلتهم يضربون بالقيم والأخلاق والتقاليد عرض الحائط .

٣- أن الملكات البطلميات كانت لهن اليد الطولى في الشطر الثاني من العصر البطلمي واستغلوا فكرة الزواج السياسي إلى أبعد حد لتحقيق أطماعهن الشخصية ، وساعدهن على ذلك قوة شخصياتهن على حساب ضعف شخصية الملوك البطالمة .

٤- وسط كل هذا تاهت على المسرح السياسى عبارات الإسكندرية الرنانة حول التوافق والانسجام الفكرى والعاطفى والعنصرى أو ما أسماه هو بالوئام لأن الناس جميعا فى نظره أبناء لأب واحد مهما اختلفت عناصرهم وقومياتهم .

والله ولى التوفيق ،

د. هابيل فهمى عبد الملك
مدرس التاريخ اليونانى الرومانى
كلية الآداب - جامعة المنوفية
يناير ١٩٩٦.

(حواشي البحث)

(١) كل التواريخ الواردة في البحث قبل الميلاد إلا فيما ينص على غير ذلك.

(٢) باكتريا – Bactria إقليم يقع بين نهر جيحون وجبال هندكوش في شرق إيران القديمة ويتبع الآن جزء من أفغانستان وجزء آخر من تركستان الروسية. وعاصمته باكترا (Bactra) وهي بلخ في أفغانستان (غرب نهر جيحون). انظر : هـ. أيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، نقله الى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد على (١٩٦٨) ص ٤٣، حاشية (٣).

(3) Arrian, VII, 4-9.

(4) Plut. Alex. 70.2

(5) Bouché - Leclerq, Histoire des Lagides, Vol.I, Paris (1903), p. 8.

(٥) سيد أحمد على الناصري : الإغريق تاريخهم وحضارتهم (من عصر البرونز حتى إمبراطورية الإسكندر الأكبر)، القاهرة، (١٩٧٤)، ص ٤٢٥.

(6) CAH, VI, P. 461.

(7) Athen. XII, 576; CF. Bouché - Leclerq, op. cit. pp. 26-7; Bevan (E.R.), A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty , London (1927) PP. 52-3; Cary,Greek World from 323-146 B.C., (1951) pp. 2ff.

(8) Jouguet, L'Eg. Ptolemaique dans Histoire de la Nation Eg. 3 ed., Paris (1933), pp. 11-12.

(9) Cary, Op. Cit., P. 12.

(10) CAH, VI, PP. 466-8.

(11) Diod. XVIII, 38-39.

(١٢) إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة، الجزء الأول ، الطبعة السادسة، القاهرة، (١٩٨٤) ص ٦٩.

(13) OCD^2, S.V. Berenike.

(14) Diod. XX. 37.

(15) CAH, VI, PP. 502-3.

(16) Plut. Demetr. 31-2.

(١٧) استولى ديمتريوس على أيونيا من لوسيماخوس، وعلى شاطئ آسيا الصغرى من بلايستارخوس شقيق كاسندروس، ثم استولى على سماريا Samaria من بطليموس وربما جنوب سوريا أيضا لولا تدخل سلوقس حيث عقد صلحا بين ديمتريوس وبطليموس عام ٢٩٩/٢٩٨ انظر : Plut. Demetr. 31-2.

(18) Justin. XVII, 1.4; Appian, Syr. 64.

(20) Bouché - Leclerq, I pp. 144ff.

(21) Justin, XVII, 2, 5-6, cf. Pais I 16.2, X. 19.7, App. Syr. 62.

(22) Justin. XXV.

(23) Jouguet, op. cit. p. 45.

(24) Cary, op. cit., p. 84; Tarn, Hellenistic Civilisation, 3ed. (1952) p. 13.

(25) Theocr. XVII, 128.

(26) Athen. XIV, 621 a.

(27) Paus, 17.3.

(28) Justin XXVI, 3.2.

- عندما خطبت برنيكى لولى عهد مصر بطليموس الثالث (يورجتيس) توفى والدها ماجاس فتعاونت أمها (آباما) مع انطيوخوس الثانى فى تعطيل زواج ابنتها للاحتفاظ بعرش قورينايئه ثم تقربت إلى (جوناتاس) بن ديمتريوس عدو فيلادلفوس لتزوج أبنتها من ديمتريوس أخيه غير الشقيق، ومن المحتمل أن جوناتاس رحب بتلك الفكرة نكاية فى فيلادلفوس لكن ديمتريوس رفض مشروع الزواج هذا لأنه وقع فى غرام (آباما) نفسها مما دفع برنيكى إلى قتله وهو فى فراش أمها أنظر : Justin, XXVI. 3.

(29) Athen. V 209; cf. CAH. VII. p. 862.

(٣٠) يرى البعض أن لاوديكى كانت أخت انطيوخوس وليست ابنة عمه راجع:

Bouche - Leclerq. I. p. 211, n. 2.

(31) Cary, op. cit., p. 403.

(32) P. Cair Zen. 59251.

(33) Seneca, Quaetiones Naturales (=QN) III, 25; cf Mahaffy, the Empire of the ptolemaiec, London (1895) p. 171.

(34) Polyb. apud Athen. II, 45, b-c.

(35) OGIS, 56, 15 -16.

(36) CIG, 2905.

(37) Bevan, Op. Cit., PP. 338 ff.

(38) Bevan, Op. Cit., PP. 336; Jouget, Nat. Eg. p. 62.

(39) Polyb. XV, 25, 3-11.

(40) Polyb. XV, 25, 12-19.

(41) Liv, XXXXV, 13.4; CAH. VIII, pp. 135 ff.

(42) Joseph. Ant. Jud. XII, 154; App. Syr. 5.

(43) Diod. XXVIII, 14.

(44) CAH VIII, pp. 185 ff; Jouguet, op. cit. pp. 131-2.

(45) Wilcken, UPZ, IP. 180.

(46) Polyb. XXXI. 10.

(47). Polyb. XXXIX. 7; Diod. XXXI, 33.

(48) Diod. XXXIII, 20; Joseph., Ant Hud. XIII, 43-61.

(49) Athen. V, 211.

(50) Diod. XXXII, 9 c.

(51) Joseph., Ant. Jud XIII, 4.

(52) Joseph, XIII, 120.

(53) Justin, XXXVIII, 8.4; Bevan, op.cit. p. 307 n.1

(54) Diod. XXX, 13; cf. Bevan pp. 308-9.

(٥٥) كليوباترة الثالثة هى ابنة كليوباترة الثانية – التى انجبتها من أخيها وزوجها فيلوميتور، وقد أنجب يورجتيس الثانى من كليوباترة الثالثة أبناء من بينهم كليوباترة الملقبة بكليوباترة تروفاينا وكليوباترة (الرابعة) وكليوباترة سيليني هذا

عدا من أنجبهم من محظياته مثل (إيريني Eirene. (وبطليموس أبيون) الذى أقامه ملكا على قورينائية (ومكانها الآن بلدة الشحات فى برقة) راجع : الملحق القيم الذى أضافه عبد اللطيف أحمد على لكتاب هـ. أيدرس بل «مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربى» القاهرة (١٩٦٨) ص ٤-٢ حاشية (١٠).

(56) P. Dem. Berlin, 1138.

(57) P. Tebt. 72. 45. cf. Wilcken, Archiv, IV, pp. 224, 265.

(58) OGIS, 130, 144;

(59) Justin, XXXVIII, 9.1, XXXIX, 1.2 ff.

(60) App. Syr. 69.

(61) Justin, XXXIX, 5.2.

(62) Justin, XXXIX, 3.2.

(63) Justin, XXXIX, 3.2.

(64) Bouché - Leclerq II pp. 9-3.

(65) Justin, XXXIX, 3.3-12.

(66) Paus. 19.2; Justin. XXXIX, 4.

(67) CAH VIII, pp. 532-3; cf. Bevan, p. 329; Jouguet, Nat. Eg. Pp. 161-2; Bouche- Leclerq, op. cit., pp. 93-5.

(68) Bouche - Leclerq, II, pp. 109-111.

(69) OCD2 S.V. Ptolemy IX; XI.

(70) CAH, IX, p. 388.

(71) Dio Cassius, XXXIX, 13.

(72) SB, 6156 = W. Chrest. 70 (56 B.C.) = p. Gren f. II 38 (56 B.C.).

(74) BGU, 1002.

(75) Dio Cassius XIII, 35. 4.

(76) Dio Cassius, XIII, 34.

(77) CAH, X, 35.

(78) Plut. Anton. 25-27.

(79) Plut. Anton. 36; Dio Cassius, XIIX, 22.

(٨٠) يقول بلوتارخ حول مهرجان الهبات السكندرية : جلس أنطونيوس وكليوباترة على عرشين من الذهب وإلى جانب عرشيهما أقيمت أربعة عروش أخرى على مستوى منخفض لكل من أبناها بطليموس الخامس عشر قيصر (قيصرون) (١٣ سنة) ولابنائها الثلاثة من أنطونيوس وهم الاسكندر هيليوس (٦ سنوات) واخته التوأم كليوباترة (سيليني) ثم بطليموس فيلادلفوس ابن السنتين وأعلن أنطونيوس في هذا المحفل الاسكندر هليوس ملكا على أرمينيا وسيدا على ميديا وكل الأراضي شرق الفرات حتى بلاد الهند، وبطليموس فيلادلفوس ملكا على سوريا وسيد آسيا الصغرى من غرب الفرات وحتى الدردنيل، وكليوباترة سيليني على جزر كريت وقورينه في ليبيا أما بطليموس الخامس عشر قيصرون فلقب بملك الملوك انظر : Plut, Anton. 54, 2 -6

الأسواق التقليدية بمدينة الإسكندرية
دراسة فى الأنثروبولوجيا الاقتصادية

د . فاتن على عبد الرحمن

كلية البنات للآداب والعلوم والتربية – جامعة عين شمس

قسم الاجتماع

المحتويات :

مقدمة

أولاً : الإطار النظرى والمنهجى.

ثانياً : أسواق الإسكندرية التقليدية : لمحة تاريخية حول النشأة والتطور وأصل التسمية.

ثالثاً : الخصائص الإيكولوجية لأسواق الإسكندرية التقليدية.

رابعاً : السوق للعلاقات الاقتصادية الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعى

خامساً : السوق منسق اقتصادى

سادساً : أهم النتائج والاستخلاصات قائمة بأهم المراجع

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة الأسواق التقليدية بمدينة الإسكندرية، وتمثلها مجموعة الأسواق القديمة الواقعة بشياختى الترك والمغاربة بقلب المركز التجارى بحى المنشية بمدينة الإسكندرية.

وهى تضم سوق الترك، وسوق المغاربة (زنقة الستات وسوق الخيط حالياً)، سوق العقادين والملابس العربية والأفريقية وسوق الدقاقين والخراطين، والجواهرجية، والدخاخنية.

وتتسم هذه الأسواق بخصوصية أيكولوجية مميزة، حيث تحتل مربعاً أيكولوجياً، مقسماً فى خطوط طولية وعرضية شبه متوازية إلى أسواق فرعية محدودة المساحة.

وهى أسواق متصلة اتصالاً مباشراً بلا فواصل مكانية، فلا يكاد سوق أن ينتهى حتى يبدأ الآخر، ويصل هذا الترابط إلى الحد الذى يجعل من بداية كل سوق ونهاية آخر سوقاً مختلطة، تمتزج فيه المحال والبضائع والباعة من كلا السوقين. وقد هيأت تلك الخصوصية الإيكولوجية الفرصة لتناول هذه الأسواق وفقاً لما يتطلبه الأنثروبولوجى من أساليب وإجراءات منهجية، أهمها المعايشة والملاحظة والمقابلات المتعمقة والرجوع إلى الإخباريين.

ويرجع الاهتمام بدراسة هذه الأسواق إلى عدة اعتبارات يأتى فى مقدمتها :

– تغيير الطابع التقليدى المميز لبعض هذه الأسواق، حيث كانت أغلبها أسواقاً إنتاجية، تعكس جانباً من التراث الحرفى المميز لمدينة الإسكندرية فى مجال الثقافة المادية وفنون الإنتاج الشعبى، علاوة على وظيفتها التجارية، ثم تقلص بعضها الآن أو يكاد إلى مجرد أسواق تجارية، تحت وطأة التغييرات الاقتصادية الهائلة التى شهدتها مدينة الإسكندرية بشكل خاص، والمجتمع المصرى بشكل عام، خلال المراحل المختلفة لتطوره. فقد أصبحت بعض هذه الأسواق تعتمد على المصانع الحديثة فى الحصول على بعض السلع والبضائع التى اختصت بإنتاجها والإتجار فيها، فضلاً عن البضائع المستوردة التى كانت ولا تزال تربط هذه الأسواق البسيطة فى تكوينها والمحدودة فى مساحتها بالأسواق الخارجية، والمنتجات العالمية، وقد أدى ذلك بدوره إلى التراجع النسبى فى بعض الحرف والصناعات التقليدية الصغيرة والأصلية التى اختصت بها بعض هذه الأسواق فى مراحلها المبكرة. هذا بالإضافة إلى تغير الطابع التقليدى لبعض الأسواق التى مازالت محتفظة بوظيفتها الإنتاجية، سواء على مستوى نوعية البضائع المنتجة، أو على مستوى التكنولوجيا المستخدمة فى عمليات الإنتاج حيث طرأت عليها تغيرات ملحوظة.

– تعكس هذه الأسواق بعض ملامح تطور التاريخ الاجتماعى الاقتصادى لمدينة الإسكندرية، وكيف كانت هذه المدينة عبر مراحل تاريخية مختلفة مركزاً اقتصادياً وحرفياً هاماً، يجذب إليه التجار والحرفيين من كل صوب وحدب، من بلدان عربية وغير عربية، حتى إن بعض هذه الأسواق كان

ومازال يحمل مسميات لجنسيات غير مصرية، كسوق المغاربة أو غير عربية كسوق الترك. ولعل هذا مؤشراً على وجود أنماط من الاتصال بين هذه الثقافات وثقافة المجتمع السكندرى منذ مراحل تاريخية مبكرة. ويتأكد هذا المعنى بوضح من خلال قيام بعض هذه الأسواق واستمرارها حتى الآن على إنتاج بضائع لا تخص المستهلك المصرى إلا بقدر ضئيل، بينما تعتمد فى تسويق أغلب منتجاتها على الأسواق الخارجية، العربية والأفريقية بشكل خاص، وهذا ما نلمسه بوضوح من خلال سوق العقادين (الملابس العربية والأفريقية).

- من هذه الاعتبارات أيضاً أن الأسواق كانت ولا تزال تعكس بعض السمات الثقافية التقليدية المميزة للأحياء التقليدية بمدينة الإسكندرية خاصة فى مجال العلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعى. والتى تنعكس بعض صورها من خلال العلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل داخل السوق. تلك التى تقوم بين العاملين بهذه الأسواق بعضهم ببعض، أو بينهم وبين رواد هذه الأسواق من مستهلكين وتجار وغيرهم.

رغم الاعتبارات السابقة التى تجعل من هذه الأسواق موضوعاً يستحق الدراسة والبحث، فإن هذا الموضوع لم ينل حقه فى ميدان الدراسات الأنثروبولوجية. وهذا ما شكل دافعاً أساسياً لدراستها، خاصة وإنها عرضة للتغير المستمر الذى تبدو أبرز ملامحه فى اندثار بعض هذه الأسواق اندثاراً كاملاً، وانحسار بعضهما انحساراً ملحوظاً فى الآونة الأخيرة، تحت تأثير عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية بعضها ذات بعد تاريخى والبعض الآخر حديث.

وقد جاءت معالجتنا لفكرة الدراسة في إطار خمسة محاور تشكل في مجموعها منهج البحث وقضاياه الأساسية، وهي علي النحو التالي :

أولاً : الإطار النظرى والمنهجى.

ثانياً : أسواق الإسكندرية التقليدية : لمحة تاريخية عن النشأة والتطور وأصل التسمية.

ثالثاً : الخصائص الإيكولوجية لأسواق الإسكندرية التقليدية.

رابعاً : السوق كنسق للعلاقات الاقتصادية الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعى.

خامساً : السوق كنسق اقتصادى .

أولاً : الإطار النظرى والمنهجى :

(١) الإطار النظرى :

انطلقت الدراسة بداية من إطار وظيفى بإعتباره من أكثر الأطر النظرية ملائمة لتناول السوق كنسق كلى، فى محاولة للوقوف على بنائه ووظائفه والعلاقات القائمة بين الوحدات المكونة لهذا البناء. وقد أسفرت محاولة استقراء الواقع عن بعض النتائج التى لفتت الانتباه إلى أهمية الاستعانة ببعض مفاهيم وقضايا الاتجاة الوظيفى، وقد ظهرت الأهمية بصفة أساسية عند تحليل نظم الإنتاج التى تمثل أحد النظم الأساسية للسوق. من هذا المنطلق جاءت الاستعانة بالتحليل الماركسى، وخاصة وأن هناك إتجاها لاستخدام هذا النموذج في بعض الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة التى تهتم بمعالجة قضايا مشابهة (١).

بعد أن ظل الاتجاه الوظيفى هو الاتجاه المسيطر على الدراسات الأنثروبولوجية الكلاسيكية خلال فترة طويلة من الزمن، وهكذا تحدد الإطار النظرى للبحث فى إطار تكاملى يجمع ما بين التحليل الوظيفى والتحليل الماركسى.

---

(١) انظر

Maurice Bloch, Marxist analysis and Social Anthropology, A.S.A Studies, General editor : Edwin Ardener, Tavistock publications, London and New York, 1984.

- Joel Kahn, Economic Scale and the Cycle of Petty Commodity Production in West Sumatra, in : Maurice Godelier, Marxistanalsis and Social anthroppIgy, Ibid, p.p. 137-158.

-Maurice Godelier, Modes of production, Kinship, and Demographic Structures, translated by Kate Young and Felicity Edho-lm, in : Mourice Bloch, Ibid, P.P. 3-27.

(٢) منهج البحث :

نظراً لما تتميز به الأسواق موضوع الدراسة من واقع مستمر قابل للمعايشة والملاحظة، علاوة على أصالتها التاريخية، فقد فرضت طبيعة الموضوع ضرورة المزاوجة بين المنهج الأنثروبولوجي، الذى يسمح بملاحظة ومعايشة هذا الواقع بما يمكن من وصفه وتحليله.

إلى جانب المنهج التاريخى الذى يساعد على رصد البعد التاريخى للظاهرة انطلاقاً من أن الدراسات التى تخلو من المضمون التاريخى – على نحو ما ذهب محمد الجوهرى – تميل إلى أن تكون دراسات استاتيكية أو محدودة النطاق – تجرى فى وسط اجتماعى محدود، ولا تتاح فيها الفرصة لفهم التفاعل بين البناءات الاجتماعية الصغرى والأسباب العامة للظاهرة، وفى تلك الحالة يصبح من العسير فهم الظاهرة فى وضعها الاستاتيكى دون الرجوع باستمرار إلى المادة التاريخية (محمد الجوهرى وآخرون ، لسنة ١٩٧٩).

فضلاً عما تقدم استفادت الباحثة بطريقة دراسة الحالة وطريقة دراسة المجتمع المحلى، حتى يتسنى لنا تغطية موضوع الدراسة من كافة جوانبه. فيما يلى نوضح الكيفية التى تم من خلالها توظيف هذه المناهج والطرق المنهجية.

فى إطار الاستفادة من المنهج الأنثروبولوجى : استخدمت الملاحظة كأداة أساسية فى دراسة عدة جوانب أهمها : الخصائص الأيكولوجية للسوق، وما يحويه من أسواق فرعية، والتوزيع الأيكولوجى لما يضمه من

منشآت كالورش والمتاجر والمساكن التى تعلو الورش وغير ذلك من المنشآت التى تقوم على خدمة هذه الأسواق، وتحقق لها قدراً من الاكتفاء الذاتى، وتطبعها بطابع المجتمع المحلى بما له من خصائص أيكولوجية واجتماعية. وكذلك شكلت الملاحظة أداة أساسية فى دراسة أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية داخل السوق. أفادت الملاحظة أيضاً في التعرف على التنوع الثقافى والطبقى لرواد السوق. كما مكنت من دراسة صور التكامل بين الورش والمتاجر وأساليب التبادل والمناداة والمساومة وأساليب جذب المستهلك، ونوعية السلع والبضائع ومستوياتها وطرق إنتاجها وعرضها ... إلخ .

كما استخدمت المقابلات المتعمقة بأنواعها الفردية والجماعية فى دراسة أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية، والعرف الذى يحكم العلاقات داخل السوق، وما طرأ على تلك الجوانب من تغيرات، وقد أجريت المقابلات مع الإخباريين الرئيسيين من العاملين بورش ومتاجر السوق، كما أجرى بعضها مع بعض رواد السوق من مستهلكين وتجار ووسطاء التجارة، والذين يحصلون على البضائع جملة من هذه الأسواق. كما اقتضت بعض البيانات إجراء مقابلات مع بعض موظفى الأجهزة المحلية والعاملين بإدارة التخطيط والمتابعة بالحى الذى تقع فى نطاقه هذه الأسواق.

وقد روعى فى اختيار الإخباريين الرئيسيين من العاملين بالسوق توافر عدة شروط أهمها : الانتماء لمدينة الإسكندرية، والعمل بالسوق لفترة طويلة، كما روعى تنوعهم عمرياً بين كبار السن والشباب والصبية، حتى يمكن التعرف علي الجوانب التاريخية والمعاصرة للظاهرة، ورصد ملامح التغير

فيها، كذلك روعى تنوعهم وفقاً لتنوع الأسواق موضوع الدراسة، حيث شمل الاختيار إخباريين من كافة الأسواق الفرعية التى غطتها الدراسة الميدانية. وقد حرصت الباحثة علي إجراء المقابلات مع الإخباريين الرئيسيين من العاملين بالسوق أثناء ساعات الراحة من العمل، وفى وسط النهار، حيث تنخفض كثافة رواد السوق.

وفي أيام العطلات حيث تفضل بعضهم بإتاحة فرص المقابلات المطولة، التى إمتدت ساعات متصلة، إذ يحرص أغلب أصحاب الورش والمتاجر على التواجد بالسوق خلال أيام العطلات، وبينما يضطلع الصبية والشباب بترتيب الورش والمتاجر وإعدادها لأسبوع جديد يقبع الكبار من التجار والحرفيين أمام مداخل الورش والمتاجر[1] . وقد استغلت هذه الأوقات لاجراء المقابلات المتعمقة التى كانت تتم بناء على مواعيد تحدد معهم مسبقاً. كذلك هيأت فترات الركود ببعض هذه الأسواق الفرصة لامتداد المقابلات لساعات متصلة، وأشير فى هذا الشأن الى تعليق أحد الإخباريين من سوق العقادين (الملابس العربية والأفريقية) قال:

«لو جيتى فى أيام غير دى مكنتيش تلقى حد يرد عليك»

وأشار فى هذا الشأن إلى تأثير الحظر المفروض على ليبيا على حركة إنتاج وتجارة الملابس العربية والأفريقية، إذ يشكل السوق الليبى مصدراً

(١) لاحظت الباحثة أن جانباً من الوقت الذى يقضيه العاملون بالسوق فى الأيام العطلات داخل الورش والمتاجر يستغل في مقابلة بعض الأصدقاء وتتبادل فيه الأحاديث والمناقشات حول مختلف الموضوعات، ومنهم من يقوم برعاية الطيور والحيوانات المنزلية التى يقومون بتربيتها في الوحدات السكنية التى تعلو الورش والمتاجر والتى هجرها بعضهم لسوء حالة المبنى.

لتصريف جزء كبير من منتجات هذا السوق.

أما المنهج التاريخى : فقد أمكن من خلاله تتبع نشأة وتطور الأسواق موضوع الدراسة، والوقوف على أهم محددات وملامح التغير التى طرأت عليها عبر مراحل تاريخية مختلفة.

وقد استعنا فى هذا الصدد بالمراجع التاريخية والخرائط القديمة التى ألقت الضوء على مدى التغير الذى لحق بهذه الأسواق، خاصة فيما يتعلق بإندثار بعضها أو انحساره أو اتساع بعضها على حساب الأخرى. كذلك شكل الإخباريون من كبار السن مصدراً أساسياً فى الحصول على البيانات التاريخية التى لا تتوافر بشأنها مصادر ملونة.

وجاء استخدام طريقة دراسة الحالة مكملاً للمنهج التاريخى، باعتبارها من أكثر الأساليب المنهجية قدرة على دراسة ديناميات التغير (محمد الجوهرى وعبد الله الخريجى، ١٩٩٠، ص ١٦٧). وقد أجريت دراسة الحالة على مستويين، الأول : واعتبرت فيه مجموعة الأسواق مجتمعة ووحدة كلية متكاملة للدراسة والتحليل، وذلك من حيث خصائصها الأيكولوجية والاقتصادية والاجتماعية. والثانى : وفيه شكل كل سوق على حدة وحدة أساسية لدراسة الحالة من حيث خصائصه وما طرأ عليه من تغير.

وفى إطار تناول السوق كمجتمع محلى : استعنا بطريقة دراسة المجتمع المحلى، وقد تم التناول وفقاً لثلاث من الطرق المنهجية الست التى تتضمنها هذه الطريقة وهى :

مفهوم الحيز، والتفاعل الفردى والاجتماعى، علاوة على تناول السوق من منظور الأنساق الاجتماعية[1].

وإنطلاقاً من مفهوم الحيز تمت الدراسة الأيكولوجية للسوق التى شكلت الملاحظة والخرائط أساليب أساسية فيها. ومن مفهوم التفاعل الفردى والاجتماعى تمت دراسة أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية داخل السوق، أما مفهوم الأنساق الاجتماعية فقد تم فى ضوئه تناول السوق كنسق كلى مكون من عدة وحدات مترابطة بينهما علاقات اعتماد وتساند وظيفى. وقد جاء استخدام هذه المفاهيم فى مجموعها ترجمة لمفاهيم وقضايا الاتجاه الوظيفى.

أما عن الأداة المستخدمة فى جمع البيانات فكانت عبارة عن دليل مفتوح، استخدم كمرشد وموجه لعملية جمع البيانات. وقد اشتمل الدليل على خمسة محاور أساسية، تضمنت محوراً خاصاً بالدراسة التاريخية، من حيث النشأة والتطور وأصل التسمية، وثالثاً لدراسة السوق كنسق اقتصادى، ورابعاً للسوق كنسق للعلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعى، أما المحور الخامس والأخير فقد اختص بدراسة محددات وملامح التغير. وقد اندرج تحت كل محور من هذه المحاور الخمسة مجموعة

(١) تتضمن طريقة المجتمع المحلى ست طرق منهجية حصرها رولاند وورن Warren Roland فى مؤلفه : The Community in America وهى تتضمن علاوة على الطرق الثلاث المشار إليها ما يلى : الخلفية الاجتماعية للأفراد، الأنماط الثقافية، توزيع القوة.
انظر : Roland Warren, the Community in Amerca, Rand Mcnally, Chicago وللمزيد من حول هذه الطرق أنظر : - محمد الجوهرى وعبد الله الخريجى : مرجع سابق، صص٢٠٣ - ٢٢٣ .

من المحاور الفرعية، التى اندرج تحت كل منها عدد من الأسئلة المفتوحة، حاولنا من خلالها تغطية الجوانب المختلفة للظاهرة موضوع الدراسة.

وقد أجريت الدراسة الحقلية خلال فترة زمنية متصلة استغرقت صيف ١٩٩٥.

ثانيا : أسواق الإسكندرية : لمحة تاريخية حول النشأة والتطور وأصل التسمية :

حتى يمكننا تتبع نشأة الأسواق موضوع الدراسة كان لابد من تقديم لمحة موجزة عن التطور التاريخى لأسواق الإسكندرية وبعض معالمها الاقتصادية ذات الصلة بموضوع الدراسة. وجدير بالذكر أن أول إشارة صريحة – أمكنا التوصل إليها – حول أسواق الإسكندرية قد وردت فيما كتب عن المدينة فى العصر الإسلامى، حيث جاء أن الإسكندرية في هذا العصر عرفت نوعاً من المنشآت الاقتصادية يدل وصفها على أنها كانت أسواقاً. وقد عرفت هذه المنشآت بالفنادق من الكلمة اليونانية Pandokheim. كما جاءت ترجمتها فى بعض المراجع بمعنى وكالات، وكانت تضم تجار الممالك والدول الأوروبية المختلفة، وكان يخصص لتجار كل دولة فندقاً أو أكثر(١). وقد جاء في وصف هذه الأسواق – الفنادق – أنها مبانى مكونة من عدة طوابق، كان التجار يسكنون الطوابق العليا، أما الطابق الأسفل فكان يضم الحوانيت، التى تعرض فيها البضائع، وتفتح هذه الحوانيت على ميناء

(١) ذكر هايد أن تجار البندقية كان لهم بالإسكندرية فندقان، مما يدل على اتساع نشاطهم التجارى بها خلال تلك الفترة. (جمال الدين الشيال)، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، ١٩٦٧، ص ٨٧ .

تفرغ به البضائع وتخزن، وكان يلحق بكل فندق عادة حمامات خاصة وفرن ودار للعبادة لتوفير الراحة للتجار (جمال الدين الشيال، ١٩٦٧م، ص٨٦ ، ٨٧). ومن المحتمل أن وجود سوق تحمل اسم المغاربة وأخر يحمل اسم الترك ليمثل استمراراً لخصائص هذا النوع من المنشآت الذى عرفته الإسكندرية فى العصر الإسلامى.

وجدير بالذكر أن المراجع التاريخية لم تشر صراحة إلى مكان هذه الأسواق أو الفنادق كما سميت. لكن جمال الدين الشيال يرجح أنها كانت تقوم بالقرب من باب البحر، الذى يطل على الميناء الشرقى، أى حيث يكون حى المنشية وشارع الميدان حالياً. (المرجع السابق، ص٨٧). وهذا يعنى أن هذه الأسواق قد شغلت مواقع قريبة من الأسواق موضوع الدراسة الراهنة، وربما نفس مواقعها.

ورغم ما كشفت عنه المراجع التاريخية من اضمحلال وتقلص مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى (محمد عبد الحميد، ب ت، ص١٨) إلا أن هناك إشارات إلى ازدهار الحركة التجارية بالإسكندرية خلال عصر الدولة الايوبية، إذ أسبغ صلاح الدين على الإسكندرية عناية خاصة، كان لها أثر بالغ فى تقدم المدينة ورفاهية أهلها ونشاط تجارتها الداخلية والخارجية (جمال الشيال، ١٩٦٧، ص٨٤). ومما يشير إلى هذا الازدهار ذلك الثبت الدقيق المفصل الذى أحصى فيه الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى الممالك والأقطار الأجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية خلال تلك المرحلة. ومن هذا الثبت نستدل أن تجارة الإسكندرية كانت تتدفق إليها من

كل بلدان أوربا، وبلدان الشرق الإسلامية وغير الإسلامية [1]. وكانت بلاد المغرب وتركيا ضمن هذه البلدان، ويبدو أن التركز التركى والمغربى بأسواق الإسكندرية خلال تلك الفترة كان واضحاً إلى الحد الذى جعل بين أسواقها أسواقاً تنسب إلى هذه الجنسيات. وهذا استخلاص تؤكده المراجع التاريخية والخرائط القديمة لمدينة الإسكندرية، حيث تكشف هذه المصادر عن وجود منطقة كاملة بالإسكندرية عرفت خلال تلك الفترة «بالمدينة التركية»، التى كانت تشكل النطاق السكنى لأهالى الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وحتى أوائل عهد «محمد على». وقد شغلت هذه المدينة المنطقة الواقعة بين الميناءين، وكانت تضم عدداً كبيراً من الأخطاط (الأحياء)، من بينهما خط المغاربة (حارة المغاربة) (E.M.Foster,p.p.72-77 عن: محمد عبد الحميد، ص ص ٥-٦). أما المغاربة فقد نسبت إليهم (حارة المغاربة) وهى المنطقة التى شكلت الحدود القبلية للمدينة إبان فترة الحكم العثمانى لمصر، وكانت تشغل الموقع المعروف حالياً بميدان المنشية (جمال الدين الشيال، ١٩٤٩، ص١٦٩)، انظر الخريطة رقم [1]، كما تؤكد المراجع التاريخية أن تركز المغاربة وتغلغلهم فى الأنشطة التجارية بالإسكندرية قديم، فقد أشارت المراجع والنصوص التاريخية إلى ذلك فى مواضع متعددة حيث ذكر أن الصلة بين الإسكندرية والمغرب قديمة، ووثيقة فقد كانت الإسكندرية أول مدينة ينزل بها الحجاج المغاربة، فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة لأداء

---

(١) من بلدان أوروبا نشير المصادر إلى : البندقية، صقلية، رومانيا، روسيا، الدانمرك، النرويج، هولندا، إنجلترا، ويلز، فرنسا، وجنوه وغيرها ومن بلدان الشرق : بلاد المغرب، وجزيرة العرب، والهند، والحبشة واليمن، والعراق، والشام، وتركيا .... (بنيامين التطيلى الأندلسى، ترجمة عزرا حداد، ١٩٤٥).

فريضة الحج، لذلك أسماها الجغرافيون «باب المغرب» (جمال الشيال، ١٩٦٧، ص٨٢). وربما لعب هذا الموقع دوراً فى جذب تجار وتجارة المغاربة، وتركزهم بالإسكندرية منذ زمن بعيد. كما نستدل على تلك الكثافة من خلال ما ذكر حول موقف التجار المغاربة حين ازداد بهم ظلم جامعى المكوس، إذ جاء أن التجار المغاربة حين ازداد ظلم القباض (جامعى المكوس) صاروا إلى الحاكم يشكون إليه، حتى أصدر أمراً بإبطال ما كان يؤخذ منهم من مكوس جديدة (المرجع السابق،ص١٤٩). ولعل فى هذا ما يشير إلى زيادة نسبتهم وتركزهم بالإسكندرية. وإلى هذا التركز يمكننا أن نستند فى تفسير مسميات هذه الأسواق، وهذا ما أيدته آراء الإخباريين، كما يمكن أن نفسر هذه التسمية بالاستناد إلى مسمى النطاق الجغرافى الأكبر، الذى وقعت هذه الأسواق فى إطاره.

أشارت المراجع أيضاً إلى وجود معلمين اقتصاديين هامين يكشفان عن مكانة الإسكندرية التجارية والصناعية فى العصر الإسلامى، وهو مصطلح أطلق على مصانع النسيج. ومما يذكر أنه كان بالإسكندرية دور طراز خاصة تنسج ملابس السلطان وحريمه والخلع التى يخلعها رجال الدولة فى المناسبات الخاصة، ودور طراز عامة تنسج بها الأقمشة الشعبية. كما كان فى نهاية الطريق المؤدى إلى البحر ساحة يباشر فيها القصارون تقصير الثياب، وهى مرحلة من مراحل صناعة النسيج فى تلك العصور[١] ويذكر النويرى أن السلطان الأشرف شعبان – أحد سلاطين المماليك – قد زار

(١) كان بالإسكندرية أيضاً خلال نفس الفترة دار أن لصناعة السفن ودار لضرب النقود انظر جمال الدين الشيال، مرجع سابق، ص١٤٦.

الطراز بالإسكندرية، وقال فيها ما يدل على إبداع صانعيها فى صناعة صنوف الأقمشة وتفصيلها وتطريزها، فكتب النويرى يقول :

«وأتى مواضع أنوالها واستعمالاتها، فرأى كل صانع ينسج على منواله (نوله) من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان، المختلفة الألوان، وكيف تصنع الطيور المنسوجة، والدالات والشادرونات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر» (المرجع السابق، ص١٤٤).

ولعل وجود سوق للعقادين مازال صانعوه يبدعون فى تفصيل وتطريز الأزياء العربية والأفريقية بمجتمع البحث حتى الآن ليعكس امتداداً لما اشتهر به صانعو الإسكندرية فى هذا النوع من المنتجات قديماً.

ومما يذكر من معالم الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ويكشف عن بعض أنواع التجارة التى راجت بها فى هذا العصر، وجود باب سمى فى العصرين الأيوبى والمملوكى بباب (البهار) وهو المعروف (بباب سدرة)، وكان يصل إليه بهار الشرق الهند يأتى إلى الإسكندرية عبر هذا الباب[1]. ولعل وجود شوق للدقاقين(العطارين) ضمن أسواق الإسكندرية التقليدية موضوع الدراسة الراهنة ليمثل امتداداً لهذا النوع من التجارة الذى له فى الإسكندرية تاريخ قديم.

(١) كان بهار الهند والشرق القادم من القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم خليج الإسكندرية، حيث تفرغه خارج أسوار الإسكندرية عند هذا الباب، وفى أوقات تعطل الملاحة فى الخليج، كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال عبر الطريق البرى وتدخل من باب البهار بدلاً من باب رشيد. جمال الدين الشيال، الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى، من كتاب الإسكندرية، الفرقة التجارية، الإسكندرية ١٩٤٩ صص٩٦ – ١٠٢ .

وفى العصر الحديث جاءت الإشارة مباشرة إلى الأسواق موضوع الدراسة فيما كتب عن الإسكندرية فى عصر إسماعيل، حيث ذكر أن بالمنشية أسواقاً نوعية، تباع فيها البضائع من المفروشات والحلى والجواهر وغيرها. كما ذكر أن أكثر بضائع هذه الأسواق يأتى إليها من الخارج، وقد تمثل أهمها فى المنسوجات بأنواعها والأجواخ والشرائط المذهبة والمفضضة والقلنسوات والطرابيش والإبر. كما راجت بها تجارة العطارة والخردوات والروائح العطرية ومستحضرات التجميل (على مبارك، ١٣٠٥هـ، جـ٧، ص٧٢ ، ٧٣). وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه النوعيات من البضائع مازالت تشكل أكثر الأنواع رواجاً بهذه الأسواق حتى الآن، خاصة بسوق المغاربة.

وقد أشارت المراجع التاريخية إلى تركز عدد كبير من الفرنسيين فى أعمال التجارة بالجملة والتجزئة داخل هذه الأسواق، ومن هؤلاء على سبيل المثال الخواجة «دوره اليوطن»، والخواجة «شيرونى»، وجاكو روميل. بينما تركزت تجارة الحلى والمجوهرات فى أيدى اليهود والشوام، ومنهم الخواجة «إلياهو أركش» اليهودى المغربى، و«رحمين نسيم» من طرابلس، و«شميل ديب شامى» من طرابلس الغرب. (إبراهيم العدل المرسى، ١٩٤٤، ص٥٨).

كما عملت نسبة كبيرة من اليهود بسوق الصيارف (الصرفية) أحد الأسواق التى شملتها أسواق الإسكندرية قديماً، من هؤلاء على سبيل المثال: «حليم باروخ» الصراف اليهودى السكندرى، و«بنيامين شباه» يهودى من مكناس المغرب، و«شباى داوى» يهودى تركى (على مبارك، ١٣٠٥هـ، جـ٧،

ص٧٢ عن إبراهيم العدل المرسى، ص ٦٧).

تشير آراء الإخباريين أيضاً إلى سيطرة الأتراك من بعد المماليك على سوق العقادين وصناعة الملابس العربية وأسواق الدخاختية والنقلية علاوة على أسواق الشيش والسبح والطرابيش بسوق الترك. أما الأسواق العاملة فى الحرف الإنتاجية الأخرى، خاصة الخراطين، فيبدو أنها كانت من نصيب نسبة كبيرة من سكان مدينة الإسكندرية من المصريين، حيث تشير آراء الإخباريين إلى تناقص نسبة غير المصريين فى هذه الأسواق بشكل خاص.

وقد ظلت هذه الأسواق تشهد مراحل تتراوح ما بين الازدهار والاضمحلال، إلى أن طرأت عليها تغيرات شاملة بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث بدأ تحول ملاكها تدريجياً من جنسيات أجنبية إلى المصريين، اتساقاً مع الظروف التاريخية للمجتمع المصرى بشكل عام.

ثم شهد بعض هذه الأسواق اندثاراً نتيجة حركة العمران وتخطيط المدينة، إذ أدخل بعضها ضمن عمليات تنظيم الميادين الكبرى المحيطة بمنطقة الأسواق، كما امتد لبعضها خطط التنظيم [١]. وقد ظلت هذه الأسواق تمثل المركز الرئيسى للتسويق لأكثر أبناء الإسكندرية الذين يأتون إليها من أنحاء متفرقة، إلى أن شهدت المدينة مزيداً من التوسع والعمران، فانشأت بها الأسواق الفرعية فى الأحياء المختلفة من مدينة الإسكندرية، واتسع نطاق المركز التجارى متجها نحو الشرق، وكان لذلك أثره فى بداية

(١) تعرض سوق الخيط فى عام ١٩٥٦ إلى إعادة البناء والتنظيم.

تحول بعض رواد هذه الأسواق عنها. إلا أنها أخذت تطرح ميكانيزمات جديدة تمنحها القدرة على الاستمرار ومقاومة عوامل الاندثار، من بينها : محاولة التجديد النسبى فى التكنولوچيا المستخدمة فى الإنتاج بالأسواق ذات الطابع الإنتاجى من بينها : محاولة التجديد النسبى فى التكنولوچيا المستخدمة فى الإنتاج بالأسواق ذات الطابع الإنتاجى، والتجديد فى بعض أنواع البضائع والمعروضات بما يطابق ذوق العصر، ومحاولة التكامل مع المصانع الحديثة بعرض بعض منتجاتها بالسوق، وخفض الأسعار مقارنة بباقى أسواق الإسكندرية. وقد دعم من هذا الاستمرار موقعها المتميز بالمركز التجارى للإسكندرية، علاوة على ارتباطها بوجدان وقلوب محبى التراث، والذين ينظرون إليها باعتبارها جزء من تراث الإسكندرية. وتلك كلها ميكانيزمات تمنحها الاستمرار، رغم تردى ظروفها الفيزيقية وضيق حاراتها وشوارعها وقدم أكثر مبانيها التى باتت تهددها بالاندثار عاجلاً أم آجلاً.

وتكشف مسميات مجموعة الأسواق موضوع الدراسة عن إمكانية تصنيفها فى فئتين، الأولى : وهى مسميات تنسب إلى جنسية من تركزوا بهذه الأسواق، منذ مراحل تاريخية مبكرة، ويندرج تحت هذه الفئة مسميات كل من سوق الترك وسوق المغاربة كما أوضحنا.

أما الفئة الثانية من المسميات، فهى كما أشرنا تنسب إلى الحرف السائدة بهذه الأسواق، كالعقادين والخراطين والدخاخنية ... إلخ[1]. وهذا

(١) تبدو مسميات هذه الفئة من الأسواق واضحة بإستثناء سوق الدقاقين وهو الاسم الشائع عن سوق العطارة (العطارين)، وهذه التسمية مشتقة من طبيعة النشاط المارس داخل هذا السوق، حيث تستخدم فيه المدقات اليدوية (الهون البلدى) فى دق الحبوب والموفات والحلبة وغيرها، لذلك سمى بالدقاقين.

المنهج فى التسمية يتطابق مع ما هو شائع فى تسمية كثير من البلدان والمناطق المصرية، فى الريف والحضر على السواء. فقد أشارت دراسات التحضر إلى شيوع نفس المنهج فى تسمية الأحياء الشعبية القديمة بمدينة القاهرة، كالقزازين والسروجية والصناديقية وغيرها (السيد الحسينى، ١٩٩١ ، ص ٣١٦) كما شاع اتباع نفس المنهج فى تسمية الكثير من القرى المصرية كقرية البلاص والغنايم وغيرها (على بركات، ١٩٨٢ ، صص٥٢ – ٥٣).

وهناك سوق آخر يقع ضمن الأسواق الفرعية لسوق المغربة، تجدر الإشارة إلى الرواية الطريفة التى ذكرها الإخباريون من كبار السن حول تسميته، وهو السوق، حيث ينسب إلى ما يتميز به من خصائص كضيق المساحة (زنقة)، علاوة على أن أغلب روّاده من النساء، إلا أن هذه التسمية قد أرجعت إلى اسم يهودى مغربى كان يدعى «ليستات»، وكان من أشهر تجار السوق حتى نسبت السوق إليه (زنقه ليستات)، ثم حرفت التسمية فيما بعد إلى «زنقة الستات».

وجدير بالذكر أن هاتين الفئتين من مسميات الأسواق تلقيان الضوء على خاصيتين أساسيتين من الخصائص الاقتصادية الاجتماعية لمدينة الإسكندرية خلال فترة الحكم العثمانى أول هذه الخصائص هى : تنوع التركيب السكانى للإسكندرية، حيث ضمت العديد من الجنسيات التى تغلغلت فى كافة أنشطتها الاقتصادية، بما فى ذلك هذه الأسواق وهذا استخلاص تؤكده المصادر التاريخية، حيث جاء بها نص :

«بالنظر إلى تجار مدينة الإسكندرية، عاصمة مصر الاقتصادية حينذاك (أواخر حكم محمد علي) يتضح مدى تفوق غير المواطنين، فمن بين ٧٢ تاجراً بالإسكندرية هم مجموع تجارها نجد ١٥ يونانياً، ١٢فرنسياً، ١٢ إنجليزياً ، ٣١ من جنسيات مختلفة، ومصرياً واحداً عثماني الأصل» (محمد حافظ، ١٩٩٤ ، ص١٠٧).

أما الخاصية الثانية هي : تنوع التركيب الحرفي للمدينة، حيث ضمت العديد من الحرف والحرفيين الذين تركزت نسبة كبيرة منهم بهذه الأسواق، كالعقادين والدقاقين والخراطين والدخاخنية والجواهرجية والنقلية وغيرهم. وهذا ما أكدته المراجع أيضاً، حيث أشارت الخطط التوفيقية إلى عدد طوائف الحرف بالإسكندرية قد وصل إلى ١٤٢ طائفة في عام ١٨٧٧ واشتملت علي العديد من حرفي هذه الأسواق (علي مبارك ، ١٣٠٥ هـ، جـ٧، ص ص٢٠٩ – ٢١١ عن : عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٩٣، ص٢١٠).

ثالثاً : أسواق الإسكندرية التقليدية : الخصائص الإيكولوجية :

نتناول في هذا القسم الخصائص الإيكولوجية للأسواق موضوع الدراسة. وقد جاءت دراستنا لخصائص الإيكولوجي لهذه الأسواق عبر مستويات ثلاث هي:

– موقع الأسوق وتوزيعها الإيكولوجي بالنسبة لمدينة الإسكندرية بشكل عام، وتأثير ذلك على حركة الإنتاج والتجارة داخلها.

– الخصائص الإيكولوچية لمجموعة الأسواق كوحدة كلية مكتملة، ثم توزيعها الإيكولوچي بالنسبة لبعضها البعض، وأثر ذلك على العلاقات القائمة بينها.

– المستوى الثالث والأخير، وفيه تناولنا الخصائص الإيكولوچية الداخلية لكل سوق على حدة ، والتوزيع الإيكولوچي لما يضمه من ورش ومتاجر، ومنشآت أخرى كالمساكن التي تعلو هذه الورش، والمنشآت التي تقوم علي خدمة العاملين بهذه الأسواق والمترددين عليها، كالمساجد والمقاهى وغيرها، وأثر ذلك علي أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية داخل السوق.

١ – الموقع بالنسبة لمدينة الإسكندرية :

تقع الأسواق – موضوع الدراسة – إدارياً فى نطاق قسم المنشية، أحد أقسام حى الجمرك بمحافظة الإسكندرية، وهو قسم يتسم بطابع تجارى متميز. وتشغل هذه الأسواق جانباً من شياختى الترك والمغاربة، إحدى الشياخات الأربع التى يضمها هذا القسم(١). وتحتل هذه الأسواق كتلة متصلة تتوسط القسم، وهى تحاط من جهاتها الأربع بميادين وتجمعات تجارية ضخمة، تشكل فى مجموعها قلب المركز التجارى لمحافظة الإسكندرية. ويحد هذه الأسواق من الشمال شارع فرنسا، وهو يضم الآن أكبر سوقاً للصاغة بالإسكندرية، كانت نواته الأولى سوق الجواهرجية أحد الأسواق التقليدية موضوع الدراسة. وتجدر الإشارة إلى أن هذا السوق –

(١) يضم قسم المنشية أربع شياخات هى : الترك والمغاربة والهاميل والبرسيم.
المصدر : إدارة التخطيط والمتابعة بحى الجمرك بمحافظة الإسكندرية ١٩٩٥ .

الصاغة – كان ومازال يمثل مركز جذب تجارى لمنطقة الأسواق. خاصة بعد التوسعات الهائلة التى شهدها، حيث يتوافد عليه سائر سكان مدينة الإسكندرية، علاوة على سكان بعض المحافظات الأخرى. ويحد الأسواق من جهة الجنوب ميدان النصر، ويتميز هذا الميدان بطابع تجارى واضح، حيث تتركز به متاجر الأدوات الكهربائية والمنزلية، كما يضم أيضاً العديد من الفنادق الشعبية والمتوسطة[1] ... وقد أهلت هذه الخصوصية المنطقة لاجتذاب أعداد هائلة من المستهلكين، سواء من أبناء الإسكندرية، أو غيرها من المحافظات، الذين اعتادوا التوافد على المنطقة والإقامة بفنادقها، والحصول على إحتياجاتهم من البضائع التى تذخر بها هذه الأسواق والمناطق المحيطة بها. ويحد الأسواق من جهة الغرب منطقة بحرى، حيث الموقع المباشر على ميناء الإسكندرية، الذى شهدت بعض هذه الأسواق إزدهاراً وتألقاً عبر مراحل تاريخية مختلفة، بحكم موقعها الجغرافى عليه.

وجدير بالذكر أن هذه المنطقة تمثل مركز العمران البشرى لمدينة الإسكندرية منذ القدم، فهى تتميز بكثافة سكانية عالية، تشكل نسبة كبيرة من رواد هذه الأسواق، وتعتمد عليها فى الحصول على الكثير من احتياجاتها.

ويحد الأسواق من جهة الشرق شارع سوق الكانتو، الذى يمتد من نهاية شارع بيرونا. وهو يضم بدوره تجمعاً ضخماً من المحال التجارية المخصصة لبيع مختلف أنواع السلع والبضائع، من الأقمشة والملابس

(١) من هذه الفنادق على سبيل المثال : فندق الإسكندرية، آمون ، العرب ، مودرن روف وغيرها.

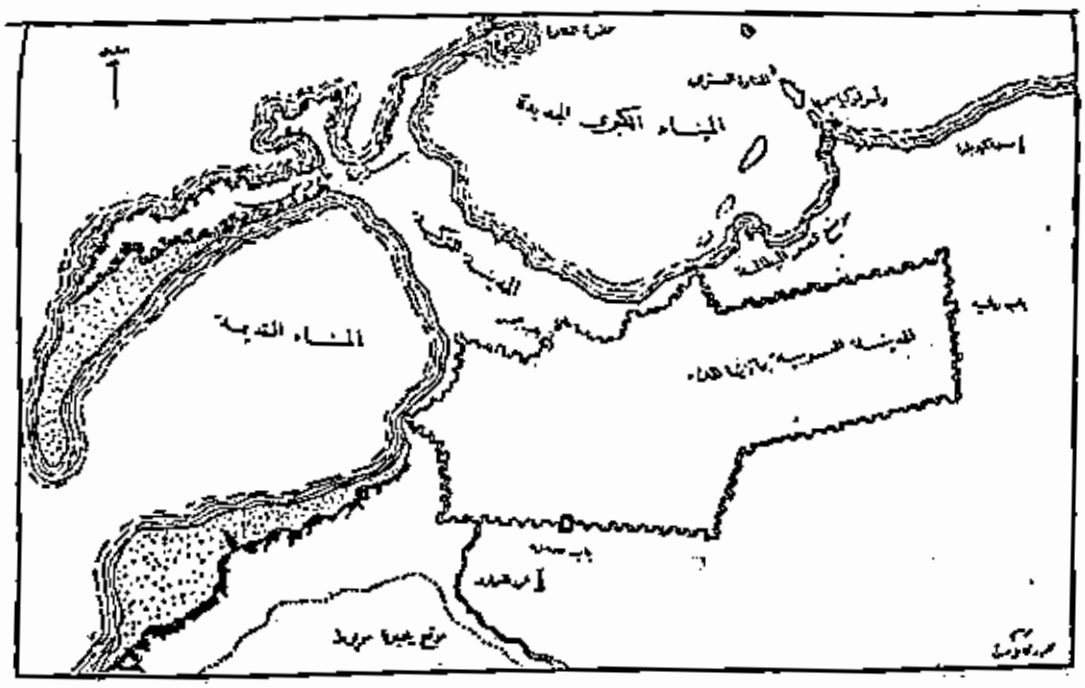

خريطة رقم ١: الاسكندرية فى أواخر القرن ١٨م (١٧٨٠)

المصدر : جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٦٠ .

والمفروشات والأدوات المنزلية والكهربائية والمصنوعات الجلدية وغيرها، علاوة على محال الأطعمة والمشروبات والمقاهى والأعداد الهائلة من الباعة الجائلين، الذين يحيطون هذه الأسواق. وفضلاً عما تقدم يضم القسم بالإضافة إلى الأسواق موضوع الدراسة الراهنة، مجموعة أخرى من الأسواق الأكثر حداثة، من أشهرها سوق ليبيا وسوق سوريا اللذان تخصصا فى تجارة البضائع من الملابس والأقمشة والأدوات المنزلية الحديثة، التى تأتى إليها عبر ميناء الإسكندرية. كذلك تقع الأسواق على مقربة من سوق راتب، وهو واحد من أكبر أسواق السلع الغذائية بمدينة الإسكندرية، يتوافد إليه أعداد هائلة من سكان الإسكندرية بصورة يومية. كما يتوزع بالقسم عدد من مراكز الخدمات والمؤسسات والبنوك والمحاكم وغيرها. ومن أهم السمات الإيكولوجية التى يتميز بها القسم أيضاً أنه يضم أكبر مركز لخطوط الموصلات العامة التى تجوب كافة أحياء مدينة الإسكندرية وتربطها بهذا القسم، كما تربط هذا القسم بكثير من المدن والقرى المصرية.

وقد هيأت هذه الخصوصية الإيكولوجية المميزة للنطاق الإيكولوجى المحيط بالأسواق لضمان التدفق المستمر لرواد هذه الأسواق من المستهلكين وتجار التجزئة ووسطاء التجار الذين يحصلون على بضائعهم من هذه الأسواق. وقد أكدت آراء الإخباريين من رواد هذه الأسواق أن جولاتهم الشرائية بالأسواق والميادين التجارية المحيطة بها عادة لا تخلو من إطلالة على تلك الأسواق التقليدية، حتى فى الحالات التى تكون هى مقصدهم الرئيسى.

هذا فيما يتعلق بالنطاق الإيكولوچى الخارجى المحيط بالأسواق، وموقعها بالنسبة لمدينة الإسكندرية.

٢ – التوزيع الإيكولوچى الداخلى للأسواق :

على مستوى النطاق الداخلى تشغل هذه الأسواق – كما سبقت الإشارة– مربعاً أيكولوچيا، مقسماً فى خطوط طولية وعرضية غير منتظمة إلى شوارع وحارات ودروب ضيقة، تمثل مواقع هذه الأسواق . وهى تطابق فى خصائصها وصورتها الواقعية ما أطلق على بعضها من مسميات، مثل «زنقة الستات» ، «حارة المغاربة». وتبدو هذه الخاصية بوضوح فى الأسواق التى لم تمتد إليها يد التنظيم وإعادة البناء.

وتتداخل هذه الأسواق فيما بينها تداخلاً واضحاً، وبملاحظة الخريطة المرفقة رقم (٢) يمكننا تبين ذلك القدر من التداخل. إذ يبدو سوق المغاربة بقسميه (سوق الخيط وزنقة الستات) كخطين طوليين متوازيين لا يفصل بينهما سوى صفان متلاصقان من المبانى، يقع بأسفلها ورش ومتاجر كلا السوقين. ويتقابل هذان السوقان عند نهايتهما بشارع يقطعهما عرضاً يمثل امتداداً لسوق الصيارفة قديماً والجواهرجية (الصاغة) حالياً. ويتفرع من سوق المغاربة عند نهاية زنقة الستات سوق العقادين. وعلى مسافة تصل إلى حوالى ثلثى امتداد سوق الخيط يميناً يتفرع موقع سوق النقلية الذى اندثرت معالمه تماماً الآن، ومن هذا الموقع يتفرع سوقان هما الدخاخنية والدقاقين (العطارين) ويتقابل هذان السوقان بدورهما فى حارة رقم «٤٤» التى يقع بها مدخل سوق الخراطين، المؤدى للموقع القديم لسوق الطباخين، فسوق الترك بأسواقه الفرعية.

وربما يمكن تفسير هذا التوزيع الإيكولوجي الذى يتسم بقدر كبير من التداخل فى ضوء ما كان متبعاً من سياسات اقتصادية فى عهد محمد على، حيث تشير المراجع التاريخية إلى أن أهم قواعد نظام الاحتكار الذى طبق فى عهده يتمثل فى جمع منتجى وتجار الحرف فى كل مدينة فى مكان واحد لإحكام الرقابة واجتناب التهرب[1]. (حسين خلاف، ١٩٦٢، صص١٨٠ ، ١٨١). وهذا التفسير ربما يمكن أن ينطبق على المناطق الحرفية والأسواق الواقعة بالأحياء الشعبية القديمة بمصر، وجدير بالذكر أن هذا التجاور الإيكولوجى الذى تميزت به الأسواق قد أدى وظيفة هامة فى تحقيق التكامل بينهما، وفى الحفاظ على استمرار وازدهار بعض ما تبقى منها الآن. ذلك أن هذا التجاور عادة ما يؤدى وظيفة أساسية فى دفع المستهلكين لارتياد هذه الأسواق والحصول على احتياجاتهم المتنوعة من نطاق أيكولوجى محدود.

٣ - الخصائص الإيكولوجية الداخلية للأسواق :

إذا ما إنتقلنا إلى النطاق الأيكولوجى الخاص بكل سوق من هذه الأسواق على حدة سنجد نطاقاً محدوداً من حيث المساحة. إذ يحتل كل سوق شارعاً واحداً أو جزءاً من شارع أو مجموعة من حارات صغيرة

(١) شمل نظام الاحتكار خلال تلك الفترة أيضاً تعيين ناظر لجمع مكوس الحرف، وقيام الدولة أو الملتزم بشراء الخامات اللازمة للحرفة بأثمان محددة، واحتكار بيعها بأسعار يحددها مندوبو الدولة، ومنع إنتاج الحرفة بدون ترخيص، والإنتاج طبقاً لمواصفات تحددها الدولة وإرغام مشايخ الحرف والبلدان على شراء جزء من الإنتاج بالسعر المحدد. كما حرم هذا النظام على الصناع إنتاج أى منتج لحسابهم، أو شراء أى سلعة لم تنتج طبقاً لقواعد نظام الاحتكار، ورصد عيون للتحرى عن المنتج البرانى، ووضع علامة مميزة على الإنتاج .. انظر : حسين خلاف، مرجع سابق، ص١٨٠ - ١٨١.

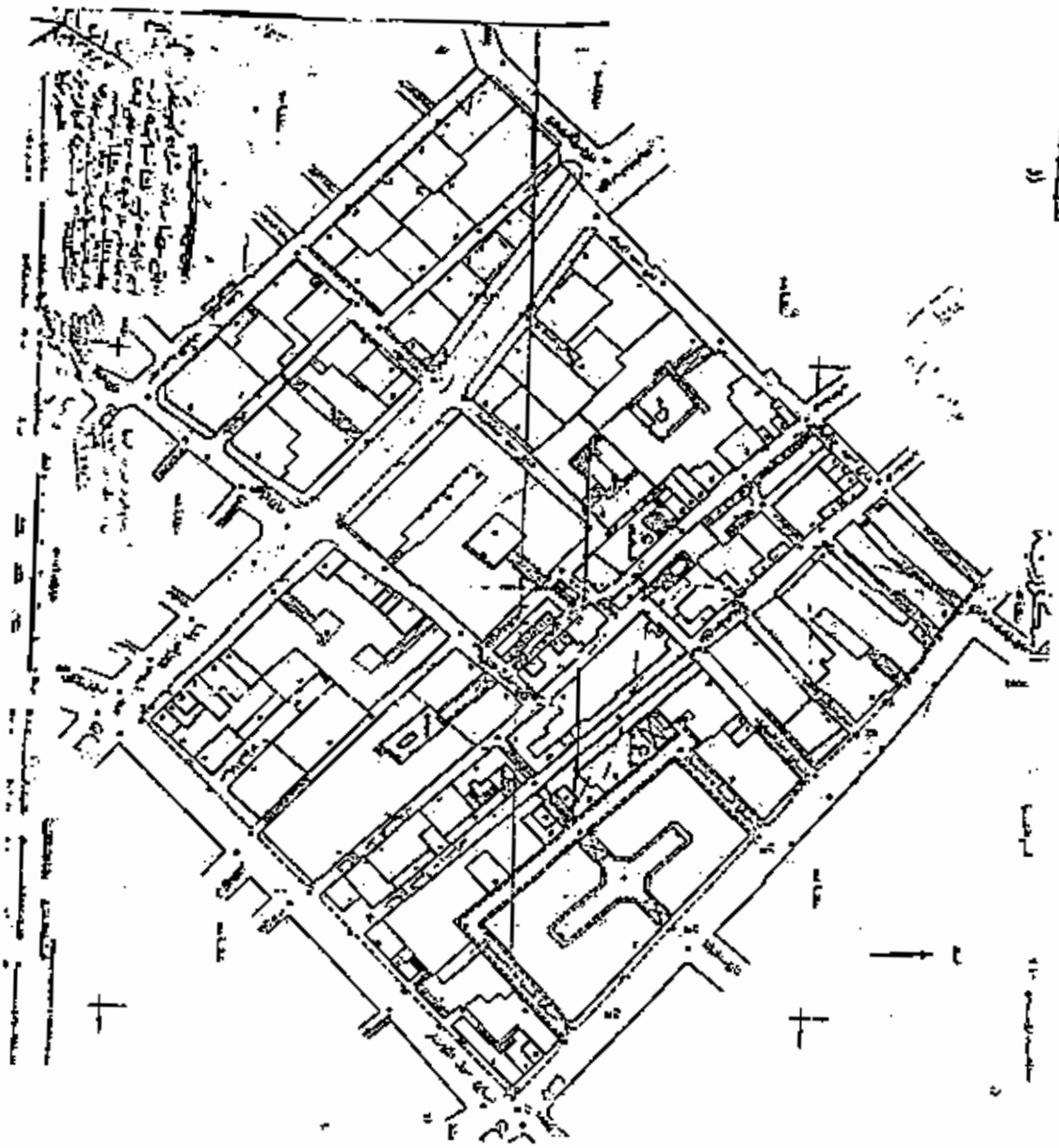

متداخلة. فنجد على سبيل المثال سوق وزنقة الستات عبارة عن شارعين متوازيين يتراوح طول كل منهما ما بين ١٢٠ – ١٢٥ متراً مربعاً، ويتفرع سوق الخيط قرب نهايته فى شكل عدة حارات صغيرة. كذلك يشغل سوق الجواهرجية والملابس العربية والأفريقية عدة حارات متداخلة. ويستقل سوق الدقاقين بشارع خاص أكثر اتساعاً. ويتطابق هذا النمط من التوزيع الإيكولوجى مع ما هو سائد بالمناطق الحرفية الحضرية فى مصر والبلدان النامية بشكل عام حيث أشار السيد الحسينى إلى توزيع أيكولوجى متماثل للحرف فى حى الجمالية بمدينة القاهرة (السيد الحسينى، ١٩٩٢ ، ص٣١٥).

ورغم ما ذكر عن محدودية المساحة التى تشغلها هذه الأسواق فقد كشفت الشواهد الميدانية عن كثافة عدد الورش والمتاجر بتلك الأسواق، حيث يبلغ عدد الوحدات بسوق الخيط ٦٠ وحدة، وفى زنقة الستات ٦٥ وحدة، تصطف فى صفين متقابلين، يتراوح حيز الفراغ بينهما ما بين ٣,٥٠ متراً مربعاً بزنقة الستات و٧,٥٠ متراً مربعاً بسوق الخيط. وتبدو مساحة هذا الحيز على الطبيعة أكثر ضيقاً عن مساحتها الحقيقة، حيث يشغل جانباً كبيراً منها بفترين وحوامل عرض السلع والبضائع (بزنقة الستات وسوق الخيط)، وبالمعاصر اليدوية (بالدقاقين) والدكك التى توضع فى واجهة محال العقادين ليجلس الصناع عليها لإنجاز المراحل اليدوية من الإنتاج. وبذلك يبدو النطاق المسموح فيه بحركة رواد السوق والعاملين به محدوداً للغاية، لا يتعدى متراً فى بعض هذه الأسواق خاصة «زنقة الستات» ، بل قد يقل عن

المتر فى بعض مواقع هذا السوق. ويترتب على ذلك تكدس المارة، حتى إنهم يسيرون فى صورة صفوف شبه منتظمة، وقد يترتب على تقابل رواد السوق السائرون فى اتجاه معاكس اختناقات، يحل أغلبها بدخول بعض المارة لأحد المتاجر، حتى يسمح للآخرين بالعبور. أما فى باقى الأسواق فتبدو هذه المساحة أكثر إتساعاً، وتكون الإختناقات أقل حدة، وإن كانت لا تمتاز عنها إيكولوچيا بالكثير. إذ تتميز شوارع السوق وحواريه بكثرة المطبات والحفر والنقر كما يبدو أن أغلبها لم يتعرض لعمليات الرصف منذ زمن بعيد. وإلى ما يحويه كل سوق فرعى من ورش ومتاجر، نشاهد منشآت أخرى تتوزع بين جنبات هذه الأسواق كمحال بيع الأطعمة والمقاهى والمساجد وغيرها. وهى تقوم على خدمة العاملين بالسوق، كما أنها تحمل نفس مسميات هذه الأسواق(١).

ويعلو ورش ومتاجر السوق مساكن قديمة متهالكة أغلبها آيل للسقوط لذلك هجر بعضها لهذا السبب، واستمر السكان ببعضها على مسئوليتهم الخاصة، ورغم صدور أمر إخلاء إدارى لها من إدارة الحى (٢) .

وقد أضفت هذه الخصوصية الإيكولوجية على أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية داخل السوق طابعاً خاصاً. إذ ترتب على هذا التجاور والتلاصق الشديد بين ورش ومتاجر السوق التى تنتج وتعرض منتجات متشابهة فى

(١) منها على سبيل المثال : مسجد العقادين بسوق العقادين، وزاوية المغاربة بسوق المغاربة، ومسجد الخراطين بسوق الخراطين ... إلخ.

(٢) تم الحصول على هذه البيانات من إدارة التخطيط والمتابعة بحى المنتزه بمحافظة الإسكندرية ١٩٩٥.

أغلب الأحيان ظهور أنماط متباينة ومتناقضة من العلاقات، تتراوح بين التكامل والصراع، وحتى يحفظ السوق توازنه واستقراره تبلورت مجموعة من القواعد والأعراف المتفق عليها بين العاملين بالسوق، تحدد الحقوق والواجبات، وتنظم أنماط التفاعل والعلاقات، وتعمل كميكانيزمات أساسية لحفظ التوازن والاستقرار داخل السوق، وهكذا يبدو كمجتمع محلى متكامل أيكولوجياً واجتماعياً، ويجمع العاملون به شعوراً متميزاً بالانتماء خاصة كبار السن منهم. ونستدل على ذلك بما جاء على لسان أحد الإخباريين من سوق العقادين يقول :

«هنا أصل الصنايع، أصل إسكندرية كلها، والواحد يخرج من هنا يقول يا غريتى».

رابعاً : السوق كنسق للعلاقات الاقتصادية – الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعى:

اتساقاً مع ما تقدم حول خصوصية السوق كمجتمع محلى متكامل يتسم بكثافة العلاقات الاقتصادية – الاجتماعية وأنماط التفاعل الاجتماعى تبلورت مجموعة من القواعد والمبادئ الأساسية كميكانيزمات لحفظ التوازن داخل السوق. وتشمل هذه المبادئ قواعد خاصة بتحديد العلاقات بين العاملين بالسوق بعضهم بالبعض، وأخرى خاصة بتحديد أنماط العلاقة بينهم وبين رواد السوق من مستهلكين وتجار ووسطاء التجارة ... إلخ.

وتتضمن هذه القواعد : المناداة، المساومة فى الأسعار، التكامل الاقتصادى بين وحدات السوق، الاتفاق المسبق على الأسعار، المعايير التى

تحدد نمط العلاقة بالمستهلك، استفتاح الجار .. هذا علاوة على مجالس الصالح التى يعقدها كبار العاملين بالسوق لحل ما قد يطرأ من مشكلات، من خلال متابعة مدى الإلتزام بالقواعد السابقة وردع الخارجين عليها. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المبادئ مازال لأكثرها استمرار وفاعلية بالسوق حتى الآن، وإن كانت النتائج تؤكد أن أهميتها للسوق بدت أكثر ضرورة فى الماضى، حيث كان تماثل السلع والبضائع الذى كان يصل إلى حد التطابق أحياناً يفرض ضرورة وجود مثل هذه الميكانيزمات الثقافية لتجاوز ما قد ينشأ من صراعات، أما الآن فإن التنوع النسبى فى بضائع هذه الأسواق – بالمقارنة بالماضى – نتيجة لتنوع مصادر الحصول على البضائع، ومن ثم تباين الأسعار وغير ذلك.

أصبحت تشكل أحد الميكانيزمات الجديدة ذات الصبغة الإقتصادية، وهى تعمل جنباً إلى جنب مع الميكانيزمات التقليدية ذات الطابع الثقافى فى الحفاظ على استقرار السوق وتوازنه .. وفيما يلى نناقش هذه المبادئ على نحو مفصل.

١ – المناداة :

تظهر المناداة كسمة مميزة فى الأسواق التى يغلب عليها الطابع التجارى، وهى مبدأ أساسى موروث يضمنه العرف السائد بالسوق وحق مكتسب لكل تاجر، حيث يكفل السوق لكل تاجر حق مناداة المارة من زبائن السوق، واجتذابهم، ولفت نظرهم إلى ما لديه من بضائع، حتى وإن لم تكن هى مقصدهم وطلبهم. ويشير الإخباريون من كبار السن إلى أن المناداة

كانت قديماً وظيفة خاصة، يعين لها صبية متخصصون، يقفون طوال اليوم على مداخل السوق لجذب المستهلك إلى متجر أو ورشة بعينها. ونظراً لأنها كانت وظيفة متخصصة فقد كان المنادى يستمر فى المناداة حتى وإن لم يكن هناك زبائن متوجهون إلى داخل السوق أو حوله ويستخدم هؤلاء فى المناداة عبارات نمطية مثل اتفضلى يا هانم .. طلبك عندى .. إلخ . كما ينادى بعضهم بأصناف البضائع المتوفرة بالمتجر، والتى يعرفون شدة إقبال المستهلكين عليها. يقول الإخبارى :

«زمان كانوا يوقفوا صبيان على نواصى السوق مخصوص عشان تلاغى الزباين، عايزة أيه يا هانم .. اتفضلى يا مدام .. ، وكان لكل فرش منادى ينادى طول النهاره.

وقد أكد الإخباريون أن تعيين هذه الفئة من المنادين من الصبية قديماً كانت تشكل مسألة ضرورية، حيث كانت البضائع محدودة ومتماثلة فى مواصفاتها والفروق بينها طفيفة، ومن ثم كانت المناداة أحد الأساليب الهامة لجذب المستهلك، وفى هذا الشأن يقول الإخبارى : «الصنف زمان كان محدود وزى بعضه والفروق بسيطة، الكل بينتج وبيبع نفس الحاجات، فكان لازم ملاغية الزبون، وبدل الصنف واحد أحليها إزاى؟ أشد الزبون، واللى يقدر يخطف الزبون هو الشاطر».

وجدير بالذكر أن المناداة مازالت تشكل أحد القواعد الأساسية للتسويق حتى الآن، وهى تظهر بشكل واضح الآن فى الأسواق التى يغلب عليها الطابع التجارى ويقوم بها الصبية والشباب من الذكور بشكل خاص، وعادة

ما يتم النداء أمام المتاجر وحولها ولا تتعداها إلى مداخل السوق كما كان يحدث قديماً.

٢ – المساومة :

تؤكد الملاحظات أن المساومة فى الأسعار تشكل أحد القواعد الأساسية التى تحكم عمليات التسويق فى كافة الأسواق موضوع الدراسة – فيما عدا البقاقين (العطارين)، حيث تتحول المساومة فيه إلى طلب زيادة طفيفة فى الوزن أو فى كمية السلعة المباعة، ويتم إضافتها بعد الوزن كنوع من إرضاء المشترى وجذبه، حتى فى سوق الذهب – الجوهرجية – يلاحظ المساومة على سعر تكلفة الإنتاج (المصنعية). ونتيجة لما تقدم عادة ما تقدم البضائع فى هذه الأسواق بأسعارها الحقيقية ويتاح للمشترى فرصة المساومة على السعر، حتى يصل إلى الحد الذى يرتضيه طرفى التبادل، شرط ألا ينخفض هذا السعر عن حد أدنى متفق عليه تجار السوق وإلا أعتبر نوعاً من المضاربة فى الأسعار. وجدير بالذكر أن عمليات المساومة قد يترتب عليها تخفيض السعر إلى نسبة ٥٠ ٪ من السعر الذى عرضت به عند بداية عمليات البيع.

وعادة ما يترتب على المساومة استغراق عمليات البيع والشراء وقتاً طويلاً، كما يصاحبه تفاعلات ونقاش بين البائع والمشترى، وقد تتداخل مناقشات أكثر من مشترى مع البائع فى وقت واحد. وقد تنتهى المساومة دون شراء، وفى هذه الحالة يحاول البائع النداء على المشترى أو إعادة جذبه، أو قد تنتهى بإظهاره للملل والضجر، مما قد يسبب حرجاً للمشترى فينصرف بلا عودة.

وجدير بالذكر أن مبدأ المساومة فى الأسعار يبدو كظاهرة مميزة للأسواق التقليدية فى مصر بشكل عام فى ريفها وحضرها، قديماً وحديثاً. فقد أشارت بلاكمن فى دراستها للأسواق بصعيد مصر إلى أن عملية إتمام شراء السلعة تتطلب من الوقت والصبر الكثير، حيث يظل التاجر والمشترى فى محاورات وإشارات ومشاحنات حول سعر السلعة إلى أن يتم تبديل السعر بإرضاء الطرفين. وفى بعض الحالات التى يصر فيها التاجر على كلمته فإن المشترى ينصرف بعيداً، بينما يحاول البائع إخفاء استعداده لتقديم مزيد من التنازلات، وفى النهاية قد يقبل البائع سعراً أقل مما طلب. (وينفريد بلاكمن، ١٩٩٥ ، ص٢٣١).

٣ – التكامل الاقتصادى :

يظهر التكامل الاقتصادى فى عمليات التسويق كأحد المبادئ الأساسية المتفق عليها، والتى تتضمنها أعراف السوق، حيث يكفل السوق تجارة – فى حدود طبيعة العلاقات بينهم – حق الاعتماد على بعضهم البعض، بشكل دائم وطوال ساعات العمل، فى الحصول على ما ينقصهم من بعض أنواع البضائع التى يطلبها المستهلك، ولا تكون متوفرة بالمتجر.

وتكشف النتائج عن استمرار العمل بهذا المبدأ الآن، بل هناك تأكيد على أنه أصبح أكثر شيوعاً من ذى قبل، فقديماً كان يستعاض عن جلب البضائع فى بعض الأحيان بإرسال المشترى مع أحد الصبية إلى أحد المتاجر حيث تتوافر السلعة المطلوبة، أو يرسل فى طلب السلعة حيث تباع للمشترى داخل نفس المتجر. أما اليوم فإن النمط الأخير هو الأكثر شيوعاً حيث يتم إحضار

السلعة من المتجر الذى تتوافر به، ويتم الحساب بين التجار بعد إنتهاء عمليات البيع، وقد أشار الإخباريون إلى أن المبدأ يضمن احتفاظ كل متجر بزبائنه، ويعلق أحد الإخباريين فى هذا الشأن قائلاً :

«التاجر ميبعش زبونه لتاجر زيه (مثله) ومايخرجش الزبونة من عنده تروح تكمل طلبها من محل تانى، يمكن الزبونة يكون لها طلب تانى تأخذه من هناك، ويمكن الزبونة تروح وبعد كدة ماترجعلوش، اللى عندى باطلعه، واللى معنديش بابعت أجيبه، وده حقى».

وجدير بالإشارة أن هذا التكامل ينهض على قاعدة من الثقة والأمانة بين العاملين بالسوق. فقد لاحظت الباحثة فى بعض الأسواق والمثال هنا من سوق الخيط، أن التاجر حين يرسل فى طلب نوع مجدد من القماش عادة ما يرسل له ثوباً كاملاً، وبعد أن تتم عملية البيع، يتم إرجاع ما يتبقى من الثوب ويتم الحساب بين التجار بعد عمليات البيع، وتكون كلمة التاجر بعدد الأمتار التى باعها كلمة ثقة لا محل للشك فيها. أما فيما يتعلق بالسعر فعادة ما يتم الحساب على السعر المتفق عليه فى السوق كحد أدنى، أى إن كان السعر بيعت به إذ أن من القواعد المتفق عليها أيضاً أن سعر البيع هو مهارة وشطارة من التاجر، ومن ثم فهو أحق بعائدها. أما العائد من هذه العملية فهو الحد الأدنى من الربح المتفق عليها ضمن أسعار السوق، علاوة على استمرار عمليات التكامل بشكل دائم تتبادل فيه جميع الأطراف احتياجاتها من البضائع التى تنقصها.

٤ – الاتفاق المسبق على السعر بين تجار ومنتجى السوق :

بالرغم من أن المساومة تشكل مبدأ وقاعدة أساسية من مبادئ السوق، إلا أنها لا تتخطى حد معين من السعر، هو السعر المتفق عليه بين تجار ومنتجى السوق. ويعد السعر المتفق عليه إلزاماً للتجار حتى وإن البيع بسعر أقل يعود بالفائدة على التاجر. وتؤكد آراء الإخباريين أن هذه القاعدة كانت أكثر قوة وتأثيراً فى الماضى، وكان مَنْ يخرج عنها يعد خارجاً عن المعايير والقواعد المتفق عليها ويخضع لسلطة ومراجعة الكبار. ويعد سلوكه فى هذه الحالة نوعاً من المضاربة بالأسعار والمنافسة غير الشريفة لتجار السوق الذين يبيعون نفس السلعة. وتؤكد آراء الإخباريين أن من كان يقوم بذلك فى الماضى كان يتعرض لمستويات مختلفة من الضبط غير الرسمى، تبدأ بمقاطة التجار له وتنتهى بمراجعته عن طريق مجالس الصلح التى يعقدها كبار السن فى السوق لتسوية النزاع، والنظر فى الصراعات والمواقف المشابهة وعادة ما كان التاجر يتقبل الحكم الذى يصدره الكبار أما الآن فقد تقلصت صور الضبط إلى مجرد المقاطعة وسوء المعاملة التى يتلقاها من يقوم بسلوك مشابه، بينما تراجعت مجالس الصلح وسلطة كبار السن وأصبحت أقل سطوة وتأثيراً، يقول الإخبارى :

«زمان كان الاتفاق على سعر السوق، والتاجر اللى يبيع نفس الصنف بسعر أقل بيتحاسب. وكان من حق أى تاجر يسأل أى زبونة ماشية فى السوق جبتى ده منين وبكام، وساعات كتير منبقاش محتاجين نسأل ده منين، بنعرف من الورق والأكياس اللى ملفوف فيها البضاعة، وإذا الزبونة

قالت جبتها بسعر أقل من المتفق عليه يبقى فى حساب، ويعتبر ده مضاربة لأن البضاعة واحدة والتكلفة واحدة، واللى يعمل كدة ملوش غير تفسير واحد وفى كبار يحاسبوه».

ويقول آخر :

«لو حد عامل مشكلة ولا حاجة غلط الكبار يجتمعوا وكلمتهم تمشى على الكبير قبل الصغير، واللى عمل غلطة يتحاسب، بس كان فيه اتفاق إن خطف الزباين والحاجات اللى زى كده (شطارة)».

وعلى عكس القاعدة السابقة فإن رفع السعر على المشترى إلى حد وقبول المشترى لذلك يعد فى عرف السوق «شطارة وجدعنة» ... لذلك تتضمن قواعد السوق عدم تدخل أى تاجر فى صفقة بيعت بسعر مبالغ فيه، وإلا اعتبر ذلك خروجاً عن قواعد السوق وأعرافه «بيبوظ عليه البيعة». وإذا حدث ذلك فعادة ما يترتب عليه صراعات ومصادمات، لا تحل إلا من خلال مجالس الصلح، التى عادة ما تحكم فى مثل هذا الموقف لصالح التاجر الذى باع بسعر أعلى، بينما يعد الآخرون خارجين يستحقون الردع والمراجعة.

يقول الإخبارى :

«إحنا صحيح بنتفق على سعر مانقلش عنه، لكن الزيادة دى شطارة ومفيش مشاكل فى كده، ولكن لو واحد عاوز يبوظ على واحد بيعة يقول للزبونة وهى خارجة تعالى جبتيها بكام، أنا بيعها بكذا – أقل منه – تروح الزبونة تتخانق وممكن يضطر يرجع البيعة ويرد لها فلوسها، وممكن الخناقة

تكبر وما يردش لها البيعة وعمرها ما تدخل محله تاني والزبونة تمشي وتبدأ المشاكل بين الاثنين».

وتكشف التعليقات السابقة للإخباريين عن جانب من القواعد والأعراف المتفق عليها في السوق، كما تكشف عن بعض أشكال التفاعل والعلاقات الاجتماعية التي تتم في إطار السوق، والتي يتضح خلالها وعياً كاملاً بالبضائع الموجودة في كل متجر، واحتمالات رفع أو خفض الأسعار فيه، وأشكال العلاقات بين التجار، التي تظهر فيها أنماطاً من الصراع والمصادمات، رغم ما أشرنا إليه من أنماط التكامل والتضامن، كما تكشف أيضاً عن حقيقة هامة تتعلق بخصوصية أنماط التفاعل مع المستهلكين داخل السوق، وما تتميز به من تلقائية وبساطة، حتى يبدو التجار والمستهلكون على السواء كجماعات اجتماعية، ويحدث بينها قدر من التفاعل الاجتماعي أثناء عمليات البيع والشراء. هذا بالإضافة إلى ما تكشف عنه هذه التعليقات من أن يشكلن النسبة العالية من مستهلكي هذه الأسواق خاصة سوق المغاربة بأسواقه الفرعية وسوق الدقاقين.

٥ - استفتاح الجار :

أشار الإخباريون إلى أن استفتاح الجار يشكل أحد المبادئ الأساسية التي كانت تسود بالسوق قديماً، وهو من أكثر المبادئ التي تشهد تراجعاً الآن. ويقصد باستفتاح الجار إتاحة الفرصة للتاجر المجاور، الذي يعمل عادة في نفس النوع من التجارة، لكي يبيع ويتكسب حد أدنى من المبيعات، تضمن له الوفاء بحاجته الأساسية، حتى وإن تم ذلك على حساب تاجر آخر

قد حقق هذا الحد الأدنى من المبيعات. بمعنى أنه فى حالة زيادة طلب المستهلكين على متجر معين، خاصة خلال الساعات الأولى من يوم العمل، وكان إلى جواره متجر آخر لم تبدأ فيه حركة البيع والشراء لفترة معينة، فإن هذا المبدأ يدفع الجار الذى باع وتكسب إلى التنازل عن بعض مبيعاته، وإرسال أحد زبائنه إلى هذا الجار حتى «يستفتح»، ولكن بمجرد حدوث ذلك مرة واحدة، وبعد التأكد أن البيع قد تم بالفعل يبدأ كل منهما فى محاولة اجتذاب المستهلكين إلى متجره، مستخدماً فى ذلك مختلف أساليب جذب المستهلك، بدءاً من المناداة، مروراً بتقديم التنازلات عن السعر المطلوب من خلال عمليات المساومة، أو بمحاولة استكمال ما ينقصه من بضائع من متجر آخر، قد يكون نفس المتجر الذى أرسل إليه زبوناً منذ ساعات أو دقائق . . . إلخ. ونستشهد فى هذا الصدد بتعليق لأحد تجار السوق يقول :

« زمان كنا لما نشوف جار حاله مش ماشى نحاول نمشيه، ولو كنت أنا استفتحت وهو لأ ويجيبنى زبون والتانى أقول لواحد منهم طلبك عند فلان، ويبقى الطلب عندى ما أنا عاوزه يستفتح، لكن بعد كده أنا عاوز أستفيد ما أنا فاتح باب رزق، وبدل ابتدينا إحنا الاتنين والحركة مشيت مش عاوزة أحسن منى، لكن لو لقيته تعبان ومفيش حيلة استفتى أنا شوية عشان ياكل».

ويتضمن هذا المبدأ إشارة إلى مدى الوعى بحركة البيع والشراء داخل السوق وفى المتاجر المجاورة، كما يعكس أيضاً بعض القيم المتعلقة بحسن معاشرة الجار والتضامن الاجتماعى. ويعد هذا النمط من أنماط العلاقات

بين الحرفيين أحد السمات المميزة للعلاقات الحرفية فى الأحياء التقليدية من المجتمع المصرى، فقد أشارت دراسة شتاوت لورش الحرفيين بالجمالية إلى معنى مماثل، فالتاجر الجار إذا مرض لا يصح لجاره أن يسرق زبونه لأن ذلك يعد عيباً، كما أن الجار يحل محل جاره إذا احتاج إليه، وقد يعيره بعض أدوات العمل إذا احتاج إليها (Stauth,1984,p.92) وفضلاً عما تقدم كشفت الدراسة عن بعض القيم الاجتماعية والثقافية التى تؤدى دوراً وظيفياً فى دعم هذه المبادئ، ومن ثم تعمل على توازن واستقرار العلاقات داخل السوق، فى مقدمة هذه القيم القناعة والرضا ومفهوم الرزق، حيث ينظر التجار إلى المتجر الذى يشهد رواجاً وازدهاراً فى حجم مبيعاته على أنه «رزق من عند ربنا» وأن هذا الرزق مقسوم لا حيلة فيه : «الدكان جنب الدكان والرزق على الرحمن»، وأحياناً يربطون بين هذا الرزق ومكان العمل فيقولون «أعتاب وأرزاق» وكلها مفاهيم تؤدى دوراً وظيفياً فى حفظ توازن واستقرار السوق.

٦ – العلاقة بالمستهلك :

يتحدد نمط العلاقة بين التاجر والمستهلك، وكيفية التعامل معه أثناء عمليات البيع والشراء فى ضوء مجموعة من الاعتبارات كشفت عنها الدراسة الحقلية وتتمثل هذه الاعتبارات فيما يلى :

– خبرة التجار ووعيهم الكامل بالسوق وآلياته من عرض وطلب وأسعار ...إلخ.

– خبرة التجار المكتسبة حول سيكولوجية المستهلك، والتى يتم فى

ضوئها تحديد ما إذا كان المستهلك راغباً فى الشراء أو عازفاً عنه (جاى يتفرج).

– حجم ونوع المبيعات التى يطلبها المستهلك، ونسبة تردد المستهلك على السوق والمتجر.

وسوف نناقش هذه الاعتبارات فيما يلى :

– يتدخل الوعى والمعرفة التامة بالسوق وإمكاناته كعامل أساسى فى تحديد نمط العلاقة بالمستهلك أثناء عمليات البيع والشراء، ففى ضوء الوعى بالسوق وعملياته من عرض وطلب وأسعار، وما يتمتع به كل متجر من إمكانيات يتم تحديد أسلوب التعامل مع المستهلك، وحجم التنازلات التى يمكن أن يقدمها البائع فى السعر لجذب المستهلك. وتشير النتائج فى هذا الصدد إلى ارتفاع نسبة الوعى بين العاملين بالسوق حول أنواع البضائع المتوفرة، وأماكن توافرها، وأى المتاجر تتوافر فيه بضائع معينة، وأيها قد نفذت منه، وتلك معلومات تتجدد بشكل مستمر ودائم خلال عمليات البيع والشراء، وفى ضوء هذه الخبرة والدراية الكاملة بإمكانات السوق يتحدد أسلوب التعامل مع المستهلك. فإذا كان المستهلك لسلعة يشهد السوق زيادة فى نسبة المعروض منها، وكان على البائع بذل جهد أكبر لجذب المشترى، وتقديم مزيد من التنازلات . أما إذا كان المعروض من السلعة محدوداً، فلا داعى للتنازلات كذلك يتدخل وعى التجار بالتوزيع الإيكولوجى لوحدات السوق فى تحديد أسلوب التعامل مع المستهلك، فوفقا لاتجاه حركة المستهلك فى السوق يعرف التاجر إذا كان سوف يجد طلبه أو لا يجده، فإن كان

موقع المتجر فى آخر السوق فهذا يعنى أن المستهلك قد مر على كل وحداته ولم يجد طلبه، وإذا كان فى بداية السوق فمعنى ذلك أن المشترى مازال أمامه فرصة للمرور على متاجر أخرى، ومن ثم يقع على التاجر عبء جذبه للشراء وتقديم بعض التنازلات وفى هذا الشأن نذكر تعليقاً لأحد الإخباريين يقول :

«إحنا عارفين السوق فيه أيه، ونبقى عارفين الزبونة اللى خرجت حترجع ولا لأ، لو خرجت يمين أعرف أنها راجعة لى ماخرجش وراها، وإن خرجت شمال أعرف أن حد تانى حيلقطها أجرى وراها وألحقها».

– كذلك تتدخل الخبرة المكتسبة للتجار حول سيكولوجية المستهلك فى تحديد نمط العلاقة به، حيث أشار الإخباريون إلى أن طول فترة عملهم بالسوق قد أكسبتهم خبرة فى التعرف على ما إذا كان المستهلك راغباً فى الشراء أو عازفاً عنه، أو يأتى للسوق لمجرد مشاهدة معروضاته وفى ضوء تلك الخبرة يحدد البائع أسلوب التعامل مع المستهلك : يقول الإخبارى :

«فى زبون يطول الوقفة، ويروح ويجى، يبقى حيشترى، أقوله اتفضل، فى أشكال تانية، شوف دى ... وفى زبون يبان من وقفته إنه بيتفرج ومش ناوى يشترى يبقى مفيش داعى أتعب نفسى».

– أما فيما يتعلق بنوع وحجم المبيعات التى يطلبها المستهلك فقد كشفت الدراسة أن قواعد السوق تتضمن تحديد نمط خاص للعلاقة بالمستهلك الذى يطلب كما كبيراً من المبيعات، وكذلك التجار ووسطاء التجارة الذين يحصلون على بضائعهم من هذه الأسواق حيث تشمل هذه القواعد استضافة هذه

الفئات، وتقديم واجب الضيافة لهم، كأحد عوامل الجذب، يقول الإخبارى فى هذا الشأن :

«الزبون الكبير، للى جاى يأخذ حاجة كبيرة، وجهاز عروسة، قماش تتجيد، سواريهات تجيله مشاريبه وقهوته، وتتسحب له الكراسى عشان يقعد ويستريح».

وقد أشار الإخباريون إلى أن هذا النمط من التعامل والعلاقات يضمن التردد الدائم للمستهلك على المتجر، بل أشار بعضهم إلى هذه العلاقات عادة ما يترتب عليها قيام المستهلك بنفسه بجذب مزيد من المستهلكين من أقاربه ومعارفه لنفس المتجر، حتى يصبح لكل متجر رواده، ممن يرتبطون معاً بعلاقات قريبة أو علاقات جيرة أو غيرها .. وتلك سمة أكد الإخباريون أنها كانت أكثر شيوعاً فى الماضى.

«الزبونة اللى تيجى وتأخذ طلبها ويتعمل معاها واجب، بتبقى زبونة دايمة، وتلقيها جاية بعد كده جايبة أختها وبنت خالتها .. زمان كان لكل عيلة دكان ماتاخدش إلا منه».

وتجدر الإشارة إلى أن عمليات التفاعل بين الباعة والمستهلكين التى تتم خلال عمليات الشراء داخل هذه الأسواق قد يتخللها حوار ومناقشات، حول موضوعات أخرى غير البيع والشراء والأسعار، تماماً كتلك العلاقات التى تتم بين المنتجين والتجار داخل السوق وتتخطى حدود العمل والإنتاج، وتتطرق إلى موضوعات أخرى. وتلك سمة أخرى من سمات الأسواق التقليدية، حيث تمتزج فيها الأنشطة الاقتصادية بكل مظاهر المجتمع لتبدو

فى النهاية كعالم متكامل فى ذاته. عبر عنه جيرتز فى وصفه للسوق الشرقية فكتب يقول :

«إن السوق الشرقية هى نسق اقتصادى ذو طريقة خاصة فى الحياة، فهو مكان لأنشطة التبادل يرتبط بكل مظاهر المجتمع، وهو مكان للبيع والتجارة، وهو أيضاً عالم سوسيوثقافى متكامل فى ذاته» (Geertz,1963, p76)

خامساً : السوق كنسق اقتصادى :

١ – البناء والوظائف :

تشكل الأسواق المدروسة فى مجموعها نسقاً كلياً، مكوناً من ثلاثة وحدات أساسية من الأسواق هى : سوق المغاربة، وسوق الترك – وكلاهما قد تقلصت وظيفته الإنتاجية بشكل ملحوظ بينما ازدادت وظيفته التجارية – ثم الوحدة الثالثة وهى مجموعة الأسواق التى مازال الطابع الإنتاجى غالباً عليها وهى وتشمل : العقادين والخراطين والدقاقين والجوهرجية والدخاخنية. وتنقسم كل وحدة من هذه الوحدات الثلاث الأساسية إلى عدة أسواق فرعية، تتسم بدرجة عالية من التكامل والاعتماد الوظيفى المتبادل، هذا بالإضافة إلى علاقات التكامل التى تربط بين الوحدات الأساسية الثلاث، وتظهر أبرز صور هذا التكامل فى اعتماد بعض هذه الأسواق على البعض الآخر كمصدر للحصول على ما يلزمها من المواد الخام ولوازم الإنتاج وفيما يلى نقدم صورة تفصيلية عن السوق كبناء كلى، مع مناقشة العلاقات القائمة بين وحداته، ثم نتبع ذلك بمناقشة لأهم الخصائص الاقتصادية للسوق خاصة ما

يتعلق منها بنظم الإنتاج والتسويق.

أ - الوحدة الأولى : سوق المغاربة :

يشكل سوق المغاربة وحدة بنائية أساسية ضمن البناء الكلى للسوق، وهو يتكون من سوقين فرعيين هما : سوق الخيط وزنقة الستات[1]. وتكشف النتائج عن درجة عالية من التكامل والاعتماد الوظيفى المتبادل بين هذين السوقيين. إذ تعتمد سوق الخيط على زنقة الستات فى الحصول على أكثر إحتياجاتها من لوازم التطريز وشغل الأطقم والمفارش كالخيوط والمطرزات وبعض قطع غيار الماكينات وغيرها. فضلا عما تقدم يحقق السوقان كوحدة كلية وظيفة تكاملية للمستهلكين من رواد السوق، إذ عادة ما يحصلون على احتياجاتهم من الأقمشة بأنواعها من سوق الخيط، بينما تكون زنقة الستات هى المصدر الأساسى للحصول على مكملات هذه الأقمشة من لوازم التفصيل والحياكة والكلف والأحزمة والاكسسوار وغيرها. ويعد سوق المغاربة بسوقيه الفرعيين من أكثر الوحدات الثلاث الأساسية قدرة على جذب المستهلكين. ويرجع ذلك إلى أنه السوق الوحيد الذى تتنوع بضائعه ومنتجاته، بينما تقتصر أكثر الأسواق ذات الطابع الإنتاجى كل على إنتاج نوع معين من البضائع، وفضلاً عن تنوع البضائع المنتجة والمعروضة بهذا

(١) جدير بالذكر أن الموقع الذى يشغله سوق الغيط حالياً هو ما سمى قديماً بزنقة الستات، أما الموقع الحالى لزنقة الستات فقد عرف قديماً بسوق المغاربة، والآن علاوة على المسميات الفرعية للسوقين يستخدم اسم سوق المغاربة للدلالة على كلا السوقين معاً، ومسمى سوق المغاربة ليس مرتبطاً بالموقع الإدارى للسوق ضمن شياخة المغاربة، بل هى تسمية محفورة فى الذاكرة الشعبية، التى تربط بين هذا الاسم وارتباطه بالتجار والتجارة المغربية من قديم الزمن.

السوق فإنه يعد من أكثر الأسواق الثلاث إقبالاً على عمليات التغيير والتجديد فى أنواع السلع والبضائع بما يطابق ذوق العصر. كما أنه يتكامل مع نظم الإنتاج الصناعى الحديث حيث تعرض فيه منتجات المصانع الحديثة من الإنتاج المحلى والعالمى. وفيما يلى نعرض للأسواق الفرعية لسوق المغاربة بشكل مفصل.

- سوق الخيط :

يتميز هذا السوق بطابع إنتاجى وتجارى فى آن واحد، ورغم ما أشار إليه الإخباريون من تقلص عدد الوحدات الإنتاجية به بشكل ملحوظ، إلا أننا مازلنا نلاحظ بعض الورش التى تقوم بعمليات الإنتاج، فى ظل نظام يغلب عليه الطابع التقليدى، وتتمثل أبرز منتجات هذا السوق فى : البضائع المطرزة خاصة من المفروشات كالأطقم والمفارش والملايات إلى جانب إنتاج مكملات الزى التقليدى من الطواقى والشيلان وأربطة الرأس التقليدية من المدورات والمناديل (بقوية) و(الملايا اللف) والجوارب التقليدية بأنواعها وبعض قطع الزى التقليدى وغيرها. ومن الطريف أن نشير فى هذا الموضع ما كشفت عنه النتائج من استمرار طلب المستهلكين على بعض هذه الأنواع من البضائع - خاصة من قطع الزى التقليدى - حيث أشار الإخباريون إلى أن الوسطاء وتجار القرى مازالوا يحصلون على هذه البضائع جملة من السوق لتلبية احتياجات المستهلكين من أبناء قرى الصعيد بشكل خاص، كما أشار الإخباريون أيضاً إلى أنها مازالت تشهد طلباً من بعض سكان الأحياء الشعبية بالإسكندرية. كما ينتج بالسوق بعض مكملات الزى التى تتلاءم

والتغيرات الحديثة ، كالإيشاربات والطرح المطرزة والبونيهات وطرح الزفاف وباقات الزهور الصناعية من مكملات الزى الحديث للعروس والتيجان، إلى جانب تطريز بعض قطع الأزياء وغيرها [1] . وجدير بالذكر أن هذه المنتجات كانت تنتج قديماً بالاعتماد على التطريز اليدوى أما الآن فقد شملت تغيرات السوق استخدام الماكينات الآلية فى التفصيل والتطريز، ولكنها آلية من نمط يتلاءم مع طبيعة السوق، كما إنها محدودة كمياً، حيث لا يتجاوز عدد الماكينات بالورش إثنتين على الأكثر.

وتعرف الفئة التى تقوم بهذا النوع من الإنتاج باسم «التطريزجية» ويحصل هؤلاء على المواد الخام اللازمة للتطريز من زنقة الستات – كما سبقت الإشارة – أما المواد الخام من الأقمشة فيتم الحصول عليها من متاجر الأقمشة الموجودة بنفس السوق، بل تؤكد الملاحظات أن بعض ورش الإنتاج تضم داخلها جانباً لتجارة هذه الأنواع من الأقمشة. وفى تلك الحالات تتحول الورشة إلى وحدة إنتاجية وتسويقية متكاملة، فهى مصدر للمواد الخام ومكان لأداء عمليات الإنتاج، علاوة على وظيفتها التسويقية. وهى تعكس نمطاً تقليدياً فى الإنتاج وتقسيم العمل تختفى فيه مفاهيم التخصص الذى يعد سمة أساسية من سمات الإنتاج الحديث.

---

(١) من البضائع التى أشار الإخباريون لرواجها بالسوق قديماً (علب التواليت) المصنعة من القطيفة لوضع أدوات الزينة الخاصة بالعروس، والشباشب المصنعة من القطيفة والستان الخاصة بالعروس أيضاً وقد تراجعت هذه البضائع الآن بشكل ملحوظ رغم الطلب المحدود عليها من تجار القرى والأحياء الشعبية.

ويتم الإنتاج داخل ورش سوق الخيط بأسلوبين : الأول : ويتم الإنتاج فيه لحساب الورشة، وفيه تحدد كميات الإنتاج ومواصفاتها فى ضوء خبرة المنتج بإحتياجات السوق، والعرض والطلب ومواسم الركود والرواج وغيرها. كما يتم الإنتاج بهذا الأسلوب وفقاً لذوق المنتج، وخبرته بأذواق المستهلكين كما يتضمن هذا الأسلوب إنتاجاً بالجملة لحساب بعض التجار والوسطاء بناء على اتفاق مسبق. أما الأسلوب الثانى : فيتم الإنتاج فيه بناء على طلب المستهلك وذوقه، حيث يلبى السوق احتياجات رواده من تطريز المفارش وأطقم الملايات ومكملات الأزياء وغيرها. وفى تلك الحالة يقوم المستهلك بشراء الخامات من الورشة أو غيرها ويحدد الرسومات المطلوبة[1] . ويقوم الصانع بالتطريز، لقاء أجر يتفق عليه قبل البدء فى الإنتاج.

وتبرز الوظيفة التجارية للسوق من خلال انتشار متاجر الأقمشة بأنواعها المختلفة كأقمشة الملابس والتنجيد والمفروشات والستائر وغيرها، وهى تجمع بين الأنواع التقليدية المنخفضة الأسعار والأقمشة الحديثة من أنواع ومستويات مختلفة وتروج فى هذا السوق تجارة الأقمشة السوارية من الإنتاج المحلى والمستورد، ومنها ما يطابق منتجات العصر، لكنها تعرض فى هذا السوق بأسعار تقل عن مثيلتها بالأسواق الكبرى بالمدينة. وقد أهل هذا

---

(١) أشار الاخباريون إلى أن هذه الرسومات كانت تحدد قديماً من خلال إحضار المستهلك لمنتج آخر لتقليده، كما كان يتحدد فى ضوء ما تعرضه الورشة أو غيرها من رسومات مع تعديلات طفيفة. أما الآن فقد أضيف إلى هذه الأساليب استخدام الرسومات المصورة ببعض المجلات والكتالوجات التى قد يحضرها المستهلك، أو تتوافر داخل الورش فى شكل مقصوصات، وقد يحضر المستهلك مقصوصات من بعض المجلات لتنفيذها.

النوع من البضائع سوق الخيط لجذب الشرائح العليا التي تتردد على هذا السوق لشراء هذا النوع من البضائع بشكل خاص. كما أهلته تجارة الأنواع التقليدية من الأقمشة ذات الأسعار المنخفضة لاجتذاب الشرائح الفقيرة، وبشكل عام يمكن القول بأن الشرائح الوسطى والفقيرة من سكان مدينة الإسكندرية تشكل النسبة العظمى من رواد هذا السوق. فهو يعد مصدراً للحصول على كثير من احتياجاتها، خاصة في ظل انخفاض أسعارها، بالمقارنة بالأسواق الكبرى بالمدينة. هذا علاوة علي إنه يشكل مصدراً هاماً للحصول على ما يلزم جهاز العرائس من مختلف أنواع الأقمشة الستائر والمفروشات وفساتين الزفاف وغيرها. حيث أشارت النتائج إلى وجود كثير من العادات والتقاليد المرتبطة بشراء هذه المستلزمات من هذا السوق بشكل خاص، وفي هذا الشأن نشير إلى تعليق أحد الإخباريين من تجار السوق.

«مفيش عروسة في إسكندرية بتجهز من غير ما تقوت على سوق الخيط».

وجدير بالذكر أن ورش إنتاج المفروشات وبيعها بالسوق تتكامل مع نظم الإنتاج الصناعي الحديث – كما سبق وأشرنا – حيث تعرض منتجات الورشة جنباً إلى جنب مع منتجات المصانع الحديثة العالمية والمحلية. وهذا بدوره يؤدى دوراً وظيفياً لعمليات الإنتاج الصغير داخل الورش ، فهو يساعد الصانع علي التجديد في مواد وطرق الإنتاج بما يطابق ذوق العصر. كذلك يلاحظ التكامل مع نظم الإنتاج الصناعي الحديث من خلال طرح هذا

السوق لأنواع جديدة من البضائع كالأدوات الكهربائية الحديثة وأطقم الصيني والأواني وغيرها من المنتجات الحديثة العلمية والمحلية . وهذا بدوره يؤدي دورا وظيفيا في جذب المستهلكين ومن ثم تتنوع مستويات رواد السوق وانتماءاتهم الطبقية، أي إنه يعمل كميكانيزم يساعد هذا السوق على الاستمرار ومقاومة عوامل الانحسار .

- زنقة الستات :

اتساقاً مع ما أشرنا إليه من أن هذا السوق هو ما عرف قديماً بسوق المغاربة فقد تميز هذا السوق قديماً - طبقاً لآراء الإخباريين - بإنتاج وتجارة البضائع المغربية، كما تركزت به نسبة كبيرة من العمالة المغربية نسب السوق إليها. «كان سوق لكل حاجة مغربي، عبايات مغربية، وكلمة شغل يد (يدوى) ومراكيب وبلغ مغربية، وهدوم عربي، وفضة ... وغيرها كتير».

وتشير الشواهد الميدانية إلى تقلص الوظيفة الإنتاجية لهذا السوق بشكل ملحوظ. فلم نلاحظ من الورش الإنتاجية فيه سوى بعض ورش إنتاج المصنوعات الجلدية، خاصة من الحقائب والمحافظ والأحزمة، بالإضافة إلى نسبة محدودة من التطريزجية، يمارسون إنتاجهم داخل متاجر بيع الخيوط والمطرزات، على نحو يتماثل مع ما هو قائم بورش سوق الخيط.

وتشهد الوظيفية التجارية لهذا السوق إزدهاراً واضحاً، وتتنوع بضائعه لتشمل الحلى المقلدة بأنواع مختلفة كالأقراط والأساور والعقود وغيرها، منها ما صنع من المعادن أو من خامات أخرى حديثة، وربما يعكس هذا

النوع من البضائع امتداداً لإنتاج وتجارة الحلى المغربية المصنوعة من الفضة، التي راجت بهذا السوق قديماً ومازالت بقاياها موجودة ببعض ورش الجوهرجية بالسوق حتى الآن[1].

كما تزدهر بالسوق تجارة مستلزمات التفصيل والحياكة من الكلف والأزرار والخيوط الملونة والمطرزات بأنواعها (الخرز وخرج النجف والترتر واللولى وغيرها) كما يعرض بالسوق بعض قطع غيار ما كينات التفصيل والتطريز كالإبر والماكوك وغيرها. تروج بالسوق أيضاً تجارة مواد الصباغة والتلوين، وأدوات الزينة والروائح العطرية. ولعب الأطفال ومنتجات الجلود وغيرها. وتعرض كلها بأسعار منخفضة بالمقارنة بمثيلتها في الأسواق الأخرى بمدينة الإسكندرية، لذلك فهي تجذب عدداً من المستهلكين. وجدير بالذكر أن أصناف البضائع التي تعرض وتباع بزنقة الستات حتى الآن يطابق بعضها أصناف البضائع التي حفل بها هذا السوق قديماً.

ويتطبق على هذا السوق نفس الخصائص والسمات السائدة بسوق الخيط خاصة في الوحدات التي مازالت محتفظة بطابعها الإنتاجي، ونذكر هنا بشكل خاص ورش المصنوعات الجلدية، وورش التطريز، ففيما يتعلق

---

(١) للحرف اليدوية وفنون صناعة الحلى في المغرب تاريخ يمتد في القدم بعيداً، وتمثل الفضة المعدن الرئيسي للحلى المغربية، حيث تأثرت الثقافة المغربية بالثقافات المحلية التي سبقتها ومنها «البربرية» التي كانت الفضة تشكل المعدن الرئيسي لحليها ذات الأشكال المتميزة ... للمزيد انظر: سعد الجادر، لمحات عن الحلى الفضية المغربية، في : المأثورات الشعبية، العدد الرابع والثلاثون، إبريل ١٩٩٤ ، صص٦٠ - ٧٥.

بأسلوب الإنتاج بالجملة لحساب الورشة، إلى جانب الإنتاج بالقطعة بناء على طلب المستهلك. كما أن أغلب رواد هذا السوق من الشرائح الوسطى وبعض من الشرائح العليا. ومن السمات المشتركة أيضاً – وإن كانت تبدو أكثر وضوحاً فى زنقة الستات – هى نوعية جمهور المترددين على السوق، حيث تشكل النساء النسبة الغالبة منهم، بينما يحجم الرجال عن الإقبال على الشراء من هذا السوق، إلا فى أضيق نطاق، باعتباره سوقاً خاصاً بالنساء «زنقة الستات» ويلاحظ أن أغلب المترددين من الرجال هم من التجار وسطاء التجارة الذين يحصلون على بضائعهم جملة من هذا السوق، يبيعونها بأسعار مضاعفة فى الأسواق الأخرى.

ونظراً لتنوع البضائع والسلع بهذا السوق يمكننا أن نلاحظ به أساليب مختلفة لعرضها، لكن رغم ذلك فالأسلوب الشائع يشابه نمط العرض الموجود بأغلب الأسواق المدروسة، خاصة فى سوق الخيط. إذ تستغل المساحات المواجهة للمحال من الطريق العام – كجزء من المتجر أو الورشة، يستخدم فى عرض السلع والبضائع التى يعرض بعضها فى فتارين ذات تصميمات حديثة، وأخرى ذات طابع تقليدى. كما تعرض أنواع البضائع على واجهة المحال (كالمصنوعات الجلدية) ومنها ما يوضع فى آنية زجاجية وأطباق، وتوضع داخل الفتارين (كالطرزات) ومنها ما يوضع فى علب مفتوحة (كالأزرار) وتتركز المعروضات فى أغلب المتاجر فى واجهة المتجر وخارجه، بينما تستغل المساحات الصغيرة بالداخل فى تكديس السلع والبضائع على الأرض، كما يوضع بعضها على أرفف خشبية.

ومن أبرز ملامح التغير فى هذا السوق انتشار عمالة الأناث بمعظم متاجره، وهى ظاهرة لوحظت أيضاً بسوق الخيط. وقد أكد الإخباريون أنها ظاهرة حديثة نسبياً، وازدادت فى السنوات الأخيرة، وتعد هذه الظاهرة مواكبة للتغيرات التى طرأت على أدوار المرأة فى المجتمع المصرى بشكل عام خلال العقود الأخيرة. ومن الجدير بالذكر أن هذا النمط من العمالة لم يلاحظ علي الإطلاق فى بعض الأسواق الإنتاجية الأخرى خاصة فى الخراطين والعقادين. ويتسم هذا السوق – علاوة على سوق الخيط – بطابع فولكلورى خاص، وبسمات مميزة فى التسويق وطرق جذب المستهلك، وأنماط التفاعل بين الباعة ورواد السوق علي نحو ما أوضحنا فى موضع سابق.

ب – الوحدة الثانية : سوق الترك :

يشكل سوق الترك الوحدة الأساسية الثانية فى مجموعة الأسواق الثلاث الأساسية وتكشف الملاحظات الميدانية عن انحسار مجموعة الأسواق النوعية لسوق انحساراً ملحوظاً. حيث أشار الإخباريون إلى أنه كان يضم عدة أسواق إنتاجية، تخصصت فى إنتاج وتجارة : الطرابيش والحصر والسبح والشيش (النارجيلة)، علاوة على ما راج به من تجارة مختلف أصناف البضائع التى كانت تأتى إليه عبر ميناء الإسكندرية : يقول الإخبارى :

«كان سوق واسع مشهور بييجوا له تجار من أوسع الأبواب، وكان موجود فيه كمان سوق للجوارى البيض».

والصورة الحالية لهذا السوق تقتصر على سوق لإنتاج وتجارة «الشيش» أو النارجيلة ، وقد أكد الإخباريون أن نشأة هذا السوق ورواجه

قد ارتبطت بوجود سوق الدخاخنية على أطراف سوق المغاربة.. وهذا يعكس إحدى صور التكامل بين هذه الأسواق. أما رواد هذا السوق فيشكلون فئة خاصة فمعظمهم من أصحاب المقاهى والعاملين بها، يحضرون إلى السوق للحصول على الشيش بالجملة، كما يحصلون على بعض قطع الغيار أو الأجزاء التى تتطلب التجديد باستمرار. ويؤكد العاملون بهذا السوق أن الطلب على هذا السوق يتفاوت من مرحلة إلى أخرى، حيث راجت تجارتها قديماً، ثم تراجعت، وهى الآن - طبقاً لآرائهم - تشهد ازدهاراً وإقبالاً ملحوظاً، من شرائح طبقية مختلفة. أصبحت الآن تشكل جزءاً من رواد السوق بصورة يذكر الإخباريون إنها لم تكن مألوفة من قبل، يقول الإخبارى فى هذا الشأن :

«أصلى الشيشة دلوقتى بقت موضة حتى ولاد الذوات بييجوا يخدوها».

أما باقى الأسواق التى تضمنها هذا السوق قديماً فلم تكشف الشواهد الميدانية منها إلا عن بقايا مضمحلة لسوق السبح، عبارة عن بعض أكشاك صغيرة متناثرة تخصصت فى بعض أنواع التجارة الصغيرة ويمارس أصحابها بيع بعض أنواع السبح الرخيصة، وإعادة لضم السبح القديمة، بناء على طلب أبناء الحى. وقد أكد الإخباريون أن الورش الكبرى لإنتاج السبح بالسوق قد تلاشت تدريجياً مع انهيار المبانى التى كانت تضمها. كما أشار بعضهم إلى انتقال هذا السوق إلى منطقة أخرى خارج النطاق القديم لمجموعة الأسواق موضوع الدراسة. أما سوق الحصر فلم نلحظ له أى بقايا. وكذلك سوق الطرابيش، حيث لم تعد هذه المنتجات تلقى إقبالاً من المستهلكين.

وجدير بالذكر أن الطرابيش قد لوحظ وجودها فقط بسوق العقادين (الملابس العربية والأفريقية) كأحد الأزياء التى تخصص هذا السوق فى إنتاجها وتجارتها وهى كما تكشف الملاحظات تختلف نسبياً من حيث تصميمها وألوانها عن الطربوش التقليدى .

جـ- الوحدة الثالثة (الدقاقين ، الخراطين ، الجواهرجية ، الدخاخنية ، النقلية) :

تمثل الوحدة الأساسيّة الثالثة ضمن البناء الكلى للأسواق المدروسة مجموعة من الأسواق يسيطر عليها الطابع الإنتاجى، رغم إنها لا تخلو من الطابع التجارى أيضاً[1].

إلا أن أبرز سمات الوظيفة التجارية لهذه الأسواق أنها تقتصر فقط على عرض وبيع ما تخصص كل سوق منها فى إنتاجه أو تجارته، وتحتل هذه المجموعة موقعاً يتوسط سوقى المغاربة والترك، وهى تعد امتداداً مباشراً لسوق المغاربة. وتكشف آراء الإخباريين، فضلا عن المادة التاريخية عن إختلاف الجذور التاريخية لهذه الأسواق، فبعضها ارتبط فى نشأته بجنسيات وجماعات عرقية محددة، كسوق العقادين، الذى ارتبط فى بدايته بالمماليك ثم الأتراك والدخاخنية الذى إرتبط بداية بالأتراك. بالإضافة إلى بعض الأسواق التى كانت منذ مراحل تاريخية مبكرة من نصيب القطاع الأكبر من المصريين من سكان مدينة الإسكندرية، كالخراطين.

---

(1) من هذه الأسواق ما تخصص فقط فى عرض عمالة متخصصة كسوق الطبلين.

وتدلنا الخرائط القديمة، علاوة على آراء الإخباريين على اتساع هذه الأسواق قديماً لتشمل ثمانية أسواق منها : سوق للعقادة (العقادين)، وآخر لخراطة الأخشاب (الخراطين)، وثالثاً للعطارة (الدقاقين)، ورابعاً لتعبئة ولف وتجارة الدخان (الدخاخنية)، وخامساً للنقل والمكسرات (النقلية)، وسادساً للعملات والنقود (الصرفية)، وسابعاً للمجوهرات (الجوهرجية)، وثامناً للطهاة (الطباخين).

والصورة الحالية لهذه الأسواق - كما كشفت عنها الدراسة الحقلية - تشير إلى اندثار بعض هذه الأسواق اندثاراً تاماً، وهى أسواق النقلية والصرفية، وانحسار بعضها انحساراً ملحوظاً، وهى أسواق : الدخاخنية والخراطين والطباخين، بينما تشهد بقية هذه الأسواق استمراراً، وبعضها خاصة (الجوهرجية) يشهد ازدهاراً ملحوظاً.

- الأسواق المندثرة :

تمثل مجموعة الأسواق التى اندثرت معالمها تماماً سوقان هما :

سوق النقلية والصرفية، وتشير آراء الإخباريين إلى أن الأول قد جاء إندثاره نتيجة لدخول التنظيم إلى شارع النصر وتخطيط ميدان النصر ونظراً لأنه كان يحتل موقعاً متطرفاً من الكتلة التى احتلتها هذه الأسواق، وفي مواجهة هذا الميدان، فقد عجل هذا الموقع باندثاره، يقول الإخبارى «التنظيم لما دخل شارع النصر النقلية كلهم راحوا».

وجدير بالذكر أن أغلب محال النقلية تتوزع الآن بسوق راتب الواقع فى نطاق قسم المنشية، وهذا يعد مؤشراً إلى أن استمرارية أو انحسار هذه

الأسواق يرتبط بشكل أساسى بما تؤديه من وظائف.

أما سوق الصرفية (الصيارف) الذى أنشأ بالأسكندرية فى عهد سعيد، لعدة إعتبارات أهمها :

أن الإسكندرية كانت تمثل المركز الرئيسى للبنوك الأجنبية التى كثرت فى عصره، نتيجة لإقباله على القروض الأجنبية، وشدة احتياجه للمال لجعل مصر قطعة من أوروبا.

كذلك أنشأ تلبية لحاجة الأجانب، الذين انتشروا بالإسكندرية كنقطة ارتكاز مالية تثبت أقدامهم فى سوق المال، وتكون بمثابة حلقة اتصال بين أعمالهم داخل مصر ومراكزهم بالخارج (محمد رشدى ، ١٩٧٢ ،ص٥٢ – ٥٣) وقد ارتبطت نشأة هذا السوق واندثاره بمحددات تاريخية، حيث بدأت وحداته فى الثلاثينات – على حد قول الإخباريين – تتحول تدريجياً إلى ورش لصناعة المصوغات الذهبية، والتى أصبحت فيما بعد تشغل كافة وحدات سوق الصيارف . ونستشهد هنا بتعليق أحد الإخباريين يقول :

«كل ورش ومحلات الصاغة اللى إنتى شيفاها كانت سوق للصرفية اليهود كانوا بيتاجروا فى العملات ويبدلوا العملات الذهب بالعملات الورق، ولما بدا يتحول للذهب كان اليهود والشوام من أول من اشتغلوا فيه».

– الأسواق التى تشهد انحساراً :

ويمثل مجموعة الأسواق التى تشهد انحساراً ملحوظاً سوقان هما :

سوق الدخانية، وسوق الخراطين، أما سوق الدخانية : فقد تخصص

فى لف وتعبئة وتجارة الدخان قديماً، بينما يقوم الآن على تجارة أنواع مختلفة من السجائر من إنتاج المصانع الحديثة، إلى جانب تجارة بعض الأنواع التقليدية من الدخان من الإنتاج المحلى «معسل». وقد أشار الإخباريون إلى اعتماد هذا السوق قديماً على تجارة الدخان الذى كان يأتى إليه من تركيا بشكل خاص، وكان أغلب تجاره من الأتراك وفى ذلك يقول الإخبارى:

«سوق الدخاخنية كان يجى له الدخان سايب فى كياس كبيرة من تركيا والشام، وكان الدخاخنية يقعدوا يلفوا الدخان، وكان فى ناس تحب تشتريه سايب ويشتروا معاه ورق مخصوص ويلفوه بمعرفتهم واحدة بواحدة».

وتتسم وحدات هذا السوق بطابع خاص، فهى تتميز بالاتساع النسبى مقارنة بغيرها من الأسواق، كما تمتاز بنمط خاص من الأبواب الزجاجية . وتنتظم من الداخل فى صورة رفوف علوية، وبنوك (فتارين خشبية ذات واجهة زجاجية)، تستخدم فى حفظ الدخان، وهو السوق الوحيد الذى لم نلحظ فيه تكدساً لبضائع، ولا استغلال للمساحات المواجهة للمحال، اتساقاً مع طبيعة المنتج الذى يحتاج اهتماماً وتخزيناً من نوع خاص. كما يتسم السوق بانخفاض حركة المستهلكين به، وهو فئة خاصة أيضاً من أصحاب المقاهى والتجار وأصحاب المحال والأكشاك التى تبيع الدخان والسجائر، وتحصل عليها جملة من هذا السوق.

أما سوق الخراطين فهو واحد من الأسواق التى كشفت الملاحظة عن تقلصها بشكل ملحوظ أيضاً، وهو سوق يتم الإنتاج فيه طبقاً لما هو شائع

فى أغلب الأسواق بمجتمع البحث، ففيه الإنتاج بالقطعة بناءً على طلب المستهلك، وفيه الإنتاج بالجملة، الذى كان ينتج قديماً لحساب الورشة ويعرض ويباع بها، وأصبح الآن ينتج جملة لحساب بعض المحال والمعارض التجارية التى تحدد المواصفات والكميات المطلوبة بالتقريب للخراط، فينتجها خلال فترة محددة.

ورغم ما أشارت إليه آراء الإخباريين من ازدهار هذا السوق قديماً، حيث إزداد عدد ورشة، باعتباره سوقاً أساسية يلبى احتياجات العديد من أسر الشرائح الوسطى والفقيرة بشكل خاص وبعض احتياجات الشرائح العليا. فقد لاحظت الباحثة تقلص عدد ورشه بشكل ملحوظ، وقد تخصص هذا السوق - قديماً بشكل خاص - فى إنتاج العديد من الأدوات المنزلية التقليدية التى لم يكن لأسر بعض الشرائح غناء عنها، ومنها : الطبالى والنشابات والأجران الخشبية، والشماعات الاستاند، والمفراك الخشبى، ودقاقة اللحم، وكسارة الثلج (المشولة)، بالإضافة إلى بعض اللعب الخشبية التقليدية، كنحل الأطفال وغيرها. وقد تأثر هذا السوق تأثراً واضحاً بتطور الصناعة الحديثة، وما قدمته من بدائل، تصنع من مواد ذات تكلفة أقل، وبكميات هائلة، ومن ثم فهى تعرض بالأسواق بأسعار أقل تنافس منتجات الخراطين.

وتعتمد ورش الخراطة حتى الآن على أدوات إنتاج تقليدية، يغلب عليها الطابع اليدوى. منها الدفرة، والمزراب، والبرجل، والمكدة، والأزمير، والشوكة. أما الأداة الوحيدة التى حدثت بها تطورات طفيفة فهى المخرطة، إذ زودت بموتورات كهربائية.

ولذلك يبدو العائد من هذه الحرفة غير مجدٍ، وربما يكون هذا هو السبب الرئيسى لتقلص عدد وحدات هذا السوق بشكل ملحوظ، أما بتحويلها إلى أنواع أخرى من الأنشطة، أو بإغلاقها. وقد كشفت النتائج عن عدة أسباب ساعدت على هذا الانحسار والتراجع يتمثل أهمها فيما يأتى :

– لم تعد المنتجات التى ينتجها الخراطون تلقى إقبالاً ملموساً من المستهلكين، إذ وجدت منافساً جديداً من منتجات المصانع الحديثة، يصنع بعضها من خامات أرخص من الخشب، كالبلاستيك وغيرها، ومن ثم فهى تعرض بأسعار أقل، فتنافس منتجات الخراطين.

– فضلاً عن منافسة منتجات المصانع الحديثة للخراطين أشار الإخباريون إلى دخول فئة جديدة من صغار الصناع، تقوم بتصنيع منتجات الخراطين التى يحتاج اليها السوق الآن داخل المنزل، وباستخدام خامات أقل جودة، ومن ثم تعرض إنتاجها بأسعار أقل، وبذلك أصبح أصحاب المحال التجارية الذين يتعاقدون مع الخراطين يفضلون التعاقد مع هؤلاء الصناع لرخص أسعارهم.

– تتم أغلب عمليات الإنتاج داخل الورش لحساب بعض المعارض والمحال التجارية وبناء على طلبها، إلا أن ثمن المنتجات لا تقدم للصانع إلا بعد إتمام عمليات البيع، وقد أشار الخراطون إلى أنه فى حالة عدم بيعها، أو عدم بيع جزء منها، يرد للورشة مرة أخرى، مما يشكل عبءً اقتصادياً على إمكانيات الورشة المحدودة.

– أشار الإخباريون أيضاً إلى دور السياسات الاقتصادية فى انحسار

هذه الحرفة، حيث أكد الخراطون أن ما تفرضه هذه السياسات على الورش من ضرورة إدخال العمالة ضمن نظام التأمينات وغير ذلك من قواعد تتطلب إجراءات ونفقات، قد أدى إلى تراجع الورش عن تشغيل وتعليم الصبية إلا في أضيق نطاق. وقد ساعد ذلك على تقلص عدد الحرفيين فيها بشكل تدريجي ملحوظ في نطاق مجتمع البحث.

- بالإضافة إلى ما تقدم أشار الإخباريون إلى عدم حرصهم على تدريب أبنائهم على الحرفة وتوريثها، كما كان يحدث في الماضي، نظراً لتراجعها وعدم جدواها اقتصادياً.

وفي محاولة القلة المتبقية من ورش الخراطة الاستمرار تم إدخال عناصر جديدة بديلة تنتج بالورشة، وهي تلقى إقبالاً نسبياً، منها على سبيل المثال : صناعة الأزرار الخشبية، والأباجورات ولوازم الستائر وغيرها من المنتجات التي تنتج بناء على طلب محدد. كما لاحظنا بعض محاولات التطوير النسبي في التكنولوجيا المستخدمة، ممثلة في إدخال المحركات الكهربائية على المخارط اليدوية، كأحد ميكانيزمات التكيف مع التغيرات المعاصرة، خاصة بعد أن تقلص عدد العمالة بالورش بشكل ملحوظ.

- الأسواق التي تشهد استمرار:

أولاً : سوق العقادين :

يتسم هذا السوق بطابع خاص، فهو يضم فئتان من الحرفيين هما : العقادون : ممن تخصصوا في تجهيز الخيوط الحرير وجدلها لصناعة

الخيوط والأزرار المنسوجة (الكردون القيطان، والتحرير) وغيرها من مستلزمات إنتاج وتطريز الملابس العربية والأفريقية.

والعقادون : ممن تخصصوا فى إنتاج الملابس العربية والأفريقية، باستخدام ما تنتجه الفئة الأولى، من خيوط يقومون بعقدها على القماش فى أشكال هندسية رائعة، وربما تشكل الفئة الأخيرة من العقادين امتداداً لصانعى دار الطراز التى اشتهرت بالإسكندرية قديماً، والتى أبدع منتجوها فى صناعة الأزياء العربية وتطريزها (أنظر : جمال الدين الشيال ، ١٩٦٧، ص١٤٣).

وتشير النتائج إلى تقلص الوظيفية الإنتاجية للفئة الأولى بشكل ملوحظ، إذ أصبحت تعتمد اعتماداً أساسياً على المصانع الحديثة فى جلب ما تخصصت فى إنتاجه قديماً من منتجات، أما الفئة الثانية فمازالت محتفظة بوظيفتها الإنتاجية ذات الطابع الخاص، إذ تنتج الملابس العربية والأفريقية حتى الآن، وتقوم بتسويقها للأسواق الخارجية العربية والأفريقية بشكل أساسى، كما تجد هذه السوق إقبالاً من بدو الصحراء الغربية الذين يحصلون على هذه المنتجات عن طريق الوسطاء والتجار الذين يأتون لهذه الأسواق للشراء بالجملة، ثم ينقلون البضائع لبيعها بتلك المجتمعات. كذلك لاحظت الباحثة إقبالاً طفيفاً على هذا السوق من أبناء الإسكندرية، من الشرائح الطبقية العليا من عشاق الملابس العربية، خاصة الجلاليب والعباءات المطرزة بالخيوط الملونة، والتى تباع بأسعار باهظة، نظراً لأن أغلب مراحل الإنتاج تتم بشكل يدوى.

كما تنتج بعض ورش السوق أجزاء من الزى المصرى التقليدى كالصديرى والجلباب، إلا أن هذه الورش لا تحتل منتجاتها نفس مكانة ورش إنتاج الملابس العربية، إذ أن معروضاتها لا تحتاج لنفس المهارة، كما أن أسعارها منخفضة.

وتكشف الدراسة عن درجة عالية من التكامل الوظيفى بين فئتى العقادين، كما تكشف أيضاً عن درجة عالية من التكامل بين هذا السوق ووحدات سوق المغاربة.

فسوق الخيط هو المصدر الأساسى للحصول على مختلف أنواع الأقمشة المخصصة لصناعة هذه الأنواع من الملابس ومنها الإمبريال والساتان والشاهى وغيرها، كما أن زنقة الستات هى المصدر الأساسى للحصول على خيوط التثبيت والحياكة والإبر وغيرها.

وحرفة العقادة وامتدادها بسوق الملابس العربية والأفريقية كانت وما تزال حرفة وراثية، كأغلب الحرف الموجودة بأسواق مجتمع البحث، وقد تقلصت وتركزت الآن فى عدد محدد من الأسر التى اشتهرت بها على مدى عدة أجيال. وينظر العاملون بهذه الحرفة لأنفسهم نظرة خاصة باعتبارهم فئة ذات مهارة متميزة وموروثة وتنتج إنتاجاً ذا طابع خاص، يتم إنتاجه وتسويقه بناء على عقود وصفقات خاصة تسبق عمليات الإنتاج ويوجه معظمها إلى الأسواق الخارجية، ويقول الإخبارى :

«الصنعة قديمة وقايمة على الوراثة، أنا ورثتها عن أبويا، وأبويا عن جدى، كل جدودنا كانوا شغالين فى النوع ده، والصنيعى اللى مبيعلمش

ولاده صنعته بتموت، أصلى ده مش ترزى عادى».

واتساقاً مع ما تقدم تتم عمليات الإنتاج بالاعتماد على الخبرة المتوارثة، والتصميمات التقليدية. «بنشتغل من غير كتالوج ولا مجلات ولا باترون ولاغيره».

ومن أبرز منتجات سوق الملابس العربية والأفريقية : الفارما (الصديرى) والزبون (صديرى كم طويل) والكات (قطعتان متكاملتان من الزى على غرار البدلة)، والجبه (العباءات)، والشاهية(عباءة ذات كم واسع ومفتوح) والسراويل، بالإضافة إلى أزياء السيدات من العباءات والأثواب والشيلان المطرزة، كما ينتج بالسوق مكملات هذه الأزياء، ومنها أغطية الرأس كالعقال والطرابيش والأحزمة والطرح المطرزة وغيرها.

ويقوم الإنتاج فى هذه الورش على نمط تقليدى، يظهر فيه تقسيماً بسيطاً للعمل، على أساس السن والنوع، وتدخل الأسرة فيه أحياناً كوحدة منتجة، حيث يقوم الأسطاوات داخل الورش بعمليات القص والتفصيل، بينما تضطلع النساء بمراحل الإنتاج اليدوى التى تتم داخل المنزل، فيقمن بعقد الخيوط على القماش، وتزويدها بالأزرار المصنعة من الخيوط الحريرية ... إلخ.

وتجدر الإشارة إلى ما أشار إليه العقادون فى هذا الشأن، حيث أكدوا أن زوجاتهم وبناتهم كان يقع عليهن عبء القيام بهذه المراحل قديماً، خاصة فى مواسم رواج السوق، أما الآن فقد أصبحت هناك فئة متخصصة من النساء تقوم بهذه المراحل داخل منازلهن أيضاً، ولكن لقاء أجر. كما لاحظت

الباحثة قيام العقادين أنفسهم بإنجاز كافة مراحل الإنتاج داخل الورش خاصة فى المواسم التى لا يشهد السوق فيها رواجاً وإقبالاً.

ونظراً لطبيعة الإنتاج التى تتطلب دقة وتركيزاً خاصة فى المراحل اليدوية، علاوة على أن السوق لايجتذب من سكان الإسكندرية أو غيرها من المحافظات المصرية إلا القليل، لذلك يتميز هذا السوق بهدوء نسبى مقارنة بغيره من الأسواق لكن هذا الهدوء يقطعه من آن لآخر بعض المارة الذين يقطعون المسافة من سوق الخيط وزنقة الستات، إلى الدقاقين مروراً بهذا السوق، كما تصل إليه – بحكم تداخل التوزيع الإيكولوجى – بعض أصوات المطاحن والمعاصر اليدوية، الخاصة بسوق الدقاقين، الذى على مقربة منه.

وتتمتع ورش إنتاج الملابس العربية بقدر من التنظيم – مقارنة بباقى الأسواق – كما تعرض بضائعها فى فتارين بشكل منسق يراعى فيه تكامل وحدات الزى، فتوضع مفردات الزى الليبى علي سبيل المثال متكاملة وهكذا ونتيجة لاعتماد السوق على الأسواق الخارجية فى تصريف منتجاته، لذلك تعانى هذه الأسواق من عدم الاستقرار الاقتصادى، إذ تتأثر حركة الإنتاج والتجارة فيها بالعلاقات الدولية؛ وقد أشار العقادون إلى تأثير الخطر الاقتصادى علي ليبيا خلال فترة إنجاز البحث فى صيف ١٩٩٥ علي حركة الإنتاج والتجارة داخل السوق.

ثانياً : سوق الدقاقين (العطارين) :

لهذا السوق فى الإسكندرية جذور تاريخية عميقة ترجع – كما سبقت الإشارة – إلى العصر الإسلامى، حيث كان بالإسكندرية باب يسمى بباب

البهار، تدخل عن طريقه التوابل والعطور القادمة من الهند والشرق، والتى تمثل أحد أنواع التجارة التى راجت بالإسكندرية منذ زمن بعيد (انظر الجزء ثانياً : النشأة والتطور).

وتكشف الملاحظات الميدانية عن ازدهار الحركة التجارية بهذه السوق، والتى تنعكس من خلال حركة روادة التى لا تنقطع طوال ساعات النهار، علاوة علي تنوع وتعدد أنواع السلع والبضائع المعروضة فيه، ورغم ما تقدم تؤكد آراء الإخباريين أن السوق فى انحسار مستمر، من حيث عدد ما يضمه من متاجر، وقد أرجع ذلك إلى أن حرفة العطارة – كغيرها من حرف السوق – حرفة وراثية، بينما اتجهت نسبة كبيرة من أبناء الدقاقين إلى التعليم، وهجر بعضهم الحرفة، أو اكتفى بالعمل فيها لبعض الوقت، كذلك أشاروا إلى أن المتاجر التى لم يكن لأصحابها ورثة قد تم التصرف فيها بالبيع أو الإغلاق.

وقد أدى ذلك إلى الانحسار النسبى فى عدد المتاجر التى يضمها السوق، وتشير النتائج إلى المتاجر التى يتم التصرف فيها للأسباب السابقة عادة ما تباع لأحد الدقاقين العاملين بنفس السوق، وغالباً ما يكون للتجاور المكانى أثراً فى ذلك، حيث يباع المتجر لصاحب المتجر المجاور، الذى يعمل بنفس الحرفة وقد ترتب على ذلك ظاهرة أشار الإخباريون أنها مصاحبة لما سبق، تتمثل فى اتساع مساحة بعض المتاجر عن طريق ضم المتجرين المتجاورين، ويتم ذلك عادة إذا كانت حالة المبنى تسمح بعمليات الهدم والبناء.

وفى غير ذلك من الحالات تستخدم المحال المجاورة كورش ملحقة بالمتجر الأصلى، عادة ما تستغل فى عمليات دق وإعداد الحبوب والتوابل والموغات وغيرها، بينما ظل الدقاقون محتفظين بالمعاصر اليدوية أمام متاجرهم فى نهر الطريق.

ويسيطر على هذا السوق طابع تجارى، ورغم ذلك نلاحظ فيه بعض عمليات الإنتاج التى يتمثل أهمها فى استخلاص الزيوت من البذور والنباتات الطبيعية، ومن أكثر أنواع الزيوت التى يتم استخلاصها فى السوق : زيت السمسم وزيت حبة البركة (الحبة السوداء) وزيت الخس وزيت الجرجير، كما يتم عمل توليفات لوصفات علاجية ووقائية وغذائية باستخدام ما يباع فيه من مواد وعناصر مختلفة، ويتم إنتاج العناصر السابقة بالاعتماد علي الخبرة المتوارثة، كما أن عمليات الإنتاج تتم بشكل جزئى بناء على طلب المستهلك الذى يحضر كافة مراحل الإنتاج، ويدخل أثناءها فى علاقة تفاعل وحوار مع المنتج (١).

ورغم ما يتميز به هذا السوق من طابع بسيط إلا أن حركة التجارة فيه لا تنفصل عن حركة التجارة العالمية، فهو يجمع بين جنباته منتجات مصرية وأخرى تأتى إليه من مختلف بقاع العالم، خاصة من الهند والشرق،

(١) يتم استخلاص الزيوت فى سوق الدقاقين خلال عدة مراحل تبدأ بطحن البذور أو الحبوب المراد استخلاص زيوتها، ثم تحمص فى آنية معدنية، ويخصص لكل نوع منها إناء خاص، ويتم التحميص علي شعلة من اللهب توضع فى وسط فنطاز حديدى أمام المتجر، ثم تدخل الحبوب بعد طحنها إلى المعاصر اليدوية التى تعتمد على القوة العضلية فى عمليات العصر، وتستقبل الزيوت فى آنية معدنية خاصة، ثم تعبأ فى زجاجات وتقدم للمستهلك الذى يحضر كل مراحل الإنتاج.

وتتضمن السلع المعروضة فى هذا السوق سلعاً غذائية وأخرى تستخدم لأغراض علاجية، وثالثة لأغراض وقائية، بالإضافة إلى العناصر التى تستخدم فى بعض الممارسات المرتبطة بالمعتقدات والعادات والتقاليد الشعبية، وغيرها مما يستخدم فى أغراض التجميل(١).

ونظراً لتنوع السلع المباعة فى هذا السوق فإن طريقة عرضها تتباين، فمنها ما يعرض على أرفف بداخل المحل كزجاجات الزيوت وغيرها، ومنها ما يحفظ فى أدراج مغلقة كالبخور والمواد العطرية، ومنها ما يعرض فى أجولة من القماش أو الخيش خارج وداخل المحل كالحبوب والبقول، ومنها ما يعرض فى آنية معدنية ضخمة توضع خارج المحل كالترسة ونجم البحر وحجر دم الأخوة وغيرها.

ويتردد على هذا السوق رواد من كافة الشرائح الطبقية يتنوعون أيضاً بين مستهلكين وتجار تجزئة ووسطاء التجارة، حيث تتم عمليات التجارة فى متاجر الدقاقين بنفس الأساليب الشائعة فى كافة الأسواق المدروسة إذ يتم التسويق بالجملة إلى جانب التسويق بالتجزئة، ومن أكثر مبيعات السوق التى تجذب المستهلكين من كافة أنحاء مدينة الإسكندرية، وترتبط بطابع فولكلورى خاص تلك المنتجات الخاصة بسبوع المولود، حيث تتم عمليات إنتاج الموغات بدق عروق الموغات وإضافة عناصر أخرى إليه وإعداد الحلبة

---

(١) نذكر من هذه الأنواع المتعددة على سبيل المثال لا الحصر : البخور بأنواعه المختلفة ودم الأخوة ونجم البحر والتماسيح وغيرها بفرض الاستخدام فى ممارسات اعتقادية، عرق الكريز والزيتونة الإسرائيلى والحربانة لأغراض علاجية والحنة وبعض أنواع الزيوت والمواد العطرية لأغراض التجميل وغيرها.

المحوجة وغيرها. وكذلك إعداد قلة وإبريق المولد، والشموع والحمص وغيرها من متطلبات احتفالية سبوع المولد.

وجدير بالذكر أن هذا السوق مازال محتفظاً بالكثير من ملامحه التقليدية إذ تقتصر ملامح التغير فيه على استخدام المطاحن الكهربائية بدلاً من المدقات اليدوية التقليدية (الهون)، بينما ظلت المعاصر تعمل بشكل يدوى تام، ومن ملامح التغير بهذا السوق أيضاً ظهور الإناث ضمن عمالته.

ثالثاً: سوق الجواهرجية (الصاغة):

تشير الشواهد الميدانية إلى أن هذا السوق يعد من أكثر الأسواق المدروسة استمراراً. كما تشير النتائج إلى أن هذا الاستمرار كان مصحوباً بمزيد من التوسعات. حيث شهد السوق توسعات خلال مراحل زمنية متتالية، فكانت نواته الأولى مجموعة من ورش إنتاج وتجارة المصوغات تتخلل سوق الصرفية، ويعمل بها اليهود والشوام. ومع بداية تراجع سوق الصرفية فى الثلاثينيات – طبقاً لآراء الإخباريين – بدأت وحداته تتحول تدريجياً إلى ورش للجواهرجية (الصاغة) حتى أصبح هذا السوق يشغل كافة مواقع سوق الصرفية. ثم شهد السوق مزيداً من التوسعات فى مرحلة لاحقة، على حساب أغلب متاجر المنى فاتورة التى تركزت بشارع فرنسا والتى كان يعمل بها أيضاً بعض اليهود والأرمن والشوام. وجدير بالذكر أن التوسعات التى شهدها هذا السوق مؤخراً تضمنت إنشاء وحدات تجارية (الجواهرجية) وليست ورش إنتاجية (ورش الصاغة). نتيجة لما تقدم يعد هذا السوق هو السوق الوحيد ضمن الأسواق التقليدية موضوع الدراسة الذى

شهد تحولاً نسبياً فى نمط الإنتاج التقليدى، حيث تقلصت وظائف وحداته الجديدة إلى الوظيفة التجارية دون الإنتاجية.

وقد جاء التحول فى نمط الإنتاج التقليدى مصاحباً لدخول فئة جديدة من الموسرين إلى سوق الجواهرجية بهدف الاستثمار واستغلال رؤوس الأموال. وقد اعتمد هؤلاء على ما تنتجه الورش التقليدية الموروثة من مشغولات. ومن ثم بدأت الورش القديمة تضاعف من وظيفتها الإنتاجية، حتى يمكنها الوفاء باحتياجات السوق، علاوة على احتياجاتها الخاصة من المنتجات التى تباع داخل نفس الورشة. وبذلك بدأت تتشكل بعض ملامح نمط جديد للإنتاج شمل كل من علاقات وقوى الإنتاج حيث بدأ الانفصال بين المنتج وصاحب رأس المال، كما تمثلت أبرز ملامح التغير فى قوى الإنتاج فى استحداث التكنولوجيا الحديثة - من نمط وسيط - فى بعض الوحدات الانتاجية، حتى يمكنها تقديم إنتاج أكثر غزارة يفى باحتياجات السوق، التى لم تعد قاصرة على ما ينتج ويعرض داخل نفس الورشة(١). كما بدأ التوسع النسبى فى حجم الورش ورغم ما تقدم ظل الكثير من الورش تعمل طبقاً لنمط الإنتاج التقليدى، معتمدة على العمالة العائلية من ورثة الحرفة، ويكون صاحب الورشة فيها هو المنتج والمشرف على عمليات الإنتاج. كما استمر الاحتفاظ بالتكنولوجيا اليدوية التقليدية أو إدخال

---

(١) من أبرز هذه التغيرات التكنولوجية استخدام أفران السبك الحديث، وماكينة صنع الشمع، بالإضافة إلى نوع خاص من الكاوتشوك يستخدم لطبع الاستنباط والسلندرات، وجهاز تفريغ الهواء من السلندرات بعد صب الجبس (فاكيوم).

تغيرات طفيفة على بعض أجزائها. وفى هذا النوع من الورش يفخر الصناع بالصناعة اليدوية، وبأنهم قد ورثوا الحرفة عن ذويهم، وبأنهم على خبرة ودراية بدقائقها وتفاصيلها بشكل لا يتوافر للدخلاء على حرفتهم ونستشهد هنا بتعليق جاء على لسان أحد الإخباريين يقول :

«النهاردة الجواهرجى مبقاش صنايعى، بقت تجارة وبقى فيها دخلا (دخلاء) كتير، أقعدى تشوفى بعنيك كل كام ساعة تلقى واحد داخل بحتة دهب يسأل . . والنبى تشوف لى دى دهب ولا لأ ؟ هو ده كان يحصل زمان؟ ولا يحصل مع حد منا ؟ الجوهرجى (الصايغ) المأصل أبا عن جد من غير لا دمغة ولا اختبارات يعرف الحتة اللى فى أيده إذا كانت دهب ولا فاصوا».

وجدير بالذكر أن وحدات الجواهرجية يظهر فيها درجة عالية من التكامل والاعتماد الوظيفى المتبادل، وتنعكس بعض صور هذا التكامل فى اعتماد بعض متاجر السوق على ما ينتج داخل ورش أخرى تقوم بالإنتاج والبيع لهذه المتاجر[1]. كما كشفت النتائج عن تكامل وحدات هذا السوق مع سوق الصاغة بالقاهرة، حيث أشار بعض العاملين بالسوق إلى جلب بعض المشغولات منها. كذلك أشار الإخباريون إلى صور التكامل بين الورش قديماً، والتى كان من أبرزها اعتماد الورش على بعضها الآخر فى الحصول

(١) تعتمد الورش التى تنتج للغير فى الحصول على المواد الخام على التاجر الذى يطلب منتجات بكم ومواصفات محددة يسبقها تقديم كميات مناسبة من الذهب - إما من السبائك أو المشغولات القديمة التى تباع للمتجر، حيث يقوم ورش الإنتاج بإعادة تصنيعها فى مقابل أجر على المصنعية.

على بعض المشغولات التى يطلبها المستهلكون ولا تكون متوفرة بالورشة حين طلبها. وتقوم علاقات التكامل بين هذه الورش على قاعدة الثقة والأمانة، وتلك صورة مازالت قائمة بين بعض الورش بالسوق، وهى تشكل أحد الأعراف السائدة فى كافة الأسواق الفرعية المدروسة.

ويستقطب هذا السوق - خاصة الورش الإنتاجية - أبناء الإسكندرية من الشرائح الطبقية العليا، حيث تقوم هذه الورش على غرار نمط الإنتاج الشائع بكافة الأسواق الأخرى بالإنتاج بالقطعة، بناء على طلب المستهلك وطبقاً لما يحدده من مواصفات، علاوة على ما يقوم بإنتاجه بالجملة لسد احتياجات السوق. كما يستقطب السوق شرائح الطبقة الوسطى وفضلاً عما تقدم يستقطب السوق أبناء القرى والمدن القريبة من الإسكندرية خاصة من محافظة البحيرة (دمنهور، كفر الدوار، رشيد وغيرها) سواء من المستهلكين أو التجار الذين يتوزعون فى أنحاء متفرقة من أحياء مدينة الإسكندرية وغيرها من المدن والقرى القريبة منها.

وجدير بالذكر أن سوق الجوهرجية يقوم بوظيفة أساسية لمجموعة الأسواق التقليدية المحيطة، إذ يضمن لها توافد المستهلكين بشكل دائم بحكم التداخل الأيكولوجى بينها.

٢ - الخصائص الاقتصادية المميزة للأسواق :

تتميز الأسواق موضوع الدراسة بأنها أسواق إنتاجية، أو كما جاء على لسان الإخباريين «أسواق صنايع». حيث كان بعضها ومازال قائماً على إنتاج ما تخصص فى عرضه وبيعه من سلع وبضائع، أى أنها وظيفة

مزدوجة إنتاجية وتسويقية في آن واحد. ومن أبرز السمات المميزة لعمليات الإنتاج والتبادل التجارى التى تتم داخل هذه الأسواق أنها لا تشكل عناصر منفصلة عن بعضها البعض، بل هى أجزاء متداخلة ومتكاملة، تشكل فى مجموعها نسقاً اقتصادياً. فالورشة وحدة الإنتاج هى ذاتها وحدة التسويق، والصانع المنتج هو نفس القائم بعمليات التبادل التجارى، سواء تمت جملة أو بالقطعة، كما أن السلعة المنتجة هى ذاتها أهم ما يعرض للبيع وهكذا.

ولعل ما تقدم يشكل سمة أساسية من سمات الصناعات الصغيرة بالمجتمع المصرى حيث أشارت دراسة شتاوت لورش الألمنيوم بالجمالية إلى أن الإنتاج السلعى الصغير والتبادل التجارى والورش والاسواق تتداخل فيما بينها لتشكل النسق الاقتصادى (George Stauth,1984, P.81)

ورغم تباين الأسواق المدروسة – كما أوضحنا – من جوانب عديدة أهمها : نوع الحرفة السائدة بكل سوق، ونوع البضائع أو السلعة المنتجة والمباعة، ومدى سيطرة الطابع الإنتاجى أو التسويقى أو الجمع بين كليهما – رغم هذا التباين – كشفت الدراسة عن قدر هائل من التماثل بينها، فيما يتعلق بنظامى الإنتاج والتسويق. ويصل هذا التماثل إلى الحد الذى يجعل فى إمكاننا أن نصدر بعض التعميمات حول خصائص هذين النظامين، فى معظم الأسواق التى غطتها الدراسة الميدانية. ورغم أننا قد أشرنا فى مواضع متفرقة إلى بعض ملامح نظامى الإنتاج والتسويق فى أسواق بعينها، فسوف نحاول فيما يلى أن نقدم عرضاً لأهم خصائص هذين النظامين بصورة أكثر شمولاً وعمومية وباعتبارها سمات عامة تميز مجموعة

الأسواق موضوع الدراسة.

أ – تتسم نظم الإنتاج فى الأسواق موضع الدراسة بقدر واضح من التماثل، وينطبق هذا التماثل على كل من قوى وعلاقات الإنتاج. فعلى مستوى قوى الإنتاج نلاحظ التماثل النسبى فى : خصائص الورش والمتاجر، بالإضافة إلى التماثل النسبى فى حجم رؤوس الأموال المستخدمة فى عمليات الإنتاج فى ورش ومتاجر السوق، وسوف توضح ذلك تفصيلاً فيما يلى :

– الورشة أو المتجر :

تشير الشواهد الميدانية إلى التفاوت النسبى فى حجم الورش والمتاجر من سوق لآخر، حيث يزداد الحجم نسبياً فى بعض الأسواق – خاصة الأسواق التى تعرضت لعمليات إعادة البناء والتنظيم – ويقل عن ذلك فى أسواق أخرى، لكنها فى مجموعها تعكس ورشاً محدودة المساحة، تفتقر إلى خصائص المصنع الحديث، إذ يتراوح متوسط حجم الورش والمتاجر ما بين ٨:٦ أمتاراً مربعة، كذلك تتشابه الظروف الفيزيقية للورش والمتاجر من حيث عدم ملاءمتها لعمليات الإنتاج والتسويق، إذ علاوة على صغر مساحتها تتسم بارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ونقص التهوية، حيث تخلو عادة من أى مصدر للتهوية باستثناء مدخل الورشة الذى يكون مكدساً دائماً بالبضائع وأدوات الإنتاج والمستهلكين... إلخ. كذلك تتميز الورش بضعف مستوى الإضاءة وغير ذلك مما تتطلبه شروط عمليات الإنتاج بشكل عام. ونتيجة لما تقدم نلاحظ أن أغلب الورش، باستثناء ورش الصاغة، تلجأ إلى

استخدام المساحة المواجهة للورشة من الطريق العام علي إنها جزء مكمل للورشة ، فتوضع به بعض أدوات الإنتاج، كما تمارس فيه بعض العمليات الإنتاجية . والمثال علي ذلك كما ذكرنا ماكينات التطريز التي توضع أمام ورش سوق الخيط ، والمعاصر اليدوية بالدقاقين، والمقاعد (الدكك) التي يجلس عليها العقادون من صانعي الملابس العربية والإفريقية أمام ورشهم لإنجاز المراحل اليدويه من الإنتاج. وتتطابق هذه الخصائص والظروف الفيزيقية المميزة للورش علي متاجر السوق التي يلاحظ فيها أيضا نفس نمط استخدام المساحات المواجهة لها. حيث توضع عليها حوامل البضائع وفتارين العرض (البنوك) بالإضافة إلى تكديس كميات هائلة من البضائع علي الأرض بمداخل المتاجر و أمامها .

كذلك تتشابه الورش والمتاجر من حيث إن أغلبها يوجد في مبان قديمه متصدعة، صدر لأغلبها أمر اخلاء إداري – طبقا للبيانات المأخوذه من الحي– وجدير بالذكر أن حالة المبني وقدمه كان لها تاثير واضحا علي نمط استخدام المساحة المواجهة للورش بشكل خاص، إذ أشار الإخباريون إلي ان أكثر ورش ومتاجر السوق كانت تقسم قديما من الداخل إلي مستويين : علوي ويستخدم في وضع أدوات الإنتاج وتتم به عمليات الإنتاج . وسفلي ويستخدم كمتجر تعرض فيه منتجات الورشة ، كذلك بالنسبة للمتاجر حيث كان القسم العلوي يستخدم في تخزين البضائع ، بينما يستغل الطابق الأسفل في عمليات البيع والتجارة .

وجدير بالذكر أن خصائص الورش بمجتمع البحث تطابق خصائص

ورش المشروعات الصغيرة، فى مصر والبلدان النامية بشكل عام، حيث أشار العديد من الدراسات التى عنيت بهذا الموضوع إلى أن هذه الورش عادة ما تكون محدودة المساحة، ولا تحمل خصائص المصنع الحديث، كما تفتقر إلى الأساليب الحديثة التى تساعد على خفض تكاليف الإنتاج (انظر على سبيل المثال Georg Stauth,1984,P.83, وسيد الحسينى، ١٩٨٢ ، ص١٦٢ واعتماد علام، ١٩٩١ ، ص٢١٧ وسعاد عثمان ، ١٩٩١، ص٢٩٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الورش ومتاجر السوق لا تقتصر وظيفتها على أنها مجال للإنتاج والتبادل التجارى وعلاقات الإنتاج التى تنشأ بين العاملين فيها أثناء عمليات الإنتاج فحسب، بل هى أيضاً مجال التفاعل الاجتماعى وممارسة الأنشطة الاجتماعية حيث تتحول فى بعض الأوقات إلى مكان لاستقبال الأصدقاء والزائرين من العاملين بالسوق وغيرهم – خاصة فى أيام العطلات – كما أنها فى علاقاتها وتنظيمها وتقسيمها للعمل تشكل جزءاً لا يتجزء من حياة المجتمع الذى توجد فيه، وتلك سمة أخرى من سمات ورش إنتاج الصناعات الصغيرة فى البلدان النامية كما تكشف عنها دراسات القطاع غير الرسمى.

– أدوات الإنتاج (التكنولوجيا) :

تعكس التكنولوجيا المستخدمة فى عمليات الإنتاج بالأسواق موضوع الدراسة فى مجموعها مستوى وسيط، ويجمع ما بين الاعتماد على اليدوية، مع ادخال الآلية محدودة النطاق – من مستوى وسيط – على بعض أدوات الإنتاج، تكون فى أغلب الأحيان الأداة الأساسية والأكثر استخداماً، بينما

تعمل باقى الأدوات بطريقة يدوية، ويستثنى من ذلك بعض ورش الصاغة والمثال على ذلك إدخال ماكينات التطريز الآلى بورش التطريزجية بسوق الخيط، وماكينات التفصيل الآلى بسوق العقادين (الملابس العربية والأفريقية) وهى تستخدم فقط فى تركيب أجزاء الزى بعضها بالبعض بينما ظلت باقى مراحل الإنتاج الهامة والدقيقة تتم بصورة يدوية تماماً، أيضاً يمكننا ملاحظة استمرار الطابع اليدوى على أدوات إنتاج الخراطين، إذ تمثل التطوير الآلى الوحيد فى إلحاق موتورات كهربائية على المخارط بينما ظلت باقى الأدوات محتفظة بطابعها التقليدى ومنها : الدفرة والمرزاب لاستدارة الخشب، والأزميز والشوكة لاستعدال الخشب، واللينة لعمليات الحفر على الخشب، والبرجب لقياس التخانة، والمكدة والأزمير وغيرها[1] وفى سوق الدقاقين يبدو التغير التكنولوجى فى إدخال الموتورات الكهربائية على المدقات اليدوية، بينما استمرت عمليات استخلاص الزيوت تعتمد على المعاصر اليدوية، وفى ورش الصاغة يلاحظ أن بعضها مازال يعتمد على التكنولوجيا اليدوية، فى حين أن البعض الآخر قد أدخلت عليه تغيرات تكنولوجية حديثة رغم أنها أيضاً من نمط وسيط[2].

---

(١) من اللافت للنظر أن الخراطين يقومون بصناعة هذه الأدوات بأنفسهم حيث يقومون بإعداد الأجزاء الخشبية منها داخل الورش، ويستعينون بخراطى الحديد فى صناعة الأجزاء المعدنية، ثم يقومون بأنفسهم بتركيب هذه الأجزاء ببعضها داخل ورشهم، ولقد أشار الخراطون إلى أن هذه الأدوات كانت تأتى مستوردة من إنجلترا غير أنها لم تتوافر بالأسواق منذ فترة طويلة.

(٢) تمثل أحدث التطويرات التكنولوجية فى صناعة الذهب فى استخدام السهر الكترونياً وهى تكنولوجيا يابانية يؤكد الإخباريون أنها لم تستخدم بعد فى مصر حتى الآن.

وتتمثل هذه التكنولوجيا فى مجموعة من الأدوات (الإيطالية) التى تعمل كخط إنتاج، يتخللها بعض مراحل الأداء اليدوى، وتتمثل هذه الأدوات فى : أفران السبك، ماكينةضخ الشمع، ونوع خاص من الكاوتشوك (الدبر)، سلندرات من الاستانلس ستيل تصنع خصيصاً لتحمل درجة حرارة عالية، بالإضافة إلى نوع خاص من الجبس (جبس النار) ويتم العمل بهذه الأدوات بدءاً بتصميم الأسطنبة يدوياً من الفضة، ثم تبدأ عملية طبع الإسطنبة (البصمة) على الكاوتشوك، فتترك فراغاً بالكاوتشوك له نفس تفاصيل الوحدة المراد صياغتها، ثم تعرض الإسطنبة الكاوتشوك لماكينة ضخ الشمع الذى يضخ فى درجة حرارة مرتفعة، وفى حالة سيولة كاملة، فيدخل الشمع فى فراغات الإسطنبة مكوناً تفاصيل الوحدات المطلوب صياغتها، وتجمع وحدات الشمع على شجيرات (تتشجر) وتوضع فى السلندرات، ويصب فوقها الجبس الذى يتخلل الفراغات الموجودة بين الوحدات ويسحب الهواء من هذه الفراغات باستخدام جهاز (الفاكيوم) فيتماسك الجبس بوحدات الشمع، يترك الجبس ليبرد ثم يدخل فرن السبك فى درجة حرارة ٧٠٠ درجة مئوية فيسيل الشمع تاركاً فراغات لها نفس تفاصيل الوحدات المطلوب صياغتها، يصهر الذهب يدوياً فى بوتقة خاصة، ويصب فى السلندرات فيشغل الذهب تلك الفراغات مكوناً المنتج المطلوب، يترك السلندر حتى يبرد ويطفأ فى الماء فتطرد وحدات الجبس من المشغولات، وتنظف وتوضع فى الأحماض لرفع الأكسدة ويشطب المنتج ويلمع.

- العمالة :

تتسم العمالة داخل ورش ومتاجر السوق بأن النسبة العظمى منها ملاك وشركاء فى الملكية فى الورش والمتاجر، لذلك نلاحظ تفاوتاً نسبياً فى نسبة العمالة من ورشة لأخرى، وفقاً لعدد الورثة أو المشاركين من ممارسى الحرفة، ونتيجة لما تقدم نلاحظ زيادة نسبية فى عدد العمال ببعض الورش والمتاجر وانخفاض فى بعضها الآخر، هذا رغم تقارب الإمكانيات الفيزيقية والتكنولوجية والاقتصادية للورش والمتاجر وبشكل عام يمكننا أن نقرر أن نسبة العمالة بوحدات السوق تبدو محدودة، خاصة فى ظل استمرار الطابع اليدوى فى بعض أدوات ومراحل الإنتاج، وازدواجية نظم التسويق بين الجملة والتجزئة، وتظهر العمالة المأجورة كنمط شائع فى الوحدات التى يغلب عليها الطابع التجارى، خاصة فى سوق المغاربة بوحدتيه.

ومن أهم السمات المميزة للعمالة بالأسواق المدروسة تباينها نوعياً وعمرياً مما يكشف عن نمط بسيط لتقسيم العمل وفقاً لمعيارى السن والنوع.

فمن حيث السن : تنقسم العمالة بكافة الأسواق إلى فئتين أساسيتين هما : الكبار : وتشمل هذه الفئة الأسطاوات أو المعلمين من أصحاب الورش والمتاجر، ويضطلع هؤلاء بالمراحل الأساسية من عمليات الإنتاج والتسويق، كما يقومون بالأدوار الإشرافية وفي بعض الأحيان تشمل هذه الفئة بعض الإجراء، خاصة عندما يقل عدد الورثة أو الأبناء من العاملين بالحرفة، وعادة ما يرتبط هؤلاء بمكان العمل منذ مرحلة الصبية، لذلك فهم يحظون بمكانة

متميزة لا تختلف كثيراً عن مكانة صاحب العمل وتشمل فئة الكبار كل من الشباب وكبار السن، أما الفئة الثانية : وهى الصبية من صغار السن وهى فئة تجمع ما بين العمالة المأجورة – وهى النسبة الشائعة الآن – إلى جانب نسبة محدودة من الأبناء، ويضطلع هؤلاء بالأدوار التكميلية، ويتلقون تدريباً من الكبار يتم جانب كبير منه بأسلوب غير مباشر، من خلال ملاحظة عمليات الإنتاج والتسويق والمشاركة في بعض تفاصيلها.

ومن حيث النوع : كشفت الملاحظة عن سيطرة عمالة الذكور على الأسواق التي يغلب عليها الطابع الإنتاجي، باستثناء سوق العقادين (الملابس العربية والإفريقية) حيث تشهد بعض وحدات هذا السوق تقسيماً بسيطاً للعمل على أساس النوع، فبينما يضطلع الرجال بعمليات القص والتفصيل، تقوم الإناث بعمليات التطريز وتركيب الحليات وعقد الخيوط على الملابس وتركيب الأزرار المصنعة من خيوط الحرير ... إلخ، غير أن أدوار الإناث لا تتم داخل الورش، وإنما تتم فى منازلهن، ثم ينقل المنتج إلى الورشة بعد إتمام عمليات الإنتاج، كما أن هذا التقسيم هو تقسيم موسمى غير دائم، يظهر فى مواسم رواج السوق ويتراجع فى مواسم الركود.

وجدير بالذكر أن عمليات التسويق تشهد أيضاً تقسيماً بسيطاً للعمل حسب النوع، فبينما يضطلع الذكور من أصحاب المتاجر بعمليات التسويق بالجملة وعقد الصفقات يقع على الإناث عبء القيام بعمليات التسويق بالتجزئة.

مما تقدم يتضح لنا أن تقسيم العمل داخل وحدات السوق هو تقسيم

بسيط يعتمد على معيارى السن والنوع، ويختفى فيه تقسيم العمل استناداً إلى مبدأ التخصص، كما أن المهارات هى مهارات موروثة أو مكتسبة يتم اكتسابها خلال الفترات الطويلة التى تقتضيها العمالة بالسوق بدءاً بمرحلة الصبية وانتهاءاً بممارسة أدوار الكبار.

- رؤوس الأموال :

تعكس غالبية الورش والمتاجر بما تتميز به من خصائص تشمل الورشة وإمكاناتها، ومستوى التكنولوجيا، ونسبة العمالة ... إلخ حقيقة هامة تتعلق بانخفاض حجم رؤوس الأموال المستخدمة في عمليات الإنتاج، فإذا ما وضعنا فى اعتبارنا النظام الشائع لملكية هذه الورش والمتاجر، والذى يقوم على نظام المشاركة فى الملكية بين مجموعة من الورثة، لأمكن لنا أن نتبين مدى انخفاض النسبة التى يساهم بها كل مالك أو منتج فى رأس المال.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أيضاً أن الأرباح والعائد من الإنتاج يقتسم بالتساوى بين مجموعة الشركاء، إذا وضعنا كل ذلك فى الاعتبار يمكننا أن نتبين انخفاض نسبة عائد الربح من الإنتاج، ومع ندرة العمالة المأجورة أو تلاشيها تماماً فى بعض الورش، تختفى مفاهيم فائض القيمة، ومن ثم تتقلص فرصة تراكم رأس المال، بالقدر الذى يسمح بتطوير هذه المشروعات أو تحسينها، إلا فى نطاق محدود للغاية، يضاف إلى ما تقدم أن أطراف علاقات الإنتاج وموقعهم المتساوى من ملكية أدوات الإنتاج تخلق نظماً للتكافل والتضامن الاجتماعى، حيث يشاركون بعضهم البعض للوفاء ببعض الحاجات الملحة أو الطارئة، ويتناوبون هذا التكامل والتضامن بصورة

مستمرة قد لا تسمح فى أغلب الأحيان بتراكم رأس المال.

وهكذا تستمر قوى الإنتاج محتفظة بكثير من خصائصها التقليدية ويظهر رأس المال المنخفض فى أغلب الأسواق كمحصلة أو نتيجة مباشرة لنمط الإنتاج التقليدى، وسبب فى استمراره في نفس الوقت، وبذلك تستمر هذه الأسواق كنمط يقوم بوظيفة أساسية لفئة أو شريحة طبقية من المجتمع تجد فيه سبيلاً للاستمرار والبقاء، رغم التفاوت النسبى فى مستوياتهم الاقتصادية تبعاً لنوع الحرفة وخصائص المنتج وأسعاره وحجم مبيعاته.

كما يستمر أيضاً هذا النمط ليلبى احتياجات شريحة طبقية لا تقوى على الوفاء باحتياجاتها من الأسواق الكبرى بالمدينة.

ومما يدعم النتائج السابقة فيما يتعلق بإنخفاض حجم رؤوس الأموال ما توصلت إليه الدراسة من أن القادرين مادياً من تجار ومنتجى السوق - باستثناء الجوهرجية والعقادين - ممن توافرت لهم رؤوس أموال تسمح بالتطوير والتحديث، قد حولوا ورشهم بالفعل إلى مصانع حديثة بالمناطق الصناعية وتحولت أغلب ورشهم إلى معارض لبعض منتجات هذه المصانع التى أصبحت أكثر ارتباطاً بالأسواق الكبرى بالإسكندرية وغيرها من المحافظات.

ب - تتم عمليات الإنتاج داخل ورش السوق بأسلوبين هما : الإنتاج بالجملة، ويتم لحساب الورشة، أو بناء على طلب التجار ووسطاء التجارة ومتطلبات التصدير بسوق الملابس العربية والأفريقية بشكل خاص، وطبقاً لهذا الأسلوب يتم تحديد كمية المنتج ومواصفاته فى ضوء خبرة المنتج

باحتياجات وآليات السوق، من عرض وطلب ومواسم الركود والرواج وغيرها، كما يتم الإنتاج بهذا الأسلوب وفقاً لذوق المنتج، وخبرته بأذواق المستهلكين أو وفقاً لمواصفات تحدد في عقود التصدير علي نحو ما يتم بسوق الملابس العربية والأفريقية، أما الأسلوب الثانى فهو الإنتاج بالقطعة (التجزئة)، ويتم الإنتاج فيه بناء على طلب المستهلك وذوقه، حيث تلبى هذه الأسواق الحاجات الفردية للمستهلكين، وتعد هذه الخصائص سمات عامة مشتركة فى كافة الأسواق ذات الطابع الإنتاجى، بدءاً بأبسطها كسوق الخيط والدقاقين والخراطين وانتهاء بأكثرها تعقيداً وتطوراً كورش الجوهرجية.

جـ - اتساقاً مع ما يحدث فى نظام الإنتاج، والتى تتضمن الإنتاج بالجملة لحساب الورشة والإنتاج بالقطعة بناء علي طلب المستهلك، نلاحظ أيضاً أن التسويق بكافة وحدات السوق يتم بطريقتين هما :

- التسويق بالجملة : ويتم عادة لتجار التجزئة من الأحياء المختلفة لمدينة الإسكندرية وتجار القرى ووسطاء التجارة[1]،

والذين يحملون بضائع هذه الأسواق إلى تجار التجزئة داخل الإسكندرية أو خارجها وعادة ما يحصل هؤلاء على إحتياجاتهم من البضائع بالأجل وبأسعار أقل من سعر التجزئة، ويبيعونها بأسعار تقارب

(١) تتضمن هذه الفئة بعض الباعة الجائلين الذين يحصلون على بعض بضائع هذه الأسواق - خاصة سوق الخيط وزنقة الستات - ويجوبون بها الأحياء الشعبية والفقيرة بالإسكندرية وغيرها من القرى والمدن القريبة، حيث تباع بالأجل .

أسعارها بالأسواق الكبرى بالمدينة أو تماثلها وتشكل هذه الفئة أهم الفئات التى تعتمد عليها السوق فى تصريف منتجاته.

وجدير بالذكر أن نسبة محدودة من هذه الأسواق تصدر مبيعاتها إلى الأسواق الخارجية بناءاً على عقود وصفقات بكميات ومواصفات محددة مسبقاً ونقصد بها سوق الملابس العربية والأفريقية، ويندرج هذا المستوى من مبيعات هذا السوق تحت نمط التسويق بالجملة أيضاً.

– التسويق بالتجزئة (القطاعى) : ويقتصر هذا الأسلوب على المبيعات التى تتم بشكل يومى مستمر لرواد السوق من المستهلكين من أبناء مدينة الإسكندرية بشكل خاص، ويزداد حجم المبيعات موسمياً خاصة فى فصل الصيف حيث ينضم إلى أبناء مدينة الإسكندرية زوار ومصطافى الإسكندرية، الذين يحرص بعضهم على التردد على هذه الأسواق للحصول على بعض الاحتياجات خاصة من سوق المغاربة وجدير بالذكر أن الأسعار التى تباع بها المعروضات للمستهلكين بالتجزئة تنخفض عن مثيلتها بالأسواق الأخرى داخل مدينة الإسكندرية بشكل ملحوظ.

وفى نطاق البيع بالتجزئة تظهر كثير من قواعد ومبادئ السوق كالمساومة فى الأسعار والمناداة وغيرها من أساليب جذب المستهلك التى سنفصل الحديث عنها فى موضوع لاحق، أما عمليات التسويق بالجملة فتكاد هذه القواعد تختفى فيها، حيث يرتبط الوسطاء والتجار بمتاجر بعينها، وتتم عمليات الحساب وغيرها فى جلسات خاصة بعيداً عن أعين المستهلكين.

د – رغم ما تتميز به هذه الأسواق من طابع تقليدى يميز كل من نظم الإنتاج والتسويق، إلا أن حركة الإنتاج والتجارة فيها لا تنفصل عن حركة الإنتاج والتجارة بالأسواق العالمية والنظم الصناعية الحديثة حيث تعتمد وحدات ورش السوق التى يغلب عليها الطابع الإنتاجى على منتجات الصناعة الحديثة العالمية والمحلية من الآلات والأدوات الحديثة التى تنهض عليها عمليات الإنتاج كما تعتمد الأسواق التى يغلب عليها الطابع التجارى على ما تنتجه هذه المصانع من سلع وبضائع تعرض جنباً إلى جنب مع منتجات السوق وهى بذلك تؤدى دوراً وظيفياً مزدوجاً إذ تسمح للصانع بالإطلاع على ما هو جديد ومن ثم تشكل حافزاً للتطوير والتجديد، ومن جهة أخرى فهى تضمن جذب مزيد من المستهلكين، ومن ثم فإن هذا التكامل يعمل كميكانيزم أساسى يمد هذه الأسواق بعوامل الاستمرار.

- سادساً :أهم النتائج والاستخلاصات :

– تشكل الأسواق موضوع الدراسة نسقاً كلياً مكوناً من عدة وحدات فرعية تتسم بدرجة من التكامل والاعتماد الوظيفى المتبادل، وتظهر أبرز صور هذا التكامل فى اعتماد بعض هذه الأسواق على بعضها الآخر كمصدر للحصول على ما يلزمها من المواد الخام ولوازم الإنتاج.

– تشير النتائج إلى حدوث تغيرات ملموسة فى الأسواق موضوع الدراسة، وتتباين مستويات هذا التغير بين تغيرات شاملة تتعلق باندثار بعض هذه الأسواق أو انحسار بعضها الآخر، وهناك أيضاً تغيرات أقل حدة ترتبط بما طرأ عليها من ملامح التغير، التى تشمل نوعية البضائع

والمنتجات، ومستوى التكنولوجيا المستخدمة فى عمليات الإنتاج، والتغيرات النسبية فى نمط الإنتاج التقليدى.

– فعلي مستوى التغيرات الشاملة تشير النتائج إلى اندثار بعض هذه الأسواق اندثاراً تاماً، ومثالها سوق النقلية والصرفية والحصرية والطربوشجية كما تكشف النتائج عن انحسار بعض هذه الأسواق انحساراً ملحوظاً، ومثالها سوق الدخاخنية والخراطين. بينما استمر بعض هذه الأسواق، مدعماً بمزيد من الازدهار ومثالها سوق الجواهرجية (الصاغة) والدقاقين، والأسواق التى يغلب عليها الطابع التجارى وتؤكد النتائج تباين المؤثرات التى لعبت دوراً فى اندثار بعض هذه الأسواق من سوق لآخر، فسوق النقلية جاء اندثاره مصاحباً لعمليات التطوير وإعادة تنظيم المنطقة المحيطة بالأسواق. ونظراً لأنه يؤدى وظيفة ويلبى حاجات المستهلكين، فقد انتقلت وحداته وتوزعت عشوائياً ضمن الأسواق الأخرى بالمدينة. أما سوق الصرفية فقد إرتبط فى نشأته بمحددات سياسية واقتصادية تاريخية، ومن جاء اندثاره مصاحباً لتراجع هذه المؤثرات. أما باقى الأسواق المندثرة كالحصرية والطربوشجية فإن اندثارها جاء نتيجة لتراجع وظيفتها بالنسبة للمجتمع، حيث لم تعد المنتجات التى تقدمها تطابق أذواق العصر، ومن ثم فهى لا تجد إقبالاً من المستهلكين، علاوة أن منتجات سوق الحصرية أصبح لها منافس فى الأسواق من منتجات الصناعية الحديثة، من الحصر البلاستيك التى تصنع بخامات أقوى، وتعرض بأسعار محدودة، تلائم احتياجات الشرائح الطبقية الدنيا، التى يزداد طلبها على هذا النوع من

المنتجات، أما الأسواق التى تشهد انحساراً ملحوظاً، خاصة الدخاخنية والخراطين، فقد تراجعت أيضاً نتيجة لمنافسة منتجات الصناعة الحديثة.

– أما الأسواق التى لوحظ استمرارها وازدهارها فتؤكد النتائج أن هذا الاستمرار مدعما بما تؤديه من وظائف، حيث مازالت منتجاتها تشهد إقبالا ملموسا من شرائح طبقية متباينة. وتؤكد هذه النتائج أن العناصر الوظيفية تقوى وتتدعم، أما العناصر غير الوظيفية فهى تتراجع ولا تقوى على مقاومة عوامل الانحسار. هذا فيما يتعلق بالتغيرات الشاملة التي تعرضت لها الأسواق التقليدية بالإسكندرية. أما علي مستوى التغيرات الأقل حدة، والتى تعكس بعض ملامح التغير فى الأسواق القائمة بالفعل فتتمثل فيما يلى :

– التراجع النسبى فى الوظائف الإنتاجية لبعض هذه الأسواق، فى مقابل ازدهار وظائفها التجارية.

– التجديد والتنويع فى بعض أنواع البضائع من منتجات الصناعة الحديثة المحلية والعالمية، ويتسع نطاق هذا التنوع إلى الحد الذى نلاحظ من خلاله بضائع متباينة تماماً مع ما عرف عن بعض هذه الأسواق من خصوصية اقتصادية تقليدية. مثال ذلك الأدوات الكهربائية التى تعرض ببعض وحدات سوق الخيط. لكن رغم ما تقدم مازالت هذه الأسواق تحتفظ بكثير من أنواع البضائع التقليدية، طالما أنها تشهد إقبالا من رواد السوق.

– التطوير التكنولوجي فى بعض أدوات الإنتاج، وهو تغيير غير شامل، كما أنه يتباين أيضاً من سوق لآخر، حيث تزداد نسبة التطويرات التكنولوجية ببعض هذه الأسواق مثل سوق الجواهرجية، بينما تنخفض

نسبة التطوير التكنولوجى فى أغلب الأسواق إلى آلة واحدة، وتظل باقى الأدوات محتفظة بطابعها اليدوى التقليدى.

- ظهور بعض ملامح التغير فى نمط الإنتاج التقليدى ببعض هذه الأسواق، خاصة سوق الجوهرجية، وقد جاء هذا التحول مصاحباً لدخول فئة جديدة من الموسرين إلى سوق الجوهرجية بهدف الاستثمار واستغلال رؤس الأموال، معتمدين على ما تنتجه الورش التقليدية من مشغولات ورش الصاغة مما دفع هذه الورش إلى التطوير فى أدوات لإنتاج. وبذلك بدأت تتشكل ملامح نمط إنتاج جديد، بدأ فيه الانفصال بين المنتج وصاحب رأس المال، وظهرت فيه العمالة المأجورة بعد أن كان أكثر العاملين بالحرفة من ملاك الورش وورثتها.

- تشير النتائج إلى وجود مجموعة من القواعد والمبادئ الأساسية المتفق عليها بين العاملين بالسوق، تنظم أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية، وتعمل كميكانيزمات لحفظ التوازن داخل السوق. وتشمل هذه المبادئ قواعد خاصة بتحديد العلاقات بين العاملين بالسوق بعضهم بالبعض، وأخرى خاصة بتحديد أنماط العلاقة بينهم وبين رواد السوق من مستهلكين وتجار ووسطاء التجارة ... إلخ، وتضمن هذه القواعد : المناداة، المساومة فى الأسعار، التكامل الاقتصادى بين وحدات السوق، الاتفاق المسبق على الأسعار، المعايير التى تحدد نمط العلاقة بالمستهلك، استفتاح الجار .. هذه علاوة على مجالس الصلح التى يعقدها كبار العاملين بالسوق لحل ما قد يطرأ من مشكلات، من خلال متابعة مدى الالتزام بالقواعد

السابقة وردع الخارجين عليها.

– فضلا عن مجموعة القواعد التى تنظم العلاقات بين العاملين بالسوق، تشير النتائج إلى مجموعة من الاعتبارات يتم فى ضوئها تحديد نمط العلاقة بالمستهلك أثناء عمليات البيع والشراء. وتتمثل أهم هذه الاعتبارات فى : خبرة التجار ووعيهم الكامل بالسوق وآلياته من عرض وطلب وأسعار، بالإضافة إلى معرفتهم الدقيقة بكافة التفاصيل المتعلقة بمتاجر السوق، وفى ضوء هذه الخبرة يتم تحديد الأسلوب الأمثل للتعامل مع المستهلك، وحجم التنازلات التى يمكن أن يقدمها البائع فى الأسعار وغيرها. من هذه الاعتبارات أيضا خبرة التجار المكتسبة حول سيكولوجية المستهلك، والتى يمكنهم فى ضوئها معرفة ما إذا كان راغباً فى الشراء، أو عازفاً عنه (جاى يتفرج)، أيضا حجم ونوع المبيعات التى يطلبها المستهلك، بالإضافة إلى نسبة تردده على السوق، وفى ضوء هذه الاعتبارات يتم تحديد الاسلوب الامثل للعلاقة بالمستهلك أثناء عمليات البيع والشراء.

– يتسم رواد هذه الأسواق بالتنوع الطبقى والثقافى، ويمكننا أن نلاحظ تفاوتاً نسبيا بين الأسواق الفرعية من حيث الانتماء الطبقى والثقافى لروادها. فالأسواق ذات الطابع التجارى تبدو أكثر قدرة على جذب المستهلكين من شرائح طبقية مختلفة نتيجة لتنوع معروضاتها من ناحية، فضلا عن عمليات التجديد المستمر فى نوعية هذه البضائع، التى تشمل منتجات محلية وأخرى عالمية. أما الأسواق ذات الطابع الإنتاجى فتتفاوت الشرائح الطبقية لروادها، فبينما يندرج أغلب رواد سوق الجوهرجية ضمن

الشرائح العليا والوسطى، نجد أن سوق الخراطين يجتذب الشرائح الدنيا، وبعض من الشرائح الوسطى، كما يتنوع رواد هذه الأسواق ثقافيا بين حضريين من الإسكندرية وغيرها من المدن القريبة وريفيين من قرى المحافظات الأخرى، علاوة على ما تقدم تجتذب بعض هذه الأسواق فئات خاصة كسوق الملابس العربية والأفريقية، وسوق الدخاخنية. أما أكثر هذه الأسواق جذبا لكافة الشرائح الطبقية فهو سوق الدقاقين.

وفى ختام مناقشة النتائج تجدر الإشارة إلى بعض الاستخلاصات العامة حول هذه الأسواق، باعتبارها تشكل جزءا لا يتجزأ من قطاع الاقتصاد غير الرسمى، وهى استخلاصات يمكن أن تندرج تحت بعض القضايا التى تثيرها دراسات القطاع غير الرسمى وقد ورد بعضها ضمن نتائج الدراسة.

وأهم هذه الاستخلاصات ما يأتى :

- إن عمليات الإنتاج داخل ورش السوق التى مازالت محتفظة بوظيفتها الإنتاجية تتم خارج نطاق المصنع بمفهومه الحديث. حيث تتميز هذه الورش بظروف فيزيقية متدنية، لا تتطابق مع شروط الصناعة الحديثة، سواء من حيث مساحتها أو تهويتها أو إضاءتها، أو توزيع أدوات العمل بها، أو حجم العمالة بالورشة.. إلخ. ولذلك تلجأ هذه الورش إلى استخدام المساحات المواجهة لها من الطريق العام على أنها جزء مكمل للورشة، توضع به بعض أدوات الإنتاج أو التكنولوجيا المتاحة لا تنسق كما وكيفا - رغم ما طرأ

عليها من تطويرات – مع متطلبات الإنتاج بمفهومه الحديث. كما أن تقسيم العمل داخل هذه الورش ينهض على معايير تقليدية تختفى فيها مفاهيم التخصص، ويحل محلها معايير بسيطة لتقسيم العمل على أساس معيارى السن والنوع، علاوة على صغر حجم رؤس الأموال المستخدمة فى عمليات الإنتاج بشكل عام ، رغم التباين النسبى من ورشة لأخرى وفقا لنوع الصناعة.

– رغم ما تقدم فإن عمليات الإنتاج والتبادل التجارى داخل هذه الأسواق لا تنفصل انفصالا تاما عن المشروعات الرأسمالية أو النظم الصناعية الحديثة، بل تترابط بها بشكل غير مباشر، وتتكامل معها من عدة جوانب، فهى المصدر الرئيسى للحصول علي الأدوات والآلات خاصة من التكنولوجيا الحديثة التى عرفت طريقها إلى هذه الأسواق. وفضلا عما تقدم تعتمد هذه الأسواق على بعض منتجات الصناعة الحديثة التى تعرض جنب إلى جنب مع منتجات السوق، وهى بذلك تؤدى دوراً وظيفياً لعمليات الإنتاج داخل هذه الورش الصغيرة. حيث تشكل حافزاً للصناع للتطوير والتعديل فى الخامات والأنواق بما يضمن جذب المستهلك، ومن ثم استمرارية هذه الأسواق، التى تمنح بدورها الاستمرار والبقاء لفئة أو شريحة من الحرفيين العاملين بالسوق، فضلا عن توفير فرص العمل والدخل لشريحة أخرى أكثر احتياجا كالصبية والمنادين وغيرهم.

– إن عمليات الإنتاج والتبادل التجاري التى تتم داخل هذه الأسواق، وكذلك الوحدات التى تضطلع بهذه العمليات من ورش ومتاجر لا تشكل

عناصر منفصل عن بعضها البعض، بل هي أجزاء متداخلة ومتكاملة تشكل
في مجموعها نسقاً اقتصادياً.

- تسم هذه الأسواق أيضا بأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المحلي
الحيط، ترتبط بكل مظاهره، كما أنها تعكس معايير المجتمع المحلي
الاتصالات والتفاعلات الاجتماعية الوثيقة التي تربط بين

قائمة المراجع

أولا : المراجع العربية :

- إبراهيم العدل المرسى : النشاط الاقتصادى للجالية الفرنسية فى مدينة الإسكندرية فى عهد الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٨٩)، منشور فى : مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط عبر التاريخ، بحوث المؤتمر (الكتاب الثانى)، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، ١٩٩٤، ص ص ٣٩ -٩٣.

- السيد الحسينى : التصنيع فى الدول النامية (الأن منتجوى) الطبعة الأولى، ١٩٨٢.

- السيد الحسينى : التحضر فى الأقطار النامية : الملاح والمشكلات، ب ن ، ١٩٩١.

- اعتماد علام، الحرف والصناعات التقليدية بين الثبات والتغير، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى، ١٩٩١.

- بلاكمن، وينفريد، الناس فى صعيد مصر : العادات والتقاليد، ترجمة أحمد محمود، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

- جمال الدين الشيال، الإسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار المعارف المصرية، ١٩٤٩.

- جمال الدين الشيال، تاريخ الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى، من كتاب : الإسكندرية، غرفة الإسكندرية التجارية، الإسكندرية، ١٩٤٩.

- جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف،

الإسكندرية ١٩٦٧.

- حسين خلاف، التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث، دار إحياء الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٢.

- سعاد عثمان أحمد، سبك المعادن، دراسة فى الثقافة المادية، منشور فى: علياء شكرى وأخرون: علم الاجتماع الاقتصادى والتنمية الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١.

- سعد الجادر ، لمحات عن الحلى الفضية المغربية، منشور فى : المأثورات الشعبية، العدد الرابع والثلاثون، أبريل ١٩٩٤، ص ص ٦٠-٧٥.

- عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف فى مصر (١٨٠٥-١٩١٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣.

- على بركات، رؤية على مبارك لتاريخ مصر الاجتماعى، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، عدد ٥٤ سنة ١٩٨٢.

- محمد الجوهرى، عبد الله الخريجى، طرق البحث الاجتماعى، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠.

- محمد الجوهرى، دراسة علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٧٩.

- محمد حافظ، دور الجاليات الأجنبية فى النمو الحضرى فى مصر: مع إشارة خاصة لمدينة الإسكندرية، منشور فى : مؤتمر الإسكندرية الدولى الأول حول التبادل الحضارى بين شعوب البحر المتوسط عبر التاريخ، بحوث المؤتمر (الكتاب الثانى) جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، ١٩٩٤، ص ص ٩٥-١٤٠.

- محمد رشدى، التطور الاقتصادى فى مصر، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

- محمد صبحى عبد الحكيم، مدينة الإسكندرية، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

- محمد عبد الحميد الحناوى، تخطيط مواقع الإسكندرية القديمة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، ب ت.

- نبيل عبد الحميد سيد أحمد، النشاط الاقتصادى للأجانب وأثره فى المجتمع المصرى، من (١٩٢٢-١٩٥٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.

ثانيا : المراجع الأجنبية

- Beneton, Iaren. invisible factories : the informal economy and industrial development in spain in : American Anthropologist, vol. 94, No. 1 March 1992.
- Bloch, Maurice, Marxist analysis and social Anthropology. A.S.A. Studies, General Editor : Edwin Ardener, Tavistock Publications, London and New York, 1984.
- Geertz, C. Peddlers and Princes, University of Chicago Press, Chicago, 1963.
- Godelier Maurice, Modes of Production, Kinship structures in : Bloch , Maurice, Marxist analysis and Social Anthropology, General Efitor : Edwin Ardener Tavistock PublicationLondon, and New York, 1984.
- Kahn Joel, Economic Scale and the cycle of petty Commodity production in wesy Sumatra in : Maurice, Marxist analysis and Social Anthropology. General Editor : Ediwin Ardener, Tacistock Publications, London and New York, 1984.
- Stauth, Georg, Gamaliyaa : informal Economy and Social life in a popular Quarter of Cairo in Hopkins, Nicholass, 1984.
- Warren, Roland, the community in America, Rand Mc, Nally, Chicago, 1963.

الاتصالات الثقافية بين مصر واليونان
دراسة فى أنثروبولوجيا المجتمعات القديمة

الدكتور / مصطفى عمر حمادة
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية
قسم الأنثروبولوجيا

الاتصالات الثقافية بين مصر واليونان
دراسة فى انثروبولوجيا المجتمعات القديمة

مقدمة :

برغم أن الكثير من الدراسات فى تحليل وتحديد المنطقة الثقافية ينظر إليه من خلال الواقع الإثنوجرافى لفترات معينة، فقد جرت بعض المحاولات لدراسة المفهوم بالنظر إلى العمق الزمنى. وقد أثمرت هذه الجهود عن اتجاهين رئيسيين هما :

(١) **الأول** هو ثبات نفس الأنماط الثقافية أو الصيغ الثقافية فى مناطق معينة عبر فترات طويلة، وقد أشار كروبير ضمنا فى كتابه «صيغ النمو الثقافى» سنة ١٩٤٤ إلى أحد جوانب تحليل الاستمرارية وهو يستخدم الصيغ ليطبقها على تقاليد استمرت لفترة طويلة فى حضارات العالم القديم، وبصفة خاصة بالنظر إلى مواقعها الجغرافية. وهو بذلك يعزل الاهتمامات المتغيرة وانفجارات الطاقة التى تحدث فى أوقات مختلفة على أنها ذروات زمنية داخل التيار الرئيسى للصيغ المحلية «التشكيلات أو الصيغ المكانية» Localized Configuration[1].

(٢) **والثانى** هو ثبات التقاليد الراسخة أو الطبقات التحتية التى قد يكون لها تأثيرات محدودة على اتجاه التثقيف وقد أوضح كلا من سميث (١٩٥٢) وسرفيس (١٩٥٥) فى كتاباتهما عن الساحل الشمالى الغربى

(1) Robert, W. and G. Henderson, Culture Area (In Inter, Encyc, of Soc. S., Vol. 3, p. 563).

لأمريكا الشمالية واللاتينية تأثيرات التقاليد التى تتميز بها مناطق معينة عن الأنماط المحلية للتغير الثقافى[1]. كذلك طبقت تأثيرات تلك التقاليد الراسخة ونواحى الاستمرار فيها بشكل تجريبى على أركيولوجيا جنوبى غرب الولايات المتحدة.

وبنفس الطريقة تبدو لنا ثقافة العصر البرونزى لليونان وكريت على سبيل المثال تقع هى الأخرى فى «نطاق التقليد المشترك» Co. Tradition[2]. وهذا المفهوم يعنى أنه مفهوم لثقافات متشابهة إلى حد ما ذات صلة بعضها ببعض وإن كانت متميزة بدرجة يمكن التعرف عليها وتبقى لفترات طويلة داخل منطقة ما. وتوحى كلمة «تقليد» بالثبات، وهذا يعنى الربط الثقافى الذى ينحدر من أصول مشتركة، تلك التى تبقى على اتصال كأساس لعملية التكيف الثقافى.

(٣) **أما الاتجاه الثالث** لمفهوم المنطقة الثقافية الذى يختص بالزمن أيضا ليس له صلة باستمرارية التقاليد الثقافية وهو يتضح يوما بعد يوم وخاصة فى الأطر الأركيولوجية ويكشف رسم خرائط المناطق الثقافية فى فترات مختلفة عن أقاليم وحدود تحافظ على بقائها وتعود إلى الظهور عندما تجتاح المنطقة شعوب ذات أنماط ثقافية مختلفة بشكل واضح.

فسواء أكان عاجلا أم آجلا تميل نفس الخطوط الجغرافية إلى إعادة إنشاء نفسها، ومن الأمثلة الدالة على ذلك التطابق الشديد بين تأقلم

(1) Simth, M.W., 1952, Culture Area and Culture Depth : With data from the Northwest Coast, P. 80.

(2) Robert, W. and G. Henderson, Op. Cit., P. 566.

الحضارة الأنجلو-أمريكية المعاصرة فى الولايات المتحدة والمناطق الثقافية لهنود أمريكا الشمالية[1]. وهنا نرى إحلالا لشعوب جديدة بتكنولوجيا جديدة محل السكان الأصليين بيد أن العوامل البيئية والجغرافية أعادت تأكيد ذاتها.

ويرى الباحث أن هذا يبدو كأنه يشير إلى شكل من أشكال الوحدة الجغرافية، ينتج عنه، على الرغم من انقطاع الاستمرارية الثقافية، بقاء أو إعادة ظهور المناطق والحدود فى أوقات مختلفة.

وقد شكلت تلك العمليات المشابهة التاريخ الثقافى لمنطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط وأوربا[2].

وخلاصة القول نستنتج مما سبق عرضه أن مفهوم المنطقة الثقافية هو وسيلة لتنظيم كمية كبيرة من المعلومات الإثنوجرافية فى وحدات شاملة داخل إطار نسق تصنيفى، وهو يعتمد على عدد متزايد من القواعد أو المقررات فى عزل الوحدات فى نظام تنازلى من حيث الحجم والاعتبارات الكبرى فى التعرف على هذه المناطق.

والمناطق الفرعية هى مناطق بيئية، وأنماط للتكامل الثقافى وعلاقات نسبية بين سمات تنتشر بشكل مستقل.

وعلى الرغم من أن التعرف المبدئى قد يعتمد جزئياً على البديهية، فإن دراسات التوزيع تعمل كوسائل تحكم فعالة. وتبدو العمليات المحددة الهامة

(1) Ibid., P. 567.
(2) Ibid., P. 568.

لتكيفات ثقافية مع البيئة والتركيز الداخلي على الاحتكاكات داخل منطقة ما تسببه الأنماط الطبوغرافية الإقليمية التي تنتج عزلات ثقافية وتبقى هذه العوامل خلال الزمن وتلقى تعبيرا عنها إما في استمرارية التقاليد الثقافية وإما في عودة نفس المناطق أو الحدود إلى الظهور حتى إذا انقطع استمرار التاريخ الثقافي المحلي. والمفهوم بهذا بعيد عن الاستاتيكية، فهو ينظم المعلومات الثقافية في شكل يجعلها مفيدة للتحليل المقارن ولفهم الديناميات الثقافية وعمليات التاريخ الثقافي.

ولكي تتضح أمامنا الصورة لرسم التاريخ الثقافي لمنطقة البحر المتوسط الثقافية باعتبارها تمثل منطقة ثقافية منذ القدم نتيجة للاتصالات الثقافية القديمة وكذلك الاتصال الجغرافي والتجاري وما إلى ذلك، فإن إعادة بناء تاريخ الثقافة القديمة لها يمكن أن يقوم إلى حد بعيد.

أما إعادة بناء تاريخ الثقافة القديمة، وبخاصة لتلك المجتمعات التي لا تعرف الكتابة تعتبر معقدة جدا، وذلك لانعدام السجلات المكتوبة، فالتسجيلات الكتابية لبعض الشعوب أو الجماعات المنعزلة جغرافياً وثقافياً كالتي تعيش في مناطق الغابات الاستوائية جنوب أمريكا وغينيا الجديدة نادرة أو تكاد أن تكون كذلك. ومن هنا فإن إمكانية الحصول على المادة المتاحة لا تمكنا من أعادة بناء تاريخ الثقافة ومازلنا حتى الآن في حاجة إلى تطوير وتنوع المصادر التي تفي بتحقيق هذا الغرض.

وبصفة عامة يمكن القول إن محاولة رسم صورة للثقافات القديمة إنما

---

(١) فاروق مصطفى إسماعيل، ١٩٨٠، الأنثروبولوجيا الثقافية، ص ١١٩.

يعتمد على مصادر ثلاثة[1].

(١) **المصدر الأركيولوجى**: الذى يقوم بتحليل المخلفات المادية لطرق حياة هذه الثقافة أو تلك.

(٢) **المصدر اللغوى**: يستهدف تحليل لغات الثقافة المتباينة فربما يكشف هذا عن نشأتهم أو أصولهم أو أوجه الشبه بينهم وبين جيرانهم الذين شاركوهم فى وقت ما ثقافتهم الأصلية.

(٣) **الإثنوجرافيا المقارنة**: هى مصدر هام للحصول على المادة التى تمكننا من مقارنة أساليب الحياة للجماعات التى نريد دراستها وغالبا ما تكشف عن المتشابهات التى تدعم إمكانية الاستعارة الثقافية.

والباحث يتفق مع هذا الرأى، حيث إن هذه المصادر الثلاثة السابق ذكرها من منطلق دراستنا لمنطقة البحر المتوسط الثقافية. فقد كان لمنطقتنا محل الدراسة اتصالات ثقافية واقتصادية مع بعض مجتمعات البحر المتوسط مثل اليونان وليبيا وكريت وقبرص وغيرها كشفت عنها التسجيلات الحفرية، والأدلة المادية على ذلك واضحة كما يتبين لنا عندما نتعرض لمنطقة غرب الدلتا فى عصور ما قبل التاريخ وعلاقتها بتلك المناطق الثقافية الأخرى داخل إطار منطقة البحر المتوسط كما سيتضح ذلك فى الفصل الثانى.

ومن هنا فإن المنطلق النظرى والمنهجى لنا فى دراسة تلك المنطقة ينبثق من هذه المصادر على اعتبار أن المصدر الأركيولوجى يعتبر مدخلا أساسيا فى تحيل بعض الجوانب الثقافية المادية والتى عن طريقها يمكن

رسم صورة عامة لطبيعة العلاقات الثقافية القوية بين تلك المناطق وما نجم عن ذلك من أساليب الاستعارة الثقافية أو الانتشار الثقافى الذى شمل أغلب تلك المناطق الثقافية. فالمصدر الأركيولوجى هام جدا وحيوى لمعرفة الأطر الثقافية المادية وما نتج عنه من تحليل المخلفات المادية لطرق حياة هذه الثقافة أو تلك.

كذلك يقوم المصدر اللغوى بدور هام فى تحليل لغات الثقافات المختلفة. ويكون الاعتماد عليه فى بيان أوجه الشبه والاختلاف بين ثقافات المنطقة عن طريق الدراسة المقارنة، فقد يكشف المصدر اللغوى عن نشأة أو أصول تلك اللغة الخاصة بمجتمع ما. أو قد يبين أوجه الشبه بينهم وبين جيرانهم الذين شاركوهم ثقافتهم الأصلية فى وقت ما. فقد كان اتصال مصر باليونان مثلا يوضح أهمية هذا المصدر اللغوى حيث شارك اليونانيون المصريين ثقافتهم واتصهروا داخل بوتقة الثقافة المصرية فى وقت ما وظهر ذلك فى اكتسابهم للغة المصرية كما تأثر المصريون ببعض الكلمات اليونانية وبعض أنماط السلوك الأخرى.

وهذا ما حدث مع ليبيا سواء أكان ذلك عن طريق الإقامة أم الزواج أم الحروب أم غير ذلك منذ العصور القديمة حتى الآن.

أما المصدر الثالث : فإن الباحث يتفق معه تماماً ويرى أنه من الأهمية بمكان حيث إن المقارنة ذات تأثير قوى فى إظهار الأهمية النظرية والمنهجية عند تحليل المادة الإثنوجرافية ويظهر ذلك من مقارنة أسلوب الحياة الاجتماعية والثقافية والتى توضح إمكانية تدعيم فكرتى الانتشار والتكيف الثقافى. فقد ذهب الانتشاريون إلى تأكيد الحقيقة القائلة «بأن انتشار

السمات الثقافية بين الثقافات المتباعدة أو القريبة يساعد على تهيئة الظروف الكفيلة بأحداث التغير الثقافي أو الانتقال من مرحلة إلى أخرى[1].

ومن هنا نجد أنهم أبرزوا أهمية الاتصال الثقافي Cultural Contact الذي يعني التفاعل بين الجماعات وبالتالي انتشار السمات الثقافية Cultural Traits من مجتمع لآخر.

وترى المدرسة البريطانية التي يتزعمها إليوت سميث Elliot Smith ووليام بيري W. Perry وريفرز W.Rivers، أن هناك مركزاً للحضارة هو مصر والتي عرفت الزراعة كما عرفت بناء الأهرام وعبادة الشمس ومنها انتقلت إلى الكثير من أنحاء العالم، فأهرامات المكسيك واليابان والسودان أو العراق إنما هي في الحقيقة تقليد للنموذج المصري[2].

وقد ذهب هؤلاء الانتشاريون إلى أن هذه الأبنية المعقدة لا يمكن اختراعها ذاتياً بواسطة هذه الشعوب، وقد أكدت هذه المدرسة أن التطور المتوازي المستقل نادر الحدوث، لأن الناس ليسوا جميعاً مبتكرين بالفطرة وأنهم يميلون للاستعارة. وقد ظهر العديد من المصطلحات الأخرى لتعلل هذه الاستعارة، ومن هذه المصطلحات التقارب أو الالتقاء الثقافي Cultural Convergence، وكذلك التوازي الثقافي Cultural Parollelism، وأخيرا التطور المتقارب للثقافات Convergence Evolution ويتضح معنى هذه المفاهيم على النحو التالي:

---

(١) فاروق مصطفى إسماعيل، ١٩٨٠: المرجع السابق، ص ١٢٢

(٢) فاروق إسماعيل، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(١) التقارب الثقافى يعنى تطور سمات ثقافية متشابهة فى ثقافتين أو أكثر إما عن طريق الانتشار أو من خلال ما يسمى بالتوازى الثقافى، الذى يشير هو الآخر إلى سمات ثقافية متشابهة فى منطقتين جغرافيتين منفصلتين نشأتا نشأة مستقلة[١].

وقد اقتصر بعض الكتاب فى استخدامهم لهذا المصطلح عى هذه الظاهرة الأخيرة، وهذا يعنى بعبارة أخرى أن التقارب الثقافى هو عملية تغير يحدث خلالها نمو وتصور للسمات غير المتجانسة فى الثقافات الخاصة بشعوب منعزلة عن بعضها جغرافياً، بحيث تتجه هذه السمات نحو تحقيق درجة عالية نسبياً من التشابه والتماثل وذلك فى ضوء عامل الزمن.

(٢) يستخدم كل من مصطلح التقارب الثقافي والتوازى الثقافى للإشارة إلى التماثل بين ثقافات الشعوب مما يوحى بوجود أصل مشترك لهذه الثقافات[٢].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن تشابه البيئة الطبيعية ربما يكون من العوامل الهامة فى تطور السمات الثقافية تطوراً مستقلا، وذلك إذا سلمنا بأن هذا الاستقلال أمر واقعى.

ويعارض أصحاب النظرية الانتشارية هذه الفكرة، فنجد أن روبرت لوى R.Lowie يتفق مع فرانز بواس Boas فى القول بعدم وجود التقاء كامل، ويستبدل ذلك بمصطلح آخر هو التطور المتقارب، وقد رفض

---

(١) محمد عاطف غيث ، ١٩٧٩، قاموس علم الاجتماع، ص ١٠٢.

(٢) محمد عاطف غيث ، المرجع السابق، ص ١٠٢.

جولدنفايزر Goldenweiser هذا المصطلح باعتبار أنه يتضمن مماثلة زائفة للتطور العضوى، ولكنه يقرر «أن كل حالة توازى تتضمن عدداً محدداً من السمات، وهذا التحديد للعدد، ولطابع السمات، مع تعدد المصادر التاريخية والسيكولوجية المحتملة يفرض بعض القيود على احتمالات النمو، ويؤدى بالضرورة إلى التقارب»(١).

والواقع أن معظم الدراسات الحديثة تدور حول المسائل التى أثارها جولدنفايزر، فيذهب هونجمان إلى أن التقارب يرتكز على فكرة الاحتمالات المحددة التى تحكم التغير فى موقف معين. ولكن تعميم هذه الفكرة ينطوى على بعض الصعوبات، إذ أن الاحتمالات المحددة قد تكون أكثر الميكانيزمات شيوعاً، ولكنها بالتأكيد ليست هذا العامل الوحيد(٢).

وهنا نجد أن المدرسة الأمريكية تؤيد فكرة أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا فى مركز ثقافى جغرافى محدد ثم انتقلت إلى مناطق أخرى، ويمثل هذه المدرسة خير تمثيل كلارك فسلر Wissler وكروبير Kroeber وإذا كانت هذه المدرسة ترفض ما يذهب إليه البريطانيون وغيرهم من الانتشاريين من الزعم بعدم امكانية التصور المتوازى المستقل وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين وأنهم أكثر ميلا إلى الاستعارة(٣).

---

(١) محمد عاطف غيث : المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٢) محمد عاطف غيث : المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٣) فاروق مصطفى إسماعيل، ١٩٨٠، الانثروبولوجيا الثقافية، ص ١٢٣.

وقد كان بواس Boas يعارض الفكرة السائدة عن وجود صيغة واحدة وثابتة للتطور الثقافي تنطبق على الماضي مثلما تنطبق على المستقبل لكل المجتمعات، وهذا لا يمنعه من أن يؤمن بإمكانية دراسة التصور الثقافي في نطاق كل ثقافة على حدة. ومن هنا كان بواس يرى ضرورة الاكتفاء في الأبحاث الأنثروبولوجية بدراسة ثقافة معينة بالذات مع تتبع انتشار سماتها وملامحها في مناطق ثقافية محددة وليس في العالم كله، وذلك تبعاً لتوفر المعلومات اليقينية المؤكدة(١).

وقد ركزت كثير من الدراسات اهتمامها على دراسة الارتباط بين أنماط محددة في البيئة الطبيعية وأنماط التكيف التكنولوجي. فعلى سبيل المثال نجد أن Driver قام بتقسيم الجماعات الهندية في أمريكا الشمالية إلى سبع عشرة منطقة ثقافية فرعية تمتد من المنطقة القطبية الشمالية إلى بنما. وكذلك دراسة هيرسكوفتش التي اتخذت مدخلا مشابهاً لتصنيف المناطق الثقافية في أفريقيا(٢).

لذلك تقوم الأيكولوجيا بدور هام في إظهار العلاقة بين الإنسان وبيئته سواء كان ذلك في الماضي أو الحاضر، وهذه الأهمية إنما ترجع إلى العوامل المرتبطة بالبيئة التي تتحكم بدورها في حياة الأفراد ومعيشتهم، بحيث نرى أن البيئة ذات تأثير قوى وخاصة في النواحي الفيزيقية والاقتصادية والاجتماعية وأيضا الثقافية.

---

(١) أحمد أبو زيد، ١٩٧٥، البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع، ج١، المفهومات، ص ٢١٤-٢١٥

(٢) فاروق إسماعيل ، ١٩٨٠، المرجع قبل السابق، ص ١٢٦.

وهذا التأثير المتبادل بين الإنسان وبيئته يحدد أنماطاً معيشية مرتبطة بالظروف الأيكولوجية الخاصة بكل منطقة عى حدة، وإذا كانت الأيكولوجيا لها هذا التأثير الهام على الجوانب المتعددة من حياة أفراد المجتمع فإنه يكون لزاماً على الباحث فى هذا المجال أن يوضح الأهمية الأيكولوجية لمنطقة بحثه والعوامل المتحكمة فى ذلك، وكذلك الدور الذى تؤديه الأيكولوجيا فى حياة هذا المجتمع.

ومن هنا نجد أنه من الأهمية بمكان أن يكون لموضوع الأيكولوجيا غرضاً يسعى الباحث للوصول إليه سواء عن طريق الوصف أو التحليل.

وعلى ذلك فإننا فى دراستنا لموضوع مناطق البحر المتوسط الثقافية سوف نتعرض لمفهوم تلك المناطق أيكولوجيا وتاريخيا. بمعنى أننا سنوضح أهمية الناحية الأيكولوجية فى دراساتنا للمنطقة الثقافية مجال البحث، وستكون دراستنا من الناحية التاريخية أى أننا سنقوم بإظهار الناحية التاريخية لمنطقة غرب الدلتا الثقافية فى عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخى وسيكون اعتمادنا فى ذلك على المنهج التاريخى وتحليل بعض نتائج الحفائر التى قام بها العلماء وكذلك التى حصل عليها الباحث من منطقة تفتيش آثار غرب الدلتا بالإسكندرية[1].

وقد قام الباحث بتحليلها تحليلا أثنروبولوجيا. كذلك فإن دراسة منطقة غرب الدلتا الثقافية دراسة تعتمد على النسق الأيكولوجى الحالى للمنطقة

(١) تقارير الحفائر التى اعتمد الباحث عليها وقام بتحليلها استعان بها من منطقة تفتيش آثار غرب الدلتا، والتى مقرها ١٣ شارع الشهداء محطة الرمل بالإسكندرية، وكذلك بعض الخرائط المصورة ومواقع مناطق الأكوام والتلال الأثرية بمنطقة غرب الدلتا.

ومقارنتها لمعرفة العوامل البيئية التى تحدد معنى ومفهوم منطقة غرب الدلتا الثقافية ومن هنا كان لزاماً على الباحث أن يوضح أهمية منطقة غرب الدلتا أيكولوجيا وتاريخيا.

وقبل دراسة دور منطقة غرب الدلتا الثقافى فى إقليم البحر المتوسط ينبغى الإشارة إلى أن هذا الدور قد تدرج فى إطار تحقيق الاتصالات الثقافية ابتداء من عصور ما قبل التاريخ وخلال العصر الفرعونى وما تبعه من عصور تاريخية وبخاصة فى العصرين البطلمى والرومانى ثم بعد ذلك خلال المراحل الإسلامية والحديثة. ويلاحظ أن هذا الدور الثقافى لمنطقة غرب الدلتا قد تضمن العديد من الجوانب وبصفة خاصة الجانب البشرى والاقتصادى وما تبعه من جوانب حضارية وأخرى سياسية. ويمكن للباحث متابعة هذا الدور من خلال الأدلة الأثرية منذ عصور ما قبل التاريخ والتى توضح أهمية هذا الدور فى رسم صور النشاط الثقافى بصفة عامة. وقد شمل هذا النشاط الثقافى مناطق مختلفة فى شرق البحر المتوسط والشمال الأفريقى وأيضا بلاد اليونان.

وهذا ما يمكن للباحث متابعته من خلال الأدلة الأثرية للوقوف على هذا الدور فى كل من النشاط البشرى والمجالات الأخرى الاقتصادية والحضارية، هذا من ناحية الدراسة التاريخية، وقبل دراسة هذا الموضوع تاريخيا تنبغى الإشارة أولا إلى منطقة غرب الدلتا أيكولوجيا ثم نتبعه بدراسة منطقة غرب الدلتا فى عصور ما قبل التاريخ ثم دراسة علاقة مصر باليونان ثم علاقة الفراعنة بأقاليم البحر المتوسط وأخيراً نوضح الاتصالات الثقافية بين مصر وغيرها (اليونان) فى عصور ما قبل التاريخ.

أولا : منطقة غرب الدلتا ايكولوجياً :

تقع المنطقة محل الدراسة إلى الغرب من فرع رشيد، يحدها ساحل البحر المتوسط من الشمال كما تحدها الصحراء الليبية من الغرب والجنوب ولهذا كان مناخها متأثراً بالبحر والصحراء معاً[١].

ومن هنا نجد أن أقل الشهور حرارة هو شهر يناير إذ يبلغ معدل حرارته فى الإسكندرية حوالى ١٢,٧م ويبلغ فى رشيد ١٥,٢م ويبلغ فى دمنهور ١٨,٥٦م أما إدفينا فتبلغ ١١,٦م وبعد ذلك تأخذ درجة الحرارة فى الارتفاع التدريجى ويكون هذا التدريج بطيئا فى شهر فبراير ثم يسرع فى شهر مارس وما بعده حتى تصل درجة الحرارة حدها الأقصى فى شهر أغسطس. ومن هنا نخرج بالنتيجة التالية : «أن انحراف متوسط الحرارة عن معدلها لأى شهر فى أى منطقة من غربى الدلتا يضبطه انحراف متوسط حرارة البحر المتوسط عن معدلها الفصلى»[٢]. وعموماً فإن أعلى درجات الحرارة التى سجلت فى منطقة غربى الدلتا ٤٣,٨م فى الإسكندرية و ٤٦م فى دمنهور وقد حدث ذلك فى يوم ١٠ مايو ١٩٤١ أثناء مرور انخفاض ضحل على الدلتا أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة حوالى ١٤م فى خلال ساعات معدودة ثم انخفضت بنفس السرعة بعد مرور الانخفاض[٣].

وتتعرض منطقة غربى الدلتا كغيرها من جهات مصر الشمالية لتأثير الانخفاضات الجوية التي تمر بالبحر المتوسط الآتية من الغرب فتؤثر فى

(١) محمد محمد الصياد، ١٩٥٥، موقع ومناخ غرب الدلتا ، مجلة كلية الآداب، القاهرة، ص ٥١.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٩.

طقس الجهات التى تمر بها فى جنوب أوربا وشمال أفريقيا. ومن هنا يظهر أن منطقة غربي الدلتا تتعرض فى فصل الشتاء والربيع للانخفاضات الآتية من الغرب مارة بالبحر المتوسط والصحراء أحيانا.

وخلاصة القول أن منطقة غربى الدلتا تتأثر بموقعها من البحر والصحراء وذلك يبدو واضحا فى درجات الحرارة بحيث نجد أن انحراف متوسطها عن المعدل الشهرى يرتبط بانحراف متوسط درجة حرارة البحر المتوسط عن معدلها الصيفى. ومما لا شك فيه أن العوامل الأيكولوجية لها أكبر الأثر فى شكل وطبيعة الحياة الاجتماعية وأيضا الثقافية، فهناك علاقة قوية بين العوامل البيئية ونمط الحياة فى تلك المجتمعات. فالمناطق الثقافية ذات الوحدة الأيكولوجية - كما هو الحال فى منطقة البحر المتوسط الثقافية- تكاد أن تتشابه فى بعض الأنماط المجتمعية وكذلك فى بعض السمات الثقافية نتيجة تشابه المناخ والموقع وعوامل الاتصال الثقافى الأخرى التى قد تحدث فى وقت من الأوقات بين تلك المجتمعات.

وهنا نجد كروبير A.L.Kroeber يؤكد تلك العلاقة الوثيقة الصلة بين العوامل البيئية وطريقة الحياة فى تلك المجتمعات، بحيث يقول «إنه من الصعوبة بمكان فهم أى ثقافة من الثقافات البدائية دون الإشارة إلى العوامل غير الثقافية، وهو يقصد بذلك تلك العوامل البيئية التى ترتبط بها وتتحدد من خلالها»[1]. وكثيرا ما ترددت مثل هذه الأفكار فى الكتابات

(1) A. L. Kroeber, 1939, Cultural and Natural Areas of Native North America, P. 242.

الأنثروبولوجية المبكرة، باعتبارها محاولة لاستخدام البيئة فى تفسير الظواهر الثقافية، وأيضا لتطبيق المدخل الأيكولوجى فى مجال الأنثروبولوجيا وبصفة خاصة عند البحث عن علاقة المتغيرات الثقافية بالمتغيرات البيئية.

وعلى ذلك فإن وحدة البحث فى الدراسات الأنثروبولوجية هى دراسة عملية الحياة الاجتماعية فى منطقة إقليمية بيئية محددة وفى فترة زمنية محددة. فعلى الرغم من التنوع والتغاير الذى يميز الأحداث الاجتماعية فى تلك المنطقة، فإننا نستطيع أن نصل إلى تحديد ملامحها أو سماتها العامة، وهذه العملية التجريدية تنتهى بنا إلى تحديد صورة تلك الحياة(١).

وقد ذهب سايك R.U.Sayce فى مقاله الذى يحمل عنوان «الدراسة الأيكولوجية للثقافة» Ecological Study of Culture (١٩٣٨)، إلى أنه يتعين على الأنثروبولوجيين أن يعطو مزيدا من الاهتمام للجوانب الأيكولوجية فى الثقافة. وقد تبلور هذا المفهوم عند جوليان ستيوارد J.H. Steward فى مقاله الذى نشره عام ١٩٥٥ بعنوان «مفهوم الأيكولوجيا الثقافية ومنهجها» والذى قدم فيه أول محاولة متكاملة لفهم التفاعل بين البيئة والثقافة فى ضوء علاقة سببية واضحة ومحددة ودون الرجوع لحتمية جغرافية متطرفة(٢).

---

(١) محمد عبده محجوب، ١٩٧٧، مقدمة فى الاتجاه البنائى فى الأنثروبولوجى، ص ٢٣.

(٢) السيد عبد العاطى السيد، ١٩٨١، الأيكولوجيا الاجتماعية، مدخل لدراسة الإنسان والبيئة والمجتمع، ص ١٤٠.

وقد تبلور المدخل الأيكولوجي في ذلك التأكيد الشائع عند علماء الانثروبولوجيا في أن العوامل المناخية والحيوية وتلك التي ترتبط بالأرض والتربة كلها عوامل مفيدة للإنسان في حدود قدرته على استغلالها. لذلك أصبحت عوامل أخرى مثل التكنولوجيا، ونمط الإنتاج، والأجهزة، وغيرها من مظاهر الثقافة المادية من أهم ما يعنى به الباحث في الأيكولوجيا الثقافية[1].

وبذلك نجد أن الأيكولوجيا الثقافية قد وصفت بأنها مظهر من مظاهر المادية الثقافية، خاصة وأن أصحاب هذا المدخل يحاولون جهدهم لتوحيد الظروف المادية للحياة السوسيرثقافية في ضوء علاقات الارتباط بين عمليات الإنتاج والموطن أو البيئة ليضفون على المادية الثقافية طابعاً أيكولوجياً[2].

وسوف تحاول هذه الدراسة الاهتمام بتلك الجوانب الأيكولوجية – سواء المادية أو اللامادية – وبخاصة عند مقارنة منطقة غربي الدلتا محل الدراسة ببعض المناطق الثقافية الأخرى والتي تدخل معها ضمن المنطقة الثقافية الفرعية لحوض البحر الأبيض وذلك لأهمية الجانب الأيكولوجي في دراسة الأنماط المجتمعية وأيضا العمليات الثقافية.

وكذلك يتوقف نظام الضغط والرياح على نظام الانخفاضات الجوية التي تغزو مصر من الغرب في جميع فصول السنة تقريباً ما عدا فصل الصيف، فهي أحيانا تمر بالبحر وأحيانا أخرى بالصحراء. وينتقل الباحث إلى محاولة دراسة حياة الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ. داخل منطقة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٥.

البحر المتوسط.

وعلى ذلك فالبحث فى عصور ما قبل التاريخ يعطى بعدا أساسيا للدراسات الانثروبولوجية التى تأخذ بالمنهج التاريخى، وبخاصة فى دراسة المجتمعات ذات النتاج الحضارى المتميز لذلك تتبعها مراحل تطورية لاحقة، وهناك نجد أن تايلور Tylor (١٨٦٥) يذهب بالقول إلى «أن الأنثروبولوجيا تعتبر دراسة تاريخية تهتم بدراسة تاريخ الثقافة البشرية منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى اليوم بحيث لا يمكننا فهم تاريخ الثقافة العامة أو الخاصة فى أى مجتمع دون النظر إلى الثقافة باعتبار أنها عملية تاريخية ذات طبيعة متطورة ومستمرة[١].

ولما كانت الأركيولوجيا تعتبر دراسة للثقافات الإنسانية فى الماضى، فإن الوقوف على مناهج هذه الدراسة وإجراءاتها إنما يدعم الدراسات الأنثروبولوجيا التى تتناول الثقافة الحالية، بل وتكمل جانباً هاماً من جوانب دراسة الإنسان لا تستطيع الأنثروبولوجيا تناوله، وهو البحث فى الثقافة المندثرة وتتبع تغيرها وتطورها على مدى زمنى طويل[٢].

ولما كنا بصدد تناول الثقافة الحالية لمنطقة غربى الدلتا، لما كان لها من صلات ثقافية وغيرها بكل من اليونان، وكريت، وغيرها، فإن اعتمادنا على المنهج الأركيولوجى يغطى لنا هذا الجانب الهام فى دراسة هذه الثقافة حتى نقف على تتبع تطورها وتغيرها عبر الأزمنة الطويلة وذلك عن طريق جمع

(1) Bidney, D., 1953, Theoritical Anthropology, pp. 138 - 184.

(٢) نادية أحمد محمد : ١٩٨٣، مناهج واجراءات الأركيولوجى وعلاقتها بفروع الأنثروبولوجيا، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ١٨.

المعلومات وتصنيفها ومقارنة بعض جوانب الثقافة فى تلك المناطق التى تدخل فى إطار منطقة البحر الأبيض المتوسط الثقافية.

وقد برز هنا دور البحث الأركيولوجى باعتباره مصدراً رئيسياً يمدنا بمعلومات عن ثقافات الإنسان فى الماضى وذلك من خلال مناهج البحث الأنثروبولوجى من مجرد تجميع للمعلومات وتصنيفها فى إطار المنهج الوصفى إلى ظهور المنهج المقارن والذى تتبعه الدراسة العلمية المنهجية للنظم الاجتماعية والتى استلزمت ملاحظة الظواهر فى الحاضر وجمع معلومات عنها فى الماضى إما عن طريق الوثائق المكتوبة، أو باستخدام المادة الأثرية التى تعتبر دليلا يعكس ماضى الإنسان وهى مادة الأركيولوجيا التى تقوم بإجراء أبحاث حقلية مستخدمة أساليب تقنية لاكتشاف البراهين المتعلقة بوجود الإنسان ونشاطه فى الماضى[1].

وقد كان هناك اهتمام كبير من جانب الفراعنة بمراكز الحضارة التى بدأت تظهر فى الأفق بمنطقة شمال البحر المتوسط.

ومع أن هذا الاهتمام كان قليلا إلا أنه منذ العصر الصاوى بدأت أهمية منطقة البحر المتوسط تزداد حتى أصبحت هى المحور الأساسى لسياسة مصر الخارجية بعد ذلك[2].

وأثناء العصر الصاوى بدأت الظروف المحيطة بمصر تتغير فتقدمت

---

(١) أحمد الخشاب، ١٩٧٠، دراسات أنثروبولوجية، ص ص ٢٢٠ – ٢٣٠.

(٢) أدولف إرمان، هرمان رانكة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ١٩٥٠، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ص ص ٥٧١ – ٥٩٧.

حضارة الإغريق وبذلك أصبحت منطقة بحر إيجة أهم مراكز الحضارة فى العالم القديم وزادت أهمية هذا المركز بعد أن أنشأ الإسكندر الأكبر إمبراطورية ضمت كل مراكز الحضارة القديمة، وقد انقسمت هذه الإمبراطورية بين قادته بعد موته وأصبحت بذلك مصر من نصيب بطليموس والذى أطلق على فترة حكمه اسم العصر البطلمى وهى تمتد من ٣٢٣ ق.م. حتى ٣٠ ق.م. وأثناء هذه الفترة أصبحت منطقة البحر المتوسط المجال الرئيسى لسياسة مصر الخارجية[١].

ثانيا : علاقة الفراعنة بأقاليم البحر المتوسط :

انحصر اهتمام الفراعنة بأقاليم البحر المتوسط فى منطقتين أهمهما وأقدمهما :

(أ) منطقة شرق البحر المتوسط .

(ب) منطقة شمال البحر المتوسط.

ويشمل إقليم شرق البحر المتوسط منطقتى سوريا وفلسطين إلى جانب عدد كبير من الأسيويين الذين كانوا يدخلون مصر كرقيق. وهنا نجد أن التجارة قد ازدهرت ونشطت حركة المواصلات على الحدود القديمة لمصر وبذلك أصبح لمدخل مصر الشمالى الشرقى أهمية تجارية وعسكرية بصفة خاصة وكان هذا نتيجة للحملات التى قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشر وانتشر بذلك العمران وأصبح إقليم شرق الدلتا إقليما حيوياً نمت فيه المدن

(١) ممدوح درويش ، ١٩٨٣، الموانى المصرية والنشاط التجارى فى عصر البطالمة رسالة ماجستير غير منشورة، ص ٣.

وازدهرت وانتقلت إليه العاصمة فى بعض الأوقات[1].

أما عن علاقة الفراعنة بمنطقة شمال البحر المتوسط وسكانها الذين كانوا يطلق عليهم «الكافيتو» فإن الأدلة الأثرية تشير إلى قيام هذه العلاقة وخاصة مع جزيرتى قبرص وكريت، وقد عثر على العديد من الأوانى التى تخص منطقة شمال البحر المتوسط فى مقابر وأطلال مدن الدولة الحديثة.

وتشير المناظر الموجودة على جدران مقابر الأسرة الثامنة عشر إلى الاتصال بين مصر وأقاليم شمال البحر المتوسط. فهناك منظر يصور الكافيتو وهم يجلبون الهدايا فى مقبرة وزير الملكة حتشبسوت، سنموت Senmout وفى مقبرة تحتمس الثالث أيضا «رخمارع» مناظر تشير إلى سكان الجزر ومنتجاتهم الصناعية بصورة واضحة. وقد كانت الأوانى التى يجلبونها ذات مقابض من الفضة والذهب وعليها رسوم حلزونية[2].

ثالثا : علاقة مصر باليونان :

لقد كانت اليونان على علاقة وثيقة الصلة بمصر منذ العصور المبكرة وانطلق المغامرون اليونانيون من أيونيا وبلاد اليونان إلى مصر وكانوا يعملون كجنود مرتزقة.

وتم تأسيس نقراطيس لتكون مقرا للجالية اليونانية فى العصر

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) أنولف أرمان، هرمان رنكة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ص ٥٩٤ – ٥٩٥.

الصاوى، وفى عصر الأسرة السادسة والعشرين دخل اليونانيون مصر حتى يمكنوا هذه الأسرة من اعتلاء عشر مصر وكان ذلك فى عهد أبسماتيك الأول[1].

وعندما تحولت مصر إلى ولاية فارسية أثناء حكم الأسرة السابعة والعشرين سمح المصريون لكثير من اليونانيين بدخول مصر.

وقد حاول الفرس بكل جهودهم ربط مصر ببقية إمبراطوريتهم فأعادوا حفر القناة التى تربط البحر الأحمر بالنيل ولكنهم احتفظوا بنقراطيس مفتوحة أمام التجار اليونانيين الذين جاءوا من أثينا.

وقد كان هناك علاقات تجارية وثيقة مع اليونان، وهناك العديد من قطع العملة عثر عليها فى مصر ترجع إلى القرن الخامس والرابع ق.م. أثناء حكم الفرس لمصر وعثر على مجموعة منها من منطقة بنى حسن[2].

ومما يدل على زيادة العلاقة بين مصر واليونان ونفوذ الأثينين فى أواخر القرن الخامس وبداية القرن الرابع هو العثور على كثير من الأوانى من الفخار الأثينى ذى اللمعة السوداء وكذلك وجود عملة أثينية فى نقراطيس.

---

(1) Pertie, W., M., Flinders, 1888, Naukraties : The Memory of the Egypt explaration Fund, Part II, p. 4.

(٢) ممدوح درويش، ١٩٨٣، الموانى المصرية والنشاط التجارى فى عصر البطالمة، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ٨.

وخلال القرن الرابع وبداية القرن الثالث أصبحت مصر سوقاً لبلاد اليونان حيث كان ينتشر فى مصر كميات كبيرة من المنتجات اليونانية منها النبيذ اليونانى وزيت الزيتون وكان يوزع فى مصر أكثر مما يوزع فى سوريا وفى فينيقيا وفلسطين[1]، وقد كانت الإسكندرية كأحد مناطق غربى الدلتا مثلها كمثل نقراطيس خلال القرن الرابع وبداية القرن الثالث من الأسواق الهامة للفخار الأثينى وكانت العلاقات التجارية بين أثينا والإسكندرية علاقات نشطة.

وكانت مصر تصدر الحبوب إلى اليونان وبصفة خاصة القمح الذي تزايد عليه الطلب فى اليونان فى ذلك الوقت .

ومن المعروف أن مصر كانت تحصل مقابل صادراتها لليونان على الفضة التي كانت تحتاج إليها لسك العملة فى ذلك الوقت[2].

خامسا : منطقة غربى الدلتا فى عصور ما قبل التاريخ :

إن الدلتا باعتبارها مصدراً هاماً للآثار المصرية تكاد تكون مهملة حتى بالنسبة للزائر العادى لمصر بحيث ينظر إليها على أنها مقدمة غير هامة، في حين أن مصر الحقيقية المتميزة تبدأ من أول نظرة للأهرام بالأفق الغربى. لكن سبب هذه الإهمال النسبى لا يرجع إلى خلو الدلتا من الآثار الهامة فإن بعض مناطق الدلتا تعتبر من أقدم وأشهر المناطق فى تاريخ مصر.

---

(1) Pertrie , W. M. Flinders 1888, Naukraties, The Memory of the Egypt Explaration Fund., Part, I, p. 14.

(٢) المرجع قبل السابق، ص ٥١.

ذلك أن «بوتو» أولا و«سايس» بعد ذلك كلاهما يقع فى الدلتا وكانت هاتان المنطقتان مقر أقدم فروع الحكم المبهمين فى عصر ما قبل الأسرات.

وبذلك نجد أن لقب «رجل النحلة» أو «الدبور» فى بوتو وسايس أصبحا أخيراً جزءا مكملا من لقب الفرعون المصرى باعتباره النصف الآخر من لقب «نسوت بيتى»[1] الذى يسبق اسم كل ملك مصرى[2].

بينما أصبح الصل «الكوبرا» رمز الإله «بوتو» هو الرمز الملكى فى كل تاريخ مصر.

وعندما قارب تاريخ الأسرات على النهاية نجد أن مناطق الدلتا التى فقدت أهميتها فى الدولتين القديمة والوسطى تنهض مرة أخرى وتعود «تانيس» و«بوبسطة» و«سايس» إلى عظمتها ثانية فى عهد الفراعنة المتأخرين. وبدخول المهاجرين اليونانيين فى الأسرة السادسة والعشرين أصبحت مواقع مثل «نقراطيس» و«تل دفنة» فى الدرجة الأولى من الأهمية.

وبالرغم من هذه الحقائق فقد ظلت الدلتا ومواقعها الهامة لا تثير اهتمام أية طائفة غير الأثريين بوجه عام. وبذلك نجد الطبقات المصرية القديمة قد غمرت تحت طبقات متتالية من البقايا اليونانية والرومانية إلى عمق يصل عدة أمتار وذلك بسبب تخريب الحروب لمواقع الدلتا أكثر من غيرها من مناطق مصر.

---

(١) نسوت بيتى، معناها الحرفى صاحب النبات سوت، ورجل النحلة تعنى ملك الوجهين القبلى والبحرى.

(2) Baikie, J., 1932, Egyptian Antiquities in the Nile Valley , PP. 30-33

لذا يذكر لنا السير «فليندرز بترى» Flinders Petrie [1]. أن مجساته عندما كان يقوم بالتنقيب فى «تانيس» كانت تنفذ إلى عمق تسعة أمتار فى طبقات يونانية ورومانية دون أن تصل إلى مستويات عصر الرعامسة أو الهكسوس التى كان يبحث عنها.

وأخيراً فإن الدلتا لا تقدم لنا آثاراً مكشوفة فوق مستوى الأرض مثل الآثار المعروفة فى مصر العليا، وإن كان هناك مخلفات لا تزال قائمة فوق مستوى الأرض فى الدلتا فإنها كانت مغمورة تحت أكوام من الرديم تجعل تخليصها أمراً صعبا يحتاج إلى الكثير من النفقات والعمل الشاق المتواصل[2].

ويرى الباحث أنه بدون معرفة الدور الذى أدته الدلتا فى تايخ مصر القديم فإن نظرتنا إلى ماضى مصر تصبح ناقصة ومن الضرورى أن نذكر ما يجب رؤيته فيهما كبرهان على الماضي العظيم لهذه المراكز القديمة للحكم المصرى وما كان لها من دور فى إنشاء المراكز الثقافية التى على أساسها نعتبر أن منطقة غربى الدلتا بناء على ما تقدم تمثل منطقة ثقافية فرعية داخل نطاق منطقة البحر المتوسط الثقافية، وما كان لهذه المنطقة بالذات من اتصال حضارى كشفت عنه الآثار القديمة من فرعونية ويونانية ورومانية وغيرها وكلها تدل على حجم تلك الاتصالات الحضارية بين هذه المنطقة

---

(1) Petrie, W., Flinders; 1888, Naukraties, The Memory of the Egypt Explaration, Fund, Part, I., P. 24.

(2) Op. Cit., P. 35.

وغيرها من مناطق حوض البحر المتوسط على أساس أن هذه المنطقة كما يتضح من تاريخ السجل الحفرى ذات ثقافة وحضارة متصلة أدت كل منطقة فيها دوراً حضارياً منذ أقدم العصور وحتى وقت قريب فقد كانت مركزاً للإشعاع الفكرى والروحى معاً وبالتالى فإن الأحداث التاريخية السابقة تعطينا فكرة واضحة عن سير الركب الحضارى الذى عاشته هذه المنطقة حيث إنها كونت منذ القدم منطقة ثقافية داخل إطار منطقة البحر المتوسط الثقافية والتى ظهرت بعد ذلك فى النظريات الأنثروبولوجية عند كلارك فيسلر C. Wissler وبواس Boas وجوليان بيت ريفرز Julian Pitt Rivers ودايفيز J.Davis وهذا دليل على أن هذه المنطقة مترابطة ثقافياً منذ القدم.

ونأخذ مدينة الإسكندرية مثالا على مناطق غربى الدلتا وهى ليس بها غير القليل مما تقدمه من آثار مصرية أصيلة، فالحقيقة أن العنصر الأساسى فى سكان الإسكندرية كان يونانياً على الرغم من أنه كانت هناك طبقة مصرية منذ البدء، كما كانت هناك فى عصر متأخر جالية يهودية كبيرة كثيرة الشغب[1].

وفى منطقة كوم الشقافة التى تقع إلى الجنوب الغربى من الإسكندرية بالقرب من «عامود بومباى» يوجد على المنحدر الجنوبى للتل – والذى يستغل حاليا كمحجر – الكاتاكوم[2]. الكاتاكوم الكبير المنحوت فى الصخر الذى

---

(1) Baikie, J. 1932, Egyptian Antiquities in the Nile Valley, p. 36.

(٢) الكاتاكوم كلمة لاتينية الأصل تعنى أو يقصد بها مكان للدفن فى باطن الأرض.

أصبح منذ كشفه عام ١٩٠٠ أحد معالم الإسكندرية الرئيسية وهذا المدفن الذى يرجح أنه من القرن الثانى الميلادى يعتبر مثلا واضحا لامتزاج الأسلوبين المصرى واليونانى.

كما يعتبر الكاتاكوم أيضا نموذجا للفن فى مصر اليونانية الرومانية كذلك فهو دليل على الاختلاط والتأثيرات الثقافية بين مصر واليونان[١].

وفى تقرير عن الحفائر بكينج مريوط نجد أن اليونانيين قد استقروا بهذه المنطقة وكذلك البطالمة وكانوا يشتغلون بالزراعة وأهم زراعتهم كانت هى العنب التى أجبرتهم على إنشاء العديد من مصانع النبيذ الذى كانوا يتاجرون به عن طريق ميناء ماريا ومن هنا نقول إن منطقة كينج مريوط ومنطقة ماريا تكملان بعضهما البعض بحيث نجدهم فى الأولى يقومون بصناعة النبيذ وفى الأخرى يقومون بالإتجار فيه[٢].

وتقع منطقة كينج مريوط إلى الغرب من مدينة الإسكندرية مع بداية الصحراء الغربية وتبعد عن الإسكندرية بحوالى ٤٠ كيلومترا غرباً وكذلك تبعد عن العامرية بحوالى ٥ كيلو مترات وتبعد عن منطقة الهوارية بحوالى ٧ كيلو مترات شرقاء أما المقبرة التى أجريت بها الحفائر فتقع إلى الشرق من منطقة كينج مريوط بحوالى ثلاثة كيلومترات التى بدأ العمل بها يوم ١٩٨٢/٢/٢٧م[٣].

---

(1) Ibid., P. 38.

(٢) أحمد محمود الشار، ١٩٨٢، تقرير حفائر كينج مريوط، ص ٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١.

ويرى الباحث أن هذه المنطقة شهدت نوعاً من التوسع التجارى وخصوصاً عن طريق ميناء ماريا حينما استقر بها اليونانيون والبطالمة بحيث استعملت بعد ذلك فى أوائل العصر الرومانى أحسن استعمال حيث ازدهرت بها التجارة وازدادت بها مصانع النبيذ، ومن هنا نجد أن زيادة التوسع التجارى وإقامة المصانع، الذى شهدته هذه المنطقة قد ساعد إلى حد كبير على امتزاج تلك الثقافات التى استقرت بهذه المنطقة وكذلك الثقافة المصرية فى ذلك الوقت.

وقد أوضحت تقارير الحفائر أن مدينة الإسكندرية التى تعتبر أحد الموانئ الهامة فى منطقة البحر المتوسط شهدت أيضا امتزاج الفن المصرى القديم بالفن اليونانى الرومانى كما هو الحال فى مقبرة كوم الشقافة والتى وجدت بها رسومات ذات ألوان زاهية تبين هذا الامتزاج، وهذه الرسومات عبارة عن آلهة مصرية مع بعض الرسومات لزهور ونباتات يرجع تاريخها إلى القرن الثانى الميلادى. وكذلك تعتبر مقابر الشاطبى من أقدم المقابر الأثرية بالإسكندرية حيث يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثالث ق.م. وقد استخدمت فى هذه المقبرة طريقتان للدفن أحدهما طريقة وضع الجثث على السرير الجنائزى كما يتضح فى المقبرة الرئيسية. أما الطريقة الأخرى فهى الدفن فى فتحات وذلك فى باقى الغرف وتعتبر الطريقة الأولى هذه الأقدم. وقد زينت هذه المقبرة بزخارف معمارية عبارة عن أنصاف أعمدة على الطراز الدورى والأيونى بينهما نوافذ وأبواب وهمية[1].

---

(١) تقارير حفائر المتحف الرومانى بالإسكندرية، ١٩٨١، ص ١ -٢.

وقد امتزج الفن المصرى القديم - متمثلا فى أسلوب الرسم السكندرى - بالفن اليونانى كما أوضحت الدراسة التى قام بها «بوتى» مدير المتحف اليونانى الرومانى فى عام ١٩٠١ عندما قام باكتشاف مقبرتين في منطقة الأنفوشى والمعروفتين برقم ١، ورقم ٢٠، وقد قام بعده «بريتشا» فى عام ١٩٢٠ باكتشاف المقابر المعروفة برقم ٣ - ورقم ٦[١].

ومن الآثار الهامة التي تشير بوضوح إلى امتزاج فن العمارة المصرى القديم بالفن اليونانى هو اكتشاف مقابر مصطفى باشا بطريق الصدفة فى عام ٣٣ - ١٩٣٤. حينما اكتشفها مدير المتحف اليونانى الرومانى فى ذلك الوقت الدكتور أشيل أوريانى واتضح له أن هذه المقبرة تشير بوضوح إلى فن العمارة اليونانية وبالذات استخدام النظام الدورى فى العمارة السكندرى[٢].

ويرى الباحث أنه من خلال تقارير الحفائر التى توفر عليها يمكننا أن نحاول إعادة رسم صورة لما كانت عليه الصلات الثقافية بين مصر وبعض دول البحر المتوسط كاليونان مثلا والتى تتضح لنا من تاريخ السجل الحفرى لهذه المنطقة. حيث إن إعادة رسم تلك الصورة يساعدنا كثيراً الآن فى دراسة أنماط الثقافة المادية التى خلفتها لنا تلك المنطقة والتى تمكن الباحثين من تسجيل تاريخ الثقافة لهذه المنطقة باعتبارها تمثل منطقة ثقافية فرعية داخل إطار منطقة البحر المتوسط الثقافية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٦.

وعلى الشاطئ الجنوبى الغربى من الإسكندرية على مسافة خمسة أميال من محطة بهيج على خط مريوط تقع مدينة أبو صير «تابوزيرمس ماجنا» القديمة والأثر الوحيد الموجود فى هذه المدينة هو المعبد الذى يرجح أنه كان فى الأصل مخصصاً لأزوريس[1].

وعلى مسافة سبعة أميال ونصف شمال شرقى دسوق تقع آثار تل الفراعين التى تضم بقايا «بوتو» تلك المدينة القديمة التى خلفت «نجدت» باعتبارها عاصمة للوجه البحرى تحت حكم ملوك النحلة أو الدبور.

وعلى بعد أربعة أميال غربى السكة الحديد. وعلى مسافة تقرب من عشرة أميال من دمنهور تقع قرية «النبيرة»[2] التى تقوم إلى جوار الفرع الكانوبى القديم للنيل وعلى مقربة منها توجد الأكوام التى تغطى موقع المدينة الإغريقية الشهيرة «نقراطيس»[3].

وطبقا لما ذكره هيرودت فإن نقراطيس قد أسسها الملك أحمس الثانى (من الأسرة ٢٦) لتكون موطناً خاصاً للإغريق فى مصر وقد منح أحمس امتيازات كبيرة للمستعمرات ومنع دخول تجارة الإغريق فى أى ميناء آخر فى الدلتا بحيث إذا وصل رجل إلى مصب آخر للنيل كان عليه أن يقسم بأنه «قد حضر إلى هناك ضد رغبته». وبعد أن يقسم عليه أن يبحر فى نفس

---

(1) Baiki, James 1932, Egyptian Antiquities in the Nile Valley, pp. 38.

(٢) يوجد بمتحف القاهرة مجموعة مكونة من ثلاثة رؤوس ربما كانت جزءا من قواعد للتماثيل، إذ أنها كانت تثبت فى الجدران، وقد وجدت فى دمنهور.

(3) William, D.E., Coulson and Albert L., 1981. Cities of the Delta, Part I., Noukratics, p. 45.

المركب إلى المصب الكانوبى وإذا منعته الرياح المضادة من إتمام ذلك يرغم على أن يفرغ حمولته ويحملها على صنادل حول الدلتا حتى يصل إلى نقراطيس وهكذا كانت عظمة الامتيازات التى اختصت مدينة نقراطيس.

وقد كشف «فلندرز بترى» Flinders Petrie جزءا من هذه المدينة عام ١٨٨٤ وقد أضافت كشوف تالية إلى معلوماتنا عن المدينة الإغريقية بحيث إنها عدلت انطباعات المكتشفين الأوائل من وجوه أخرى(١).

ولقد كشف كتاب «بترى» عن نقراطيس – وهو جزءان – سر هذه المدينة تماماً. وقد أظهرت الحفائر أن هيرودوت قد أخطأ بعض الشئ بإسناد أول إقامة للإغريق فى نقراطيس إلى أحمس، فقد دلت الشواهد على أن إنشاء المستعمرة الإغريقية يرجع إلى «أبسماتيك» أول مؤسس للأسرة السادسة والعشرين وهو يدين إلى معونة الجنود المرتزقة الأيونيين والكاريين فى جلوسه على العرش لذلك فلقد أسكنهم فى القاعدتين الحربيتين : نقراطيس على الجانب الغرب من الدلتا، ودفنه «تحفنحيس» على الجانب الشرقى منها. ويبدو أن عمل أحمس الذى أشار إليه هيرودوت كان يهدف إلى حصر التجارة الإغريقية فى مصر فى مركز واحد. كما كانت التجارة الأوروبية مع الصين محصورة مع موانى حددتها المعاهدات(٢).

وفى الوقت الحاضر نجد أن نقراطيس مثل غيرها من مناطق الدلتا الأخرى ليس بها ما يلفت نظر الزائر ومع ذلك فإن الباحث يرى أنه من

---

(1) Ibid., p. 46.

(2) Ibid., P. 52.

الممكن إثارة التخمين الظنى – ولكنه ليس كمنهج التخمين الظنى الذى اتبعه علماء الانثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر – ولكننا سوف نقوم باستخدامه بناء على نتائج تقارير الحفائر والسجلات الحفرية التى تعطينا صورة عن هذه المنطقة تكون بمثابة المادة الإثنوجرافية التى يقوم الباحث بتحليلها ليصل من خلالها إلى نتائج تكون أقرب إلى الصدق إلى حد بعيد. لذلك فمن الممكن إثارة التخمين الظنى عن هذا الموقع الذى اتصل فيه الاغريق بمصر اتصالا فعليا لأول مرة، وبذلك يعتبر الباحث أن منطقة نقراطيس باعتبارها مدينة إغريقية وميناء هاماً كانت مكان التقاء بين العلم القديم والجديد[1].

سادسا : الاتصالات الثقافية بين مصر وغيرها فى عصور ما قبل التاريخ :

تعتبر مرحلة العصر الحجرى الحديث من أخطر مراحل الإنسانية، لأنها تمثل نقلة هامة وحاسمة فى حياة الإنسان وهى النقلة من الجمع والالتقاط وعدم الاستقرار إلى مرحلة الإنتاج والاستقرار المادى والفكرى لأول مرة فى حياة الإنسان[2].

---

(١) توجد أثار عديدة بمتحف القاهرة عن مدينة نقراطيس منها لوح من الجرانيت الأسود عليه نقوش دقيقة من عهد «نقاطنيبو» المؤسس الأول للأسرة الثلاثين كما توجد أيضا تماثيل وعملة من العهد اليونانى والرومانى لهذه المنطقة.

(٢) رشيد الناضورى : ١٩٨١، المغرب الكبير، العصور القديمة، أسسها التاريخية والحضارية والسياسية، ١٢٣.

وقد تبين من البحث الدقيق لتراث الإنسانية أولوية منطقة الشرق الأدنى القديم وبصفة خاصة مصر والعراق وفلسطين فى التوصل إلى مرحلة إنتاج الطعام والزراعة والاستقرار لأول مرة فى تاريخ الإنسان، وذلك لأسباب كثيرة يعتبر العامل البيئى بظروفه الخاصة من أهمها على الإطلاق.

وقد عثر فى هذه المنطقة على المواقع الأثرية الدالة على إنتاج الطعام مثل مرمدة بنى سلامة وقرى الفيوم (أ) وحلوان العمرى ودير تاسا فى مصر(١).

وقد تطورت حياة الإنسان تطوراً فى المجالات المادية والفكرية نتيجة تحكمه فى البيئة وفهمه الصادق للمقومات البيئية وربط حياته بمختلف مجالاتها بهذه الظواهر البيئية التى خلفت لديه الوعى والإدراك لتفهم الحياة الزراعية بدلا من اعتماده على الثمار البرية فى مرحلة جمع الطعام.

ففى منطقة الجبل الأخضر فى إقليم برقة عثر فى موقع «هوافتيح» على آثار هذه المرحلة الحضارية مثل الأوانى الفخارية. ويعتبر الفخار من أهم الأدلة الأثرية التى تثبت توصل الإنسان إلى مرحلة الاستقرار والزراعة والإنتاج. وبذلك نجد أن الإنسان المستقر شعر بحاجته الماسة إلى تخزين طعامه وشرابه وقد نجح فى التأقلم مع البيئة واستغلالها إلى أبعد الحدود فشكل بذلك من الطين أوانى مختلفة الأحجام لتحقيق وظائف التخزين وبذلك نجد أن الفخار صنع لأول مرة فى حياة الإنسان فى العصر الحجرى الحديث(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

وقد أوضحت دراسة قام بها مصطفى كمال عبد العليم عن تاريخ ليبيا القديم أنه في مرحلة العصر الحجرى الحديث كانت تستخدم الأوانى الفخارية فى تخزين الطعام فى منطقة برقة كما كانت تستخدم فى مصر مما يدل على اتصال الفن المصرى القديم بالفن الليبى وامتزجت بذلك الحضارة المصرية بالحضارة الليبية فى ذلك الوقت وكانت من العوامل البيئية من أهم تلك الأسباب[1].

ويلاحظ الباحث وجود مؤثرات حضارية مصرية واضحة فى هذه الآثار الليبية. فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم (أ) وبين فخار موقع «هوافتيح» فى منطقة الجبل الأخضر بإقليم برقة ويظهر ذلك فى الصناعات الحجرية مثل رؤوس السهام. هذا ولم يعثر على جنور سابقة لهذه الصناعات فى المواقع الليبية مما يؤكد وجود المؤثرات الحضارية المصرية، وهنا ينبغى الإشارة إلى أن حضارة الفيوم (أ) تعتبر من أقدم مراحل العصر الحجرى الحديث فى مصر فهى ترجع إلى منتصف الألف السادسة ق.م.[2].

ومما يؤكد وجود خط سير واتصال حضارى بين منطقة شرق ليبيا ووادى النيل الأدنى تلك الصلات الحضارية بينها وبين مواقع سيوة والواحات الخارجية وغيرها من مواقع الصحراء الغربية وبصفة خاصة منطقة الفيوم فى المرحلة المبكرة لاستقرار الإنسان[3]. وهناك اتجاه إلى

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم، ١٩٦٩، دراسات فى تاريخ ليبيا القديم، ص٩.

(٢) رشيد التاغورى، المرجع قبل السابق، ص ١٢٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

الاعتقاد بأن الجذور الأولى لحضارة الإنسان فى مرحلة العصر الحجرى فى شمال أفريقيا بوجه عام ترجع فى الحقيقة إلى جهود الإنسان فى منطقة الصحراء الكبرى.

ويرى الباحث بناءً على ما تقدم أنه يمكن تفسير وجود الصلات الحضارية السابقة الذكر بين حضارة الفيوم (أ) وبين حضارة الإنسان فى منطقة شرق ليبيا على أساس إمكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلا إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة داخل نفس المنطقة (انظر شكل رقم ٥٣ لتوضيح تلك الصلات الحضارية).

ومع بداية الانتقال للعصر الحجرى الحديث اضطر الإنسان فى هذه المنطقة الصحراوية إلى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه، واتجهت مجموعات من إنسان هذا العصر نحو الشمال، نحو برقة وتونس وبعضها اتجه نحو الشرق للواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(شكل ٥٣)

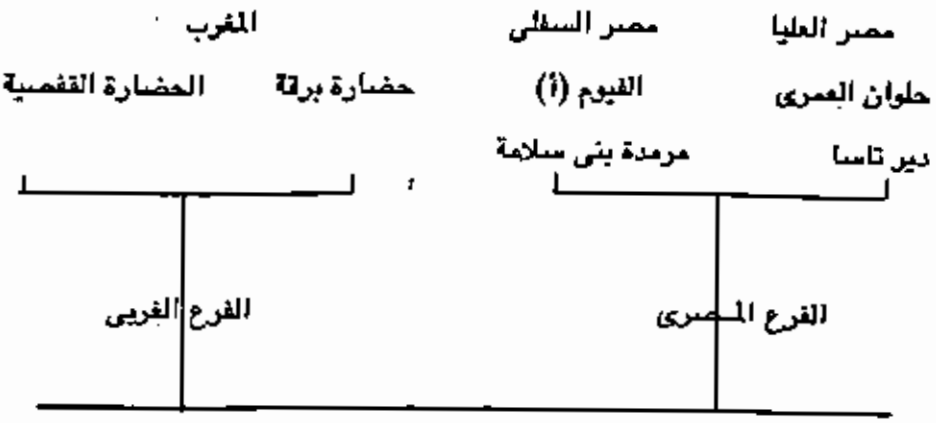

يبين هذا الرسم انتماء بعض حضارات مصر والمغرب وليبيا إلى جذور مشتركة في منطقة الصحراء الكبرى[١].

ملحوظة :

يوضح شكل (٥٣) التأثيرات الحضارية المصرية والأوربية والليبية والقفصية وغيرها. وهى بذلك تبين مدى التأثير والتأثر الحضارى بين مصر وليبيا «إقليم برقة» وهى كلها تقع داخل منطقة البحر المتوسط الثقافية.

ولاشك أن تحركات البربر قد ساعدت أيضا على دعم الصلات الحضارية بين مختلف المواقع الأثرية فى هذه المرحلة إلى حد كبير[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٧.

وينبغى الإشارة إلى أهمية هذا العنصر فى تكوين جانب هام من الجوانب البشرية فى الحضارات المصرية القديمة والليبية والمغربية. ولا يقتصر ذلك على الجانب الحضارى بل يتضمن الجانب اللغوى، ولا تزال بعض القبائل البربرية التى تعربت تقطن الصحراء الكبرى وبصفة خاصة فى الجزائر والمغرب ويسمى البربر أنفسهم «الأمازيغ» أى «الأحرار»(١).

لذلك فإن الإنسان بالرغم من تطوره وتقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجرى القديم فهو لا يزال يبحث عن الأمان والأطمئنان لحياته ومستقبله. وتشمل المجموعة الشمالية من القوقازيين فى إفريقيا الجماعات التى تتكلم الحامية فى برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب، وتعرف اللغة الحامية فى هذه المنطقة باسم لغة البربر Libyco Berber، كما يتحدث بهذه اللغة أيضا الطوارق والتيبو فى الصحراء الكبرى وجماعات الجوانش Guanches فى جزر الكناريا(٢).

ويعد البربر من أقدم السلالات المعمرة فى شمال أفريقيا، إذ كثيرا ما تظهر بينهم صفات إنسان أفالو Afalou القديم الذى يرجع إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، هذا من جهة كما تظهر أيضا بينهم صفات طراز البحر الأبيض المتوسط الذى ترجع حضارته إلى العصر الحجرى الحديث(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢) يسرى الجوهرى، ١٩٦٩، السلالات البشرية، ص ٣٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٩.

وهناك بعض الرسوم التى تسترعى انتباه الباحث مثل رسوم الكباش التى تحمل فوق رؤوسها رموزاً بيضاوية الشكل التى فى بعض الأحيان يوجد أمامها رجل يتميز بوجود خصلة شعر جانبية فى رأسه، كما يرتدى قميصاً وحزاماً عريضاً[١].

وهناك إمكانية وجود شبه بين هذه الكباش والكبش المصرى فى العصر الفرعونى والذى يحمل على رأسه رمز الشمس ويمثل الإله آمون رع فى الديانة المصرية.

وقد عثر على هذه الرسوم جنوبى وهران وفى برقة مما يلفت النظر إلى أن موضوع خصلة الشعر الجانبية التى تمثل الإنسان السابق ذكره قد ذكرتها النصوص المصرية القديمة باعتبارها تميز بعض الكهنة المصريين وقد ذكر ذلك بصفة خاصة فى نصوص التوابيت فى الدولة الوسطى[٢].

وهناك رسوم أخرى تمثل بعض الشخصيات التى تشبه إلى حد كبير الإله المصرى (بس) ، هذا بالإضافة إلى رسم رجل ترك ذقنه بشكل يذكر الباحث بطريقة رسم الإله أوزير المصرى. وقد عثر على هذه الرسوم جنوب طرابلس. وتتوزع هذه الرسوم فى الفترة الممتدة من حوالى الألف الثالث حتى حوالى الألف الأول ق.م.

---

(١) رشيد الناضورى ، ١٩٨١، المغرب الكبير، العصور القديمة أسسها الحضارية والسياسية، ص١٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٩.

ومن الواضح أن هذه الفترة تقابل فترات هامة فى صميم العصر التاريخى المصرى القديم مما يؤكد أن هذه الرسوم قد تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة ويعتبر ذلك استمراراً للصلات الحضارية بين مصر وشرق ليبيا (برقة) ومنطقة شرق البحر المتوسط. وأيضا بين مصر والمغرب من جهة أخرى، لكن الذى يهمنا هو ذلك التأثير الحضارى الواضح بين مصر وليبيا وشرقى البحر المتوسط (بصفة خاصة اليونان وكريت) التى تمثل منطقة ثقافية واحدة ذات طابع حضارى وتاريخى مميز فى منطقة البحر المتوسط. وعلى ذلك فإن تلك الأدلة المادية الأثرية تبين لنا بوضح مدى تفرد هذه المنطقة عن غيرها بمميزات ثقافية وحضارية أدت فيها العوامل السياسية والاقتصادية دوراً هاماً فى صبغها بصبغة ثقافية واحدة، ظهرت فى بعض العادات والتقاليد الموروثة وبعض مفردات اللغة. وعادات اللعب عند الأطفال وطريقة الأمهات فى تربية أطفالهن، كذلك ظهرت فى بعض العادات الغذائية وغيرها.

ويرى الباحث أن الاتصالات التجارية كانت تعتبر أولى هذه الاتصالات التى ساعدت على ذلك بوضوح فى التاريخ القديم، وكانت لها الفاعلية والقوة بحيث أنها فرضت نفسها على كل أنواع النشاطات الأخرى، وأخذت الرحلات التجارية بين مصر واليونان وغيرها من دول شرقى البحر المتوسط فى ذلك الوقت تؤثر وتتأثر بعادات وثقافة المجتمع التى تنزل به، وبالتالى كانت من أوضح عوامل الاتصال فى تلك المنطقة. وجاءت بعدها الصلات والاتصالات العسكرية والسياسية التى نتج عنها فى بعض الأوقات الاحتلال العثمانى مثلا والذى فرض نفسه على غالبية دول المنطقة، وكان له تأثيره فى

عادات وتقاليد ونظم الزواج واللغة وكذلك بعض الأنماط الثقافية الأخرى.

ونعود مرة أخرى لمرحلة العصر الحجرى الحديث لنلقى الضوء على فكرة الاتصالات الحضارية بين مصر وليبيا فى تلك الفترة بالذات، فهى الفترة التى توضح الصلات القوية بينهما، والتى نتوصل إليها عن طريق الرسومات والنقوش والآثار المصرية والليبية القديمة. ففى العصر الحجرى الحديث خرج من الحوض الشرقى للبحر المتوسط - فى فترة متأخرة - جماعات تتحدث لغة البربر التى لا يزال يتحدث بها فى الوقت الحاضر كثير من سكان شمال أفريقيا. هذه الجماعات كانت تمثل فرعاً من سلالة البحر الأبيض المتوسط الذى حمل معه معرفة الزراعة واستئناس الحيوان[1].

ويطلق المؤرخون على سكان شمال أفريقيا غرب مصر اسم «الليبيين» وأفضل الأمثلة لهم جماعات البربر التى تقطن التلال فى الجزائر، وقبائل «الشاوية» فى مرتفعات الأوراس. وتصور النقوش المصرية القديمة (حوالى ٢٥٠٠ ق.م.) الليبيين باللون الأصفر، وتبينهم شقر الشعر، زرق العيون، ذوى لحية شقراء، وقد استمر هذا التقليد خاصاً يصور الليبيين فى العصور المتأخرة بعد ذلك، فظهرت بذلك على جدران معابد طيبة التى ترجع إلى ١٢٠٠ ق.م. كما أشار إليها اليونانيون فى القرن الرابع ق.م. ومن الملاحظ وجود صفات الشقرة حتى الوقت الحاضر بين البربر الحديثين[2]. وقد كانت هذه الجماعات الليبية القديمة تنتشر فى مساحات واسعة، وكثيرا ما كانت

(١) يسرى الجوهرى، ١٩٦٩، السلالات البشرية، ص ٢٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٠.

حدودهم تصل إلى مصر، إذ أن التاريخ القديم يحدثنا عن جماعات «التحنو» أو الليبى Lebu الذين كانوا يغيرون على غرب الدلتا من آن لآخر[١] (*).

أما عن أصل الليبيين، فمن الناحية اللغوية ينتمون إلى الحاميين، كما أنهم من الناحية السلالية يشبهون جيرانهم المصريين وغيرهم من الشعوب التابعة للفرع الشرقى من الحاميين[٢].

وعلى أية حال فمن الصعب أن نضع حداً حضارياً أو جنسياً واضح المعالم بين الجماعات التى تتكلم العربية والجماعات التى تتكلم البربرية، ذلك لأن الحاميين والساميين ينتمون إلى سلالة واحدة هى سلالة البحر الأبيض المتوسط.

هذا وينتمى المصريون القدماء الذين عاشوا منذ عهد ما قبل الأسرات فى العصر الحجرى الحديث (٣٠٠٠ ق.م.) إلى مجموعات الحاميين الشرقيين الذين ينتمون إلى سلالات البحر المتوسط ذات القامة النحيفة المتوسطة، والرأس الطويل، والجبهة الضيقة، والوجه الطويل الضيق والشعر الأسود أو الأسمر القاتم[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧١.

(*) يوجد بالمتحف المصرى بالقاهرة، ضمن حفائر البعثة الفرنسية بإشراف أ. مونتيه، عام ١٩٤٠، حفائر تانيس (صان الحجر)، تمثال الملك شيشنق الليبى حين غزا مصر واستقر بمنطقة غرب الدلتا.

(٢) نفس المرجع السابق، والصفحة.

(٣) يسرى الجوهرى، المرجع السابق، ص ٣٨٣.

ويمثل المصريون الحاليون (المعاصرون) خليطاً من السلالات القديمة لوادى النيل مع العرب النازحين منذ الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، وهم الآن يتكلمون اللغة العربية، ويدينون بالدين الإسلامى ، مع وجود الأقباط الذين يمثلون عنصراً كان موجوداً قبل العرب Pre-Arabic Element .

وعندما نحاول أن نتعرف على أصل الشعب المصرى القديم فإن أول ما نواجهه هو ذلك الخليط من الشعوب المختلفة التى يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ(١). حيث كانت – فى ذلك الوقت – هناك علاقة بين سكان مصر القدماء والليبيين Libyans – أو كما كان يطلق عليهم قديماً – الأفارقة الشماليين North Africans من ناحية وبين الشعوب الموجودة فى شرق أفريقيا والمعروفين الآن كالجالا Galla والصوماليين Somali والبجة Bega وبعض القبائل الأخرى (٢).

وعندما نأتى إلى عصر الأسرات الذى تميزت فيه مصر بوجود أقدم التماثيل التاريخية فى العالم فإنه – كما يقول فلندرزبترى(٣) Flinders. Petrie :

---

(١) أولف أرمان ، هرمان رانكة، بدون سنة نشر، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال ص ١٢١.

(2) Breasted, James, Henry, 1910, A History of Ancient Egyptians, P. 29.

(3) Petrie , W.M., Flinders, 1920, Religion and Conscence in Ancient Egypt, P. 11.

ويمكننا من خلال تلك التماثيل وبصفة خاصة فى الأسرة الرابعة IV th Dynasty أن نحدد أربعة نماذج متميزة من السلالات التى شكلت معاً شعب مصر، ويمكن إجمال هذه النماذج فيما يلى :

١- النموذج الزنجى Negro وهو أقدم النماذج التى ظهرت فى مصر. كما يذهب فى ذلك روبتر دى رستا فيجل Robert de Rustafi-jaell إلى أن سكان مصر الأصليين هم أساساً من السلالة الزنجية[١]. Negroid Race.

٢- النموذج الليبى Libyan وهم أبيض من الزنوج. ويفسر ظهور هذا النموذج بحدوث غزوات على مر التاريخ من الغرب استمرت عدة قرون. وقد امتزج الزنوج بتلك السلالات المائلة للبياض Fairy Races والتى كانت تقطن حدودهم الشمالية[٢].

٣- نموذج بلاد ما بين النهرين - العراق Mesopetamian وهم يمثلون الطبقة العليا من الشعب وتشبه رؤوسهم الرؤوس المرسومة والموجودة فى تل «لو» Tel Lo وهناك آثار كثيرة تركها هذا النموذج تدل على حدوث هجرة من بلاد ما بين النهرين إلى مصر[٣].

---

(1) De Rustagijaell, R., 1909, The Light of Egypt : From Recently Discovered Predynastic and Early Christian Records, Kegan Paul Trench, Trubner & Co., Lid., London, P. 16.

(2) Op. Cit., P. 11.

(3) Op. Cit., P. 11.

وإذا أخذنا بقول فلندرزبترى Petrie[1]. «أن أى سلالة مهزومة تأخذ فى تشكيل غزاتها بطابعها بعد عدة قرون من الاندماج»، فإن ذلك يبدو واضحا فى تشكيل الشعب المصرى لغزاته، حيث توالت الهجرات والغزوات على مصر. ففى العصر اليونانى والرومانى جاء إلى الدلتا كثير من اليونانيين واليهود الذين استقروا فى مدينة الإسكندرية التى أسسها الإسكندر عام ٣٣٢ ق.م. كذلك استقروا فى مدن الدلتا الرئيسية الأخرى، وقد استقرت هذه الجماعات وانصهرت كلها فى الشعب المصرى بعد أن تركت بعض الصفات مثل لون العينين ولون البشرة وكذلك صفات الشقرة الخفيفة بين المصريين.

هذا وقد سبق أن وفد إلى مصر فى الألف الثانية ق.م. هجرة يهودية من فلسطين استقرت فى أرض جيوش بالشرقية[2].

ولم يقتصر الأمر على هذا فقط بل تأثر المصريون فى هذه المنطقة ببعض الهجرات العربية السامية ، غير أن هذه المؤثرات لم تحدث تغييراً جوهريا فى التكوين الجنسى للمصريين حيث إن كل الجماعات الوافدة كانت تنتمى إلى سلالة البحر المتوسط الطويلة الرأس، أو للسلالة الأناضولية العريضة الرأس، إلا أن ثمة اختلاطاً طفيفاً قد حدث بين المصريين وبين بعض العناصر الزنجية التى تتاخم حدود مصر الجنوبية، وقد زاد من هذه المؤثرات قوة بعض عناصر الرقيق التى أدخلت العناصر الزنجية فى تكوين بعض المصريين، ونتج عن ذلك وجود بعض أفراد من الشعب شعرهم مفلفل أو شديد التجعيد وشفاههم مكتنزة.

---

(1) Op. Cit., P. 10.

(٢) يسرى الجوهرى ، ١٩٦٩، السلالات البشرية.

أولا : المراجع العربية :

(١) إبراهيم رزقانة، عبد المنعم أبو بكر وآخرون، بدون سنة نشر، حضارة مصر والشرق القديم، مكتبة مصر، الفجالة – القاهرة.

(٢) أحمد أبو زيد، ١٩٥٧، تايلور : مجموعة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف.

(٣) أحمد أبو زيد، ١٩٦٥، القيم والبناء الاجتماعي في دول البحر الأبيض، مجلة السياسة الدولية ، العدد الأول ، مؤسسة الأهرام.

(٤) أحمد الخشاب، ١٩٧٠، دراسات أنثروبولوجية، دار المعارف، القاهرة.

(٥) ادوارد لين ، ١٩٧٥، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر نور، الطبعة الثانية، دار النشر للجامعات المصرية – القاهرة.

(٦) ألولف أرمان، هرمان رانكة، ١٩٥٠، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة.

(٧) السيد عبد العاطي السيد، ١٩٨١، الأيكولوجيا الاجتماعية، مدخل لدراسة الإنسان والبيئة والمجتمع، دار بورسعيد للطباعة والنشر.

(٨) فاروق مصطفى إسماعيل، ١٩٨٠، الأنثروبولوجيا الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية.

(٩) فتحي أبو عيانة، ١٩٧٠، سكان الإسكندرية، دراسة جغرافية وديموجرافية، رسالة دكتوراه.

(١٠) محمد محمد الصياد، ١٩٥٥، موقع ومناخ غرب الدلتا، مجلة كلية الآداب، القاهرة.

(١١) محمد عاطف غيث، ١٩٧٧، دراسة في المجتمع القروي المصري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

(١٢) محمد عاطف غيث، ١٩٧٩، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

(١٣) محمد عباس إبراهيم، ١٩٨٥، الشقافات الفرعية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

(١٤) محمد عبده محجوب، ١٩٧٧، مقدمة فى الاتجاه السوسيو أنثروبولوجى، الهيئة المصرية العامة لكتاب، الإسكندرية.

(١٥) مصطفى العبادى، ١٩٧٥، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، مكتبة الأنجلو المصرية.

(١٦) ممدوح درويش، ١٩٨٣، الموانى المصرية والنشاط التجارى فى عصر البطالمة، رسالة ماجستير غير منشورة.

(١٧) رشيد سالم الناضورى، ١٩٨١، المغرب الكبير: العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(١٨) نادية أحمد محمد ، ١٩٨٣، مناهج وإجراءات البحث الأركيولوجى وعلاقتها بفروع الأنثروبولوجيا، دراسة ماجستير غير منشورة.

(١٩) يسرى الجوهرى، ١٩٦٩، السلالات البشرية، دار الطلبة العرب، بيروت

ثانيا : تقارير علمية :

(١) أحمد محمود النشار، ١٩٨٢، تقرير حفائر كنج مريوط، تفتيش آثار غرب الدلتا، الإسكندرية.

(٢) تقارير حفائر المتحف الرومانى، ١٩٨١، المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية.

ثالثا : المرجع الأجنبية:

(1) Atlas of Egypt : Comprising Maps of the Cultivated Area Between the Mediterranean Sea and Cairo, Volume I. National Printing Department, Cairo, 1912.

(2) Baikie, J., 1932, Egyptian Antiquities in the Nile Valley , A Discriptive Handbook.

(3) Bidney, D., 1953, Theoritical Anthropology, New York, Columbia University Press.

(4) Breasted, James, Henry, 1910, A History of Ancient Egyptians,Smith Elder & Co., London.

(5) Chester S., Chard, 1975, Man in Prehistory, McGraw-Hill, Inc., U.S.A.

(6) Coulson D. E. William and Aibert Leonard, Jr. 1981, Cities of the Delta, Naukraties, Part I, Undeno, Undeno Publications, Malibu.

(7) Daniel, R., Gross, 1973, Peoples and Cultures of Native South America . The American Museum of Natural History, N.Y.

(8) David, Wilson, 1974, The New Archaeology, New American Library, Inc., New York.

(9) Dean, Snow, 1976, The American Indias, Their Archaeology and Prehistory, Thoms and Hudson Ltd., London.

(10) De Rustagijaell, R., 1909, The Light of Egypt : From Recently Discovered Predynastic and Early Christian Records, Kegan Paul Trench, Trubner & Co., Lid., London.

(11) James , Deetz, 1967, Invitation to Archaeology, The American Musuem of National History, New York, Press.,

(12) Jermey Boissevain; 1979, Toward a Social Anthropology of the Mediterranean, In C.A.Vol., 20, No. 1 March.

(13) John, Davis, 1977, People of the Mediternean : An Essy in Compartive Social Anthropology, Routlge & Kegan Paul, London.

(14) John, L. Myres, Mediterranean Culture, Cambridge University Press, 1944.

(15) Kroeber, Alfered L., 1939, Cultural and Natural Areas of Native North America, Univ., of Califonia Press.

(16) Oric, Bates, 1917, The Eastern Libyans, Macmillan and Co., Limited, London.

(17) Petrie, W., M., Flinders, 1888, Naukraties : The Memory of the Egypt explaration Fund, Part I.

(18) ----------,1920, Religion and Conscence in Ancient Egypt, Methuen & Co. Ltd., London.

(19) G.Sergi,1901, The Mediterranean Race : A Study of the Origin of Eurapean Peoples, Walter Scott, Patermoster Square, London.

(20) Simth, Marian, W., 1952, Culture Area and Culture Depth : With data from the Northwest Coast, N.Y.

دور علم النفس فى معالجة المجتمع الجريمة بصفة خاصة

د. عبد الفتاح محمد دويدار
أ. م. علم النفس - كلية الآداب
جامعة الإسكندرية

دور علم النفس
فى معالجة قضايا المجتمع
الجريمة بصفة خاصة

د. عبد الفتاح محمد دويدار (*)

إن علم النفس، بوسائله المنهجية الراهنة، وبنظرياته الحالية، لا يعجز عن تلمس الطريق لحل المشكلات السيكولوجية التى تنشأ عند احتكاك الفرد بظروف اجتماعية وبناء تسيطر فيه الصراعات الطبقية، والفقر، وقيم المجتمع المادى، والقهر السياسى والقوة ... وغير ذلك.

وإذا كان علم النفس الاجتماعى أحد الفروع الأساسية التى تهتم بدراسة السلوك كما يتشكل فى المواقف الاجتماعية المختلفة، بهدف وضع القوانين الأولية الأساسية للسلوك كما يتحدد من خلال هذا الاتجاه، فإن علم النفس الاجتماعى التطبيقى ينبغى أن يوجه اهتمامه إلى استغلال القوانين التى تأتى من الفروع الأساسية لعلم النفس جميعها، وتوظيفها فى فهم وضبط وحل مشكلات التفاعل الاجتماعى، لمعالجة قضايا المجتمع على تنوعها واختلافها، وبخاصة فى مجال الجريمة، لمعرفة ما يلابسها من أسباب ومسببات وعلل ومعلومات.

فالجريمة، منذ فجر التاريخ الإنسانى، من أهم منغصات المجتمع وستظل معولاً من معاول الهدم فيه، ويكفى أن نشير إلى ما يتكبده المجتمع من خسائر فى شتى مجالات الحياة، نتيجة الجريمة بمختلف أبعادها

(*) استاذ مساعد علم النفس بكلية الآداب فى جامعتى الإسكندرية (مصر) وبيروت العربية (لبنان) ومدير تحرير مجلة الثقافة النفسية

وأنواعها، فقد ذهب المؤتمر الخامس للأمم المتحدة الذى عُقد فى جنيف لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين، فى العام ١٩٧٥، إلى أنه يمكن تقسيم نفقات الجريمة إلى أربع فئات عامة هى :

١- الخسائر المادية المباشرة التى تلحق ضحايا الجرائم فى النفس والمال.

٢- نفقات التدابير الوقائية وإجراءات المحافظة على الأمن العام.

٣- نفقات التأمين والأجور التى يفقدها المجرمون والمحبوسون والمجنى عليهم المصابون والمعطلون بسبب ذلك عن أداء ومباشرة أعمالهم.

٤- عبء الإعانات الاجتماعية التى تدفعها الدولة لأسر المسجونين والمجنى عليهم، وهذه التكاليف مادية بحتة توجد بجانب تكاليف معنوية تتمثل فى الخوف والقلق الذى يؤدى إليه انتشار الإجرام لأن مواجهته قد تستتبع فرض بعض الإجراءات نتيجة للقيود العامة لمكافحة الجريمة. (١)

لذلك، حاول المجتمع بشتى الطرق والوسائل- التى تطورت بتطوره - قمع الجريمة والعمل على منعها وعقاب من يتردى فيها وفق نصوص القانون الجنائى الذى يقوم على مفاهيم الإدانة الأخلاقية والردع بالعقاب.

ولكن يبدو أن المعرفة المستمدة من العلوم الاجتماعية، وعلم النفس على وجه الخصوص، تملى علينا ضرورة تعديل تلك المفاهيم بل وتعديل

---

(١) درويش عبد الحميد الحسنى (١٩٨٤) «الجريمة والتنمية» سلسلة اقرأ، العدد ٥٥، القاهرة، دار المعارف، ص ص ٣٢-٣٣.

أسلوب التعامل مع الجريمة والجانى.

ومن الواضح أن هناك جرائم معينة تمكن المجتمع من تبسيط أو تجنب المشاكل الاجتماعية، فهى تجعل من السهل أن نلوم فرداً أو مجموعة من الأفراد بدلاً من أن نتعامل مع المشكلة الاجتماعية الأصلية. فعلى سبيل المثال، من السهل أن نلقى باللائمة فى تزييف الشيكات على المزورين بدلاً من أن نواجه مشكلة الحاجة إلى تغيير النظام الائتمانى كله، ومن السهل أن نعاقب المحتالين على السكان فى قضايا الإسكان بدلاً من مواجهة مشكلة أن هناك نقصاً فى المساكن بالفعل. (٢)

تعريف الجريمة

الجريمة فعل غير مشروع صادر عن إرادة جنائية يقرر له القانون عقوبة أو تدبيراً احترازياً. ويقوم تعريف الجريمة على العناصر التالية (٣) :

أولاً: تفترض الجريمة ارتكاب فعل يتمثل فيه الجانب المادى لها، ونعنى بالفعل السلوك الإجرامى أيا كانت صورته، فهو يشمل الإيجابى كما يتسع للامتناع. ومثال النشاط الإيجابى تحريك الجانى يده لاختلاس مال المجنى عليه، ومثال الامتناع إحجام الأم عن إرضاع طفلها ليهلك، والأصل أن تترتب على الفعل آثار يتمثل فيها الاعتداء على الحق الذى يحميه القانون.

---

(٢) LIPPMAN, H.S., (1956)"Treatment of the Child in Emotional Conflict", New York: Mc Graw. Hill book, Company, p. 200.

(٣) حسنى، محمود نجيب (١٩٧٠) «دروس فى قانون العقوبات القسم الخاص»، القاهرة، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، ص ص ٤٥-٤٧.

ثانياً: تفترض الجريمة أن الفعل غير مشروع طبقاً لقانون العقوبات والقوانين المكملة له، فلا تقوم جريمة بفعل مشروع. ويوصف الفعل بأنه غير مشروع إذا تضمن القانون نصا يجرمه، ولم يكن من الظروف التي ارتكب فيها خاضعا لسبب أباحه.

ثالثاً: تفترض الجريمة صدور الفعل غير المشروع عن إرادة جنائية. فليست الجريمة ظاهرة مادية خالصة، بل هي عمل إنسان يُسأل عنها ويتحمل العقاب من أجلها، كذلك يجب أن تكون ذات أصول في نفسيته. ويغير العلاقة بين شخصية الجاني وماديات الجريمة، يستحيل تحديد شخص تقوم مسؤوليته عنها. واشتراط صدور الفعل عن إرادة، يعني إشتراط صدوره عن إنسان، إذ لا تنسب الإرادة لغير الإنسان. ويتعين أن تكون الإرادة مميزة مدركة، وحرة مختارة حتى تُعد عنصراً في الجريمة. وتسمى الأسباب التي تجردها من القيمة القانونية «موانع المسؤولية الجنائية»، مثل : صغر السن والجنون والسُكر غير الإرادي والإكراه وحالة الضرورة. وللإرادة الجنائية صورتان : القصد الجنائي والخطأ غير العمدي، ويعني القصد الجنائي اتجاه الإرادة إلى الفعل ونتيجته، ويفترض الخطأ غير العمدي اتجاه الإرادة إلى الفعل دون النتيجة.

رابعاً: تفترض الجريمة أن القانون يقرر لها عقوبة أو تدبيراً احترازياً. ويعني ذلك أن يترتب على ارتكابها تحقق أثر من نوع خاص يمتاز بطابعه الجنائي البحت.

ومن الواضح أن الجريمة ظاهرة وجدت منذ فجر التاريخ واسترعت

الانتباه منذ القدم، وعلم القانون له باع طويل فى التنظير لها ولكن الاهتمام بالجوانب النفسية للمجرم أدى إلى نشأة ما يسمى بعلم النفس الجنائى الذى يعد فرعاً من علم النفس الاجتماعى الذى يستند بدوره إلى علم النفس العام.

وعلم النفس الجنائى هو العلم الذى يتناول السلوك الإجرامى تناولاً سيكولوجياً باستخدام طرق البحث ومناهجه وأدواته، وبخاصة أساليب الملاحظة والمقابلة والاختبارات السيكولوجية المقننة.

الجريمة بين علم النفس والقانون الجنائى

إن الجريمة ليست مجرد ظاهرة مضادة للمجتمع يتعامل القضاة معها وفقاً لنصوص قانون العقوبات الثابتة، ولكنها أيضاً مشكلة سيكولوجية تستلزم الدراسة المتعمقة من كل من يهتم بدوافع السلوك الإنسانى.

ولقد كان المشتغلون بالقانون وعلماء السلوك يتحدثون عن الفائدة الممكنة والحاجة المتزايدة إلى التعاون بين علميهما فى مهمة التعامل مع الجريمة والجانى حيث يرى المشتغلون بالقانون أن القانون الجنائي يهتم بالسلوك الإنسانى، ولذلك ينبغى أن يستفيد من الفهم الذى حصل عليه علم السلوك من خلال الملاحظة العلمية. ويحس علماء السلوك بالتزامهم كمواطنين إزاء فهم وخدمة عمل القانون الجنائى [٤].

ويدعم تلك الاتجاهات المتكاملة نحو التعاون ما يدفعه المجتمع من ضريبة باهظة من المعاناة والفاقد البشرى نتيجة مشكلة الجريمة وفشل

(٤) ليلة سند رزق (١٩٩٠) «قراءات فى علم النفس الجنائى» بيروت : دار النهضة العربية، ص ١٨.

المجتمع في التعامل معها. (٥)

ويرى جلوفر Glover أنه من الصعب أن نتوقع أن يتفق عالم النفس والمشتغل بالقانون في وجهات النظر اتفاقاً تاماً، لأسباب لعل أهمها :

١- أن علم النفس من العلوم التي يهتم بها المحامي والقاضي وعالم الدين ورجل الشارع، دون أن يهتم بكونه فرعاً من فروع المعرفة العلمية التي تتطلب تدريباً طويلاً. كما أن القاضي مطالب بغض النظر عن آرائه الخاصة في موضوع الجريمة بأن يطبق نصوص قانون العقوبات القائم على الأفكار الثابتة الخاصة بطبيعة الجُرم وفضائل العقوبة.

٢- أن موضوع الجريمة، مثله مثل السياسة والدين والجنس، يثير أقوى الانفعالات والتميزات والمفاهيم القبلية والخرافات، لأن الجريمة هي أولاً وأخيراً قضية أخلاقية، تتضمن مفاهيم الخير والشر والخطيئة والصواب والخطأ والإصلاح والغفران والتكفير والردع والعقاب. (٦)

أما إدوارد ج. ساشستر Edward J. Sacher، فيرى أن الجهود المبذولة في مضمار التعاون بين علم النفس والقانون لم تؤت ثمارها المرجوة لأن أهداف هذا التعاون لم تكن محددة بوضوح، كما أن الطرفين المتعاونين لم يحسبا حساب الفروق الهامة بين علميهما في الأهداف والمسلمات وفروض العمل. ويحذرنا «ساشتر» من أن نفترض أن القانون الجنائي وعلم

(٥) SACHER, E.J. (1963) Behavioral Science and Criminal Law, Journal of Scientific American , Vol. 209, No. 5, p. 39.

(٦) GLOVER, E., (1970) The Roots of Crime, Selected Papers on Psychoanalysis, International Universities Press , Inc., PP. 4-5.

السلوك كينونتان متجانستان لهما وجهات نظر موحدة لأن لكل منهما مدارسه المختلفة في التفكير وله متخصصوه الذين يهمهم التمييز بين التعاليم النظرية والمسائل العلمية.

ويذكر « ساشتر » أن للقانون الجنائي هدفين :

أولهما : تأكيد الحقائق الأخلاقية المطلقة للمجتمع عن طريق الإدانة الأخلاقية، وعقاب من يتحدي هذه الحقائق المطلقة .

ثانيهما : تخفيض عدد الأفعال الإجرامية في المجتمع عن طريق نظام العقوبة والردع والإصلاح .

ويحاول كل فعل قانوني في القانون الجنائي خدمة كلا الهدفين في آن واحد . ويبدو القانون الجنائي هكذا أداة لتدعيم ونشر المبادئ الأخلاقية للمجتمع وفي سبيل ذلك يطرد ويدين ويعاقب المتهم .

والفلسفة الكامنة وراء ذلك مؤداها أن كل إنسان يتصرف كما لو كان لديه حرية كاملة للإرادة . وبما إنه يستطيع أن يختار طريق الصواب الأخلاقي أو طريق الخطأ الأخلاقي، فإن ارتكابه لفعل إجرامي يعني أنه قد اختار الشر اختيارا حرا، ويعبر عن الحالة الجنائية للعقل أو النية الإجرامية بمعني أنه يستحق الإدانة الأخلاقية ويستحق العقوبة من المجتمع وفقا لمدي بشاعة الجريمة وعندما يتحقق ذلك تتم العدالة . وعبر السنين، أضيفت الاستثناءات والأهليات حول هذا الجوهر المركزي لنظرية المسئولية الاجتماعية والجنائية الكاملة، مثل أن المتهم قد يرتكب جريمته دفاعا عن النفس أو يكون تحت إكراه أو أنه قد يكون حدثا صغير السن .

كما يذكر « ساشتر » أن العلوم السلوكية تنبثق من مسلمات تتعارض مع المسلمات الأخلاقية للقانون، فإن هدفها فهم السلوك وتعديله .لذلك فمفهوم الإرادة الحرة لا قيمة له، بل إن من الضروري أن نفترض أن سلوك الناس وفكرهم يتحدد وفق قوانين يمكن اكتشافها .

إن التعارض في وجهات النظر بين علم النفس والقانون يمكن رؤيته بشكل أفضل من خلال تلك الفرصة المؤاتية للاختصاصي النفسي لأنه عالم السلوك الذي كثيرا ما يستدعي إلي ساحة المحكمة لتحديد ما إذا كان المتهم مجنونا يستثني من المسئولية والإدانة أم أن العكس هو الصحيح.

ويجد المتخصص النفسي مسالة الإدانة الأخلاقية للفرد غير مناسبة ويدعم مفهومه الخاص عن المسئولية والذي مؤداه أن اعتبار شخص ما مسئولا جنائيا معناه أن هذا الشخص ينبغي أن يتغير قبل أن يستأنف موقعه. ووظيفته في المجتمع.

وإذا لم تتم مراجعة النظرة الأساسية للمسؤولية من جانب أو آخر فإن مساحة التعاون بين علم النفس والقانون لا يمكن أن تكون أرحب مما هي عليه الآن حيث يقدم عالم السلوك ملاحظاته ويطبق عليها الجهاز القانوني مماييره ليحدد المسؤولية الجنائية.

وتجدر الإشارة إلى أن القانون حين لا تتطور نصوصه وتتعدل باستمرار كي تتماشى مع التطور الدائم فى المجتمع وظواهره وعلى وجه الخصوص الظواهر الإجرامية يصيبه الجمود ويؤدى ذلك إلى استفحال ظواهر إجرامية ووصولها إلي مرحلة من الصعب أن يتداركها المجتمع .

وذلك لأن نصوص القانون تورد ما تعاقبه من أفعال على سبيل الحصر، أى إنها تورد مفردات الأفعال التى يشملها نص التجريم، ومع تطور المجتمع، نجد ظواهر لم يضعها المشرع فى حسابه عند صياغة نص القانون. فعلى سبيل المثال، قضية تطبيق عقوبة الإعدام على تجار المخدرات فى مصر لم تناقش منذ عشرات السنين... لماذا؟ ولماذا تطبق الآن هذه العقوبة؟ ... لأن المخدرات استشرى خطرها واستفحل أثرها، وحين أدرك المجتمع تزايد عدد المدمنين من كل الأعمار ومن مختلف الطبقات، طرحت مسألة تطبيق عقوبة الإعدام على تجار المخدرات، ولكن بعد أن بلغت الظاهرة حدا لا يمكن السكوت عنه أو تجاهله أو إنكاره.

كذلك ظواهر النصب والاحتيال والتى وصلت مؤخراً إلى حد الإضرار بالاقتصاد القومى .

إن جريمة النصب والاحتيال من الجنح التى تتراوح عقوبتها بين الحبس أسبوعا وثلاث سنوات. فهل هذه عقوبة رادعة لمن احتال على الناس وسلب أموالهم ووصل ما استولى عليه إلى عشرات أو مئات الملايين من الدولارات؟!!

وقد تزايدت تلك الجرائم بشكل كبير، وحين وصلت إلى حد أن اتخذت شكلا خطيراً، بذلت محاولات وعقدت جلسات لوضع قانون جديد لحماية المواطنين من شركات الرسكان وبيع الأراضى والاستثمارات والتجارة والسياحة والمقاولات الوهمية، حيث إن نشاط تلك المؤسسات والشركات لم يقتصر على التلاعب بأموال المواطنين العاديين ومدخراتهم بل امتد إلى

التلاعب بالأموال العامة والبنوك.

من هذه المنطلقات – وغيرها كثير – يجب على القانون ومشرعيه أن تكون أعينهم على المجتمع وظواهره الإجرامية شديدة التطور لملاحقة تلك الظواهر بالنصوص القانونية التى تتضمن ما قد يجد من أشكال الجريمة بالتجريم.

أما القضية الثانية، فقضية تخلف القانون عن متابعة منجزات العلوم الأخرى، وعلى وجه الخصوص العلوم النفسية الاجتماعية، من حيث السياسة العقابية وأسلوب التعامل مع الجريمة والمجرمين. ويجدر بنا أن نوضح أن المجرم يوضع فى السجن بمعزل عن المجتمع فترة العقوبة حيث تستفحل نوازعه العدوانية إزاء الآخرين نتيجة الجو الاجتماعى داخل مجتمع السجن ونتيجة تراكم مشاكله خارج مجتمع السجن ثم يفرج عنه ويوضع فى المجتمع مرة أخرى حيث يلفظه المجتمع ويرفض التعامل معه وتغلق فى وجهه أبواب التكسب فلا يجد إلا الجريمة سبيلا. كذلك نجد أن المسجون للمرة الأولى يوضع مع معتادى الإجرام، فيكتسب منهم معارف وعلاقات تسهل له التورط فى الجريمة مرات أخرى عديدة حيث يتعرف على مزورى البطاقات ومن يصرفون المسروقات ومن يروجون المخدرات ... الخ وهكذا يخرج من السجن وهو مندمج فى شبكة إجرامية. لذلك، ينبغى على القائمين على تطبيق السياسة العقابية الاطلاع المستمر على منجزات العلوم النفسية والاجتماعية للاستفادة منها فى ترشيد تطبيق تلك السياسة.

إن هدف القانون الجنائى الخاص القاضى بتخفيض عدد الأفعال الإجرامية عن طريق نظام العقوبة والردع والإصلاح، يتوافق مع أحد الأهداف الرئيسية لعلم النفس وهو فهم السلوك وتصنيفه وتفسيره والتنبؤ به ثم ضبطه وتعديله.

والجدير بالذكر، إن منع الجريمة لا يخدمه عقاب المتهمين وانتهاك آدميتهم، لأن المناخ الاجتماعى فى السجون يميل إلى الوحشية وتغذية الإحساس بالهوية الإجرامية وتدعم الميول الإجرامية بدلا من تثبيطها. يجب أن يرسل إلى السجن ليس العقاب ولكن للعلاج الذى يرشده ويوجهه عالم السلوك، وأن يحل التعريف النفسى – الاجتماعى والطبنفسى محل التعريف القانونى فى السياسة العقابية.

- أسباب السلوك المضاد للمجتمع والمناهض له

يميز علم النفس الجنائى بين درجتين من السلوك المخالف للقانون هما: سلوك الأحداث القصر والذى يعرف بالجناح Delinquency، وسلوك الكبار الراشدين والذى يعرف بالإجرام Criminality.

إن مرحلتى الجريمة اللتين تستثيران الكثير من المناقشات وتحفزان الكثير من البحث والدراسة، هما : أسباب الجريمة ومنع الجريمة(٧).

ولقد تعددت تفسيرات العلماء للسلوك الإجرامى وفقا لاهتماماتهم البحثية وانتماءاتهم النظرية فنجد، على سبيل المثال، أن العالم الفرنسى

(٧) مراد، يوسف (١٩٤٨) «بعض نواحى علم النفس الجنائى من الوجهة التكاملية» مجلة علم النفس، المجلد الرابع، العدد الثانى.

الشهير «دانيل لاجاش» يرى أن تكوين شخصية المجرمين هو الجزء الرئيسى من مشكلة النشأة النفسية للجريمة. فإذا كانت الشخصية دائماً فى موقف ما فإن القوة المولدة للجريمة فى هذا الموقف تتوقف على الشخصية. ثم إنه فى الغالب، يمكن إثبات إن مثل هذا الموقف لايوجد إلا لأن الفرد قد وضع نفسه فيه . وبالنسبة إلى تنوع مذاهب التأويل، هناك اتجاهان كبيران وفقا للأهمية التى يعطونها للمحددات الجبلية أو التعليم. والاتجاه الغالب حاليا هو الأخذ بالتفاعل بين المحددات الجبلية والخبرات الفردية[٨] أى أن الاتجاه السائد الآن هو عدم إغفال الأثر النسبى لكل من الوراثة والبيئة فى تفسير السلوك الإجرامى.

وينظر لاجاش إلى السلوك الإجرامى من جانبين أساسيين هما:

١- جانب وصفى، ينظر إلى العلاقة بين المجرم والجماعات التى ينتمى إليها.

٢- جانب دينامى، ينظر فيه إلى العلاقة بين شخص المجرم وفعله[٩].

أما مصطفى حجازى، فيرى أن السلوك الجانح فى مجتمع ما هو دائما مؤشر يتجسد فى تصرف بعض الأفراد الخارجين على القانون للدلالة على ما يعتمل باطنيا فى بنية ذلك المجتمع من اضطراب وما يتراكم فيها من

---

(٨) دانيل لاجاش، (١٩٧٠) «المنشأ النفسى للجريمة»، ترجمة عبد الحليم محمود السيد، المجلة الجنائية القومية، القاهرة : المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، المجلد ١٣ العدد الأول، ص ١١٢.

(٩) حسنى، درويش عبد الحميد (١٩٨٤) «الجريمة والتنمية»، سلسلة اقرأ، العدد ٥٠٥، القاهرة : دار المعارف، ص ١١٦

عدوانية كامنة قابلة للانفجار في ظروف معينة[١٠]. ويتفق معه في ذلك أحمد فائق حيث يرى أنه إذا تبين لنا أن مرضاً نفسياً أو جريمة قد شاعاً أو انتشرا في المجتمع، يصبح من الميسور لنا والمسموح به أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أفراد المجتمع يعانون من ظروف موحدة تثير لديهم صراعات متشابهة وإحباطات نمطية، وأن المجتمع يتيح الفرصة لأساليب إشباع وهمية للرغبات المحبطة مما يجعل الأفراد غير الأسوياء يلجأون إلى هذه الأساليب كمظهر من مظاهر فشل المجتمع بقدر ما هو مظهر من مظاهر فشل هؤلاء الأفراد[١١].

أما مصطفى سويف، فيرى أن المجرم شخص قد أحاطت به ظروف اجتماعية معينة فاندفع إلى الإجرام، ومن ثم فإن مسؤولية الجريمة لا تقع على عاتقه وحده بل على عاتق المجتمع أيضا. وظهور الإجرام بنسبة متفوقة دائما في مجتمع معين، دليل على أن ثمة عوامل اجتماعية معينة تساهم في توجيه الإجرام وتحديد مداه وتعيين خصائصه[١٢].

ويحدد «جلوفر» أسباب الاضطراب السيكوباتي (الإجرامي) والسلوكيات المضادة للمجتمع، في ثلاثة أسباب رئيسية هي[١٣].

(١٠) حجازي مصطفى (١٩٧٦) « التخلف الاجتماعي : مدخل إلى «سيكولوجية الإنسان المقهور». معهد الانماء العربي، ص ٢٦٦.

(١١) أحمد فائق (١٩٨٢) «الامراض النفسية الاجتماعية : دراسة في اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع»، القاهرة، دار اتون للطباعة والنشر ، ص ١٢٥

(١٢) مصطفى اسماعيل سويف (١٩٤٩) «الأسس الدينامية للسلوك الإجرامي»، مجلة علم النفس، مجلد ٤، عدد ٢، ص ص ٢١٠ – ٢١١.

(١٣) محمد على عبد السلام (١٩٨٥) «سيكولوجية النشل» دراسة عن التنشئة الاجتماعية والشخصية لدى النشالين، رسالة ماجيستير – غير منشورة – مودعة في مكتبة كلية الآداب – جامعة عين شمس/ مصر.

١-الأسباب الدينامية الفريزية:

فالسيكوباتى (المجرم) يتوقع أن يحصل على ما يريد متى أراد من المجتمع، ويشعر أن الخطأ خطأ المجتمع إذا لم يحصل على ما يريد ويتسبب أى إحباط لديه فى ثورة عدم صبر مع وجود الحقد والضغينة والإحساس بالظلم، ويتميز السيكوباتى المجرم فى هذا النمط بالثنائية الوجدانية (التناقض الوجدانى) تجاه الموضوعات، كما يتميز بالاستجابات الحركية السريعة للإحباط والتفريغ الانفعالى السريع أيضاً. ويرفض السيكوباتى النصيحة فى الغالب، كما تسبب سمنة العناد والتشبث بالرأى الاحساس بالقهر فى الفعل، ومع ذلك تكون الاستجابة السادسة (التلذذ بإيذاء الآخر وتعذيبه) للموضوعات المحبطة ملحوظة بشكل متطرف وتتدعم من خلال العناد، وتكون الاستجابة للإحباط سبباً فى تضخيم التقييم النرجسى للأنا (عشق الذات) النامى، مما يزيد من حساسية السيكوباتى وتمركزه حول ذاته وانخفاض الإيثار والقدر على الحب. وتكون قيمة الموضوع بقدر ما يعزز «أنا» المريض ومفهومه عن ذاته. وهكذا يتضح الميل الى استغلال المجتمع الذى يعتبر ملمحاً لدى المجرم السيكوباتى.

٢-الأسباب الاقتصادية (الميكانيزمية):

ليس هناك من ميكانيزم عقلى خاص بالسيكوباتى (المجرم)، إن القائمة الكلية من ميكانيزمات التوافق أو الحيل الدفاعية اللاشعورية (التكوص والكبت والإنكار والإسقاط والإزاحة أو النقل والاستدماج(*) والقمع والتسامى

(١) الاستدماج Introjection هو تبنى المعتقدات والمواقف والانماط السلوكية للآخرين، كأن يتبنى المراهق مثلاً، مواقف والده نحو قضايا التطوع والإستدماج جزء لا يتجزأ من التقمص Identifi-

أو الإعلاء والتعيين الذاتي والتكوين العكسي والتعويض المسرف ... إلخ)، هي أساليب طبيعية يتعامل بها العقل مع العمليات المثيرة، وهي تلعب دوراً هاماً في النمو والسلوك السوي. ولعل الإسقاط هو الميكانيزم الأكثر استخداماً بشكل دائم لدى السيكوباتي المجرم.

٣-السببية الطبوغرافية (البنائية):

إن الطفل الذي يُسقط تخيلات عدائية على صور الوالدين، يكون لديه أخلاق أكثر قوة ووحشية من أخلاق الوالدين الفعلية، وعندما يستدمج الطفل صور الوالدين فإنه يستدمج هذه العناصر المشوهة أيضاً ونتيجة لذلك يكون ضميره اللاشعوري قاسياً وسادياً.

لقد نُشر في السنوات الأخيرة كتابات كثيرة فيما يختص بطبيعة التأثيرات البيئية التي يتعرض لها المتهم، ولقد تم التوكيد على حاجة الطفل للأمن والحب المتسقين، حتى أن البعض أسرف في استخدام تعبير المنزل المحطم أو البيوت المتصدعة Broken Homes، وامتد هذا التعبير ليشمل على سبيل المثال موت الوالدين، وغياب أحد الوالدين فترات طويلة، وعدم الشرعية ... إلخ. ونضيف إلى ذلك المعاملة السيئة أو غير الحكيمة، مثل التذبذبات العنيفة في استجابة الوالدين، والشجار الصريح بينهما،

= cation فعندما يلجأ الشخص إلى الاستدماج فإنه لا يقلد النموذج وحسب بل يستعير ويتمثل جوانب من شخصية هذا النموذج ويدمجها مع العناصر والخصائص المميزة لشخصيته فالطفل الذي يقول له أبواه مرارا وتكرارا أنه «فاشل» قد يصل به الأمر في نهاية المطاف، إلى قبول مضمون الكلمة، والاعتقاد بصحتها فتعبير الوالد أو الوالدة «أنت فاشل» يترجم لدى الطفل إلى «أنا فاشل» ... وهكذا

والصدمات الجنسية، والعلاقات الأسرية غير المشبعة، وتأثير الوالدين الجانحين، والصور الشريرة التى يستدمجها الطفل للوالدين ... إلى غير ذلك من الممارسات الوالدية والأساليب التربوية التى تنعكس على الصحة النفسية.(١٤)

مما سبق، نستطيع أن نتبين أن العلماء قد شعروا بالمسؤولية إزاء مراجعة الطرق المختلفة لتفسير سببية السلوك الإجرامى، ولكننا لا نستطيع أن نتبنى وجهة نظر واحدة على الرغم من أن كلاً منها يستطيع تفسير أنماط معينة من السلوك أو يساعد على فهم أسباب السلوك الإجرامى، فقد كتب عالم الإجرام المتميز «أنريكو فيري» Enrico Ferri عن سببية السلوك الإجرامى، يقول: «إن الجريمة هى نتيجة أسباب متعددة، وعلى الرغم من كونها مرتبطة بشبكة علاقات معقدة فإنه يمكن كشفها»(١٥)

وعوامل الجريمة يمكن أن تنقسم إلى عوامل فردية أو أنثروبولوجية، وعوامل فيزيقية أو طبيعية، وعوامل اجتماعية وتتضمن العوامل الأنثروبولوجية : العمر، والجنس، والحالة الزوجية، والمهنة، والسكن، والطبقة الاجتماعية، والمستوى الثقافى والتعليمى، والمستوى الاقتصادى، والبنية البدنية والبناء النفسى وسمات الشخصية. أما العوامل الفيزيقية، فهى : السلالة، والمناخ، وخصوبة التربة وطبيعتها، والطول النسبى للنهار والليل، وفصول السنة، والظروف الجوية، ودرجات الحراوة. وتتضمن العوامل الاجتم

(14) BARKWIN&BARKWIN(1972)"Behavior Disordes in Childrem" New York: Saunders Company,PP.138 - 147.
(15) GANDA, L.H, Klenke, & Hamel, K.E.,(1982) "Psychology: Its Study and Uses". St. Martin's Press, Inc.

عية : كثافة السكان، والهجرة، والرأى العام، والعادات والتقاليد، والأعراف، والديانة، والوضع الاجتماعى، والظروف الاقتصادية والصناعية، والإنتاج الزراعى والصناعى، والإدارة الشعبية للأمن الاجتماعى، والتعليم، والفائدة الجماهيرية، والتشريع العقابى والمدنى على وجه العموم.

وهناك عبارة شديدة الحصافة عن أسباب الجُناح والسلوك الإجرامى، قالها عالم النفس البريطانى البارز «سيرل بيرت Cyril Burt»، إذ كتب يقول: «لايمكن عزو الجريمة إلى مصدر عام مفرد ولا إلى مصدرين أو ثلاثة ... إن الجريمة تتحدد من تشكيلة واسعة وفيرة من التأثيرات المتعاقبة والمتضافرة، إذ إن طبيعة هذه العوامل واتحاداتها المتنوعة تختلف إلى حد كبير من فرد إلى آخر».

ويقرر «بيرت» أن هناك على الأقل أربع درجات من العوامل التى يمكن تحديدها فى أى حالة خاصة من الجريمة والتى يمكن تحديدها حسب أهميتها من حيث الشدة، وهذه العوامل هى[١٦] :

١- التأثير الرئيسى شديد البروز (إن وجد).

٢- العامل أو العوامل الرئيسية المساعدة.

٣- الظروف الثانوية المهيئة أو التى تساعد على تفاقم الحالة.

٤- عوامل حاضرة ولكنها لا تعمل بشكل ظاهر.

---

(16) BARNES, H.E. & TEATERS, N.K.,(1966) "New Horizons in criminology" Third Ed., New Jersy : Prentice. Hall, Inc., PP. 206 - 258.

ولقد ميَّز «جيمس شورت» و«روبرت ميير» بين ثلاثة مستويات من التفسير للسلوك الإجرامي، هي[١٧]:

أولا: المستوى الفردى الذى يستفسر عن الخصائص الفردية التى تفسر السلوك، وهذا المستوى يتحدث عنه فى الغالب علم النفس والعلوم البيولوجية.

ثانيا: المستوى الاجتماعى الواسع النطاق الذى يبحث عن التفسير فى خصائص النظم الاجتماعية والتنوع الحضارى.

ثالثا: المستوى الاجتماعى الدقيق الذى يفحص خصائص التفاعل المستمر الذى يشكل نتائج السلوك [١٨].

(17) CHORT, J.F. MEIER, R.F.,(1891). "Criminology and The Study of Deviance". American Behavioral Scientist Vol. 24, No.3.
(18) SHORT, G.F. & MEIER, R.F., (1981). Criminology and the Study of Deviance. American Behavioral Scientist, Vol. 24, No.3,p.469.

الدراسة الميدانية

مشكلة البحث وأهميته

إن ارتفاع مُعدلات العنف الفردى والجماعى بمختلف أنواعه، يُمثل ظاهرة تعد نذيراً خطيراً لا ينبغى تجاهله أو الإقلال من دلالته، فلقد أوضحت بعض الدرسات أسباب فشل الوصول إلى تحديد لعناصر المدخل السيكولوجى (النفسى) لجرائم العنف، لأن مجالات دراسة العنف متشابكة. وبذلك لا نجد إلا القليل من المفاهيم المتعلقة به فى معظم الدراسات، حيث تبرز مشكلتان أمام المتخصصين فى العلوم السلوكية والباحثين القانونيين عند محاولتهم التصدى لهذا المجال عبر اتصالاتهم، هاتان المشكلتان هما:(١٩)

أولاً: تتنوع المفاهيم فى مجال القانون مما يؤدى إلى صياغة مفهوم عام، بينما يرى متخصصو العلوم السلوكية أن هدف البحث هو الوصول إلى حقائق عامة بصرف النظر عن اختلافات التشريع القانونى، مع وعى الاختلافات الثقافية والاجتماعية.

ثانياً: صعوبة المقارنة بين التشريع القانونى والتحديد الإجرائى للسلوك الإجرامى والعنف السيكوباتى، بالإضافة إلى مشكلة تحديد الأفعال التى تغطيها جرائم العنف.

(١٩) ديدار عبد الفتاح(١٩٩٢) «ديناميات الإتجاه نحو السلوك السيكوباتى فى المجتمع اللبنانى» بحث منشور بمجلة الثقافة النفسية العدد العاشر المجلد الثالث نيسان (إبريل) ١٩٩٢ بيروت : دار النهضة العربية، ص ص (٧٠ - ٧٦) ضمن بحوث المؤتمر الأول للمجلة تحت شعار . نحو علم نفس عربى الذى نظمه الدراسات النفسية - الجسدية فى طرابلس / لبنان فى يناير ١٩٩٢

وهناك أسباب أخرى تثير الشك حول دراسات جرائم العنف، منها «أسطورة الانفصال»، وهى الميل فى بحوث الجرائم إلى اعتبار السلوك الإجرامي وحدة منفصلة عن أشكال السلوك الاخرى(٢٠)

ولذا فمن الاهمية بمكان وضع مفهوم واضح لجرائم العنف. ودراسة وجهة نظر الضحية والتفاعل بين الضحية ومرتكب الجريمة ، والبيئة التي يقع فيها الحدث الإجرامي، في محاولة لفهم هذه الجرائم وديناميياتها والوقاية منها .

فلاشك أنه مع تزايد ما يواجه الشباب من إحباطات تنقلب طاقاته العدوانية إلى الأفراد والجماعات بما يمثل تهديدا خطيرا لكيان المجتمع (أي خطرالتمزق والتفجير من الداخل) بتصاعد أحداث العنف الفردي والجماعي بين الشباب، فضلا عما نشاهده من خشونة متزايدة في تعامل الأفراد خلال ممارساتهم لأمور حياتهم اليومية، خاصة وأن الشباب يمثل العنصر الرئيسي لقوي مختلف مجالات الإنتاج في المجتمع، أي الركيزة الأساسية الاستمرارية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بما يؤكد ضرورة الحفاظ على هذه القوى ورعايتها من أجل مجتمع أفضل.

ولعل نظرة سريعة فاحصة ومدققة لإحصاءات الجريمة فى المجتمع، أى مجتمع، تؤكد خطورة تزايد انتشار ظاهرة السلوك الإجرامى وانعكاس

---

(20) BRODSKY, S.L. & SMITHERMAN, H.O., (1983).Handbook of Scales For Research in Crime and Delinquency. New York . Plenum Press. p. 166.

ضررة البالغ على المجتمع واختلال نسقه(*) (نظامه) القيمى، الأمر الذى يدفعنا إلى القول بأنه إذا لم تنشط البحوث والدراسات فى مجال الجريمة للوقوف على أسبابها واتجاهات الشباب نحوها، والخروج بتوصيات ومقترحات تساعد فى الحد من مثيرات الإحباط لدى الشباب، وتحويل طاقاته العدوانية إلى طاقة بناءة فإن هذا الإحباط سيكون مصدراً للتفكك وتدمير الذات.

إحصاءات الجريمة

يلجأ دارسو الجريمة، فى الغالب، إلى الإحصاءات المنشورة عن الجرائم المختلفة والتى تبين معدلات الجريمة Rates Crime أى المعدل الذى تظهر عليه الجريمة بالرجوع إلى المجموع الكلى للسكان ويقاس ذلك بعدد الجرائم التى تم تسجيلها فى فترة زمنية معينة، ويتركز الاهتمام بمحاولة عقد مقارنات عبر فترة زمنية محددة فى جريمة بعينها أو مجموعة من الجرائم أو بين المناطق السكنية أو الجغرافية المختلفة فى الجرائم نفسها، ثم الخروج باستدلالات تفسر التباين.

وتنشأ الصعوبات من أن الإحصاءات قد تكون غير ثابتة ولا يمكن الوثوق بها، وبذلك تكون الاستدلالات غير صادقة(٢١)

(*) نسق القيم هو مجموعة القيم المترابطة التى تنظم سلوك الفرد وتصرفاته، ومفهوم القيم عبارة عن الاحكام التى يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للأشخاص والأشياء والموضوعات وذلك فى ضوء تقديره الشخصى أو تقييمه لهذه الأمور وتتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد معارفه ومدركاته وخبراته ومفهومه عن ذاته وبين مستلى الإطار الحضارى الذى يعيش فيه ويكتسب من خلاله ثقافته.

(21) WALSH, D., POOLE, A.,(1983). Dictionary of Crimiology. New York: Routledge and Kegan Paul, P.52.

في النظر إلى الأرقام والنسب المئوية المجردة التى توردها تقارير الأمن العام ومصلحة السجون نلاحظ أنها تفتقر إلى الأساس المنطقى والبديهى الذى يمكن أن يكسبها معناها، فعدد الجرائم سواء كانت من الجنايات أم الجنح ينبغى أن ينسب إلى عدد السكان فى المجتمع، وينبغى بيان نسبة عدد كل من الجنايات والجنح إلي المجموع العام للجرائم كل على حدة كما ينبغى بيان نسبة عدد الجنايات والجنح إلى عدد المسجونين الفعلى فى السجون(٢٢)

فمثلا، قد يرتكب الفرد العديد من حوادث النصب والاحتيال قبل أن ينكشف أمره ويقبض عليه ربما لأول مرة فى حياته هذا إلي جانب إحساس المجنى عليه (الضحية) فى جنح النصب والاحتيال بالخزى لأنه قد غرر به، يجعله يحجم فى كثير من الأحيان عن الإبلاغ عن الواقعة وقد يتمسك هذا الضحية بتلابيب الجانى فيعده بإرجاع ما سلبه منه أو يرده إليه بالفعل ويرضى الضحية بذلك، ولا يصل الأمر إلى الاحتكام إلى القانون(٢٣).

كما أن كثيراً من أفراد المجتمع يحجمون عن الإبلاغ عن وقائع الرشوة لعدم ثقتهم بعدالة المحاكمة، وطول إجراءات التقاضى، وتستر الرؤساء على أخطاء مرءوسيهم(٢٤) هذا فضلاً عن طبيعة العلاقة بين المرتشى والرتشى إذ

---

(22) WILKINS,I.T.,(1968). Criminology, An Operational Research Approach in Society Psychological Problems and Methods of study. Routledge and Keagan Paul.

(٢٣) ليلة رزق سند إبراهيم (١٩٨٦) دراسة فى سيكولوجية النصاب، رسالة دكتوراه مودعة بمكتبة كلية الآداب – جامعة عين شمس، ص ٢٣

(٢٤) فتاوى شادية على (١٩٧٦) «ظاهرة الرشوة فى المجتمع المصرى» دراسة إجتماعية ميدانية رسالة ماجستير مودعة بمكتبة الآداب جامعة عين شمس.

إن كلا منهما يكون مستفيداً من الجريمة، وبالتالى يندر الإبلاغ عنها، ومن ناحية أخرى فإن بعض كبار العاملين بالدولة من ذوى المكانات الوظيفية العليا، يمارسون الرشوة ويصبحون بمنأى عن أن تطولهم يد القانون(٢٥)

ثم إننا لا نستطيع أن نثق بما ينشر من إحصاءات عن معدلات الجريمة في المجتمع، إذ إنها لا تعبر عن الواقع الفعلى لهذه المعدلات وكل ما نستطيع أن نقوله إنها تعبر عن نشاط البوليس فى تتبع الجريمة وملاحظتها، «وما خفى كان أعظم».

وهذا يدعونا إلى محاولة استقصاء أسباب الجرائم، وقياس اتجاهات الناس نحو الجريمة، والتعرف إلى آرائهم في قوانين معاقبة المجرمين، لاستخلاص العوامل الكامنة وراء تلك الاتجاهات.

إن السلوك الاجتماعى فى حد ذاته لا يمكن أن يقال عنه إنه سلوك إجرامى أو غير إجرامى، منحرف أو غير منحرف سوى أو عرضى لكن الذى يصفه بهذه الصفة أو تلك هو تقويم المجتمع له فى ضوء مدى التزامه أو خروجه عن المعايير الاجتماعية للسلوك ولقد إهتم علماء النفس وعلماء الاجتماع بالأمراض الاجتماعية أو ما يسمى أحيانا الباثولوجيا Social Pathology ويعرف المرض الاجتماعى بأنه سلوك شاذ هدام يمثل مشكلة اجتماعية تهدد أمن الفرد والجماعة(٢٦)

---

(٢٥) شحاته مجدى رتق محمد (١٩٨٧) «سيكولوجية الرشوة» دراسة عن الشخصية والتنشئة الاجتماعية للموظف المرتشى رسالة ما جستير تودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس.

(٢٦) دويدار عبد الفتاح محمد (١٩٩٤) «علم النفس الاجتماعى : أصوله ومبادئه» بيروت : دار النهضة العربية.

إن المجرمين والمنحرفين والجانحين والشذاذ وذوى السلوك المضاد للمجتمع يمثلون خطراً على حياة الآخرين، ويكونون عنصر قلق واضطراب، قد يعرضون فيه حياة غيرهم للخطر، فهم إما أن يسرقوهم أو يقتلوهم أو يغتصبوهم أو يحتالوا عليهم بالنصب والغش والرشوة والخداع ... إلخ وهم فى الوقت نفسه يمثلون خطراً على حياة أنفسهم لأنهم نتيجة لانحرافهم يقاومهم المجتمع مما يجعلهم عرضة لإضطرابات نفسية عديدة أقلها القلق، وهم أيضاً يمثلون مشكلة اجتماعية اقتصادية خطيرة بوصفهم فاقد بشرى بالنسبة إلى عملية البناء الاجتماعى.

والواقع أننا لو حللنا أى مشكلة لوجدنا أن معظمها متعددة الجوانب، فيها الجانب الاجتماعى، والجانب النفسى، والجانب الصحى، والجانب الاقتصادى والجانب الثقافى ... إلخ ولعل هذا هو السبب فى انتشار العيادات النفسية Psychological Clinics ، التى يعمل فيها فريق من مختلف التخصصات الطبيب والأخصائى النفسى والأخصائى الاجتماعى.

وقد تصادفنا مشكلة سرقة يصاحبها إضطرابات نفسية متعددة ويتضح أن السبب الرئيسى لهذا الانحراف هو الحاجة إلى المال، ويكفى علاج الموقف الاقتصادى للشخص وأسرته حتى تضبط الأحوال جميعها أى إن إصلاح جانب واحد قد يكفى لضبط الحالة بأكملها(*).

(*) علاج الموقف الاقتصادى لا يعنى دائماً إعطاء المال، بل ربما كان الأفضل هو السببى Causal Treatment الدائم والبحث عن عمل للشخص نفسه أو لأحد أفراد أسرته وفى إحدى الحالات كان الحل هو إعطاء ماكينة خياطة لوالدته وتعليمها التفصيل والحياكة ومعاونتها على تسويق منتجاتها وهنا حكمة صينية تقول : إذا طلب منك أحد سمكة فلا تعطه إياها بل علمه الصيد

ولقد انتشرت في السنوات الأخيرة مراكز التحويل Referral Units وظيفتها مقابلة الحالة مقابلة مبدئية، وتجمع البيانات التى توضح جوانبها أو الجانب المتغلب فيها والذى يستحس البدء به والذى قد تنتهى عنده المشاكل، فتحول إحدى الحالات الي مصحة أو مستشفي عام أو متخصص، وحالة أخري، إلي جمعية خيرية ترعي فئة معينة، وحالة ثالثة إلي الضمان الاجتماعي، ورابعة إلي مؤسسة للتأهيل المهني، وخامسة إلي مكتب التشغيل والعمل ... أما الحالات التي يتضح تعدد جوانبها، فإنها تحال إلي إحدي العيادات السيكولوجية حيث تتضافر جهود فريق المتخصصين في العلاج وإعادة التكيف الشخصي والتوافق الاجتماعي(**) .

أهداف العقوبة

إن أهداف العقاب أو فلسفات التأديب هي الأغراض المنشودة من قبل المعاقب، أو بواسطة الإستراتيجية المفضلة للسيطرة علي الجريمة . وتذكر الكتابات القانونية خمسة أهداف نموذجية للعقاب، هي :

(أ) عقاب أو جزاء مستحق وفقا لنوع الجريمة، أي عقوبات ومثوبات عادلة .

(ب) إعادة تأهيل المجرم Rehabilitation ب وضعه تحت الرقابة .

(جـ) تعجيز المجرم عن إرتكاب جريمته، أو إبعاده عن المجتمع لحماية الجمهور من شروره .

(د) إعاقة عامة أو عدم تشجيع الجريمة بمعاقبة بعض « النماذج » من مرتكبيها بالقصاص وتنفيذ الحدود، ليكونا عبرة لغيرهم .

(**) هذه المراكز أنشئت في مصر لخدمة تلاميذ المدارس، وأطلق عليها اسم مكاتب الخدمة الاجتماعية المدرسية فضلاً عن تقديم الخدمة النفسية بواسطة الإخصائي النفسي في كل مدرسة.

(هـ) إعاقة خاصة أو عدم تشجيع الأثم المعاقب للحيلولة دون ارتكابه لجرائم مستقبلا .

وليس من شك في أن تفضيل نوع معين من العقاب يختلف باختلاف القضاة، حتي في الجرائم والقضايا المتشابهة . فالقضاة الذين يساندون التعجيز يصدرون أحكاما بالسجن لمدة طويلة، والذين يؤيدون إعادة التأهيل يمنحون فرصاً أكثر للمجرمين بوضعهم تحت المراقبة لفترات طويلة بعد اطلاق سراحهم .

أسباب الجرائم

عادة ما تفيد استطلاعات الرأي العام أن الأسباب الرئيسية للجريمة تتضمن :

الأساليب والممارسات التي يتبعها الآباء والأمهات في التنشئة الاجتماعية وفي تربية الأبناء، وانهيار الحياة الأسرية، والبيئة السيئة، والتساهل في القوانين وفي النظام القضائي الجنائي، وبطء إجراءات التقاضي، والمخدرات ، والمرض العقلي، وتساهل المجتمع والفقر، والبطالة، والتردي الأخلاقي، وانهيار القيم، إلي غير ذلك من العوامل الاجتماعية والاقتصادية كأسباب للجريمة . وتتولد أسباب أكثر تعيينا وتحديدا وأكثر مباشرة عند سؤال المجرم نفسه عن الجريمة نفسها[٢٧]

(٢٧) دويدار عبد الفتاح محمد (١٩٩٠) خبرات الطفولة وعلاقتها بالسلوك العدواني وسوء التوافق مشكلات التكيف بحث ألقى فى مؤتمر الجمعية المصرية للطب والقانون بالإسكندرية (المؤتمر السنوى الثالث عشر) تحت شعار « الانحراف والعنف فى المجتمع المصرى : أسبابها ومظاهرها وطرق الوقاية منهما ».

إن الباحثين في مجال الجريمة ينسبون ثلاثة أرباع الجرائم إلي عشرة أسباب، هي :إساءة استخدام المخدرات، الإفراط في تعاطي الخمور والمسكرات، الطمع، الحاجة إلي النقود، تهور الضحية، السكر أثناء ارتكاب الجريمة،تأثير الشركاء، نقص السيطرة، مشاكل عقلية، خلافات أسرية ومشكلات منزلية.

والواقع أن الفلسفات الفردية للقضاة عادة ما تكون متصلة ومتسقة مع معتقداتهم عن أسباب الجريمة فالذين يناصرون مبدأ إعادة تأهيل المجرم، ينسبون الجريمة أكثر إلى عوامل اقتصادية واجتماعية، ويؤمنون بأن معظم المجرمين معتلون عقلياً ويعانون من أمراض نفسية. في حين أن الذين يؤيدون سياسة العقاب للمجرمين، يميلون إلى النظر إلى الجريمة بوصفها راجعة إلى نقص في الذكاء وإلى ظروف اجتماعية – اقتصادية متدنية، ولا يعترفون بالمرض النفسي، ويؤمنون بأن قليلاً من المجرمين مختلون عقلياً .... ويتساوق ذلك مع النسب والأحكام التي يصدرونها في حالات فردية[٢٨]

أيديولوجيات محاربة الجريمة

تتحد الأيدلوجيات الاجتماعية – السياسية مع مختلف الآراء بشأن السلوك الإجرامي ومقترحات محاربة الجريمة والسيطرة عليها.

وتتطلب السيطرة على الجريمة أن يكون الخزف هو الدافع لضبط النفس[٢٩] ولا يتأتى ذلك إلا بتشديد العقوبات على المجرمين في المحكمات

(28) ERKINE, H.,(1974). The Polls:Causes of Crime Public Opinion Quarterly, 38, pp.288-298

(٢٩) يذكر «ميللر» (١٩٧٣) أن اليمين السياسي المحافظ يرى أخطر جريمة يرتكبها أناس ينقصهم ضبط النفس والضمير الأخلاقي.

علنية تبثها وسائل الإعلام للجمهور على سبيل الترهيب.

وعندما لا يعاقب المجرمون، كأن تشجع قيم المجتمع الليبرالية تحدى السلطة القانونية والتساهل فى النظام القضائى – الجنائى، تزداد الجريمة. وعلى النقيض، نجد أن اليسار السياسى الليبرالى يعتبر أن الظروف الاجتماعية لعدم المساواة والتمييز هى المسؤولة عن الجريمة، أى أن المجرمين هم ضحايا النظام، كما أنهم أيضاً ضحايا لأن تنفيذ القانون يفرق بين الفقراء والأغنياء، وبين الضعفاء والأقوياء فى العقوبة والأحكام، فهو يعاقب الجريمة التى يرتكبها الفقراء لكنه يتجاهل جرائم الأغنياء(٣٠)

ويحبذ الليبراليون إصلاح النظام وإعادة تأهيل الأشخاص الذين أصبحوا ضحايا المحن الاجتماعية والاقتصادية، من قبيل رد الاعتبار إليهم

منهج البحث وإجراءاته

أولاً: عينة الدراسة

لتحقيق أهداف البحث، قام الباحث بتطبيق أدوات بحثه على عينة قوامها ٤٦٨ طالباً وطالبة من طلبة الفرق الدراسية الأربع بكلية الحقوق فى جامعة بيروت العربية (منهم ٢٩١ طالباً ، ١٧٧طالبة) بوصفهم دارسين للقانون الجنائى، وسيعملون مستقبلاً فى سلك القضاء، وذلك للتعرف إلى آرائهم فى أهداف الحكم بالعقوبة وأسباب ارتكاب الجرائم ، تراوحت أعمار أفراد عينة البحث فى هذه الدراسة بين ١٩ ، ٢٥ عاماً بمتوسط قدره

(٣٠) جاء فى معنى الحديث الوارد فى الهدى النبوى الشريف قول النبى محمد صلى الله عليه وسلم . « ... إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

٢١,٦ سنة = ١,٨ عاماً طبقت عليهم أدوات الدراسة فى موقف قياس جمعى فى كل معرفة دراسية على حدة.

ثانياً: أدوات الدراسة

طبق فى هذه الدراسة مقياسان قام الباحث بإعدادهما وتحقق من الكفاءة السيكومترية لهما بحساب معاملات الثبات والصدق وهما[٣١]

١ – مقياس الإتجاه نحو الجريمة ويتكون من سبعة عشر بنداً تقيس أهداف الأحكام القضائية بالعقوبات الجنائية على مقياس سباعى الدرجات (بطريقة ليكرت فى قياس الاتجاهات) تتراوح بين عدم الموافقة الشديدة إلى الموافقة بشدة على كل بند من البنود السبعة عشر وذلك على النحو التالى :

١ – غير موافق إطلاقاً	درجة واحدة
٢ – غير موافق إلى حد ما	درجتان
٣ – غير موافق	ثلاث درجات
٤ – محايد	أربع درجات
٥ – موافق	خمس درجات
٦ – موافق كثيراً	ست درجات
٧ – موافق دائماً	سبع درجات

(31) CARROLL, J.S. et,(1987)Sentencing Goals, Causal - Attributions, Ideology, and Personality Journal of personality and Social Psychology, Vol. 52,no.1,107 -118.

وتتركز البنود السبعة عشر فى هذا المقياس علي ثلاثة محاور، تمثل ثلاثة مقاييس فرعية، وتشمل : بنود موجهة نحو ما يقوم به الآن النظام القضائى الجنائى. بنود موجهة نحو ما يحاول النظام القضائى القيام به، وبنود موجهة نحو ما يجب على النظام القضائى النهوض به.

٢ – استخبار مسح الاتجاهات نحو أسباب الجريمة : ويتكون من ستة عشر بنداً تقيس الأسباب التى تؤدى إلى ارتكاب الجرائم، على المقياس السابق نفسه المؤلف من سبع نقاط.

ثالثاً: التحليل الإحصائى للبيانات

قام الباحث بحساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية، ومعاملات الإرتباط(*) بين كل بند والدرجة الكلية فى كل من المقياسين، ثم حللت المصفوفات الارتباطية عامليا(**) باستخدام منهج التحليل العاملى للبنود AnlysisItem Factor لاستخلاص العوامل المتضمنة فى كلا المقياسين.

(*) معامل الارتباط معيار إحصائى كمى (عددى) تنحصر قيمته بين +١ – ١

(**) أى إننا استخدمنا منهج التحليل العاملى Factor Analysis بوصفه منهجاً إحصائياً كمياً فى تحليل معاملات الارتباط الناتجة من حساب العلاقات بين كل بند من بنود المقياس المستخدم والدرجة الكلية على المقياس ذاته وذلك بهدف استخلاص العوامل الكامنة فى القياس بوصفها محددات ترمى إلى تنظيم الحقائق والمفهومات تنظماً يوضح ما بينها من علاقات أو تقسيمها على أساس ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف.

نتائج الدراسة

أولا: نتائج مقياس الاتجاه نحو الجريمة

أسفر التحليل العاملى لبنود هذا المقياس عن استخلاص ثلاثة عوامل مستقلة ومتعامدة كمحددات لأهداف الأحكام القضائية والعقوبات التى يصدرها القضاة فى المحاكم بإزاء الجرائم المنظورة أمامها وهذه العوامل هى :

العامل الأول «الأداء المرضى»

وقد تشبعت بهذا العامل ستة بنود تراوحت تشبعاتها بين ٥٢ر٠ - ٦١ر٠ وتشير مضامين هذه البنود إلى ما يلى هى :

(أ) يؤدى نظام القضاء الجنائى الحالى مهمته بجودة معقولة.

(ب) يحاول نظام القضاء الجنائى العمل بجد وجهد بهدف التحسين.

والجدول رقم (١) يوضح البنود الستة، التى تشبع بها العامل الأول، وقيمة التشبع فى كل بند على هذا العامل مرتبطة من الأعلى إلى الأدنى بحسب مقدار التشبعات.

جدول رقم (١)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثاني
١ – إن النظام القضائي يعمل بكفاءة معقولة بالطريقة التي يسير بها الآن.	٠,٦١
٢ – النظام القضائي الجنائي حالياً يكرس كثيراً من طاقته لمنع الناس من ارتكاب الجرائم والأفعال الجنائية المتكررة.	٠,٥٧
٣ – يجد القضاء الجنائي باستمرار طرقاً أفضل لمحاربة الجريمة.	٠,٥٦
٤ – يحاول النظام القضائي الجنائي جاهداً العثور على طرق أفضل لإعادة تأهيل المجرمين.	٠,٥٣
٥ – تسعى الشرطة والمحاكم والإصلاحيات باستمرار في طلب وسائل للتحسن.	٠,٥٣
٦ – تحاول الشرطة والمحاكم والإصلاحيات أن تبين لكل مجرم عدم جدوى السلوك الإجرامي.	٠,٥٣

٢ – العامل الثاني : «العقاب» وتشبعت به أيضاً ستة بنود وتراوحت التشبعات بهذا العامل بين ٠,٥٦ – ٠,٦٧ ويشير محتوى هذه البنود الستة إلى أن النظام القضائي الجنائي المعمول به حالياً متساهل جداً مع المجرمين، وأن تشديد العقوبات من شأنه أن يؤدي إلى تخفيض عدد الجرائم وتقليل عدد المجرمين. ويوضح الجدول (٢) محتوى البنود الستة مرتبة بحسب قيمة تشبع كل بند بالعامل الثاني المستخرج، الأعلى فالأدنى على الترتيب.

جدول (٢)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثاني
١ – كثير من الإجراءات الإصلاحية الجديدة متساهلة جداً.	١,٦٧
٢ – معظم الذين يؤيدون معاملة متساهلة للمجرمين لا يعتقدون أهمية كبيرة على جسامة الجرائم التي تحدث.	٠,٦٦
٣ – يجب أن يؤكد أكثر على إبقاء المجرمين خلف القضبان.	٠,٦٢
٤ – يجب أن تتبنى السلطات شعار «كن متشدداً» مع المجرمين المعاودين لارتكاب الجرائم.	٠,٥٧
٥ – إذا شرعت القوانين أكثر قسوة إزاء الجريمة والمجرمين فلن يكون لدينا هذا العدد من الجرائم ولا هذه الكثرة من المجرمين.	٠,٥٩
٦ – ينبغي معاقبة المجرمين على جرائمهم كي نجبرهم على دفع دينهم للمجتمع.	٠,٥٦

٣– العامل الثالث : «رد الإعتبار وإعادة التأهيل»، ولقد تشبعت بهذا العامل خمسة بنود، تراوحت تشبعاتها بين ٠,٤٨ ، ٠,٦٤ ، ويشير محتوى هذه البنود الخمسة إلى أن الاهتمام بتطوير برامج أكثر وأفضل لإعادة تأهيل المجرمين واستثمار فترة العقوبة فى تعليمهم مهنة أو حرفة أو عمل، من شأنه أن يؤدى إلى تخفيض الجريمة.

ويوضح الجدول (٣) محتوى البنود الخمسة مرتبة بحسب قيمة تشبع كل بند بالعامل الثالث المستخلص من التحليل العاملى لبنود المقياس.

جدول (٣)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثالث
١ – ينبغي تطوير برامج أكثر وأفضل لإعادة تأهيل المجرمين.	٠,٦٤
٢ – إذا حول القضاة أناساً أكثر من السجون إلى برامج إعادة تأهيل، فسوف يكون هناك عدد أقل من الجرائم.	٠,٥٧
٣ – ينبغي استمرار الإتجاه الحالي في تحويل المجرمين من السجن إلى برامج لإعادة التأهيل.	٠,٥٦
٤ – نحن نغطي إذا اعتقدنا أن الأمر الوحيد الذي يمكن أن نفعله للمجرمين هو القائهم في السجن.	٠,٤٩
٥ – إذا اجتمع علماء النفس وعلماء القانون وعلماء الاجتماع معاً باستمرار، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تحسين نظام القضاء الجنائي المعمول به الآن.	٠,٤٨

ثانياً: استخبار مسح الاتجاهات الجريمة

أسفر التحليل العاملي لبنود هذا المقياس عن استخلاص ثلاثة عوامل ذات تشبعات مرتفعة بوصفها محددات للجريمة والأسباب الكامنة وراء ارتكاب الجرائم وهذه العوامل هي :

١ – العامل الأول : «الأسباب الاجتماعية»

تشبعت بهذا العامل ستة بنود يوضحها الجدول (٤) وتراوحت التشبعات بالعامل الأول بين ٠,٤٣ – ٠,٥٥ ويشير محتوى هذه البنود الستة إلى أن الجريمة تأتي عادة من المشاكل الأسرية ورفقاء السوء وإدمان المخدرات أي أن العامل الأول المسؤول عن الجريمة عامل اجتماعي أو أسباب اجتماعية في الأغلب الأعم.

والجدول التالي يوضح البنود الستة مرتبة لمقدار التشبع في كل بند الأعلى فالأقل :

جدول (٤)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الأول
١ – ترجع جذور أكثر الجرائم إلى المشاكل الأسرية.	٠,٥٥
٢ – المخدرات عامل أساسي في الجرائم كثيرة.	٠,٥١
٣ – رفقاء السوء وأوكارهم سبب رئيسي في تعلم الإجرام.	٠,٤٥
٤ – إدمان الخمور والمخدرات يفقد الإنسان القدرة على التحكم بسلوكه، ومن ثم يكون سببا في الجريمة.	٠,٤٥
٥ – يمكن التنبؤ بالسلوك الإجرامي لفرد ما إذا استطعنا معرفة الأشخاص يتعامل معهم ويتصل بهم.	٠,٤٤
٦ – كثير من الناس الذين يصبحون مجرمين كانوا مهملين أو منبوذين من قبل والديهم.	٠,٤٢

٢ – العامل الثاني : «الأسباب الاقتصادية»

تشبعت بهذا العامل خمسة بنود يوضحها الجدول (٥) وتراوحت تشبعاتها بالعامل بين ٠,٤٨ – ٠,٦٢ ويشير محتوى هذه البنود إلى أن الجرائم تأتي من أسباب اقتصادية أهمها تدني الظروف الاجتماعية ب الاقتصادية والفقر وعدم المساواة وسيرد ترتيب البنود وفقاً لمقدار التشبع من الأعلى إلى الأدنى.

جدول (٥)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثانى
١ – إن الفقر وعدم المساواة فى المجتمع هما السبب فى كثير من الجرائم.	٠,٦٢
٢ – كثير من الجرائم مرجعها عيوب فى المجتمع أكثر منها غرائز إجرامية فى نفسية مرتكب الجريمة.	٠,٥٨
٣ – إن الناس الذين يرتكبون الجرائم، عادة ما يكونوا مدفوعين إلى ذلك بسبب الأوضاع التى يجدون أنفسهم فيها.	٠,٥٥
٤ – إن التوزيع العادل للثروة فى المجتمع هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن نتوقعه لمنع الجريمة أو الحد منها على الأقل.	٠,٥١
٥ – الجريمة هى البديل الوحيد أحياناً أمام الناس ليبقوا على قيد الحياة.	٠,٤٨

٢ – العامل الثالث : «الأسباب الفردية»

تشبعت بهذا العامل أيضاً خمسة بنود تراوحت تشبعاتها بين ٤ ٤,٠، ٦,٠ ويشير محتوى هذه البنود إلى أن مرتكبى الجرائم معظمهم من الأشخاص الكسالى والذين لا يشعرون بالمسؤولية، وغير المبالين. يوضح الجدول (٦) وهذه البنود مرتبة طبقا لتشبع كل بند بالعامل الثالث من الأعلى إلى الأدنى.

جدول (٦)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثانى
١ – الكسولون جداً من الناس يتحولون إلى الجريمة.	٠,٦٠
٢ – إن معظم المجرمين يتعمدون إيذاء المجتمع.	٠,٤٩
٣ – المجرمون هم أناس لا يبالون بحقوق الآخرين أو بمسئوليتهم نحو المجتمع.	٠,٤٤
٤ – المجرم لمرة واحدة هو دائماً مجرم.	٠,٤٢
٥ – إجمالاً فإن إجراءات الخدمة الإجتماعية المنظمة مثل تأمين البطالة والمساعدة الإجتماعية جعلت الجريمة أكثر سوءاً.	٠,٤٠

مناقشة نتائج البحث

أولا: النتائج الخاصة بأهداف الأحكام القضائية: Sentencing Goals

كشف التحليل العاملى لبنود مقياس الاتجاه نحو الجريمة عن استخلاص ثلاثة عوامل تحدد أهداف الأحكام القضائية بالعقوبات التى تصدر ضد المجرمين فى الجرائم المختلفة ونلاحظ أن هذه العوامل تشير إلى الرضا عن النظام القضائى الحالى بشأن العقاب، كما تشير إلى أفراد عينة الدراسة يعتقدون فى العقاب للجرائم التى ترتكب لأسباب فردية ويؤيدون فكرة إعادة التأهيل للمجرمين الذين يرتكبون الجرائم بدوافع بيئية واجتماعية.

ثانيا: النتائج الخاصة بأسباب الجريمة: Causal Attributions

كشف التحليل العاملى لاستخبار مسح الاتجاهات نحو أسباب الجريمة عن استخراج ثلاثة عوامل تحدد أسباب الجريمة وهى إما أسباب اجتماعية

أو اقتصادية أو شخصية وتشير نتائج هذا التحليل إلى أن الأشخاص الذين يؤمنون بالتسبيب الاجتماعى يميلون أيضاً إلى التصديق بأن الحياة صعبة وأن الناس يحصلون فى النهاية على ما يستحقونه والذين يعتقدون فى التسبيب الاقتصادى يميلون بشدة إلي الإيمان بفكرة الإنعاش للخدمات الاجتماعية ويرون أن الحكومة ينبغى عليها أن توفر مستوى محدداً للمعيشة كحد أدنى بصرف النظر عن المقدرة علي الدفع، أما الذين يردون الجريمة إلى أسباب فردية أو شخصية فإنهم يرون أن ذلك يتنافى مع مبادئ الدين والأخلاق ومن ثم فإن ذوى الأخلاق الصارمة يؤمنون بأن الجريمة تبدأ من أفراد جشعين يستحقون العقاب.

وتتفق هذه النتائج مع نتائج بحث آخر كشف أن مقاييس أهداف الحكم بالعقوبة مترابطة : فهؤلاء الذين يؤيدون العقاب نفسه عقاباً عادلاً وتثنى المجرمين وتحمى المجتمع.

خلاصة هذه النتائج إنه يجب إعادة النظر فى سياسة السجون والإصلاحيات والأحكام القضائية وذلك بالعمل على ربط أهداف العقوبة بأسباب الجريمة وظروفها وملابساتها وتعديل نظام التقاضى ذاته مع الحرص فى الوقت ذاته على حل مشكلات الشباب الإنفعالية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والجنسية والأخلاقية إذ أن الوقاية خير من العلاج.

التوصيات :

لا جدال فى أن وقاية الشباب من الوقوع فى المشكلات خير من العلاج وتغنى عنه إذ يجب بذل الجهود لتهيئة البيئة الصالحة التى ينمو فيها المراهق

وإتاحة الجو النفسى لنمو الشخصية السوية وضرب المثل الصالح والقدوة الحسنة أمام الشباب، ومساعدة الشباب على فهم نفسه وتقبل ذاته وتقبل الآخرين وتحمل المسؤولية بخصوص تنمية المفهوم الإيجابى لدى الشباب والاهتمام بالتوجيه والإرشاد النفسى والتربوى والمهنى.

وفى ما يلى نذكر بعض التوصيات لعلاج مشكلات الشباب وبالتالى الحد من الجريمة:

١ – اكتشاف المشكلات العامة التى يعانى منها الشباب ومعرفة أسبابها والعمل على إزالة هذه الأسباب أو التخفيف من حدتها والاستعانة بالإخصائيين النفسيين واستشارتهم ضماناً لنجاح علاج مشكلات الشباب.

٢ – توجيه الشباب توجيهاً سليماً واتباع الطرق التربوية الصحيحة فى توجيهه من خلال تنظيم معسكرات العمل ومخيمات الشباب والنوادى والملاعب.

٣ – علاج مشكلات الأسرة وتوجيه الآباء وتعريفهم بضرورة مراعاة الفروق بين الشباب.

٤ – إعداد برامج منظمة لخدمة التوجيه والإرشاد النفسى فى المدارس والجامعات والمنظمات المختلفة لإعادة التأهيل النفسى والعقلى والاجتماعى والأمنى وإعادة الانتماء المادى والمعنوى الى الوطن والمجتمع.

٥ – المساعدة فى عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعى وتعليم المعايير السلوكية الاجتماعية السليمة والسلوك الاجتماعى السوى والمهارات الاجتماعية والقواعد الأخلاقية.

٦ – تهيئة الفرص للمناقشات الجماعية حول مشكلات الشباب وشغل أوقات فراغهم بطريقة مفيدة مدروسة، واستغلال الميول والهوايات مع الحرص علي إعادة الثقة إلى المواطن فى مؤسساته الوطنية الدستورية والقانونية والقضائية والإدارية والأمنية والعسكرية والتعليمية والطبية.

٧ – مساعدة الشباب فى التوجيه المهنى والإعداد للمهنة وإدراك الفرص المتاحة بالفعل فى ميدان العمل، ومدهم بأدق المعلومات المهنية ومساعدتهم فى إدارك قيمة جميع أنواع العمل وأهميتها.

٨ – إمداد الشباب بالحقائق عن الحياة الأسرية ومسؤولياتها مع الإهتمام بالتربية الجنسية العلمية للشباب.

٩ – ترشيد البرامج فى وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية وبخاصة التلفزيون وأفلام الفيديو ودور السينما، وتوجيهها توجيهاً سليماً مع التركيز على تفعيل دور المواطن فى العملية الأمنية، وزرع هيبة القانون ومحبته فى نفوس الجميع.

١٠– توجيه عناية خاصة إلى التربية الدينية للشباب وذلك لمساعدته على الخروج من واقعه المتأزم وتشجيعه على الانخراط فى المجتمع.

١١– الحرص على بث القيم الأخلاقية، وتعليم المعايير الاجتماعية للشباب وذلك بالقدوة الحسنة.

١٢– مساعدة الشباب فى تكوين فلسفة ناضجة للحياة والعمل على تحقيقها بمهارة، مع الحرص على نمو الضمير والضبط الذاتى للسلوك، حتى يتحقق النجاح فى الحياة.

١٣- رفع الكفاية الإنتاجية للدولة، بتخطيط المشروعات التى تعمل على زيادة الإنتاج ورفع المستوى الاقتصادى للأسرة.

١٤- الاهتمام بالبحوث العلمية للكشف عن أسباب الجريمة باستمرار حتى يمكن علاجها والوقاية منها قبل استحقالها، شريطة وضع نتائج هذه البحوث موضع التنفيذ الفعلى.

١٥- محاربة العصابات من خلال المسح الشامل للأحياء التى يكثر فيها ارتكاب الجرائم وإعادة النظر فى التشريعات الجزائية والمؤسسات العقابية، وتطبيق القانون بحزم يحق الجميع على حد سواء دون تفرقة ودون تمييز.

١٦- تحسين الظروف الاجتماعية أى ظروف المعيشة وتتناول برامج تدعيم الأسرة ورعاية الطفولة وتحسين الإسكان والخدمات الترويحية والصحية والضمان الاجتماعى والتأمينات العمالية وغيرها.

أثر العادات والمعتقدات الغذائية على النمو
في مرحلة الطفولة المبكرة
دراسة أنثروبولوجية

د . هندومة محمد أنور حامد
مدرس الأنثروبولوجيا الطبية – بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

مقدمة عن العلاقة بين الأنثربولوجيا والتغذية :

يعد هذا الموضوع من الموضوعات ذات الاهتمام بالعديد من العلوم البيولوجية والكيميائية والفسيولوجية، لاتصالها بالعملية الأيضية، وأيضاً علم النفس، الاجتماع والاقتصاد عامة. ولدى الأنثروبولوجيين - خاصة - لأن الطعام ليس بيولوجية فحسب، وإنما هو مسألة اجتماعية وثقافية تخضع لاعتبارات الثقافة والقيم والعادات السائدة فى المجتمع، فالطعام فى أى مجتمع يخضع لأذوق الناس وميولهم الخاصة، أكثر مما يخضع للأساليب العلمية الدقيقة فى اختيار غذاء متوازن واختلاف الأذواق نابع من اختلاف الثقافات، وهو أمر مسلم به، ليس فقط بين الأفراد ولكن أيضاً بين الجماعات والمجتمعات المختلفة، حيث يكتسب الفرد ثقافته، وبالتالى ذوقه من المجتمع الذى ينشأ فيه، ولذا فالعادات الغذائية تعتبر بمثابة استجابة من الأفراد والجماعات للظروف والجماعات للظروف الثقافية والاجتماعية المحيطة بهم[1].

وكما يقول بيرجس ودين Burgess, Dean «إن الناس لا يأكلون ما يحبونه، ولكنهم يحبون ما يأكلون بالعادة فالإنسان لدية القدرة على اختيار وتناول طعام متوازن يحتوى على جميع العناصر الغذائية التى يحتاجها الجسم، ولكنه لا يستطيع إذا كان ذلك يتعارض مع عاداته الغذائية «وما أشارت إليه مارجريت ميد عن العادات الغذائية بأنها الطريقة التى يستجيب بها الأفراد للعوامل الاجتماعية والثقافية فى مجال اختيار واستهلاك واستخدام أنواع معينة من الطعام المتاح أو المتوفر [2].

وينظر الأنثروبولوجيون إلى عادات الطعام بوصفها ظاهرة ثقافية، يهتمون بدراستها بوصفها نشاطاً معبراً عن العلاقات الاجتماعية والمعتقدات والدين وقواعد الضبط والجزاء الاجتماعي وتحدد كثيراً من النماذج الاقتصادية والعادات الغذائية تلعب أدواراً اجتماعية أساسية، أكثر من كونها عملية لتغذية الجسم [٢] فالطعام كظاهرة ثقافية ليس مجرد إنتاج عضوى له سمات بيوكيميائية يستفيد بها الكائن الحى لمواصلة حيته، ولكنه بالنسبة لأفراد كل مجتمع يتحدد ثقافياً. كما أن جزئية كبيرة من مشكلة سوء التغذية تعتمد على مدى إنتشار العادات والمعتقدات الخاطئة عن العلاقات بين الطعام والصحة وعلى المعتقدات والتحريمات والشعائر التى تمنع جماعة معينة من الاستخدام الأمثل للأطعمة التى تكون مفيدة لهم، ولذا فسوء التغذية المتسببة بعادات طعام فقيرة ليست بالتأكيد محددة للعالم الثالث، بل وجدت وبصورة واضحة فى الولايات المتحدة فالمشاكل الغذائية العالمية الانتشار ترتكز علي أشكال ثقافية وأن معظم المنظمات الدولية والعالمية للتنمية لا تعلق أهمية كبيرة على زيادة إنتاج الطعام فقط، ولكن أيضاً على تغيير عادات التغذية التقليدية لإنجاز حد أعلي من الفائدة الغذائية من الأطعمة التى تكون مفيدة ولكن تلك المهمة صعبة نظراً لأن عادات الطعام ثبت أنها من أكثر العادات مقاومة للتغير، فحبنا أو كراهيتنا ومعتقداتنا عما يكون وما لايكون صالحاً للأكل وارتباط الطعام بحالات الصحة تكون محددة منكراً فى الحياة، ولهذا يحتاج الأمر لصعوبة كبيرة لكى تكسر معظم الناس القيود المفروضة على عادات الطعام المعتاد عليها لسنوات عديدة حيث إن عادات الطعام مثل كل العادات يمكن أن تفهم فقط

فى المحتوى الثقافى الكلى للمجتمع، وهنا يكون الدور الواضح للأنثروبولوجيين فى إظهار المعتقدات الطبية والممارسات، فالأنثروبولوجين منذ الأيام الأولى من البحث الميدانى جمعوا معلومات عن ممارسات الطعام، ومعتقدات حول الطعام للجماعات والشعوب التى درسوها.

وعندما امتزجت بالأمور العملية الصحية أدى ذلك بالأنثربولوجيا الطبية إلى الاهتمام بمعتقدات الطعام والممارسات، وعندما امتزجت بالأمور العملية التى تخص عالم مشاكل التغذية أدى هذا بالتالى إلى ميدان جديد، متمثل فى أنثروبولوجيا التغذية الذى عرفه حديثاً نورج جيروم Norge Je-rome والتى تمثل فرعاً من الأنثروبولوجيا الطبية والتى تشتمل على فروع من علوم التغذية والأنثروبولوجيا، وهذا الميدان يتعلق بالظاهرة الأنثروبولوجية التى تمس المكانة الغذائية للبشر، وكان لتطور الإنسان التاريخى والثقافى وتكيفه مع الاختلافات الغذائية تحت ظروف بيئية متعددة أهمية من تقديم المواد الأساسية فى أنثروبولوجيا التغذية تنظر للطعام بخواصه الاجتماعية، والثقافية والسيكولوجية لتمييزه عن أدواره الغذائية وكظاهرة فسيولوجية ولهذا فالبحث يعكس وجهة نظر الأنثروبولوجيا عوضا عن علم التغذية على نحو صارم (٤).

التعريف بالتغذية:

من المعروف أن الغذاء يلعب دوراً هاماً وحيوياً بالنسبة للإنسان، فهو ضرورى لبناء أنسجة الجسم، وإمداده بالطاقة الكافية التى تساعده على العمل والحياة ولذلك يجب الاهتمام به، فالوجبة الغذائية غير الكافية من

حيث الكمية، والتى ينقصها عنصر أو جزء ضرورى تسبب كثيراً من الأمراض التى عرفها الإنسان، ولكنه يجهل عواملها الخفية، كما أن عدم الحصول على الكميات الكافية من عناصر غذائية معينة يحول دون نمو الأطفال ويضعف مقدرة الكبار على العمل، وعلى مقاومة المرض فالتغذية السيئة قد تكون بطيئة التأثير، ولكنها تفتك بحياة الإنسان (٥).

والتغذية الكاملة الصحيحة لا تتوقف علي مقدار ما يتناوله الشخص بقدر ما تتوقف على تنوع طعامه، ولذا فإن أهم عامل يؤدى إلى سوء التغذية الآن هو الخلط عند الكثير من الناس بين التغذية الصحيحة الكاملة والشعور بالشبع، وهو خلط يقوم على الاعتقاد الخاطىء بأن الامتلاء يحنى الأغتذاء(٦).

وللتغذية معان كثيرة فهى تعنى لمعظم الناس هذه التوعية من الغذاء التى تثير اهتمامهم الشخصى، ولا تعنى لإخصائى التغذية سوى أنها موضوع كيميائى وبالنسبة لعلماء الفيزياء والممرضات أنها وجبات تقدم للمريض فى حدود معينة من السعرات الحرارية والبروتين والكربوهيدرات ودهونه وأملاح معدنية وفيتامينات، وتعرف بأنها عمليات التفاعل الموجودة داخل الجسم التى يتسلم بها الكائن الحى المواد الغذائية الضرورية للاستفادة والمحافظة علي وظائف الجسم. أما التغذية من وجهة نظر مارى كروس Marie Krause ومارثا Martha فهى تعنى الطعام وعلاقته بالكائن الحى والجسم الإنسانى. كما يجب التمييز بين الطعام والغذاء، فالغذاء يمثل مفهوماً بيوكيميائياً، أى مادة تلتهم وقادرة على التغذية وحفظ

الكائن العضوى فى صحة جيدة.

أما الطعام فيمثل مفهوماً ثقافياً، أى أن تكون المادة ملائمة لتغذيتنا. ولذا فالقبضة القوية تكون لمعتقداتنا عن عم يكونا وما لا يكون من طعام [٧].

كما تتضمن التغذية بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا مفهومى المركز الاجتماعى والطبقة الاجتماعية، كما اهتم علماء الأنثروبولوجيا أثناء الحرب العالمية الثانية بدراسة العادات الغذائية والدور الحيوى الذى تلعبه فى تأسيس ورسوخ المحافظة على النمط الغذائى [٨] وإن التغذية الجيدة لكل فرد تعتمد على تطبيق مبادئ عديدة من العلوم والتنسيق لفروع عديدة ولذا فالتغذية، الأنثروبولوجيا، البليونتولوجيا*، الطب وعلم الأوبئـــة يمكن أن تتشابه لأوجه المنشور، لكل منها يزود برؤية مختلفة لنفس الموضوع المتمثل فى الصحة والمرض حتى بالنسبة للأفراد الذين يعيشون فى مجتمعات الوفرة كالمجتمعات الغربية الصناعية [٩].

أهمية الموضوع:

يدور هذا البحث حول دراسة أثر العوامل السيسوثقافية على تغذية الطفل فى مرحلة الطفولة المبكرة، حيث تعد العلاقة بين التغذية والنمو من أكثر التحديات المفروضة فى عالم اليوم، لأنها تؤثر بطريقة مباشرة وغير مباشرة علي مستقبل نمو الطفل الجسمى والعقلى، البيولوجى والبيوكيميائى والنضوج النفس اجتماعى. فسنوات النمو تمثل وقت لزيادة الاحتياجات والتجديد الأكثر سرعة للأنسجة، وتحويل الطعام لطاقة، ولذا فالتغذية ذات القيمة البيولوجية العالية لديها تأثير سرعة وقوة على صحة الأطفال فى حين

أن سوء التغذية الذى يعانى منه معظم سكان العالم وخاصة فى الأقطار النامية، حيث أشارت منظمة الصحة العالمية إلى ١٠٪ من سكان العالم و$\frac{٢}{٣}$ من كل الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة يعانون من نقص السعرات الحرارية والبروتين، مما يؤخر من نموهم الجسمى والعقلى (١٠). حيث أشار عدد من المتخصصين إلى أن نقص هذين العنصرين فى فترة ما بعد الفطام يؤدى إلى تلف دائم بالمخ والتى تظهر فى مستويات مختلفة لوظائف الخلية على تشكيل الرسول RNA *. وتركيب البروتين، والتحول الأيضى، وتشكل الأبنية، ونمو الوظائف الفسيولوجية ، وأخيراً التأثير على السلوك. وغير ذلك من الأمراض المرتبطة بسوء التغذية، ولهذا تعد هذه المرحلة هامة فى حياة الإنسان، وأن الطفل فى تلك المرحلة أكثر قابلية لسوء التغذية، لأن متطلباته الغذائية تكون عالية أثناء النمو السريع وما يؤدى سوء التغذية إليه من التأخر الجسمى والعقلى الذى لا يتبدل على الإطلاق بأسبابها المتعددة المتمثلة فى : (الفقر) : فسوء التغذية له جذوره الاقتصادية، من حيث عدم توفر القوة الشرائية لسد الاحتياجات البيولوجية، فالفقر يدور فى حلقة مفرغة. فقر – طعام غير مناسب – سوء تغذية – مرض – عدم القدرة على العمل – فقر (١١).

الأمية:

حيث الناس بكافة طبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية تنقصهم المعرفة للنظر للضروريات والطعام المناسب ويجهلون التركيز على التغذية، ويكونون عرضة وأكثر قابلية لموضات الطعام، الخرافات، والشعوذة أو التدجيل

الغذائى وهنا ضرورة ما يطلق عليه التعليم الغذائى لما له من أهمية فى موضوع بحثنا هذا فى تغيير عادات التغذية التقليدية والمعتقدات لإنجاز حد أعلى من الفائدة الغذائية من الأطعمة التى تكون مفيدة (١٢).

التداخل بين التغذية والصحة:

فعلي الرغم من إتفاق كثير من الشعوب التقليدية فى تقدير العلاقة الإيجابية بين الطعام الجيد والصحة إلا إنهم غالباً يرون ما يمكن تسميته بالعلاقة السلبية بين الطعام والمرض، فأطعمة معينة قد تسحب من المريض كما أشار سولين Solien إلى العلاقة المدركة بين الطعام والصحة فى قرية جواتيمالا بسيطرة اعتقاد خاطئ «وهى أن الصحة الجيدة تسمح بأن يتناول أطعمة متعددة، ولكن الصحة الهزيلة تقيد الاختيار الشخصى» وعند التعرض لأى درجة من الأمراض لدى الطفل يسحب من طعامه مواد معينة كاللبن واللحم أثناء فترة الإسهال، واستبدالها بالعصيدة المائية التى تتكون غالباً من الكربوهيدرات ولسوء الحظ فإن الأطعمة البروتينية هى الجزء الذى ينسحب فى الغالب من طعامه لاعتقادهم بأنها تسبب الديدان المعوية (١٣) مما يعجل هذا من أمراض سوء التغذية.

العوامل السيسوثقافية:

وتمثل أهم عوامل سوء التغذية جميعاً ومحور بحثنا هذا. نظراً لمدى أهمية وخطورة الدور الذى تلعبه فى تغذية أهم فئتين وهما الحامل والمرضع، وأطفال ما قبل المدرسة والعوامل السيسوثقافية فهى كثيرة ومتعددة.

والذى يهمنا هنا منها هو دور المعتقدات والتحريمات الثقافية والعادات الغذائية على تغذية الطفل فى تلك المرحلة وفى عدم الوصول إلى التغذية السليمة فعلى سبيل المثال هناك العديد من المعتقدات الثقافية تمنع من إعطاء الأطفال كثيراً من المواد الغذائية ذات القيمة البيولوجية العالية ففى المالاى لا يقدم لهم السمك لاعتقادهم الخاطئ بأنه يسبب الديدان ولهذا فمصدر بروتين غنى لم يستغل، كما أشار هندريكس Hendrickse إلى أن المشكلة عموماً تسود بين الشعوب القبلية الإفريقية وهى عدم إدراك أن الطفل لديه احتياجات غذائية خاصة فى كل من قبل وبعد الفطام، فالطفل الحابى قد يقدم له قليل من اللحم أو السمك أو البيض وقد يصل الأمر إلى منعه منه تماماً كما هو الحال فى غانا ونيجيريا لاعتقادهم بأن البيض يؤخر أو يعوق غلق اليافوخ Fontanelle وإن الفتيان الذين يأكلون البيض يصبحون لصوصاً فى الكبر بينما الفتيات يتسمن بالليونة الخلقية فيما بعد(١٤).

وفى البنغال يسود الاعتقاد بأن البيض يسبب الضعف والهزال لأطفالهم وأن إعطائهم كل من اللبن والسمك معا فى وجبة واحدة يؤدى إلى مرض الجزام وتناولهم للسان البقر يجعلهم كثيرى الكلام وسيقان الماعز تؤدى بهم إلى عدم نمو الركبة أو الكوع أو الرسغ (١٥)

وفى نيوزيلاند لا يسمح للأطفال بتناول البيض خرفاً من مرض المثانة، كما يسود الاعتقاد فى أندونسيا بجاوه بأن السمك واللحم يسببان الإسهال والديدان للأطفال من سنتين (١٦)

وأحياناً تلك المعتقدات تؤدى إلى زيادة الاستغلال للأطعمة الفقيرة غذائياً كلسان الحمل (نبات) ذى القيمة البروتينية المنخفضة يقدم كطعام أساسى فى الوجبة لقيمته الثقافية بشرق أفريقيا، كما يمنع الأطفال من شرب اللبن فى تايلاند حيث يعتبرونه إفرازا مخاطياً من الحيوان (١٧)

ويسود اعتقاد أيضاً بين الطبقات المنخفضة من السود والبيض فى الجنوب الشرقى من الولايات المتحدة بأن الأطعمة ذات اللون الفاتح أكثر مكانة وقيمة من الأطعمة ذات اللون الداكن مهما كانت قيمتها الغذائية وتثير الطفل والأرز المجلى (المصقول) ذو قيمة أعلى من الأرز غير المصقول بصرف النظر عن قيمته الغذائية، والأطعمة المكررة المنقاة، المغلقة والأكثر إعلانا عنها تبدو إنها تثير إعجاب الناس فى العالم النامى رغم أن عديداً من هذه الأطعمة يكون أدنى غذائياً، ويسود فى غرب البنغال تصنيف للأطعمة بالساخنة والباردة وذلك ليس بطهيها ولكن فى تكوينها حيث تتضمن الأطعمة الساخنة (البيض – اللحم – اللبن – العسل – السكر – زيت كبد الفد «سمك البحر الأطلسى») حيث لا تقدم تلك الأطعمة للأطفال أثناء المناخ الحار والذى يستمر جزءاً كبيراً من السنة أو ممن يعانون من الأمراض.

كما لا يمكن إغفال دور الفطام الشعائرى والذى يتمثل فى عدم إعطاء الطفل سوى لبن الثدى حتى يقام حفل الطقس الشعائرى لتناول الأرز الخلوط بكثير من المواد الغذائية كما فى غرب البنغال والهند وما يؤدى إلى سوء التغذية (١٨).

كما أن للعادات الغذائية دوراً بالغ الأهمية فى تغذية ونمو الطفل لأنها معقدة بصورة مطلقة وتنبثق من تجارب وخبرات الإنسان المبكرة وعائلته وبيئته الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والدينية، كما أن تلك العادات عموماً تمنع الناس من استغلال الطعام المتاح لهم بصورة أفضل (١٩).

فقبائل الزولو على سبيل المثال يتسم طعامهم بالتوازن الغذائى ولكن نتيجة للعادات الغذائية السائدة هناك فإن سوء التغذية منتشر بين الأطفال، فهم يتناولون طعامهم بعد أن يفرغ الكبار منه، ويأخذون ما تبقى منه بكميات قليلة لا تكفى احتياجاتهم البيولوجية (٢٠).

وتلك العادة واسعة الانتشار فى أنحاء كثيرة من العالم وخاصة بالمجتمعات التقليدية (٢١) فالعادات الغذائية جزء من التركيبة الاجتماعية التى تساعد على تحقيق ذاتية الفرد كجزء من الكل، حيث يشعر بالأمن والرضا، وقد تكون مفيدة من الناحية الفسيولوجية للأفراد، وقد تؤدى إلى إصابتهم بسوء التغذية من ناحية أخرى، وإنها ليست نزوة عابرة ولكنها صورة مرتبطة بالقيم الاجتماعية والبناء الاجتماعى (٢٢).

مجتمع البحث:

قامت الدراسة الميدانية بمنطقة كوم الناضورة التى تقع إدارياً بحى الجمرك بمدينة الإسكندرية وعلى الأخص بمنطقة اللبان المشتملة على ١٢ شياخة المتمثلة فى شياخة باب سدره – الجنينة الكبرى – الجنينة الصغرى – الفراهدة – اللبان – النجع الجديد – النجع القديم – الحارة الواسعة – الصابورة – مشمس البصل – السكة الجديدة – سوق الجمعة.

وفى ضوء تلك الشياخات تقع منطقة كوم الناضورة بشياخة اللبان وأجزاء صغيرة منها تقع في شياختى الحارة الواسعة والسكة الجديدة وتبلغ مساحتها حوالى ٢٢ ألف متر مربع تقريباً وهى على شكل منحنى تبدأ من شارع باب الكراسته من الغرب وحمام الورشة شرقاً وشارع الباب الأخضر شمالها ومساحة بكير جنوبها ويمثل شارع الجزائر من أهم شوارعها الرئيسية ومتاخمة ومتداخلة مع الشياخات الأخرى ولا يفصلها حدود أو فواصل بينها وبين غيرها من الشياخات الأخرى، وتعتبر منطقة كوم الناضورة مركزاً لمعظم الحرف اليدوية والأولية لما بها من ورش ومحلات ومخازن ومصانع صغيرة تفوق أى منطقة أخرى، سواء بهذا الحى أو أى حى آخر بمدينة الإسكندرية مما يجعلها تستوعب كثيراً من الأيدى العاملة من أهالى المنطقة والمناطق المجاورة، وخاصة الصبية والفتيات والنساء كما أنها قديمة ولذا فإن أصولها الأولى أصول سكندرية مائة فى المائة وأصل مدينة الإسكندرية ولكن الآن نزح إليها وافدون من أصول ريفية سواء من الوجه البحرى والقبلى سعياً وراء الرزق للعمل فى ميناء الإسكندرية وبالورش الموجودة بالمنطقة.

مبررات اختيار مجتمع البحث : هناك عديد من العوامل تداخلت فى اختيار تلك المنطقة لإجراء البحث :

١ – تقليدية مجتمع الدراسة فهى من المناطق القديمة الشعبية والواضح هذا من مبانيها الفقيرة اقتصادياً مما ينعكس هذا على مستوى التغذية للأطفال.

وفيما يلى جدول بتغذية الطفل فى السنة الأولى (٢٤)

الشهور من ١٢:١٠	الشهر (٦)	الشهر (٢)	الشهر (١)	الطعام	الساعة
أوقية من عصير البرتقال	٧–٨ أقية خضار	٥ : ٦ أوقية خضار	٣ : ٤ أوقية خضار	رضعية صناعية عصير برتقال	٦ صباحاً ٨ صباحاً
١ – ٢ قطعة خبز	٢ أوقية خضار	٥ : ٦ أوقية خضار	٣ : ٤ أوقية خضار	وجبة حبوب	١٠ صباحاً
وجبة حبوب	٧–٨ أوقية خضار	٥ : ٦ أوقية خضار	٣ : ٤ أوقية خضار	صفار بيض	٢ ساعة
فواكه مفرومة	٧–٨ أوقية خضار	٥ : ٦ أوقية خضار	٣ : ٤ أوقية خضار	وخضروات	٦ ساعة
لبن – توست	٧–٨ أوقية خضار	٥ : ٦ أوقية خضار	٣ : ٤ أوقية خضار	وجبة حبوب	١٠ ساعة
لبن – فواكه – حبوب – بطاطس	٧–٨ ملاعق خضار	٥ : ٦ملاعق خضار	٣ : ٤ملاعق خضار	وجبة حبوب	٢ ساعة
	٧–٨ ملاعق خضار	٥ : ٦ملاعق خضار	٣ : ٤ملاعق خضار	وجبة حبوب	منتصف الليل

٢ – قد قمت بإجراء بحث بالاشتراك مع الجمعية الطبية وأصدقاء البيئة عن عمالة الأطفال بتلك المنطقة تحت إشراف الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد رئيساً للبحث ومن خلال الدراسة الاستطلاعية بها والتعرف على كافة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والصحية وبنية المجتمع ذاته وجدت ضرورة ملحة لدراسة موضوع التغذية لدى الأطفال الصغار ومدى تأثير ذلك على إصابتهم ببعض أمراض سوء التغذية.

ولهذا نجد مجتمع البحث تتوافر فيه كل المبررات الكافية لدراسة مثل هذا الموضع من أسباب اجتماعية اقتصادية وثقافية وبيئية.

المنهج المستخدم في الدراسة:

لقد استخدمت الباحثة المنهج الأنثروبولوجي التقليدي بأساليبه المتمثلة في الملاحظة والمقابلة والاعتماد على الأخباريين من أهالي المنطقة بالإضافة إلى استخدام منهج دراسة الحالة لأسرتين بمنطقة البحث ممن يعاني أولادهما من أمراض سوء التغذية وذات ظروف اجتماعية واقتصادية وبيئية أدت تلك الأمراض مستخدمة في ذلك دليلي العمل الميداني اللذين قامت الباحثة بإعدادهما دليل المقابلة – ودليل دراسة الحالة ».

المدة الزمنية لاجراء البحث:

قامت الدراسة الميدانية في الفترة من فبراير عام ١٩٩٥ إلى سبتمبر من نفس العام من ذهاب متكرر يوميا إلى مجتمع البحث لبعض الشهور ومتقطع في شهور أخري .

التغذية في مرحلة الطفولة المبكرة:

ينطلق هذا البحث من منظور أن الثقافات تنطوي دائما علي نمطين رئيسيين من أنماط السلوك هي الأنماط المثالية والأنماط الواقعية وقد عرف كلاكهون الأنماط المثالية بأنها ماينبغي أن يفعله أو يقوله أفراد مجتمع معين في مواقف معينة إذا ماأرادوا الامتثال الكامل لمعايير السلوك التي تحددها ثقافاتهم. أما الأنماط السلوكية الواقعية فتقوم علي ملاحظتنا لما يمارسه الناس فعلا في مواقف معينة (٢٣) . وينطبق ذلك علي تناول الطعام فهناك نمط مثالي يجب مراعاته عند تناوله للحصول علي احتياجات الجسم وعلي

هذا فإن احتياجات الطفل في السنة الأولي من العمر تتمثل في التغذية بالثدي أولا، فهي الأساس منذ الميلاد وحتي فترة الفطام إلا أنه كقاعدة يبدأ الفطام تدريجيا ابتداء من الشهر الخامس إلي التاسع باستبدال فنجان تغذية بدلا من رضعة بالثدي في أي فترة من خلال اليوم ثم يقدم الفنجان الثاني ويستمر في هذه الطريقة حتي يفطم الطفل تماما. والفطام عادة يتطلب فترة من ٢ : ٣ أسابيع والانتقال من الثدي إلي الفنجان سوف يكون تدريجيا، وعن أدخال أطعمة جديدة هناك عددمن المقترحات المتمثلة في :

١ – إدخال طعام جديد واحد فقط حتي يألفه الطفل وبكميات صغيرة.

٢ – استخدام الأطعمة ذات القوام الناعمة أو العصائر والأشياء المفرومة ثم الأطعمة الخالصة .

٣ – تقديم الطعام بصورة محببة للطفل ومع عدم استخدام الملح بكثرة لأن هناك ارتباط بين الملح الزائد وفرط التوتر في الفترة المتأخرة من الحياة ولذا ينصح ماير Mayer بأعطاء الأطفال أطعمة تحتوي علي كميات منخفضة من الملح .

٤ – ينصح بإدخال صفار البيض لأنه غني بالحديد وفيتامينات (B) المركبة و (A) ابتداء من الشهر الرابع بينما بياض البيض الذي يؤدي إلي مظاهر من الحساسية لايعطي للطفل حتي الشهر العاشر علي الأقل وبحذر مطلق. كما ينصح بعدم إعطاء الطفل في الشهور الأولي النشا ومعظم الدهون لأن الجهاز المعوي يكون غيرقادر علي الهضم نظرا لأن الإنزيمات الهاضمة تكون أقل نموا في تلك الفترة.

ولكن النمط الواقعى لتغذية الأطفال فى السنة الأولي يكاد يكون مختلفاً تماماً عن تلك الصورة المثالية فى مجتمع الدراسة. فبعض الأمهات لا يدركن أن هناك تغذية يجب أن تقدم للطفل فى الشهور الأولى من عمره معتمدات بصورة مطلقة علي الرضاعة الطبيعية من الثدى التى تكون غير كافية على حد قولهن ومما يجعل الطفل فى حالة بكاء مستمر لاعتقادهن بأن إدخال أطعمة جديدة فى الشهور الأولى خطر على الطفل مع إحداث عفونة بالمعدة وعدم قدرتها علي الهضم، أو يلجأن لشراء اللبن الصناعى كوجبة مكملة تعطى للطفل قبل النوم لتساعده على النوم العميق، والاعتماد بصورة كاملة على السوائل منذ الأيام الأولى وحتى أشهر عديدة كالماء بالسكر بعد الولادة مباشرة، كراوية، ينسون، تليو، وذلك كعلاج وغذاء فى آن واحد حتى سن الفطام والبعض الآخر حريصات على إعطاء أطعمة معينة دون غيرها ابتداء من الشهر الثالث أو الرابع كماء الأرز (بعد طحنه)، ماء الشعير، ماء الغلة (بليلة)، نشا الذرة بعمله مهلبية خفيفة، بسكويت بالشاى ابتداء من الشهر الثالث تكاد تكون عامة فى مجتمع البحث وحسب تبريزهن أنه خفيف علي معدة الطفل ويحرصن على شرائه قبل الليل لأنه من الممكن أن يقدم كوجبة للطفل تساعده علي النوم لأنها سوف تشبعه ولكن بممارستهن لتلك العادة قد وقعن في خطأين.

<u>الخطأ الأول</u>: هو استخدام الشاي الذي يؤدي إلى عسر الهضم لأن مادة التانين المقبضة الموجودة فيه تشكل طبقة كتينية علي غشاء المعدة والأمعاء فتحول دون إفراز العصارات الهاضمة فيسوءالهضم ولا يمتص

الجسم أغذيته بشكل جيد [٢٥]. وما لشرب الشاي أيضا من فعل مثير علي الجهاز العصبي وعلي مرونة معظم الأوعية الدموية [٢٦].

والخطأ الثاني : المتمثل في إعطاء البسكويت فمن الصعب علي الطفل في الأشهر الأولي هضمه لعدم اكتمال إنزيمات الهضم القادرة علي هضم النشويات والنشا عموما ومعظم الدهون [٢٧]. وهناك من لم يدركن أن الأطفال في السنة الأولي لهم احتياجات أو أطعمة خاصة يجب تذولها وأنه بمجرد تخطي الطفل الثلاثة أو الأربعة أشهر الأولي من عمره يحاولن إطعام الطفل من نفس الأطعمة المخصصة للكبار وذلك وعلي حد تعبيرهن « «تلحيسه » والهرس باليد لما يمكن هرسه وإعطاؤه للطفل وبقدر ما يستجيب الطفل لتلك الأطعمة فقد يعطوا له من مزيد دون مراعاة لنسب معينة أو أنواع بعينها دون غيرها بل يتباهين أنهن يعودن أولادهن علي كل شئ منذ الأشهر الأولي من أطعمة مطهية ومقلية ومملحة وخلاف ذلك.

أما عن المواعيد المحددة التي يجب أن يرضع أو يطعم فيها الطفل خلال السنة الأولي فلم يوجد صدي لهذا في مجتمع الدراسة. فلم ترضع الأمهات أطفالهن في ساعات معلومة من اليوم ولكن يرتبط ذلك ببكاء الطفل أو لهوه أو رغبة من الطفل ذاته أو لتدليله، وعندما يدخلن أطعمة جديدة بجانب الرضاعة الطبيعية فلا يكون بقصد استبدال فنجان من التغذية ليحل محل رضعة أو أكثر من اليوم حتي يتعود الطفل تدريجيا علي الفطام وذلك بزيادة الجرعات شيئا فشيئا حتي يفطم تماما. ولكن الفطام يجري بصورة مختلفة عن ذلك تماما. فالفطام مثاليا يبدأ من الشهر الخامس إلي التاسع وذلك

باستبدال تدريجي للأطعمة بديلا عن ثدي الأم إلي أن يتعود الطفل الأطعمة الخارجية ولكن ما يحدث في مجتمع البحث أنه ببلوغ الطفل سنتين سواء تم تعويده علي أطعمة خارجية أم لا يمنع عن ثدي أمه بوسائل عديدة كدهن الثدي بالصبار (المتوفر في المنطقة حيث يتم زراعته علي شواهد القبور بالجبانة الموجودة بكرموز وهي الحي المتاخم لمجتمع البحث من الجهة الشرقية وهذه العادة تمارس علي كافة المستويات هناك) أو الميكروكروم والكوبيا أو الليمون والشطة أو الهباب الأسود الملتصق بالأواني بعد الطهي وقد تضع بعضهن داخل صدورهن ريشة طيور أو فرشاه (خاصة اللاتي أصولهن ريفية) وذلك لتخويف الطفل من ثديهن. وقد يأخذ الفطام شكل آخر عن طريق ترك الطفل عند جدته لمدة من الوقت كما يشارك الجيران أيضا وكل هذا نتيجة عدم اتباع الصورة التدريجية في الفطام. وبهذه العملية فالفطام أول حزن يدخل القلب ويبدو ذلك فيما يعتري الطفل من بكاء وحسرة وذبول وشحوب بل وعدم النوم وما يؤدي إلي أمراض سوء التغذية كما سنري .

ويوجد بمجتمع البحث تفرقة فى فصال الطفل عن الطفلة، فالولد بعد سنتين والفتاة بعد سنة ونصف، والسبب فى ذلك كما يذكرن أن الفطام المبكر للفتاة مفيد لها حتى لا يجعلها مستبدة بالرأى فى المستقبل أو تكون غير ذكية، ويعتقدن أيضاً أن الفتاة تتغذى على المواد الصلبة بصورة أفضل من الطفل أو لأن البنت أقوى فتكوينها على المواد الصلبة بصورة أفضل من الطفل أو لأن البنت أقوى فى تكوينها ونموها من الولد (مطرح ماترميها

تلاقيها) و (جدرها جامد)، لكن الولد يحاط برعاية أكثر على كافة المستويات (يطلق عليه ذهب بندقي) لأنه نادر وصافي ولذا فمزيد من الحب، الدلال، المعزة والإرادة فيه فيترك يرضع حتى فيما بعد السنتين في بعض الأحيان (خاصة إذا كان مريضاً أو في شوق للولد) وهناك أمثلة على رضاعة الطفل بالذات (هذا الولد راضع من ثدي أمه، أي مشبع منها وأعطى له الجرعة كاملة)، وفي بعض الأحيان قد تلجأ الأمهات إلي الإسراع من فطام الطفل أو الطفلة وذلك في حالة عدم الرغبة للأكل وما يقدم لهما والتمسك بالثدي فقط ومن الممكن ألا يتعديا السنة أو بضعة أشهر من السنة الثانية ويطلقن على هذا الوضع (تمرد بوذهما)، ومنهن من لم يكملن الرضاعة إلا شهور قليلة وذلك في حالة الحمل مباشرة بعد ولادة الطفل ويتوقفن عن الرضاعة حرصاً على كل من الطفل والجنين لاعتقادهن أن الجنين يسمم ويفسد لبن الثدي. وكثيراً ما يحدث هذا في المجتمع لجهلن ولاستخدامهن أسلوب الرضاعة الطبيعية كوسيلة لمنع الحمل إنجابهن للأطفال وقلة الفترة بين الحمل والآخر مما يؤدي هذا إلى إلحاق الضرر بالطفل وموته في بعض الأحيان لدى بعضهن.

وهناك بعض الأطعمة التي تحرم على الطفل المفطوم تناولها كالسمك والبيض إلا بعد مرور أربعين يوماً على فطامه لأن تلك الأشياء في اعتقادهن يؤدي إلى انتفاخ بطن الطفل، كذلك يجب ألا يقدم له الماء في تلك الفترة لنفس الغرض.

أما عن تغذية الأطفال من سن سنة إلى ست سنوات فيجب أن تشتمل

وجباتهم اليومية على مجموعات الطعام الأربع الأساسية على النحو التالى :

الإفطار: فواكه أو عصير ، حبوب ، لبن ، زبد ، توست.

الغذاء: لحم ، بيض، سمك، دجاج ، جبن وخضروات أو سلطة وخبز.

العشاء: لحم أو دجاج أو سمك، خضروات، سلطة، خبز، زبد، فواكه ولبن.

بالإضافة إلى وجبات خفيفة «فى منتصف الصباح أو بعد الظهر، لأن الأطفال فى هذا السن أكثر نشاطاً فإذا يشعرون بالجوع والتعب إذا لم يتناولوا غذاء بين الوجبات على أن تشتمل تلك الوجبات علىً أكثر من مجموعة غذائية وهناك أمثلة لبعض الوجبات لأطفال ما قبل المدرسة كعصائر الفواكه، لبن ، سندوتشات صغيرة، جبن أو آيس كريم على أن تقدم تلك الوجبات فى مواعيد منتظمة مع شكل جيد من الإعداد(٢٨).

ولكن تلك الصورة المثالية لا تحدث على الإطلاق فى مجتمع الدراسة فبعد الفطام يتم تغذية الأطفال بإعطائهم الفول المهروس بعد تقشيره أو بدون ذلك إذا قبل الطفل حيث يمثل الوجبة الأساسية للإفطار لسكان المنطقة عموماً ويتضح هذا من كثرة العربات المخصصة لبيعه فى الشوارع الرئيسية والأزقة بالإضافة إلى المحلات الأساسية كما يقدم المهلبية المصنوعة من الماء والنشاء والسكر أو وضع البسكويت فى الشاى السادة لعدم قدرتهم على شراء منتجات الألبان ويستمر على هذا الوضع لفترة من الوقت حتى يستطيع الطفل أكل المواد الصلبة أو حسب ما تم تأهيله فيما

على تناولها.

إلى أن يأكل من نفس الطعام المقدم لباقى أفراد الأسرة دون تخصيص طعام خاص له رغم أنه كنمط مثالى يجب أن يستمر الطفل على نظام غذائى محدد حتى سن السادسة لأن فى تلك الفترة يحتاج الطفل لبروتين إضافى لبناء بروتينات جديدة كما يجب أن يحتوى طعامه على الأحماض الأمينية التى لا يستطيع الجسم عملها، ولذا فالبروتين الحيوانى يجب أن يكون ضمن كل وجبة وليس بكمية كبيرة فى وجبة واحدة وأن هذا لا يحدث حتى على المستويات المرتفعة من مجتمع الدراسة وهى قلة أما الغالبية العظمى فهى مستويات فقيرة. فلو نظرنا إلى الوجبات التى تؤلف غذاء تلك الطبقات يتغذى الطفل عليها فهى كالتالى :

الإفطار: يتكون من نوع واحد فقط أو اثنين من نفس النوعية كالفول والفلافل والخبز الذى يؤكل بكثرة فى الوجبات الثلاث وهذا النمط من الإفطار هو مازال متبعاً منذ قديم الزمن وحتى الآن وخاصة فى المناطق الشعبية الفقيرة.

وأما عن وجبة **الغذاء** فقد كانت الطبقات الفقيرة بالمنطقة تعتمد فى الماضى فى غذائها على بعض الأطعمة التى كانت فى متناول الجميع نتيجة لرخص ثمنها مثل العدس الذى كان يعتبر بديلاً للحم والجبن القريش التى تحتوى على كمية كبيرة من الكالسيوم وتعد بديلاً عن اللبن ومنتجاته، كما كانوا يعتمدون فى طعامهم على الخضر رخيصة الثمن والبقول مثل اللوبيا والفاصوليا، أما الآن ونتيجة لارتفاع أسعار هذه الأطعمة فلا يوجد للبروتين

أو غيره من الفيتامينات بديلاً يمكن أن يعوض بها الفقير النقص الموجود فى طعامه، ولهذا تمثل الأطعمة النشوية والسكرية كالبطاطس والبطاطا والأرز والمكرونة الأساس لتكوين وجبة الغذاء لمعظم الأسر وهذا شأن كافة المجتمعات الفقيرة أو حتى الأقليات التى تعيش فى الدول الغنية كالحى اليهودى بأمريكا علي سبيل المثال [٢٩]. ولذا تحتوى وجبة الغذاء فى مجتمع البحث على نوع واحد فقط من المواد الغذائية كالبطاطس المطهية أو الأرز (سواء بالطماطم أو كشرى أو بالبصل) أو مكرونة.

وتحرص الأمهات على تلك النوعية من الأطعمة لأسباب عديدة منها تفضيل الأطفال الصغار لها لسهولة أكلها بمفردهم ولرخصها بعض الشئ حتى عن البروتين النباتى، وفى بعض الأحيان إذا أتيح لهن شراء الأسماك والتى تكون من الأنواع إما المجمدة (المثلجة) المستوردة كالشاخورة والبلاميطا لرخص ثمنها نوعا ما) أو أنواع الأسماك (كالبلطى - موزة - بسارية) الصغيرة الحجم والتى يصعب أكلها فتحرص الأمهات على عمل الكشرى أو البطاطس المحمرة أو المطهية أو الأرز بالطماطم حتى يتسنى للأطفال تناول ذلك.

وبهذا فكل ما يهم الأمهات هو إشباع أطفالهن وملئ بطونهم وإعطائهم ما يسهل تناوله بغض النظر عن نوعية الطعام وذلك للجهل بالاحتياجات البيولوجية للأطفال فى تلك الفئة العمرية ولباقى أفراد الأسرة أيضاً.

أما عن وجبة من اللحوم والخضار فلا يتم عملها إلا مرة أو اثنتين فى

الأسبوع وهما فى يومى الجمعة والأحد لارتباطهما بيومى أجازة رب الأسرة إذا كان يعمل بالحكومة أو القطاع الخاص (أى بالورش الموجودة بمنطقة البحث)، ونجد اللحوم التى يحصلن عليها أغلبها من اللحوم المثلجة – التى يتم استيرادها وبيعها بالمحلات والأكشاك المنتشرة بصورة ملحوظة فى المنطقة لدرجة أن هناك أكثر من شخص من أبناء الحى لديه توكيل لاستيراد تلك اللحوم وبيعها لتجار الجملة والتجزئة بالمنطقة – وذلك لرخص ثمنها بكثير عن اللحوم البلدية ولكن قيمتها الغذائية تقل عنها بكثير جداً ونجد أن الأسرة التى يتراوح عددها ما بين ٦ : ٨ أفراد لم تشترى سوى نصف كليو ويقسم على جميع الأفراد فالأب والأبناء الذكور الأكبر سنا يأخذون نصيب الأسد على حد قولهن (لأنهم يعملون طوال الأسبوع ويتناولون وجبة الغذاء خارج البيت) ثم تأخذ البنات والأم نسبا أقل، أما الأطفال الصغار الأقل من خمس سنوات فلا يكون لهم نصيب مخصص ولكن حسب قابليتهم لأكلها حيث أشارت أكثر من واحدة أن نوعية اللحم هذه رديئة وكلها (شغت) ولاتطهى بسهولة وإن استغراق طهيها فترة طويلة بحيث لا يقدر الطفل على أكلها، أو يحصلون على نصيبهم من نصيب الأم، وإذا تم استبدال اللحم بالدجاج فإن دجاجة واحدة فقط تقسم على أفراد الأسرة مهما كبر عددها.

ويكون نصيب الأطفال الصغار الفتات منها التى يمكن مضغها ويجدر الإشارة هنا إنهن لن يشترين إلا الدجاج (الأبيض الذى يباع بالجمعيات الاستهلاكية ولا يقدرن على شراء الدجاج البلدى).

أما عن الفواكه ومدى حصول الأطفال عليها سواء بعد الغذاء كما هو

متبع كنوع من التحلية أو فى أى فترة من اليوم فبعض الأسر لن تدخل بند الفواكه ضمن ميزانية الأسرة عموماً لغلو أسعارها إلا بعض الفواكه التى تكون رخيصة الثمن وخاصة فى موسمها كموسم الجوافة حيث يتم شراء الأنواع الرديئة منها وعملها كعصير نظرا لأن بالمنطقة وبجوارها أكثر من سوق لجميع الأنواع من مختلف درجاتها ولمختلف الفئات وهما سوق باب عمر باشا والبياصة اللذان تحرص الأمهات الذهاب إليهما لكى تحصلن على إحتياجاتهن بسعر أقل من الأنواع الأقل جودة مهما كلفها مشقة بضعة كيلو مترات بينما يوجد بجوارهن سوق الميدان (بالمنشية) ورغم هذا لا يذهبن إليه لإرتفاع أسعار السلع به لأنها من الأنواع الأعلى جودة والأغلى ثمناً.

أما عن وجبة **العشاء** والتى يجب أن تكون مثالية محتوية على كافة المواد الغذائية إلا أنها تنحصر فقط فيما تبقى من وجبة الغذاء من خضار أو ثمائل وجبة العشاء من شراء الفول والفلافل حيث تظل المحلات تعمل بها حتى الساعة العاشرة مساء وفى بعض الأحيان قد ينام الطفل بدون عشاء إذا تأخر عن موعده لأنه ليس هناك مواعيد منتظمة بدقة لتناول الوجبات عموماً ولكن حسب ظروف اليوم ذاته ويزيد من خطورة الموقف أن بعض الأسر تكون وجبة العشاء هى الأساسية نظرا لعمل كل من الأب والأم وفى هذه الظروف فإن الأطفال الصغار يغلب عليهم النوم حتى قبل وصول الأم للبيت. أما عن الوجبات الخفيفة بين الوجبات فلم يكن هناك حرص من الأمهات عليها رغم أنها وكما ذكرنا لأن تشتمل على العناصر الغذائية

الأساسية وبدون شك فإن هذا لا يحدث على الإطلاق لأن ذلك لا يحدث مع الوجبات الرئيسية فماذا عن الوجبات الخفيفة، ولهذا فالوجبات الخفيفة لا تتعدى سوى بطاطا مطهية بالفرن أو يشترى الطفل بعض من الحلوى «كالعسلية» كنوع من إشباع الجوع أو كتحلية حيث توجد أكثر من عربة لتصنيعها في مجتمع البحث ويتهافت عليها الصغار وما تعرضهم للإصابة بالنزلات والأمراض المعوية لتعرضها للذباب : أما عن أعداد تلك الوجبات والأساليب المستخدمة فيها فمن المعروف أن كل من الأسلوب والوقت المحدد والمكان والشكل العام في تناول وإعداد الطعام يلعب دورا حاسماً على القيمة الغذائية للطعام. فالوجبات تمثل حدثاً عائلياً اجتماعياً هاماً والتوزيع الشعائرى للطعام بحسب الجنس والعمر والتفاعلات الاجتماعية المستمرة والأحداث ذات الأهمية كبيرة في المجتمعات التقليدية (٣٠).

ولكن على العكس من ذلك في المجتمعات الصناعية المتقدمة فنادراً ما تجتمع العائلات أثناء تناول الوجبات معا وتناوله خارج بيئة العائلة وهذا الوضع مسئول عن عدم التوازن الغذائى اليوم (٣١). وعلى الرغم من تقليدية مجتمع الدراسة وإن سمة تجمع الأسرة معا حول المائدة في الوجبات الثلاث هى التى كانت سائدة إلا إن للظروف الاجتماعية والاقتصادية والتغير الذي طرأ على المجتمع ككل دورا في خروج معظم الأمهات في مجتمع الدراسة للعمل خارج البيت ونظراً لأنهن غير مؤهلات للأعمال الإدارية أو ذات الوقت المحدد من اليوم فإنهن يلجأن إلى الأعمال التى تكاد تبتلع كل ساعات اليوم كالعمل في المنازل أو الورش والمخازن بالمنطقة أى العمل الخاص وبالتالى لم تعد الأسرة تلتف حول مائدة واحدة وخاصة في وجبتى الإفطار والغذاء

وترك الأطفال الصغار فى رعاية الأبناء الأكبر سنا أو للجيران أو بدون راع على الإطلاق يباشر تلك الوجبات، وترك الأمر لحرية الأطفال أنفسهم وخاصة فى الأعمار من ثلاث إلى ست سنوات كما لم تعد هناك مواعيد محددة منتظمة لتناول الوجبات عن قبل أما عن الأساليب المتبعة فى طهى الطعام ففى عديد من الأمثلة لم تعمل الناس على الإستخدام الغذائى الأمثل لمصادر الطعام الموجودة لأنهم يجهلون الطرق العلمية فى إعداده وإن تغذية الفرد تتأثر بخاصية إعداد الطعام حيث تفقد القيمة الغذائية لبعض الأطعمة بالطرق الخاطئة فى إعدادها وخاصة بالنسبة للفيتامينات التى تتأثر بطرق الطهى التقليدية، وإن هناك طرقاً عديدة للطهى متمثلة فى الحرارة الباردة والجافة والسلق والغلى وأفضل تلك الوسائل جميعاً هى طهى الميكروويف (الموجات المصغرة Microwave) لتقليل الوقت المحدد للطهى بصورة كبيرة بالإضافة إلى ضغط المواد الغذائية لقيمتها (٣٢).

ولكن تلك الوسائل الحديثة فى الطهى لم تعرف على الإطلاق فى مجتمع الدراسة على اختلاف مستوياته ولا زالت الأمهات تستخدم الطرق التقليدية فى الطهى كالمسبك مع الإكثار من تناول البهارات وعلى الأخص الشطة لدرجة أنها توضع حتى على الأطعمة غير مطهية (كالسلطة – الفول – الجبن القريش).

ولا يفرقن ما بين كبير أو صغير سوف يتناول تلك الأطعمة إلى كثرة استخدام الدهون كالزيوت والسمن الصناعى فى الطهى والقلى دون تخصيص طريقة وأسلوب معين فى الطهى للأطفال الصغار، مع تعريض

الطعام للهواء أثناء طهيه وذلك بسبب العادة السيئة التى تفعلها كل النساء فى المنطقة وهى تقليب الطعام من آن لآخر مما يؤدى إلى اتحاد الهواء مع الفيتامينات الموجودة فى الخضروات وتخرج مع البخار وينتج عن هذا التفاعل فقد نسبة كبيرة من تلك الفيتامينات ونقص فى قيمتها الغذائية بالإضافة إلى عدم حرص الأمهات على الطهى بأسلوب السوتيه (النئ فى النئ) والمسلوق إلا فى حالات المرض، كما أن الأوانى المستخدمة فى الطهى تلعب دورا بالغ الخطورة على صحة الأطعمة وقيمتها وتأتى الأوانى الصينية والخزف والبيركس (الزجاج الحرارى) والورق فى الصدارة حيث تسمح تلك المواد للموجات المصغرة بالمرور خلال طهى الطعام ولا تتفاعل مع المادة الغذائية أما الأوانى المعدنية فيحذر عدم استخدامها حيث تعكس الموجات المصغرة وتسبب ضرر للماغنتيرون Magnetron بالإضافة إلى تفاعلها مع المادة الغذائية [٣٢] ورغم ذلك لا زالت الأوانى المعدنية المصنوعة من الألومونيوم هى الأكثر استخداماً بل وهى فقط المستخدمة فى مجتمع البحث بل ويترك الطعام بها أيضاً حتى بعد طهيه ولأكثر من يوم.

الأمراض الناتجة عن سوء التغذية:

من المعروف أن السلسلة الغذائية هى عبارة عن عقد مكتمل الحلقات وإذا فقدت إحدى الحلقات ضعفت السلسلة بأكملها، وإن لكل منها سلسلة غذائية خاصة ترتبط بعمره وجنسه ونوع النشاط الذى يقوم به والتى تتوقف ليست على كميتها ولكن على نوعيتها وتوازنها وإن نقص الطعام وعدم توازنه يؤدى إلى سلسلة من الأمراض ويرجع أغلبها للفقر والأمية والجهل وأسلوب الحياة والعادات والمعتقدات الثقافية كما ذكرنا والتى أدركها

هيبوقرات Hippocrates منذ فترات قديمة فى قوله «إن شعوب معينة لديها علل أو أمراض مختلفة عن شعوب أخرى» مما أدى هذا إلى توصيل الطبيب الإنجليزى بارى بارث Barth Parry إلى الحقيقة الهامة ومؤداها «إنه من الأهمية معرفة ماذا يكون نوع المريض الذى لديه المرض من معرفة نوع مرض المريض» أى معرفة البيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى يعيشها، كما يذكر الطبيب رأى ليمان ويلبور Ray Lyman Wilbur أن معظم الناس ليس لديهم فكرة كاملة عن كيفية رعاية أجسامهم بحصولهم على كافة احتياجاتهم من بيئتهم الطبيعية مما أدى به إلى قول مشهور «نحن نحفر قبورنا بأسناننا» (٣٥).

ولذا فالتغذية الملائمة تكون مشكلة عالمية فالناس تكافح من أجل الحصول على طعام كاف لحفظ حياتهم وتناسلهم ولكن لا يعنى هذا تغذيتهم بصورة صحية وتظهر آثار تلك المشكلة وما يتخللها من أمراض فى مرحلة الطفولة المبكرة نظراً لأن الطفل فى تلك المرحلة يحتاج لبروتين إضافى لتركيب بروتينات جديدة وخاصة من النوع الحيوانى لإحتوائها على نسب متوازنة من الأحماض الأمينية (٣٥). بالإضافة إلى أنه فى تلك المرحلة يخضع لكثير من القيود والتحريمات الثقافية إيذاء بعض الأنواع من الأطعمة حتى ولو كانت ذات قيمة غذائية ومتوفرة فى البيئة التى يعيش فيها، وخاصة فى المجتمعات الإفريقية والآسيوية كما ذكرنا ولا يغفل دور العادات والتقاليد فى تغذيته والتى تؤدى إلى كثير من الأمراض الناتجة عن عوامل سوء التغذية مجتمعة معا والتى أشرنا إلى بعض منها وتتمثل تلك الأمراض فيما يلى :

١- مرض الكواشيوركر Kwashiorkor

ويقصد به نقص البروتين الحيواني، وربما يمثل أهم الأمراض الناتجة عن سوء التغذية ومشكلة أساسية لكافة الأقطار النامية، حيث ملايين من الأطفال ضحايا هذا المرض في كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا الوسطى وغرب الهند وجنوب أمريكا أما الذين يعيشون منهم فهم أقل قدرة على إنجاز نموهم الجسمي والعقلي والتلف الدائم للمخ [٣٦].

ولقد تم اكتشاف هذا المرض عام ١٩٣٠ على يد الطبيب البريطاني سيسلي ولياز Williams Cicely بغانا واسم هذا المريض إشتق من لغة الجا للساحل الغاني وقد أعطى تعريفاً لهذا المرض «بأنه مرض الطفل الأكبر الذي يصاب به عندما يولد الطفل التالي فينتشر هذا المرض بين الأطفال الذين يتراوح أعمارهم بين ٩ : ٣٠ شهراً وغالباً ما يحدث بعد الفطام مباشرة ومن أعراضه قلة الوزن والإسهال، وتضخم الكبد، وكبر الطحال لتليفه وظهور طفح جلدي وتورم الأطراف وانتفاخ البطن والرئة لوجود مياه بهما واحمرار الشعر ولذا يطلق عليه المرض الأحمر وفقدان الأملاح وأوديما وشحوب الوجه واللون عموماً وتوقف النمو حيث يقل وزن الطفل في النصف الثاني من السنة الأولى كما يتعرض للأمراض المعدية لنقص المناعة الطبيعية كالنزلات المعوية نتيجة للإسهال المستمر ويشعر الطفل بالفتور واللامبالاة وعن أسباب حدوثه فهي متعددة.

أ – الفطام المبكر مع بدائل خاطئة وإضافات تكميلية غير مناسبة للبن الثدي في إفطام الأطفال فعلى سبيل المثال يفطم الطفل في أفريقيا على

الكاساڤا، ولسان الحمل(نبات) أو على الأطعمة النشوية فقط كما فى أوغندا أو جواتيمالا وعلى الأرز وبعض البقول كما فى آسيا وعلي الشاى المحلى بالسكر كما فى إيران (٣٧).

ب – *المعتقدات الثقافية المرتبطة بإطعام الطفل المفطوم حديثاً* : وتتمثل فى إفطام الطفل على أطعمة معينة دون غيرها ففى أوغندا على سبيل المثال يقدم له غذاء مكون من أطعمة نشوية فقط كالفاصوليا والفول السودانى ولا يقدم له اللحم والسمك والبيض لاعتقادهم أن عظام السمك ضارة بالأطفال(٣٨).

جـ – *الجهل* : حيث تجهل الأمهات احتياجات إطعام أطفالها وليس لديهن فكرة عن أمراض نقص التغذية وإن للأطفال احتياجات غذائية خاصة.

د – *مشكلة هذا المرض* تتفاقم حتى أقصاها بالعادة الواسعة الانتشار وهى أن الأب والأبناء الذكور الأكبر سنا يخدمون قبل النساء والأطفال الصغار ولذا يتم نختيارهم للمواد الغنية بالبروتين وترك الأجزاء الأقل غذائية من الوجبة للنساء والأطفال الصغار (٣٨).

هـ – *أسباب سيكولوجية* : يعتقد أن سبب هذا المرض يكون سيكولوجى والذى يتضمن تنافس الأخوة مما يؤدى إلى فقد الطفل الأكبر أو بسبب الغيرة من الطفل الذى لم يولد بعد وإن الفطام يكون ضرورة لأن الجنين سوف يفسد أو يسمم لبن الأم ويذكر جيبر Geber دليلاً آخر على أن هذا المرض ناتج عن حرمان سيكولوجى فى البحث الذى أجرى بأوغندا

على الأطفال الذين سمح لهم بدخول المستشفى أثر هذا المرض وكان من نتائجه أن الأطفال الذين مكثت أماتهم معهم تم شفائهم بصورة أسرع من الذين تركتهم أمهاتهم فى حالة من اللامبالاة.

و – *أسباب شعائرية* : حيث أشار جليف Jelliffe الذى اهتم بهذا المرض فى كل من غرب البنغال والهند إلى أنه يحدث بسبب تأخير «حفل الطقس الشعائرى لتناول الأرز» والذى يقدم للأطفال الذكور فى سن الستة أشهر والفتيات فى سن السبعة أشهر وحتى ميعاد هذا الطقس يستمر الطفل معتمداً فقط على لبن الأم، وإن الملمح الرئيسى لهذا الطقس يكمن فى إعداد الطفل على حضن جدته أو جده الذى يضع فى فمه مقادير صغيرة جداً من الأرز المسلوق المخلوط بالكارى (البهار الهندى) والخضروات والسمك وأطعمة متعددة المذاق من مر ولاذع وحامض متضمنة معظم المواد التى يحتاجها الطفل، ولذا فإذا لم يتعرض الطفل لطقس تغذية الأرز فى وقت مناسب فسوف تتعرض حياته للخطر، لأنه سيستمر بدون تغذية معتمداً على لبن الثدى حتى يتم هذا الحفل الشعائرى والذى قد يتأخر عن الموعد المحدد له بسبب الفقر أو لغياب أعضاء العائلة المناسبين له أو لعدم وجود يوم مناسب لهذا الإعداد (٢٩).

وعن وجود هذا المرض فى مجتمع الدراسة والاتصال بالمستشفى العام بالمنطقة (وهما مستشفيتان رأس التين العام والملكة نازلى) وبسؤال الأهالى تبين وجود هذا المرض وبصورة واضحة ولكن لم تعرف الأمهات اسم هذا المرض وإنما يطلقن عليه عدد من المصطلحات الشعبية مثل الطفل

ممزق، ضعفان ، هزلان ، مسخوت ، وكلها تحمل فى معناها قلة الحجم أو الوزن وضعف فى النمو. وعن أسباب حدوثه الإهمال وعدم النظافة وانخفاض المستوى الاجتماعى والاقتصادى للأسر والحمل المتكرر دون وجود فترة زمنية كافية لرعاية الطفل الأكبر والفطام المبكر نتيجة لذلك، كما ذكرت الأمهات أن هذا المرض كان منتشراً بصورة واضحة أكثر بكثير عن الآن، بحيث يموت أكثر من طفلين فى الأسرة الواحدة ولكن مع وجود الرعاية الطبية الآن حدث إلى حد كبير من معدل الوفاة للأطفال الصغار ولكن لم تقضى على المرض نظراً للظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة هناك، ويظهر المرض فى السنة الثانية من عمر الطفل لأن بمجرد فطام الأم له لا تعوضه بتقديم كمية مناسبة من اللبن ومنتجاته بالإضافة إلى العادات الغذائية الخاطئة التى تتبع معه قبل مرحلة الفطام وما بعدها وما أشرنا إليه فى تغذية الطفل.

٢- مرض الهزال: Marasmus

يعد الهزال أحد أمراض سوء التغذية أيضاً، ويحدث مبكراً نتيجة مرض النقص الحيوانى ويكون عادة فى النصف الثاني من السنة الأولى نتيجة نقص كل من البروتين والسعرات الحرارية للفطام المبكر وخاصة فى المجتمعات الحضرية عنه فى الأقطار النامية، ومن أهم أعراضه نقص الوزن والضعف البدنى بصورة أكبر من المرض السابق وعن أسباب حدوثه تتمثل فى الفطام المبكر والتغذية على العصيدة المائية الناقصة لكل من البروتين والسعرات الحرارية والعدوى بالجراثيم كالنزلات المعدية والشعبية والسل وعدم توفر الرعاية الصحية والاجتماعية فى المجتمعات الفقيرة وخروج المرأة

للعمل خارج البيت وإهمال رعاية الطفل وغذائه مما يؤدى إلى إصابته باضطراب نفسى يؤثر على شهيته ونموه (٤٠).

ويعتبر هذا المرض من الأمراض المنتشرة أيضاً فى مجتمع البحث ويصفونه كما يصفون المرض السابق الإشارة إليه.

٣- نقص فيتامين A:

ينتشر هذا المرض بين الأطفال ما قبل سن المدرسة ويسبب نقص هذا الفيتامين ضرراً كبيراً للعين قد يصل إلى العمى كما فى بعض المناطق الاستوائية على الرغم من وجود زيت البلح الأحمر وهو مصدر غنى لهذا الفيتامين (٤١). كما أن نقصه مع الثلوث الثانوى يودى بحياة الأطفال فى كل من أندونسيا ومعظم أقطار جنوب شرق آسيا والذى من الممكن أن يمنع توا بالخضروات الخضراء والصفراء المتوفرة فى كثير من البلدان.

٤- مرض البريرى:

ينتج من نقص فيتامين (B1) Thiamine ويسبب الموت لكثير من الأطفال الرضع فى بعض أقطار جنوب شرق آسيا لتفضيل تناول الأرز المصقول بكثرة للرضع.

٥- البلاجرا:

يتسبب من عدم الحصول على كل من النياسين Niacin والتربتوفان Tryptohan للشعوب الأفريقية التى تعيش على الذرة كمادة أساسية للأطفال (٤٢).

٦- مشاكل الأسنان:

يعانى غالبية الأطفال من سنة إلى خمس سنوات من آلام عديدة بالأسنان ومشاكل خاصة بالمضغ والقضم ومن خلع وحشو وتبديل وتسوس للأسنان وينتج هذا من كثرة استخدام الأطفال فى هذا السن للسكر المكرر ولذا يجب تشجيع استبدال الفواكه للحلوى اللزجة واستهلاك الأطعمة المحتوية على ألياف كما كان يفعل أسلافنا وأجدادنا (٤٣).

وبدون شك تمثل مشاكل الأسنان مشكلة رئيسية للأطفال فى مجتمع البحث وللأطفال فى مناطق أخرى عديدة كتسوس الأسنان ونقص فى كمية الكالسيوم بهم وتكسيرهم للنقص الغذائى والإهمال فى النظافة لهم وكثرة تناول الأطفال للحلوى بحيث لم نجد طفل قد نجى من مشاكل الأسنان فى مجتمع البحث.

٧ – يوضح الطفل الذى لا يتغذى جيداً نقص النشاط الضمن خلوى (أى الواقع ضمن الخلية البروتوبلازمية) المضاد للبكتريا وهذا يرتبط بنقص مستويات أدينوسين تريفوسفات Adenosine Triphosphat وبقل نشاط الأكسدة فى كرات الدم البيضاء للأطفال الذين يعانون من سوء التغذية وبقل النشاط البلعمى، كما أن نقص فيتامين C,G,E يؤدى إلى زيادة ضعف الأوعية الدموية، ونقص الريبوفلافين يؤدى إلى إلتهاب الفم الزاوى.

بالإضافة إلى أن سوء التغذية يؤدى إلى تغيرات بالجلد، من حيث انكماشه أو ضمالته بما فيه من المخاط الموجود بالنسيج الضام، مما يسهل غزو الجراثيم وعوامل التلوث (٤٤).

الملازمة بين سوء التغذية والتلوث:

يشير سكريمشو Scrimshaw إلى أن نقص الطعام يقلل المقاومة للتلوثات المباشرة والغير مباشرة، والفعل التزامى لتأثيرات كل منهما على النمو يكون أكثر شدة من فعل كل منهما على حدة فأحدهما يزيد من خطورة الآخر ويؤثر فيه بينما الطفل الذى يتغذى بصورة سليمة يقلل من معدل التلوث، وفترة المرض والتأثيرات الناتجة عن ذلك وأيضاً معدلات الوفيات، ولكن تواجد سوء التغذية والتلوث معا يؤدى إلى الإسراع بدخول الطفل، وهو فى مرحلة ما قبل مرض الكواشيوركر إلى الإصابة به إذا كان مصابا بإلتهاب معدى معوى أو حصبة أو تلوث وأخرى قد تكون بسيطة تصبح شديدة وبالغة مع سوء التغذية.

وفيما يلى بعض الأمثلة عن التلوث وعلاقته بسوء التغذية:

(أ) الحصبة:

تشير الإحصاءات إلى أن هناك تأثيرا مميتا لهذا المرض فى الأقطار النامية بصور تبلغ ٤٠٠ مرة عما يحدث فى الولايات المتحدة والأقطار المتقدمة عموماً وذلك بسبب ملازمته لسوء التغذية أكثر من حدة هذا الفيروس ذاته وطبقاً لما ذكره لاسام latham أن التلوثات لها علاقة بالأدرينال وتحريك الأحماض الأمينية من النسيج العضلى، حيث يفقد جزء منها مثل النيتروجين فى البول ولهذا فسوف يحدث استنزاف لبروتين الجسم، ومن أعراضها ارتفاع درجة الحرارة، واحمرار الوجه والرشح ثم الطفح الجلدى (٤٥).

ويعالج هذا المرض فى كل من جنوب الهند ووسط أمريكا بأن يقدم للطفل بعض الحبوب والأعشاب يتم غليها فى الماء ومن مميزاتها النقص الجسيم للبروتين والسعرات الحرارية كما تسيطر بعض المعتقدات حول هذا المرض مما يؤدى بالعائلة إلى إنفاق كثير من الأموال للتعاويز والطقوس أو الشعائر والأدوية عديمة الجدوى فى البلدان سالفة الذكر (٤٦).

كما أنه من الملاحظ أن هذا المرض من الأمراض المنتشرة بصورة واضحة فى مجتمع البحث رغم التطعيمات التى تجريها وزارة الصحة، وتوفير الطعم اللازم له حيث يرسخ بأذهان الأمهات أنه لابد من أن يصيب الطفل وإذا أحد من أفراد الأسرة أصيب بهذا الداء يقربون الآخرين منه إذا لم يصابوا وكأنه شر لابد منه وحتى إذا حدث ذلك لابن من الجيران أو الأقارب الذين يعيشون على مقربة منهم، حتى ينتهوا من الإصابة به ويطلقون عليه «ضربة الدم»، ويمنع الطفل من أكل كل الأطعمة البروتينية كالبيض والسمك واللحم وكافة الدهون لفترة لا تقل عن أسبوعين مع الإكثار من السوائل ولبن الماعز لقلة دسمه، والمهلبية كما يتعرض لبعض القيود بالا يغسل وجهه أو جسمه بالماء وألا تدخل عليه حائض أو نجسة حتى لا يكبس أو يعمى، ويرتدى ملابس حمراء، مع إضاءة حمراء أيضاً للغرفة التى يجلس فيها.

ب – *النوبات المتكررة لتلوثات التنفس العلوى* والإلتهاب المعوى والقولون والإسهال وخاصة إسهال المفطوم حديثاً تمثل أمثلة للتلوث وعلاقة بسوء التغذية (٤٧).

ويتضح من الدراسة الميدانية مدى انتشار تلك التلوثات والالتهاب بصورة واضحة وخاصة بالنسبة للأطفال من سنة إلى خمس سنوات كما ينتشر الدرن وبعض الأمراض الصدرية وذلك نتيجة للظروف الغير صحية للمسكن والتكدس لجميع أفراد الأسرة فى سكن لا يتعدى سوى حجرة واحدة ومن هنا نجد أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية وسوء التغذية مسئولة عن تلك التلوثات.

نتائج البحث:

ولقد أسفرت الدراسة الميدانية على مجموعة من النتائج الهامة :

١ – عدم إدراك الأمهات بأن الأطفال فى مرحلة الطفولة المبكرة لديهم إحتياجات غذائية خاصة وإن هناك علاقة بين الطعام وصحتهم.

٢ – تلعب العادات الغذائية دوراً بالغ الأهمية فى تغذية الأطفال أكثر من دور المعتقدات الثقافية التى لها فعاليتها فى معالجة بعض الأمراض الناتجة عن سوء التغذية أو أمراض الأطفال عموماً كمنع أنواع معينة من الأطعمة عند الإصابة بحالات البرد والأنفلونزا والأمراض الصدرية والحصبة وما يتعرض له الطفل من القيود والتحريمات الثقافية لسيادة بعض المعتقدات هناك.

٣ – تقليدية المجتمع فى أساليب إعداده وتقديمه للطعام أثره فى فقد القيمة الغذائية للطعام والإصابة بأمراض سوء التغذية.

٤ – خروج المرأة للعمل دور بالغ التأثير على نمو الأطفال وسوء

تغذيتهم لغيابها طوال اليوم عن البيت وترك الأولاد الصغار بدون راع في بعض الأحيان وإلى الفطام المبكر للأطفال الرضع وما يعرضهم لأمراض سوء التغذية.

٥ – حدوث تغير علي النمط الغذائي التقليدى لمجتمع البحث وذلك لظروف اقتصادية وغلو أسعار الأطعمة الشعبية التقليدية (كالفول – العدس – الفاصوليا) وموضة الأطعمة كاللجوء للأطعمة المحفوظة والمعلبة (اللانشون – والبلوبيف وتقديمها للأطفال) والمجمدة التى طرأت على المنطقة ولجأت الأمهات لتناولها كنوع من التباهى أو لظروف خروجهم للعمل وبالتالى لسهولتها والانبهار بالسلع المعلن عنها من قبل الراديو والتليفزيون والتى فى حقيقتها نوع من الشعوذة الغذائية التى تشير إلى تشويه الحقائق وخداع وتدجيل يمارس للكسب المالى بصرف النظر عن القيمة الغذائية ولسوء الحظ أن بالمنطقة الآن أكثر من ٧٠٪ منها من أصول ريفية انبهرت بهذا الوضع وانعكس هذا الوضع على تغيير أنماط سلوك الطعام والممارسات الغذائية إلى أنماط جديدة وغريبة أكثر هزلا من طعامهم الريفى وأن الأطفال أكثر فئة تعانى من هذه السمة.

وتوصى الباحثة ببعض التوصيات الهامة:

١ – العمل علي تغير العادات الغذائية الخاطئة لما لها من تأثير علي نمو الأطفال الصغار عن طريق البرامج التعليمية الغذائية المخططة في كافة المستويات التعليمية للتقليل من مشكلة سوء التغذية.

٢ – نشر الوعي الصحي الغذائي للأمهات ووضعه ضمن برامج

الأمومة والطفولة ونشره علي المترددات على مراكز تنظيم الأسرة. وذلك علي أن يكون التعليم يأخذ الشكل التقليدي وذلك بالاتصال بالجماهير أو استخدام وسائل الإعلام المسموعة والمرئية .

٣ – رفع الوعي الصحي البيئي وذلك لأن التلوث البيئي مترادف مع سوء التغذية والاثنان معا يوديان بحياة الطفل.

المراجع:

1 - Hennitta Fleck, Introduction to Nutrion, Macmillan Publishing, New York, 1976, P.33.

2 - Margaret Mead, Anthropologe a huyman Science, bran Nostrand Compine, princeton, NY.London, 1939, p.17.

3 - George Foster, Medical Anthropology, Jhon Willy Aned Sons, New York, 19766, P. 264.

4 - Ibid. P. 263.

5 - Sohana L. Manocha "Malnutrition and Retard Human Devdloopment, Charles C. Thomas Publisher Spring, U.S.A, 1972,P.207.

٦ – أحمد أبو زيد – العادات الغذائية بين الحاجات البيولوجية والقيم الاجتماعية – مجلة أمراض الغد – وزارة الصحة والكويت قسم الإرشاد والتثقيف – ١٩٦٨ – ص ٤١.

Marie Krause, Martha, Food, Nutrition and diet Therapy W.B. Saunders Comp. Philadelaphia London,

* البليونتولوجيا : علم الإحاثة الذى يبحث فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية السالفة.

Aron padolefsky, Peter, T. Brown, Applying Cultura 18 Anthropology, Mayfield Publishing Company, View, Calfornia, U.S.A. 1994, p. 89. Mountain.

RNA إختصار لتحمض النووى الريبونيوكليك Rilonucleic الذى يقوم بدور الرسـول DNA الذى يمثل سجل الوراثة بكل أسرارها ويتكون فوق سطح الكروموسوم وفى الاماكن التى يوجد فيها DNA ويقوم على خدمته ووظيفته تركيب البروتينات.

11- Aaron podolefsky, peter J. Brown, Applying Anthropology, Mayfield Publishing Company, Maountain view california, U.S.A, 1994,p. 331.

12- Corinne H. Robinson, Normal and therapeutic Nutrition, Macmillanpublishing,Co. ine, U.S.A. 1972.p.31.

13- George. Foster, Op.Cit., p. 272.

14- Ibid, p. 273.

15- Shorana Manocha L. Op.Cit., p.33.

16- Maurice Freedman, Areporton some aspects of food health and Society in Indonesia, W.H. Generva, United Nation, 1955, p. 20.

17- Sohana Manocha, Op. Cit., p. 233.

18 - George Foster, Op.Cit., p.275,210.

19- Corinne H. Robinson, Op.Cit., p.p. 209,210.

20- Sohana Manocha, Op.Cit., p. 211.

21- George Foster, Op. Cit., p. 276.

22- Yehudi Acohen "Consumption Patterns" is David L.

Sills Encyclopaedia of Social Science, The Macmillan New York, 1972, vol.5.p. 308.

٢٣- رالف ل - بيلز وهارى هويجر، ترجمة محمد الجوهرى والسيد محمد الحسينى - مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة - الجزء الأول - دار نهضة مصر - للطباعة والنشر - القاهرة - يوليو ١٩٧٦ ص ١٤٧.

24- Corinnne H. Robinson, Op.Cit., p. 215.

٢٥- على محمود عويضة - الموسوعة الغذائية - عالم الكتب القاهرة - ١٩٨٠ ص ٣٠٦.

26- Ruth Bircher, Easting Your Way to Health, Faberand Jaher white Brothers, great Britain, 17973, p. 301.

27- Corinne H. Robinson, Op.Cit., p. 318.

28- Ibid. p. 327.

29- Dwain N. Walcher, Norman Kretchner Op.Cit., p. 101.

30- Corinne H. Robinson, Op.Cit., p.p. 252,253.

31- Ibid. p. 255.

32- Ibid. p. 253.

33- Roger J. Williams, Nutrition against disease, by pitman publishing corporation, U.S.A, 1971, p.p. 47, 45, 49.

34- Corinne H. Robinson, Op.Cit., p.p. 58, 59.

تحول المجتمع السكندرى من اللغة اليونانية واللغات الأخرى إلى اللغة العربية فى ظل الفتح العربى

إعداد

إبراهيم إبراهيم عنانى

باحث ومؤلف فى التاريخ الاسلامى

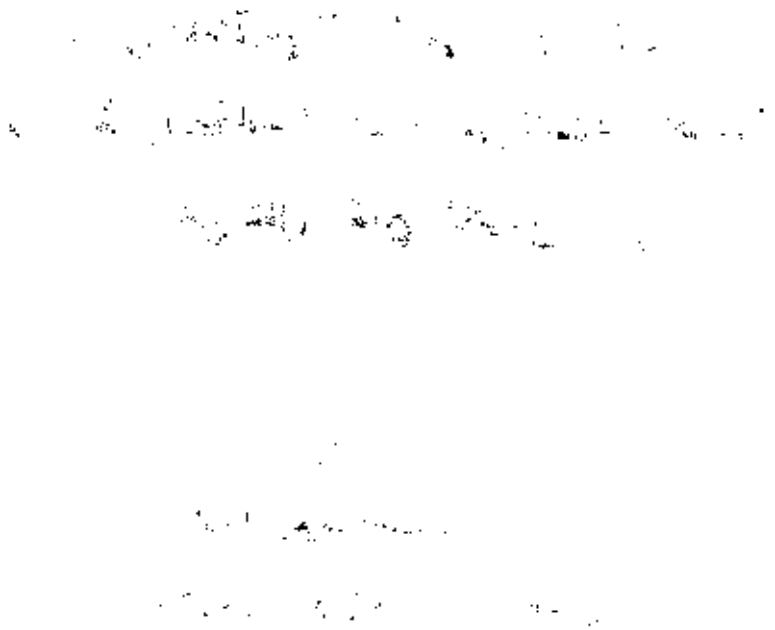

تحول المجتمع السكندرى من اللغة اليونانية واللغات الاخرى إلى اللغة العربية فى ظل الفتح العربى

إن مجتمع الإسكندرية منذ بدأ يتكون فوق هذه البقعة المطلة على البحر المتوسط حيث مدخل مصر الشمالى، والقريبة من حدودها الغربية حيث مدخلها الغربى، إن المجتمع السكندرى بموقعه هذا يقدم نموذجا فريدا بين مجتمعات المدن المصرية، لا ترجع أهميته إلى أن الإسكندرية كانت عاصمة البلاد المصرية طوال عدة قرون منذ تأسيسها أيام الإسكندر ٣٣٢ق.م. إلى أن فتحها العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى. فنقلوا العاصمة إلى مدينة جديدة هى الفسطاط أقاموها قرب التقاء فرعى النيل الكبيرين. لقد كان ميناء الإسكندرية فى مكانها هذا يهدف إلى ربط مصر بعالم البحر المتوسط، وهو العالم الذى كانت تسوده الثقافة اليونانية كجزء من خطة كبيرة ترمى إلى نشر الثقافة اليونانية فى شتى أرجاء الشرق القديم. وكانت الإسكندرية المصرية واحدة من (إسكندريات) عدة أقامها اليونان فى مراكز هامة على طول طريق امبراطورية الإسكندر الاكبر- ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء أن تظل الإسكندرية المصرية وهى على جزء من التراب المصرى مدينة يونانية، حتى وإن كانت عاصمة الدولة البطلمية، وهى إحدى الدول الإغريقية الكبرى، إمبراطورية الإسكندر الأكبر، فما لبثت صبغتها المصرية، كإحدى مدن مصر وإن كانت قد نجحت فى المواءمة بين الثقافة والمصالح والمقومات المصرية واليونانية وكان العامل الأكبر الذى

مكنها من ذلك هو حرصها على أن تفيد من موقعها على البحر من ناحية وعلى الأرض المصرية من ناحية أخرى، ولقد تعرضت الإسكندرية عبر تاريخها الطويل إلى أحداث وحروب وصراعات - وفى غمرة هذه الأحداث ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وتلا ذلك فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقبل الفتح الإسلامى كان العرب يفدون إلى مصر منذ أقدم العصور للتجارة وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافى اليونانى سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ بعد الميلاد قال عن مدينة قفط فى الصعيد أنها نصف مدينة عربية - ووفد على مصر للتجارة - زمن الجاهلية - عدد من الشخصيات العربية التى اشتهرت فى الإسلام نذكر منهم عثمان بن عفان وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبه. - وحين أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩)م كان العرب يدركون تماما اهمية الإسكندرية، وقيل أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أول مرة ورأى بيوتها وبناءها، هم إن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط. أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الإسكندرية عاصمة لمصر بعد فتح العرب لها إلى تحفظ الخليفة عمر بن الخطاب بالنسبة لركوب البحر. - وكانت

الإسكندرية حين فتح العرب مصر مدينة بيزنطية أى رومية أو يونانيه، فكان معظم سكانها من الروم وكان يسيطر على مجتمعها العادات والتقاليد والثقافة اليونانية. وهذا يفسر إعجاب العرب بمدينة الإسكندرية، وسرعان ما اختط العرب الفسطاط فكانت كل خطة تسكنها قبيلة، كذلك نزلت قبيلة همدان موضع الجيزة واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط - ويذكر المؤرخون أن قوما من العرب نزلوا فى الإسكندرية عقب الفتح على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وانما كانت «أخائذ» أى من أخذ منزلا نزل فيه، ويقال أن الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية أى أن العرب الذين استقروا فى مصر بعد الفتح العربى ومعظمهم من عرب الجنوب أو اليمنية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية. وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والضرب. ولذا لم يختط العرب بالمصريين فى البداية. ولقد كانت الفسطاط مدينة عربية إسلامية وسط المحيط المصرى القبطى، أما الإسكندرية فكانت مأهولة بسكانها من الروم واليهود والاقباط ويقدر «موتيه» عدد سكان الإسكندرية فى العهد البيزنطى بنحو ٣٠٠,٠٠٠. والمعروف أن اتخاذ العرب للفسطاط عاصمة لهم بعد الفتح، أثر - إلى حد ما- على مركز الإسكندرية العاصمة السابقة وخاصة بعد أن فتح العرب الإسكندرية وأجلوا قسما كبيرا من سكانها من الروم. ولكن الإسكندرية سرعان ما أخذت تسترد ما كان لها من ازدهار ونشاط. وبدأت دور صناعة السفن تستعيد نشاطها وتساهم فى صناعة السفن منذ خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح. كذلك استأنفت مصانع النسج

نشاطها كما عاد للإسكندرية نشاطها. التجارى القديم بين الشرق والغرب – وكما كانت الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها، فقد كانت الإسكندرية عاصمة مصر الثانية وميناها الهام ومقر البطركية – ومنذ الفتح العربى اهتم عمرو بن العاص بإنشاء مسجدا فيها كما أنشأ مسجدا فى الفسطاط عاصمة البلاد – وظلت مدينة الإسكندرية تحتفظ بمكانتها الخاصة التى كانت لها منذ عصر البطالمة فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عصر الأخشيديين فى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى، إذ كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر حتى فى القضاء، كما كانت تعتبر قسما مستقلا بجبايته ويلاحظ ذلك عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى، فإنه لم يكن بين والى الإسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطاب بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان وأحد. كذلك اهتم العرب بعد فتح مصر اهتماما كبيرا بأمر حامية مصر وحظيت الإسكندرية باهتمام كبير. وكانت حامية الإسكندرية أو رباطها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان اثنى عشر ألفا من الجند العرب. ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى والى مصر حينذاك – عتبة بن ابى سفيان (٤٢–٤٤هـ) – يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم . وبالرغم من الطابع شبه المستقل الذى كانت تتمتع به الإسكندرية حتى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى، إلا أن تعريب مجتمع الإسكندرية سار فى نفس الخط الذى سار فيه تعريب مصر كلها. إذ أخذت مصر بعد الفتح العربى لها تفتح عينيها على العروبة والإسلام وأخذت تندمج فى مجموعة الشعوب العربية، بل أن مصر أصبحت بعد ذلك قاعدة

لانتشار الثقافة العربية الإسلامية في شمال أفريقية ومن بعدها في الأندلس، وكانت الإسكندرية هي الباب الرئيسي لعبور تلك الثقافة إلى غرب العالم الإسلامي، أو لعبور ثقافة الأندلس وشمال أفريقية إلى مصر وشرقي العالم الإسلامي - وبعد أن ساد العرب البلاد المختلفة حربيا وسياسيا لم يكن من الطبيعي أن تظل لغة العرب وثقافتهم أجنبية غريبة على أهل البلاد المفتوحة وأن تكون لغة أهل البلاد المفتوحة غريبة على العرب - وفي مصر - وشهدت خلافة عبد الملك بن مروان - أخي أمين مصر - حركة «التنظيم والتعديل» على حد تعبير المؤرخين العرب. فعمد عبد الملك إلى صبغ الدولة بصبغة عربية، وإلى الاعتماد على الموظفين من العرب أو الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة. وهكذا بدأ الخليفة عبد الملك تعريب لغة الإدارة والحسابات كما أمر قبل ذلك في سنة ٦٧هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التي كان يتداولها الناس حتى ذلك الحين جنبا إلى جنب مع النقود الإسلامية. وكانت عملية التعريب طويلة بدأها عبد الملك في أخريات حياته منذ سنة ٨١هـ - وقد بدأ عبد العزيز بن مروان حركة التعريب بترجمة الأنجيل، وبعض الكتب، والمكاتبات بين البطرك وبين ملكي الحبشة والنوبة. وأصبحت اللغة العربية لغة الدواوين في مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ابن مروان، فبدأ في سنة ٨٧هـ (٧٠٥ - ٧٠٦م) في خلافة الوليد بن عبد الملك وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر . ومع أن تعريب الدواوين بدأ في مصر في سنة ٨٧هـ إلا أن الوثائق البردية تدل على أن الحكومة ظلت مدة طويلة تستخدم العربية واليونانية، على حين كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا باللغة

القبطية. ونجد وثائق ذات لغتين عربية ويونانية إلى القرن الثانى الهجرى – الثامن الميلادى بل أنه وجد «إيصال» بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦هـ عليه كتابة قبطية – وكان لتعريب الدواوين بعض الأثر فى تعريب مصر والإسكندرية، إذ أصبح للدولة العربية إلى جانب السيادة السياسية والحربية والسيادة اللغوية فانتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الإدارة ولغة الثقافة والفكر، ولغة التخاطب فضلا عن أنها لغة السياسة والدين.

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى إلى اختلاطهم بالأقباط اختلاطا كبيرا. فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى، واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصرى. فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف إلا قليلا فلم تنشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصرى الواسع. وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون. ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين وكان لهذا الاختلاط أكبر الأثر فى تغلب الثقافة العربية الإسلامية فى وادى النيل وفى تعريب مصر والإسكندرية وشجع الخلفاء بعد الفتح وفود القبائل إلى مصر فكان أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الإسلام يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية

العهد الأموى، أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب الخراسانيين والأتراك فى العصر العباسى. فكانت القبائل العربية تفد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة، أو يبعث بهم الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد. ونلاحظ أن الخلافة فى عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ تخلت عن السياسة التى اتبعتها منذ الفتح العربى وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة. وساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالمصريين وكان لهذا الاختلاط أثره أيضا فى انتشار الإسلام بمصر نتيجة للزواج أو للموالاة بينهم وبين المصريين أما المقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء أو الموالاة فهو اختلاطهم عن طريق الجوار والمصاهرة والعتق - وأخذت القبائل العربية تفد إلى مصر وتستقر فى القرى وتصاهر أهل البلاد. وزاد نشاط القبائل العربية فى كل أرجاء مصر وحفلت الإسكندرية أيضا بكثير من حركات القبائل العربية فى فجر الإسلام والعروبة فى مصر. فحين اضطربت أمور الخلافة العباسية أثناء النزاع بين الخليفة الأمين العباسى وأخيه المأمون ظهر أثر ذلك النزاع فى مصر وأدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة. وقامت عدة ثورات ونذكر منها ثورة بنى مدلج فى الإسكندرية ضد والى الخليفة العباسى المأمون سنة ١٩٨هـ. وبنو مدلج هم بطن من كنانة من عرب الشمال - وقد تم اندماج العرب بالمصريين منذ خلافة المعتصم بالله العباسى فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى. إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان وليا للعهد تنطوى على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس. فلما بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ /

٨٣٢م أرسل إلى والى مصر كيدر نصر بن عبد الله يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم فتم ذلك. ويبدو أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين المصريين بدليل أن قرار المعتصم بصرف العرب عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل يذكر.

ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، ففى معظم شواهد القبور التى كشفت فى مقابر أسوان والفسطاط نجد أن اسم المتوفى يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن من خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم البلد أو الوطن الذى ينتسب إليه المتوفى فيكتب مثلا فلان المصرى أو الكوفى أو الاسوانى أو الادفوى ... الخ. وعندما فقد العرب مركزهم انتشروا فى سائر قرى ومدن مصر، وتزوجوا من بناتهم، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها. وهذا الاختلاط قوى عروبة مصر فتعرب المصريون وتمصر العرب، وأصبحت العربية لغة الإدارة ولغة الثقافة والعلم والادب والفن، ولغة التخاطب والتحدث وفى القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى كان غالبية المصريين أصبحوا يجهلون اللغة القبطية التي كانت اللغة القومية للمصريين حتى فتح العرب أرض مصر، وكذلك اللغة اليونانية التى كانت اللغة الوسمية منذ عهد البطالمة والتى كتب بها الإنجيل الشهيد مارى مرقس الإنجيلى الحوارى أول بطرك للإسكندرية – ولا ريب فى أن تعريب مصر كلها شمالا وجنوبا خلال ثلاثة قرون ظاهرة تستحق إمعان النظر. ولا شك

فى أنها ميزة للعرب على غيرهم – ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الإسلامى والتعريب بل إن مصر فى زمن مبكر أى فى عصر الولاة – الذى يمتد من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م – تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . ومع أن جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط كان قلب هذه الحركة النابض إلا أن الإسكندرية شاركت أيضا مشاركة واضحة فى العلوم الإسلامية وعلوم العربية. فكانت الإسكندرية منذ القرن الثانى الهجرى – الثامن الميلادى مركزا ثقافيا عربيا مشعا، وكانت ملتقى للفقهاء المالكية المصريين الذين نشروا مذهب مالك فى مصر – فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر. ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر – وإمام فقهاء المالكة فى الإسكندرية – ولم يكن تفوق مجتمع الإسكندرية العلمى قاصرا على الفقه وعلوم العربية والإسلام، وإنما كانت الإسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق للثقافة اليونانية الرومانية. ولم يقض الفتح العربى على الحياة العلمية فى الإسكندرية ولاسيما فى العلوم العقلية – ومن المؤكد المام علماء الاسكندرية فى زمن مبكر من القرن الأول الهجرى بالعربية وقدرتهم على الترجمة من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية – وكان فى الإسكندرية زمن الفتح الإسلامى طبيب اسمه ابن ابجر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميرا وبعد أن صار خليفة كذلك أرسل الخليفة العباسى هارون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الإسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له.

هذه هى دراسة موجزة تبين كيف انتقل مجتمع الإسكندرية من مجتمع يوناني مصرى إلى مجتمع إسلامى عربى وكيف ازدهر هذا المجتمع العربي بعد الفتح فى أقل من قرنين من الزمان - وإذا كان تعريب مجتمع الإسكندرية قد سار فى نفس الطريق الذى سار فيه تعريب مصر فلا يفوتنا أن نذكر أن مصر العربية الإسلامية أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى نافست خلافة العباسيين حوالى قرنين من الزمان ٣٦٢ - ٥٦٧هـ/ ٧٢م-١١٧١م ثم أصبحت مصر مركزا للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى سنة ٦٥٦هـ-١٢٥٨م - وانتقالها إلى مصر فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م تلك الخلافة التى ظلت قائمة بها إلى الفتح العثمانى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وحسبنا دليلا على علو مركز مصر العربية فى العالم الإسلامى العربى منذ العصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون فى القرن - الثامن الهجرى - الرابع عشر الميلادى (ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم الإسلامى وينبوع العلم والصنائع).

العمارة الهلنستية في الأردن

بحث مقدم

للمؤتمر الدولي الثاني حول التبادل الحضاري بين

شعوب البحر المتوسط الإسكندر والإسكندرية

الدكتور

زيدون المحيسن

استاذ مشارك – جامعة البيت

المفرق – الأردن

تبدأ الفترة الهلنستية فى الأردن، باحتلال الإغريق على يد الإسكندر الكبير للمنطقة، والذى أنهى السيطرة الفارسية عام ٣٣٢ قبل الميلاد[١]. وبإخضاعه للإمبراطورية الفارسية، نصب الإسكندر حاكماً للعالم، وأصبح الغرب مهيمناً على الشرق. وسهل هذا الإخضاع انتشار الثقافة الإغريقية فى الشرق، فأصبحت اللغة اليونانية اللغة الرسمية فى أرجاء الإمبراطورية، ولغة التجارة والثقافة ولغة الدين[٢]. وبوفاة الإسكندر الكبير قسمت المنطقة بين البطالمة والسلوقيين، فسيطر البطالمة فى الفترة ما بين عام ٣٠١ -١٩٨ قبل الميلاد على جنوب سوريا والأردن وفلسطين ومصر. أما السلوقيون فحكموا المناطق الأسيوية المتبقية[٣]. ويعاصر هذه الفترة ظهور الأنباط كقوة مستقلة، يقيت محافظة على استقلالها ونشاطها التجارى المنطلق من عاصمتهم البتراء، رغم مهاجمتهم عام ٣١٢ قبل الميلاد من قبل (انتيقونس Antigonos)[٤].

وزالت السيطرة البطلمية عن الأردن فى حوالى عام ٢٠٠ – ١٩٨ قبل الميلاد، بعد هزيمة بطليموس الخامس فى معركة (بانيون Panion)، بقيادة أنطوخيوس الثالث وهو تاريخ تدشين العهد الهلنستى المتأخر. وبهذا سيطر السلوقيون على الأردن، فى حين نالت بعض المدن استقلالها فى جنوب بلاد الشام[٥]. فتمكنت سلالة طوبيا من المحافظة على استقلالها فى حين خضع إقليم عمان إلى سيطرة (جوداس ماكابوس Judas Maccabeus)[٦].

الشواهد التاريخية المتعلقة بهذه الفترة، جاءت من المؤرخ (يوسيفيوس Josephus) والوثائق التاريخية اليونانية، التى احتوت على

معلومات تاريخية عن المنطقة، فى فترة حكم البطالمة فى القرن الثالث قبل الميلاد[٧]. وكذلك من المؤرخ (بوليبوس Polybius) الذى تحدث عن العديد من المدن والأقاليم فى الأردن، أو سجلات (زينون Zenon)، و(سترابو Strabo) والمؤرخ (اقثاركيدس Agatharchides) الذى أشار بأن خلفاء الإسكندر أخذوا بالتنازع على الممالك وكانت النتيجة نشوب العديد من الحروب[٨].

تقسم الفترة الهلنستية بدورها إلى الهلنستى المبكر، والهلنستى المتأخر، أو ما يطلق عليها فترة البطالمة، وفترة السلوقيين والحشمونيين[٩]. هذا التقسيم انتهجه (لاب Lapp) وقسمه إلى الهلنستى المبكر (البطالمة) من عام من ٣٢٠-١٩٨ قبل الميلاد، والهلنستى المتأخر (السلوقيون) من عام ١٩٨-١٦٥ قبل الميلاد، والحشمونية المبكرة من عام ١٦٥ - ١٠٠ قبل الميلاد، والحشمونية المتأخرة من عام ١٠٠-٦٣ قبل الميلاد[١٠].

انتهت الفترة الهلنستية فى الأردن عام ٦٤-٦٣ قبل الميلاد، على يد القائد الرومانى بومبى، نتيجة لانقسام المملكة السلوقية وانشغالها بالصراعات الداخلية[١١].

مواقع الفترة الهلنستية:

تتميز المعلومات الأثرية عن الفترة الهلنستية المبكرة، بكونها قليلة فى الأردن بينما تأخذ المعلومات بالإطراد فى الفترة المتأخرة. والسبب يرجع من الناحية التاريخية إلى الحروب والمشاكل، التى كانت قائمة بين البطالمة والسلوقيين بعد موقت الإسكندر الكبير[١٢].

تمثلت مواقع هذه الفترة فى الأردن (خارطة رقم ١) فى البتراء وعراق الأمير[١٣]، وتل السعيدية الطبقة الثانية[١٤] وفى جبل (سرطبة Sartabe) على بعد ٢,٢ كيلومترا إلى الجنوب الشرقى من طبقة فحل[١٥]، وفى أم قيس، وجرش، وعمان، واليصيلة، وقويلبه، وتل الذهب، وحسبان، وتل الخليفة، وتل المزار والعديد من المواقع التى تم الكشف عنها أثناء المسوحات الأثرية فى وادى الأردن، مثل أبو علوية، وتل أبو كامل، وتل عماتا، وتل أبو هابيل، وخربة الحمة، وتل الاربعين وغيرها من المواقع[١٦] .

ومن أبرز المواقع الأثرية التى تمثل الفترة الهلنستية فى الأردن :-

البتراء:

تقع البتراء فى المناطق الجنوبية من الأردن على بعد حوالى ٢٥٠ كيلومتر جنوب العاصمة عمان، وتبعد حوالى ١٢٠ كيلومتر شمال العقبة. ويستطيع المسافر إلى مدينة البتراء الوصول إليها عن طريق مجموعة من الطرق المعبدة كالشوبك وادى موسى البتراء، أو طريق معان أذرح وادى موسى، أو معان البسطة وادى موسى، أو معان الطيبة وادى موسى. وكل هذه الطرق تؤدى إلى بلدة وادى موسى ومن ثم إلى البتراء.

بقيت البتراء طى الكتمان منذ أن زارها السلطان بيبرس، فى ما بين الأعوام ١٢٦٠ ميلادى إلى ١٢٧٧ ميلادى، وتحدث العالم العربى النويرى عن زيارة بيبرس للبتراء، وأعطى بعض المعلومات المهمة عن البتراء، ووصف بعض مناطقها المختلفة، ولم يستطع النويرى أن يذكر لنا اسم البتراء بل سماها بجبل بدر.

أعيد اكتشاف البتراء في عام ١٨١٢ من قبل الرحالة السويسري بيركهارت (John L. Burckhardt) ، وتعرف على آثار المدينة القديمة، وارجعها إلى الفترة النبطية، ومن الباحثين اللاحقين ايربي ومانغليس (Irby & Mangles) اللذان زارا البتراء سنة ١٨١٨. وفي عام ١٨٣٩ زارها الرسام (David Roberts) عندما كان يقوم برحلاته في مصر والأراضي المقدسة، وقام برسم لوحات دقيقة للبتراء.

إن أول من قام بتسجيل ونشر الواجهات المعمارية في البتراء، كانا برونوف وفون دوماسيفسكي (Brunnow and Domaszeski) عندما زارا الموقع سنة ١٨٩٨. فقد قام بتسجيل حوالي ٨٥٠ واجهة منحوته ونقوش، ووضعوا نظام ترقيم للقبور يعتمد على مواقعها، ولا يزال هذا النظام مستعملا حتى اليوم. وقد ضم بحثهم صور ورسومات للواجهات. إلا أنها لا تحتوي على الزخارف الدقيقة، ما عدا زخارف الخزنة، كما أن هذه الواجهات لم تحتو على مقاييس لأبعادها. ثم جاء موزيل (Musil) واعد رسومات أخرى، وبعده قام دالمان (Dalman) برسم ونشر الواجهات المعمارية للخزنة، وسجل بقية الواجهات. وبالإضافة إلى هؤلاء، دون باخمان وويغاند (Wiegand and Bachmann) المباني المبنية من الحجر، وخاصة تلك التي تقع بالقرب من شارع الأعمدة. كما قام بنشر معبد قصر البنت الباحث كول (Kohl)، وفيما بعد الباحث رايت (Wright)، الذي قام أيضا بنشر المعلومات عن ساحة المعبد.

بدأت الحفريات في البتراء سنة ١٩٢٩، عندما قام جورج هورسفيلد

وزوجته (George and Agnes Horsfield)، بالتنقيب فى منطقة الكاتوته. وبين سنة ١٩٣٤ - ١٩٣٦، قام اللبرايت (Albright) بعدة حفريات، منها فى منطقة الخزنة، وقبر الجره، وقبر الجندى الرومانى. وقام بار (Peter Parr) فى سنة ١٩٥٤، بالإشراف على أعمال الترميم فى مركز المدينة، تبعه هموند (Hammond) فى السنة التالية، والذى تتركز تنقيباته فى منطقة المدرج، ومنطقة معبد الأسود المجنحة، الذى ما تزال مستمرة حتى اليوم.

كما قامت دائرة الآثار العامة منذ تأسيسها بعمل الحفريات وأعمال الصيانة للبتراء، بإشراف فوزى زيادين على بعض هذه الأعمال، كما قام زيدون المحيسن بعمل دراسات لهندسة الرى والزراعة النبطية فى البتراء وفى المواقع النبطية الأخرى، كما أشرف على عدة حفريات فى المنطقة. وقامت دومنيك تاريبة بمجموعة دراسات عن البتراء، وخاصة ما يتعلق منها بالمضافات النبطية والعادات والديانة النبطية، كما قام نبيل الخيرى بالتنقيب فى المنطقة الجنوبية لمعبد قصر البنت. وتقوم فى الوقت الحاضر بعض المؤسسات الفرنسية، والألمانية، والأمريكية، والسويسرية، ببعض الدراسات والتنقيبات الأثرية.

كانت البتراء أكثر من مجرد مدينة للقوافل التجارية، فقد كانت أيضا مركزاً لمنطقة زراعية وقد عمل الأنباط على استغلال الأراضى فى هذه المنطقة من أجل تلبية الاحتياجات المتزايدة للسكان[١٧].

بالنسبة لسيطرة الأنباط على البيئة، تظهر من خلال سيطرتهم على المياه والزراعة، فقد كان الأنباط بارعين فى الزراعة، وقد واجهوا حالتين

والتى كان من الممكن أن تعطل أى عملية زراعية وإنتاج، وذلك لأن معظم الأراضى المتوفرة كانت غير صالحة للزراعة، وكذلك قلة الأمطار، ومن الصحيح أنه فى البداية كانت عمليات الزراعة والفلاحة قليلة، ولكنهم عملوا على تطويرها وتقدمها، وأصبحت من أهم النشاطات من أجل الحصول على طعامهم، وهذا يمثل أهمية الزراعة بالنسبة لوجود الأنباط، وهنا نجد أن الأنباط قد سيطروا على البيئة وحاولوا الاستفادة منها، حيث عملوا على حفر القنوات والسدود وخزانات المياه، من أجل الحفاظ على المياه القليلة وإيصالها إلى وسط المدينة وأيضا تزويد القوافل التجارية بالمياه، وقام الأنباط بالسيطرة على الأراضى الصحراوية، وعملوا على تزويدها بالمياه، وتحويلها إلى أراضٍ زراعية من أجل تأمين الغذاء للسكان.

إن المهندس والمعمارى والنحات فى البتراء وفى مدائن صالح، قاموا بالبناء فى الصخر القاسى، وحاولوا التكيف مع البيئة المحيطة به وقد نجحوا فى ذلك(١٨) .

والناظر إلى مدينة البتراء، يستطيع رؤية الأعمال الفنية المميزة التى قام بها الفنان النبطى، فهناك العديد من المبانى المنحوتة فى الصخر، وهنالك أيضاً القبور التى يظهر عليها التأثير الأشورى والمصرى واليونانى.

واستطاع الأنباط التغلب على البيئة الجغرافية، أثناء تخطيطهم لمدينتهم وبنائها، وحاولوا أن يتأقلموا معها ويرعوا فى ذلك، وتميزت عاصمتهم بعمارتها ونحتها وفنونها، التى نافست فيها جميع المدن والعواصم القديمة.

استخدم الأنباط نمطين فى البناء فى مدينة البتراء، النمط الأول تمثل باستعمال الحجارة المشذبة وبينها البلاط، كالموجود فى معبد الأسود المجنحة ومعبد قصر البنت[١٩] . قد بنى المعماريون أعمدة هذه المبانى من قطع إسطوانية حجرية[٢٠] ، كما استخدموا تقنيات مختلفة فى البناء، منها طريقة وضع الأخشاب بين مداميك الحجارة فى معبد قصر البنت[٢١] .

أما النمط الآخر والمتميز فى أبنية الأنباط، فهو الذى استخدمت فيه الأساليب والتقنيات لإنشاء المبانى المنحوتة فى الصخر الطبيعى. فقد طور الأنباط هذه الأساليب والمهارات إلى أرقى المستويات. فكانوا يبدأون العمل بتسوية سطح الصخرة التى تم اختيارها لتصبح واجهة معمارية، ثم يقومون بالنحت من الأعلى إلى الأسفل مستغلين ألوان الصخر الطبيعية[٢٢]. ومما يساعدنا على فهم طرق نحت الواجهات والغرف، هو دراسة واجهة «القبر غير كامل البناء» (Unfinished Tomb) الذى لم يتم فيه سوى نحت القسم العلوى من الواجهة الصخرية[٢٣]. وهناك خطوط عامودية مستقيمة على واجهة «الخزنة»، مكونة من مربعات صغيرة ربما استعملت من أجل تثبيت الرافعات إلى أعلى وأسفل الواجهة أثناء عملية النحت.

إن موقع مدينة البتراء الجغرافى، جاء ليسيطر على الطرق التجارية الهامة، القادمة من شبه الجزيرة العربية باتجاه الشمال (سوريا)، أو الاتجاه الغربى (غزة) وشواطئ البحر الأبيض المتوسط (خارطة رقم ٢). ولعل هذه ميزة هامة اقتضتها الطبيعة الجغرافية. أما الناحية الإستراتيجية فإن الموانع الصخرية زودت الموقع بهذه الصفة، لهذا نجد أنه من الصعب دخول

مدينة البتراء، وحتى لو كان ذلك سيراً على الأقدام، ولعل هذه الصفة أو القوة الإستراتيجية من أهم العوامل الرئيسية المطلوبة لنشوء المدينة، وبالذات مدينة البتراء التي عاصرت قوى متناحرة ومتحاربة، كالمكابيين والعمونيين والمؤابيين إضافة لليونان. ولهذه الأسباب اختار الأنباط سكن هذا الموقع لميزاته الجغرافية والإستراتيجية والاقتصادية، علماً بأن وادى عربة يقع غرب المدينة ويفصلها عن فلسطين، ولا مدخل للمدينة سوى منطقة السيق[٢٤] .

لعبت طوبوغرافية المنطقة دوراً هاماً ورئيساً، في شتى الميادين المختلفة في البتراء حيث تحيط بالمدينة العديد من مواقع الضواحي التي من أهمها المركز الرئيسي وهي بلدة وادى موسى التي كانت تسمى بجياء التي اشتهرت بينابيعها الكثيرة التي كانت تزود البتراء بالمياه، وكذلك كانت تزود بساتين الزيتون والعنب والرمان في وادى موسى. وبلدة وادى موسى الحالية مبنية على مجموعات كبيرة من المناطق الأثرية الهامة، التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ مدينة البتراء خاصة وتاريخ الأنباط بشكل عام، وقد تعرضت معظم آثار هذه البلدة للعبث والدمار بسبب انتشار المدينة الحديثة فوقها، ويمكن للزائر مشاهدة العديد من الجدران، وقنوات المياه، والطواحين المائية في بطن الوادى في البلدة. وهناك الضواحي الأخرى كالسيق البارد، وصبرا، وبراق.

مميزات مدينة البتراء:

تخطيط المدينة:

بدأت البتراء بالنمو تدريجياً ونتيجة لهذا النمو بدأت تظهر تطورات حضارية علي المدينة، ويظهر ذلك من زيارة الأبنية والمنازل. (مخطط رقم ١) ويلاحظ تاثير طبيعة الأرض على طريقة وأسلوب البناء. راعى الأنباط فصل البيوت السكنية عن المقابر. وكانت بدايات السكن والاستقرار فى مركز المدينة، وذلك منذ القرن الرابع قبل الميلاد وربما قبل ذلك، ومع تطور المدينة وازدهارها، وبناية الشارع المعمَّد والمبانى العامة فى المركز، زحفت البيوت السكنية خارج حدود الأسوار واختلطت مع القبور القديمة، ويظهر ذلك فى عدة مناطق من المدينة.

ونظراً لتأثر مدن الشرق بالحضارة اليونانية، امتازت البتراء فى القرن الأول قبل الميلاد بالمخطط الهلنستى للمدن، وفى هذا التخطيط أهملت الخطوط المستوية، وكسرت محاور الشوارع الرئيسية، باتجاهات تتفق وطبيعة الموقع، ويظهر فى البتراء مميزات ميزتها كمدينة ذات تخطيط هلنستى :-

١- يكون الشارع الرئيسي عبارة عن شارع معمد عريض يجرى فى الاتجاه الطبيعى للموقع، وهذا ما نلاحظة بالنسبة للشارع المعمد فى البتراء الكاردو (Cardo) حيث يجرى باتجاه مجرى وادى موسى.

٢- إبراز بعض نقاط التقاطع للشوارع الفرعية بالشارع الرئيسى بمظاهر

معمارية كالأقواس، وهذا الحال تجده متمثلاً فى بوابة المدينة (Temenos Gate) .

٣- تحيط بالشارع المعمد من الجانبين أروقة معمدة، وخلفها الحوانيت والدكاكين، والذى يبدو واضحا على جانبى الشارع المعمد فى البتراء، وقد حلت هذه الدكاكين محل السوق العامة اليونانية (Agora).

٤- تبليط الشوارع والاهتمام بتصريف المياه كتبليط السيق والشارع المعمد.

٥- وجود مركز المدينة متمثلا فى الشارع المعمد، وقصر البنت، ومعبد الأسود المجنحة، وسبيل الحوريات.

اعتبر السيق بوابة المدينة، وكان يوجد فيه بوابة ضخمة على شكل قوس وهى مهدمة الآن، تؤدى إلى داخل المدينة مروراً بالسيق وحسب طبوغرافية الأرض، حيث رصف السيق (مجرى وادى موسى القديم)، بالبلاطات الحجرية، وعلى جانبيه تتوزع مبانى المدينة كالمدرج وشارع الواجهات «منطقة سكنية» ومن ثم إلى مركز المدينة والتى تنحصر بين الأسوار الشمالية والجنوبية، وتحصر فيما بينها الشارع المرصوف وبوابة (Temenos) التى تؤدى إلى قصر البنت، ومعبد الأسود المجنحة، وسبيل الحوريات، والمعبد الكبير، وأحيط بالشارع الأسواق. إن هذا التوزيع منتظم العناصر ونظم بطريقة طبيعية بعيدة عن الوجود الهندسى.

تخطيط مركز المدينة:

اتخذ كل من معبد الأسود المجنحة وقصر البنت والحمامات نفس الاتجاه والمحور وكذلك المباني على جانبي بوابة الـ (Temenos).

بني الشارع المعمد ما بين ٩ قبل الميلاد و ٧٦ بعد الميلاد ولكنه لم يتخذ نفس المحور لهذه المباني بل، اتخذ مجرى طبوغرافية الأرض، متمثلة في مجرى وادي موسى بالقرب من الشارع.

بنيت بوابة الـ (Temenos) بعد رصف الشارع، وقد بنيت على تقاطع خطين مختلفين وهما الشارع المعمد و (Temenos bench)، وبنيت كل من الأسواق، والمعبد العظيم في جنوب الشارع المعمد بنفس المحور، وتظهر بقايا رصف الشارع أمام المدرج وعلى طول السيق. وعندما تم حفر المدرج وذلك في أنسب المواقع طبوغرافية، تم التعدي على بعض المقابر القديمة، وتكرر نفس الوضع في وادي الخبثة حيث اقيمت المساكن الأحداث فوق المقابر الأقدم عندما اتسعت المدينة.

تعتبر المحكمة (Urn Tomb) أقدم من المقبرة الكورنثية، وهما تتخذان نفس محور الشارع المعمد، والمقبرة القصر (Palace Tomb)، التي تأتي في نهاية صف هذه المقابر الملكية، ويظهر لنا في هذه المقبرة كيف أن الجزء الأكبر من الواجهة محفور، وقد أكمل الجزء الأخر بالبناء لتحقيق عامل التناظر والتماثل، والتي اعتمدت عليه العمارة النبطية. لم تكن المقابر الملكية خارج مركز المدينة «خارج الأسوار» وإنما كانت داخلها أو على حافتها.

أسوار المدينة:

تحيط الجبال بالبتراء من ناحيتى الغرب والشرق، فجبال الحبيس تحيطها من الغرب بينما تحيط بها جبال الخبثة من الشرق، وأحاطت بها الأسوار من الشمال والجنوب، وتتكون الأسوار الشمالية من سورين السور الأول يمتد من قبر القصر (Palace Tomb) باتجاه الشمال ويعود تاريخه إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين. والسور الداخلى يمتد من الـ (Palace Tomb) فى تجاه شمالى – غربى عبر وادى المطاحة ويصل إلى أعلى نقطة له فى قبر جميعان، حيث ينحدر باتجاه مركز المدينة مطلاً على وادى أبو علبقة.

بنى الأنباط السور الخارجى وهو الأقدم ويتجه من قبر سكتيوس فلورنتينوس (Sextius Florentinus) باتجاه مغر النصارى، ويظهر اتجاه الجدار للشرق، وتم العثور على أساسات حجرية ربما ترجع إلى أبراج مراقبة كانت مبنية على طول السور الشمالى. بينما السور الجنوبى يمتد من جبال الحبيس غرباً عبر الخطوط حتى تصل غرب المدرج[٢٥] .

البيوت السكنية فى البتراء:

هناك نوعان من البيوت :

أ- بيوت قائمة مستقلة (Free-Standing Houses) :

أى أنها لم تكن محفورة فى الصخر، وعثر فى منطقة الشارع المعمد (Solonnade Street) على أول بناء نبطى (Free Standing) يرجع للقرن

الثالث قبل الميلاد، وجدرانه من حجارة الجلمود، والأرضيات من الطين، ثم أصبحت مرصوفة عندما تم رصف الشارع. وتم العثور على بيت يعود للقرن الأول قبل الميلاد، ولكن لم يتم العثور على آثار كاملة، والجدران تعود إلى حجرات مستطيلة، مع أرضيات طينية، وعثر في أحدى الزوايا على فرن يعود إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، واستمر الطابع المعماري البسيط خلال القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، وخلال القرن الأول تحسنت المباني نوعاً ما، فأصبحت الجدران من حجارة كبيرة، ورصفت الأرضيات بالحجارة بدلا من الطين.

عثر على مبنى يعود للقرن الأول بعد الميلاد، وسماكه الجدران ٥٠ سنتمتراً، وبنى الجدار الرئيسي في المنزل من حجارة منتظمة يبلغ ارتفاعه ٣ متر، بينما الحجارة التي بنيت منها الجدران الداخلية للمنزل، والواجهات الداخلية أقل إتقانا ودقة من الخارجية، ويبدو وجود آثار للقصارة والألوان والزخرفة الكلاسيكية ويعود تاريخ هذا المبنى إلى عام ٢٥ بعد الميلاد، حيث دلت قطع النقود التي وجدت على أرضيته على تأريخه.

في الجانب الغربي من الخبثة اكتشفت دائرة الآثار العامة بيتاً يعود للقرن الأول بعد الميلاد، والذي بني فوق مقبرة تعود إلى تلك الفترة، وعثر على غرفة أبعادها ٣ × ٢,٧٠ متراً، والجدران التي عثر عليها ارتفاعها ٠,٧٠ سنتمترا وتتكون من حجارة خشنة مربعة ثبتت بالمونة من الداخل، وغطيت بالقصارة الملونة. لم تكن سماكة الجدران متجانسة، الجدار الشرقي ٦٠ سنتمترا والشمالي ٤٠ سنتمترا، ووجد (Shaft Tomb) «قبر ذو المدخل العمودي» تحت أرضية المنزل.

ب- بيوت محفورة في الصخر :

في بعض مناطق البتراء، كانت الحجرات المحفورة في الصخر بيوتاً أكثر منها مدافن، لأن البيوت لم تكن لها وجهات مزخرفة كالمقابر، ولم تحتوى على قبور أو غرف دفن، وهذا النوع من البيوت دافئة شتاء لطيفة صيفاً، وتتواجد هذه البيوت في وادى السيغ الذى يجرى فى الجانب الشمالى من الحبيس، حيث حفرت البيوت على جانبى الوادى، وعثر فى أحد الحجرات على قصارة ملونة (فريسكو) على جدرانها تشبه رسومات الفريسكو، التى عرفت فى مدينة بومبى فى إيطاليا التى دمرها بركان فيزوف عام ٧٩ ميلادى. ومن مميزات البيوت المحفورة فى الصخر أنها تحتوى على ٦ غرف تطل على ساحة مركزية والسقف عبارة عن عقد (Vault) مع بقايا أقواس ملونة، ومقصورة باللونين الأسود والأحمر.

بدايات السكن والاستقرار كانت فى مركز المدينة، وذلك فى القرن الثالث قبل الميلاد ومع تطور المدينة وبناء الشارع المعمد، والمبانى العامة فى مركز المدينة، ومع اتساع المدينة اضطر الأنباط إلى البناء والتوسع على حساب المناطق القديمة، كما فى حالة بناء المدرج فوق المدافن القديمة، وكذلك بناء المنازل الموجودة فى الجهة الغربية من الخبثة والتى تعود فى تاريخها إلى القرن الأول الميلادى، بنيت فوق مدافن تعود للقرن الأول قبل الميلاد[٢٦].

واجهات المقابر في البتراء:

اقترح (Domaszewski) في سنة ١٩٠٤ نظام تسلسل لواجهات القبور، وهو ما يزال يستعمل كأساس لمعظم الدراسات. فقد قام بتصنيف المقابر إلى سبع مجموعات، تعتمد على العناصر المعمارية والزخرفية التي زينتها، ووجد أنها تمثل تسلسلاً زمنياً يعتمد فيه على تطور العناصر المعمارية، والتي تمثلت بازدياد في العناصر «الكلاسيكية» وبالموقع الطبوغرافي للمقابر[٢٧] . وفيما بعد قام كل من دالمان (Dalman) وكنيدي (Kennedy)[٢٨]، وبراوننغ (Browning)[٢٩] بتصنيف الواجهات ووضعها في تسلسل زمني، وقد جاءت دراساتهم قريبة من الأسس التي اعتمدها نظام (Domaszewski)[٣٠].

تعتبر منطقة مدائن صالح من المواقع التي ساعدت على دراسة العمارة في البتراء، وهي موقع نبطي وجدت فيه مباني قبور كثيرة الشبه بمباني البتراء، وأول من قام بدراستها كان (Savignac, Jaussen) والجدير بالذكر أن معظم هذه المباني وجدت عليها نقوش تبين سنة العمل بها، وأحياناً اسم الحرفي الذي قام بحفرها واسم أبيه. وبينت هذه النقوش أن معظم أنواع القبور التي صنفها Domaszewski جاءت معاصرة لبعضها، وقد أثبتت ماكنزي (Mckenzie) أن التسلسل الزمني مثل بتبسيط العناصر الزخرفية، وبازدياد عرضها، وانخفاض ارتفاعها[٣١] . كما وجدت ماكنزي أن الاختلافات ضمن كل صنف هي نتيجة وجود مدرستين لنحت الواجهات، لهما خصائص معينة من حيث معالجة العناصر المعمارية

والزخرفية، بالإضافة إلى خصائص تميز بها الحرفي نفسه. وقد اعتمدت في نتائجها على نقوش المقابر في مدائن صالح[٣٢] . وقد وضعت ماكنزي واجهات مباني البتراء ذات العناصر الكلاسيكية في ست مجموعات، بعد دراستها، وأرخت هذه المجموعات معتمدة على مبنى مؤرخ داخل كل مجموعة، ووضعت المباني في تسلسل زمني داخل كل مجموعة[٣٣] .

أنماط الواجهات وأصولها الفنية :

تعكس العمارة خصائص العصر الحضارية والروحية التي انتجها. وقد عرف الأنباط عدة أسس معمارية في أبنيتهم، وتأثروا بالحضارات المختلفة، واقتبسوا منها أشكال وعناصر مختلفة، وأضافوا عليها، ووضعوها في أبنيتهم. ويمكن تصنيف الواجهات إلى الفئات التالية:-[٣٤] .

١- الواجهات ذات الخطوط المستقيمة :

يتمثل هذا النوع بوجود العناصر المعمارية فوق البوابات المنحوتة في الحجر، حيث تشكل هذه البوابات الواجهات، دون وجود عناصر أخرى كالأعمدة والكرانيش وغيرها، فنجد أحياناً خط واحد محفور فوق بوابة التبر، أو نجد خطين يعلوهما شكل المثلث (Pediment)، ومن الأمثلة على ذلك قبر يقع بالقرب من «قبر الأسود»[٣٥] . تبين الواجهة أيضا تزيين الحجر بخطوط مائلة منحرفة على زاوية تبلغ ٤٥°، ويمثل ذلك إحدى ميزات زخارف المباني النبطية[٣٦].

اقترح كنيدى (Kennedy) أن هذا النوع من واجهات القبور، ربما

يعود إلى تأثير مصرى، إذ وجد نماذج مماثلة من بوابات مغلقة تزين قبر خوفو – عنخ فى مصر[٣٧] .

٢– الواجهات ذات التأثير الآشورى أو الآشورية :

قام براوننغ (Browning) بوضع هذا النوع من الواجهات فى مرحلتين، تحمل واجهات المرحلة الأولى إطاراً واحداً من زخرفة خطوة الغراب، فى حين أن المرحلة الثانية تمثلت بوجود إطارين من هذه الزخرفة[٣٨].

إن الواجهات التى تحمل زخرفة خطوة الغراب، تعود إلى التأثر بمبانى بلاد ما بين النهرين المبنية من الآجر، حيث وضع المعمارى النبطى هذا التأثير على الصخر المحفور[٣٩] . ونجد أنه فى البتراء أصبح يتألف كل إطار زخرفى، من وحدات حجلونية منعكسة (أو من انصاف وحده كامله)، وينتهى الإطار على جانبيه بنصف وحده[٤٠] . وقد اختلفت عدد الوحدات باختلاف عرض الواجهة، واحتوت كل منها على اربع خطوات، بينما كانت النماذج الأشورية تتألف من ثلاث خطوات[٤١] . ومن الأمثلة الآشورية التى تظهر فيها هذه الزخرفة، جزء من لوحة لمشهد صيد أشور بانيبال للأسود فى قصر نينوى، بالإضافة إلى نماذج واجهات المنازل[٤٢] .

الواجهات ذات الإطار من زخارف خطوة الغراب، تتميز بوجود خط زخرفى بارز (Tenia) أسفل الخطوات، وأحياناً تميزت بإضافة مدماك بارز قليلاً عن السطح ليعطى صلابة أكثر للتشكيلة. وقد تم إضافة ظواهر كلاسيكية، كوضع إطار للبوابة مكون من عامودين وافريز[٤٣] .

تطور من هذا التصميم أشكال الواجهات، التى تتميز بوجود إطارين من زخرفة خطوة الغراب بينهما مساحة «علية» (Attic)، ويظهر الخط البارز (Tenia)، أسفل الإطار الأول وأعلى الإطار الثانى. ويشير برواننغ إلى أن هذه التشكيلة تمثل تطور زمنى عن النوع الأول[٤٣] .

٣- الواجهات ذات الحلية الربع الدائرية (الكرنيشة الدائرية (Cavetto Cornice):

تميزت هذه الواجهات بإضافة كرنيشة دائرية، مع إبقاء زخرفة خطوة الغراب، إلا أنها استبدلت هنا بوحدة معكوسة وتمتد على عرض الواجهة. وهذه الكرنيشة هى نتيجة التأثير المصرى، إذ كانت ظاهرة فى العمارة المصرية لمئات السنين، ووجدت أيضا فى العمارة الفارسية خلال هذه الفترة، وقد تكون وصلت إلى الأنباط عن طريق الفرس[٤٥] . إلا أن المعماريين الأنباط أبقو الأثر الأشورى - المتميز بخطوة الغراب - ولكنهم طوروه، بحيث أصبح يتناسب مع هذه الكرنيشة الدائرية[٤٦]، وبقيت الزخرفة البارزة (Tenia)، وأعيد استعمال المدماك البارز تحت الكرنيشة[٤٧] .

تم إضافة أعمدة على هذه الواجهات فى بعض الأحيان، وجاءت على جانبى المبنى، بحيث بدت وكأنها تحمل الجزء العلوى. وهنا تظهر الأعمدة ذات «التيجان النبطية» المتميزة، كما تظهر البوابات «الكلاسيكية النبطية».

٤- الواجهات ذات الكرنيشة المزدوجة :

من خصائص هذا النمط، هو إضافة كرنيشة أخرى أسفل الكرنيشة الدائرية، وبينهما مسافة، وهنا أصبحت تيجان الأعمدة توضع فوق وسادتين

(Cushions)، وأضيفت أحياناً قاعدة للواجهة أو تاجاً أعلى الزخرفة، وهذه الزخرفة فريدة من نوعها فى البتراء، إذ تحتوى على إطار من زخرفة خطوة العراب فى أعلى الواجهة، بالإضافة إلى الكرنيشة المزدوجة، حيث إن الأولى منهما ذات طراز مصرى، كما تتضمن أيضا الأعمدة ذات التيجان النبطية الطراز والبوابة الهلنستية التأثير. فنجد هنا مزج لعدة عوامل وتأثيرات حضارية ضمن الواجهة، وأعطت طابعاً نبطيا جديداً.

أدى نمط الكرنيشة المزدوجة، إلى ظهور أربع تيجان أعمدة، نبطية الطراز، تزين المساحة بين الكرنيشتين، وكذلك أدت إلى زيادة عدد الأعمدة إلى أربعة، لتصبح الواجهة أكثر توازناً[٤٨] .

٥- واجهات أخرى ذات عناصر شرقية :

تتميز واجهة «قبر المسلات» بوجود أشكال المسلات التى كانت تزين القبور المصرية، وهى تدل على التأثير المصرى على مدافن البتراء. وهناك أيضا المقابر التى تتميز بوجود الأقواس النصف الدائرية، كزخرفة أساسية فى الواجهة كالموجودة على أحد القبور قرب المدرج، وكذلك على واجهات قبور أخرى[٤٩] .

٦- الواجهات ذات الطابع الكلاسيكى :

لقد صنف (Browning) هذه الواجهات بأنها «نبطية كلاسيكية»[٥٠]، ومن ضمنها «الخزانة»، و«قبر القصر»، و«القبر الكونثى»، و«مضافة باب السيق»، و«الدير»، و«قبر سكتيوس فلورنتينوس»، وغيرها، ذات العناصر المعمارية الكلاسيكية التى لا تخلو من الطابع المحلى.

طريقة الدفن:

لقد تعددت أنواع الدفن في مدينة البتراء، وعثر عى عدة مقابر موزعة على مدى حجم المنطقة المسكونة، حيث إن هذا التوزيع يلقى الضوء على من سكن في هذه المنطقة في تلك الفترة، ومن هم ملوكها، ومحتويات هذه القبور تعطينا أدلة كافية عن عادات دفنهم[٥١] .

ومن أهم طرق الدفن النبطية مايلى:

١- المدافن ذات التوابيت الخشبية (Wooden Coffins) :

فقد عثر في هذا النوع من المقابر ذات المداخل الرأسية (Shaft Tombs)، وفي أحد القبور منها على كسر حجارة وأتربه مختلطة مع عظام حيوانات، وكسر أثرية، وقطع من توابيت خشبية[٥٢]، وبالرغم من أن هذا القبر قد نهب، إلا أنه قد تم الكشف عن ستة أركان دفن، وكل ركن يحوى مقبرة، يرجح أنه كان يحوى تابوتاً خشبياً[٥٣] ، وقد تم تنظيف هذه الأركان وكانت تقريبا خالية، إلا أن الركنين الخامس والسادس عثر فيهما على بقايا سته جماجم، ثلاث منها مكسرة وإحداها كانت منبسطة إلا أنها محتفظة بشكلها سليماً[٥٤] ، ومع أن النهب تم في جميع الأركان، إلا أنه وبعد تنخيل الحطام الموجود عثر على عقد يحتوى على أجراس برونزية، وزجاج، وقشر الخرز، وصفيحتين معدنيتين مزخرفتين بعناقيد العنب، والأجراس متآكلة من الداخل وتحمل هذه الزينات بسلك[٥٥] ، وعثر أيضا على خرزة تركوازية شافة على خنفسة[٥٦] ، وعثر أيضا على أسرجة، إن وجود التابوت الخشبى في هذا القبر يشير إلى المادة الأصلية لهذا التابوت والطريقة التى صنع

فيها حيث تم بناؤه من خشب الأرز، وأجزاء الخشب مترابطة مع بعضها بطريقة التعشيق، وكانت نجارتها بشكل ممتاز، وعثر أيضا على قطع خشبية كبيرة ملتوية بطريقة مقصودة عن طريق الإلواء الصناعى بالبخار(٥٧) .

وعثر أيضا على قطعة من المرمر، فى قاع المدخل الرأسى، غير معروف استخدامها، فهى مصقولة ومزينة من الوجهين، ومنقوشة بخطوط ودوائر.

وعثر على مثل عادة الدفن هذه فى مقابر (Triple Dushara-D4) فى سبعة مقابر، ثلاثة منها فى صف متوازٍ، حيث أن القبر الثانى أزيح حجران من إحدى زواياه من جهة الحائط، وفى نهاية الجهة الأخرى، عثر على حجر مستطيل تحت بلاطة، وعثر أيضا على إناء يدوى، وعثر فى الزاوية اليسرى وبجانب السطح، على ثلاث جماجم أطفال(٥٨) . وهذه الجماجم كانت موجودة فوق سرير من الرماد الخشبى وبعض القطع المحروقة إلا أن العظام لم تبين وجود أى حرق(٥٩) .

ولقد تم الكشف عن قبر ذى مدخل رأسى فى البتراء يدعى (Shaft Tomn BI, 1) وذلك عام ١٩٧٣، وتبلغ مساحة هذا القبر ٢,٥ × ٠,٧ متر محفور فى الأرضية الصخرية، ويمكن الوصول إلى القبر، عن طريق الحفر التى تشكل مواطئ رؤوس أصابع القدم للتسلق إلى الغرفة الجنائزية، حيث تبلغ مساحتها ٥,٢٠ م × ٢,٧٠ متر، وعثر داخل هذه الغرفة على ثمانية قبور، وقد احتوت جميع هذه القبور على بقايا هياكل عظمية، إلا أن القبر السابع عثر فيه على هيكل عظمى كامل، حيث يتجه رأسه إلى الجهة

الشمالية وذراعيه على جانبيه، وعثر على بقايا جمجمة أخرى تخص شخصا آخر. وقد تم جمع مسامير وأجراس من جميع المقابر الثمانية، وأن دل هذا على شئ فإنه يدل على أن المتوفى كان يدفن داخل صناديق خشبية[٦٠] .

لقد وجدت عادة الدفن هذه في ممفيس (Mampsis) في صحراء النقب، حيث كان التابوت الخشبي يوضع في أرضية المقابر الرأسية، وبذلك لا يوجد أي تشويه أو عبث بالعظام. ولصحة هذا الكلام فقد عثر على بعض المسامير الحديدية وقطع من الخشب[٦١]. إن الهياكل العظمية في مثل تلك المدافن، وجدت بحالة سليمة، وتبنى أرضية هذه المدافن من حجارة مربعة ومنتظمة تثبت مع بعضها بملاط طيني ويغطى القبر بحجارة[٦٢]. ويصنع خشب هذا التابوت من خشب الأرز، ولم تستخدم المسامير في بعض الأحيان، بل استخدمت طريقة التعشيق،[٦٣] لقد كانت الألواح الطويلة التي على الجانبين مزخرفة، وكان الميت موضوعاً على ظهره ويتجه رأسه إلى الغرب وقدميه إلى الشرق، وذراعيه على جانبيه، أو قد تكون احدى يديه على صدره، وفي بعض الأحيان وجد بقايا للأكاليل أو خشب الصندل[٦٤] .

٢- طريق الحرق الجزئي لجثث الموتى :-

يعني هذا أن الحرق قد يكون كاملاً وقد يكون جزئياً، ولقد عثر في القبر الثالث بمنطقة المغيسرة (Upper Junction Terrace Mueisera RidgeE3)، على كمية من القطع والعظام الإنسانية والحيوانية المحروقة،[٦٥] فعندما أزيل الرمل على عمق متر واحد، تم الوصول إلى أرضية صلبة رملية، وفي وسطها ثمانية جماجم وعظام وثلاث أوانٍ سليمة مبعثرة. إن بعض هذه

العظام متفحمة نتيجة الحرق، وقد عثر تحت طبقة الرمل مباشرة على باقى الأوانى، وبين هذه الكتل من العظام المتفحمة، عثر على جمجمة مكسورة، لم يصب الحريق جزءها السفلى، بل أصاب الجزء العلوى منها، وجميع هذه الموجودات كانت ملقاة على طبقة رقيقة سوداء، حيث كانت طبقة العظام المحروقة بسمك نصف متر فوق الأرض ولا يوجد أية علاقة للتكلس، وتم العثور على تسعة هياكل عظمية، ورأس كلب، وقد تم حرقها فى الخارج، وقد دفن مع العظام فى المقابر المجوهرات البرونزية والأوانى، وقد يكون هذا الدفن قد ندر استخدامه بسبب استخدام السلف طريقة الحرق عن طريق التكلس (Line Cremations)، أما فى القبر الرابع فى المعيسرة (Middle Junction, Mueisra Ridge)، فقد عثر على كسر بعض الجماجم عليها آثار حرق[٦٦] ، وعثر أيضاً فى (Tomb of Triple Du-shara) على جثة محروقة تماما ما عدا جزء من العظم المتحرك فى الركبة[٦٧] .

٢-الحرق المتكامل:

إن الجهة الشرقية من مقابر الحبيس (El-Habis Tombs)، تحتوى على معالم مميزة ومنها أكشاك الحمام (The Columbarium) حيث تقع فى أقصى الجنوب، إذ تحولت فى فترة من الفترات إلى بيت[٦٨]. ولم يعرف لغاية الآن وظيفته. وهذا المعلم ذو صفوف مدرجة من الفجوات الجدارية، لوضع الجرار المحتوية على رماد جثث الموتى المحروقة، وتغطى هذه الفجوات الجدارية الواجهة الكلية للغرف الداخلية، حيث تبلغ مساحة هذه الفجوات

الجدارية المربعة ١٠ انش × ١٠ انش كانت توضع الجرار الجنائزية فيها، حيث يوجد داخل الفجوة شق للأسفل لوضع الجرار[٦٩] . إن بعض التجاويف ما زالت مغلقة بالحجارة الصغيرة، حيث لاحظ هورسفيلد ضغط الجرار التى مازال أثرها واضحاً. وتمثل (Columbarium) المرحلة الأخيرة فى حرق أموات الأنباط[٧٠]، ويبقى هذا التفسير مثاراً للجدل.

٤-الدفن مع الكلس:

وهذا النوع من الدفن وجد فى منطقة شمال الحبيس (North Tomb, El Habis) فى قبر رقم ٢، وعثر فى هذا القبر على عظام كثيرة وعلى قطعة من الجير الصلب يبدو أنه قد اختلط مع الرمل[٧١] .

المدافن ذات المغالق الحجرية:

عمل بيتر بار (parr) فى التنقيب فى مدينة البتراء عام ١٩٦٨، وكان قبر (Urn Tomb) من أصعب المقابر التى تم الوصول إليها، إذ أنها مثيرة للاهتمام وهى موجودة فى الطوابق العليا، حيث يعود الفضل فى التسلق إليها للسيد (Joe Brown)، وهو من مشاهير متسلقى الجبال، حيث عمل على التسلق مسافات شاهقة والوصول إلى العديد من الكهوف وعمل على تصويرها، وكشفت للباحثين عن عادات الدفن عند الأنباط.

والشئ المثير فى هذا القبر هو وجود ثلاثة أركان دفن تعلو واجهة القبر، وما هو ملفت للنظر هو ركن الدفن الذى يقع فى الوسط، حيث إن هذ الركن مغلق بحجر منحوت، وهذا الركن بعمق ٣,٥ متر ويبلغ طوله وعرضه

١,٥ متر. ومدخل هذا الركن بسيط، ويوجد داخله فى الزاوية اليمنى حجر بناء غير مشذب أو مصقول مكوناً قسماً مستطيلاً بأبعاد ١,٥ متر × ١ متر.[٧٢]

النصب التذكارية:

لقدعثر فى الجزء الأسفل للمنطقة التى تقابل السد، فى منطقة باب السيق إلى الشرق، على نصب تذكارية جنائزية (Nefesh)، على شكل مسلات منحوتة فى الصخر، حيث عثر عام ١٩٦٤ على مجموعتين أثناء عمل وزارة الأشغال العامة بتحويل مجرى سيل وادى موسى إلى نفق قديم فى مجرى وادى المظلم (Muzlem)،[٧٣] وبالتخلص من الطمى الذى كان موجودا فى الوادى فوجئ العمال بوجود سلسلة من النقش (nefesh) أو المسلات التى تحمل كتابات نبطية تذكر المتوفى الذى احتفل بذكراه. ومن أهم هذه المسلات هو ذلك الهرم بمقياس ٨٠ سنتمتر × ٤٠ سنتمتر الموجود على قاعدة مكعبة مع إفريزين بارزين، ونقشت عليها العبارة التالية : «هذا نفش (Petraios) ابن (Threptos) وقد كرم لأنه مات فى جرش وهو من سكان رقيم (Reqmu) التى تعنى اسم البتراء القديم، وهذا النقش صنعه له أبوه بالتبنى (Taimu). وهذا الإهداء يبين أن المسلة (النقش) عبارة عن نصب تذكارى شخصى، لا علاقة له بالقبر لأن (Petraios) دفن فى جرش، وقام أبوه بالتبنى بإحياء ذكراه فى مسقط رأسه البتراء، والتى ظهرت ولأول مرة بالتسمية السامية (Reqmu).

إن الاسم أو الجذر (rqm) يشير إلى التطريزات المتعددة الألوان،

ويمكن التقدير بأن البتراء (rqm)اسم سامى يقصد به الرمل الوردى. أما المسلات الأخرى المنحوتة فقد وجدت بينها مسلتان تحملان قبو صغير عمل أيضا كذكرى لشخص متوفى. إن النقش تمثل اسم الشخص المتوفى، وهى عبارة عن حجر منحوت بارز أو غائر وفى أغلب الأحيان يكون على شكل مسلة وتعتبر نصباً تذكارياً[٧٤] .

ويقول نقب (Negev) : لقد عمل الأنباط على فصل النقش التذكارى عن المقبرة نفسها، لذا فإنه يبدو من الواضح أن الأنباط يميزون بشكل واضح بين القبر والصرح التذكارى وهو الـ (nefesh) وهذا ما حصل فى أم الجمال وفى ماديا وفى تدمر[٧٥] . وهناك أحياناً علاقة بين شكل وتخطيط المدفن والوضع الاقتصادى والاجتماعى للشخص المتوفى، فعندما يكون المدفن ذا حجم كبير وله مرافق، فهذا يعنى أن صاحبه له مكانة فى ذلك الوقت[٧٦] .

وقد وجد فى ممفيس (Mampsis) أيضاً مقابر لها (nefesh) ونجد فوق القبر (رقم ١٠٥) مسلة غير منقوشة ذات رأس مدور،[٧٧] كما وجدت فى مقابر خربة الذريح فى وادى اللعبان مجموعة من المقابر، التى تحتوى على مثل هذا النقش (المسلة) المحفور على الشبائح الحجرية التى تغطى المقابر وكانت بعض هذه المسلات توضع إلى الجهة السفلى (أى باتجاه الشخص المتوفى)[٧٨] .

المضافات الجنائزية:

إن المضافات جزء لا يتجزأ من المقابر النبطية، حيث عثر على العديد

من المضافات في البتراء، سواء كانت مبنية في داخل المقابر في الصخر، أو مبنية في الخارج، أى أنها قد تكون شتوية أو صيفية[٧٩] ، والغرض من هذه المضافات تزويد مكان الدعوى بالوجبات، سواء كانت حفلات غذاء عادية أو للجنائز، حيث تقام مأدبة سنوية بجانب القبور لإحياء ذكرى الميت، ويجلس الضيوف على هذه المقاعد، فإذا كانت هذه المقاعد المحفورة فى الصخر على محيط ثلاث جهات فإنها تسمى (Triclinium) أما إذا كانت فقط محاطة من جهتين فإنها تسمى (Biclinium)، أو ستيبديوم (Stibadium) بشكل شبه دائرى، وعادة تكون هذه المضافات فى الهواء الطلق، أو تكون فى المناطق المرتفعة. وتحوى هذه المضافات تجاويف منحوتة في الصخر توضع فى داخلها المصابيح أو تماثيل الآلهة.

هناك بناء فى ممفيس (Mampsis) يشابه الغرض الذى بنيت من أجله المضافات، ووجد فى خربة الذريح مضافة نبطية كبيرة مبنية من الحجارة ولا يبدو أن لها صفة جنائزية وإنما كانت ملحقة بأحد المباني الإدارية القريبة من المعبد وقد كانت المضافات منتشرة فى البتراء، والعديد منها كانت بشكل مضافات عامة، وبعضها مضافات خاصة بالبيوت أو لها علاقة بالديانة[٨٠] .

الموائد الجنائزية:

عثر فى البتراء على أربعة ابنية متكاملة من المناضد، وتعتبر تقليداً جنائزياً مبنياً من الحجارة المربعة وممثلة بالحجارة المكسرة والحصى، وجميعها مستطيلة الشكل بمقاييس مختلفة إلا أنه فى بداية الأمر لم يعرف

الغرض من هذه الموائد، لأنها لم تعط أى دليل على بنائها، لذلك سميت بالمناضد، إلا أنه بالإمكان الاستنتاج أن هذا البناء له صلة بالموائد الجنائزية كالتى فى البتراء[٨١] . وكانت هذه الموائد تحيط بالمقبرة الرئيسية وبعضها قريباً من المقابر، وكانت تستخدم لإطعام الطعام بينما يجلس المعزون على الأرضية الترابية. وعثر بالقرب من الموائد الجنائزية على مصابيح فخارية وجرار، وأوانٍ، وكؤوس للشرب، ومزهريات، وأطباق خزفية.

ويقول (Strabo) إنه عثر على ١٤٣ كأساً ذهبياً لمائدة جنائزية، وربما تقام هذه الوليمة على شرف إله. فهناك نقش وجد بالقرب من الدير يبين أن المشاركين فى هذه الوليمة كانوا على شرف الإله Obadas [٨٢] .

المرفقات الجنائزية:

لم يعثر على الكثير من المرفقات الجنائزية فى مقابر البتراء، حيث تـ العثور على بعض المجوهرات فى بعض القبور، وعثر هورسفيلد (Horsfield) على جرسين برونزيين، وأجزاء من إسواره وأحدها تخصر طفلا وهى على شكل سلك نحاسى وإسواره برونزية، وزجاجة كروية برونزية للزينة، بينما كانت الخواتم البرونزية نادرة[٨٣] .

كذلك كان الحال فى ممفيس (Mampsis) فمثلاً عثر فى قبر (رقم ١١٧) على جرة من المرمر، وفى قبر (رقم ١٠٠) عثر على عملة موضوعة بين أسنان الميت، وقد تكون ضريبة تدفع لشارون (Sharon) صاحب العربة التى تنقل الإنسان من القبر إلى العالم الأرضى. وهناك بعض الصناديق الخشبية بمثبتات برونزية موضوعة عند قدمى المتوفى، تحتوى على وثائق

مكتوبة على ورق البردى، وقد تم حرق الصندوق وقت الجنازة، ولم يبق سوى الختم الطينية من الوثائق[٨٤] . وكذلك كان الحال فى البتراء حيث عثر أيضا على بعض العملات فى بعض القبور، فمثلاً عثر على (Dinarii) عليه رسم (Trajan) وكانت هذه القطعة موجودة بين أسنان الميت[٨٥] .

بعض الواجهات والمعالم الرئيسية فى البتراء:

الخزنة:

تتالف واجهة الخزنة من قسمين : قسم علوى وقسم سفلى، (صورة رقم ١) مع المثلث المكسور والمبنى الدائرى. يتكون الجزء السفلى من ستة أعمدة، حيث إن العامودين فى الوسط منفصلين عن الجدار، تيجان الأعمدة من النوع الأول «النباتى»، وهناك بعض الاختلاف بين الاشكال النباتية على التيجان. تعلو الأعمدة إفريزة مزخرفة بأزواج من الوحوش المجنحة بينها مزهريات، وذيولها عبارة عن جذوع ملتفة ومتشابكة، وعلى جانبى الإفريز وجه يبرز من أوراق نباتية. يعلو الشكل المثلث (Pediment) قرص شمسى بين قرون وسنابل قمح، وهى ترمز إلى الإلهة إيزيس (Isis) المصرية. كما نجد فى وسط الإفريز وجه يخرج من أوراق الأكانش، وقد تم تشويهه، وأعلى جانبى المثلث يقف حيوان مجنح، وتبين هذه الأشكال تاثير الحضارة المصرية من حيث المضمون. كما نجد عند المساحات الجانبية بين الأعمدة قاعدة تعلوها منحوتة، وهى عبارة عن شكل آدمى يقف أمام فرس[٨٦] . وكان نحت أشكال الخيول والجمال فى الفنون النبطية الجنائزية واضح، وهو من أجل مساعدتها لنقل الميت فى رحلته إلى ما بعد الحياة[٨٧].

أما الجزء العلوى من الخزنة فهو مكون من ستة أعمدة أمامية وأربعة خلفية، وهى ملتصقة بالجدران وتيجانها من النوع الثانى «النباتى»، فى منتصف الواجهة نجد المبنى الدائرى ذا السقف المائل على شكل خيمة، يعلوها تاج عامود وجرة. أما الإفريزة العليا، فهى مزخرفة بأوراق نباتية مختلفة، وأشكال الرمان، والعنب، والصنوبر، بينها وجوه آدمية، وتعلو الإفريزة على الجوانب شكل المثلث المكسور(BrokenPediment). بالإضافة إلى جميع هذه الزخارف نجد بين الأعمدة الأمامية والخلفية، منحوتين لتماثيل على قواعد، وقد تم تشويهها فى فترة لاحقة. وفى منتصف المبنى الدائرى (Tholos) يقف تمثال الإلهة (Isis) مع سنابل القمح التى ترمز لها، وهى آلهة الموت المصرية، وعلى جانبيها بين الأعمدة نجد فى تماثيل النصر، كما نجد أعلى المثلثات منحوتات لأشكال طائر النسر[٨٨] .

نجد التناظر فى الواجهة إلى حد كبير، من حيث الزخارف المعمارية والهندسية، مع أن المنحوتات على الجوانب ليست مطابقة لبعضها البعض، إلا إنها متناسقة مع بعضها أو مع الواجهة، بحيث جاءت مناسبة للتشكيلة. وقد وصف دالمان (Dalman) واجهة الخزنة بأنها مكونة من واجهتى معبد الأمامية والخلفية وضعت فوق بعضها. فإن الطابق السفلى يبين مدخل معبد، والعلوى يدل على حرم مقدس (Sanctuary). وقد أضاف أن هذه التشكيلة تم تقليدها فى مبنى الدير والقبر الكورنثى فقط، وهى ضد التقليد ولكنها مناسبة للمكان[٨٩] .

ظهرت عدة نظريات بالنسبة لأصل الخزنة، وقد حاول عدد كبير من

الباحثين إيجاد مبانٍ شبيهة لها، قد تكون مصدر الإلهام لتصميم الخزنة. فقد وجد العديد أن أصلها يعود لمبانى الإسكندرية كمعبد كليوباترا والمكتبة[٩٠] ، بينما أشار بابنستشر (Papenstecher) إلى وجود المبنى الدائرى (Tholos) فى العديد من البيوت الخاصة والقصور، حيث كانت تحيط بها الأروقة المعمدة[٩١]. وقد وجد ستاركى(Starcky) إن واجهة الخزنة تعكس الفن المعمارى فى مدينة الإسكندرية المصرية خلال العصر الهلنستى. وعلى أى حال، فإننا نجد أن هذه الواجهة تمزج التأثيرات الشرقية، والممثلة فى الإلهة والحيوانات الخرافية المصرية، والنسر السورى، وشكل الجره الشرقية، مع الأساليب الهلنستية، بالإضافة إلى الطابع النبطى فى أشكال وزخارف التيجان، والإفريز، وبعض خصائص التماثيل بين العناصر المعمارية الكلاسيكية.

الدير:

يقع الدير فى أعلى الوادى الرئيسى بالقرب من جبل الدير، ويمكن الوصول إليه بواسطة درج منحوت فى الصخر، وهو عباره عن مضافة (تركلينوم) يستعمل فى مناسبات معينة دينية. أما الواجهة فهى شبيهة بواجهة الخزنة ولكنها تختلف عن بقية الزخارف وتبسيطها[٩٢] .(صورة رقم٢).

تتكون الواجهة من قسمين كما فى الخزنة، ويتكون الجزء السفلى من ثمانية أعمدة، حيث نجد الجانبية منها مكونة من أعمدة ربعية، والوسطى منها أعمدة نصفية. وهذه الأعمدة بدون قواعد، ولها تيجان نبطية

أيونية (Pseudolonic)، وفى وسط الواجهة السفلى بوابة تحيط بها أعمدة وشكل المثلث (Pediment)[٩٣] .

يتكون الجزء العلوى من الواجهة، من ثمانية أعمدة أمامية وثمانية خلفية، الأعمدة الوسطى هى عبارة عن أعمدة نصفية ملتصقة بالمبنى الدائرى، أما الأعمدة فهى «ثلاثة أرباع» (Three quarter columns) وتحمل مثلث مكسور (Broken Pediment)، ولها قواعد دائرية وتيجان نبطية من النوع الأول. كما نجد أن تيجان أعمدة المبنى الدائرى تتبع شكل الدائرة وليست أمامية.

تعلو الأعمدة إفريزة مكونة من أقراص إسطوانية الشكل تمثل الـ (Metope)، وهى ليست عميقة، أما المبنى الدائرى فهو شبيه بالذى وجد على واجهة الخزنة، وله سقف مائل يشبه الخيمة، على قمتها تاج من النوع الثانى النبطى، يحمل قاعدة عليها جرة. وقد غطت الواجهة علامات دقيقة محفورة[٩٤] . وهكذا، فإننا نجد فى هذا المبنى معظم العناصر المعمارية النبطية فى زخرفة الواجهة. ويبدو أن الدير كان عبارة عن مضافة هامة ورئيسة عند الأنباط[٩٥] .

قبر المسلات والمضافة (Obelisk Tombs and the Triclinium)

يقع قبر المسلات أعلى المضافة وقد تم بناؤهما فى فترة واحدة، كما يظهر على نقش فى الجهة المقابلة يبين تاريخ البناء (٤٠-٧٠ ميلادى) وهو يشير إلى الملك مايكوس ويبين أن المبنى هو قبر بناه عبد منكو له ولأولاده.

تتكون واجهة قبر المسلات من جزء سفلى خالٍ من الزخارف، وجزء علوى يتألف من أربع مسلات نحتت فى الصخر، كما أن هناك بوابة فى الجزء السفلى، تحيط بها أعمدة على الجوانب تحمل إفريزة دورية نبطية، وهى شبيهة بأخرى تعلو كوة خالية من الخطوط العامودية الثلاث المكررة (Triglyphs)، أما واجهة المضافة، فهى مكونة من نظام أعمدة علوى ونظام سفلى. يتألف الجزء السفلى من ست دعائم، مؤلفة من أعمدة كاملة وأعمدة ريفية ذات تيجان نبطية من النوع الثانى. وتحمل الدعائم مثلثاً مكسوراً على الجوانب وقوس فى الوسط. تعلو الأعمدة السفلى اعمدة أخرى على المحاور ذاتها، ولكن بحجم أصغر يعلوها مثلث مكسور(٩٦) .

نجد فى هذه التشكيلة، استعمال أشكال من أصول مختلفة، فهناك المسلات المصرية الأصل، وهناك الأشكال الكلاسيكية أعلى البوابات والأعمدة، بالإضافة إلى العناصر ذات الخصائص النبطية فى العمد والإفريز.

إن الزخارف النبطية المنحوتة التى ميزت الواجهات النبطية فى البتراء، وخاصة واجهة الخزنة التى يعجز أصحاب الآراء القائلة بأنها صنعت زمن الرومان أو أن الرومان نحتوها، عجزوا أن يعثروا على عمل فنى واحد شبيه بالخزنة، فى جميع ما خلفت الحضارة الرومانية من مبان وعمائر. حيث من المعروف أن العديد من الكتابات النبطية التى وجدت فى البتراء، قد دلت على أن أسماء النحاتين والمعماريين كانت عربية نبطية، كما دلت هذه الكتابات أن العديد من المبانى كمعبد قصر البنت فى البتراء

وبعض الواجهات المنحوتة ومنها واجهة الخزنة قد بنيت فى زمن الملك الحارث الرابع أو زمن سلفه، وهذه أدلة دامغة على وجود هذه المعالم الحضارية قبل وصول الرومان إلى البتراء. كما أن المدرج فى البتراء لم يخل من هذه التهم وكان رأيهم أنه أنشىء بعد عام ١٠٦ ميلادى، أى بعد وصول الرومان. فكيف يعقل أن تنشأ مدينة وعاصمة عظمية كالبتراء وتزدهر فى العصر الذهبى النبطى – القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى – دون أن يكون لها مدرج؟ ويقى هذا الرأى إلى أن أثبتت الحفريات التى قام بها فليب هموند فى منطقة المدرج، أنه أنشىء فى حوالى عام ٤ قبل الميلاد فى زمن حكم الملك الحارث الرابع. وحتى بدون هذا الإثبات المطلق، من المعروف أن المدرجات الرومانية جميعها قد بنيت من الحجارة وفوق الأقواس الحجرية، ولم ينحت الرومان مدرجاتهم.

عراق الأمير:

يقع موقع عراق الأمير فى منطقة وادى السير بالقرب من عمان، وعلى بعد ٢٠ كيلومتراً باتجاه نهر الأردن، تم اكتشاف الموقع والمبانى الهامة فيه فى القرن التاسع عشر من قبل (أربى ومانغليس Irby, Mangles)، وتم تحديد مبنى قصر العبد من قبل (بانكو Banko)، وفى عام ١٨٦٢ ميلادى قام الفرنسى (ديفوك Davoque) بدراسة القصر بصورة مفصلة، وأرخ للفترة الهلنستية، وحدد وظيفة المبنى كقصر. فى حين اعتقد (سولسى Saulcy) بأن المبنى كان يشغل وظيفة دينية وبالتحديد معبداً اعتماداً على وجود تماثيل الأسود، واستنتج بان المبنى مقدم للإلهين (مولوخ

وقاموس Qamos Moloch)، وأرخ بذلك للفترة الفارسية[٩٧]، ولكن الحفريات التى أجريت عام ١٩٧٦ ميلادية، من قبل (فيل ولارشيه Will, Larche) بينت أن البناء يعود للفترة الهلنستية، وأن وظيفة البناء كانت قصراً وليس معبداً كما ذكر يوسيفيوس[٩٨]، البقايا المعمارية فى الموقع تمثلت بـ :-

أ-قصرالعبد:

يذكر يوسيفيوس بأن القصر تم بناؤه على يد (هيركانوس Hyrcanus)، واستخدمت الحجارة البيضاء فى ذلك، وزخرف بتماثيل الأسود، ولكن (ديسو Dussaud) اعتقد بأن المبنى معبد عمونى، ولكن المبنى لا يشير إلى كونه كذلك. أما الاسم الحالى فيرجع إلى أسطورة متداولة بين السكان المحليين مفادها بأنه كان لأمير المنطقة بنت، تركها فى عهدة أحد العبيد، والذى أحبها وظلت الفتاة منه بناء قصر لها، وسمى بذلك قصر العبد[٩٩] .

تبلغ مساحة القصر (٣٧ × ١٨,٥ متراً) (مخطط رقم ٢)، تم بناؤه من الحجارة الكلسية البيضاء، المستخرجة من المناطق المجاورة، والقصر بنى وسط منخفض كانت تحيط به بحيرة اصطناعية. وأرخ القصر إلى الفترة الهلنستية اعتماداً على النظام الكورنثى المستخدم فى زخرفته، وكذلك البروز المستطيل فى الإفريز المشيد على الطراز الدورى، والعتبة الكورنثية والكورنيش. ودلت التحاليل المعمارية، على أن البناء شيد فى وقت واحد، وأنه لم يتم الانتهاء من تنفيذه، فتبع البناء صاحبه حيث كلاهما تبعا نهاية قاسية

عام ١٧٥ قبل الميلاد[١٠٠] .

يتكون البناء في مخططه من وحدة مركزية محاطة بممر على شكل حذوة الفرس، يؤدى إلى الحجرات في الجهتين الشرقية والغربية، وإلى ثلاث حجرات أخرى في الجهة الجنوبية، بالإضافة إلى حجرات للخزين في الزاوية الجنوبية والشرقية والجنوبية الغربية[١٠١]. يضم المبنى طابقين نواتي ارتفاعات متساوية، الطابق الأرضي يضم ممراً ذا أعمدة في الشمال، يقوم على جانبيه بئر، ودرج من الشرق يؤدى للطابق العلوى، وحجرة صغيرة في الغرب. ويؤدي هذا الممر إلى ممر آخر داخلي يقوم على جانبيه حوضان يفرغان ماءهما خارجاً بواسطة أفواه فهدين ضخمين في قاعدة الجدران، وفي الجهة الشرقية والغربية من القصر، توجد سبع حجرات كبيرة (مخازن للحبوب) مقسمة بواسطة الأعمدة للسماح بدخول الضوء[١٠٢].

أما الطابق الثاني أو العلوى، فكان يتم الصعود إليه عبر سلم، ومخططه متصل مع جدران الطابق السفلي، ويحتوى على العديد من الحجرات المزخرفة. ولعدم استكمال البناء – يتضح ذلك من الزخارف غير المكتملة – ما يدعو للاعتقاد بأن المبنى لم يسكن، كذلك وذلك لعدم وجود النوافذ، وحلقات الأبواب . ويحتوى البناء في الجهة الجنوبية على ممر وهمي ذي أعمدة يقوم على جانبيه حجرتان صغيرتان، ويبلغ ارتفاع المبنى ١٤ متراً، ويشبه في تصميمه المباني الشرقية[١٠٣] .

ب- البوابة التذكارية :-

تقع على بعد ١٥٠ متراً إلي الشمال الشرقي من القصر، وبقى منها

أربعة مداميك، وأمكن ترميم البوابة لارتفاع ٩ أمتار. فعلى مستوى الأرض فإن البناء يتكون من ركيزتين محاطتين ببوابة بعرض ٣,٧ متراً تفتح البوابة على سياج تشكل جدرانه من الخارج منحنى بزاوية يمنى. وليس هنالك علاقة بين اتجاه البوابة واتجاه القصر، وتتصل البوابة مع محور الطريق الممتد بشكل مستقيم لمسافة تقارب ١٠٠ متر، ومحاذية للجدار المحيط بالبركة الاصطناعية حول القصر(١٠٤) .

أمكن التعرف على تقنيتين في بناء البوابة، حيث استخدمت الحجارة الضخمة في بناء الواجهة، فهي متميزة من حيث حجمها وكذلك في معالجتها عند الحواف، مما يفتحها طابع القوة وكذلك للحفاظ على المبنى. كما استخدمت تقنية (التثبيت بالتلسين Mortises and Tenons) في البناء، وخصوصا في الحجارة الضخمة لتماسكها مع بعضها البعض. وهذا الأسلوب المعماري معروف في العمارة اليونانية ويظهر بشكل خاص في المواقع المتأثرة في الأسلوب المعماري الشرقي(١٠٥) . التقنية الثانية المستخدمة، تتكون من مداميك قليلة الارتفاع (٥٨ سنتمترا)، فالارتفاع المحدد للحجارة اللوحية يجعلها أكثر ثباتاً دون الحاجة إلى استخدام المعدن المصهور لتثبيتها مع بعضها البعض(١٠٦) .

أما طريقة البناء واختيار المواد اللازمة في بناء البوابة، فتدلان على مكانة وقوة مالكها، فقد زخرفت البرابة بالمنحوتات الحيوانية، مثل الحيوانات البرية، (النسور) التي تحتل مكانة بارزة في زخرفة القصر أيضا. أما زخرفة الحيوانين (السنوري Feline) فقد تم وضعهما بشكل متناسق

متجهين باتجاه البوابة، مما يشير إلى كونهما حاميين للممر، أما الأسد والنسر فيشيران إلى القوة الملكية أو المقدسة للتغلب على الأعداء[١٠٧] .

واستخدام الجص الملون الأبيض في زخرفة جدران القصر، والمباني السكنية في عراق الأمير، مما أعطى أهمية في التعرف على أهمية البناء الذي وجدت عليه، وكذلك فهم أسلوب الحياة في الموقع؛ فالجص الأبيض استخدم في زخرفة الجدار الداخلي، المكون من طبقة سميكة بنية اللون، ممزوجة بحصى صغيرة الحجم ثم تغطى بطبقة رقيقة من ومل الكوارتز[١٠٨].

ولم تقتصر المرافق على المباني العامة، بل تعدى ذلك إلى وجود المرافق الزراعية، كالمصاطب والجدارن الاستنادية، وقنوات الري، فقد لعب جدول المياه الدائم في وادي السير، إلي جذب الاستيطان في الموقع، فعلى ما يبدو أن الموقع جذب هيركانوس للاستيطان فيه لمكانته الاقتصادية[١٠٩] .

تل السعيدية :

تحتوى الطبقة الثانية في التل على بناء مستطيل الشكل (مخطط رقم ٣)، بنيت أجزاء منه فوق البناء العائد للفترة الفارسية. وتبلغ أبعاد المبنى ١٣,٣ × ٢١,٢ متراً، ويتراوح سمك جدرانه الخارجية (٩٠ سنتمتراً)، في حين يبلغ سمك الجدران الداخلية (٦٠ سنتمتراً). وبنيت الجدران فوق أساسات من الحجارة، واستخدم الطوب في بناء الجزء العلوى منه. والملفت للنظر في تقنية البناء استخدام القصب في البناء، فبعد الانتهاء من وضع أساسات البناء الحجرية، قام المعمارى بوضع طبقة من القصب بشكل

تقاطعي على طول الجدار، ثم غطيت بطبقة من البلاستر (الجص)، ثم يستكمل البناء باستخدام الطوب فوق طبقة القصب[١١٠] .

الطوب المستخدم فى البناء كان بحجمين، الأول كبير بقياس (٤٠ × ٤٠ × ١٥ سنتمتراً) والثانى صغير بقياس (٢٠ × ٤٠ × ١٥ سنتمتراً). أما الجدران الداخلية (٦٠ سنتمتراً) فقد بنيت بصف من الطوب الكبير، اصطف بجانب صف آخر من الطوب الصغير الحجم، أما الجدران الخارجية فيبلغ سمكها (٩٠ سنتمتراً)، وقد بنيت بمدامك اختلفت بين صفين من الطوب الكبير، ومدماك من طوبتين صغيرتين، وطوبة كبيرة فى المركز. وقد استخدم الجص فى تغطية الجدران الداخلية للمبنى[١١١] .

البناء فى مخططه يتكون من ساحة -٢٠١-، يتم الدخول إليها عبر مدخل عريض (١,٦ متر) فى الجهة الشمالية. ويحتوى أيضاً على مدخلين، الأول يفضى إلى الرواق -٢٠٢-، والثانى للغرفة -٢٠٣-. ويستدل من العوارض الخشبية المتفحمة التى وجدت فى أماكن مختلفة على الأرضية، وعند مدخل الغرفة فى الجزء الشمالى، أن المبنى كان مسقوفاً[١١٢] . ويتم الدخول عبر الساحة -٢٠١- إلى رواق يؤدى إلى خمس غرف فى الجهة الغربية، باستثناء الغرفة - ٢٠٦- التى يتم الدخول إليها عبر الغرفة - ٢٠٧-. أما الغرفة -٢٠٣- فتحتوى على مدخلين، الأول من الجهة الشرقية عبر الغرفة -٢٠١-، والآخر عبر الرواق -٢٠٢-، وتعتبر هذه الغرفة من أفضل الأمثلة التى تحتوى على أرضية مرصوفة بالحجارة. أما الغرفة - ٢٠٤- وهى أصغر الغرف الموجودة، فيتم الدخول إليها عبر الرواق -٢٠٢- الذى يؤدى أيضاً إلى الغرفة -٢٠٥-[١١٣].

يمتاز الجدار الشمالي للغرف -٢٠٦- إلى -٢٠٨- كونه سميكاً (٩٠ سنتمتراً)، بعكس الجدران الداخلية الأخرى، ولذلك ربما يشير إلى وجود طابق ثان للمبنى[١١٤] . وبشكل عام يتكون البناء من ساحة تقابلها من جهة واحدة ست غرف.

طبقة فحل (Pella)،

تم الكشف خلال موسم التنقيب عام ١٩٨١، عن بناء مستطيل أبعاده ٩ × ٥,٥ متراً، أرخ إلى الفترة الهلنستية (القرن الثاني قبل الميلاد)، وبنيت جدران المبنى من الطوب المجفف فوق أساسات من الحصى، ترتفع حوالى رضية٤٢المتر عن مستوى ال[١١٥] .

قسم المبنى من الداخل بجدارين، الأول يتصل مع الجدار الشرقي وهو ضمن مخطط البناء الأصلي، لكونه يحتوى على طبقة من الجص في الجزء الشمالي، وكذلك مبني بشكل قوى وثابت، فلهذا قسم البناء إلى جزئين غرفة داخلية وأخرى خارجية، أما الجدار الداخلي الثاني فتم اضافته في فترة لاحقة، وتقسم الغرفة الخارجية إلى قسمين، وعلى ما يبدو أن وظيفة الغرفة الخارجية مخالفة للداخلية، لكون الأخيرة مبلطة ببلاطات حجرية، مما يشير إلى نفس وظيفة الساحة المجصصة في الجهة الغربية[١١٦] .

لقد ساعدت قطعتا العملة في تأريخ المبنى، فقد أرخت القطعة الأولى إلى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، والثاني تعود إلى الفترة الحشمونية[١١٧] .

وعلى بعد ٢,٢٠٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من طبقة فحل، عثر في جبل سرطبة على تحصينات مؤرخة للفترة الهلنستية، فموقع التل مميز بكونه يشرف على الطرقات سواء القديمة أم الحديثة، ويمتاز ايضا بصعوبة الوصول إليه، مما حفظ حجارية المبنية من العبث[١١٨] . المبنى في مخططه مربع الشكل يبلغ طول كل جانب حوالي ٦٠ متراً، ويتكون السور من ثمانية أبراج تتوزع كالتالي : برج في كل زاوية وفي منتصف الجدار، وتظهر الابراج عدم تماثل فيما بينها، فقد تراوحت الغرف الداخلية المكونة للأبراج من غرفة إلى ثلاث غرف داخلية. ويتم الدخول عبر السور خلال أربع بوابات، واحدة في كل جانب، وتقع البوابات بالقرب من البرج[١١٩] . وفي داخل الحصن يوجد بئران تم حفرهما في الصخر الطبيعي، ويشير حجمهما إلى عدم كفاية استخدامهما لفترة طويلة، وبالمقابل فإن سماكة الترسبات الموجودة في قاع البئر، تشير إلى استخدامه لفترة قصيرة، لعدم استخدامها بشكل حقيقي[١٢٠] .

إن سبب بناء الحصن غير محدد بالضبط، لأنه من غير المعقول بناؤه من قبل سكان طبقة فحل، لكونه لا يشكل عاملاً مهماً في حماية مدينتهم، ولكن ربما تم بناؤه من قبل أحد القادة السلوقيين وربما (أنطيوخس الثالث Antiochus III)، حيث تذكر المصادر اهتمامه بإقليم طبقة فحل[١٢١]، وأكثر الاحتمالات تشير إلى انشائه في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، حيث يذكر (يوسيفيوس Josephus) أن انطيوخس الثالث كان له نشاط عسكري في الأردن في ذلك الوقت (نهاية القرن الثالث قبل الميلاد). وفي المقابل، فإن

الأسبار التجريبية داخل الحصن أظهرت عدم استيطانه، فأرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية إلى الفترة الهلنستية، وعلى بعد ٦٠ متراً إلى الجنوب الشرقي من الحصن عثر على برج منعزل يعاصر فترة بناء الحصن(١٢٢) .

البصيلة:

المبنى الإداري:

بدأ العمل في المنطقة – ب– من موقع البصيلة الأثرى في الموسم الثاني عام ١٩٨٩، واستمر العمل في موسم عام ١٩٩٠، وفي الموسم الرابع عام ١٩٩١، كشف عن المبنى الإداري في هذه المنطقة بالكامل. بني هذا المبنى بشكل مستطيل طوله ١٩ متراً وعرضه ٩,٥ أمتار (مخطط رقم ٤) وبلغ ارتفاع بعض الجدران الداخلية حوالي مترين. يحتوى هذا البناء على خمس حجرات، ثلاث كبيرة تقع في الجهة الغربية، وتتصل ببعضها بعضاً عن طريق بوابات، وحجرتان تقعان في الجهة الشرقية.

وصف الحجرات:

الحجرة الأولى : أطوال هذه الحجرة ٥,٧ × ٥,٧ أمتار، فهي أكبر الحجرات مساحة، وتفضي بوابة البناء الرئيسة إليها مباشرة، وتقع البوابة في جدارها الجنوبي، أما الجدار الغربي فقد بني معظمه على شكل نصف دائرى منحن بارز إلى الخارج. وتوجد في الجدار الشمالي بوابة تتصل مع الحجرة المجاورة الشمالية، ويبدو أن هذه الحجرة كانت صالة الاستقبال الرئيسة لهذا المبنى.

الحجرة الثانية : تقع إلى الجهة الشمالية من الحجرة الأولى، وتتصل معها عن طريق بوابة داخلية فى جدارها الجنوبى. وهذه الحجرة ثانية من حيث المساحة بعد الحجرة الأولى، إذ تبلغ مساحتها ٤,٧ × ٣,٨ أمتار، وتتميز بوجود مدخل أو بوابة على شكل قوس خماسى يقع فى الجدار الغربى ويفضى إلى خارج البناء، كما توجد بوابة فى الجدار الشمالى لهذه الحجرة تتصل مع الحجرة الثالثة المجاورة.

الحجرة الثالثة : بنيت على شكل شبه منحرف أطوالها ٣,٨٥ × ٣,٤ أمتار. وقد تعرضت معظم جدران هذه الحجرة للتهديم، ونقلت حجارتها إلى أماكن أخرى فى الموقع وخارجه، وأعيد استعمالها.

الحجرة الرابعة : حجرة مستطيلة أطوالها ٣,٨٥ × ٢,٤ أمتار. ما يميز هذه الحجرة خلوها من البوابات، ولعلها استخدمت عن طريق فتحة فى سقفها تصلها بالطابق الأول العلوى من المبنى. ويمكن أن يكون هناك درج (سلم)، ربما كان مصنوعاً من الخشب، يؤدى إلى هذه الحجرة التى كانت تستعمل للخزن أو لحفظ المياه.

الحجرة الخامسة : بنيت بشكل شبه منحرف أطوالها ٤,٧٥ × ١,٧ أمتار. تخلو هذه الحجرة كذلك من البوابات، فقد تكون استعملت بنفس الطريقة التى كانت تستخدم فيها الحجرة الرابعة.

يتضح من خلال الدراسات الأولية أن هذا المبنى لم يستعمل للسكن، إذ لم يعثر فيه على مخلفات مادية تشير إلى استعمالات منزلية، بل كان يستعمل مقراً إدارياً أو رسمياً. وقبل تشييد هذا المبنى حفر المكان، وأزيلت

الأتربة حتى وصل إلى الطبقة الصخرية التى أزيلت منها بعض الأجزاء أيضاً، وخاصة فى الجهتين الغربية والجنوبية والغربية ليصبح المكان مستوياً. وشيدت حجارة هذا المبنى فوق أساسات على شكل بلاطات ضخمة وضعت فوق الأرضية الصخرية المستوية. وقد برزت أجزاء هذه البلاطات بطول ١٠ سنتمترات من داخل المبنى وخارجه. وحجارة هذا المبنى مقطوعة من الصخور الجيرية الموجودة بكثرة فى هذا الموقع. وكانت طريقة البناء باستعمال حجر عريض يليه حجر طويل بصورة متوالية (Header-stretcher)، وكانت الحجارة تثبت بعضها ببعض بواسطة مونة «أسمنت» مازالت محافظة على متانتها، وكانت الفتحات الموجودة بين الحجارة تعبأ بحجارة صغيرة مخلوطة مع هذه المونة أو الأسمنت. وتشير ضخامة حجارة البناء، والوصول إلى الأرضية الصخرية لقطع الأساسات الحجرية عليها، وطبيعة بناء الحجرات الخمس سالفة الذكر تشير إلى وجود طابق آخر أو أكثر فوق حجرات التسوية مما يدل على أهمية هذا البناء. ويعزز افتراض وجود طابق أو أكثر العثور على عديد من حجارة هذا المبنى التى أعيد استعمالها فى بناء جدران الكنائس الموجودة فى الموقع، حيث استدل على هذه الحجارة من الحروف اليونانية التى نحتت على معظم حجارة هذا المبنى. ونقلت أعداد كبيرة من حجارة اليصيلة إلى القرى المجاورة كحوارة، وبشرى، وسال، واستعملت فى بناء المنازل حتى فترة قريبة. وقد حصر نوعان من الأرضيات داخل هذا المبنى، أرضية أقيمت فوق الصخور مباشرة، وأرضية علوية كانت على مستوى البلاطات الضخمة التى تشكل أساس المبنى، ويتراوح سمك الأرضيات ما بين ٥ إلى ١٠ سنتمترات،

وتتكون من خلطة أسمنتية من الجير المطحون والمحروق، والرماد، وبعض كسر الحجارة الصغيرة، والرمل.

تعود طريقة بناء حجارة هذا المبنى إلى الفترة الهلنستية، كما أن العثور على كسر الفخار التي تعود إلى الفترة الهلنستية، قرب الأساسات يؤكد أنه بني في هذه الفترة. واستخدم البناء في الفترة الرومانية. وربما رممت القصارة «المونة الأسمنتية» الداخلية في الفترتين الرومانية المبكرة والمتأخرة، وعثر على الكسر الفخارية الرومانية المتأخرة والبيزنطية في الطبقات العلوية من البناء. كما أظهرت الموبعات التي حفرت في الجهة الشمالية من المبنى بناء آخر يعود إلى الفترة البيزنطية مكوناً من حجرات صغيرة استعملت للسكن[١٣٣].

تل المزار:

أرخت الطبقة الأولى في التل إلى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وتمثلت بهذه الطبقة العديد من الحفر الدائرية والعميقة، بالإضافة إلى مخازن العلف، وقد اتخذت هذه الحفر عدة أشكال وأحجام، واختلفت طرق بنائها والمواد المستخدمة في ذلك، فالبعض منها استخدم الطوب في تشييدها، وفي حالات قليلة استخدمت الحجارة في المداميك السفلى واحياناً الطوب، ومن ثم الحجارة في المداميك العليا. ومن حيث الشكل فتتعدد بين الأسطواني والبرميلي والمخروطي، وخصوصاً تلك التي لم تستخدم الحجارة أو الطوب في بنائها. كما استخدمت الشبائح الحجرية في رصف أرضيات بعض الحفر والبعض الآخر استخدم الطوب في ذلك، أو الطين

المضغوط[١٢٤].

من خلال المخلفات التى وجدت فى مخازن العلف، تشير إلى استخدامها لخزن كميات كبيرة من الحبوب والتبن كنوع من الوقاية خلال أوقات الجفاف، أو استخدامه لتزويد قوات عسكرية، فيبدو أن الموقع كان على اتصال مع موقع (عماتا Ammata) الذى يبعد حوالى ٢ كيلومترات إلى الشرق من تلك المزار فى الفترة الهلنستية[١٢٥].

(حواشي البحث)

(1) Albright, W., The Archaeology of Palestine, Penguin, 1971, p. 146.

(2) Van Elderen, B., Hellenistic Period, in the Archaeological Periods and Site (East Bank), Vol. 1, Department of Antiquities, Jordan, 1973, p. 30.

(3) Kuhnen, H.P., Palastina in Griechisch - Romischer Zeit, Band 2, Munchen, 1990, pp. 32-33.

(4) Fredericq, D., and Franken, H., Pottery and Potters-Past and present: 7000 years of Ceramic art in Jordan, Atempto verlag, Tubingen, 1986, p. 174.

(5) Smith, R.H., "The Southern Levant in the Hellenistic period, LEVANT, Vol. XXII, 1990, p. 123.

(6) Fredericq, D., Op. Cit., 1986, p. 178.

(7) Albright, W., Op. Cit., 1971, p. 146.

(8) Smith, R.H., Op.Cit., 1990, p. 123.

(9) Kuhnen, H.P., Op. Cit., 1990, p. 38.

(10) Lapp, P., "Palestinian Ceramic Chronology 200 B.C.-70 A.D." AASOR, III, New Haven, 1961, p. 40.

(11) Smith, R.H., Op. Cit., 1990, p. 124.

(12) Ibid., P. 123.

(13) Will, E., "The Recent French Work at Araq el-Emir, The Qasr el-Abd Rediscovered", The Excavations at Araq el-Emir, Vol. 1, AASOR. 47-48, 1980-81, p. 149.

لمزيد من المعلومات عن ذها الموقع انظر :

Will, E., and Larche, F.Iraq al Amir. B.A.H. T.CXXXII, Paris, 1991.

(14) Pritchard, J., Tell S-Sa'idiayeh, Excavations on the Tell, 1964-1966. Philadelphia, 1985, p. 60.

(15) Smith, R.H., McNicoll, A.W. and Hennessy, J.B., "The 1980 Season at Pella of the Decapolis", BASOR, 249, 1983, p. 71.

(16) Ibrahim, M. Sauer, J. and Yassine, Kh., "The East Jordan Valley Survey, 1975", BASOR, 222, 1976, p. 58.

(17) Glueck, N., Rivers in the Deset, New York, 1959, p. 19.

(18) Ibid., p. 195.

(19) Wright, G.H.R., Structure of the Qasr Bint Fara'un. A Preliminary Review, PEQ, 93, 1961, p. 22.

(20) Browning, I., Petra, London, 1982, p. 56.

(21) Wright, G., Op. Cit., 1961, pp. 22-24.

(22) Hammond, P. C., The Nabataeans - Their History, Culture and Archaeology, Gothenbury, 1973, p. 66.

(23) Browning, I., Op. Cit., 1982. p. 48.

(24) Hammond, p., Op. Cit., 1973, p. 41.

(25) Mckenzie, J., The Architecture of Petra, New York, 1990, p. 109.

(26) Ibid., pp. 105-107.

(27) Ibid., p. 2.

(28) Kennedy, A., Petra Its History and Monuments, London, 1925, pp. 38-101.

(29) Browning , I., Op. Cit., 1982, pp. 79-99.

(30) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, p. 9.

(31) Mckezie, J., The Dating of the Principal Monuments at Petra: A new Approch, SHAJ, III, 1987, pp. 295-305.

(32) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, pp. 14-25.

(33) Ibid., pp. 33-53.

(34) Browning, I., Op. Cit. 1982, p. 79.

(35) Ibid., p. 80.

(36) Ibid., p. 81.

(37) Kennedy, A., Op. Cit., 1925, p. 42.

(38) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 79.

(39) Ibid., p. 82.

(40) Kennedy, A. Op. Cit., 1925, p. 46.

(41) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 82.

(42) Kennedy, A., Op.Cit., 1925, p. 45.

(43) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 82.

(44) Ibid., pp. 82-83.

(45) Ibid., p. 83.

(46) Kennedy, A., Op. Cit., 1925, p. 47.

(47) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 84.

(48) Ibid., p. 87.

(49) Kennedy, A., Op. Cit., 1925, p. 45.

(50) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 90-97.

(51) Kammerer, A., Petra et la Nabatene, 2 vol. Paris, 1929-1930.

(52) Murray, M.A., and Ellis, J.C., A Street in Perta, London, 1940, p. 12.

(53) Negev, A., The Nabatean Necropolis of Mampsis (Kurnub), IEJ, 21, 1971, pp. 110-129.

(54) Murray, M.A., Op. Cit., 1940, p. 12.

(55) Ibid, p. 25.

(56) Ibid., p. 12.

(57) Ibid, p. 12.

(58) Horsfield, G. and A., Sela - Petra, the Rock of Edom and Nabatene. III- The Excavations. QDAP, 8, 1938- 1939, p. 109.

(59) Ibid, p. 109.

(60) Zayadine, F., Excavations at Petra (1976-1978), ADAJ, 23, 1979, pp. 185-197, pls. 83-94.

(61) Negev, A., Op. Cit., 1971, p. 117.

(62) Ibid., p. 118.

(63) Ibid., p. 119.

(64) Ibid., p. 119.

(65) Horsfield , G. and A., Op. Cit., 1938-1939, p. 115.

(66) Ibid., p. 115.

(67) Ibid., p. 109.

(68) Ibid., p. 99.

(69) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 165.

(70) Horsfield, G. and A., Op. Cit., 1938 - 1939, p. 115.

(71) Ibid., p. 99.

(72) Parr, P., Découvertes récentes au sanctuaire du Qasr à Pétra, I, Compte-rendu des dernières fouilles , Syria, XLV, 1968, pp. 1-24.

(73) Starcky, J., Nouvelles stèles funéraires a Pétra, ADAJ, 10, 1965, pp. 43-49, pls. 21-22.

(74) Starcky, J., Pétra et la Nabatene, Dictionnaire de La Bible, 7, Paris, 1966, col. 898.

(75) Starcky, J., Op. Cit., 1965, pp. 43-49.

(76) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, p. 115.

(77) Negev, A., Op. Cit., 1971, p. 115.

(78) Villeneuve, F. et Al-Muheisen, Z., Fouilles à Khirbet edh Dharih (Jordanic), 1984-1987: Un village, son sancturire et sa nécropole aux époques nabatéenne et romaine (Ier-IVème siecles ap. J. - C.), Comptesrendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris, 1988, pp. 458-479.

المحيسن وزيدون، وڤيب نيڤ، فرانسوا. خربة الذريح : موقع ثبطي في وادي اللعبان، حولية دائرة الآثار العامة، ٣٤، عمان، ١٩٩٠، ص ٥-١٧.

(79) Negev, A., abatean Archaeology Today, New York, 1986, p. 93.

(80) Tarrier, D., Les Installation de banquet a Petra, RB, 93, 1986, pp. 254-256. p.1.46.

(81)Negev, A., Op. Cit., 1971, pp. 111-114.

(82) Strabo, Geography, XVI, 4, 26.

Starcky, J., Op. Cit. 1966, col. 939.

(83) Negev, A., Op. Cit., 1971, p. 119.

(84) Negev, A., Op. Cit., 1971, p. 77.

(86) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, pp. 140-141.

(87) Glueck, N., Deities and Dolphins. The Story of the Nabateans. New York, 1965, p. 242.

(88) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, p. 141.

(89) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 123.

(90) Wright, G.H.R., The Khazne at Petra ; A Review, ADAJ, 6-7, 1962, pp. 24-54.

(91) Ibid, p. 35.

(92) Browning, I., Op. Cit., 1982, p. 188.

(93) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, p. 160.

(94) Ibid., pp. 160-161.

(95) Tarrier, D., Les Triclinia nabatéene dans la perspective des installations de banquet du Proche-Orient. Thèse Université de Paris I. Paris, 1988, p. 64 and 151.

(96) Mckenzie, J., Op. Cit., 1990, p. 93 and 155.

(97) Will, E., Op. Cit., 1980-81, pp. 44-50.

(98) Ibid., p. 151.

(99) Conder, C., The Survey of Eastern Palestine I, London,

1889, p. 78.

(100) Will, E., Op. Cit. 1980-81, p. 152.

(101) Ibid, p. 152.

(102) Ibid, p. 152.

(١٠٣) نيف، فرانسوا، «عراق الأمير»، الهيئة المشاركة الفرنسية للآثار، المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى، عمان، ١٩٨٤، ص ٩

(104) Dentzer, J., Villeneuve, F. and Larche, F., "The Monumental Gateway and the princely Estate of Aeaq el-Emir"m The Excavations at Araq el-Emir, Vol. 1, AASOR, 47-48, 1980-81, pp. 132-146.

(105) Ibid, p. 137.

(106) Ibid., p. 138.

(107) Ibid., pp. 147-148.

(108) Groot, J., "Wall Decoration), The Excavations at Araq el-Emir, vol. I, AASOR, 47-48, 1980-81, pp. 76-77.

(109) Dentzer, J., Op. Cit., 1980-81, p. 147.

(110) Pritchard, J., Op.Cit., 1985, P. 69.

(111) Ibid., P. 69.

(112) Ibid., p. 70.

(113) Ibid., p. 70.

(114) Ibid., p. 71.

(115)Smith,R.H.McNicoll, A.W. and Hennessy,J.B.,"The1981 Season at Pella of the Decapolis", BASOR, 243, 181, p. 7.

(116) Ibid, p. 7-8.

(117) Ibid, p. 8.

(118) Smith, R.H., Op. Cit. 1983. p. 71.

(119) Ibid., pp. 71-72.

(120) Ibid, p. 71.

(121) Ibid, p. 71-73.

(122) Ibid, p. 73-74.

(123) Al-Muheisen, Z., "L'archéologie de la période hellénistique dans le Nord de la Jordanie : Problèmes et perspectives", TRANS, 8, Paris, 1994, pp. 29-34, pls. I-V.

لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر :

Al-Muheisen. Z., "Yasileh, A New site in Northern Jordan", ADAJ, XXXV, Amman, 1991, pp. 341-346.

Tarrier, D. and Al-Muheisen, Z., "La Nécropole de Yasileh et les Tombeaux du Nord de la Jordanie", ARAM, Vol. 4, No. 1-2, 1992, Oxford, pp. 229-244.

(124) Yassine, Kh., "Tell el -Mazar, Field I. Preminary Report of Area G", ADAJ, 27, Amman, 1983. p. 501.

(125) Ibid., p. 498.

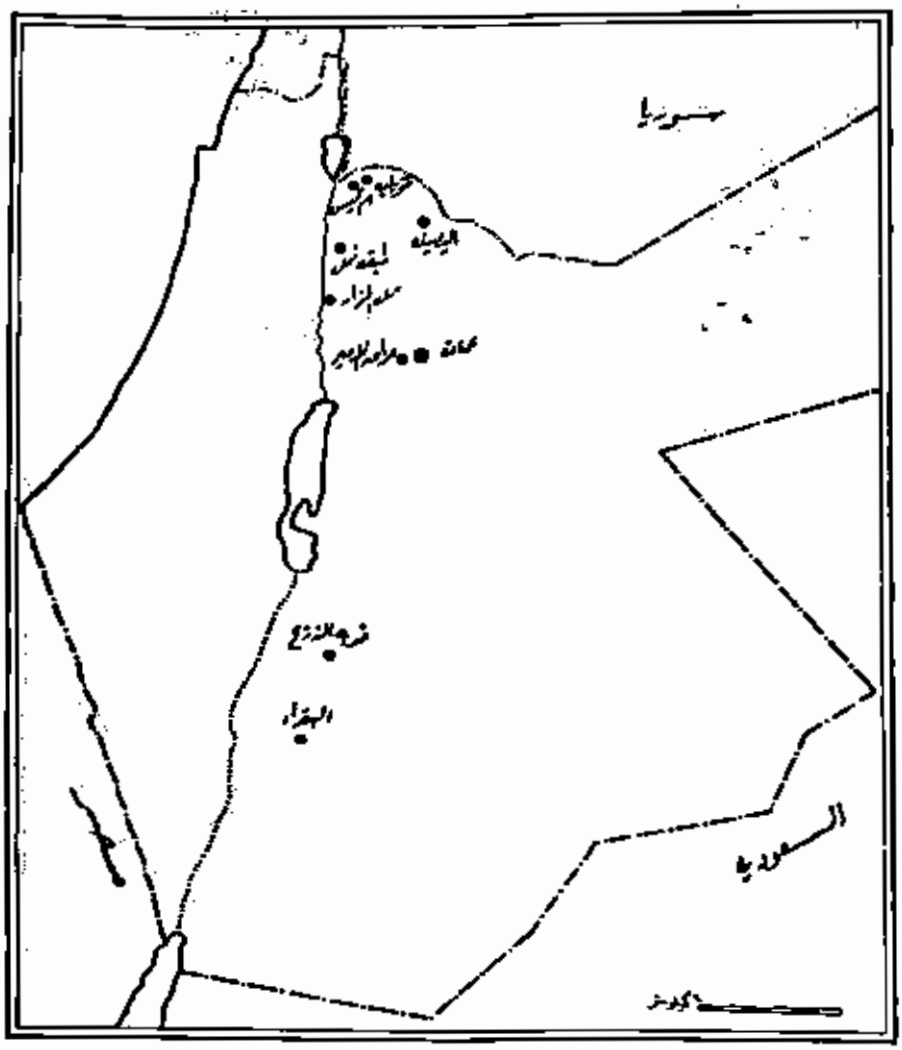

(خارطة رقم ١) المواقع الهلنستية البارزة في الأردن.

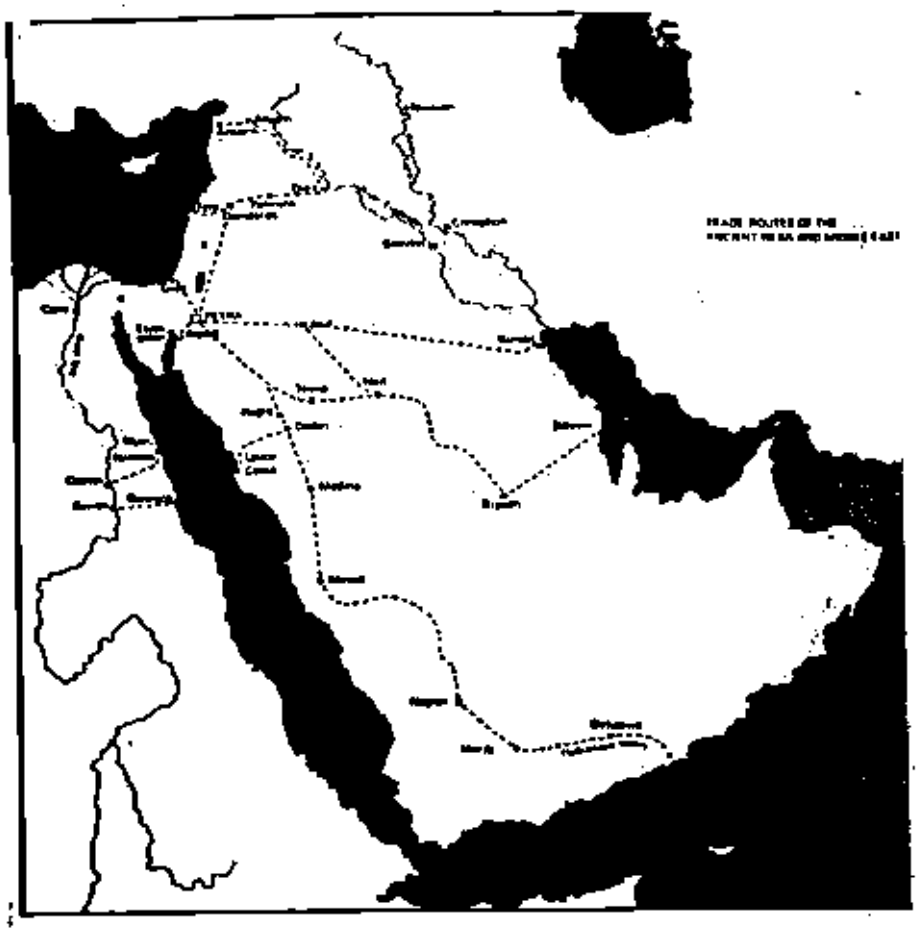

(خارطة رقم ٢) موقع البتراء الإستراتيجي على طرق القوافل التجارية.

(I.Browning, Petra, 1982, p.14)

(مخطط رقم ١)　　مخطط لمدينة البتراء

(Le monde de la Bible, 14, 1980, p.49)

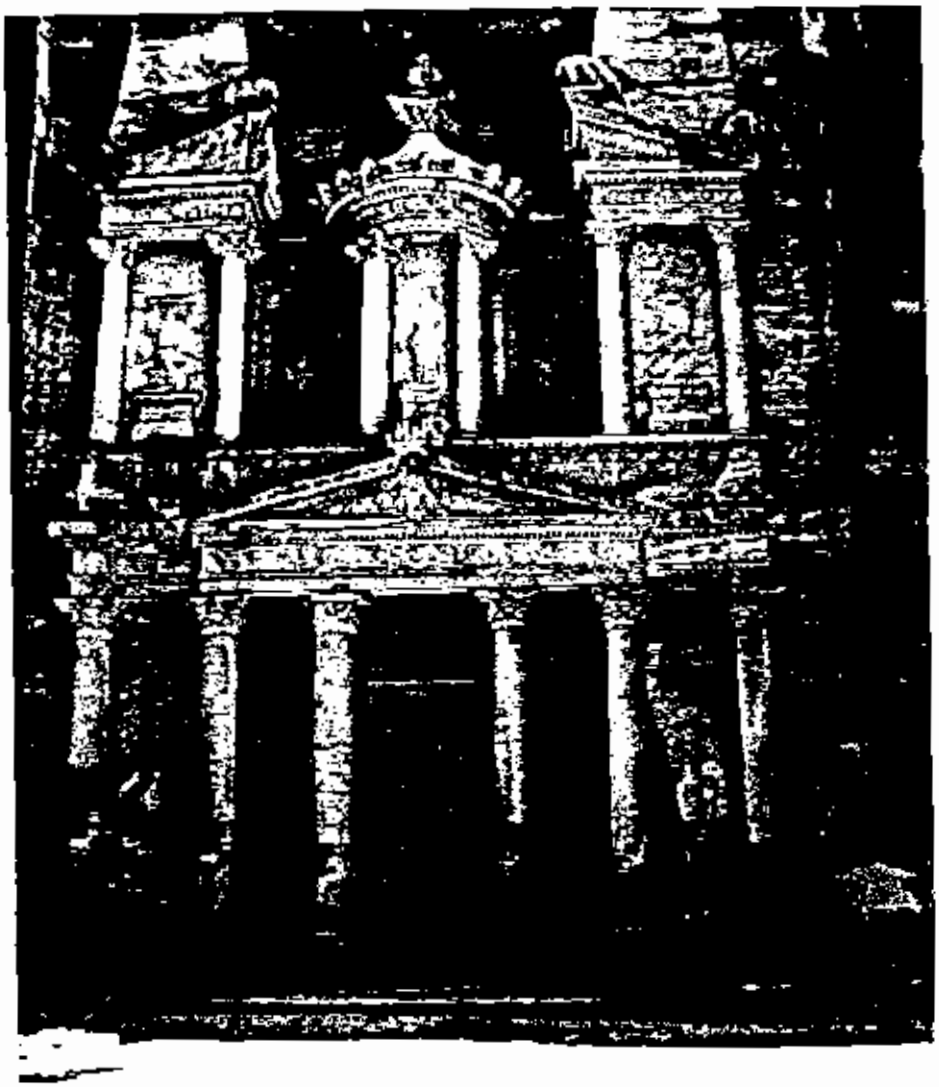

(صورة رقم ١) الخزنة أهم المدافن النبطية في البتراء

(صورة رقم ٢) الدير المضافة (تركلنيوم) الرئيسية في البتراء.

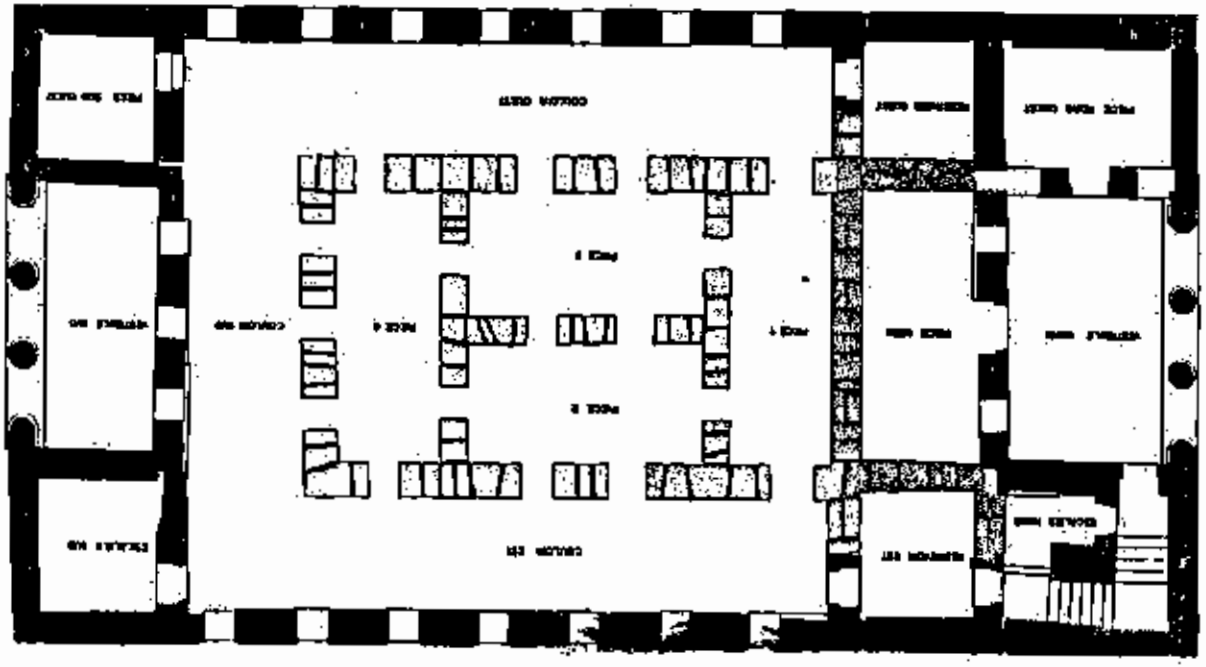

(مخطط رقم ٢) يوضح المعالم المعمارية في قصر العبد في عراق الامير.

(E.Will and F.Larché, 1991, pl.8)

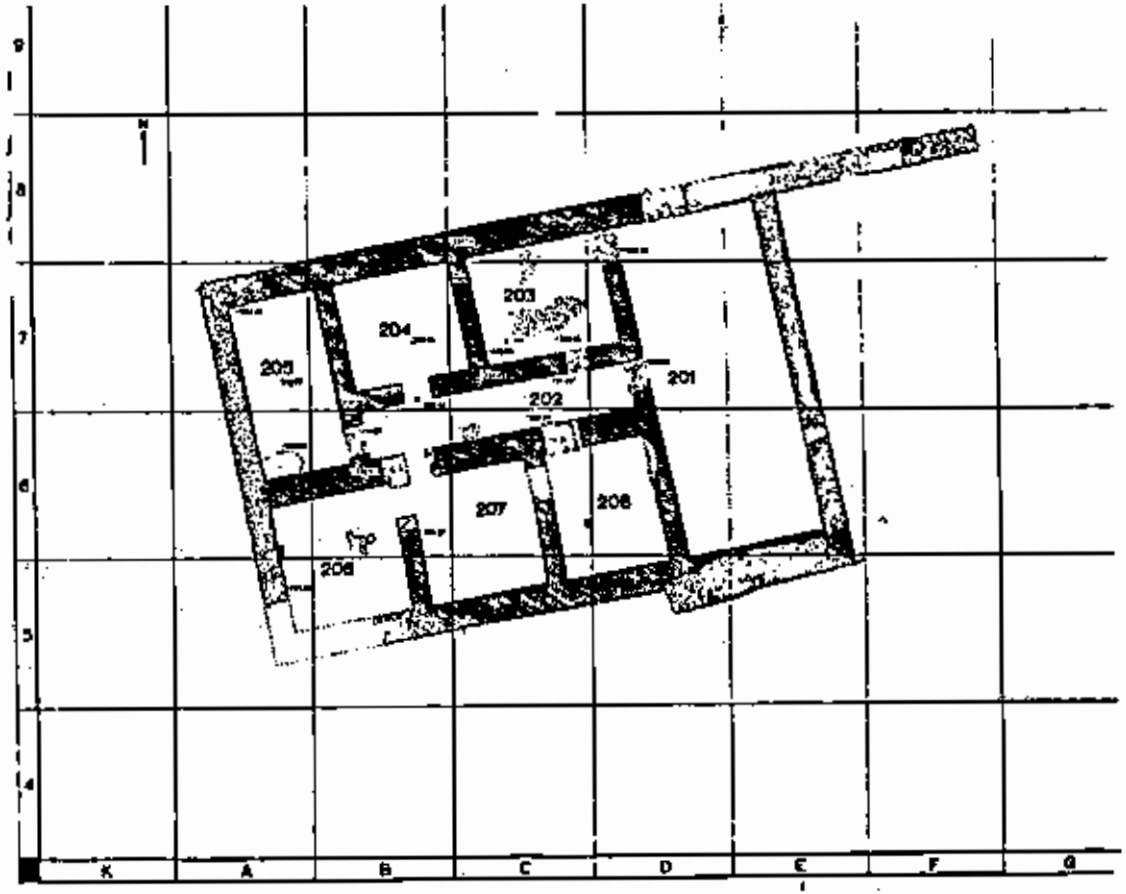

(مخطط رقم ٣) مخطط يوضح المبنى الهلنستي في تل السعيدية.

(Pritchard, 1985: Fig.149)

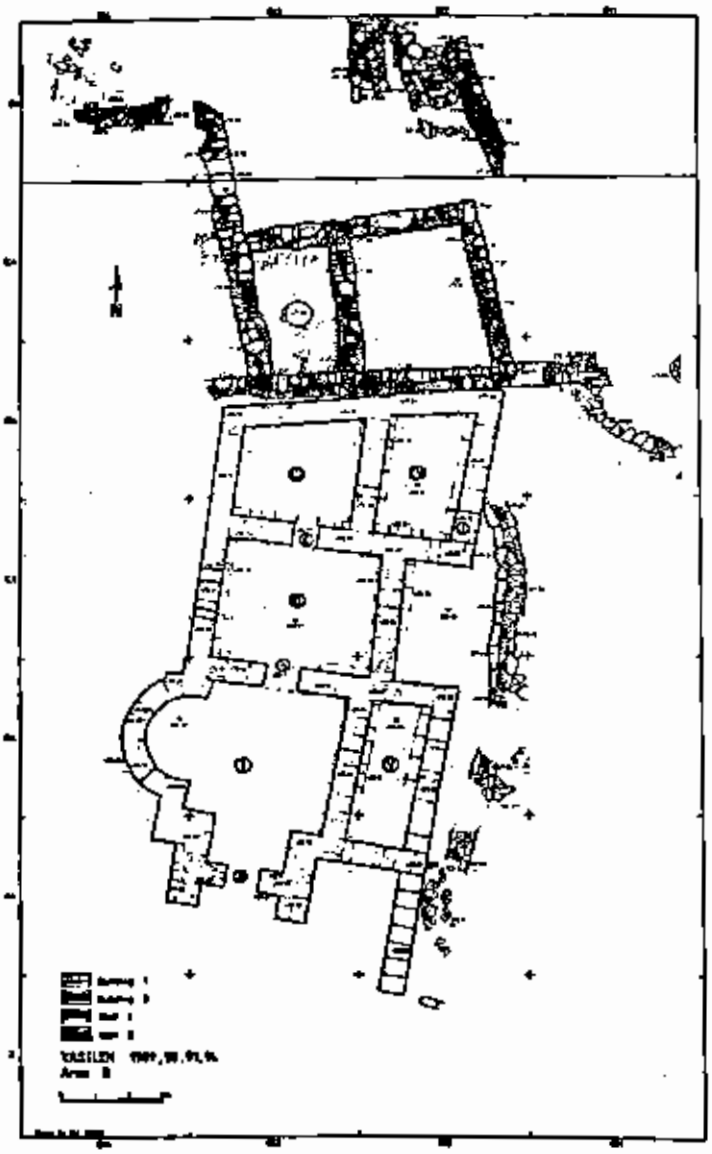

(مخطط رقم ٤) مخطط يوضح المبنى الهلنسي في موقع البصيلة الأ

The Granite Head of Alexander the Great in the Graeco-Roman Museum in Alexandria

13.Pollit, J.J. *Art in the Hellenistic Age*". Cambidge, 1986 .

14.Poulsen, F. *"Greek and Roman Portraits"*. Oxford, 1923.

15.Richter, G. *"Greek sculpture"*. Oxford, 1951

16.Ridgway, B.S. *"Hellenistic sculpture"*, U.S.A. 1990 .

17.Rostvtzeff, M, *"Social and Ecnomic History of the Hellenistic world"*, Oxford, 1941 .

18.Schreiber, Th., *"Studien uber das Bildniss Alexanders des Grossen"*, leipzig, 1903 .

19.Suhr, E.G., *"Sculptured Portraits of Greek statesmen"*, London, 1931 .

20.Tarn, W.W, *"Alexander the Great"*, Cambidge, 1951 .

21.Thomposon, D.P., *"Ptalemaic Oinochoai and Portraits in faience"*, Oxford, 1973 .

22.Plutarch, *"De Alexandri Magni fortuna out virtute"*, II. 2,3 .

LIST OF REFERENCES

1. Abbadi, M., *"Egypt from Alexander the Great to the Arab comquest"*, Alexandria, 1992 .
2. Bieber, M, *"The Sculpture of the Hellenistic Age"*,New york, 1955 .
3. Bothmer, B.V., *"Egyptian Sculpture of the Late Period"*, Brooklyn Museum, 1960 .
4. Breccia, Ev., *"Alexandria ad Aegyptum"*, Bergame, 1922.
5. Delberuck, R., *"Antike Portrats"*, Bonne, 1912 .
6. Hinks, R.P. *"Greek and Roman Portraits sculpture"*, London, 1935 .
7. Hogarth, D.G., *"Alexander in Egypt and some consequences"*Journal of Egyptian Archaeology, II, London, 1915 .
8. Jaequier, L, *"Les Temples Ptolemaique et Romaines"*, Paris, 1924 .
9. Lawrence, A.W., *"Greek sculpture in Ptolemaic Egypt"*, Journal of Egyptian Archaeology, XI, 1925.
10. Leimbach, R., *"Plutarch uber das Aussehen Alexanders des Grossen"*, Archaologischer Anzeiger, 1979.
11. Noshy, I, *"The Arts of Ptolemaic Egypt"*. oxford, 1937

proportioned bodies, wide but not staring eyes, protruding but faintly smiling lips and careful modelling.

cf: Noshy, op. cit. p. 118 .

36- Abbadi, M., *"Egypt from Alexander the great to the Arab conquest"*, Alexandria, 1992, p. 74 .

37- Thompson, D.P., *"Ptolemaic Oinochoai and Portraits in Faience"*, oxford, 1973, p. 117 .

38- Idem, op. cit. loc. cit .

39- Idem, op. cit., p. 120 .

40- Bothemer, op. cit. p. 132 .

22- Many heads represented Alexander with short hair emphasizing that those images are of undevinized hero.

23- Ridgway, op. cit. p. 133 .

24- Ridgway, op. cit. p. 114 .

- After his conquest of Persia, Alexander followed that persian costum more or Alexander might wanted to remain the youthful hero like Achilles.

25- Schreiber, op. cit. p. 56 .

26- Breccia, op. cit. p 176 .

27- Noshy, I, *"The Arts of Ptolemaic Egypt"*, Oxford, 1937, p. 117, pL. Xv, 4 .

28- Breccia, op. cit. p. 184 .

29- Bothmer, B.V., *"Egyptian sculpture of the late period"*, Brooklyn Museum, 1960, PL. 96 figs. 257, 258 .

30- Idem, op. cit. pp. 131, 132 .

31- Breccia, op. cit. p. 176 .

32- Idem, op. cit. pp 184, 185 .

33- Bothmer, op. cit. pp. 131, 132 .

34- Jaquier, L. *"Les temples Ptolemaique et Romaines"*, Paris, 1924, III, PL. XIV, 1-3 .

35- Jacquier, op. cit., PL XXIII nos 1,2, PL, L1

- The faces were not so heavy, the eyes not so narrow. The reliefs are marked by full not heavy faces, long but

12- Ridgway, B.S, *"Helleistic sculpture"* U.S.A. 1990, pp. 123, 135 .

- Pollit, op. cit. fig. 7 .

13- Suhr, op. cit, p. 76

- Pollit, op.cit, p.56 .

14- Suhr, op.cit, p.67 .

15- Idem, op. cit. loc. cit .

16- Hogarth, op. cit. p. 54 .

17- Tarn, W.W., *"Alexander the Great"* Cambridge, 1950, p. 43 .

18- Lawrence, A.W. *" Greek Sculpture in Ptolemaic Egypt"* in , J.E.A; XI, 1925, p. 181 .

- Like the head from Alexandria in a poor shape and of inferior material of which the outline and the upward gaze of the eyes agree more with another head now in the British Museum with its seemingly dreamy pathos and the deep set eyes and the manner in which the lips are represented.

cf : Schreiber, op, cit fig. 6, Ph. II D.

19- Tarn, op.cit. p. 43 .

20- Hinks, R.P., *"Greek and Roman Portrait sculpture"* , London, 1935, fig. 15 .

21- Pollitt, op. cit. p. 37 .

BIBLIOGRAPHIE

1- Hogarth, D.G, *"Alexander in Egypt and some consequences"*, J.E.A, vol. II, London, 1915, p 52 .

2- Rostovtzeff, M, *"Social and Economic History of the Hellenistic World"*, Oxford, 1941, p. 129 .

3- Rostovtzeff, op. cit. p. 256 .

4- Pollit, J.J, *"Art in the Hellenistic Age"*, Cambridge, 1986, p. 250 .

5- Pollit, op. cit. p 20 .

6- Plutarch, De Alexandri Magni Fortuna aut virtute, II,2,3 .

- Leimbach, R., *"Plutarch uber das Aussehen Alexanders des Grossen"*, AA, 1979, pp. 213-220 .

7- Schreiber, Th., *"Studien uber das Bildniss Alexanderes des Grossen"*, leipzing, 1903, pp. 9ff .

8- Schreiber, op. cit., pp. 14-15

9- Idem, op.cit. p. 16 .

- Breccia, Ev, *"Alexanderia ad Aegyptum"*, Bergamo, 1992, p. 176 .

10- Suhr, E.G., *"Sculptured portraits of Greek statesmen"*, London 1931, p. 70 .

- Schreiber, op,cit. p. 16 .

11- Schreiber, op. cit. p. 12 .

In summary, the granite head of Alexander here in spite of the representation of all the characteristics of Lysippan style but the material and the attribute follows the Egyptian inspiration. So, the head was made by a native Egyptian sculptor, from those, the greek esidents often patronised but they continued to work in the old Egyptian style though greek influence is evident.(40) And it is dated to the early third century B.C.

It is therefore obvious that the mixed sculpture in ptolemaic art is the result of both the mixed society and the ability of the artisit to acclimatize himself to the atmosphere in which he was working in and not at all the result of fusing of the two civilizations together.

the artistic point of view, the awaking of the Egyptian artistic spirit.

2- Historically speaking the chance was given to the Egyptian art to revive after the victory in the Battle of Raphia 217 B.C du to the efforts of the Egyptians and the ptolemies conciliated the Egyptians.(36) Then the assimilation of Hellenic and native art began.

3- An excellent proof of the power of the native Egyptian elements in the Ptolemaic art is the significant production of faience vases called Queen Oinochoai dated to the early third century B.C.(37) They were designed for the festivals founded in rder to honour living or dead ptolemaic rulers and we know a good deal about the first of these festivals in Egypt, the Arsinoeia.(38) The Queen Oinchoai are clearly reflecting various degrees of Egyptianization from vessel to vessel especially in representing the queen in dress of Isis, (39) the candid flavour of the queen's portrait, the type of the alter represented, all those elements came frome Egyptian traditions to confirim the new status which the Egyptianizing tendency took place in the ptolemaic art in the early 3rd century B.C.

royal headcoth, the inlay of eyes and the uraeus to confirim the Egyptianizing touch of the work.(30)

4- It is most probably that it is the uraeus because the mative sculptor would prefere to execute his work in accordance with the mative canon.

The Egyptian flavor is also obvious in inlaying eyes in the granite head of Alexander in the Graeco-Roman Museum in Alexandria(31) and that was not common in Greek art. What was inlaid here disappeared and we see nothing but the hollows but depending on other examples as in the heads representing Ptolemy IV, ptolemy V, and ptolemy VI in the Graeco-Roman Museum(32) and as in the royal hellenistic heads from News Haven.(33) Depending on such example one can assume that using inlaids for eyes became so related to the Egyptianizing touch in mixed sculpture in Hellenistic Egypt.

Concerning the date of the granite head of Alexander in the Graeco-Roman Museum in Alexandria, I can date it to the early third century B.C depending on the following facts :-

1- It is agreed that there was a revival of Egyptian art since Philopator due to the policy adopted by the ptolemies in the reign of that ptolemy as it is obvious in the reliefs of Ptolemy IV(34) and those of ptolemy VI(35) reflecting, from

Alexander.[23] But in all the protraits of Alexander both those with short hair and those with long hair. Alexander looks young because of the absence of a beard.[24]

Anyhow, on the top of the granite head here there is a large hole which must have been used to fit an ornament attached to the diadem. Some scholars claimed that it would be Ammon crown,[25] others claimed to be the uraeus.[26] But I myself accept that it would be the uraeus for the following reasons :-

1- There is a relief on the wall of a new sanctuary built in the temple of luxor to the honour of Alexander after proclaiming himself as a son of Ammon, there, Alexander is represented as an Egyptian Pharao wearing double crown over a royale headdress with uraeus.[27]

2- There is a colossal head in red granite of Ptolemy V Philopatr in the Graeco-Roman Museum in Alexandria, the Ptolemy wears in the pharaonic manner the double crown of upper and lower Egypt with the uraeus.[28]

3- There is a Hellenistic royal head dated to about 250-200 B.C in the Museum of Natural History in New Haven[29] and was made by a native Egyptian sculptor as it is made in Egyptian material (Schist) and in that royal head are the

features of the lysippan style, mentioned by Plutarch, are obvious :-

a) Turn of the neck,

b) The expressive glance, pathos, from the deep-set eyes,

c) The anastole over the forehead and waving side hair about the cheeks.

It is obvious that the sculptor neglected many details of the impressionist technique but we must bear in mind that head does not claim to be a portrait but it is treated in a Lysippic manner to represent the deified hero, Alexander.

It is worthy mentioning here that not long before his death, Alexander gave an official notice that he was to be regareded as a god as he was declared as the son of Ammon.(19) Hence, Alexander appeared on the coins with ram's hom of the Graeco-Egyptian God Zeus-Ammon.(20) Comperatively, many images of Alexander on different monuments such as Alexander sarcophagus and the famous Alexander mosaics gave the proof that, in his lifetime Alexander was represented with short hair.(21) One can affirim that the images of Alexander with short hair representing him as an undevini hero and leader(22) while those with long mane of hair were expressing the spirit of the devinized

which his association was already strong after his visit to the Ammunium at siwa, and the priest greeted him as son of Ammon.(17)

In Egypt, many heads of Alexander are found and collected by Schreiber in his *"Bildniss Alexanders"*, as a matter of fact, those works are usually poor and have not the modelling of the first class work but the softness of the technique glozes over its imperfection.(18)

I am focusing on a granite head of Alexander the Great in the Graeco-Roman Museum in Alexandria. Although Schreiber mentioned it among many heads from Alexandria but it had not been studied before in a complete study. The granite material of which the head is made, as it is common in Egyptian sculpture as it is foreign in Greek sculpture, So, it is assumed that a native sculptor made it giving a striking example of the assimilation of Hellenic and native art in ptolemaic art. The head was found in Alexandria, perhaps one intended for the sanctuary of Alexander in the city.

And because a native sculptor made the granite head, it does not help us much in visualizing the expression of the original Lysippan portrait of Alexander, although the typical

scholares considered that αναστολη is a borrowed feature from some one of the divinities most probably from a zeus type.(10)

c) The face is well-rounded and the half-open-eyes with a melting glance.(11) as in the most famous example named *"Azara Herme"*(12)

In other words and according to Plutarch's description, Lysippos was the only greek artist who had the ability to capture the Εθος of Alexander and made stress on Alexander's ethos more than his political position establishing the tendency of the psychological portraits in Hellenistic time and the main interest was given to the expression of Alexander's face and noble,(13) not to his physical features.

Hence, the Lysippan portraits of Alexander explained the greek point of view in emphasizing the idea of representing Alexander as a divinely hero(14) and that the general conception seems to have impressed itself so strongly upon the mind of the public,(15) because of the wide-spread use of the type after Alexander's death.(16) So, after his death Alexander 's portraits were perpetuated with reverence and circulated even more widely than it had heen during his lifetime, because he became a kind of patron deity especially in Egypt with

had both Alexandrian and pharaonic traditions. The thoroughness of that stylistic duality is particularly well documented in the ptolemaic royal portraiture.(4)

The concept of ruler portraiture was certainly encourged by Alexander himself. It is well known that, in his lifetime, Alexander decreed that only the famous sculptor Lysippos should make his portraits, for it seems that only Lysippos brought out his real noble character and gave from to his essential excellence.(5) Our information regarding Lysippos' style is derived from ancient witers mainely from Plutarch,(6) the roman author who mentioned satisfactory detailed descriptions, due to which many portraits of Alexander were easily recognizable.(7)

The passage of Plutarch was discussed and over-emphasized by many authors of a later period especially Schreiber. So, accordingly, the characteristics of Alexander's image are :-

a) The neck, was turned to the left and thus the head would necessarily be inclined to the right,(8)
b) The longmane of hair over the forehead, αναστολη Της Κομης,(9) with a parting line which divides it into two halves with rising locks on either side of the head. Many

A Granite Head
of Alexander the Great from Alexandria

By
Dr. Bahia Shabie

Alexander the Great, when he came to Egypt in the autumn of the year 332 B.C and founded the city of Alexandria, in fact, he started a romance which went over the world through many centuries.(1)

Alexander's principal aim was the political unification under a single rule, since it was not his intention that Macedonians and Greeks should be sole masters, they were to share the dominion with the former rulers of the East.(2) Therefore, the essential characteristic of the hellenistic city was cosmopolitanisem. Alexandria, as a cosmopolitan Hellenistic city, its population was as mixed as possible: Greek and Macedonian elit which followed the Greek cultural traditions, Egyptian population that lived very much as it had thousands of years earlier forming the main body of the population and a large Jewish colony.(3) Thus, a greek superstructure had to be built in ptolemaic Egypt. But from the artistic point of view, there is a realy unique character about the art in Hellenistic Egypt, that is its split personality which

A GRANITE HEAD OF ALEXANDER THE GREAT FROM ALEXANDRIA

By

Dr. *Baheia Shahin*

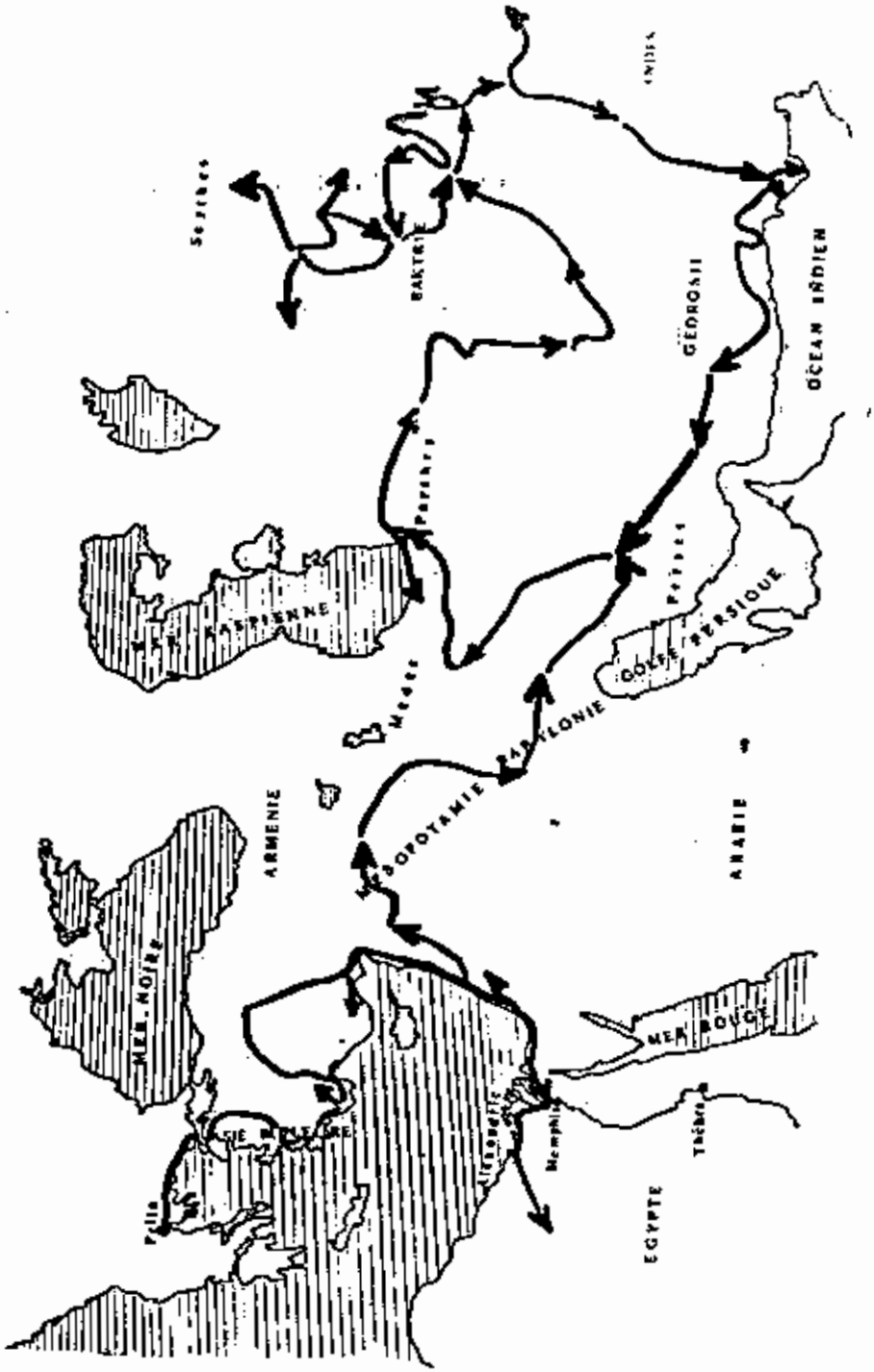
Scythes
BAKTRIE
GÉDROSIE
OCÉAN INDIEN
Perses
MER KASPIENNE
Perses
GOLFE PERSIQUE
Medes
BABYLONIE
MÉSOPOTAMIE
ARMENIE
ARABIE
MER NOIRE
MER ROUGE
Memphis
Thèbes
EGYPTE
Pella

Selection de bibliographie

ΡΡΙΑΝΟΥ. Αλεξάνδρου Ανάβασις, βιβλία Α΄. Εκδοση Αρχηγείου Ενόπλων Δυνάμεων Μεριμνα ΔΕΚ. ΑΣ., Αθήναι 1970.

ΙΟΔΩΡΟΥ ΣΙΚΕΛΙΩΤΟΥ Βιβλιοθηκη ΙΣΤ ΙΖ.

ΑΥΣΑΝΙΟΥ, Ελλάδος Περιήγησις

ΛΟΥΤΑΡΧΟΥ, Περί της Αλεξάνδρου τύχης ή Αρετής, Βιβλία Α-Β. Βίοι Παράλληλοι (Αλέξανδρος - Ιούλιος Καίσαρ)

ΤΟΡΙΑ ΕΛΛΗΝΙΚΟΥ ΕΘΝΟΥΣ, τ.Δ' Εκδοτική Αθηνών. Αθήνα 1973.

ΡΟΒΑΤΑΚΗΣ Μ., Μακεδονία Μέγας Αλέξανδρος, Ελληνική Εθνική αμμή.

ΛΟΥΡΔΑΣ Β., Η προσωπικότης του Μ. Αλεξάνδρου κατά τον Αρριανό, δοση Εταιρείας Μακεδονικών Σπουδών, Θεσσαλονίκη,1971.

ΙΥΡΟΜΗΛΙΟΣ Μ., Ο Μέγας Αλέξανδρος στις Ινδίες, Αθήναι 1927.

ΡΑΛΗ Λ., Περιβαλλοντική Αρχαιολογία, Πανεπιστημιακές ειώσεις, Αθήνα 1990.

une forme nouvelle grace a la realisation d' une carte maritime selon les instructions d Alexandre Theophraste le fondateur de la botanique s est appuye sur les donnees enregistrees sur l' Asie orientale, versees aux archives de Babylone pour developper cette science.

Alexandre respectait dans chaque pays conquis. l'environnement, le savoir, les moeurs et a ainsi ouvert largement les portes du monde asiatique sur la culture grecque occidentale.

De ces observations, il resort combien l' etude des restes de vegetaux, D'animaux ou autres receuillis sur la fouille est pour le chercheur actuel un moyen d'etude scientifique pour la reconstitution du paleoenvironnement.

Dr. Liliane Karali-Yannakopoulou
Professeur Assistant, Universite d' Athenes
Archeologie d' Envoronnement
Cite Universitaire
Faculte d Archeologie
Illisia 15784 Athènes
Grece

Le progres remarquable de l' agriculture de la periode qui suit est le resultat des nouvelles counaissances acquises et de leur aplication a la production.

F. Anthrologie sociale et physique

Alexandre connaissant la capacite de l' homme a s' adapter a son environement naturel et social, il s' est oriente vers l' application de l' idee suivante. Il installe des groupes humains, comme des noyaux, dans des ecosysteme tres varies. Il a accepte en avance le mode de vie des indigenes comme le mieux adapte aux circonstances environnementals immediates.Les survivances des traits anthropologiques et culturels characteristiques des soldats d' Alexandre le Grand sont observables actuellement sur certains groupes humains qui vivent au centre de l' Asie.

Epilogue

. Le concentration d' un tel nombre de connaissances en un si bref delai represente une phenomene unique de l' Antiquite et ces acquisitions on consistute une source inestimable qui a amene des changements considerables au niveau scientifique. La geographie. en particulier prit

d'allaitement). [1] Il decrit aussi le singe et le tigre, en vantant sa rapidite et sa force. Nearchos decrit certaines de serpents, et pour la premiere fois la baleine et l'utilisation de ses os à la construction des huttes. Le perroquet est decrit comme un oiseau magique, qui peut immiter la Voix humaine.

E. La flore

Plusieurs especes botaniques sont decrites par Aristoboule et Arriane. Dans le desert de Gedrosie poussent des myrrhes d' une taille exceptionelle et les racines des nars parfument l' air. Parmi d' autres especes un arbuste ressemblant au laurrier a des fleurs-blanches semblables a celles des violettes. Theophraste raconte (VIII 11,6) la duree de conservation des grains de cereales en Iran, et aussi pousses en Egypte et en Euphrate, comment se fait la recolte du ble a Babylone, comment a ete effectuee la fameuse plantation d' arbres faites par Arpalos et enfin il decrit les plantes des Indes. (IV, V)

Ces nouvelles connaissances concernent aussi des phenomenes naturels. Par exemple le flux et le reflux de la maree a l' embouchure de l' Indus a fait que le flot d' Alexandre s' est trouve subitement en terre et de nouveau dans la mer.

A l' occasion du periple de Nearchos, Arriane decrit en detail la morphologie des cotes, la direction du vent, les particularites du fond de la mer, la formation des ports des iles ect.

Des observations d' astronomie sont egalement presentes. Nearchos rapporte qu' au periple des Indes la direction de l' ombre n' etait pas la meme au sud qu' au nord. Certaines etoiles connues n' etaient pas visibles, tandis que d' autres qui etaient tout le temps visibles se levaient et se couchaient.

D. La faune

La faune des nouveaux pays suscite un grand interet aux soldats de l'armee mais aussi aux habitants de la Grece. L'elephant est l'animal le plus impressionant et Arriane procure des details sur sa physiologie, a l'occasion d'une chasse d'elephants (la periode de reproduction, le nombre de petits et la duree

L' expedition d' Alexandre a constitue une source d' informations scientifiques sur les dimensions et les characteristiques de fleuves des Indes.

C. Phenomenes naturels, climatologie

La climatologie interesse egalement les savants qui accompagnent Alexandre. Leus rapports sur le climate des pays occupes constituent une bonne base de reference. Arriane decrit les causes pour lequelles les fleuves des Indes debordent en ete, innondant les plaines: les fortes precipitations estivales sur les montagnes. A la suite de cette observation il deduit que la meme cause provoque l' innondation de la basse Egypte par les eaux du Nile. De fortes precipitations sur les montagnes d' Ethiopie doivent etre la cause du phenomene. Cette comparaison conduit a une conclusion generale sur l' ecosysteme, la faune et la flore des Indes, de l' Egypte et de l' Ethiopie. On rencontre les memes especes de poissons, les crocodiles etc.

(1) "ἡ δε των ελεφάντων θήρα ουδέν τι αλλη έοικεν, ότι και ταύτα τα θηρία ουδαμοίσιν άλλοισι θηρίοις επέοικεν".(Αρριανός, Ινδική, 13)

Preuve de l' importance qu'il accorde a l'aspect culturel de son oeuvre est le fait qu' il s' est occupe souvent a l' amelioration du terrain des pays conquis. Comme au cas du fleuve Pollakopa en Asie. Ce fleuve etait principalement alimente par les eaux d' Euphrate et il approvisionnait en eau l' Assyrie. (1) Alexandre a decide la diversion des eaux du Pollakopa pour eviter leur drainage par les terrains boueux qu'il traversait auparavant.

Il s' interessait a connaitre tous les pays lointains. A ce but il envoyait specialement des explorateurs pour verifier toute information. Il a appris par Archias, qui a voyage en bateau jusqu' a l' embouchure d' Euphrate, l' existence de deux iles. L' une etait petite, boisee, pleine de chevres sauvages et de cerfs. L' autre etait distante de l' embouchre de l' Euphrate, d' un jour et d' une unit, plus grande, sans bois, plate avec des arbres fruitiers. Il a appele la premiere ile IKAROS et la deuxieme TYLOS.

(1) "Ταύτα απαγγελθέντα επήγαγεν Αλέξανδρον ωφελήσαι τι την χώραν την Ασσυρίαν" (Αρριανός)

B. Mission Scientifique

On dit qu'Alexandre Pensait contourner l'Arabie,[2] l'Ethiopie, la Libye, les nomades et arriver encore plus loin. Ayant toujours le premier mot pour tout-projet, il veut tout savoir : si l'embouchure de l'Indus est large ou sont les sources du Nile. Il a meme essaye de calculer les distances d'un pays a l'autre en comptant les pas des personnes designecs a cette tache.

La preuve la plus significative de son desir d'observer, d'etudier, de decouvrir est d'avoir choisi la localite et d'avoir fait soi-meme le plan de la ville d' Alexandrie.[3] Le choix du site pour la fondation de la ville n'est aucunement laisse au hasard; c'est l'endroit ideal sur le plan strategique, geographique, du climat et l'environnement.

(2) "Εκπεμφθείς επί κατασκοπήν του παράπλου ως επί τους Άραβας ..."
(3) "Κρίνας δ' εν ταύτη πόλιν μεγάλην κτίσαι προσέταξε τοις επί την επιμέλειαν ταύτην καταλουσαμένοις ανα μέσον της τε λίμνης και της θαλάσσης οικίσαι την πόλιν ... ευστιχία δε της ρυμοτομίας ποιήσας διαπνείσθαι την πόλιν τοις ετησίοις ανέμοις και των πνεόντων μεν δια του μεγίστου πελάγους, καταψυχόντων δε τον κατά την πόλιν αέρα πολλήν τοις κατοικούσιν ευκρασίαν και υγείαν κατεσκεύασεν ... ανά μέσον γαρ ων μεγάλης λίμνης και θαλάσσης δύο μόνον από της γης έχει προσόδους στενάς και παντελώς ευχυλόκτους." (Διόδωρος Σικελιώτης βιβλ. IZ-LII).

pilosophes. Leur tache est d' observer et d' étudier les plantes, les animaux, la nature des pays ou tout autre phenomene rencontré en chemin et d' enregistrer les observations faites. Le Roi controlait personnellement ces releves et dessins qui etaient ensuite verses aux archives etatiques de Babylone.

A travers cette oeuvre scientifique d' etude de I' environnement et de la nature pointe I' incessante passion du jeune roi pour la decouverte de I' inconnu.

Lorsque, ayant atteint son but, il acheve sa campagne d' Asie et qu' il s'oppose au reffus de ces troupes de le suivre dans d' autres conquetes, il redevient le chercheur scientifique. Sa desicion de ne pas revenir par la meme route qu'il avait empuruntee precedemment mais de confier Nearchos une flotte qui devait revenir par l'Indus et le golfe Persique, montre bien que la recherche et decouverte scientifique etait un de ses objectifs pricipaux.(1)

(1) "Πόθον μεν είναι Αλεξάνδρω εκπεριπλώσαι την θάλασσαν την από Ινδων έστε επι την Περσικήν ..."(Αρρ. Ινδική 20). "Έδοξεν εξερευνικέναι του Νείλου τας αρχάς ..."(Αρρ. 6,1). "Ως απιδείν του ποταμού την εκβολήν την ες την θάλασσαν ..."(Αρρ. ΣΤ, 19). "Ως καταμαθείν, οπή ειπωτέρα η εκβολή του Ινδού ες τον Πόντον γίγνεται ..." (Αρρ. ΣΤ 20).

interet des fouilleurs et des scientifiques interressés á la vie et aux actes de ce Roi á entreprendre des études sur l' environnement.

L' envîronnement dans les textes de la période d' Alexandre

A. Le desir scientifique, motivation pour l' exploration.

L' expédition militaire d' Alexandre le Grand, en dehors de sa signification historique, a énormement contribué a l' ouverture de l' horizon scientifique de l' époque.

Alexandre le grand n' est pas uniquement le roi, chef de guerre dont on vante si souvent les qualités, il est entre autres un explorateur, un geographe, un homme de science, qui s' interresse a la nature a la terre, a la meeer, au ciel, aux hommes: aux animaux et aux plantes. Le fait qu il commence sa campagne entouré non seulement de militaires mais aussi d' importants savants et scientifiques de son epoque prouve sa culture et l' influence exercée sur lui par Aristote. Il ramene des architectes (Deinokrate), des geographes (Aristoboule, Xenocrate, Androsthene), des ingénieurs (Diade de Thessalie et Charias), des historiens, des poétes et des

et les moeurs des groupes humains et méme leur composition phyletique par I' étude des restes anthropologiques. L' application de ces methodes utilisées surtout par I' archéologie de I' environnement sur les restes des civilisations prehistoriques est prouvée étre d' une importance majeure. Les fouilles des périodes historiques, peuvent etre completés avec des études specialisées (étude d' ossements, de coquillages, de grains, de pollens, de charbons, et d' autres restes organiques et inorganiques).

La multitude des textes, parlant de la vie et des exploits d' Alexandre accompagnés par des restes archéologiques de valeur incontestable ont deprivé les endroits par óu il est passé d' une étude environnementale detaillée. Celle-ci était considerée comme insignifiante á coté des monuments, des chefs d' oeuvre et des textes écrits par des erudits. C'est le moment de changer de direction, de reconsiderer la signification du terme archéologie n' étant plus I' étude du beau mais de I' ensemble des trouvailles d' un site, I' étude de I' étre humain á travers histoire.

Cette communication a comme but de susciter I'

liste des especes consummees, et aussi des especes importées, exportées, exotiques, la periode de chasse, de collecte etc. L'alimentation nous aide á comprendre l'environnement immédiat ou lointain. Ainsi arrive-t-on á déduire l' écosysteme, le type de l' environnement et ensuite le type d'économie du groupe concidéré. Ces donnees aident a mieux comprendre l' amitie; l' hostilite et les rapports commerciaux parmi populations differentes.

La matiére premiére des objects et des constructions donnent egalement des renseignements pour leur lieu de provenance et de fabrication. Tel est le cas des ivoires recherches surtout au Moyen Orient. Les objects en ivoire sont souvent travaillés en Gréce dans les ateliers locaux. Ces données aident á mieux comprendre l' amitié, l' hostilité et les rapports commerciaux parmi populations differentes.

L' importance de l' environnement est observable sur le plan du comportement humain, qui est influence par l' intrusion d' habitudes et des pratiques ayant a faire avec un autre ecosysteme (Habit, boisson, stimulant, hallucinant etc). On peut ainsi connaitre le mode de vie

Alexandre Le Grand et l'environnement:une proposition sur les moyens de reconstitution.

Introduction

Les sources principales pour I' etude du paleoenvironnement a la periode chronologique considerée sont des textes bien connus. Pourtant il y a plusieurs cotes encore obscurs qui demandent a etre eclaircis. L'exploitation et le respect de l'environnement comme realite naturelle et aussi comme concept philosophique sont des themes d'etudes inepuisables et de recherches depuis I' antiquite classique.

L'environnement naturel peut etre detecte par les moyens et les methodes scientifiques modernes appliquées actuellement aux restes archeologiques. Le regime alimentaire par exemple d' un groupe humain peut etre connu par I' etude des restes d' animaux, des restes des plantes ou d'autres recueillis sur la fouille. D'ailleurs I' etude typologique est actuellement tellement poussee que l'identification des restes provenant du monde des animaux et des plantes se fait sans hestitation. Les pourcentages sont assez fiables et le resultat tres satisfaisant pour la connaissance de la

Alexandre Le Grand et I'environnement:une proposition sur les moyens de reconstitution.

Prof. Dr. L. Karali
Prof of Environmental Arch.

the delights of rural life are spread out before us, so in the part concerned with amor and Delia no effort is made to remember the rural setting of the first half. Gaisser 1983, p.62 notices that in the description of Tibullus' career as amator (59-74) there is no reference to the theme of the rura. Boyd 1984, p. 227, note that when Tibullus shifts his attention to Delia, he implicitly abandons his farm. But I would like to propose that there is an implicit relationship between love and the countryside in I.1. As I have said (above p.5), the reader is led to project the rural setting of the first part of the poem into the second part.

39- See for example: Cairns 1979, p. 11; Leach 1980, p. 86; Lyne 1980, p. 68; Gaisser 1983, p. 67.

40- Gaisser 1983, p. 72, thinks that Tibullus does not represent himself as essentially or primarily a poet of love.

In Tibullus' First Elegiac Book, Arethusa 13, 1980, pp. 85f., argues that Tibullus' new formula cleverly implies the elegist's determination to prove a more successful lover than his predecessor.

34- "Militia Amoris" is a very Roman motif. Cf. Prof. IV.8; Ov. Am. I.9.

35- Solmsen 1962, p. 305, thinks that I.1 is evidently meant to be the poet's self-introduction to his readers. Leach 1980, p. 84, correctly considers Tibullus I.1, "an ars vivendi which carries ... the weight of a poetic manifesto".

36- Palmer 1977, pp. 6 and 10, most sensilly points out to the fact that Tibullus builds up his poetic world through a subtle mixture of antitheses.

37- Cf.Tib. II.1 and II.3; Theoc. Id. 11. Gaisser 1983, paaim., traces the relationship between amor, rura and militia in I.1, I.5 and I.10. He establishes the importance of this relationship for Tibullan elegy as a whole.

38- Scholars stress the point that love and the countryside are completely separate in I.1. Solmsen 1962, p. 305, points out that just as Delia is not mentioned as long as

26 - See: Sellar 1892, P.234; Solmsen 1962, P.305; J.H. Gaisser, Amor, Rura and Militia in Three Elegies of Tibullus: I.1, I.5 and I.10, Latomus 42, 1983, P. 62.

27 - Notice that the "paraclausithyron" (i.e. the lament of a lover in front of the closed door) in Theoc. Id. 3 has a rustic setting.

28 - Delia is Tibullus' girl-friend who dominates the first book of his Elegies.

29 - Comparer the importance given to Propertius' Cynthia in the first poem of the first book.

30 - Tibullus wishes that hope would not disappoint him: (nec Spes destituat, 17).

31 - Cf. Tib. I.10. Perhaps Tibullus was not endowed with good health. For the various interpretations of the theme of death in Tib. I.1, see Gaisser 1983, p. 64.

32 - See my discussion: The Propempticon In Tibullus I.3, Bullus Of The Center Of Papyrological Studies And Inscriptions, No.XLL, Part 1, Ain Shams Univ. Cairo 1995, PP. 147-8.

33 - Taking into consideration the fact that Gallus was a genuine dux milesque, E.W. Leach, Poetics And Design

22 - In an attempt to make a compromise between the two different life-styles of both Tibullus and Messalla, Cairns 1979, p.146, goes so far as to suggest that Tibullus [in I.1] lauds Messalla's martial achievement: as an agricola enjouing Pax, he depends on the achievements of Messalla as general. As a lover he relies on the kindness and understanding of a patron who will not insist on his going to war but will allow him freedom to live as he wishes.

23 - My conclusions are opposite to those of R.J.Ball, The Politics Of Tibullus: Augustus, Messalla and Marcer, GB9, 1980. I agree with Cairns 1979, P.34, who argues that Tibullus' rejection of war as a career for himself in I.1 is a literary gesture rather than a political stance. In Luck's words (1990, p.116) Tibullus "seems to live in a dream-world of his own" The subject of Tibullus' political stance is so vast and lies beyond the the scope of this study.

24 - Cf. Tib. I.2; Prop. I.16; Am. I.6. For the elegiac conventions in the second half of Tib. I.1, see Boyd 1984, P.276.

25 - See for example Callim. Epigr. 43 and 46; Theoc. Id. 3.

that peace and the farmer in Tib. I.1 have the same import as they have in Virgil's Georg., where the poet's wish to eulogise the achievements of the princeps is quite explicit.

16- Cf. the sort of life-style Theocritus presents in Id. 7.

17- Luck 1990, p. 117, points out to the unity of mood and feeling in I.1. I would like to suggest that Tibullus breaks this unity of mood by the vision of his death and funeral, as I shall demonstrate.

18- See Cairns 1979, pp. 145ff.

19- He was Marcus Valerius Messalla Corvinus, a military man and orator. He was one of the equestrian class. He headed a literary circle, to which Tibullus and Ovid belonged. Tibullus' friendship with him was one of the repeated themes of his poetry: 1.3,1.5,1.7, II.1 and II.5.

20 - In the first of I.1, Tibullus compares himself indefintely with "alius" (1f.), any greedy man who collects wealth through war. In the second part of the poem he compares himself with Messalla (53ff.)

21 - The amor versus militia theme appears in Tib. 1.2, 1.3, 1.5, 1.7, and I. 10. Cf. prop. III.4.

pompous in literature.

12- Cf. Tib. I.5; I.10 and II.1.

13- Cf. Tib. I.10 and II.1. For religion in Tibullus see R.B. Palmer, Is There A Religion Of Love In Tibullus? CJ 73, 1977. Consult Cairns (1979) pp. 13ff., 18f., 24, who sees in Tibullus I.1: "rustic reverence", "yearning for a past age", "idealised primitive Roman past", "antiquarian interest", "religious associations", "piety" , "pious reverence for the gods" and "sentimental nostalgia for an ideal past".

14- W.Y. Sellar, The Roman Poets Of The Augustan Age, Horace And The Elegiac Poets, Oxford, 1892, pp. 239f., stresses the point that while Tibullus writes in the spirit of the Georgics, he is quite independent. Solmsen 1962, p. 300, thinks that Tibullus, while doubtless previously sensitive to the attractions of the countryside, became through Virgil more consciously aware of their poetic pontentialities. See also Barbara Boyd, Parva Seges Satis Est: The Landscape Of Tibullan Elegy In I.1 And I.10, TAPA, vol. 114, 1984, p. 274; G. Luck, Love Elegy in: The Cambridge, 1990, p. 116.

15- I do not agree with Cairns 1979, p. 34, when he says

5- Supplementum Hellenisticum, 254-269.

6- See: Tib. I.3, I.7 and I.10.

7- Cf. Callim. Epigr. 34, where the poet presents his persona as poor, see also Epigr. 32, 47, 48 and Iamb. 3; Theoc. Id. 16.

8- Cf. Tib. II. 1.

9- Because we know that Tibullus was descending from a wealthy family, so he might have been following the Alexandrians in this respect, see above n.7.

10- Tibullus' statements (I.1. 19ff.) to the effect that his farm was once grand but is now humble are usually interpreted by scholars as referring to the famous confiscations, see D.F. Bright, Haec Mihi Fingebam, Tibullus In His World. Leiden, C.C. S III, 1978, p. 13; R.O. Lyne, The Latin Love Poets From Catullus To Horace, Oxford, 1980, p. 152.

11- F. Solmsen, Tibullus As An Augustan Poet, Hermes 90, 1962, p. 305, emphasizes the integrity between paupertas and rura, militia and divitiae. Cairns 1979, p. 21, see a connection between Tibullus' simple life in the country and the Hellenistic contempt for the inflated and

Notes

1- Cf. Tibullus I.10; II.3. F. Cairns, Tibullus, A Hellenistic poet at Rome, Cambridge, 1979, pp. 24f., considers Tibullus' retection of war an implicit rejection of writing ephic.

2- It is, however, typical of Tibullus that in his present estimation of himself he wishes to be called inactive and idle: (quaeso segnis inersque vocer, 58).

3- Although the debt of the Roman poets to Callimachus is very considerable, that of Tibullus to Callimachus is not acknowledged by the poet in an explicit way as Propertius' debt (Tibullus ia always silent on his literary models). On the influence that Callimachus and Latin poetry, see: B. Arkins, The Freedom of Influence: Callimachus and Latin poetry, Latomus XLVII, 1988. I notice that when Arkins talks about the Callimachean "spectacular" influence on the best of Latin poerty (pp. 286, 393) he does not mention Tibullus in his list, although Tibullus' debt to Callimachus is very great.

4- Hecale is the old lady who offered Theseus hospitality in her humble hut, on his way to Marathon.

display. Love with some elegiac motifs are remarkably combined with some Alexandrian ideas in I.1, but love does not dominate the poem. It is rather subordinate to other topics. The poet mainly indulges in visions of the ideal sort of life he would prefer to lead. Rural visions that contain Alexandrian elements win out over love elements in I.1. So the poem is not representative of the whole work. From the standpoint of readers' expectations of a programmatic poem there is a lack of fulfillment. In this perspective, I.1, as I can see it, is not actually programmatic in the full sense of the word.

the countryside and love. Although the countryside plays a spectacular role in I.1, Tibullus does not explicitly connect it with the theme of love [38] as he does in I.5.

Much of the scholarship on Tibullus' first poem has been concerned with its programmatic intent. Many critics, if not most, usually call Tibullus I.1 a programmatic poem [39]. There is a point worth attention here. According to my reading of the poem, I can safely say that although there are in I.1 the typically Tibullus ideas or programmatic elements which occur repeatedly in the poet's work-as we have already seen-such as his hatred of war, rejection of wealth, contentment of his lot, acceptance of poverty as a way of life, the desire for a life in the countryside and praise of his patron Messalla, still it is surprising that the theme of love is delayed in I.1 and plays a minor role [40], although it is known and accepted that love is the primary and most characteristic subject of Roman Elegy, and although it is preeminent in most of Tibullus' poems to the extent that he is considered one of the most delicate poets of romantic love. The topic of love does not have the prominence we expect in the opening poem of a collection of love elegy. It was not Tibullus' professed intention in I.1 to work upon the feelings of his girl, nor to make his love story an object of

wealth as well:

vos, signa tubaeque,
ite procul, cupidis vulnera ferte viris.
ferte et opes,

(75-77)

In the last two verses, Tibullus, being safe with his harvest, scorns wealth as he scorns hunger:

ego composito securus acervo
dites despiciam despiciamque famem.

(77-78)

I would argue that Tibullus' choice of themes in I.1 reveals that he is advancing a conception of his life [35]. What impresses one about this poem is the high frequency of contrasts [36]: "rusticus versus miles and divitiae versus paupertas" in the first part of the poem, "amator versus miles" in the second part. This is to say that Tibullus contrasts his chosen ways of life with that of the soldier.

The countryside is connected in some of Tibullus' poems with the theme of love [37] Poem I.5. for example, displays love in the countryside. Tibullus is going to live there (rura colam, 21), and Delia will be there with him (aderit mea Delia, 21). But in I.1 Tibullus' preoccupation is

iam subrepet iners aetas, nec amare decebit,
dicere nec cano blanditias capite.
(71-72)

Now the poem closes - as it starts - on a note of optimism. Tibullus devotes himself to joyous love that will be his business, being still young, it is not shameful to break down doors to get access to his lover:

nunc levis est tractanda venus, dum
frangere postes non pudet
(73-74)

In this respect - as far as love is concerned - Tibullus is a leader and a good soldier (hic ego dux milesque bonus, 75) [33]. Here is a reference to the elegiac motif of militia amoris, known in Latin Love Elegy, where love is viewed as a military campaign [34]. Words and themes which come in a context of warfare recur in a context of love. The poet-lover emulates the soldier.

Tibullus comes once again to the point which he starts his poem with: the rejection of war and wealth. This ring-composition contributes to the unity of feeling in the poem. Tibullus asks the signals and trumpets of war to go away, to bring wounds to the greedy men, and to bring them

He stresses the idea of her weeping for him, repeating "flebis" twice (61 and 63). In a very emotional way he imagines how she is going to give him kisses mixed with bitter tears:

tristibus et lacrimis oscula mixta dabis

How moving it is that from his burial no youth, no maiden will be able to return home dry-eyed:

illo non iuvenis poterit de funere quisquam
lumina, non virgo sicca referre domum
(65-66)

He asks Delia to unite with him in love, while fates allow:

interea, dum fata sinunt, iungamus amores.

It seems more than once that death cast a shadow over Tibullus' thoughts (31). With such a state of mind he mentions death in I.3 (32): his talk of love and Delia is combined with his talk of death.

Tibullus reveals further, in I.1, his pessimism when he talks about death that will come (veniet ... Mors, 70) and the inactive old age that will steal upon him, when it will not be seemly to love nor to say soft words:

non ego laudari curo, mea Delia, tecum
dum modo sim,

(57-58)

Delia plays a minor role in I. 1[29]. He Doesn't express his emotions towards her, but mentions her to stress his preference for the idle effortless life of Love to that of active military action. After talking much about his vision of living in the countryside, rejecting war and wealth, he turns his thoughts to Delia and to the elegiac conventions, concerning the enjoyment of lifelong love with her. "Tibullus rusticus" (7ff.) and "Tibullus amator" (45ff.) are now considered as being one and the same person.

The perspective of love changes suddenly to death, a transition from one state of mind to another. A sense of pessimism and sorrow now colours the situation and counterbalances the hope of the first of the poem [30]. Tibullus gives a detailed picture of his death and funeral. He wants to look at Delia when his last hour comes, to hold her hand while dying.

te spectem, suprema mihi cum venerit hora,
et teneam moriens deficiente manu.

(59-60)

considers military action inferior to love and idleness, but he rejects war as a career for himself. a way of life quite unfitted to him. And this does not imply any intended antagonistic political stance on Tibullus' side. He is, before all else, a modest peaceful countryman devoted to the pleasures of life and love, rejects war because it demands effort and restricts his personal happiness. In my view, Tibullus is temperamentally not politically opposed to politics [23].

Lines (55-56), quoted above, refer to one of the conventional elegiac themes: the "exclusus atmator", the lover outside the closed door of his girl [24]. This is one of the favourite themes in Alexandrian poerty [25]. But Tibullus touches upon the idea briefly. Although no setting is indicated in this passage, scholars suggest that it is an urban rather than a rural scene [26]. As long as the second part of the poem does not specify an urban setting, it is understandable, I suppose, that the setting is the same. The reader is given a rural setting in the first part of the poem and is led to project it into the second part.

At last Tibullus is addressing his dear Delia[28] by name. He does not care to win renown, but only to be with her.

different from his patron's [20] It is Messalla's right to campaign by land and sea so that his house may show the spoils of the enemy:

te bellare decet terra, Messalla, marique,
ut domus hostiles praeferat exuvias
(53-54)

But for Tibullus the bonds of a lovely girl are keeping him a defeated captive [21], sitting as a keeper in front of her doors:

me retinent vinctum formosae vincla puellae,
et sedeo duras ianitor ante fores.
(55-56)

The profession of personal freedom of the opening lines now comes to an end: (vinctum ... vincla, 55). The picture of Tibullus that we form from this poem is in sharp contrast to that of Messalla. Tibullus is devoted to the life of love and simple pleasures. He adores the countryside and scorns war, wealth and renown. On the other side, Messalla is a wealthy military man of action and an ambitious statesman. But Tibullus doesn't intend to make any judgement concerning his patron's activities [22]. And this does not mean that he is criticizing Messalla when he

At line 45, for the first time we hear of the "domina", and Tibullus reveals to us that he is a lover. this is what is called by critics "the technique of delayed information" (18) Love means every thing to Tibullus. It means much more than wealth and renown. He wants love to be his happy lot (hoc mihi contingat:, 49). Let him be deservedly rich who can endure the rage of the sea and the gloomy rains:

... sit dives iure, furorem
qui maris et tristes ferre potest pluvias.
(49-50)

In the lines just quoted there is the judgement of the poet upon those who travel in search for wealth, those who deny themselves security and comfort. But as for himself, Yibullus wishes that all the gold and emeralds perish before any girl should weep for his travels:

o quantum est pereat potiusque smaragdi,
quam fleat ob nostras ulla puella vias.
(51-52)

At line 53 Tibullus' shifts the emphasis, we are introduced to his patron Messalla (19) This is a turning point in the poem, through which he returns to the previous idea of rejecting war. He announces that his choice of life is

dimensions. But did Tibullus choose the countryside because of its moral qualities? In other words, did he admire and aspire to the moral status of the traditional Italian farmer? To live in the countryside is Tibullus' vision of idealized life, and the logical result of Tibullus' social position as a descendant of an equestrian land-holding family. But unlike Virgil, Tibullus' concerns are not didactic. Rather, he takes personal delight in rural simplicity, and has a personal conception of happiness. So when Tibullus chooses the life of the farmer it is only to achieve his own individual happiness, and here too he was inspired by Alexandrian literature (16).

So far in this poem, all we know of Tibullus is that he is an ex-soldier who desires to become a farmer. Let us consider the movement of Tibullus' ideas in the second part of the poem which he combines so elaborately that he succeeds to achieve unity of feeling (17). Tibullus' poetic program, up to this point, looks to rustic life, later on he thinks of his girl. How pleasant it is to hear the winds rage as he lies and holds his girl in his bosom:

quam iuvat immites ventos audire cubantem
et dominam tenero continuisse sinu
(45-46)

before the god of the countryside:

libatum agricolae ponitur ante deo.

(14)

Tibullus appeals to the rural deities to do their part: yellow-haired Ceres (flava Ceres, 15), Priapus, the god of gardens who is the watch (custos, 17f.), the tutelary gods of the farm (custodes ... Lares, 20). He offers sacrifices to the gods to secure their protection for his herd (21f.). He appeases Pales too, the goddess of shepherds (35f.). Finally Tibullus asks the gods in general to be with him (37).

Tibullus' concern for crops and flocks reflect a genuine Roman spirit. In this respect, one may wonder whether Tibullus was inspired mainly by Virgil's *Georgics* to write about the countryside [14], or only by the Hellenistic tendency towards it and the Alexandrian enthusiasm for expressing poverty and simplicity.

Both Virgil and Tibullus show enthusiasm for the countryside, but Tibullus' enthusiasm is free from the political motivation that is present in Virgil's poerty [15], and consequently the two poets differ in their approach. Tibullus presents himself as a man of peace and a lover of the countryside, which may suggest Roman moral

Tibullus asks thieves and wolves to have mercy on his scanty flocks:

at vos exiguo pecori, furesque lupique,
parcite:

(33-34)

When appealing to the gods to be with him, he asks them not to despise gifts from a poor table:

adsitis, divi, neu vos e paupere mensa
dona ..... spernite .....

(37-38)

This modest way of life is either a literary topos [9] or it is historically true that his farm was diminished in the famous confiscations of 42 B.C., to provide settlements for soldiers [10]. Perhaps his circumstances suited his poetic program. So poverty and simplicity as Alexanrian features are related to the theme of Tibullus' love of the countryside[11], which occurs repeatedly in his poetry [12].

Tibullus shows an interest in the piety of the countryside, reverence for the gods, rural cults and performance of rites [13] His worship is explicitly professed: (nam veneror, 11)

The first product of his farm is placed as an offering

Roman elegiac poet who joined military service. We know from his poetry that he accompanied his patron Messalla on several military campaigns [6] So when Tibullus rejects war he speaks from a personal experience. and when he rejects wealth and accepts poverty, he connects himself with the Alexanrian literary conventions [7]

Throughout the first half of the poem, Tibullus re-emphasizes his poverty and the modesty of his farm [8]. Modesty is its outstanding characteristic, as well as of his sacrifice and his flock. He addresses the lares, the tutelary gods who watch over his farm which is now poor, but was once thriving, asking them to accept his offerings:

Vos quoque, felicis quondam, nunc pauperis agri

custodes, fertis munera vestra, Lares.

(19-20)

In those days a slaughtered heifer was a peace offering for his countless cattle.

Now a lamb is the little sacrifice of his small land:

tunc vitula innumeros lustrabat caesa iuvencos:

nunc agna exigui est hostia parva soli.

(21-22)

marches (longae ... viae,26). He aspires to the modest and simple routine of the farmer in the countryside, describing the rustic work which he is going to undertake (7ff.) as a true countryman "rusticus" (8), an alternative to the military action.

We know that urban life in the Hellenistic world with its large cities caused a longing for the quiet and beautiful country life. This, in turn, excited a tendency for expressing the simple and the rustic in Alexanrian literature. For example, the Alexandrian writer Callimachus (3), quite in the Alexandrian manner, when be wrote his famous epyllion "*Hecale*", laid emphasis, not on Theseus' heroic deeds, but on the simple and realisttic details of the ordinary and everyday life of poor Hecale (4). Callimachus does the same in his victory ode for Queen Berenike (*Victoria Berenices*) in which he focuses on Hercules' visit to the humble peasant Molorcbus and the latter's invention of a new kind of mouse-trap (5). This outstanding literary characteristic of the Alexandrians reappeared in some of their Roman successors, Tibullus was one of those, and his first elegy is a case in point.

We should keep in mind that Tibullus was tbe only

1- (1-44) the countryside with both its poverty and simplicity versus wealth and military action.

2- (45-78) love and elegiac conventions as set against wealth, military action and renown.

Tibullus begins the poem by rejecting wealth (divitias) of yellow gold (fulvo ... auro) and rejecting the sounding of the war-trumpets (martia ... classica pulsa) [1]:

Divitias alius fulvo sibi congerat auro

et teneat culti iugera multa soli,

quem labor adsiduus vicino terreat hoste,

Martia cui somnos classica pulsa fugent.

(1-4)

Then he mentions his own preference, which gives him personal freedom. His poverty is to bring him an inactive life [2]:

me mea paupertas vita traducat inerti,

(5)

Tibullus contents himself with a humble life-style (contentus vivere parvo, 25), and rejects once more long

Alexandrian Implications

In Tibullus I.1

Magda A. El-Nowieemy

The Augustan poet Tibullus was one of those Roman poets who fell under the influence of Alexandria. In my present paper I shall be concerned with Tabullus' first poem. My starting point will be that it is supposed to be a programmatic poem. But my reading suggests that it is only in a limited sense.

Great importance is always attached to an introductory poem of any poet. It is expected that Tibullus provides in I.1 a poetic program for the whole work or at least for his first book of elegies. The study of Tibullus I.1 leads -to a great extent- to a clearer understanding or the poems which follow. This poem is expected to set the tone of his work especially in the way Tibullus employs the elegiac conventions in combination with some outstanding Alexandrian characteristics.

I shall consider the Alexandrian implications in I.1, through considering the structure of the poem and sequence of Tibullus' thought. The poem falls into two main sections:

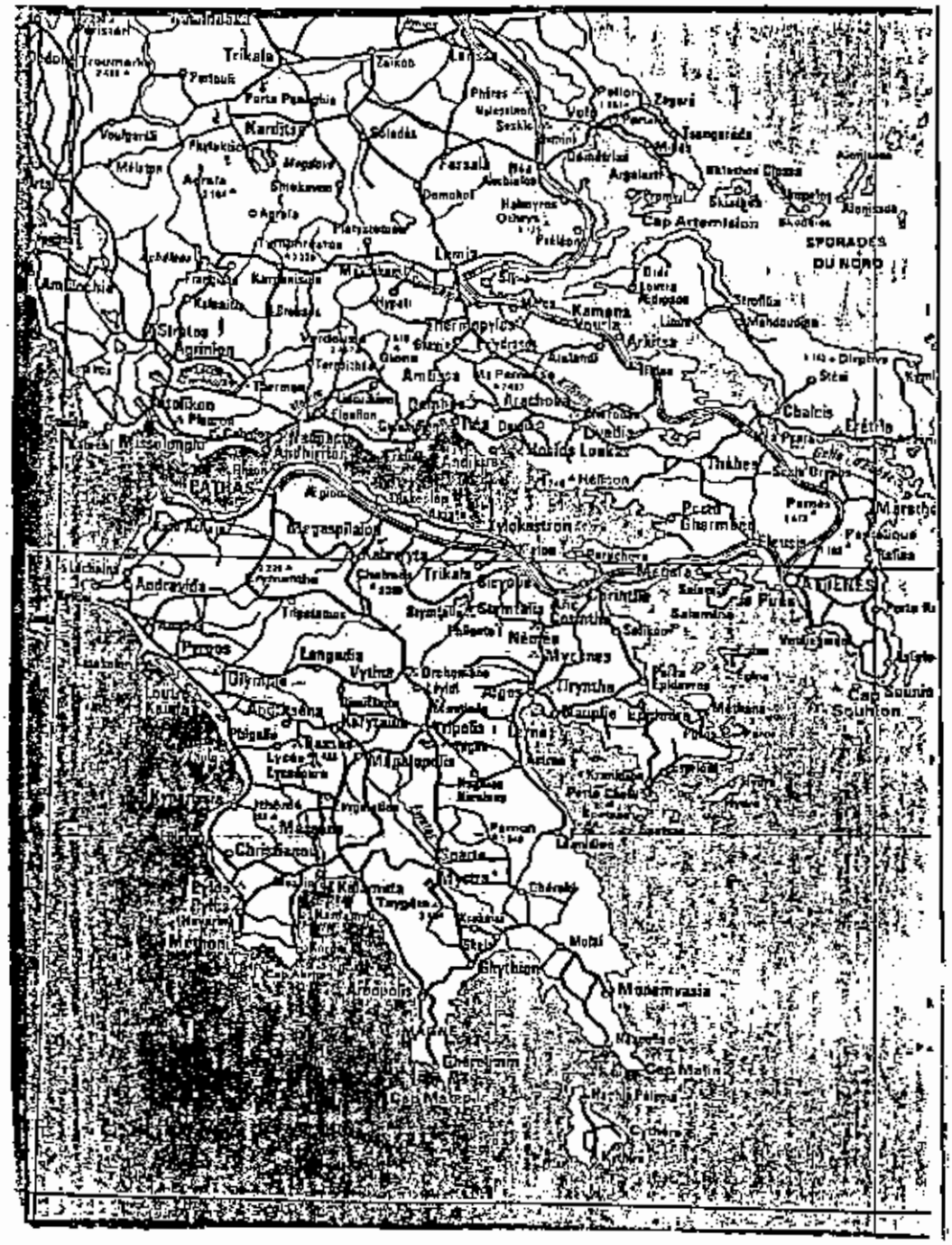

Fig. (4)
Le Guide Bleu, Grece, Hachette, Paris, 1977 .

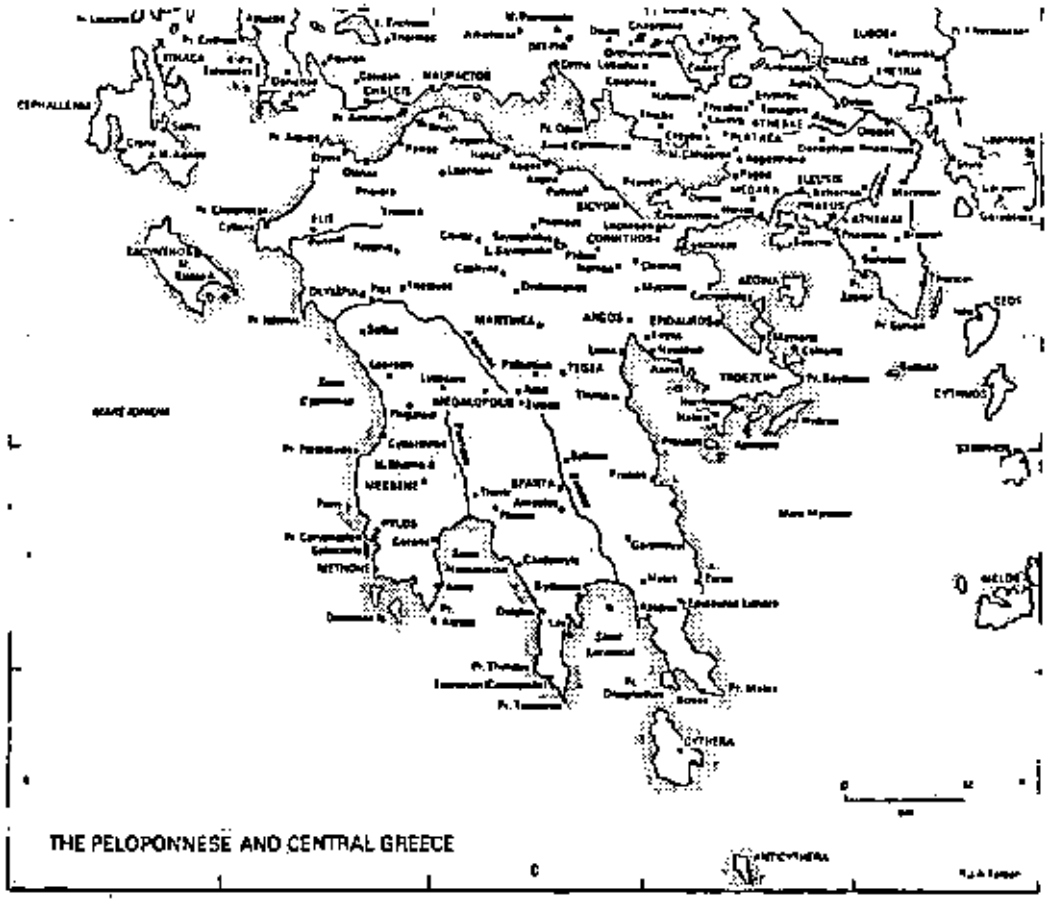

Fig. (3)
The Peloponnese, The Cities of Aegium and Helice
After : Richard Talbert, Atlas of Classical History , London, 1985.

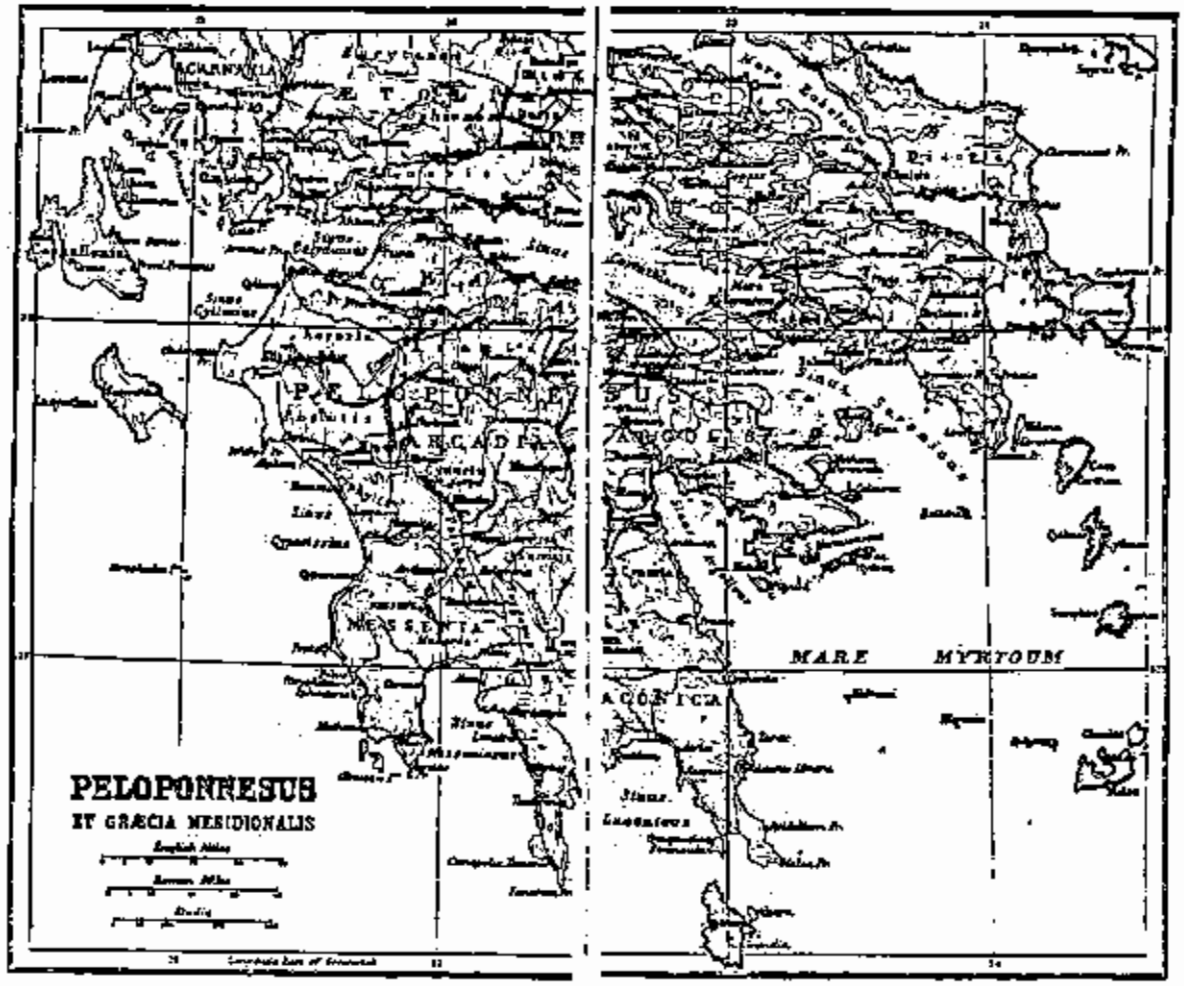

Fig. (2)
Peloponnesus
After : Atlas of Ancient and Classical Geography, London 1948,P.37.

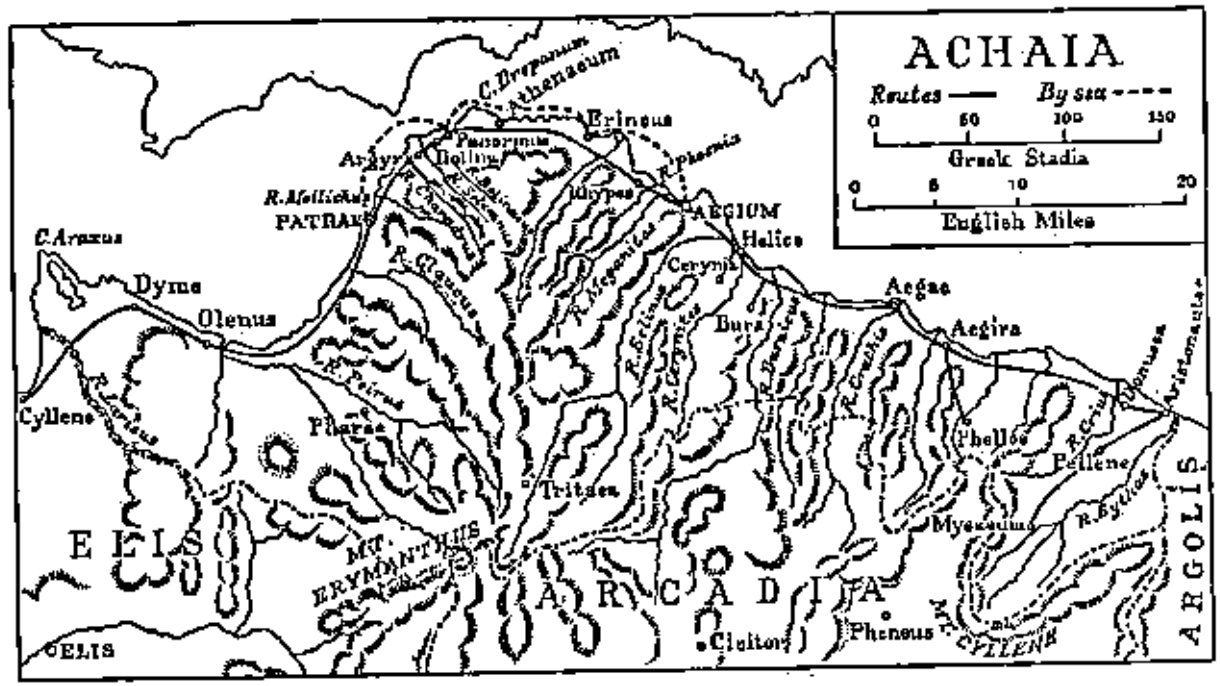

Fig. (1)
The Twelve Cities of Achaea Including Helice
after : Pausanias Loeb P.13

The city of Helice is located on maps - according to ancient sources - as follows :

- Longitude line : 22° 9' 16" to the east.

- Latitude line : 38° 12' 27" to the north .[1]

The difference between the supposed location of Helice and the location of the new city of Aegium is less than "five minutes" which is about eight km. or less, and this calculation makes the statment of Pausanias almost a certainty.

Having in mind the extension of the new city of Aegium, I may conclude that the ruins of Helice are lying under water less than 8km. to the east of the city of Aegium.

Finally I would like to add that a whole city with its temples, statues, houses, and maybe the skeletons of its inhabitants is lying under water waiting for someone to uncover the coffin that is wrapping her .

(1) Richard Talbert, Op.Cit., P.29; Cf. Atlas of Ancient and Classical Geography, P.37.

actors such as among other things, sea plants, mud, green moss, sea weed and slugs.

Now the city of Helice was situated - according to Pausanias[1] - forty stads (nearly 8 kms.) to the east of the ancient city of Aegium.

The ancient city of Aegium is located on maps - according to ancient sources - as follows :

- Longitude line : 22° 5' 33" to the east.

- Latitude line : 38° 14' 53" to the north.[2]

The new city of Aegium is located as follows :

- Longitude line : 22° 4' 06" to the east.

- Latitude line : 38° 13' 33" to the north.[3]

And since the difference between the location of the ancient and the new cities is approximatly a " minute", which is about 1850 meters, I may suggest that the new city of Aegium is located on the ancient city with some slight extension to the east and west.

---

(1) Pausanias in his description of the cities of Achaea was moving from west to east.

(2) Atlas of Ancient and Classical Geography, London, 1948, P.37. Cf. Richard Talbert, Atlas of Classical History, Croom Helm, London 1985, P.29.

(3) Le Guide Bleu, Grece, Hachette, Paris, 1977.

Eratosthenes the Alexandrian scientist, who visited the site many years later , was told by sailors that the bronze statue of Poseidon was standing underwater and formed a dangerous shoal.(1)

Pliny and Ovid assert that the ruins of Helice were visible under the sea.(2)

In the second century A.D. Pausanias the geographer said that the ruins of Helice are visible, but not as plainly now as they were once, because they are corroded by the salt water.(3)

The testimonies of Eratosthenes, Pliny and Ovid, that the ruins of Helice were visible clearly under water suggest that water in that area was not so deep.

With reference to Pausanias statement that the ruins of Helice were visible but not as plainly as before because of the salt water, one way suggest here that those ruins took more than five hundred years to disappear, but not because of the salt water as Pausanias says but because of many

(1) Strabo, Geog., VIII. 384 sq.
Cf. Diod. Sicul., XV. 49.
Aelian, Nat. Anim., XI. 19.
Seneca, Natur. Quaest., VI. 32, 26; VII. 5, 16.
(2) Pliny, Nat. Hist., II. 206.
Ovid, Met., XV. 293-94.
(3) Paus., VII. XXIV. 12.

What with the sudden earthquake,[1] and the invasion of the sea that accompanied it, the tidal wave swallowed up Helice and every man in it.[2]

According to the testimony of a contemporary historian, Heraclides Ponticus, the destruction of Helice took place on a winter night, two years before the battle of leuctra[3], which means that the catastroph happened in the year 373 B.C., the city was situated a mile and a half from the sea, and all this intermediate space, along with the city itself, vanished under the water.

Two Thousand Achaeans were sent to bury the dead - as Pausanias says [4]- but they could find none.[5]

---

(1) Earthquakes are common in Greece, Aegium the nearst neighbour of Helice, has repeatedly suffered from severe earthquakes, notably in 23 A.D. (Cf. Tacitus, Ann., IV. 13), and in the modern history on the years 1817, 1861, and 1888, the earthquake of 1888 is said to have almost destroyed the city, but it was quickly rebuilt.
Cf. Frazer, Op.Cit., P.166.

(2) Paus., VII. XXIV. 11-12.
The great wave of the sea which accompanied the earthquake at Helice is mentioned also by Aristotle.
Aristot., Meteor., I. 6. 343 b. 2 Sq.; II.8.368 b.8.

(3) Strabo, Geog. , VIII. 384. 2 .

(4) Paus., VII. XXIV. 6. CF. Frazer , Op.Cit., P.165.

(5) Maybe this is the reason why we never heared of Helice thenafter, because Strabo says that : " The two thousand men who were sent to bury the dead found nothing, so they divided the territory of Helice among the neighbours".
CF. Strabo, Geog., VIII. 384. 2.
Pausanias add that : " as none of the people of Helice were left alive, the land is occupied by the people of Aegium".
Paus., VII. XXV.4.

" Forty stades away from Aegium is a place on the sea called Helice, where the Ionians had a very holy sanctuary of Heliconian Poseidon. Their worship of Heliconian Poseidon has remained, even after their expulsion by the Achaeans to Athens, and snbsequently from Athens to the coast of Asia..... But later on the Achaeans of the place removed some suppliants from the sanctuary and killed them.

But the wrath of Poseidon visited them without delay; an earthquake promptly struck their land and swallowed it up, without leaving a trace for posterity to see, both the buildings and the very site on which the city stood. "(1)

Pausanias continnes describing the disaster which the city of Helice suffered :

" This was the type of earthquake, they say, that on the occasion refferred to levelled Helice to the ground, and that it was accompanied by another disaster in the season of winter. The sea flooded a great part of the land and covered up the whole of Helice all round.

Moreover, the tide was so deep in the grove of Poseidon that only the tops of the trees remained visible.

(1) Paus., VII. XXIV. 5-6, 12.

Helice was first mentioned by Homer in the Iliad[1], when he asserted that God Poseidon was the lord of Helice[2].

The city was well known with its holy sanctuary of Heliconian Poseidon,[3] and by being the center of the twelve cities which formed the Achaean League,[4] but after its disaster it was replaced by the city of Aegium as a new center of the league.[5]

Now the question that arises here is - I think - what kind of disaster Helice suffered, and how it vanished in such a terrible catastrophe. I will quote Pausanias our main source about the disaster of Helice, Pausanias says in his full description of the matter :

---

(1) Homer, Il., II. 575; VIII. 203; XX. 404.

(2) As for the legendry foundation of the city, Pausanias said that Ion founded the city and called it Helice after his wife, and called the inhabitants Ionians after himself. Cf. Pausanias, VII. I.4 ; VII. I.8. in : Pausanias, Description of Greece, with an English translation by W.H.S.Jones, Loeb, 1931.

(3) Paus., VII. XXIV. 5.

(4) The twelve cities-according to Paus. - were :
Dyrne, the nearest to Elis, after it Olenus, Pharae, Triteia, Rhypes, Aegium, Ceryneia, Bura, Helice and also Aegae, Aegeira and Pellene, the last city on the side of Sicyonia.
Cf. Paus., VII. VI. I.
Lists of those cities are also given by Herodotus (I.145), Polybius (II.41), and Strabo (VIII. 385 Sq.), Concerning most of the cities, the lists of Herodotus and Strabo are the same, but they differ from the lists of Polybius and Pausanias, Helice is always the same in the four ancient sources. Cf. J. G. Frazer, Pausanias, Description of Greece, Macmillan, London 1913, PP.130-131.

(5) Paus., VII. VII. 2.

mission of underwater Archaeologists, relating to the said department, which had been excavating the coast to the east of the new city of Aegium (Summer season, 1995), looking for the ruins of Helice, but with negative results .

The researcher's reply was that , in the light of the present study of the sources and of the topographical analysis of the data presented through them, it might contribute towards locating the drowned city, to excavate the coast 8kms. to the east of Aegium .

The story of Helice's fate is only an instance of a general phenomenon comprising many others in many countries and civilizations : for example, the city of Callao in Peru, the city of Goa in India, the city of Is in Breton to the north west of France, and the very celeberated legendry Atlantis. (1)

One of those drowned cities is the city of Helice to the north of the Peloponnese Peninsula of the gulf of Corinth .

(1) It is in Plato's Timaeus and Critias that the story of Atlantis-whatever its historical origin - first makes its appearance in literature .
Cf. Plato, Timaeus and Critias, Appendix on Atlantis, Penguin 1971, PP. 144 - 165 .
Cf. Also : James Bramwell, Lost Atlantis, London , 1937 .
Ignatius Donelly , Atlantis : The Antediluvian World , New York , 1949.
J.V. Luce, The End of Atlantis, Thames and Hudson 1969 .
J. Gwynn Griffiths, Atlantis and Egypt , Cardiff, University of Wales Press, 1991 .

The City of Helice

A Part of a Sunken Greek History

Si quaeras Helicen et Burdn
Achaidas urbes, invenies sub
aquis et adhuc ostendere nautae .
Ovid, Met., XV. 293 - 4 *.

The present paper aims at relocating the site of the drowned city of Helice to the north of the Peloponnesian Peninsula on the Gulf of Corinth, depending on contemporary and later sources : Heraclides, Pausanias, Strabo and other historians and geographers .

The paper was presented at the Alexandrian Second International Conference on " Cultural Interaction among Mediterranean Peoples " : "Alexander the Great and Alexandria " , held between the 15th and the 19th of January 1996 .

During the discussion which followed, Prof. Lilian Yannacopoulos, of the Department of Arechaeology and History of Arts, University of Athens, referred to the

* " If you look for Helice and Buris,
Once cities of Achaea, you will
find them beneath the waters" .
Bura was one of the twelve cities of Achaea,
Pausanian (VII.XXV. 8 - 9) says that :" when the God wiped off Helice from the face of the earth , Bura too suffered a severe earthquake". I will focus of Helice because of its importance as a well known center for Heliconian Poseidon and the Achaean league .

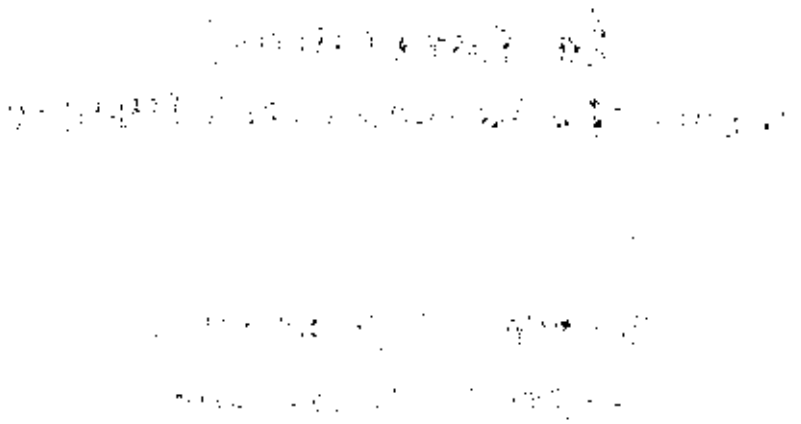

The City of Helice
A Part of a Sunken Greek History

Hussein A. El Sheikh, Ph.D.

University of Alexandria

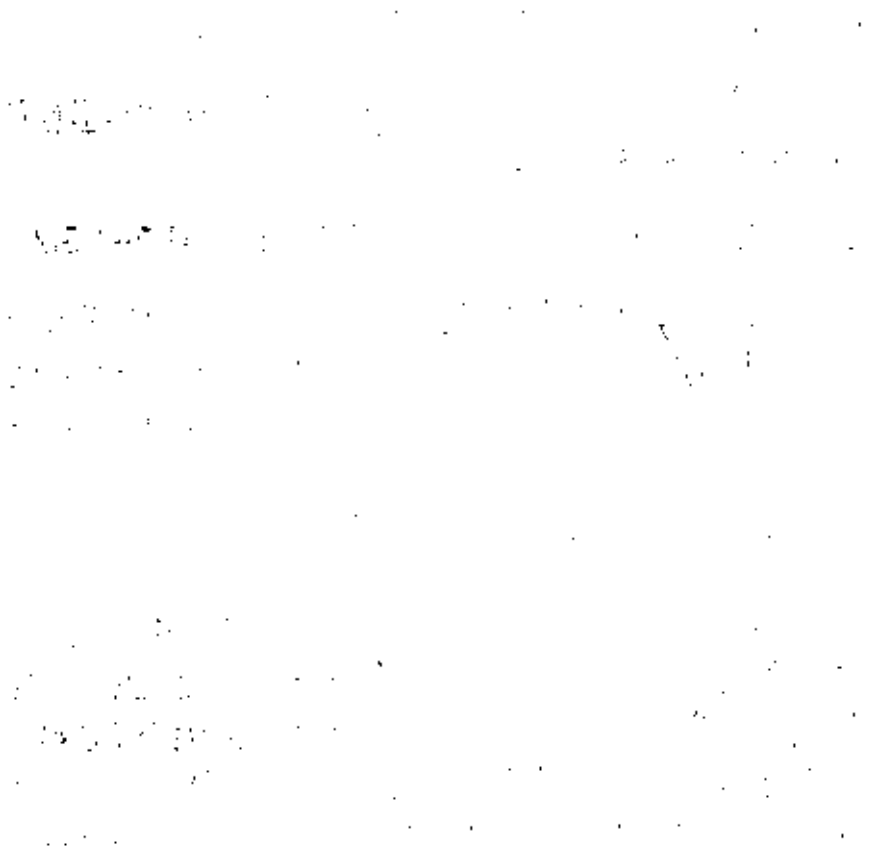

(Athans 1984) 31, 32, 35, 122, 123, 219.

38- Vitruv. II 1-4; PasCallisth. I 31; E. Fabricius, RE IV (1901) 2392-93 no 6.

39- P.M. Fraser, ibid. supra n. 1, I 553-617, II 791-869.

40- W. Peek, RE XXII (1953) 428-46 no 3; P.M. Fraser, ibid. supra n. 39; he was one of the Macedonians honoured with proxenia in Thermon: IG IX 12 117 line 24.

41- SEG 27 (1977) 298.

42- Chryssoula Saatsoglou-Paliadeli, Ta epitaphia apo ten Megale Toumpa tes Verginas, Epeteris tes Philosophikes Sholes tou Aristoteleiou Panepistemiou Thessalonikes Suppl. no 50 (Thessalonike 1984) no 3 p. 44, no 6 p. 79, no 22 p. 168.

33- Ibid. supra n. 32.

34- M.L. West, The Orphic Poems (Oxford 1983) 68-115; published originally by St. Kapsomenos, Deltion 19 (1964) A 17-25 pls 12-15; Cf. ZPE 47 (1982) 1-12.

35- Ch. Makaronas, Deltion 18 (1963) B 193 pl. 225 b; illustrated also in the catalogue of the archaeological exhibition in Melbourne entitled; Ancient Macedonia (Athens 1988) 283 fig. 232.

36- Blanche R. Brown, Ptolemaic Paintings and Mosaics and the Alexandria style (Cambridge, Massachusetts 1957); A. Gazal, Graptai Stelai tes Ellenistikikes Alexandreias (Athens 1964).

37- For Alexandrian false doors see B. R. Brown, ibid., supra n. 36, 34, 86 and bibliography; on klinai see I. Noshy, The Arts in Ptolemaic Egypt (London 1937) 22-23, 143. For Macedonia see the discussion by Ph. Petsas, O taphos ton Leukadion (Athens 1966) 72 and n. 2, 77 and n. 2 and M. Andronikos, "The Macedonian Tombs" in R. Ginouves, M.B. Hatzopoulos (eds), Macedonia from Philip II to the Roman Conquest 154-61; id., Vergina, the Royal Tombs and the Ancient City

104-107, 109-14, 115.

28- M. Andronikos, ibid. supra n. 25, figs 90, 114-16.

29- See the tripod from Philip's tombs : M. Andronikos, ibid. supra n. 25. A golden crown of ivy found in a tomb in Pieria (now in the Archaeological Museum of Dion) is illustrated in the catalogue of the archaeological exhibition in Montreal entitled : Greek Civilisation : Macedonia the Kingdom of Alexander the Great (Athens 1993) 233 fig. 276. From the golden crowns of olive see the one found in Dervemi (now in the Archaeological Museum of Thesalonike), illustrated in the catalogue of the archaeological exhibition in Melbourne entitled : Ancient Macedonia (Athens 1988) 287 fig. 236.

30- M.Andronikos, ibid., supra n. 25, 162-63 figs 130-31.

31- Athen. 198E; see the discussion by E.E. Rice, ibid, supra n. 22, 61-62.

32- E. Giouri, O krater tou Derveniou (Athens 1978); illustrated in many publication, see e.g. M.B. Sakellariou (ed.), Mcedonia : 4000 years of Greek History and Civilization (Athens 1983) 106-108 figs 71-73.

18- W.W. Tarn, "The Lineage of Ptolemy I," JHS 53 (1933) 57-61; P.M. Fraser, ibid. supra n. 1, I 44-45, 202-203, 208.

19- Plutarch, Mor. 332A-B.

20- Arrian, Anab. IV 9, 5. Cf. J.P. Correge, Le cultes de Dionysos en Macedoine (Paris 1992, M.A. Thesis, unpublished) 97-99. See also M.B. Hatzopoulos, ibid. supra n. 15, 63-85 for the discussion of the most recent epigraphical attestations on the cult of Dionysos in Macedonia.

21- Arrian, Anab. IV 8, 1; V1, 1.

22- Athen. 197C-203B = FGH 627 F2; E.E Rice, The Grand procession of Ptolemy Philadelphus (Oxford 1983).

23- Athen. 197E- 202A.

24- Plutarch, Aem. 32, 4-34.

25- M.Andronikos, Vergina : the Royal Tombs and the Ancient City (Athens 1984).

26- Athen. 197E, 197F, 198B.

27- Athen. 198B, 198D, 199C, compared to M. Andronikos, ibid. surpa n. 25, 145-158 and figs

and Beroea," HSCP 45 (1934) 213-46. See also G. Bakalakis, M. Andronikos, Deltion 25 (1970) B 394 and M. Andronikos, Vergina: the Royal Tombs and the Ancient City (Athens 1984) 38, 42, 226 for Heracles Patroos.

13- M.G. Demitsas, E Makedonia en lithois phthegomenois kaimnemeiois sozomenois (Athens 1896), repr. title: Sylloge Inscriptionum Graecarum et Latinarum Macedoniae (Chicago 1980) nos 18 and 291; W. Baege, ibid. supra n. 12, 141; A.B.Tataki, ibid., supra n. 5, 243 no 1000.

14- OGIS 53; P.M. Fraser, ibid. supra n. 1, I 195; for other attestations of Heracles with the same epithet see Giulia Ronchi, Lexicon theonymon rerumque-sacrarum et divinarum ad Aegyptum pertinentium quae in papyris ostracis titulis Graecis Latinisque in Aegypto repertis laudantur III 568.

15 - M.B. Hatzopoulos, Cultes et rites de passage en Macedoine (Meletemata 19; Athens 1994) 44, 49-50.

16 - E. Breccia, ibid. supra n. 3, 372-73 no 117.

17 - Ch. F. Edson, ibid. supra n. 12.

Society (Meletemata 8; Athens 1988) 334, 339, 415, 449.

6- P.M. Fraser, ibid. supra n. 1, I 93-131; R. Bagnal, The Administration of Ptolemaic Possessions Outside Egypt (Leiden 1976).

7- P.M. Fraser, ibid. supra n. 1, I 69, 80, 100, 102-104, 118, 129-30.

8- Discussed by M.B. Hatzopoulos, Macedonian Institutions under the Kings (Meletemata; Athens 1996 forthcoming).

9- IG I, 31, 89.

10- P.M. Fraser, ibid. supra n. I 103, II 187n. 74; L. Mooren, The aulic titulatture in Ptolemaic Egypt (Brussels 1975) 232-44 nos 00198-00349.

11- L. Mooren, ibid. supra n. 10, 226-32 nos 00124-197; for Macedonia see Sylvie Le Bohec, "Les Philoi des rois Antigonides," REG 98 (1985) 93-124, in particular pp. 118-19. On the First Friends of Perseus see Polyb. XXIX 3, 3; Livy XLII 39, 7; XLIV 23, 2, 45, 2.

12- W. Baege, De Macedonum Sacris (Halle 1913) 184-198; Ch.F. Edson, "The Antigonids, Heracles

Macedonian Presence in Alexandria

NOTES

* The following references support indicatively the presentation of the subject that was not intended to be exhaustive.

1- See the discussion of the ethnic by P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria (Oxford 1972) I 49-50, 53-54, 58, 63, particularly 80, 129, 22-23.

2- I. Russu, "Macedonica. Osservazioni sull lingue e 1'etnografia degli antichi Mcedoni, "EphDac 8 (1938) 180, 199. 0. Masson "sur le nom de Bilistiche, favorite de ptolemee II, "studia in honorem 1.Kajanto (1985) 109-112 = Onomastica Graeca Selecta II 467-70.

3- E. Breccia, Catalogue general des antiqnites egyptiennes du Muss d ´ Alexandrie: Isrizioni Greche e Latine (Cairo 1911, repr. 1976) index.

4- On the basis of F. Preisigke, Namenbuch (Amsterdam 1967).

5- As has been concluded in recent studies: Argyro B. Tataki, Ancient Beroea: Prosopography and

Macedonian funerary monuments are quite numerous; the earliest comes from Pella and is dated in the first half of the 4th century B.C.; [41] next are the epigrams from Vergina that are dated as early as the second half of the 4th century B.C. [42]

architecture, features such as false doors and windows and funerary klinai, [37] also point the same cultural background and reinforces our belief that many Macedonians came and worked in Alexandria from the start, besides the eponymous architect of the city Deinokrates. That the architect, who was ordered by Alexander to lay out the plans of a city in his name, was a Macedonian, is an information of Virtruvius; another source, PsCallisthenes, calls him Rhodian. [39]

We will conclude with an area in which the contribution of the Alexandrian literary achievement is in particular recognised: the creation of the epigram.[39] We should not underestimate the fact that one of the most famous Alexandrian epigrammatists, the man who lived at the court of Ptolemy Philadelphos and composed the poem designed to celebrate most prohably the erection, of the Pharos, was the Macedonian Poseidippos from Pella. [40] It seems that it is no coincidence that although most of their works are lost we know of many Macedonians who contributed to this and other related fields of poetic creation as e.g. epic and tragic poetry. Epigrams inscribed on

described as having hair streaming loose and some holding daggers in their hands, others snakes; [31] they are also illustrated in Macedonian funerary finds and primarily on the Derveni krater. [32] The features connected with the cult of Dionysos have made their appearance not only in Vergina, where their presence is overpowering, but also at other sites where Macedonian tombs were excavated. One cannot forget the relationship of Dionysos to Orpheus and the Underworld, which is so eloquently demonstrated in another funerary find, that of the unique Derveni krater. [33] The pyre of another Derveni tomb contained an also unique find, for Greece, a papyrus with an Orphic text; [34] inside the same tomb a gilded thymiaterion similar to the one of Vergina was found. [35]

Another feature close to the Macedonian originals, but in general of lower quality, is the painting preserved in funeral monuments of Alexandria. [36] The recent discoveries in Macedonia have revolutionised our knowlege of ancient painting, and now the origin of these Alexandria creations can be more easily traced than at the time of their publication. In the funerary

exaggeration in the size of the objects mentioned, as e.g. the nine feet tall altars and the equally huge thymiateria (incense burners), or a silver krater holding 600 measures. (26) Other objects, mostly of gigantic size, that appeared in large numbers in the Alexandria procession and can be seen among the Vergina finds in more moderate sizes include oinochoai and phialai, basins and araters, all objects connected with drinking and mixing of wine, all objects suitable for symposia. (27) Almost everything in this royal tomb is connected with Dionysis and his cult. Satyrs and Silenoi decorate most of the objects and Dionysos himself is represented in an ivory plague. (28) Other objects mentioned in the procession include tripods, golden crowns of ivy worn by the statues of Alexander and Ptolemaios I Soter and a golden crown of olive worn by the statue of Arete, all finding a material from in the finds of Vergina and also those of other Macedonian tombs. (29) Thymiateria can be recognised, as I believed, in the lantern, as the excavator interpreted it, found in the same Vergina tomb. (30) Participants in the procession were also, according to the same text, Macedonian women called Mimallones, Bassarai and Lydai, explained as Maenads,

Alexandria is best seen in the procession of Ptolemy Philadephos which contain many important elements that allow us to suppose a very close connection with Macedonia. This text of Kallixeinos preserved hy Athenaeus in the fifth book of the Deipnosophistai, translated and thoroughly discussed by E.E. Rice,[22] gives very important information and allows for a new way of looking at and interpreting the contents of some Macedonian tombs. The text that is excerpted from a more extended work by Kallixeinos called About Alexandria, describes for its greater part the procession of Dionysos and his followers. [23] The richness of the objects, wreaths and colossal statues in this procession can be paralleled with the three day triumph of Aemilius Paulus, adorned with what he had carried to Rome from Macedonia, as described by Plutarch. [24] But the actual description, the followers of Dionysos and some of the objects carried by them can be recognised in many features of the objects and decorations found in the large royal tomb of Aegeae (modern Vergina), that the excavator M. Andronikos believed to be Philip's tomb. [25] On reading this extraordinary text one should naturally ignore the

Certainly it is not only in those rare but characteristic examples, just mentioned, where the Macedonian presence can be traced. The Argeads claim to Heraclid ancestry, a claim that was later embraced also by the Antigonids, (17) found an early imitation by the Ptolemies, who, in order to establish their relationship to the Argead house, made up a descent from Dionysos and his son-in-law Heracles. (18) Ancestry of the Argeads from Dionysos is mentioned by Plutarch, in the work On the fortune or the virtue of Alexander, where in the discussion of the king with the philosopher Diogenes he asks from him to be forgiven for imitating Heracles ... and "follow in the footsteps of Dionysos, the divine author and progenitor of my family". (19) The dominant place of Dionysos in Macedonian life is testified by numerous literary references, to mention only the descriptions by Arrian of several sacrifices to him, (20) the notice that there was a day kept sacred to Dionysos by the Macedonians and that Alexander used to sacrifice to him yearly on that day and also the description of Alexander's arrival in the town of India called Nysa, a foundation of Dionysos. (21) The dominant presence of Dionysos in

the king, is also a well documented feature of the royal administration of Macedonia. (11)

Some religious features, not very common in the rest of the Greek world, can also be traced in Macedonia. Heracles' very important place in Macedonia is widely attested; his worship is accompanied with many different epithets, as inscriptional and literary sources show. (12) One of them is for Heracles Kallinikos, attested only once in Beroea, (13) a city that lies in the beart of the Macedonian kingdom. A dedication to this god with the same epithet constitutes the only epithet of Heracles epigraphically attested in Egypt and most probably comes from Alexandria. (14)

Another cult, not very common in the rest of the Greek world, is that of θεα καλη , attested only once in Macedonia, in the town of Lete; it has been recently published and discussed by M.B. Hatzopoulos, which associated her with the cult of Demeter and kore and the rites of Passage for young girls. (15) The same godess, θεα καλη , is also attested once in Alexandria. (16)

Many Macedonian prototypes can be traced in the institutions, the administration and even more in the organisation of the Ptolemaic court as it can be studied on the basis of the works of P.M. Fraser and R. Bagnal;[6] the analogies observed can support a better understanding of the archetype that is often less explicity documented. The role of the Macedonian household troops in the approving of the new sovereign, the Friends and the First Friends of the king, the bodyguards, the employment of the term επιστατης for defining the governor of a city with civil authority in the Ptolemaic administration, [7] are all features very much characteristic of the Macedonia administration, as known by the historians of Alexander or as attested in inscriptions found in Macedonian. [8] For the Macedonian court the royal envoys abroad were naturally members of the aristocracy including persons of the family of the king, as can be observed in an early source, the treaty of Perdikkas II with the Athenians. [9] In these relatives of the Macedonian kings most probably originates the term συγγενης , used often by Ptolemaic envoys abroad; [10] the other definition used:των πρωτων φιλων (among the First Friends) of

owners arrival, as the analysis of the onomasticon shows. It is essential to point out here that some of the names considered by the specialists as typically Macedonian are known only from their attestations in Egypt, for example the names Βιλιστιξη and ΑοΒιοζ and others; (2) in addition to that many well known Macedonian names, such as Βαλακποζ , Μαχαταζ and ιλωταζ , to mention only a few, have been preserved in inscriptions found in Alexandria with or without the use of the ethnic. (3) Dozens of other well known Macedonian names are preserved in Egyptian papyri, to mention only some of those starting with letter A:Απυνταζ, Αρπαλοζ, Αρριδαιοξ, Ατταλοζ.(4) Since on the other hand we know that many Macedonians had common Greek names without any local characteristics, (5) it is reasonable to reach the conclusion that a substantial part among the holders of names belonging to this category were also of Macedonian descent, a conclusion that can be reinforced by considering the other factors that we will discuss next.

Argyro B. Talaki

Research Centre for Greek and Roman Antiquity

National Hellenic Research Foundation

MACEDONIAN PRESENCE IN ALEXANDRIA

New surroundings give to settlers the opportunity for new creations and Alexandria could not be an exception to that. In dealing with the Hellenistic period one is aware that the Macedonians and the other Greeks who came to settle in Alexandria had already many things in common without however having lost yet their special local characteristic. Thus the settlement of Macedonians in Egypt and in Alexandria can be traced in various ways which[1]. I will try to sketch here.

Initially there are two approaches for the examination of their presence in the population. The use of the ethnic Makedwv is the first one, which certainly in the early attestations, especially those from Alexandria, had a more realistic content than it had later for the settlers of the Fayum. A safer indication than the ethnic is the existence of Macedonian personal names attested even after the first two centuries from the time of their

ss., tavv. XXXVI,1; XXXIX, 1; XL,1; Id., Repertorio, pp. 192 ss. (n. 142), 195 ss. (n. 145).

(38) Cfr. Ph. Petsas, O táphos tón Lefkadion, Atene 1966; Id., in Alessandria e il mondo ellenistico-romano (Studi in on. di A. Adriani), III, Roma 1984, p. 744 ss.; M. Andronikos, Verghina I, Atene 1969; B. Gossel, Makedonische Kammergraeber, Berlin 1980; S.G. Miller, Macedonians Tombs, Washington D.C. 1982 e 1993; M. Andronikos, Vergina, the Royal Tombs, Athens 1984; H. Lauter, Die Architektur des Hellenismus, Darmstadt 1986, pp. 220-221.

(39) Adriani, Ann. du Mus. Gr.-Rom. 1933-35, cit., pp. 15 ss., 53 ss.; Id., Repertorio, pp. 124-127, 130 ss., 135 ss.

(40) J.G. Miller, The Tomb of Lyson and Kallikles. A painted Macedonian Tomb, Mainz am Rhein 1993, pp. 106 (2A), 107 (4I), 108 (10A), 112 (28A).

(41) Breccia, Rapport du Mus. Gr.-Rom. 1919-1920, cit, p. 70 ss.

(42) Fr. Poulsen, in from the Collect. of the Ny Carlsberg Glyptotek, II, 1938, p.4.

(43) CIL, VIII, 8934; XIII, 1808. Cfr. Calderini, Dizionario, p. 150.

(30) Adriani, Ann. du Mus. Rom. 1935-1939, Cit., PP. 15-23.

(31) Adriani, ibid, PP. 15-16, fig. 1; Id., Repertorio, P. 140 ss. (n.89).

(32) Adriani, La nécropole de Moustafa Pacha, Ann. du Mus Gr. Rom. 1933-1935, Alexandrie 1936, PP. 45 ss., 71 ss., Id., Repertorio, PP. 28-33, 124. 128 s., 138 s., 141, 146 s., 170, 188, 192 s., 194, 195s., 157.

(33) Adriani, Ann. du mus. Gr. Rom. 1935-1935, cit, P.92; Id., Repertorio, p. 134 ss. (n. 85).

(34) Appianus, II, 90. Cfr. Breccia, supra, nota 4.

(35) Adriani, Ann. du Mus. Gr. -Rom. 1935-1939, cit., pp. 22-23; Id., epertorio, pp. 142, 230. Cfr. Calderini, Dizionario, cit., I. 1, p. 132.

(36) Adriani, Ipotesi ardite e meno ardite sulla tomba di Alessandro Magno, March 1962, during the two lectures, Alexandria and Cairo, and the public national meeting, Accademia dei Lincei, Rome May 8, 1971. Now in his volume, La tomba di Alessandro, cit, p. ooo.

(37) Adriani, Ann. du Mus. Gr.-Romm. 1933-1935, cit., p. 113 ss., figg. 50, 55-56, tav. XIV; Id., Ann. du Mus. Gr.-Rom. 1940-1950, Alexandrie 1952, p. 61 ss., 87

(24) W. Hoepfner, in Akten XIII. Inter. Komgress Klass. Archaeologie, Berlin 1988, Mainz am Rhein 1990, P. 275 ss., Abb.2 Z. Kiss, in Actes XIV Congrés Inter. Arqueologia Cláss., Tarragona 1993, I, Tarragona 1994 P. 261 ss., Fig. 1; W.A. Daszewski, in Cral, Avril-Juin 1994, p. 423 ss.; Tzalas, in Graeco-Arabica, V, 1993, P. 329 ss.

(25) Ibn Abd El-Hakam, Futuh el Misr (ed. Torrey), New Haven 1922, P. 4.

(26) Cfr. Adriani, La Tomba di Alessandro, Cit, P. 000; Bonacasa, in Stmisc, 28, 1991, P. 18, nota 27.

(27) M. Rodziewicz, Les habitations romaines tardives d'Alexandrie (Alexandrie III), Varsovie 1984, PP. 12 ss., 28-31, 54, 57, 58, 116; in Alessandria e il mondo ellenistico-romano (Atti II Congr. Inter. Italo-Egiziano, Alessandria 1992), Roma 1995, P.227 ss.; F. El Fakharani, in Alexandria University, Bull. of the Fac. of Arts, 18, 1964, PP. 190-191.

(28) Bernhard, in RA, 47, 1956, PP. 137, 152 ss.

(29) Breccia, Rapport du muée Gréco-Romain 1907, P.7; Id; in Bsocarchal, 10 , 1908, P. 230; Id., Alexandrea ad Aegyptum, Bergamo 1914, P.88 e Bergami 1922, P. 102; Id., Rapport du Mus. Gr. Rom. 1919-1920, PP. 70-71, tav. XI.

me, where the sema of Alexander is ?" (J.P. Migne, Patr. Graeca, LXI, Paris 1862, Ioann. Chrys. X., col. 581).

(15) Lucanus, Fars., VIII,694 ss.; X,19.

(16) Strabo,XVII,1,8; Zenobius, 94; Achilles Tatius, V,1ss.

(17) Fraser, Ptol. Alexandria, I, P.3 ss.; II, PP. 1-111 Passim; III, p.71 (S.V. Sema).

(18) Adriani, Repertorio, P. 235; F. El Fakharani, in Stmisc, 28, 1991, p. 21 ss.

(19) Mahmoud Bey el-Falaki, Mémoire sur l'antique Alexandrie, Copenhague 1872.

(20) Zenobius, III, 94.

(21) F. Noack, in AM, 25, 1900, P. 215 ss.; Adriani, Repertorio, PP. 23 ss., 73 (n. 27).

(22) Adriani, Repertorio, P.244.

(23) Searchs and excavations under the mosque of Naby Daniel : K. Michalowski, in Alexandria University, Bull. Of hte Fac. Of Arts, 12, 1958, p. 37 ss.; L.Dabrowski, ibid., 14, 1960. P.39 ss. See also. Breccia, Le Musé Gréco-Romain 1925-1931, Bergamo 1942, PP. 48-52.

3 ss., II, pp. 1-111 passim, III, p. 71 (s.v. sema); H.E. Tzalas, in Graeco-Arabica, V, 1993, p. 333 ss.

(5) Pausanias, I, VI, 23.

(6) Pausanias, I, VII, 2.

(7) Diodorus Siculus, XVIII, 28, 4 ss.; Strabo, XVII, 1, 8; Curtius Rufus, X, 10, 20; Pausanias, I,VI, 23 e I, VII, 2; IG, XII (5), p. 109, n. 444.

(8) Diodorus Siculus, XVIII, 28, 4; Strabo,XVII,1,8; Curtius Rufus, X, 10, 20; Pseudo Callisthenes, III, 34, 1.

(9) Pausanias, I, XVII,2.

(10) Strabo, XVII, 1, 6-8.

(11) Cfr. Adriani, Repertorio, pp. 242-245.

(12) Lucanus, Fars., VIII, 694 ss.; X, 19.

(13) Thiersch, in Jdl, 15, 1910, p. 55 ss.

(14) For many famous visitors (Augustus, Caligola, Septimius Severus, and Caracalla) : Suetonius, Aug., 18; Calig., 52; Flavius Josephus, contra Ap., II, 57; Dion Cassius, L1, 16; LXXV, 13; Herodian, IV, 8, 9; Suda, s.v. Antoninos. The destruction of sema comes before the second half of IV Cent. A.D. when St. JohnChrysostom claim in his Omelia, XXVI, 5: "Tell

FOOTNOTES

(1) N.Bonacàsa, in Giornatè di studio in on. di A. Adriani, Rome 26-27 nov. 1948 (stmisc, 28), Roma 1991, P.3 ss.; Id., in Alessandro Magno, storia e mito, (Catalogo Mostra Fond. Memmo), Roma 1995, PP 264 -266.

(2) A. Adriani, La Tomba di Alessandro : realtá, ipotesi, fantasie, Roma 1996 (in Printing).

(3) Adriani, Annuaire du Musé Gréco-Romain 1935-1939, Alexandrie 1940, pp. 15-23; Id., in EAA, I, 1958, pp. 213-214; Id., Repertorio d'arte dell 'Egitto greco-romano, Serie C, I-II, Palermo 1966, pp. 22 ss., 28 ss., 140 ss. (n. 89), 242 ss.; J. Fedak, Monumental YTombs of the Hellenistic Age, Toronto 1990, p. 129 ss. Inexplicably, the tomb is unkown (?) to R. Pagenstecher, Nekropolis, Leipzing 1919.

(4) Collected by A. Calderini, Dizionario dei nomi geograficie topografici dell 'Egitto greco-romano, I, 1, Cairo 1935, p. 149 ss.; Adriani, Repertorio, pp. 242 ss., 267 ss. See also, A. Bernard, Alexandrie la Grande, Paris 1966, p. 229 ss.; H. Thiersch, in Jdl, 15, 1910, p. 55 ss.; M.L. Bernhard, in RA, 47, 1956, p. 129 ss.; P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, Oxford 1972, I, p.

the site of the royal necropolis towards the eastern sector of the city and toward the royal quarters is, in conclusion - apart from what Strabo tells us - the existence of two Latin texts that recall a Procurator Neaspoleos et Mausolei (43). The association of the Neapolis and the Mausoleum in the functions of the procurator entitles us to argue that very probably there was a stong topographical relationship between the two sites, which may have been one of vicinity or even of identity (the Mausoleum would have been an important element of the Neapolis). If the Roman Neapolis is to be placed in the north-east sector of the city, it follows which is that of the Ptolemaic-age royal quarters and also that in which the alabaster chamber was located.

monument was in the area of the vast trapezoid peribolus bounded by a lofty wall several metres thick, made of rectangular blocks (41). This peribolus inevitably brings to mind the peribolus where Strabo claims the sema was located.

If the above observations confirm the Macedonian nature of the tomb in Alexandria, it is not equally certain that we can identify it as a surviving part of the sema, which brings us back to the question that we posed. This luxurious Alexandrine tomb could have been constructed for some other personage of the court of the Ptolemies, as some, including Poulsen (42), have thought. But the "topographical data" are here in our favour. The tomb is in the area of the Bassiléia. This is confirmed by elements that can refer only to the sema, i.e. to the location in an area of the city that can be identified with the tópos Alexándrous of Achilles Tatius near the crossroads of the two main streets L1/R1 and at the city centre, as can be inferred for the sema from the evidence of Zenobius, and also near the alleged site of the Dhu el-Karnayn mosque, the "Lord of the two horns", which very likely takes its name from Alexander.Further evidence that persuades us to seek

presence even in this tomb in Alexandria, a city where the taste for architectural facades was common in later hypogeal constructions. One need only consider the fine architectural facades of the Shatbi hypogea and numbers one and three of the Mustapha Pasha necropolis (39). This architectural facade, also in alabaster, was certainly of the Doric order, marked by pillars or columns, and surmounted by a tymapanum or attic. Contrary to Adriani's belief, it is likely that this facade was directly connected to the present-day alabaster chamber, without there being any need of a third room to the north. The reason for this is that typical Macedonian tombs consist of just two parts and that also, even when the vestibule has a flat covering, the burial chamber nearly always a vaulted roof. In our case, for the burial recess, we should therefore imagine an analogous construction, vaulted, constructed in blocks, stuccoed and painted internally to resemble alabaster (40).

The hypothsis alabaster-tomb / sema takes up strength from another impressive datum.

We mentioned that in the first brief announcement of the discovery Breccia reported that the

Macedonian tombs. There are a number of other traditional but consistent minor features common to Macedonian tombs and this construction in Alexandria : the use of a Doric framework for the access door to the burial chamber; the existence in the tomb at Alexandria of one of those two-leaf doors of which there are such beautiful examples in the "Macedonian" tombs. In our case the two parts of the door may also have been made of alabaster : in Macedonian hypogea, doors were mosty made of marble and sometimes of wood, with or without bronze fittings. It is probably no coincidence, but very likely due to observance of the traditional architectural design that we have suggested, that the reduced dimensions of the underground chambers also correspond to the Macedonian model (the chamber in Alexanderia measures 2.63 metres by 3.45, while the rooms in Macedonian tombs vestibules and burial chambers - measure some 2.00 metres by 3.40) (38).

None of the architectural elements surviving in Alexandria enables us to restore to the alabaster tomb any of the architectural facades that were frequent in Macedonian. But it is legitimate to hypothesize their

quite different from that of any other hypogeum in Alexandria, even among the most important - is in fact an element of the sema ?

Before giving a positive answer to this intriguing question we should first consider the relationship of the chamber to Macedonian-type tombs, a relationship which proves to be very close. Firstly, as regards the type of construction: like most Macedonian tombs, this chamber was constructed with blocks and was intended to be underground, i.e. not dug out of the rock, as was the case with Alexanderine hypogea. Secondly, there can be no doubt of the presence of a great tumulus of earth that completely covered the chamber that has been preserved as well as those that are no longer extant. The base of the tumulus was very likely provided with a crepidoma in masonry. The chamber was the midpoint between the burial recess proper and another room to the north. The dromos or access stairway, a customary feature in Macedonian, probably led to this other room. The burial chamber - quite small, about half the size of that still extant - must have contained the sumtuous royal funeral bed, which is a characteristic feature of

thickness of the blocks would seem to be related to the weight of the earth and the structures they were intended to support. The result is a hypogeum in the Macedonian tradition, quite unlike any of the Alexandrine open-court hypogea.

Breccia surmised that the chamber might be a surviving element of the Nemeseion (34), an edifice which Caesar caused to be constructed to house the head of the ill-starred Pompey, killed by order of Ptolemy, which had been presented to Caesar on his arrival in Egypt.

At first Adriani (35) accepted Breccia's hypothesis but later, on the basis of his long studies on Alexandrine topology, he changed his mind and eventually put forward a new and revolutionary hypothesis, which we share (36).

Is it not more plausible that this chamber - so exceptional as regards the quality of its material (in Alexandria, coloured marbles and alabasters were very frequently imitated in wall coverings, but were rarely conserved) (37) and the technique of its construction,

and more extensive - we have no means of knowing. This would appear substantially to be a reflection of the concept of Alexandrine underground chambers in "oikos" style, with their single-axis plan(32). The inmost chamber, to the south, would appear to be the burial chamber, very likely with a bed-sarcophagus, the royal kline; this must have been the most important room in the complex. Access to it was through a two-leaf door, Possibly made of alabaster with bronze fittings, the existence of which is testified by the two large hinge-cavities situated practically in the lintel of the architrave. A simple and elegant Doric-type framework (33), as we have said, surrounded the corridor externally. But what must have characterized this chamber tomb, distinguishing it form all others found in Alexandria, is not just the richness of the material used but also, and more particularly, its architectural design. Here we had a monument constructed and not dug out of the rock, and the outward rough appearance of the blocks clearly indicates that they were meant to be hidden from sight, almost certainly beneath a tumulus proper, in the manner of Macedonian-type tombs; while the extraordinary

of the monument was formed by a great monolithic alabaster block, and the floor was flanked by two rows of limestone blocks suppoering the side walls. The whole construction stood on a foundation consisting of a deep layer of earth and limestone blocks. The ceiling consisted of another monolithic block of alabaster (4.62 metres by 3.00 and 0.70 metres thick). The end wall was made of three blocks: one horizontal, forming the top of the corridor and including the upper part of the framework of the door, with two cavities on the flat ceiling, to the side, intended to bear bolts for the hinges of the leaves of a door; and two vertical blocks bearing the other horizontal covering block. The vertical elements of the door framework bad been created in these two blocks.

The chamber is the only surviving part, and certainly not the most important, of a complex of at least three rooms, which we can imagine located successively along the same axis, a complex with an ample double vestibule and an inner, more secluded chamber that must have constituted the main nucleus of the monument; but the whole building may have been richer

limestone blocks. Nor have we any trace or know what to make of the "ruins of a naos" which Breccia mentions together with the two "uprights" (of which today only one survives intact) and architrave of a door.

Adriani's trial excavations during the restoration work, in the narrow space available around the monument, did not reveal any conclusive evidence. He found pnly traces of a well and of a channels dug in the rock (31).

The monument consists of a simple rectangular flat-roofed chamber (2.62 metres by 3.45, and 2.70 metres in height),completely open to the north, with a deep corridor halfway along the south wall embellished by an elegant Doric-type relief framework (dimentions of the doorway: 0.93 metres by 2.05). The walls and ceiling are completely smooth, without any form of decoration - the beauty of the alabaster material enriched by the interplay of broad sinuous natural markings is sufficient in itself. Externally, the majestic blocks used to construct the chamber are roughly surfaced and cut in great irregular shapes, which must have been intended to be concealed from sight. The base

testimony and a series of indications that appear to corroborate the hypothesis.

The idea came to Adriani as he viewed the ruins of the sumptuous and most singular monument, mentioned at the beginning of this paper, which is the colossal tomb of pink alabaster. Discovered in 1907, it was long largely ignored. Breccia (29) mentioned it briefly but did not explore it. In 1936 Adriani restored it and established some order (30). The site is in the present-day New Latin Cemetery, on the eastern edge of the presumed area of the ancient royal quarters, not far from the wellknown Hellenistic Age eastern necropolis (Shatbi and Hadra sectors).

This is unique monument in Alexandria as regards the quality of the material used, the finest oriental alabaster, which must have given the complete building great elegance, considering also its architectural style. Unfortunately it is no longer possible for us to form an idea of the vast trapezoid peribolus in which we are told the monument stood when it was discovered and which, as Breccia wrote, was bounded by a high wall, now demolished, "several metres" thick, made of rectangular

may recall the fanciful thesis put forward in 1956 by M.L. Bernhard (28) regarding the outward appearance of the Macedon's tomb, based on the study of a type of Roman terracotta lamp with a sea-view of Alexandria. This would appear to show the sema on the coast, but Bernhard forgets that it is placed at the crossroads between the longitudinal L1 and the transversal R4, in the customary Kom el-Dick zone, i.e. inside the city. Moreover, we know direct from Strabo that the sema was not on the coast, and it would be ridiculous to suppose that the Kom el-Dick and the Nebi Daniel mosque wre shown overlooking the sea, in the coastal sector of the royal quarter.

More generally we can affirm that as things stand today, bearing in mind our knowledge of the ancient sources and archaelogical data, the alleged link between the Basileia and the sema situatedin the Kom el-Dick / Nebi Daniel area is topologically speaking an utter absurdity.

This is the moment to advance a new hypothesis, that of Adriani, which we fully support. This hypothesis is based on a concrete and convincing monumental

Alexandrine Greek, Joannides, claimed to have identified the tomb at Campo Cesare (Caesar's Field),an eastern suburb of the city. There was even a local scholar of some repute, T. Neroutsos Bey, who affirmed that beneath the Nebi Daniel mosque there were "caveaux funeraires paiens les plus magnifiques", dating hack to the Ptolemies. Another Alexandrine Greek, Stelic Kamutsos, claimed in 1960 to know the exact site of the tomb. And, to conclude, a man aged over a hundred, Mohamed Aly el-Toraby, stated that in his youth he had crossed the threshold of a long subterranean chamber which stretched beneath the area of the mosque and led to Alexander's tomb and that he was ready to reveal the site to the then Curator of the Graeco-Roman Museum, H. Riad (26).

But let us set aside these amateurish claims.

Much more worrying are the somewhat hasty statements of nearly all scholars of Alexanderine topography who firmly helieve that it is possihle to place the sema at Kom el-Dick. Very few deny this, but these include two authoritative scholars, M. Rodziewicz and F. El- Fakharani (27). To give just one example, we

Sandys; in the 18th century the site of the tomb and the sarcophagus (which is that of Nectanebus II) were identified in the church of St Athanasius, subequently the el-'Attarin mosque, mentioned by R. Pococke and explicitly, in 1774, by the Florentine D. Sestini; until the 19th century, when only Saint Genis (1829) failed to give the traditional attribution; but a few years before (1805) E.D. Clarke had devoted a learned mouograph to the monument, with the eye-catching title The Tomb of Alexander the Great; let us pass over Rhakotis and the ancient Serapeus, both indicated as the site of the tomb, an idea artfully reproposed after the second world war by Wace and Rowe, and before them, in naive good faith, by Hoghart. Towards the end of the nineteenth century it was widely held that the site of the royal tomb was at the foot of Kom ed-Dick, and more precisely beneath the Nebi Daniel mosque. This was universally asserted by nearly all scholars of Alexandrine topology, including Breccia. And the dream, for dream it is, still goes on today. In 1850, a certain Ambroise Schilizzi, a dragoman at the Russian Consulate in Alexandria, believed he had discovered the tomb in the underground chambers of the Nebi Daniel mosque. In 1893, an

Tarragona in 1993 and accepted by w. A. Daszewski in Paris in 1994. Still doubtful, in 1993, the opinion of Harry E. Tzalas, Nebi Daniel or north-eastern quarters of the city. (24)

At this point we should perhaps describe a number of sensational "discoveries" all more or less recent and all quite imaginary, regarding Alexander's Tomb. But we haven't the time.

We shall merely say that they renge from the date of AD 400, with the first appearance of the name of ed-Daymas, associated to "ed-Demas" and the Greek soma; to the placing of Alexander's tomb at the centre of the city and in the ed-Demas area, in the tenth century, by the writer El-Mas 'udi, the site allegedly corresponding to the mosque of Dhu el-Karnayn, recalled in the ninth century by another Arab writer, Ibn 'Abd-el Hakam (25); Dhu el-Karnayn the "Lord of the two horns", was the attribute which Alexander received as the son of Zeus Amon; to the allusion to the same building by the Granada Geographer leo Africanus (1517), the same building being recalled some decades later, in 1546 and 1610, by the travellers Marmol and

cannot ignore the identification of the great teansversal roa with RI on his mop : we possess no Other altemmative equally supported by archaeological data.

Now, let us return for a moment to tbe decisive testimony of Achilles Tatius, who in Imperial period placed the Alexandrou topos at the junction of the two great colonnaded longitudinal and transversal streets. The site indicated by Achilles Tatius is just a few stadia within the Gate of tbe Sun, and only the L1/R1 crossroads on el-Falaki's map satisfies this condition.

That being so, the site of the sema is probably to be sought towards the inner part of the area universally recognized as being that of the palace, in the south-east sector, not far from the L1/R1 crossroads.(22)

Notwithstanding, nearly all maps of Alexandria place the sema in the Kom el-Dick area, at the junction of L1 and R4, giving rise to great historical and topographical confusion between the centre of Hellenistic Alexandria and the centre of Roman Alexandria (23). So it is the map presented by Wolfram Hoepfner in Berlin in 1988, reproposed by Zsolt Kiss at

As Zenobius (of the period of Hadrian) places Ptolemy IV's mnema in the centre of the city (20), we are inclined to seek the site in a part of the palaceto the north of the great longitudinal L1, near one of the crossroads which the north- south sidestreets formed with it. The most important of these crossroads on el-Falaki,s map is situated where the great longitudinal L1 intersects the great transversal R1. The trial excavations carried out by Noack (21), although not absolutely confirming the dimensions and the particular characteristic of R1 which el-Falaki had attributed to it, did however confirm that its width and certain other characteristics indicated that it could be regarded as the main transversal road. As we shall see, those who place the site of the royal necropolis at Kom ed-Dick (and that means particularly all scholars of Alexandrine topograph) locate the city centre at the crossroads between LI and another transversal road, R4, which is considerably further west. This second crossroads may correspond to the centre of the Hellenistic city, which spreads less eastwards, but it does not correspond to the condition of being the crossroads of the two main streets of the Roman city. Whether We Like it or not, We

which would lend credibility to Zenobius' statement. The significance of Achilles Tatius' Alexandrou topos must be related to some building or monument which gave Alexander's name to the site, and this with utmost certainty must have been the sema.

We can rule out the stretch of the coast running from the Lochias headland to the Caesareum, because in that area Strabo's description does not include the royal necropolis. We must therefore direct our attention towards the inner part of the area bounded to the north by the coast and the Lochias headland, to the south by the great longitudinal L1 and to the east by the presumable limit of the Hellenistic city, at the level of the road known as R4 bis, which corresponds more or less to the presumed extension eastwards of the royal quarters (further on are the areas occupied by the necropolises of the Hellenistic period). The two streets are among those marked on the controversial but reliable map by Mohmoud el-Falaki (19). The city which this represents, as el-Falaki himself realized and as was subsequently confirmed, but in all probability it followed and extended the layout of the Hellenistic city.

Lake Mareotis emptied itself (18) - there is no mention of the sema,which would exclude its location by the sea. On the contrary the geographer enumerates the "inner" royal palaces, to the left of the Great Port, beyond the rocks and the Lochias headland, using particularly strong terms of admiration. These "anner" royal palaces must have been the noblest and most spacious part of the whole complex in the southen part, back of the coast, at the same time facing the northen part that stretched towards the sea. This explanation seems to me the most plausible.

The other two sources regarding the location of the sema, those of Zenobius and Achilles Tatius, provide us with further indication that enables to locate the sema with the further accuracy within the royal palaces. Zenobius, as we have seen, sets the sema in the centre of the city. However, Achilles Tatius' testimony regarding the Alexandrou topos places the sema at the junction of the two main streets. This crossroads, the beauty and elegance of which strike the imagination of the hero of Achilles Tatius' novel, the young Cleitophon, very likely corresponds to the city centre,

For this purpose, there are just three sources, regrettably not of equal clarity or certain interpretation: that of Strabo, who places the sema in the palace; that of Zenobius, who places it "in the middle of the city"; that of Achilles Tatius, who identifies a site known as Alexandrou topos, a few stadia within the Gate of the Sun (16). This site, which took its name from a monument related to Alexander, was in all probability the site of the Macedon's tomb.

According to Strabo, the palace was extremely large, covering an area corresponding to a third or a quarterof the whole city. In what part of it can we place the tomb ? Fraser (17) setsit without hesitation near the sea for the simple reason that the tomb was in the palace. But Strabo also points out that part of the royal palaces was occupied by the Museum, adding in conclusion that part of the royal palaces consisted of the socalled sema, a peribolus containing the tombs of Alexander and the kings. In the more detailed list of the buildings which Strabo then provides, along the coast from east to west, from the Lochias to the Caesarem and beyond, as far as the Kibotos - the little port into which the canal from

arrangement of the sema, and not the construction of a new mnema. Strabo's statement- if the interpretation of numerous scholars is, as I think, accurate - that the sema was in his day where Ptolemy I had placed it, rules out the possibility that the Philopator's mnema was something completely new, i.e. a new building where the mummy of Alexander was transferred. It would have been strange for Strabo to make no mention of this presumed new building erected by Ptolemy IV. This initiative by Ptolemy IV Philopator must have been either an extension or a rearrangement of the old sema, or, more likely, the construction of a monumental peribolus which united and isolated the sema proper and the tombs of the first Ptolemies, the Ptolemaion, possibly in a new architectural framwork in the complex of the palace building. The mausoles and the pyramides (mentioned by Lucan) of Ptolemy IV's successors may have been added in the same peribolus, or somewhere in the vicinity. (15)

How can we now reply to the third question that we posed, relative to the precise location of the sema?

I will now briefly describe, on the basis of the written records, the various stages of the construction of the royal necropolis at Alexandria.

Alexander's sema, i.e. his tomb and his sepulchre-temple, we first erected in the area of the palace. This tomb, although evidently of majestic dimensions, must have been in the shape of a Macedonian tomb, i.e. of an underground burial place with a kline, built up and not just dug out of the rock, and surmounted by a tumulus. This can be deduced, as already said, from Pausanias' phrase nomo ton Makedonon and from the repeated expressions in Lucan of antrum, exstructus mons, and tumulus.

The first Ptolemies may have been buried in the body of the sema, but certainly in seperate rooms from Alexander's funeral chamber, or in distinct but adjacent monuments. In either case, the clear distinction that was certainly made under Octavian between the tomb of Alexander and the Ptolemaion must go back to the ptolemaic age.(14)

Ptolemy IV must have faced the problem of a new

Let us now pass to the second question; relative to the topographical and architectural relationship between Alexander's tomb and that of the Ptolemies.

we can set aside the reconstructive hypotheses of Thiersch (13) - taken up by Breccia and Bernhard - regarding the presence in Alexandria of numerous royal funerary construction, all different as regards shape, location and function: from Alexander's original sepulchre-temple, built by Ptolemy I, untill the last of these isolated tombs, believed to be that of Antony and Cleopatra. All this is in open conflict with the concrete information of written tradition.

At the end of the first century BC, an eye-witness, Strabo, provides a definition of the sema that could not be clearer. The term sema, let us repeat, meant for a man of his time a peribolus which contained the tombs of Alexander and the Ptolemies. Except for Cleopatra's tombs - located separately, but certainly within the royal quarters, somewhere near the sea - we have no other reason to place the other burial places of the Ptolemies outside the "peribolus known as sema".

shape of Alexander's burial place ?; II) what is the topographical and architectural significance of the association of Alexander's tomb with those of the Ptolemies ?; III) where exactly in the city was the sema?

The first point I think can be answered with almost absolute certainty: The sema was great tumulus with underground chambers. This is the traditional type of Macedonian tomb, already temporarily adopted for the royal tomb at Memphis, and also chosen for the permanent tomb at Alexandria. This is proved, for Memphis, by Pausanias' already mentioned phrase: nomo ton Makedonon; for Alexandria, by a statement by Lucan (in his poem pharsalia), concerning the visit of Caesar, who effossum tumuli cupide descendit in antrum, and by another statement related to the exstructus mons of Lucan's other reference (12); and, finally, there is the fact that we see the term sema used by Herodotus in his description of the tomb of Aliaptes, at Sardis, to indicate a "tumulus" tomb. It is also significant that the tradition of the tumulus tomb, with a peribolus, was again taken up once again for the burial of Antony and Cleopatra.

time interval between the burial at Memphis and the move to Alexandria, scarcely favours the interpretation in favour of the second Ptolemy, which would require an interim period of at least forty years.

The surest and most explicit source regarding the Macedon's burial at Alexandria is Strabo (10), who in his precious description of the metropolis, which he visited between 24 and 20 BC, states that Alexander's sema Was part of the royal quarters and that it was a peribolus containing the tombs of the Kings (i.e. the ptolemies) and of Alexander. A little further on Strabo Says That ptolemy (by whom he meant ptolemy I) buried Alexander at Alexandria where he still lay in Strabo's own day, except that the King's remains were no Longer in original Golden coffin, ever since Ptolemy XI - Alexander I (107-88 BC) had replaced it with one of alabaster. Strabo's words, "where [Alexander's body] still lies", have been rightly interpreted by el-Falaki, Breccia, Calderini, Adrianaand other scholars in the most obvious way: "at Alexandria, in the same spot where it lies today" (11).

Further questions arise at this point: I) what was the

Perdiccas in Egypt.

Pausanias adds a further detail: according to him, Alexander was buried at Memphis nomo ton Makedonon. This expression most likely refers not just to the presence in Alexander's sepulchre of the traditional Macedonian funerary kline but also - and more importantly - to the tumulus - type architectural style of the tomb: the tumulus and funerary kline were traditional features of the Macedonian type of tomb, which boasted an ancient tradition and wide diffusion. Unknown in the Egyptian world, this type of burial, introduced by the Macedonians in Egypt to bury their king, was inevitably commented upon by Pausanias. Diodorus, Strabo, Curtius Rufus and the pseudo-Callisthenes (8) attribute the burial of Alexander at Alexandria to Ptolemy, son of Lagus, while Pausanias (9), speaking of Ptolemy II brother and husband of Arsinoe, says that it was he (and not Ptolemy I) who transferred Alexander,s remains from Memphis. A number of scholars tend to the opinion that Pausanias' version is the more reliable; hut the expression used by Curtius Rufus, paucis post annis, corresponding to the

distant oasis of Zeus Amon, where he had gone on a pilgrimage some ten tears previously during his Egyptian campaign, and where he had been proclaimed the son of the god.

The decision of the transfere to Egypt was taken only after bitter dispute at court. There is however no doubt that the Macedon's remains were in fact despatched to Egypt. After Perdiccas' overthrow and elemination, and following the exclusion of the oasis of Siwah, Ptolemy - considering the prestige and great political importance which possession of the royal remains would confer on the capital and on himself - ordered that the funeral cortege should proceed to Memphis, where he created for Alexander the first burial place of which we have certain news (6).

Although Diodorus and Strabo, our most important sources, say nothing of the burial place at Memphis, it certainly existed. Curtius Rufus and Pausanias agree on the point, and it is also confirmed by a precious fragment of the "Paros marble" (7), which for the date corresponding to 321-320 BC bears hoth the news of Alexander's burial at Memphis and that of the death of

of exceptional importance: the vast chamber consisting of six gigantic alabaster monoliths - an unicum in Alexandrine architecture- which occuppies a corner of the Latin Cemetery near the necropolis area of Shatbi east of Alexandria (3).

It may be that this important monument conceals the ruins of Alexander's tomb, and it is therefore necessary to make a critical survey of the ancient sources (4) in order to reply to a series of guestions: I) Was there a first tomb of Alexander at Memphis?; II) how are we to interpret Pausanias' declaration (5) that in this first tomb Alexander was buried noma ton Makedonon?; III) which of the two Ptolemies ordered the move from Memphis to Alexandria, Soter or Philadelphus?; IV) what was the correct denomination of the tomb, which in the written tradition alternates between sema and soma ?

At the age of just thirty-three, after a regin of thirteen years whicb had changed the face of the world, Alexander died suddenly on 13 June 323 BC. In Babylonia, by the king's order, it was established that his mortal remains shoud be buried at Siwah, in the

THE TOMB OF ALEXANDER - NEW EVIDENCES AND HYPOTHESES

Nicola Bonacasa

Two developments of great importance in Relation to the destiny of Alexandria have Occurred in The Last Two Years : The Alleged discovery of Alexander's Tomb at Siwah and The Hypothesis That underwater research east-north-east of Fort Qa'it Bay is revealing traces of the famous Pharos built by Sostratos of Cnidos.

With regard to Alexander's tomb, Iam rather sceptical of the discoveries at Siwah and prefer to followthe ancient written tradition according to which Alexandria is the final, amply documented, site of Alexander the Great's burial. (1)

My contribution today is based on the conclusions of a monograph by Achille Adriani which is about to be published for the first time by the Institute of Archaeology of Palermo University, through the courtesy of the General Direction of the Graeco-Roman Museum (2). This takes as its starting-point an element

History of the Jewish People, 3 vols. Tel-Aviv, 1969.

10- J.A. Montgomery, The Samaritans, New York, (1907) 1968.

6- H.N. Bialik - Y.H. Ravnitzky, sefer ha - Aggadah, Tel-Aviv, 1953

Secondary sources

1- Encyclopaedia Herbraica, Jerusalem, 1953.

2- Encyclopaedia Judaica, Jerusalem, 1972.

3- L. Finkeletein, The Jews, Their History, Culture and Religion, New York, (1949) 1960.

4- R.L. Fox, The Search for Alexander, London, 1980.

5- M. Grant, The Ancient Historians, (U.S.A. 1994), London, 1995.

7- N.G.L. Hammond, Alexander ha-Gadol be-Eretz Yisrael, in B.Bar Kochva, ha-Tequfa ha-Helenistic be-Eretz Yisrael, Tel-Aviv University, 1975.

8- Y. Klauzner, Historia shel ha-Sheni, (History of the Second Temple times) 5 vols., Jerusalem, 1952.

9- A. Malamat, H. Tadmor, M. Stern and S. Safrai,

To this one should add Alexander's interest in the heritage and cultures of the nations he conquered, which made him an enlighted ruler, who only resorted to power in case of opposition to his rule.

Concerning the question as to whether Alexander did visit Jerusalem or not, this will remain a historical enigma until more substantial evidence comes to light what no one doubts, however, is that Alexander and the jews on very good terms. The Jewish sources at least confirm this fact.

Bibliography

a. Primary sources

1- Talmud Bavli.

2- Talmud Yerushalmi.

3- Midrash Rabbah.

4- Josephus Flavius, The Antiquities of the Jews, (Hebrew translation- Tel-Aviv, 1937)

5- Josephus Flavius, The Jewish War, (Hebrew translation - Tel-Aviv, 1953)

defied by the "orthodox" Jews, caused the latter great concern. Hence, the Jews saw as their utmost priority putting an end to the attempts of the Samaritans to obtain permission to build a temple which would run into competition with the temple in Jerusalem, bearing in mind that the Samaritans's influence and their success in luring Jews to join them had jeopardized the orthodox's religious authority. Hence, developing and maintaining excellent ties with the new ruler were in the interest of the Jewish community.

b. Unlike the Samaritans who had betrayed their masters, the Persians, by joining forces with Alexander, though later they rebelled against the Macedonian governor of the area and were consequently punished severely by Alexander (Cf. Hammond, p. 130), the Jews loyalty to the Persian monarch, and their refusal to accept at first Alexander's authority, had certainly impressed the latter. He therefore decided to gain their support and loyalty in an honourable way rather than by force, though at first it seemed that he demanded their help and loyalty by threatening all the Jewish community (Cf. Hammond, p. 118).

Conclusions

As we have seen, Alexander's merits come out very well in the historical events and writings which concern the Jews of his time. Moreover, his amiable approach and consideration demonstrated towards then have aroused strong feelings of respect and admiration among the Jews for his personality. For even if some of the deeds ascribed to him do not always fall into line with historical facts, the myth surrounding his personality proves beyond doubt the place he had held in the hearts of the people. This may also he demonstrated by the fact that after Alexander's arrival in Palestine and his meetings with the Jewish leaders, all boys who were born that year were named after him.

Historians have often asked themselves how a nation such as the Jews who have always despised and hated their oppressors, and sometimes even rebelled against them, with the exception of a very few rulers who were respected by the Jews, could admire the conqueror Alexander so much. True, he had granted them special privileges, allowed them to continue to practise their religion without any disturbance, invited

them to join his army, granted them the right of settlement in Alexandria and favoured them "at the expense of" his relationship with the Samaritans. Yet, several other rulers did similar things for the Jews without enjoying such a prestigeous position in the community's heart and mind.

Moreover, since we have sufficient evidence which proves that a great deal of the information privided by the Jewish sources has deliberately been fabricated, or at least, exaggerated, [for example, many historians doubt whether Alexander did in fact visit Jerusalem or met with the Jewish leaders (Cf. M. Grant, p. 263), though some new evidence attest this event (Cf. A. Kasher pp. 19,22)], one should look for an explanation for the reason for the high esteem in which Alexander was held by the Jews of Palestine aud the Jewish community of Alexandria, by heeding two major historical facts:

a. the dispute with the Samaritans, who regarded themselves as Hebrews but not Jews (Cf. the Antiquities of the Jews, 11,8,6), over religious matters, and in particular their claim for the high priethood strongly

of Macedon, was a fool until came to the province of Carthage and learned sound counsel from women".

The Talmud (Tamid, 31-32) tells as about ten questions put by Alexander before the Jewish sages and their answers, which clearly impressed him. It also alludes to Alexander's greed, when he was at the gates of the Garden of Eden, where he was shown a skull which the eye in it weighed more than all his treasures, but when it was covered with sand it became light in weight.

Although the myths about Alexander began in his own lifetime they continued after his death for many generations. Moreover, as the stories have been retold in different languages various versions have reached us, which usually contain additional details, but which are not more then the fruit of the imagination. Thus we find overlapping versions in medieval literature both in Hebrew and other languages, such as Arabic, Persian and Latin, and laterin other European languages. Also the genres used include novels, short stories, poems and plays, in which Alexander's image was often comparable to that of a deity.

only the dunghill, while the vendor claimed that he sold the dunghill together with its contents. The king's judgement was that the first man's son should marry the second person's daughter and the treasure should go to the newly-wed couple. Alexander was astonished by the verdict, and when the king of kazia asked him what would have then been the verdict in Alexander's country, Alexander said : I would have slain both men and kept the treasure for myself. The king of kazia then commented sarcastically that if the rain descended and the sun shone in Alexander's country it was for the sake of the cattle they had, not for the people.

Midrash Rabbah (Leviticus, Emor, xxvll, 1) also relates a witty incident that gappened when Alexander, proceeding in his conquests, arrives called Carehage which was inhabited entirely by women. The women who came out to welcome him said: "if you fight us and kill us, your name will go down in history as a king who killed women, and if we fight you and kill you, your name will go down in history as king who was killed hy women". Alexander decided not to fight them, and when he left their city he wrote on its gate: "I Alexander

complementary to the legend recounted by other sources telling about Alexander's practice to fly over a golden eagle who was trained to ascend after it was given a piece of meat and descend whenever was given another piece of it. However, when one day the second piece of meat fell, while Alexander was in the air, he did not hesitate to cut a slice of flesh from his own body and offer it to the eagle.

Midrash Rabbah (Genesis, Noach, xxxlll and Leviticus, Emor, xxvll, 1) recounts two incidents which occurred during Alexande's visit to the country called kazia. In the first case Alexander was offered, upon tray. Alexander reacted angrily by saying that he did not need their gold. Then the king of kazia retorted: Had you then nothing to eat in your own country that you have come here?

in the second incident Alexander was present when two men appeared the king of kazia (according to the second source this incident took place in a province in Africa visited by Alexander). The first man told the king that he had bought a dunghill from the other person and found a treasure in it. The buyer argued that he bought

even Jews were not allowed to enter it. Alexander threatened him by saying that when they came out he would "straighten his hump", to which the man replied: "If you could do that you would be famed as a great surgeon and receive fat fees". Although this story does not tell us whether Alexander did in fact enter the Holy of Holies, it certainly suggests that Alexander was put off with this witty jest. (Cf. the English version of Midrash Rabbah, p. 547, fn.6).

Midrash Rabbah also tells us that Alexander blessed the God of the Jews and exalted righteous men (Leviticus, Shemini, XII, 5). Also the Jews of Alexandria, who were settled in the city by Alexander, were convinced that Alexander worshipped their God. They also welcomed his decision to move the bones of the prophet Jeremaih to Alexandria (Cf. Finkelstein, Vol. I,p. 91).

Relating to Alexander supernatural powers, Midrash Rabbah (Numbers, Naso, XIII, 14) tells us that when Alexander wished to ascend into the air, he used to rise higher and higher until he saw the world look like a ball and the sea like a dish. This story is probably

led a punitive expedition, heading towards Jerusalem leaders decided to beseech Alexander's forgiveness. They met him outside the city of Jerusalem, and when Alexander saw the delegation he dismounted from his horse and prostrated himself before the high priest, telling his surprised entourage that he had dreamed that the Jewish high priest had disclosed to him that he would beat the Persians. Alexander then entered the Jewish temple, offered a sacrifice and granted the Jews many privileges. The Samaritans, who heard the story, invited Alexander to their temple on Mount Gerizim, but Alexander turned down their invitation.

The Talmud (Yoma, 69a) brings the same story with only minor changes. Thus, it tells us that meeting between Alexander and the Jewish leaders took place in a different location, that is in Antipatris rather than Zofim; that Alexander's explanation of his gesture was that "the image of the high priest makes me win my battles" and that when the high priest told him that the Samaritans wanted the Jewisb temple to be destroyed, Alexander gave the Jews a free hand to punish them. An action which was carried out enthusiastically by the

Jews who attacked the Samaritans, tortured their leaders and destroyed their temple, and also declared the day as an official festival.

Jewish sources also emphasize the role played by Alexander as an arbitrator between the Jews and other nations. Thus, we find in Sanhedrin (p.91a) and in Midrash Rabbah (Genesis, Chayye Sarah, 61,7) that the Africans alleged ownership of Palestine, the Egyptians demanded from the Jews to pay them back for the gold and silver taken by the Israelites at the time of the exodus, and the Ishmaelites claimed partnership over Palestine, all bringing evidence for their claims from the Jewish Book of Law proper. However, their allegations were all challenged by the Jews. The purpose of the story is undoubtedly to indicate Alexander's support for the Jewish right over Palestine.

Another story in Midrash Rabbah (op. cit.) tells us that Alexander was warned by the Samaritans that the Jews would never allow him into their Holy of the Holies. So when he visited the temple in Jerusalem, he tried to enter the place but was politely refused permission by a hunchman Jew, who told the ruler that

Josephus works "the Antiquities of the Jews" and, to a lesser extent, his over works "the Jewish War" and "Against Apion" provide us with valuable information on the history and politics of the time, albeit not always reliable, while the Midrashim record a number of tales about Alexander, which are in fact popular legends containing some true historical facts.

Thus we are told by Josephus in his book "the Jewish war" (11;18;7) that Alexander had granted the Jews of Alexandria the right to settle in the city, which he himself had founded, and other rights equal to those of the Greek citizens. This was in recognition of their support to him during his war against the Egyptian rulers. Josephus also tells us in his book "the Antiquities of the Jews" (11,329ff) that the Samaritan leader, Sanballat, sought Alexander's' permission to build a Samaritan temple on Mount Gerizim and to have his son-in-law ordained as high priest. Alexander acceded to this request and also ordered the Jewish community in Jerusalem to accept his authority. However, when the Jews refused to obey him because they had sworn the oath of allegiance to the Persion monarch, Alexander

thus ensuring the isolation of his main enemy. He also knew that some of the subjects of the Persians were enjoying certain privileges granted to them by their masters. Hence, if he wished to gain their support he should at least match these privileges and offer the peoples more attractive rights, in order to "keep them happy", while he was leading his army against Persia, and later, India.

The jews who were grateful to the Persians for allowing them to retum to Palestine were but one example of the nations who were loyal to Persis and whose loyalty was challenged by Alexander. Alexander's conquest of Palestine in 332 B.C. was relatively easy, since, apart from the seiges of Tyre and Gaza, his troops had faced little resistance by the local inhabitants.

The Jewish sources

Jewish sources which refer to Alexander may be divided into two main categories :

The historical works of Josephus and the Talmud and Midrash.

Persians, to establish a new policy of "a chain of allied settlements", instead of the Babylonian practice of "expel and rule" of subject peoples. The Jewish new comers had tried to revive their nationalistic entity in Palestine with the blessing and aid of the Persian monarchs Xerxes and Darius. However, in spite of the great enthusiasm of the immigrants and the relatively stable economic conditions the friction between them and the friction between them and the Samaritans had caused the Jews a great deal of anxiety, especially that the Samaritans were determined to establish their own temple of worship, thus creating a strong competition with the Jewish temple in Jerusalem. It should be borne in mind that this competition had begun during the absence of the Jewish elite, when the Samaritans, who were not expelled to Babylon, supplied the religious needs and social framework for the Jewish minority who were not expelled by the Babylonians and the Assyrians, and who were mainly the poor and needy.

Being not only a silkful strategist but also a brilliant politication, Alexander realized that in order to defeat the Persians he should first neutralize their allies,

Alexander the Great in the Jewish Sources

Avihai Shivtiel
Leeds University
Great Britain

Introduction

Alexander the Great (356-323 B.C.), had become a legend in his own lifetime thanks to his remarkable achievements accomplished within just over a decade: sweeping victories over the Greeks, the Phonecians, the Egyptians, the Persians and their allies, ruling nations with absolute authority without overruling them and overriding their views and aspirations and establishing a global "realpolitik" which inspired many of his successors, though often stood in constrast with his naive idea to unite the ancient world, under his rule.

The Jewish community in Palestine at the time of Alexander consisted mainly of Jewish emigrants from Babylon, who returned to the country in a few waves of immigration between 538 and 428 B.C. after several decades in exile. This political move became possible soon after the collapse of the Babylonian and Assyrian empires and the attempt made by their successors, the